فريق
متميزون
E-BOOK

وَطَنٌ من كلِمَات

رحلة لاجئ من المخيّم إلى الصفحة الأولى

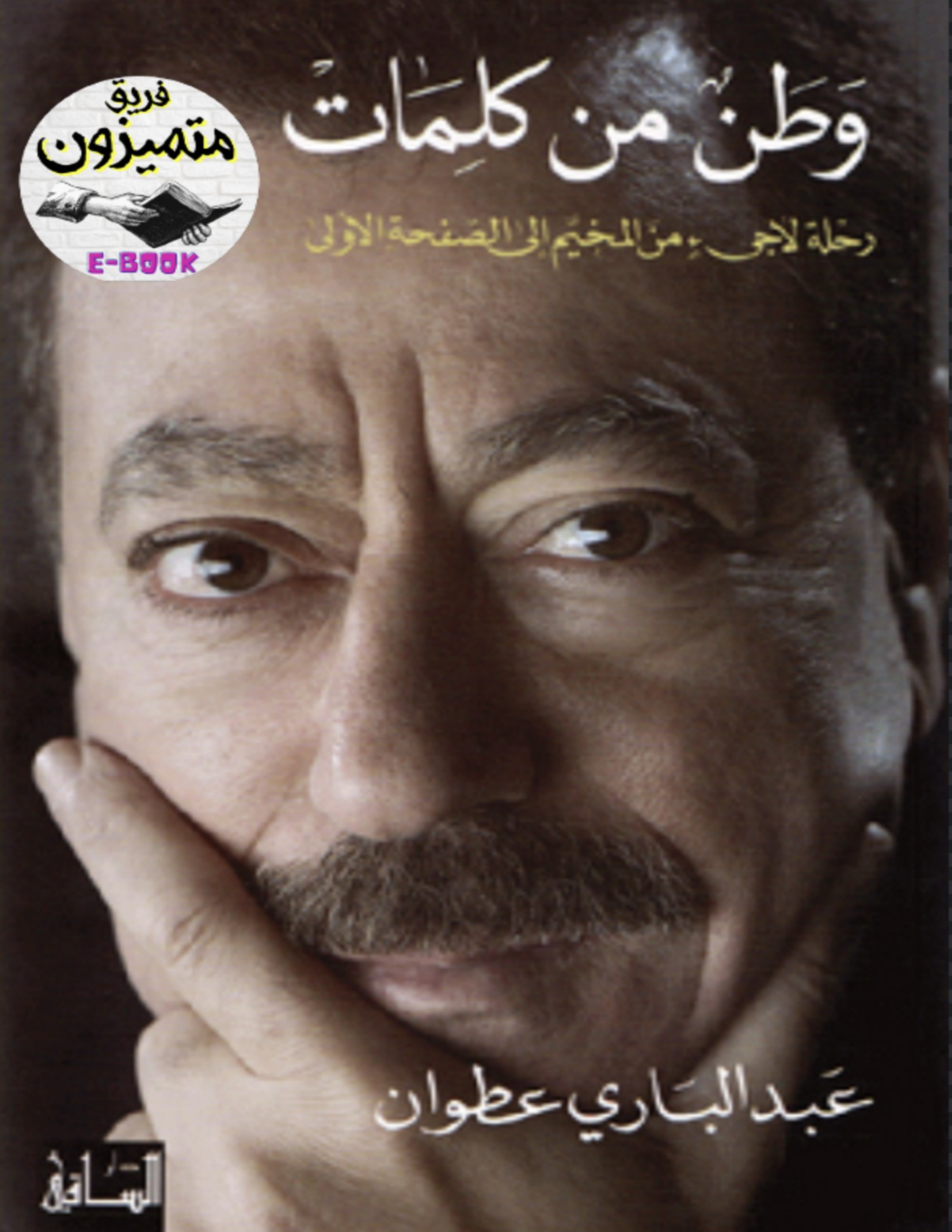

عبد الباري عطوان

دار الساقي

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق (متميزون) انضم الى الجروب

انضم الى القناة

وطن من كلمات

رحلة لاجئ.. من المخيّم الى الصفحة الأولى

عبد الباري عطوان

عن الكتاب..

هذا الكتاب مُجازٌ لمتعتك الشخصية فقط. لا يمكن إعادة بيعه أو إعطاؤه لأشخاصٍ آخرين. إذا كنت مهتمّاً بمشاركة هذا الكتاب مع شخصٍ آخر، فالرجاء شراء نسخة إضافيّة لكل شخص. وإذا كنتَ تقرأ هذا الكتاب ولم تشتره، أو إذا لم يُشترَ لاستخدامك الشخصي، فالرجاء شراء نسختك الخاصّة. شكراً لك لاحترامك عمل المؤلّف الشاق.
قلّة هم الأشخاص الذين تعكس حياتهم أحداث زمانهم كما هي الحال مع عبد الباري عطوان. فهذا الفلسطيني الذي ولد في مخيّم للاجئين في غزّة عام 1950، غادره في السابعة عشرة من عمره ليغدو منذ ذلك الحين واحداً من أهم الكتاب والخبراء والمعلّقين في قضايا الشرق الأوسط.

في سيرته هذه يسرد المؤلّف تفاصيل رحلته الاستثنائية بشيء من روح الدعابة وكثير من الصدق. يصوّر عطوان فظاعة المجازر المرعبة التي ارتكبت في المخيّمات، والنتائج غير المتوقّعة للتدخّل البريطاني في المنطقة.

بعد شظف العيش والمعاناة ومحنة التشريد، وابتداء تغريبته الفلسطينية مع الكلمة والجغرافيا، من فلسطين إلى الأردن ومصر وليبيا والسعودية وانتهاءً ببريطانيا، يتحدّث المؤلف عن الصدمة الثقافية التي رافقت انتقاله إلى لندن في سبعينيات القرن الماضي، كما يحكي قصة اصطحابه ابنه وابنته المولودين في بريطانيا للتعرّف إلى عائلته التي ما تزال تعيش في مخيّم بائس في قطاع غزة.

كذلك يروي عطوان تفاصيل لقاءاته الاستثنائية مع شخصيات عالمية، بما في ذلك تناوله الشاي مع مارغريت ثاتشر، وعطلة نهاية الأسبوع التي قضاها في كهف أسامة بن لادن، وحواراته المعمّقة مع ياسر عرفات، فضلاً عن الشجار الذي نشب بين العقيد معمر القذافي وشاه إيران والذي شكّل خلفية سبقه الصحافي الأول، ولقائه المثير مع رفيق الحريري، ورسالة جمال عبد الناصر المفاجئة إليه التي كانت البذرة التي أسّست لرغبته بالكتابة والعمل في الصحافة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قيل في الكتاب

«تجمع هذه المذكرات الآسرة التحليل العميق إلى جرعة مقبولة من الشخصي... إنه راو ماهر». تريبيون ماغازين

ꝏ ꝏ ꝏ ꝏ ꝏ

الإهداء

إلى أطفال المخيَّمات في كل أنحاء العالم

وخصوصاً أولئك الذين يعيشون في مخيَّمات فلسطين والشتات

لَنَا بَلَدٌ من كَلام

تَكَلَّمْ تَكَلَّمْ لأُسْنِدَ دَرْبي عَلَى حَجَرٍ مِنْ حَجَرْ

لَنَا بَلَدٌ من كَلام

تَكَلِّمْ تَكلَّمْ لِنَعْرفَ حَدّاً لِهذَا السَّفَرْ!

محمود درويش، 1984

مقدمة الطبعة العربية

تساءل كثيرون عن أسباب صدور الطبعة الأولى من هذا الكتاب باللغة الإنكليزية لا العربية، خصوصاً أن مؤلفه يتحدث عن ذكرياته ورحلته الصحافية والمهنية في الدول العربية؛ هذا التساؤل في محله، وأصحابه محقُّون في طرحه، لكن ما لا يعرفه هؤلاء أن اختياري إصداره باللغة الإنكليزية أولاً جاء بهدف الوصول إلى عشرات الملايين من الناطقين باللغة الإنكليزية، سواء كانوا من الغربيين أو من أبناء العالم الثالث، أو من ملايين العرب والمسلمين الذين يقيمون في أوروبا وأميركا وأجزاء عديدة من العالم.

أردت أن أقدم إلى هؤلاء جميعاً تجربة إنسان فلسطيني مشرد ينتمي إلى القاع العربي، حيث نبتت بذرته وتعمقت جذوره. تجربة لاجئ استطاع أن يشق طريقه وسط صخور المعاناة بصلابة وتحمُّل ومثابرة في عالم السياسة والصحافة والفكر، متجاوزاً عقبات عديدة، ومحارباً على أكثر من جبهة في مواجهة أعداء شرسين لا يريدون لكلمة الحق أن تُنطق أو تصل إلى الناس جمعاً أو إلى أكثرهم.

هذا الإنسان قاتلَ من أجل لقمة العيش أولاً، وقهرِ الفقر والتمييز ثانياً، في مواجهة أباطرة الكذب والتضليل من حكام عرب مضللين فاسدين قمعيين، ولوبيات يهودية إسرائيلية تفننت في أعمال التزوير ولَيِّ عنق الحقائق وبث الأكاذيب والأباطيل.

مواقع النزال كثيرة ومتعددة، بعضها على صفحات الصحف والمجلات، والبعض الآخر على شاشات التلفزة العربية والأجنبية، والثالث في قاعات المحاضرات الرئيسية في الجامعات والمعاهد الغربية والمؤتمرات السياسية المتعلقة بالمنطقة وشؤونها.

هذه المعارك تركت، من دون أدنى شك، الكثير من الندوب لجروح جفَّت، في جسد منهك، أكثرها إيلاماً تلك التي جاءت من طعنات بعض الأنظمة العربية الديكتاتورية الفاسدة وإعلامها الحاقد، لكنها لم توقف مسيرتي، ولم تُحِدها عن هدفها الأساسي، فقد كنت، ولا أزال، وسأظل واقفاً في خندق هذه الأمة وعقيدتها، أدافع عن قضاياها، وأنحاز لفقرائها وأنتصر لضعفائها، وأتصدى لكل المؤامرات التي تستهدفها مهما كان الثمن باهظاً.

حاولت في هذا الكتاب أن أسجِّل جزءاً من الذاكرة العربية، وأوثِّق بالذات التجربة أو الشق الفلسطيني منها، بأكبر قدر ممكن من التفاصيل، خصوصاً تلك المتعلقة بمخيمات اللجوء، وطبيعة الحياة فيها بحلوها ومرِّها، والعلاقات

بين مكوناتها البشرية والاجتماعية؛ فالمخيم بالنسبة إليَّ كان الأكاديمية الأهم في حياتي، فقد عشت، بين ثناياه وأزقته الضيقة وتجارب أهله البسطاء الطيبين، معنى الوطنية والصمود والمقاومة والجلد والتحمُّل بالطرق كافة.

كان المخيم بالنسبة إليَّ نسيجاً اجتماعياً وسياسياً نابضاً بالحياة، ورمزاً للكبرياء، وصرحاً للكرامة وعزة النفس، أحببت كل من فيه، وما فيه، أحببت صُمَّه وبكمَه، أحببت مجاذيبه مثلما أحببت حكماءه، شبابه وعجائزه، غوانيه اللعوبات وصباياه المؤمنات الصابرات العفيفات، فهؤلاء جميعاً كانوا يمثلون لوحة رائعة متعددة الألوان والظلال، وهنا تكمن بواطن التفرُّد والإعجاز.

كان هذا المخيم جمهورية أفلاطون الفاضلة، العدالة فيه تتحقق بالمساواة بين الجميع؛ فالجميع فقراء يعيشون من معونات «وكالة الغوث» التابعة للأمم المتحدة ويتعلمون في مدارسها، ويلعبون في الأزقة بكُرات بالية ممزقة، وملابس مرقَّعة، حفاة في معظم الأحيان، إذا حلَّت الإنفلونزا ضيفة على المخيم تسللت فيروساتها إلى أجساد الجميع، وإذا بدأ البرد وجدتَ الجميع يعطسون في الوقت نفسه، وإذا حلَّ موسم سمك السردين وجدتَ رائحته تصعد إلى أعمدة السماء من كل بيت من دون استثناء.

لا أزال أحنُّ إلى كل شجرة تين على حافات المخيم، وإلى كل شجرة نخل تصعد بشموخ إلى عنان السماء في محيط مسقط رأسي بلدة دير البلح وسط قطاع غزة، وأتذكر كل ثمرة أقطفها خلسة من وراء ظهر الناطور، من هذا الحقل أو الكرم أو ذاك، وأنا في طريقي إلى المدرسة.

أحببت صبايا المخيم حيث عشت الفصل الأول من مراهقتي الأولى، أحببتهن وهن في مرحلة التكوين التي تسبق فورة النضج، أو طفلات صغيرات يتعلمن معنى الحياة ويحاولن فكَّ ألغازها... أُعجبت دائماً بصبيان المخيم وأحاديثهم الدائمة عن البطولة والفداء والشهادة من أجل الوطن.

غادرت المخيم وأنا في السابعة عشرة من عمري، بحثاً عن تجربة جديدة، وسعياً للعلم في مدينة صاخبة رأسمالية لا ترحم، الصراع فيها من أجل البقاء، وحيث لقمة العيش ليست وحدها القاسم المشترك بين الجميع.

لقد جمعت بين الحسنَين، الفقر والانتماء، إلى أسرة ريفية الجذور قبل النكبة، ولذلك كانت عملية التأقلم في هذه المدينة الصاخبة صعبة وقاسية، وأنا صاحب الجسد النحيل الذي يعاني من فقر دم مزمن بسبب سوء التغذية، والشعر الأشعث الذي تعجز الأمشاط عن اختراقه لكثافته وجفافه، وكان لا بد من البحث عن عمل يسد الرمق ويوفِّر بضعة قروش لأسرة جائعة في الضفة الأخرى تعيش تحت احتلال غاشم.

في هذا الكتاب، تحدثت عن رحلتي مع العمل الشاق في مصنع، أو كسائق حافلة قمامة، أو مسجلاً لبزوغ نجم المقاومة. تحدثت عن الانتقال إلى قاهرة المعز والمرحلة الأهم والأخطر في تاريخها مرحلة الانتقال من العهد الناصري القومي المواجه للاستعمار إلى العهد «الساداتي» المستسلم تحت مسميات الواقعية والسلام.

ثم انتقلتُ إلى ليبيا ومنها إلى السعودية، ثم إلى لندن، حيث وقعت مفارقات عجيبة غريبة، بعضها مؤلم في وقائعه وأحداثه، والبعض الآخر كوميديا واقعية حقيقية تبعث على الضحك، إذ أدَّى صدام الحضارات والثقافات إلى مقالب وفصول غريبة.

كانت السياسة حاضرة في الكثير من الفصول لكنها لم تكن العنصر الطاغي، على أهميتها، في حياة شخص مثلي، وإن كنت أؤمن بأن كل المحطات التي مررت بها في حياتي العملية، على غرابتها، كانت محطات سياسية وإن اتخذت طابعاً اجتماعياً أو ثقافياً.

عندما صدر هذا الكتاب بطبعته الإنكليزية، تسابقت سفارات عربية لشراء نسخ منه، ليس من أجل قراءته، أو حباً بمؤلفه، بل لاعتقاد راسخ لدى سادتها بأنه سيتضمن الكثير من الأسرار أو الفضائح التي تتعلق ببعض الحكام أو الأسر الحاكمة، أو المساومات العديدة التي وقعت أثناء الأزمات لشراء ذمتي، وخصوصاً أثناء الحرب الخليجية الثانية، أي غزو القوات العراقية الكويت.

أحب أن أؤكد أنني لست ساعياً لنشر فضائح أو تصفية حسابات، فهذا ليس من طبعي ولا هو من تكويني، ولن أردَّ على كل من تطاولوا عليَّ بأساليبهم ووسائلهم، لأن كل ما يهمني تقديم صورة حقيقية عن تجربة وذاكرة عربية فلسطينية يريد الإسرائيليون مسحها أو منع وصولها للأجيال القادمة.

أعترف بأنني لم أذكر كل شيء في هذا الكتاب، وتجنبت مواقف عديدة. ليس خوفاً أو جبناً، وإنما من قبيل الحرص وحفظ الأسرار، فالمجالس أمانات، لكن هذا لا يعني أنني، إذا كتب الله لي العمر، لن أسجل أو أوثِّق بعض الأمور والوقائع التي قد يستفيد منها المؤرخون لهذه المرحلة، وبعض الفصول والوقائع السياسية والإعلامية التي كنت لاعباً فيها أو شاهداً على بعض جوانبها.

أحسد الكتَّاب الغربيين على مساحة الحرية التي يتمتعون بها عندما يكتبون مذكراتهم الشخصية بحيث لا يترددون عن كتابة كل شيء من دون خجل أو تردد، وخطاياهم قبل فضائلهم، فلا يوجد إنسان كامل من دون أخطاء أو خطايا، ولكن في حالتنا العربية، وفي عمليات الاستقطاب السياسي

والطائفي، وحرص البعض على تصيُّد الأخطاء وتضخيمها، تبدو مهمة الكاتب العربي صعبة لأنه يسير دائماً في حقل ألغام. فالزوجة تراقب والابنة تراقب، والابن يقرأ ما بين السطور، وبعض المغرضين يتطلعون إلى صيد ثمين وهكذا، وفي نهاية المطاف فإن هذا قدري ومن يركب البحر لا يخشَ من الغرق.

لم أخطط في أي يوم من الأيام لأكون بطلاً أو زعيماً سياسياً، كل ما طمحت إليه في حياتي هو أن أشبع لقمة الخبز، وأن أعيش مستوراً وأموت مستوراً، ولو سُئلت قبل خمسين عاماً عن أمنياتي لما ذكرت واحداً من ألف مما حققته من محبة في قلوب الناس البسطاء الطيبين، وهم رصيدي الحقيقي الذي أحب وبه أعتز.

ختاماً، أتقدم بالشكر الجزيل إلى الزميل الصديق والناقد الأدبي حسام الدين محمد الذي بذل جهداً كبيراً في «تعريب» هذا الكتاب، ولا أقول ترجمته، فقد لعب دوراً كبيراً، بل الأكبر، في تحريره وخروجه بهذا الشكل الذي آمل أن يلقى إعجابكم وتقديركم. كان الأستاذ حسام العون والناصح والناقد طوال فترة الإعداد هذه.

في الطبعة العربية أضفت العديد من المواقف والفصول والشروح، ووسَّعت بعض الفصول لسرد وقائع وظروف ربما لم يكن مناسباً في نظري ذكرها في الطبعة الإنكليزية، لإضافة نكهة عربية أصيلة أعتقد أنها ربما ترضي فضول القارئ وتزيد من متعة القراءة.

ولا بد في هذه العجالة من شكر دار الساقي التي لولا تشجيعها، وهمَّة الأستاذ أندريه كسبار مديرها العام، على وجه الخصوص، المحرِّض الأول على كتابة هذا الكتاب وبعد ذلك ترجمته وإصداره باللغة العربية، لما كان بين أيديكم الآن.

عبد الباري عطوان

لندن 17/6/2011

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

1. مشينا على الأشواك

في فلسطين، فترة أربعين يوماً تبدأ من أواخر كانون الأول/ديسمبر تكون فيها الليالي طويلة ثلجية باردة، ولا يغامر أحد خلالها بالخروج من منزله. ذكرياتي الأولى يغمرها ذلك الظلام الشتوي، في مخيم دير البلح للّاجئين في قطاع غزة. كنا نحن الأطفال معتادين على الجلوس على الأرض متحلِّقين حول النار، مقتربين بعضنا من بعض بحثاً عن الدفء، فيما تضيء قطع الحطب المتوهجة وجوهنا وتسرد لنا أمُّنا حكاياتها.

كان سقفنا مصنوعاً من الأغصان والقضبان الخشبية، وكانت حيطاننا من طين، غير أن ذلك البيت كان فاخراً مقارنة بالخيمة التي أعطتنا إياها الأمم المتحدة.

كانت أمي، ظريفة عطوان، أمية، لكنها مثل معظم النساء من جيلها، كانت تحفظ مئات الحكايا عن ظهر قلب. بعضها كانت حكايات شعبية تقليدية، والبعض الآخر كان من نسج خيالها، وربما كانت هي أول معلمة لي في عالم الكتابة، وكانت كل حكاياتها غنية بالتفاصيل ودقة الملاحظة. ولطالما أرعبتنا أمي بحكايات الأشباح والجن وغذت خيالاتنا بالأساطير الغريبة والمخلوقات الخرافية التي تقوم باختراعها. كانت قصصاً من ماضيها، ورغم ذلك، فقد أثرت فينا بعمق. لقد أحببنا خصوصاً قصصها عن أسدود، تلك القرية الصغيرة على البحر المتوسط التي عاشت فيها مع أبي حتى حلول «النكبة»، الكارثة التي حاقت بالشعب الفلسطيني عام 1948.

في تلك الأيام كانت بلدة أسدود موطنا لأقل من 5000 فلسطيني. تحت الاحتلال الإسرائيلي، سُمِّيت أشدود، وأصبحت من أكبر موانئ الإسرائيليين البحرية، حيث بلغ عدد سكانها 204 آلاف شخص.

كثيراً ما حدثتنا والدتي عن الحياة المثالية التي تمتعت بها هي ووالدي هناك، وعن الأراضي الزراعية التي كانت ملكاً للأسرة لأجيال. كنا نعرف كل تفاصيل المنزل: السجاجيد الملونة والمراتب على الأرض، وباحة البيت الظليلة التي كانت مركزاً للحياة العائلية، والتي تقاسمها سكان البيت مع الخراف والدجاج والبط.

جعلت أمي كل هذا يبدو حلماً رائعاً، لا تفتأ تزوره بعينَي خيالها فيما تحدق في التماعات النار «كانت هناك فواكه تنمو في فناء البيت»، كانت تحدثنا. «كان يمكننا التقاط التين وأكله مباشرة من الشجر». وكنا نعرف ما ستقوله بعد ذلك فكنا نبادرها قائلين: «وماذا عن التوت، يمَّه؟» فتخبرنا أمنا عن التوت!

«لم تروا في حياتكم مثل ذلك التوت!» كانت عيناها تتسعان كما لو كانت ترى أشجار التوت تلك من جديد. «كنا ننتظر حتى المساء عندما كانت الحبات توشك على الانفجار لنلتقطها ونأكلها عن آخرها»، كانت تمثل بشكل إيمائي طريقة التقاط الحبات ووضعها في فمها، الأمر الذي كان يجعلنا نضحك. «لذيذ!». كانت تتنهد بحسرة، «لكن كل ذلك ذهب الآن...». تتنهد فيما ابتسامتها تتلاشى ونحن نتذمر بصخب مطالبين بلمحة أخرى من تلك الجنة المفقودة. كانت تخبرنا آنذاك عن أيام لم يكن الناس يستخدمون فيها نقوداً لأنه لم يكن هناك حاجة للمال. «قريتنا كانت تنتج القمح والفاصوليا والبامية التي كنا نرزمها في خيطان حتى تجف. كنا نخزِّن ما نحتاجه لفصل الشتاء، وأي شيء يبقى كنا نقايضه أو نبادله. لم نكن نزرع الزيتون لأن الأرض لم تكن جافة كفاية لأنها قريبة من البحر، لكن التجار اعتادوا القدوم من نابلس وطولكرم ليقايضوا زيت الزيتون بالحبوب. كان زمناً «عالبساطة»، لم يعلمنا أهلنا وقتها أن نخاف من الغرباء.

إذا مر غرباء بالقرية كان الرجال يستضيفونهم في مضافة تملكها أثرى عائلة في القرية، وكانت المنامة والطعام يقدمان مجاناً. لو أراد بعضهم البقاء، كان المجتمع القبلي التقليدي يستوعبهم. كانت القرى والمدن الفلسطينية تحتوي عدداً من الحمائل وكان لكل حمولة منطقتها. القادمون الجدد، حسب ما قالته أمي، كان يجري «توزيعهم بالتساوي» بين الحمائل، فلا أحد يريد أن تفوته استضافة الغريب. وعندما كان يتم استيعاب عائلة قادمة، تصبح تحت حماية الحمولة وتتمتع بكامل حقوق المواطنة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الاحتلال

بدأت الهجرة اليهودية إلى فلسطين عام 1882 بعد تأسيس الحركة الصهيونية في أوروبا وكنتيجة لحملات القمع في روسيا في السنة اللاحقة. قليل من القرويين الفلسطينيين، في ذلك الوقت، من كان يشكُّ في أن أولئك الغرباء الهاربين من الاضطهاد في الغرب سيصبحون أعداءهم الألداء. ولذلك، بالتأكيد، رحَّبوا بهم وقاموا بتقديم الضيافة التي يمنحها العرب لكل من يزورهم. في العشرينات والثلاثينات من القرن العشرين ازداد عدد المستوطنين اليهود نتيجة الموجة «اللاساميَّة» الصاعدة آنذاك في أوروبا، وبدأت المنظمات الصهيونية بشراء الأراضي الفلسطينية. الشركات العقارية اليهودية الرئيسية، والتي تكشف أسماؤها الكثير، كانت: «منظمة فلسطين للاستيطان اليهودي» PICA، وشركة فلسطين لتنمية الأراضي، والصندوق القومي اليهودي.

أكثر من 50 بالمئة من الأراضي التي استوطنها اليهود كانت لأصحاب ملك غائبين، بحيث جرى إحلال مستوطنين أوربيين يهود مكان مستأجري الأرض العرب. ملاك الأرض الكبار الآخرون، كالكنائس والشركات الأجنبية، كان يُحفَّزون على بيع الأراضي مقابل أرباح وفيرة، من دون أي تفكير بالعواقب السياسية والجغرافية لهذه الصفقات.

سعت هذه المنظمات لشراء أراضٍ من ملاك الأرض الصغار المحليين أيضاً، ومن بينهم جدِّي الذي كانت لديه ًقطعة أرض على البحر تجاور مستوطنة يهودية. رفض جدِّي ذلك، وأخبرني والدي أن أباه خطب في جيرانه متحدثاً عن مخاطر بيع الأرض التي كانت المصدر الوحيد للعيش. مع نهاية الحرب العالمية، وقعت فلسطين تحت الانتداب البريطاني نتيجة مؤتمر سان ريمو عام 1920، وظلت تحت الوطأة الثقيلة للإدارة البريطانية حتى 1948، وهي وضعية خلقت الكثير من الأسى والمرارة، ما أدَّى لعدد من الانتفاضات. كما أن الانتداب خلق ظروفاً جديدة أدت لتوافر فرص عمل. عام 1940، كان والدي، المتزوج حديثاً، قد أغرته مشاريع عقارية جديدة في ثكنات الجيش البريطاني لترك أرض أهله ومبادئهم التي تُعلي شأن العمل في الأرض، إذ كان عملُ يوم واحد في الثكنات يعادل شهر عمل كاملاً في الأرض. أغفل والدي إخبار جدي بهذا الأمر، لكنه عندما عاد بعد أسبوع، كان جدي واقفاً بوجهه حاملاً فأساً. «إذا عدتَ للعمل مع البريطانيين سوف أقتلك»، صرخ جدي فيه. «تخيَّل العار الذي سنجلبه على أنفسنا لو ضحَّينا بكرامتنا من أجل بعض النقود. تخيَّل الخيانة لمستقبل أجيالنا إذا تخلينا عن الأرض التي نحب. سيجعلنا هذا لقمة سائغة للصهاينة». استجاب والدي لرأي أبيه، وغالباً ما كان

يخبرنا القصة، وكلما واجهتُ إغراءً يدفعني للمساومة على قناعاتي للحصول على الأمان، أكان ذلك مالياً أم غيره، كنت أتذكر هذه القصة.

كانت والدتي تتذكر خلال تلك الأيام الباردة حول النار في مخيم اللاجئين كيف توسعت عائلة والدي في ظل عيشها البهيج على ساحل البحر المتوسط.

شرحت لنا أمي كيف كان الناس يعملون بجد:

«حالما كنت أستيقظ، كنت أذهب لتنظيف المكان تحت الأبقار، حاملة «الجلة» (روث البقر) لتسميد الأرض. لا شيء كان يذهب سدى. بعد ذلك، كنت أعود إلى المنزل، أوقظ الأطفال – كانوا أربعة في ذاك الحين – وأحضِّر لهم الفطور. الأكبر سناً يذهبون إلى المدرسة وأنا أذهب إلى الحقل مع والدكم للمساعدة في إزالة الأعشاب الضارة، أو في الحصاد، بحسب متطلبات الموسم. كنا نحن النساء قد اعتدنا على إصطحاب الأطفال الأصغر سناً، وكنا نضع الرضَّع في حاملات من القماش نعلِّقها بغصن أو مسمار في الحائط. عند الغداء كنت أطبخ للجميع، وهكذا كانت الحال، من الفجر إلى الغروب، كل يوم، حيث تساعد النساء بدرس الحنطة. في بعض الأحيان كان والدكم أن ينام على البيدر - الذي تستخدمه القرية كلها - للتأكد من عدم اختلاط حنطتنا بحنطة شخص آخر. كنا نمخض الزبدة ونصنع أواني الفخار ونجلب الماء. كان هناك دائماً ما ينبغي القيام به. كانت حياة شاقة لكن كل شيء كان مُرضياً؛ كنت تشعر بأنك على الأرض التي خلقها الله لغاية محددة.

ارتدت أمي الزي الفلسطيني التقليدي - الثوب - طوال حياتها. هذا اللباس الكامل، الطويل الأكمام الذي تطوَّر على مر القرون ليكون لباساً متواضعاً ومناسباً للعمل؛ وما كان لجيل أمي أن يتوقع أبداً المعنى السياسي والوطني الذي اكتسبه هذا الثوب في الآونة الأخيرة. النساء في مخيمات اللاجئين في قطاع غزة، على سبيل المثال، أحيَين ذكرى انتفاضة الأقصى عام 2000 بأثواب مصنوعة من الأعلام الفلسطينية ومطرز عليها صور قبة الصخرة.

علَّمتنا أمي كيف نعرف المكان الذي تأتي منه أي امرأة، وذلك من خلال الجوانب المطرزة بدقة على صدر الثوب وجوانبه وأكمامه وحواشيه. وتشرح أمي: كانت الرسوم تطرَّز بشكل منفصل، ثم تُحبَك مع القماش. كان عدد قطع الثوب مؤشراً آخر إلى منشئه: الثوب من بيت لحم يُصنع من خمسة وعشرين قسماً، على سبيل المثال، في حين أن الثوب الغزاوي يحتوي أربعة عشر فقط. استمر هذا التقليد إلى يومنا هذا، حتى في مجتمعات الفلسطينيين المنفيين في الشتات، وطورت النساء أساليبهن الخاصة في اللباس التقليدي باعتباره تعبيراً عن هويتهن. وقد التقيت بإحدى هذه المجموعات في رحلة إلى سيدني عام 2007.

كان على والديَّ أن يمارسا العمل الشاق في أيامهم تلك بأسدود، لكن كان هناك الكثير من المناسبات للاحتفال، وكم أحببنا قصصهما حول حفلات الفلاحين ومناسباتهم! حفلات الزفاف كانت تستمر لأسبوع؛ أيام متواصلة من الغناء والرقص. وبعض الناس كانوا فقراء جداً بحيث لم يكن باستطاعتهم شراء آلة موسيقية، ولكن، بحسب ما تقول أمي، كل عائلة كان من بين أفرادها مغنٍّ عظيم واحد على الأقل، يعوِّض، بإمكاناته الصوتية، عن عدم وجود الشبَّابة أو الطبل.

الختان أو الطهور، عودة الحجاج من مكة، العيد، إتمام تعلم الصبي القرآن، كانت كلها مناسبات تجتمع خلالها القرية. حتى عندما يكتمل سقف بيت جديد، كانت القرية تجتمع على تقديم مأدبة، يهدى فيها البنَّاء ثوباً أو معطفاً للاحتفال بانتهاء عمله.

كانت خطط الزواج تناقَش في اجتماعات العائلة، بحضور الشيخ أو المختار. «هل تقبل فلانة زوجة لك؟ نعم. أقبل فلانة زوجة» فينتهي الأمر. لم يكن هناك تسجيل لشيء، ولا حتى للولادات أو الوفيات. عدد قليل من ذاك الجيل يعرف متى وُلد. كانت أمي تخبرنا كيف كانت ولادات الأطفال تسجَّل في الذاكرة الجمعية، في سياق علاقتها بحدث مهم: والدي، على سبيل المثال، وُلد «قبل موجة الحر الشديدة». كنا نستمتع خصوصاً بفكرة أن أحد أعمامي وُلد «في اليوم الذي هوى فيه الجندي البريطاني من السماء بالمظلة». هذا الحدث المميز جرى في أواخر الحرب العالمية الثانية، وكان يوماً عظيماً لتلك الجهة من القرية التي سقط فيها المظلي «لأن كل شخص حصل على بنطال من الحرير».

صلات القربى بين أهل القرى تلك تعني أيضاً أن الحوادث أو الجرائم كانت قليلة جداً. تشير أمي إلى أن «في قرية يعرف كل من فيها ماذا تفعل، سيكون العار كبيراً جداً لدرجة أن مرتكب الجريمة عليه أن يغادر المكان للأبد». وفي حال وجود نزاع، بحسب أمي، تجري استشارة شخص أكبر سناً أو زعيم قبلي. ويُجمَع الطرفان المتنازعان للوصول إلى حل. حتى جرائم القتل في بعض القرى كان يُتعامَل معها بهذه الطريقة، حيث تدفع الدية نقداً أو يتسلم أهل القتيل عدداً معيناً من رؤوس الماشية أو من الأبقار. طريقة الحياة البسيطة هذه جرى استئصالها وتدميرها في الأشهر التي تلت إعلان «استقلال دولة إسرائيل» على الأرض الفلسطينية يوم 14 أيار/مايو 1948.

قصتي مرتبطة بقصة عائلتي، والتي بدورها تتشابك مع مأساة تاريخ فلسطين المعاصر. رغم أن لديَّ جنسية بريطانية، فإنني كفلسطيني لا أزال أحمل أسى وغضباً على الدولة التي أعطتني جنسيتها بسبب الدور الذي قامت به في حصول مأساة شعبي، وبسبب تاريخ تدخلاتها الطويل في الشؤون العربية

بشكل عام. إعلان بلفور المشؤوم عام 1917، الذي تعهدت فيه الحكومة البريطانية بدعم «تأسيس وطن قومي يهودي في فلسطين»، نتج من تدخلاتها هذه. البريطانيون ما كانوا ليستطيعوا اجتياح فلسطين، التي كانت جزءاً من الإمبراطورية العثمانية، لولا الدعم الذي قدمته ما سمِّي بالثورة العربية الكبرى ضد العثمانيين، التي قادها الشريف حسين بن علي والذي وُلد في ما يسمى الآن بالمملكة العربية السعودية. لتشجيع الانتفاضة العربية تلك، وعد البريطانيون حسين بأنه سيرأس دولة عربية مستقلة كبيرة تكون سورية في قلبها. في الوقت نفسه، كانت سورية قد جرى تخصيصها لتكون جزءاً من الإقليم الذي ستسيطر عليه فرنسا بعد تقسيم المنطقة مع انتهاء الحرب، وهو أمر اتُّفق عليه في ما يسمى «اتفاقية سايكس – بيكو» بين البريطانيين والفرنسيين عام 1916. كما طمأن البريطانيون حاييم وايزمان والصهاينة بأن فلسطين ستكون الوطن القومي لليهود، متجاهلين بشكل تام حقيقة أنها وطن لأكثر من مليون ونصف المليون من الفلسطينيين. ابن الحسين بن علي، فيصل، أعلن نفسه ملكاً على سورية في 1918 بدعم من البريطانيين. وبعد ذلك، وقَّع عام 1919 على ما سمِّي «اتفاق فيصل - وايزمان»، والذي وافق فيه على قيام دولة يهودية شرط أن يقوم اليهود بدعم طموحاته الكبيرة في الإقليم. عندما احتل الفرنسيون سورية عام 1920 وطردوا فيصل، هرب إلى لندن حيث أُقرَّ تنصيبه ملكاً على العراق بدلاً من سورية.

تسهيل الجيش البريطاني للاحتلال اليهودي لفلسطين بدأ مبكراً. عام 1929، نكث البريطانيون بوعدهم بمعاملة الفلسطينيين بشكل متكافئ من خلال اقتراح مجلس تشريعي – وهي خطة مؤلمة أصلاً وصعبة الابتلاع بما يكفي للفلسطينيين الذين كانوا يشكلون 90 بالمئة من السكان – ما أدى لظهور احتجاجات وأعمال شغب واسعة. خلال السنوات من 1936 إلى 1939، جرت محاولات مستمرة من قبل الفلسطينيين لإخراج المحتلين، وهو ما عُرف تاريخياً بالانتفاضة الكبرى، لكن الهبَّة الجماهيرية قُمعت، بوحشية في أغلب الأحيان، من قبل الجيش البريطاني الذي كان لديه 100 ألف جندي في فلسطين – وهو عدد أكبر من عدد جنوده في الهند آنذاك. لكن الحكومة البريطانية، بعد مساعدة المحتلين اليهود، قامت بإيقاف مؤقت لمزيد من الهجرة من أوروبا، مانعة الكثيرين من الهرب من النازية وأهوالها. كان البريطانيون وقتذاك يحاولون استدراج دعم عربي لحربهم مع هتلر وكانوا بحاجة للقوات المتمركزة في فلسطين للقتال في أوروبا. حتى بعد الحرب، وعندما كان اليهود يحاولون الدخول بشكل غير قانوني إلى فلسطين بين عامي 1946 و1947 مستخدمين قوارب صغيرة، كان يُقبض عليهم في البحر ويعيدهم البريطانيون إلى معسكرات في قبرص.

تدخلت الأمم المتحدة عام 1947. لقد خلقت معاناة اليهود خلال الهولوكوست تعاطفاً عالمياً مع فكرة الدولة اليهودية، لكن النتيجة كانت أن الدور جاء على الفلسطينيين كي يتعذبوا تعويضاً لليهود عن آلامهم. اقتُرحت خطة تقسيم، تعطي أكثر من نصف فلسطين لليهود كي يقيموا فيها دولة مستقلة، رغم أنهم كانوا يملكون 6 بالمئة من الأرض ويمثلون 23 بالمئة من عدد السكان. عارض الفلسطينيون الخطة، وكذلك الدول العربية المجاورة والمنظمات الصهيونية المتطرفة مثل الأرغون (التي قادها مناحيم بيغن، والذي أصبح رئيس وزراء إسرائيل لاحقاً) والتي أرادت مساحة أكبر من فلسطين من ضمنها القدس. قامت الأرغون هذه في تموز/يوليو 1946 بتفجير فندق الملك داود في القدس ما أدى لمقتل 92 بريطانياً وعربياً ويهودياً في هجوم وصفه رئيس الوزراء البريطاني آنذاك، كليمنت أتلي، بأنه «واحد من أبشع الجرائم وأكثرها جبناً في التاريخ». خطة التقسيم، التي تضمَّنها قرار الأمم المتحدة رقم 181، اعتُمدت في تشرين الثاني/نوفمبر 1947، وبدأت القوات البريطانية بالانسحاب على أساسها، تاركة فلسطين في حالة فوضى ونزاع دموي بين الفلسطينيين واليهود. في مساء 14 أيار/مايو 1948، أعلن الصهاينة تأسيس دولة إسرائيل، ما أدى لاندلاع حرب بينهم وبين جيوش الدول العربية الخمس المجاورة. وفي ثلاثين عاماً فقط، قُذف الوجود السياسي والنفسي لشعب مسالم ومستقر في كابوس مرعب لا يزال مستمراً حتى هذا اليوم. واقعياً، بدأت النكبة، التي يجري الاحتفال بذكراها كل عام، في 15 أيار/مايو 1948 في شوارع فلسطين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الطرد

انتشرت إشاعات حول المجازر بانتقالها من شخص لآخر. لم تكن هناك إذاعات وكان قليل من الصحف يصل إلى القرى الفلسطينية النائية. كانت الاستراتيجيا الصهيونية تعتمد استخدام الرعب لقمع الفلسطينيين ومنعهم من الدفاع عن أراضيهم. من أغرب المفارقات التاريخية أن يصبح ضحايا الاضطهاد والإبادة هم المسؤولين عن فظائع ومجازر ضد غيرهم. أخبرنا والداي كيف أن أخبار مجزرة دير ياسين عام 1948 وصلت إلى أسدود من خلال جار ذهب إلى السوق على حماره. منظمة الهاغاناه، شبه العسكرية، والتي كان لديها عدد من الأفواج العسكرية، مدعومة من عناصر من عصابتَي الأرغون وشتيرن، قتلت ونكَّلت بأجساد 254 فلاحاً بريئاً، ولضمان إيصال شعور الرعب الفظيع للفلسطينيين، قاموا ببقر بطون 25 امرأة حامل وبتقطيع 22 طفلاً أمام أعين آبائهم المفزوعين قبل جزِّ رؤوسهم.

ذكر مناحيم بيغن لاحقاً أنهم اختاروا دير ياسين لأنها كانت في منطقة عالية بين تل أبيب والقدس، ولأن دولة إسرائيل المستقبلية كانت ستحتاج لبناء مهبط طائرات هناك. جرى تفجير البيوت بالديناميت وقامت البلدوزرات الإسرائيلية بتدمير المقبرة. الناجون القلائل من المجزرة هربوا للنجاة بحياتهم، لكن تركهم أحياء كان خطة لضمان أن أخبار المجزرة ستنتشر بين الفلسطينيين. في أيلول/سبتمبر من السنة نفسها، كانت إعادة بناء القرية قد تمت وسكنها يهود متطرفون دينياً وصلوا حديثاً من بولندا ورومانيا وسلوفينيا. كانت دير ياسين الخطوة الأولى في عملية احتلال الأراضي، والنموذج الذي جرى تقليده في ما بعد.

من نيسان/أبريل 1948 وما بعده، بدأت حملة تطهير عرقي أدت إلى محو منهجي لأكثر من 400 قرية فلسطينية. كان هذا المشروع الدموي تطبيقاً لـ«ملف القرى» المشؤوم الذي دعمه الصندوق القومي اليهودي (JNF) والذي احتوى صوراً جوية ومعلومات مفصلة عن طرق الوصول ومستويات «العداء» بين السكان في المشروع الصهيوني المنشود. بحسب المؤرخ إيلان بابي الذي كتب بشكل موسَّع عن ذلك في كتابه التطهير العرقي لفلسطين، فإن الأفراد الذين شاركوا في هبَّة العام 1936 كانوا يؤخذون من القرى وتجري تصفيتهم.

من أجل تعديل المعلومات الطوبوغرافية الموجودة في «ملفات القرى»، فإن فوج ألكساندروني، وهو من الهاغاناه، طوَّر طريقة مرعبة يقوم فيها بحصار القرى من ثلاث جهات، بحيث يتجه القرويون للهرب من الجهة الرابعة. في حالة قرية طنطورة، وهي قرية كبيرة كان يسكنها حوالي 1500 شخص، قرر

الإسرائيليون محاصرتها من كل الجهات وأسر أغلب أهلها. بعد إجبارهم على اللجوء إلى الشاطئ، أرسل الأطفال والنساء بسيارات شحن إلى الفريديس، وهي قرية قريبة، وقُتل بالرصاص كل الرجال الذين هم دون 55 عاماً. عندما بدأت الحرب العربية – الإسرائيلية عام 1948، كان في خلفيتها العمل على إنهاء وقائع الإرهاب والأهوال هذه التي لا تزال مستمرة حتى اليوم.

حصل هجوم آخر، موثق جيداً، على قرية الدوايمة الفلسطينية، في تشرين الأول/أكتوبر 1948. هذا الهجوم، الذي مات خلاله 100 شخص، وذاعت بشاعته بسبب الطريقة التي مزَّق بها الإرهابيون الأطفال الرضع وكسَّروا جماجمهم بقضبان ثقيلة. بعد سنوات، ولاقتناعه بمحاسن سياسة الإرهاب، أسس بن غوريون وحدة «الكوماندوس 101»، الزاهال، المخصصة لهذا الهدف فقط، والتي رُفدت بشكل كامل بالمتطوعين. كان قائدها أرييل شارون الذي سيصبح لاحقاً زعيماً لإسرائيل. بدأت الوحدة 101 بالعمل في 14 تشرين الأول/أكتوبر 1953 في قرية على الحدود الأردنية اسمها قبيَّة. قتلوا سبعة وخمسون فلسطينياً، وحين لم يجدوا أحداً آخر يقتلونه، وجَّه عناصر الوحدة أسلحتهم إلى الماشية. مثل رجال كثيرين في قريتنا، استطاع والدي جمع ما يكفي من المال لشراء بندقية، من خلال بيع المصوغات الذهبية والفضية التي كانت ضمن ملكية العائلة لأجيال. لكن البندقية لم تنفعه عندما جاء الإسرائيليون إلى أسدود في 23 تشرين الأول/أكتوبر 1948. كانت والدتي تنوح كلما تذكرت ذلك اليوم الذي تغيَّرت فيه حياتها إلى الأبد. «كان يوماً بارداً، مثل هذا اليوم»، قالت لنا.

كان الناس مذعورين من أخبار مجزرة دير ياسين ويخشون مجيء العصابات الإرهابية الصهيونية للهجوم عليهم. الكثير من القرويين غادروا إلى غزة لأن الناس كانوا يقولون إنها المكان الأكثر أماناً. كان الرجال والنساء والشيوخ والأطفال يغادرون بسرعة، حاملين كل ما يستطيعون حمله في عربات يدوية أو «بقج» تُلفُّ فيها الثياب. «أصر والدكم على أن نبقى ورفض الخروج من بيت العائلة. فجأة، سمعنا أصوات شاحنات داخلة إلى القرية وطلقات نارية في الهواء. سمعنا مكبرات صوت واندفعنا إلى ساحة القرية لنعرف ما يحصل. كان الإسرائيليون هناك وكانوا يقولون بالعربية: «اتركوا بيوتكم واذهبوا إلى غزة حيث ستكونون آمنين. إذا لم تذهبوا سنقتلكم». ازداد إحساس الناس بالقلق. لا أحد يعرف ما يفعل. (كانت أمي تسرد الحكاية والدموع في عينيها). نظر والدكم إليَّ وقال لي أن لا أقلق، وإن الجيوش العربية ستنتصر وتطرد هؤلاء الغزاة من أراضينا. ثم سمعنا طلقات رصاص – قتل الإسرائيليون رجلين من قريتنا من مسافة قريبة. كان جثماناهما ممدَّدَين على الأرض يسبحان في بركة من الدماء، ونساء العائلتين وأطفالهما في حالة هستيريا. دُفع القرويون إلى الشاحنات الإسرائيلية مثل قطيع الماشية،

وقد جعل مقتل الرجلين الناس صامتة ومطيعة؛ كان الجميع في حالة هائلة من الصدمة. نحن أيضاً صعدنا إلى الحافلات. لم يكن لدينا وقت لنجمع أمتعتنا، كل ما لدينا كانت ملابسنا التي نرتديها، وكان عويل النساء وأصوات انفجارات مدافع المورتر الإسرائيلية تحاصرنا.

اعتقد والداي، مثل آلاف آخرين، أنهما يغادران قريتهما لوقت قصير، إلى أن تقوم الجيوش العربية بهزيمة الإسرائيليين أو يقوم العالم بالتدخل. الأقلية المتعلمة من الطبقة الوسطى الفلسطينية ذهبت إلى البلدان العربية النفطية حيث وجدت وظائف جيدة، لكن أغلب اللاجئين الجدد كانوا فقراء، وغير متعلمين، لا يعرفون كراهية الغريب وليست لديهم تجربة مع الحرب أو النزاعات. لم يكونوا مستعدين لما حصل لهم، وتقبلوا الوضع، لسنوات، بإذعان. بعد الثورة الكبرى (1936-1939)، كان العديد من قادة المقاومة الفلسطينيين قد قُتلوا، أو كانوا في المنافي، تاركين السكان من دون وسائل لتنظيم الدفاع عن أنفسهم، والكثيرون من الجيل القديم حاولوا منع أولادهم من العمل السياسي خوفاً عليهم. لم يكن والدي من نوع الضحية المستسلمة لقدرها، لكن أي شيء سيفعله كان، عملياً، سيكلفه حياته. استطاع أن يزور بيتنا في أسدود مرتين. في المرة الأولى، تمكن من جمع بعض الأشياء، من بينها بندقيته التي خبأها في سقف البيت. في المرة الثانية، بعد شهرين من اللجوء، أحس بقلبه ينكسر حين اكتشف أن بيتنا قد هدمه المستوطنون الإسرائيليون واستولوا على أرضنا. لا أعتقد أنه استطاع أن يتجاوز هذه الإهانة الكبيرة لكرامته وكبريائه، فما لبث أن أُصيب بقرحة في المعدة وعانى من تدهور في الصحة استمر حتى نهاية حياته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الولادة... على الطريقة الفلسطينية

حين وصل الفلاحون إلى مخيم دير البلح للاجئين، وجدوا أن الأمم المتحدة كانت قد أسست مدناً كبيرة من القماش، حيث نُظِّمت الخيم بطريقة يتجاور فيها القادمون من مكان واحد. كان لوالديَّ ثلاثة صبيان وفتاة، وكان على العائلة بكاملها الاشتراك في الخيمة الكبيرة مع ثلاث من عماتي، وجديَّ، واثنين من أعمامي. الله وحده يعلم كيف حصل ذلك، لكن أمي حملت بي في تلك الخيمة. ولدتُ في شباط/فبراير 1950. والتاريخ المكتوب على شهادة ولادتي هو 19 شباط/فبراير، وهو اليوم الذي سجلوني فيه: عادة ما يتأخر تسجيل المولود الجديد لأيام، بحسب توافر الشخص الذي سيسجله، وفي حالتي كان سبب التأخير وجيهاً. فيما كانت والدتي في المخاض، انهار والدي صحياً واصطحبه عمي إلى المستشفى في مدينة غزة التي يديرها بريطانيون، والتي تبعد حوالي 40 كيلومتراً. وُضع أبي في الرعاية المشددة فوراً؛ جلس عمي ينتظر في قاعة الاستقبال. بعد ساعات، جاء طبيب إنكليزي يلبس معطفاً أبيض وسلَّم عمي ورقة أشار عليه أن يقوم بتوقيعها. بما أن عمي لم يكن يجيد الإنكليزية، لم يفهم ما يريده الطبيب منه؛ إضافة لذلك، فقد كان أمياً والوثائق الوحيدة التي شاهدها في حياته والتي تحتاج توقيعاً كانت شهادتَي الميلاد والوفاة. اعتقد عمي لذلك أن والدي مات وجهَّز إبهامه لكي يطبع البصمة في المكان الذي أشار إليه الطبيب. عاد عمي إلى المخيم مشدوهاً ومصدوماً من الحزن، وقد قرر ألا ينقل إلى أمي الخبر السيئ إلى بعد أن تعود إليها قواها بعد عملية الولادة.

في هذه الأثناء، كنت قد وُلدت بسلام على يد قابلة القرية ووافق عمي على اقتراح أمي أن أسمَّى عبد الباري، فيما كانت تدعو الله أن يبقي على والدي، الذي كان لا يزال، في اعتقادها، يعالَج من مرضه في المشفى. ذهب عمي بعد ذلك إلى مكتب وكالة الإغاثة والعمل للاجئين الفلسطينيين (UNRWA) لتسجيل ولادتي. في اليوم التالي، توقفت سيارة إسعاف قرب خيمتنا. ظن عمي أنهم جاؤوا بجثة والدي، وكاد يغمى عليه عندما فتح باب السيارة الخلفي لينزل أبي من هناك، ضعيفاً، ولكن حياً. لم تكن الوثيقة التي وقَّعها عمي شهادة وفاة، بل كانت تصريحاً بالموافقة على عملية جراحية، كانت ناجحة. أول ما قاله أبي عند رؤية الطفل الوليد كان: «سنسمي الطفل «سعيد»، تيمُّناً بعودتي معافى». «لكننا سمَّيناه عبد الباري»، قالت أمي، «تيمُّناً بعودتك معافى». «لكن هذا اسم مرعب»، رد أبي. «اسمعوا، أنا نجوت والطفل وُلد. هذا يوم سعيد». وافق الكل وحصلت أنا على اسم عبد الباري في شهادة ولادتي، لكن الجميع في العائلة كانوا ينادونني سعيد. تعودنا جميعنا على طقس الولادة المتكرر، فقد اعتدنا على رؤية أمي مرضعاً لطفل أو حاملاً

بواحد. كنت الخامس ضمن أبناء العائلة التي ستضم في النهاية عشرة أبناء. كانت القابلة في المخيم امرأة عجوزاً تُدعى أم محمد. لم تكن قابلة مؤهَّلة علمياً، لكنها تعلمت كل ما تعرفه من القابلة الأكبر منها والتي كانت قابلة القرية قبلها. ولَّدت أم محمد كل أطفال العائلة في أسدود، وبعد ذلك في المخيمات. حالما كانت تظهر مع موقدها الذي يعمل على الكيروسين (بابور الكاز) وتبدأ بتسخين الماء، كنا ندرك أننا سنسمع عما قريب بكاء طفل جديد. بعد انتهاء الولادة، كانت إحدى الجارات تحضر شيئاً تقتات به أمي بعد تعب المخاض. إذا كانت محظوظة، يكون ذلك بيضتين مقليتين، وهو ما يمكن اعتباره طعاماً فاخراً يعوِّض عن معاناتها. لكنها لم تكن تستطيع أن تستريح لأكثر من ساعات قليلة لأن البيت مليء بالأطفال الذين يحتاجونها. كانت امرأة رائعة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

القرار 194

بعد أشهر قليلة في مخيم اللجوء، بدأ والداي بالانتباه إلى أن هذه الكارثة سوف تستمر مدة أطول مما اعتقدا في البداية. لم يعد بيتنا موجوداً واحتل الإسرائيليون قريتنا. رئيس الوزراء الإسرائيلي الأول، ديفيد بن غوريون، كان يشرف بشكل مباشر على سياسة «تطهير عرقي للذاكرة»، وهو ما أدى إلى استبدال كل الأسماء العربية لجبالنا وأوديتنا وينابيعنا وطرقاتنا بأسماء عبرية. كانت القوات العربية المشتركة تخسر الحرب مع إسرائيل التي كان جيشها مجهزاً بشكل جيد، فالإسرائيليون كانوا يكدسون الأسلحة المشتراة من الغرب منذ عام 1946، وبدأ المهاجرون اليهود يتدفقون بشكل متزايد على فلسطين بمعدل 10 آلاف شخص في الشهر. القوات المسلحة الإسرائيلية ضمت إليها عناصر الأرغون وشتيرن والهاغاناه، كما انضم إليها الكثير من المقاتلين، ومنهم من قاتل مع الجيش البريطاني خلال الحرب العالمية الثانية، فازداد عدد القوات المسلحة الإسرائيلية من 29677 في بداية الأعمال القتالية إلى 108300 في نهاية عام 1949. خلال فترة النزاع، أرسلت الأمم المتحدة الكونت برنادوت وسيطاً إلى المنطقة. اقترح هذا الأخير خطة من ثلاث نقاط: العودة غير المشروطة للاجئين، وتدويل مدينة القدس، وتقسيم البلاد بحسب توزع السكان من جهتَي النزاع. اغتال الإرهابيون الصهاينة برنادوت في أيلول/سبتمبر 1949، لكن هذا لم يمنع الأمم المتحدة من الترحيب بإسرائيل عضواً فيها في نيسان/أبريل 1949. وفي كانون الأول/ديسمبر 1948، وافقت الجمعية العمومية للأمم المتحدة على القرار 194، الذي جعل عودة اللاجئين الفلسطينيين شرطاً لازماً في أي اتفاق سلام عام، كما أقر تعويض أي شخص يقرر عدم العودة. وقد جرى تأكيد ذلك في الجمعية العامة للأمم المتحدة كل عام منذ ذلك الحين، كما دُعم القرار بالفقرة 13 من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان عام 1948 الذي يقول: «لكل شخص الحق في أن يترك أي بلد، بما فيه بلده الذي يقيم فيه، وأن يعود إلى وطنه». من المحزن أن حل مشكلة اللاجئين الموجودة في القرار 194 تجاهلته إسرائيل باستمرار.

كان مخيم دير البلح أصغر مخيمات قطاع غزة للاجئين. وقد أنشأته الأونروا على عجل، بحيث وفَّر السكن في البداية لحوالي 9000 شخص. كان موقع المخيم مواجها للبحر، بعد مدينة دير البلح التي كانت، كما يشير اسمها، مشهورة بوفرة عناقيد نخيلها. شيئاً فشيئاً، حلَّت محل الخيام بيوت من الطين والقرميد، لكن لم يكن هناك نظام صرف صحي ولا مياه. كانت أمي والنساء الأخريات يُحضرن الماء من الآبار في جرار فخارية يحملنها على رؤوسهن. قامت الأونروا بتوفير المدارس، لكن كان من الصعب علينا نحن الأطفال

مجاراة متطلبات الدراسة المنزلية، إذ لا كهرباء في بيوتنا، فيما مصدر الإضاءة الوحيد هو مصابيح الكيروسين.

مثل كثيرين من الرجال، أحس والدي بغضب وإحباط هائلَين. كان وأمثاله أرباب عائلاتهم، وكانت لهم مراكزهم ضمن مجتمع القرية، وفجأة وجدوا أن كل شيء سُحب أمام أعينهم، وجرى أختصارهم ليعيشوا على صدقات الأونروا. كثيرون انهاروا تحت الضغط، وإلى هذا اليوم، لا تزال نسبة الأمراض النفسية والعقلية في مخيمات اللاجئين أعلى من نسبتها في أي مكان في العالم العربي.

كان العمل في المنطقة قليلاً، وأضيفت البطالة الواسعة إلى الإحساس المؤلم بالعجز والإهانة. كان أبي قد أحضر معه مبلغاً صغيراً من المال واستطاع توظيفه بشكل جيد، حيث عقد مع صاحب أراض محلي صفقة يقوم على أساسها بزراعة جزء من الأرض ويتشارك المحصول معه. انتقلنا إلى بيت طيني على طرف المخيم، في حقل تحيط به أشجار الصبار لمنع دخول المتطفلين. كان للبيت سقف من القضبان الخشبية ترعى فيه أنواع غريبة من الحيوانات والحشرات. ولم يكن من المستغرب أن تهبط علينا العقارب فيما نحن نائمون، أو أن نسمع أصوات الثعابين والجرذان تتحرك حولنا. لم يكن السقف مجهزاً لمنع المطر، فكانت الأمطار القليلة التي تصيب المنطقة تنفذ عادة إلى فرشاتنا القطنية العتيقة. هكذا استأنف والداي حياة الكدح من جديد. «كان وضعنا أحسن من معظم الناس»، أصرَّت أمي على القول. «نعم، عملنا كان شاقاً، ونعم، كنا لا نزال فقراء، لكننا على الأقل احتفظنا ببعض كبريائنا». كنا نعيش في ظروف بدائية مقارنة بجيراننا في مدينة دير البلح ببيوتهم المصنوعة من القرميد، لكن الكثيرين من اللاجئين أمثالنا كانوا لا يزالون في خيمهم في ذلك الوقت وكانوا يحسدوننا كثيراً. نجح والدي دائماً بتوفير أسباب الحياة لنا رغم الظروف الصعبة، وأنا معجب بقدرته تلك.

لم أعرف منذ ولادتي إلا مخيم اللاجئين، لذلك، بالنسبة لي، كان كل شيء طبيعياً. أتذكر أوقاتاً سعيدة كثيرة في طفولتي. وربما جاءت نزعاتي نحو العدالة الاجتماعية من تلك الأيام المبكرة؛ نتجت المساواة عملياً من الفقر: عندما كان السردين يأتي إلى الشاطئ، كنا جميعاً نأكل السردين، وفي الصيف، كنا جميعنا كذلك نأكل العنب، وكنا نحصل على حصص متساوية وعلى ثياب مستعملة لا تناسب أجسامنا؛ وفي المرض أيضاً، لم يكن أحد أفضل أو أسوأ من الآخرين - كنا جميعاً نصاب بالرشح أو بوجع المعدة، ولم تكن هناك أدوية لتسعفنا. كنا كلنا غاضبين، وكنا كلنا جائعين!

بدأت دراستي الابتدائية بعمر 6 سنوات وأحببتها فوراً، وخصوصاً اليوم الدراسي الأول حين يكون كل شيء جديداً. كنا نُعطى دفاتر للكتابة، وأقلام

رصاص حادة نشمُّ فيها رائحة الخشب المبريِّ. يأتي الحلاق في ذلك اليوم ويحلق رؤوس الأولاد التي كانت، كلها من دون استثناء، مليئة بالقمل. كنت طالباً جيداً، لكنني كنت دائماً أتأخر في الحضور، ما يؤدي إلى عقابي بالضرب. كان كل المعلمين يحملون قضباناً ويعاقبون الطالب بضربه على اليدين. كنا نقوم بالتمييز بين المعلمين بحسب شدة الواحد منهم في الضرب، فكنا نكره من يضرب بقسوة ونحب من يضرب بلطف. كان كل المعلمين ذكوراً، وبعضهم لم يكن متعلماً لكنهم كانوا مخلصين لعملهم. أعتقد أنهم كانوا يرون أننا، إذا تفوقنا علمياً، ستكون لدينا فرصة للخروج من مخيم اللجوء. لكن، حالما دخلت المدرسة، حصلت مجموعة من الفواجع وقفت في وجه تعليمي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مدرسة المشاغبين

ذكرياتي في مدرسة دير البلح الابتدائية، ومن ثم الإعدادية للاجئين، محفورة في كل خلية من عقلي، بحيث يصعب، بل يستحيل محوها، رغم أنني، وبحكم كثرة المشاغل، وربما التقدم في العمر أيضاً، بدأت أنسى الكثير من الأمور. فهل هناك أجمل من أن ترى البحر من نافذة الفصل الدراسي وتشم هواءه العليل، وتسمع صوت أمواجه الهادرة.

لا أعرف لماذا كان بحرنا دائماً ثائراً وأمواجه يكسوها الغضب. فجميع بحور العالم التي زرتها أو زرت البلدان المطلة عليها، تبدو هادئة وديعة، إلا بحرنا وشواطئه، فهو في حال قتال مع نفسه دائماً. هل هو نوع من التضامن مع أهله المحرومين من وطنهم، المعانين من ظلم القهر والاغتصاب؟ لا أعرف. كل ما أعرفه أنني أحببت هذا البحر لدرجة الجنون، وأفضله على كل بحار العالم ومنتجعاته. إنه بحري أنا. إنه بداية أحد معالم بدايات تكوُّني في هذه الحياة. إنه قطعة عزيزة على قلبي من وطني الذي أتوق إليه دائماً.

أيام الدراسة، الابتدائية خصوصاً، كانت حافلة بالعلم والتعلم، لكن الأمر لا يخلو من منغِّصات أبرزها أن يقتادنا أستاذنا لشرب حليب الصباح إجبارياً. في كل صباح كانت عربة الأونروا تصل محمَّلة ببراميل الحليب المصنوعة من الألمنيوم، ويبدأ موظف بإعطائنا حصتنا من هذا الحليب المذوَّب الساخن الذي كنا نسمِّيه حليب «الكوكرز». كان علينا شربه أمام الموظف حتى النقطة الأخيرة. كنا نتفنن في كيفية التهرب من شربه، فرغم أن مذاقه مقبول، لا هو جيد ولا سيئ، لكنه حليب، وتناول كوب كبير منه كل يوم أمر شاق.

الحكمة من شرب الحليب الحفاظ على عظامنا، وتزويدنا بحصتنا اليومية من الكالسيوم لمنع تقوس العظام وتزويدنا بمناعة ضرورية لتقوية دمنا أيضاً، فمعظمنا يعاني من فقر الدم. وقد حمدت الله على أننا شربنا هذا الحليب عندما علمت أن تقوس سيقان معظم الصينيين عائد إلى نقص الكالسيوم وعدم شرب الحليب في الطفولة.

كان أساتذتنا يعتبرون المدرسة فرصة ذهبية لتوعيتنا سياسياً، وإعدادنا كجيل يحافظ على هويته الوطنية ويسعى لاستعادة أرضنا المغتصبة، ولذلك كانت عقيدتهم السياسية أقوى من مهنيتهم التعليمية وواجباتهم التربوية، ولا أبالغ إذا قلت إنهم جمعوا بين هذه المهام الثلاث، وكانوا يربوننا لنصبح رجالاً، ويؤكدون على أهمية العلم ويؤدلجوننا سياسياً في الوقت نفسه، وكانت العصا دائماً إحدى وسائلهم لتحقيق الهدف. ومن بين هؤلاء وفا الصايغ، البعثي، ناظر مدرستنا الإعدادية الذي حوَّل مزرعته (بيّارته) على أطراف غزة قاعدة للقاء أعضاء الحزب ومناصريه، إلى جانب لقاءات فكرية مع مناضلين آخرين.

وفخري مكي، الماركسي، الذي كان يدخل السجن ليعود إليه، والذي أنشأ في زمن الإدارة المصرية إذاعة يومية في سجن السرايا، وعبد الله حوراني، وأبو حيدر عوض الله، ومعين بسيسو، وناهض الريس، والقائمة تطول.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تهديد

كان قطاع غزة تحت الإدارة المصرية منذ توقيع مصر اتفاق هدنة مع إسرائيل في 24 شباط/فبراير 1949. نتيجة ذلك، نادراً ما غامر الجنود الإسرائيليون بالدخول إلى المخيمات. وكان لهؤلاء في مخيلتي شكل مخيف مثل الأشباح والبوم التي كان أهلي معتادين على إخافتنا بها. كانت السلطات المصرية مخيفة بما يكفي: كل مدينة وقرية كان فيها حاكم يملك سلطة اعتقال أو ضرب وتعذيب أي شخص يريد، بسبب أو من دون سبب. كان هؤلاء الحكام يسوقون سيارات فولكسفاغن سوداء عتيقة من طراز الخنفساء (كوكسينيل)، وكان وصولهم إلى أي مكان تسبقه أصوات قعقعة المحركات المتهالكة.

هذا الوضع المستقر تعرض لهزة في شباط/فبراير 1955 عندما هاجم جنود إسرائيليون مواقع الجيش المصري في غزة، ما أسفر عن مقتل تسعة وثلاثين شخصاً. ادَّعى الإسرائيليون أنهم تعرضوا لهجوم من قطاع غزة وأن المصريين كانوا يقدِّمون الدعم لنشاط المسلحين. وعلى الرغم من أن الفدائيين الفلسطينيين كانوا قد شرعوا ببعض أعمال المقاومة الرمزية ضد إسرائيل بين 1949 و1956، فإن أغلب الناس كانوا يعتقدون أن المشكلة ستُحل بطرق أخرى، وما كانوا، عموماً، يدعمون العنف. في الواقع، كان الإسرائيليون يبحثون عن ذريعة لغزو قطاع غزة، وهو ما فعلوه في 29 تشرين الأول/أكتوبر 1956، بالترافق مع الهجوم على سيناء (وهو أمر كان مرتَّباً مع القوات البريطانية والفرنسية)، وكمقدمة لحملة السويس. أعلن الإسرائيليون عن قدومهم بسلسلة من المجازر التي لم تستطع الصحافة الإسرائيلية نفسها أن تتقبلها. الصحيفة الإسرائيلية اليومية «كول هآم» كتبت في صفحتها الأولى عن مجزرة كفر قاسم يوم 19 كانون الأول/ديسمبر 1956، تحت عنوان «كيف ذُبح 49 من سكان كفر قاسم» (انظر الملحق في آخر الكتاب لقراءة التقرير بكامله). كان الأسوأ سيتبع. هاجمت أفواج عسكرية إسرائيلية بشكل عاصف مخيمات اللاجئين وحاصرت كل الرجال الذين هم بين 17 و55 عاماً. المحظوظون منهم اعتقلوا، لكن الكثيرين جرى صفُّهم على الجدران وقتلهم بالرصاص.

ادَّعى الإسرائيليون أنهم كانوا يقومون «بغربلة» الرجال المسلحين، لكن هدفهم الحقيقي كان قمع أي إمكانية انتفاضة مسلحة. في 3 تشرين الثاني/نوفمبر 1956، اقتحم الإسرائيليون مخيم خان يونس للاجئين وذبحوا ما لا يقل عن 275 شخصاً. في 21 تشرين الثاني/نوفمبر، قُتل 111 شخصاً في مخيم رفح للاجئين. 66 آخرون ماتوا على أيدي الإسرائيليين في مخيمات لاجئين أخرى بين 1 و21 تشرين الثاني/نوفمبر. (هذه الأرقام جاءت في تقرير للأونروا عن تلك الفترة، باعتبارها المصدر الإحصائي الأكثر حيادية، رغم أن

الفلسطينيين يقولون إن أعداد الضحايا كانت أكبر. كان عمري ست سنوات عندما دخلت الدبابات الإسرائيلية مدينة دير البلح في 14 تشرين الثاني/ نوفمبر 1956. ميَّزت والدتي أصوات الإسرائيليين الشريرة وصرخت فينا أن نبقى في البيت. كان خوف اللاجئين في دير البلح يشلّهم، هم الذين سمعوا عن المجازر في خان يونس ورفح،. وكان بإمكاننا سماع الضجة خارج البيت مع مرور الدبابات وسيارات الجيب العسكرية وتوقفها في وسط المخيم.

متجاهلاً توسلات أمي الهامسة ومحاولاتها الرقيقة لكبح جماحه، أنزل والدي مسدسه من سقيفة المنزل. كنا، نحن الأطفال، نحدق فيه برهبة حينما بدأ بفتح حجرة وضع الطلقات؛ كان المسدس فارغاً فوضعه على الطاولة وذهب إلى الخزانة لإحضار الرصاصات. في تلك اللحظة انفتح الباب عنوة ودخل خمسة جنود إسرائيليين مدججين بالسلاح. انتبهت أمي إلى أنه إذا شاهد الجنود السلاح سيقتلون أبي، فقامت بإخفائه في سلة قربها.

كان من أسوأ التجارب الكابوسية في حياتي أن أشاهد أولئك الجنود الإسرائيليين وهم يضربون والدي، وأنا طفل غير قادر على التدخل لحمايته. ضربوه بأعقاب بنادقهم إلى أن قارب السقوط، عند ذلك أمروه بأن يغادر المنزل، وهم يدفعونه بأسلحتهم. كنا نصرخ ونبكي جميعاً ولحقنا بهم إلى خارج البيت، وفي ضوء الشمس الساطع رأينا المشهد المرعب: أبي، مع بقية رجال المخيم، يتعرضون للركل ويُدفعون إلى منطقة مقفرة كنا نلعب فيها كرة القدم. زعق الجنود بالعربية: «ارفعوا أيديكم فوق رؤوسكم». كانت النساء ينتحبن ويبكين، وكان البعض منهن راكعات على ركبهن يطلبن الرحمة. لقد عرفن ما حصل في المخيمات الأخرى حيث كانت نهاية الرجال.

فجأة، ومن حيث لا ندري، وصلت سيارة جيب عسكرية إسرائيلية بسرعة لا تصدق وزعقت مكابحها بقوة متوقفة عند فرقة الإعدام. خرج منها عقيد شاب وبدأ يتحدث إلى الجنود. دُهشنا عندما قامت فرقة الإعدام بتحية الضابط، وأعاد أفرادها بنادقهم إلى أكتافهم، وعادوا إلى دباباتهم وسياراتهم وذهبوا بالطريقة التي جاؤوا بها. وقفنا نراقبهم يختفون، وبقينا في صمت مذهول حتى انقشعت غيوم الغبار الناتجة من مركباتهم. تيقنَّا أن الرجال نجوا من الموت وبدأنا بالكلام، بهدوء في البداية. تسابقنا للوصول إلى والدي، متشبثين به ونحن نقفز فرحين بنجاته. أثناء ذلك، بدأ العقيد بالتحدث إلى الناس بلغة عربية سليمة، سائلاً عن أبي محمد وعائلته. بعد فترة قصيرة، ظهر أبو محمد من بين حشد الرجال المرعوبين وعرَّف عن نفسه. غمغم الإسرائيلي بشيء لأبي محمد، الذي قام في تلك اللحظة محمد بإمساك العقيد من يديه، محدقاً في وجهه، ثم ركض ليعود بزوجته وأطفاله الذين بدأوا بمعانقة العقيد، وهم يبكون ويضحكون في الوقت نفسه. راقب الناس ذلك في تعجب من مشهد

هذا العسكري الإسرائيلي، مرعب الناس عادة، وهو يحتفل مع عائلة من أفقر العائلات في المخيم، ويحضر صناديق من الزيتون والجبنة من سيارة الجيب ويضعها في أيديهم.

بعد أن غادر العقيد، قام أبو محمد بإخبار الجمع المتحلق حوله قصة لا تصدق كانت وراء نجاة الرجال من موت محقَّق: خلال فوضى إجلائهم من قريتهم في النبي روبين عام 1948، اكتشفت العائلة غياب أحد أولادها، محمد، الذي كان في الثانية عشرة من عمره. قيل لنا إنه ظل في القرية فيما هرب الآخرون، حيث تُرك وحيداً وخائفاً بين الإسرائيليين الذين تمركزوا في القرية. وجدته عائلة مختبئاً في بيت أبيه وأشفقت عليه. تبنوه وربوه كواحد من أبنائهم، وعندما صار بالغاً، انضم إلى الجيش الإسرائيلي. اكتشف محمد في تلك الفترة أن كل اللاجئين من النبي روبين كانوا في مخيم دير البلح للاجئين، وعندما سمع أن الجيش الإسرائيلي كان في طريقه إلى هناك وعلم ما يريد الجيش فعله، سابق الريح ليصل كي يجد عائلته - التي يتذكرها بوضوح - قبل فوات الأوان. في وقت لاحق، عندما انسحب الإسرائيليون من غزة، عاد العقيد محمد إلى المخيم وطلب إلى أبي محمد وبقية العائلة أن ينتقلوا معه إلى إسرائيل. وافقت العائلة، وبذلك انقطعت أخبارهم عن أصدقائهم ومعارفهم.

المرحلة التي تلت الاجتياح الإسرائيلي لقطاع غزة كانت كارثية لعائلات اللاجئين. كانت كل مدارس الأونروا مغلقة فيما كان الإسرائيليون يقومون بـ«فحص» المعلمين والمنهاج الدراسي المصري للتفتيش عن «عناصر تخريبية». قاموا بإبعاد الحيوانات وإزالة آلات الزراعة من مركز التدريب الزراعي (ما حرم الفتيان من الفرص العملية لتوظيفهم) وقاموا بتغيير العملة من الجنيه المصري إلى العملة الإسرائيلية، فارضين نسبة صرف أقل بكثير مما يفترض أن تكون عليه. في الوقت نفسه، جرى إقناع الحكومة البريطانية بالسماح بسيطرة إسرائيل على أرصدة مصرفية تجمعت فيها مبالغ كبيرة من عائدات الضرائب على السكان الفلسطينيين خلال فترة الانتداب، وبذلك اكتمل التجريد الكلي للفلسطينيين من ممتلكاتهم. ارتفع معدل البطالة إلى مستويات جديدة وتقلصت عمليات الأونروا ولم تعد هناك وظائف إدارية مصرية.

أثناء ذلك، كانت الأعين كلها على مصر، التي كانت قد غزت أراضيها قوات إسرائيلية وبريطانية وفرنسية في 5 تشرين الثاني/نوفمبر 1956. أحس الفلسطينيون بأن مستقبلهم مرتبط ارتباطاً وثيقاً بنتيجة هذه المواجهة. لحسن الحظ، لم تبقَ مصائرنا معلقة لفترة طويلة، فمحاولة استعادة قناة السويس وقلب نظام عبد الناصر فشلت بعد أن أظهرت مصر مقاومة قوية

وأغرقت كل السفن الأجنبية في قناة السويس. وتحت ضغط من الأمم المتحدة، انسحب المعتدون في 29 تشرين الثاني/نوفمبر 1956.

رفض الإسرائيليون مع ذلك التخلي عن غزة، وحافظوا على وجودهم هناك حتى 7 آذار/مارس 1957 عندما استعاد المصريون السيطرة مجدداً. حظر عبد الناصر الشحن الإسرائيلي من خلال قناة السويس في 15 آذار/مارس وكان هناك إحساس كبير بالابتهاج بين الفلسطينيين. صار عبد الناصر بطلنا، فهو وجَّه ضربة نهائية للبلطجية الذين كانوا يقمعوننا. كنت مفتوناً بعبد الناصر إلى درجة أنني كتبت له رسالة إعجاب ثم انتبهت إلى أنني لا أعرف عنوانه، فكتبت على ظرف الرسالة ببساطة «الرئيس عبد الناصر، القاهرة» وذهبت بها إلى مكتب البريد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

سلطة الكتابة

أعيد فتح مدرستنا، وقد سرَّني هذا بعد أن حُرمت منها لعدة أشهر، رغم أنني لم أكن قد نجحت بعد في نسج صداقات. كنت في السابعة من عمري آنذاك، حسن السلوك ومجتهداً، وخائفاً من الوقوع في أي مشكلة لكون المدرسين قساة؛ لذلك عندما جاء المدير المعيَّن حديثاً وأربعة من زملائه، وكلهم يحملون عصيَّاً، إلى غرفة الصف في أحد الأيام، وسمعتهم يذكرون اسمي للمعلم، فزعت فزعاً شديداً وبدأت بالتفكير في الجُنح التي يمكن أن أكون قد ارتكبتها من دون قصد. نظر المدير إليَّ بتعبير جدي على وجهه وسألني: «هل أنت عبد الباري عطوان؟». «نعم، سيدي»، أجبته وصوتي يرتجف من الخوف. «كيف تعرف الرئيس عبد الناصر؟». أحسست بالذهول. يا له من سؤال! «همم... من الراديو، سيدي»، غامرت بالرد. لم يكن لدينا تلفزيون أو صحف في تلك الأيام، لكن جيراننا كان لديهم مذياع وكنت معتاداً على الاستماع كلما استطعت. وجَّه المدير إصبعه إلى أحد المدرسين الذين كانوا معه فأخرج مغلفاً بنياً كبيراً. «حسناً، هذا جاء إليك عبر البريد»، قال المدير فيما كل الأطفال في الصف يجاهدون كي يروا هذا الشيء الخارق. كان العنوان المكتوب على الظرف «عبد الباري عطوان، المدرسة الابتدائية للاجئي مخيم دير البلح، قطاع غزة»، وكان عليه طابع بريد مصري. كان المغلف قد فُتح ثم أُلصق مجدداً. «حسناً، افتحه إذاً»، حثَّني المدير، فقمت بتمزيق المغلف إرباً. كانت رسالة من عبد الناصر، يشكرني فيها على رسالتي ويطلب إليَّ أن أقبل كتباً وصوراً له وُضعت في المغلف. انتشرت الأخبار مثل النار في الهشيم وصارت الحادثة موضوع الحديث في المخيم. أنا وكثيرون أحببنا عبد الناصر أكثر لهذه البادرة التي تدل على الكرم الشخصي واللطف. قُصفت عائلتي بالأسئلة وأصبحت نجماً خلال يوم وليلة. كانت تلك أول مرة أستفيد فيها من الكتابة.

كانت تلك المرة الأولى التي أتعرف فيها إلى الرقابة «الأبوية»، فناظر المدرسة ذكَّرني بالرقيب في الصحف أو وزارات الإعلام العربية عندما فتح المظروف وقرأ ما فيه.

رسالة الرئيس عبد الناصر كانت روتينية وتحمل توقيعه. وربما كانت رسالة نمطية يرسلها مكتبه إلى الآلاف من المعجبين من أمثالي، لكنها كانت أجمل رسالة تلقيتها في حياتي. الآن، وبعد أن أعود بذاكرتي إلى الوراء، أتوقف إعجاباً عند ذلك الرئيس العربي الشهم الذي كان يرد على كل من يكاتبه، وهي فضيلة اكتشفتها عند الأوروبيين عندما انتقلت للعيش في أوروبا.

نسيت أن أذكر أن الظرف احتوى أيضاً على مجموعة كتب مثل الميثاق وفلسفة الثورة وهي توضح أدبيات ثورة 23 تموز/يوليو، وأعترف أن عقلي الصغير فشل في استيعابها، ولم أقرأ إلا بضع صفحات منها ووضعتها جانباً. لكنها ظلت تمثل كنزاً ثميناً بالنسبة إليَّ، فهي هدية من البطل جمال عبد الناصر... ما أجمل تلك الهدية!

تجربة أخرى في الكتابة يصعب عليَّ أن أنساها، لأنها شهدت لأول تفجُّر لـ«عبقريتي» الإنشائية. بدأت القصة عندما قرر أحد أصدقاء الطفولة، واسمه محمد، أن يحترف التسوُّل كمهنة، وكان من جيلي ولا يزيد عمره عن ست سنوات وينتمي إلى أسرة فقيرة معدمة لا تجد لقمة الخبز. طلب إليَّ محمد أن أكتب رسالة أشرح فيها حالة أسرته وفقره، وكان أميًّاً، إذ لم ترسله أسرته مثلنا إلى المدرسة. وقد سطَّرتُ له رسالة تؤكد وفاة والده، وأمه، وأخواته، وتفيد بأنه يعيش مع جده الضرير وجدته العاجزة، وهو يريد أن ينقذهم من الجوع.

كان محمد ممثلاً رائعاً، عاش الدور، واختار المنطقة الثرية من مدينة غزة، حيث يسكن الأغنياء، وكان يجلس على الرصيف، أو يطارد من يتوسَّم فيهم الثراء، ليعرض عليهم الرسالة مدعياً أنه أصم أبكم. ويبدو أنه نجح نجاحاً كبيراً في مهنته، فقد كان يعود في آخر النهار ومخلاته مليئة بالطعام والفاكهة والخبز وبعض القروش القليلة. وكان أحياناً يعترف بجميلي عليه، ويلقي إليَّ بحبَّة شوكولاتة أو بقايا ساندويتش كنوع من «العمولة»!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

البقاء على قيد الحياة

بعد وصول رسالة عبد الناصر إليَّ، صار الكل، منذ ذلك اليوم، يريد أن يصبح صديقي، وصرت بسرعة جزءاً من عصابة صغيرة يقوم أفرادها بكل شيء معاً، داخل المدرسة وخارجها. أصدقائي الثلاثة الأعز كانوا، علي، وهو ولد جريء ولديه موقف مضاد للسلطات، وحمزة، الحالم، ومحمد، لاعب كرة قدم الرائع. صرنا أصدقاء بعمر السابعة ولا نزال على تواصل حتى اليوم.

كان الفصل بين الجنسين مطبَّقا ولم يكن هناك زي مدرسي موحد، لكن كان علينا أن نكون مهندمين ونظيفين، وكان هناك تفتيش يومي قبل بدء الدروس. كنت قد ورثت الحذاء الوحيد في العائلة من أخي، لكنه كانت ضيقة جداً على رجليَّ، ما كان يسبب لي عذاباً حقيقياً. لا أزال حتى الآن أحس بالألم، كما لو كانت هناك صخور محرقة تسحق قدميَّ. اعتدت على لبسه خلال فترة التفتيش، ثم كنت أقضي بقية النهار حافياً مثل الباقين. كان هناك الكثير من الصبار داخل المدرسة وخارجها، وغالباً ما كانت الأشواك تخز أقدامنا - وأكثر الأولاد شعبية كان من معه إبرة لإخراج الأشواك. كان علي معتاداً على حمل واحدة في حزام البنطال.

وبسبب ذلك الحذاء الضيق، صرت أعاني من عقدة لبس الأحذية. فعندما أذهب لشراء حذاء، لا يهمني ثمنه أو لونه أو شكله أو جماله أو قبحه، وكل ما يهمني أن يكون طرياً ومريحاً، وهي مهمة عسيرة - ولا أزال أستغرب، بل أندهش عندما أزور بعض المحلات الفخمة مثل «هارودز» في لندن، وأجد أن هناك أحذية يصل ثمنها إلى أربعة آلاف جنيه إسترليني. أقترب من هذا الحذاء وأتحسسه، فأجده صلباً، وأقول في نفسي، ترى ما الفرق بينه وبين أحذيتي التي بالكاد يتجاوز ثمنها خمسين جنيهاً، وإن غلت فضعف هذا الرقم؟ أتساءل مرة أخرى من هو الذي يدفع أربعة آلاف جنيه، أي ثمن سيارة، لشراء حذاء؟ سؤال لا يزال يحيِّرني حتى هذه اللحظة، رغم تحسن أوضاعي المالية، ومعاشرتي لبعض الأثرياء بحكم المهنة، وربما بعض الشهرة.

كانت الملابس التي تقدمها الأونروا مرة في السنة سبباً في إحساسنا بالذل والإهانة... والمرح. كانت كل عائلة تحصل على مجموعة من الملابس المستعملة ملفوفة ببطانية، وكان الأمر يتعلق بالحظ وحده. يمكن في بعض الأحيان أن تحصل عائلة من العائلات التي لديها عدد كبير من الصبيان على ملابس فتيات فحسب. وعليه، كان يمكن أن ترى رجلاً عجوزاً بشوارب لابساً في الشتاء معطف امرأة ضيق الخصر ولونه زهريٌّ فاقع! أو تشاهد فتى مراهقاً يمشي بصعوبة في بنطال نسائي. كانت العائلات في غالبيتها فقيرة جداً إلى درجة أنها كانت تضطر لبيع أي ثياب تحصل عليها لشراء الأشياء

الأساسية، مثل السكّر والشاي، بثمنها. كانت حالة مأساوية. لم يكن هناك ما يكفي للأكل، ليس فقط لأن لا شيء هناك للبيع، بل لأنه لم يكن أحد يملك المال أو أي وسائل لكسب الرزق. كنا، حرفياً، نتضوَّر جوعاً، وأنا لا أزال أعاني من فقر الدم منذ ذلك الحين نتيجة لهذا الجوع، وبالتالي سوء التغذية. أما الحصص الضئيلة التي قامت بأودنا بالحدود الدنيا فقد جاءت من الأونروا.

حصلت مؤخراً على إحصائيات الأونروا لأعوام عقد الستينات ورأيت طفولتي وحياة عائلتي مرسومة بأرقام قاتمة وبتفاصيل مالية صارخة. ميزانية الأونروا الغذائية قدمت 13 دولاراً في السنة لكل فرد، وهو ما كان كافياً لتزويدنا بحصص من الطحين والسكر والأرزِّ والبقول والزيت، ولم يكن هناك أبداً أي لحم أو خضار طازجة أو فواكه. كانت كل عائلة تحمل بطاقة بلاستيكية مغلفة تشرح بالتفصيل كم فماً عليها إطعامه. كان هذا أيضاً نوعاً من وثيقة إثبات للهوية الشخصية، حيث إننا كنا جميعاً «عديمي الجنسية» رسمياً.

كانت الحصص الغذائية توزَّع مرة في الشهر في مستودع للأونروا يبعد 3 كيلومترات من المخيم. أذكر ذهابي مع والدي لاستلام حصتنا والأجواء الاحتفالية التي ترافق رحلتنا. كان معظم اللاجئين يذهبون سيراً على الأقدام، حاملين أكياساً من مؤونة البيت على ظهورهم، لكن أبي، ولكونه يعمل بزراعة الأرض، ميَّزنا برفاهية استخدام حمار، أي ما يعادل سيارة من طراز رولز رويس في مخيم دير البلح. في بعض الأحيان، كان موظفو الأونروا يسلمون سكان المخيم بعض التمور كنوع من التحلية الخاصة، وهو أقرب شيء عرفناه إلى الحلويات. عندما نستلم التمر ضمن حصتنا، كانت يدي تتسلل إلى الكيس الذي يحتويه طوال الطريق إلى البيت، مستخرجاً التمرة تلو الأخرى فيما الحمار يسير. مع وصولنا إلى البيت، أكون قد استهلكت أكثر بكثير من حصتي الطبيعية وغالباً ما تعرضت للضرب من أبي بسبب ذلك.

كان لدينا بعض الأقارب الذين حاولوا التلاعب بهذا النظام من خلال الادعاء أنهم فقدوا بطاقة الهوية واستخرجوا هوية جديدة. بهذه الطريقة استطاعوا الحصول على حصة مضاعفة لفترة من الوقت، لكن المخيم كان صغيراً جداً والوجوه مألوفة وبالتالي سرعان ما كُشفوا. لحسن الحظ، كان الشخص الذي كشفهم فلسطينياً يعمل في الأونروا، وليس واحداً من المشرفين الأوروبيين. كان الحصول على عمل في الأونروا وقتها حلم كل اللاجئين، لأنه كان يضمن الأمان والراتب الجيد، وكان أولئك المحظوظون الذين حصلوا على عمل هناك محسودين.

في أحد الأيام، عند الساعة الثامنة أو التاسعة، كنت أتمشَّى عبر المخيم مع أصدقائي ونحن نتذمر من شعورنا الدائم بالجوع، ونضحك على أضلاعنا الناتئة. بدا صديقي علي منهمكاً بالتفكير وقال: «تعالوا معي!» واصطحبنا إلى

طرف المخيم حيث أشار إلى الحقول الممتدة خلف أسواره؛ حقول مليئة بالمحاصيل والخضروات؛ أقربها كان مزروعا بالخيار. «كم أحب أن آكل واحدة من هذه!» قال حمزة. «من هو صاحب الأرض؟» سألت، والقلق ينتابني من المتاعب التي يوشك علي على إيقاعنا بها. «مزارعون من المدينة»، ردَّ علي. «أخي يعمل عند واحد منهم. أعتقد أننا إذا قفزنا فوق السور سنتمكن من أخذ بعض الخيار ولن يعلم أحد ما فعلنا». «ماذا لو شاهدنا أحد؟» سألت متردداً، ولكن متلهفاً لتذوق ثمرة خيار طازجة باردة. «عندها علينا أن نركض!» قال محمد، بطلُنا في الركض السريع. «لنقم بذلك» قال علي، مقسِّماً العمل مثل ضابط يوزع الأوامر على جنوده. «محمد، قف هنا لتراقب لأنك الأطول بيننا وسوف ترى أي شخص قادم. لنذهب!». أسرعنا بالزحف تحت الأسلاك الشائكة للسور وهجمنا على طرف الحقل، ونحن نركض ونلهث، مدفوعين بالأدرينالين والإثارة. تلك المرة لم يرنا أحد وذهبنا بغنائمنا إلى الشاطئ واستمتعنا بها على راحتنا.

ثمرة الخيار بالنسبة لنا كانت في مصاف الفاكهة، ولذلك كنا نجادل الأستاذ عندما كان يصنفها في فصيلة الخضار، ولا أزال أتعاطى مع الخيار على أنه فاكهة مثل التفاح أو الإجاص أو الكمثرى... وعلى أي حال لا يزال من أحب أنواع الخضار بالنسبة إليَّ حتى اليوم.

متشجعين بنتائج مغامرتنا، طوَّرنا بسرعة وسائل أخرى لإسكات جوعنا. تعودنا على قضاء ساعات محاولين اصطياد طيور النورس على الشاطئ، وعندما كنا ننجح في اصطياد أحدها ونتف ريشه، كانت مهمة محمد دائماً قطع رقبة الطائر وإفراغ أمعائه، لأنه كان الوحيد الذي يملك سكيناً. بعد ذلك كنا نشويه على نار الخشب المجروف للشاطئ وكان ذلك الطائر يمنحنا نحن الأربعة رفاهية بعض اللقيمات من اللحم المالح القاسي... إنه الجوع... والجوع كافر مثلما يقولون.

دير البلح، كما ذكرت من قبل، كانت مشهورة بتمورها. وسرعان ما طورنا خطة لسرقة بعض تلك التمور البضة السكَّرية الطعم. كانت عناقيد النخل تتطاول عالياً، وكان تسلُّق هذه الغيلان الطويلة أمراً أكثر صعوبة وجدية من عمليات الالتقاط والهرب في حقل الخيار. اكتشف أصدقائي أنني رشيق وقوي بما يكفي للوصول إلى قمة النخلة بسرعة، وهكذا كنت أنا من جرى إقناعه بالمجازفة بجسمه وحياته. «اذهب عبد الباري، أنت مثل السحلية»، قال لي علي فيما كنا واقفين نحدِّق بالفواكه البعيدة بأوراقها الوارفة. تلفَّت علي يميناً ويساراً ليتأكد من أن أحداً من الحراس الذين يوظفهم صاحب الأرض لا يتقدم باتجاهنا، وهو يبتسم لي. «اصعد إلى فوق الآن فلا أحد حولنا، ثم هزَّها بقوة وسوف نلتقط التمرات»، قالها بلهجة آمرة. «سوف نراقب

الحراس ونلتقط حصتك». صعدت، وعندما وصلت أخيراً إلى القمة، لوَّحت بانتصار إلى رفاقي تحت والذين بدوا ضئيلي الحجم بوجوههم المتجهمة المشرئبة باتجاهي، وهم يهتفون لي. بدأت بهزِّ النخلة وبدأ التمر ينهمر على الأرض، وبدأ شركائي في الجريمة بتجميعه. سعيت نحو الأجزاء المثقلة بالتمر وبدأت بهزِّها مجدداً، ولكن عندما راحت تتساقط رأيت أصدقائي يهربون بسرعة. نظرت إلى الأرض تحتي ولاحظت، ودقات قلبي تتسارع، طيف حارس يلبس ثوباً أبيض، حاملاً هراوة وهو يلوح بها باتجاهي.

بقيت والحارس في حالة جمود لما يقارب الساعة من دون أن يتحرك أحدنا. بعد ذلك بدأت لعبة القط والفأر: العدو يتظاهر بأنه رحل، فأبدأ أنا بالنزول. وحينما أقترب من جذع النخلة، يعود الحارس مرعداً وشاتماً وصارخاً وملوحاً بهراوته، فأعود أنا إلى الارتفاع بعيداً عن متناوله. قررت أن الصبر هو السياسة الوحيدة التي ستنجح. كان ذلك حصاراً نفسياً وعلمت أنني سأفوز. عقدت العزم على البقاء أعلى الشجرة طول الليل لو اضطر الأمر. كان يوماً حاراً، وبعد فترة لاحظت أن عدوي لم يعد يصدر صوتاً. ركزت سمعي لأتأكد من مكان وجوده وكدت أصرخ من الفرح عندما وصلني الصوت الخافت والذي لا يمكن الشك في كونه شخيراً. تركته يغفو لأكثر من عشر دقائق قبل أن أقرر المخاطرة بالانزلاق. هبطتُ ببطء وبصمت، وكان قلبي يقرع بقوة حتى خفتُ من أن يكون سبب القبض علي. في نصف الطريق إلى الأرض دقَّقت تحتي لأرى - كان مضطهدي قد لف نفسه حول جذع النخلة للتأكد من أنني لن أستطيع النجاة دون أن أوقظه. انزلقت بحذر من خلف النخلة، هابطاً على قدمي مثل قط وأسرعت بالهروب تاركاً إياه غافياً في الشمس الحامية. لم أجرؤ على إطلاق أي صوت إلى أن وصلت إلى بيتنا، لكنني حالما اجتزت الباب بدأت أقهقه بصوت عال.

قضينا وقتا طويلاً على الشاطئ، وفي أي وقت لا نكون فيه في المدرسة كنا هناك نلعب كرة القدم ونسبح، ونحن نقضم بعض العنب أو التين المسروق من أحد الفلاحين السيئي الحظ. كانت الشواطئ رائعة، برمالها المضيئة الشاحبة ومياهها الزرقاء الشفافة اللامعة. كان المشهد مثل دعاية لفردوس استوائي، ولا أحد كان ليعلم أنه جزء من سجن مفتوح، السجن الفعلي الذي كان يتحول إليه قطاع غزة. كان حمزة مفتوناً بالشاطئ وكان يجلس على الرمال محدقاً في الأفق.

«ماذا هناك في الطرف الآخر من البحر؟» كان سؤاله المفضل. تمكنا مرة من الحصول على أطلس من المدرسة مجهزين أنفسنا في حال طرح السؤال نفسه مرة أخرى لندهشه مرددين مثل جوقة الغناء «اليونان! تركيا! إيطاليا!» وليَعدنا بعد ذلك قائلاً: «سوف أعبر البحر عندما أكبر».

سنين طويلة مرت على ذلك، فعبر حمزة البحار وانتهى به الأمر مدرِّساً في مدرسة إسلامية في مالطا حيث تزوج امرأة من هناك ورُزق بطفل سمَّاه يوسف. التقيت به في لندن عام 1991 بالمصادفة المحضة في منطقة «شيباردس بوش». حدَّقنا الواحد بالآخر، أولاً بدهشة ثم بحبور، وجلسنا بعد كثير من العناق لساعات عديدة محتضنَين ذكرياتنا القديمة ونحن نشرب فناجين القهوة. كانت زوجة حمزة تملك محلاً لبيع الملابس وكان هو في لندن لشراء البضاعة. لكنه أخبرني أنه لن يكون مسروراً بالعيش في أوروبا. «أوروبا متطورة كثيراً ومالطا صغيرة كثيراً»، قال شارحاً. «أحكيك الصدق. أنا أحن للعودة إلى غزة، رغم أولئك الإسرائيليين الملعونين».

كنا دائماً عراة على الشاطئ لأننا لم نكن نملك ثياب سباحة - كنا محظوظين لو كانت لدينا أي ثياب تناسب مقاساتنا أصلاً. حتى صيادو السمك الذين يعملون على الشاطئ أو في قوارب صغيرة كانوا عراة. لم يعلِّمنا أحد السباحة؛ علمتنا الطبيعة. وقد قدَّم الشاطئ لنا الكثير مما يشبه الدراما. أتذكر في أحد الأيام أننا كنا مسرورين جداً لمشاهدة عشرة جمال يغسلها البدو في الماء، قبل أن يأخذوها إلى السوق في غزة. ثم كان هناك الصيادون المشغولون بتصليح شباكهم أو إصلاح قواربهم عندما لا يكونون في الصيد.

كان لدى الصيادين طريقتان لصيد السمك: الشباك والديناميت. إذا كان هناك الكثير من السمك، كانت الشبكة تكفي، لكن إن كان هناك سرب واحد، كانوا يطاردونه بقواربهم ثم يشعلون أصابع الديناميت ويرمونها في وسطه. يقتل الانفجار الأسماك فتطفو على سطح الماء. كان الصيادون بعد ذلك يغوصون ويجمعون كل ما يقدرون على جمعه. كنا في يوم من الأيام جالسين نراقب هذا المشهد الأخاذ عندما خطرت لعلي فكرة، قال: «نستطيع أن نعرض على الصيادين الغوص لالتقاط السمك». وأردف: «انظروا إليهم، بعضهم عجوز مهلهل - لا يستطيع حبس نَفَسه لوقت طويل. أراهنكم أننا نستطيع أن نجمع أكثر بكثير مما يجمعون». عندما رجع الصيادون إلى الشاطئ، ساومهم علي وبعد خمس دقائق كان لدينا عمل بأجر! الاتفاق كان أن نحصل على ثلث ما نجمعه.

سنحت لنا الفرصة بعد يومين فيما كان الصيادون يدفعون قواربهم إلى البحر. تسابقنا إلى القوارب ونحن نصيح من الفرح. كنت أنا ومحمد مع رجل يدعى أبو جنة. ذهب علي في قارب آخر مع الزعيم غير الرسمي للصيادين، سلمان. انطلقنا ونحن نجدف في المياه المترجرجة بسرعة كبيرة، وكان الرذاذ يتطاير إلى وجوهنا. فجأة، سمعنا صياحاً حين اكتشف أحد الصيادين سرباً من السمك. قال أبو جنة «بسرعة»، وأشعل قضيباً من الديناميت ورماه في البحر حيث انفجر محدثاً دوياً شديداً، واندفع ماء البحر باتجاه السماء الزرقاء. صاح

بنا: «اقفزوا». نظرنا إلى محمد، نظر إليَّ، ثم قفزنا، وبدأنا ندور في دوائر للغوص إلى الأسفل.

كانت رائحة الديناميت تفوح من البحر وكان الماء مظلماً بسبب الانفجار. لبعض الوقت كانت فقاعات الرمل والهواء هي كل ما نراه، ثم بدأنا بتجميع الأسماك الميتة، قبل أن تجرفها المياه، هابطة بعيون زجاجية مفتوحة إلى أسفل.

كان الصيادون سعداء بأدائنا، وأقمنا وليمة على الشاطئ من حصيلة عملنا الشاق. حصل كل واحد منا على أربع أو خمس سمكات على الأقل ليأكلها، كما أننا أطعمنا بعض أصدقائنا. تحوَّل الصيد بالديناميت إلى نوع من الرياضة الاعتيادية إلى يوم كنت فيه على القارب متأهباً للغوص عندما شاهدت زعانف مرعبة الشكل تطفو باتجاهنا. صرخ أبو جنة متحمساً لالتقاط ما اصطاده «اقفز!». صرخت به: «ما هذه؟» مشيراً إلى الزعانف. قال: «قرش». فصحت وأنا أتحسس ذراعي حول جسمي، واقفاً بعناد لا يتزحزح: «لا، لن أنزل!». آخر ما أذكره أنني قُذفتُ إلى الماء الذي تناثر من حولي بقوة - كان أبو جنة قد دفعني.

«اغطس!» قال أبو جنة آمراً. تطلعت حولي وأحسست بالاطمئنان لأن الشاطئ لم يكن بعيداً. ابتلعت كمية كافية من الهواء، واتجهت إلى الشاطئ بأسرع ما يمكنني، آملاً في أن تفضل أسماك القرش أن تتعشى بالأسماك الميتة على أن تصطاد ولداً.

كانت تلك آخر مرة أخرج بها مع الصيادين، لكنني بعد فترة لاحظت أن بعضهم كان مقطوع اليد أو الذراع. كانت عضَّات القرش، على ما يبدو، جزءاً من العمل. كانت أسماك القرش تنجذب إلى رائحة الدم عندما يتم تفجير السمك، وفي الاضطراب اللاحق للانفجار، ما كان ممكناً التفريق بين السمك وبين يد أو ذراع بشرية.

كان الشاطئ الممتد من دير البلح إلى خان يونس جميلاً وطبيعياً، ظل على حاله التي كان عليها ربما قبل مئات الآلاف من السنين. لم تفسده الحياة العصرية، إلا من خلال بعض الزفت وبقايا المازوت الذي تقذفه السفن العابرة.

كنت أعشق هذا البحر الذي أسير على شاطئه لمدة ساعة تقريباً من دون أن أصادف مخلوقاً. كان بحره ثائراً دائماً، وأمواجه عاتية. نادراً ما يهدأ. حتى إنني أستغرب هدوء بحار أخرى ذهبت إليها في حياتي المهنية أو لقضاء إجازة مع الأسرة. أتساءل دائماً لماذا بحرنا صاحب ثائر عنيف دائماً بينما بحارهم هادئة ساكنة... إنها بحار «مخنثة»!

أستغرب عندما أقرأ هذه الأيام تحقيقات صحافية أو سياحية عن شواطئ العراة، أو Naturists’ Beaches كما يسمُّونها. شاطئ دير البلح كان كذلك دائماً، والصيادون عراة تماماً، فلم يكن العري عيباً، وإذا اقترب أحد منهم، وضعوا أيديهم على عوراتهم. فالرجل رجل حسب مفهومهم... لكن هذا مخالف للشريعة طبعاً.

النساء كنَّ ينزلن إلى البحر بكامل ملابسهن، ولوحدهن، وفي أماكن نائية... وكنت في بدايات مراهقتي مع بعض الأصدقاء نسترق النظر من بعيد، وكم كانت فرحتنا كبيرة عندما تلمع ساق امرأة بفضل موجة عاتية... ما أجمل تلك الموجة... وما أجمل منظر تلك الساق بالنسبة إلى مراهق يحبو نحو النضج وتنتابه أحلام يقظة مزمنة حول الحوريات... أي حوريات، في دنيا الفناء أو دنيا البقاء... المهم أنثى وليس المهم الشكل أو الجمال... المهم أن تكون أنثى، هذا هو الشرط الوحيد والباقي تفاصيل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

ترفيه من نوع مختلف

كانت الأونروا تقوم أحياناً بتنظيم أنشطة ترفيهية أكثر أماناً للأطفال، في مخيمات اللاجئين، من صيد السمك. فمن حين لآخر كانت تصل مجموعات ملاهٍ متجولة تقوم بعروض مبهرة مليئة بالأضواء والموسيقى وألعاب ركوب الخيل الميكانيكية، ما كان يحوِّل الأراضي القاحلة المحيطة بالمخيم إلى مكان سحري ومثير. كانت الأونروا تعطينا بطاقات رمزية لاستخدامها في الألعاب التي تتألف من الدوارات والمراجيح، وكانت هذه البطاقات موضوعاً لأنواع المساومات بين الأطفال. كان علي ينجح عادة في العثور على أطفال بسطاء يبادلون بطاقاتهم بأشياء لا قيمة لها، مثل كعب قلم رصاص معلوك أو برتقالة متعفنة. كانت لديه ما يسميه الأيرلنديون «موهبة التعويض عن شيء بشيء» وكانت موهبة كبيرة. لم يكن علي نافعاً من الناحية الدراسية، فأخرجه أبو علي من المدرسة عندما كان في الثالثة عشرة من العمر وأمَّن له تعلُّم صنعة في محل لتصليح السيارات في مدينة دير البلح. كان صاحب المحل يبيع السيارات المستعملة أيضاً، وأصبح علي بسرعة عبقرياً في تصليح السيارات المتهالكة، فكوفئ بنسبة من الأرباح.

كانت جائزتي المفضلة التي تقدمها الأونروا هي السينما، وأول تجربة لي بمشاهدة الأفلام كانت وأنا جالس في الغبار في ساحة على أطراف المخيم، وكان الفيلم يُعرض على الحائط الوحيد السليم. كان المخيم كله يحضر لمشاهدة العرض، والناس يقرعون الطبول ثم ينغمسون كلهم بمتابعة القصة، وهم يصيحون على الشخصيات، ويضحكون ويبكون. شاهدت مرة رجلاً تأثَّر بالفيلم لدرجة أنه اقتنع بأنه حقيقي، فما كان منه إلا أن قفز واقفاً، متأهباً لمحاربة الشرير. عندما كبرنا أكثر، صرنا نذهب إلى مدينة غزة لمشاهدة الأفلام في صالة سينما حقيقية. أحببنا أفلام «الأكشن» أكثر من غيرها وكنا نصنفها بحسب درجة دمويتها. إذا لم يحصل إطلاق رصاص سوى مرة واحدة، كنا نشعر بأن أحداً غشَّنا ونحتجُّ على ذلك، أما عندما يكون السيناريو كله عبارة عن حمام دم مستمر، فكنا نخرج راضين لأن الثمن الذي دفعناه يستحق ما شاهدنا.

الحدث العظيم الآخر كان زيارتنا الشهرية إلى الحمَّام. كانت الأونروا توزع علينا قطعة واحدة من الصابون لنتشاركها. أفكر بهذا عندما أستحم في بيتي في لندن، وأشعر بالحزن حينما ألاحظ أن فقرنا كان شديداً لدرجة أننا كنا نعتبر قطعة صغيرة من الصابون رفاهية عظيمة في مخيم اللاجئين.

في أحد الأيام وجدنا كلباً صغيراً مشعَّث الشعر خارج بيتنا. لا تعامَل الكلاب بشكل جيد في البلاد العربية، لأنها تعتبر مصدراً للنجاسة وغالباً ما يصيحون

عليها لطردها، إلا إذا كان يمكن استعمالها لغرض مفيد، مثل الصيد أو الحراسة. كان هناك شيء محبَّب بهذا الكلب، وكنا، كأطفال، نتمنى أن يسمح لنا أهلنا بالاحتفاظ به. وافقت أمي بتردد وسميناه «كلب» - كما قلت، نحن العرب لسنا معتادين على الاحتفاظ بكلاب مدللة مثلما هو حاصل حالياً، ولا نطلق عليها أسماء مثل فيفي، أو سوسو... الكلب بالنسبة إلينا كان يجب أن يكون اسماً على مسمى: كلب حمش، كلب شرس، كلب ابن كلب. كنا نطعمه بقايا الطعام وصار رفيق لعب، لكنه لاحقا كشف موهبته في صيد الفئران ما عزز أهميته في المخيم. عندما انتقلنا إلى مخيم آخر للاجئين، كان علينا ترك «كلب» وراءنا مع بعض أقاربنا، وبعد أشهر قليلة سمعنا أنه هزل كثيراً بعد أن فارقناه، وقالت لنا جارتنا التي تولَّت العناية به بعد انتقالنا إلى مخيم رفح إنه ظل ينبح على أطلال بيتنا ويرفض الطعام حتى مات. إنها قصة محزنة لا أزال أتأثر بتفاصيلها حتى الآن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

آكبر من الحياة

لا أتذكر متى كانت أول مرة لاحظت فيها ولداً استثنائياً يدعى صالح العرّ، الذي سيصبح العضو الأخير في عصبتنا؛ لا بد أنني كنت في التاسعة أو العاشرة من عمري. عندما انتبهنا إليه صار موضوعاً دائماً للحديث بيننا. لقد شعرنا بالغيرة منه لأنه لم يكن يذهب إلى المدرسة، بل يقضي يومه بالتجوُّل بين الكثبان الرملية والحقول والشاطئ. كان يحمل سكاكين وكان فخوراً بها كثيراً، وكان يرميها بدقة تصويب شديدة نحو لحاء أشجار النخيل وأحياناً كان يصطاد بها السمك وهو يسبح في الماء. كان صلاح ولداً برياً حقاً وكان معتاداً على النوم في التجاويف الصغيرة التي تصنعها كثبان الرمال. كان أهله يُبدون لامبالاة تامة بتنقلاته أو أماكن وجوده. كان شعره طويلاً أشعث وشعر جسمه كثيفاً، لكن أكثر ما يثير الدهشة فيه أنه كان يملك ستة أصابع يد وستة أصابع قدم.

كان علي بالذات مفتوناً بصالح وصار يتمشى معه جلَّ وقته، مستعيراً سكاكينه وغامراً إياه بالإطراء. عندما أصبح صالح أخيراً واحداً من شلتنا، تميَّز عنا بشجاعته خلال غاراتنا على الكروم والبساتين. لكنه لسوء الحظ، كان غالباً من يقع في المشاكل، فبما أننا كنا حفاة، كانت بصمة قدمه ذات الأصابع الستة تفضحه.

فقدت الاتصال بصالح بعد أن انتقلنا من دير البلح إلى مخيم رفح للاجئين، لكن عام 1974 قرأت في جريدة أن واحداً من مقاتلي حرب العصابات «الفدائيين» استشهد خلال هجوم على دورية إسرائيلية. الصحيفة قالت إن بقايا المهاجم ضمت يداً بستة أصابع وقدماً بستة أصابع وبدا لي واضحاً أن صالح هو من مات في تلك العملية الفدائية.

عندما أصبحت بسن الثانية عشرة، تحوَّلت اهتماماتي قليلاً، ورغم أنني كنت لا أزال مجنوناً بكرة القدم والشاطئ، أصبحت، بشكل مشوَّش وغامض، مهتماً بالجنس الآخر. كنت خجولاً إلى درجة سخيفة ولم أجرؤ أبداً على الحديث إلى فتاة بعمري، لكن فتاة ذات شخصية لعوب في المخيم أسرتنا جميعنا، وكانت تدعى مبروكة.

رغم أنها متزوجة وتعيش مع زوجها وأطفالها – ولا بد أنها كانت في أواخر الثلاثين من العمر - كانت مبروكة تتمشى في المخيم متأنقة ومكحَّلة العينين، مطلية الشفتين بالحمرة الصارخة وتاركة غمامة من العطر خلفها. كان ذلك نوعاً رخيصاً من العطر المصري يذكِّر بالموت لأنه كان يُستخدم لدهن الجثث لإخفاء رائحة التحلل.

لم تكن مبروكة جميلة لكنها كانت تعرف كيف توظف مقتنياتها الحسية لتحقيق أقصى فائدة. كانت طويلة ومتغطرسة، تضع وشاحاً مطرزاً أبيض لا يكف عن الانزلاق عن شعرها السميك الأسود، وكانت ترمي نظراتها الشديدة الإغواء على كل رجل بين سن السادسة عشرة والستين. كان القيل والقال حولها متفشياً، وقد تحدث الناس أن الرجال كانوا يزورونها «للانبساط». كنا في ذاك العمر لا نفهم ما يقصدون لكنه كان مثيراً بما يكفي لنقضي الكثير من الوقت متسكعين حول منزلها الذي كان موقعه مناسباً لنا لأنه قريب من المدرسة، على طرف المخيم القريب من البحر. كانت هناك إشاعات تقول إنه إذا أخذ الرجل هدية لمبروكة - كيلو من السكر أو بعض الشاي - ودقَّ بابها، وأعجبها شكله، فإنها تقبل الهدية وتدعوه لبيتها. لم نتمكن أبداً من رؤية أحد يدقُّ بابها، لكننا سمعنا أحد جيراننا، سامي، يتهامس مع صديق نجح في «زيارتها». كنا معجبين بذاك الجار لأنه كان مراهقاً متمرداً فشل في كل امتحاناته وطُرد من المدرسة، وأضاف ذلك لجاذبيته وإعجابنا به، فالفاشلون في الدراسة كانوا أبطالاً يحظون بالتعاطف، على عكس الأذكياء الذين هم دائماً موضع غيرة وحسد. رحنا نصيح حوله: «أخبرنا عن مبروكة! هل انبسطت معها؟ ما الذي فعلتماه داخل بيتها؟». عقد سامي حاجبيه وقال لنا أن نذهب بعيداً. أصررنا على جواب منه، فكافأنا بابتسامة طويلة كما لو كان يستعيد كل لحظة من زيارته وتفاخر قائلاً: «سأقول فقط إنني قضيت وقتاً طيباً». كنا في حالة يأس لمعرفة ما كان يجري. كانت النساء اللغز الكامل وكنا الآن في مهمة، مراقبين باب مبروكة الخارجي. مكافأتنا جاءت أسرع مما كنا نتوقع. بعد أيام قليلة من مراقبتنا، جاء سبعة رجال شرطة فلسطينيين مسرعين إلى البيت، خمسة منهم أحاطوا به، بينما قام الاثنان الباقيان بكسر الباب. قام رجال الشرطة بإخراج رجل عارٍ، ومبروكة بثيابها الكاملة. وقفنا فاغري الأفواه نتفرج مذهولين على الرجل، ليس لأنه كان عارياً فحسب، بل لأننا عرفناه: كان أحد رجال الشرطة الذين يقومون بدوريات في المخيم! أجبره زملاؤه الذين يرتدون زيهم الرسمي، ومعه مبروكة، على المرور في موكب العار طول الطريق عبر مخيم اللاجئين مروراً بالمدينة ووصولاً إلى مركز الشرطة، على بعد كيلومترين. تجمعت حشود واصطفت على جانبي الطريق مرددة الإهانات وناثرة الرمل والحصى عليهما. كان رجل الشرطة مكللاً بالمهانة، يحاول بإصرار تغطية أعضائه التناسلية، غير أن مبروكة رفعت رأسها ومشت كأنها ذاهبة للتسوق. كنا نحن الأطفال نقفز حولهما ضاحكين. كان المشهد أشبه بكرنفال بالنسبة لنا، فيما كان الحشد يصرخ باتجاه رجل الشرطة العاري: «يا نذل! يا شيطان!». أُطلق سراح مبروكة بعد يومين واستمرت في طريقة عيشها كأن شيئاً لم يحدث. غير أننا لم نعد نرى رجل الشرطة بعد ذلك.

خلال الانتفاضة الأولى، كنت جالساً في مكتبي في «القدس العربي» أتحدث مع زميلة، وسألتني عن المرأة التي قابلتها والتي لا أنساها. أتوقع أنها ظنت أنني سأقول «مارغريت ثاتشر» أو «إنديرا غاندي»، لكنني أجبت مازحاً: «مبروكة»، وأخبرتها قليلاً عن تلك المرأة. قلت: «أحب الشخصيات التي هي أكبر من الحياة نفسها، ولا يهم إن كنت أوافق على سلوكها أو لا أوافق - لكنها، ببساطة، تمتعني». بعد أيام قليلة، كانت الزميلة نفسها تقرأ الأخبار التي تأتي تباعاً من أجهزتنا القديمة لبث الأنباء. قامت بقصِّ القصة التي قرأتها وجاءت بها إلي. قالت وهي تدقق في الورقة بسرعة: «عبد الباري! تتذكر كلامك عن مبروكة... هل كان اسم عائلتها «س.»؟ (لا أستطيع كشف هويتها الحقيقية لأسباب واضحة). أكدت لها أنه نفسه. قالت: «انظر لهذا الخبر، مقتل «مبروكة س.» على يد مسلحين فلسطينيين بعد اكتشافهم أنها تقوم بالإخبار عنهم للإسرائيليين». قلت: «أنا متأكد من أنها هي، مبروكة والولاء كانا يمشيان بطريقين متعاكسين، ما كانت كل حياتها لتؤمن بأمر كالوطن أو الوطنية. كانت تؤمن فقط بالبقاء على وئام مع السلطات، إسرائيلية كانت أو مصرية أو فلسطينية. كانت تعتبرهم شكلاً من الحماية ولم يكن يهمها من كانوا. مات الملك عاش الملك. هذه كانت الطريقة التي تعيش بها».

بعد سنوات، سمعت من زملاء صحافيين ميدانيين أن ابن مبروكة الأكبر لقي حتفه أثناء القتال ضد الإسرائيليين خلال الانتفاضة وأن أحد أحفادها مات أيضاً شهيداً. بهذه الطريقة نجح الفدائيان في استرداد شرف العائلة.

مبروكة هي الآن بين يدي الخالق عز وجل، وهو الذي سيقرر مكانها في النار أو الجنة، وكم ستطول إقامتها إذا كان الخيار الأول هو ما تستحق، لكنها كانت إحدى الشخصيات الأبرز في المخيم. ولو كنت منتجاً سينمائياً لموَّلت فيلماً عن حياتها وأسرتها لما تنطوي عليه من صخب ومواقف تلخِّص بعضها جانباً من حياة المخيم وطبيعة القوى والصراعات فيه تحت السطح وفوقه، حيث يختلط الجنس مع القوى مع السلطة مع المال مع النفوذ مع المراهقة مع الشبق، خليط عجيب يعكس النفس البشرية بكل جوانب قوتها وضعفها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

والدي

كان اسم والدي محمد ولم أره يوماً مبتسماً. ورثت عنه شيئين: قرحة في المعدة ورقم سبعة المحفور بعمق في وسط جبهتي (البعض يسمونها «خطوط التجهم»). كان دائماً يلبس كوفية وفقد اثنين من أسنانه الأمامية، وانتصب مكانهما سنَّان ذهبيان مصنوعان بشكل بدائي. رغم كل ما حصل له، بقي صامداً وقوياً إلى النهاية. تجهمه كان أشبه بالعادة العسكرية، كما لو أن ابتسامة أو ضحكة منه قد تعني عدم الانضباط.

وكأنه لم يعانِ كفاية في النكبة، عندما خسر كل شيء وأصبح لاجئاً، جاءه عام 1959 بمصائب أسوأ. قام مخبر بإعلام السلطات المصرية التي كانت تدير قطاع غزة أن والدي يمتلك مسدساً، وسرعان ما قامت الشرطة المصرية بزيارته. يومها، كانت امرأة بدوية تدعى مريم تزورنا، وفيما هي تحتسي الشاي وتثرثر مع والدي، جاء ولد راكضاً إلى بيتنا لإنذارنا بأن الشرطة قادمة باتجاهنا. همست والدتي لوالدي الذي كان يحمل المسدس، كما يفعل دائماً، في محفظة بجيب بنطاله: «مسدسك!». أخرج أبي المسدس من المحفظة وأعطاه لمريم التي خبأته تحت ملابسها وقامت. في تلك اللحظة، اقتحم أربعة رجال شرطة مدخل البيت. صرخت مريم وتظاهرت بالإغماء من الخوف. أشار رجال الشرطة إليها بأن تغادر المكان فركضت مسرعة، واضعة يدها على فمها. قال العنصر الآمر في الدورية «محمد عطوان، لدينا أسباب للاعتقاد بأن سلاحاً نارياً موجود بحوزتك». أنكر والدي ذلك. «ما هذه إذاً؟» قال الشرطي مشيراً إلى المحفظة الفارغة (جراب المسدَّس). «وما هذه؟» أضاف رجل شرطة ثان كان يفتش في الأغراض الموجودة بين الفُرش الموضوعة على الأرض ووجد مخازن طلقات عديدة للمسدس محشوة بالذخيرة. قال والدي، محاولاً أن يبدو مقنعاً: «أرتدي محفظة المسدس لأنني أحب أن أتظاهر بأن لدي مسدس. والأولاد أحضروا هذه الخزائن، لا أعلم من أين».

اعتقل رجال الشرطة والدي وأخذوه معهم. لم نره بعدها لستة أشهر، علمنا خلالها أنهم قاموا بتعذيبه يومياً في محاولة لإجباره على الاعتراف. قاموا بتعليقه من قدميه إلى السقف، وتعرض للضرب واللكم على وجهه. كان والدي يعرف أنه إذا اعترف سيُسجن خمسة عشر عاماً، واستطاع بطريقة ما تحمل الألم وتأكيد براءته حتى النهاية. بعد فشلهم في انتزاع اعتراف منه، قاموا بإطلاق سراحه، لكن تغيراً كان قد أصابه سيلازمه حتى النهاية. صار يسير منحنياً وأصبح أكثر ابتعاداً عن الناس وشديد المرارة، يغلي دائماً من الغضب والشعور بالمهانة. عانى من ألم في الظهر وعذبته الكوابيس إلى نهاية حياته.

عام 1965، كنا عشرة أبناء، وكان والداي مصممَين على كسر كل الأرقام القياسية في إنتاج الأطفال، عندما بدأت صحة والدي تتراجع. كان دائماً صلباً جسدياً وعقلياً، ووجدت من المزعج لي أن أشهد تدهوره. استثمر آماله في المستقبل في أولاده وكان صارماً معنا لأنه كان يؤمن أن الانضباط وحده، والانضباط الذاتي خصوصاً، يمكن أن يؤدي بنا إلى إنجاز ما كنا قادرين أن ننجزه. كنت الأقرب إليه وكان كثيراً ما يكرر أمامي أمنيته أن أحقق الكثير وأن أكون قوياً، من أجلي ومن أجل الآخرين. قالت لي أمي، بعد سنين، إنه على سرير الموت أخبرها: «من بين كل أولادي، هذا الولد، سعيد، سيقوم بشيء مختلف».

كان في الثانية والأربعين من العمر لكنه بدا أكبر بكثير. كان قد فقد الكثير من الوزن وتذمر من ألم في أعلى بطنه، مؤلم إلى درجة الإحساس بأنه صار ضعف عمره. واحد من أولاد عمومته، حسين (الذي كان يعمل مع الأونروا)، كان يعرف بعض المعلومات الطبية. نظر إلى والدي وأصر أن يذهب به إلى المشفى. لم يكن ذلك قراراً سهلاً - المشفى كان يبعد أربعين كيلومتراً - لكن حسين استأجر سيارة من دير البلح وأخذه إلى المشفى بنفسه.

في اليوم التالي، ذهبت أمي وعماتي مع حسين إلى المشفى لزيارة والدي، وعادوا بجثته على محفة، مغطّاة بكفن. انفجرت معدته بسبب القرحة ما أدى إلى نزيف قاتل. انهارت أمي. لقد تمكنتْ معه من النجاة عبر كل الكوارث التي عانياها وكان هو كل شيء بالنسبة لنا.

التقاليد الإسلامية والأسباب العملية تمليان القيام بعملية دفن سريعة - لا توجد مشرحة مزودة ببراد في مخيم اللاجئين - لكنهم تركوا جثة والدي في البيت لعدة ساعات لنودعه. بقيتُ في الخارج. كنت أعيش صدمة هائلة ولم أستطع أن أرى الجثمان. لم تكن لدي الشجاعة. في نهاية المطاف، أخذنا والدي إلى المقبرة لدفنه. شعرنا بالفقدان التام. أخواي الكبيران كانا بعيدين: عبد الفتاح كان يدرس الهندسة الزراعية في مصر وكمال كان يعمل مدرساً في المملكة العربية السعودية. في سن الخامسة عشرة، كنت أكبر الأولاد الباقين في البيت، وفيما كنت أبكي على والدي أدركت أنني على وشك أن أصبح رب الأسرة. قمت بتعزية والدتي والتفريج عن أختي الكبرى، ورعيت إخوتي الأربعة وأختيَّ الأصغر مني سناً، ورتبت لاستقبال العزاء، ووقفت على رأس خط المستقبلين من العائلة والأصدقاء، لأرد على تعازي الناس، ولأقدم لهم القهوة. كان صعباً عليَّ أن أتقبل هذا الدور الجديد في ذلك الوقت لكنني أجبرت نفسي على ذلك، وأعتقد أنني تغيرت كثيراً في تلك النقطة من حياتي. لاحظت أن الحدود التي نضعها لأنفسنا ليست حقيقية ويمكن توسيعها دائماً، وأننا نصبح أقوى كرد فعل على تجاربنا، وليس نتيجة واقع الحال.

بعد العزاء، كانت لدي مهمة أخيرة أقوم بها. كانت أمي مضطرة لدفع عربون للنقَّالة وكان هذا المبلغ، الذي لا يمكننا أن نخسره، سيُعاد إذا أعدنا النقالة إلى المستشفى. تمكنت من الحصول على مكان في سيارة أجرة عامة من السيارات التي تستخدم في مدينة غزة. كانت سيارات الأجرة هذه معتادة على الزج باثني عشر شخصاً في حيز مخصص لستة على الأكثر. التصقت بالباب والشباك مفتوح، ومؤخرة النقالة على أرض السيارة بين قدمي، وامتداد بقيتها خارج بالكامل من الشباك، تُصارع الريح مرتفعة فوق سقف السيارة. كان منظراً كوميدياً لكنني لم أكن قادراً على الضحك. على طرف مدينة غزة أنزل السائق الركاب فيما أكملت مشواري على قدميَّ إلى المشفى، والتي كانت تبعد 3 كيلومترات من حيث أنزلني. عندما وضعت ممرضة القطع النقدية القليلة في يدي، توطّد في داخلي تصميم على أن أجمع ما يكفي من المال لأحمي أمي من هذه الحالة اليائسة حالما أستطيع.

أعترف بأن علاقتي مع والدي في سنواته الأخيرة لم تكن وردية، فقد استحققت أكبر قدر ممكن من غضبه، وصفعاته، وعانيت كثيراً من قسوته وأسلوب تربيته الصارم. السبب أنني كنت أجادل وأحاول أن أقنعه بوجهة نظري، وهذا أمر كان ينظر إليه على أنه خروج على فروض الطاعة الأبوية. كنت متمرداً وصعب المراس، ما عرَّضني للكثير من الضرب من والدي.

أذكر أنني ذهبت إلى المدرسة للاطلاع على نتائج امتحان نهاية المرحلة الابتدائية، وكنت في الثانية عشرة من عمري، وكانت المدرسة تبعد نحو ساعة مشياً على الأقدام. عندما وصلت إلى هناك وجدت الناظر والأساتذة في انتظاري، فقد حصلت على الترتيب الأول في المنطقة بأسرها. وقرروا تكريمي. وأذكر أنهم أعطوني جائزة عبارة عن معجون وفرشاة أسنان ولعبة خشبية. وكانت المرة الأولى في حياتي التي أتعرف فيها على الفرشاة والمعجون. وتمنيت لو أن الجائزة كانت قطعة حلوى، فتنظيف الأسنان لم يكن من عاداتنا بل من عادات الأغنياء المترفين المدللين حسب تصنيفنا الطبقي في ذلك الوقت، بل لا أبالغ إذا قلت إننا كنا ننظر إليها كإحدى بدع الاستعمار الغربي!

المهم أنني عدت إلى والدي متأخراً بعض الشيء، فرحاً بإنجازي الكبير. تقدمت نحوه لأزف إليه خبر تفوقي، لكنه بادر بصفعي فور وصولي، وانهال عليَّ ضرباً لأنني تأخرت. حاولت أن أشرح له السبب لكنه لم يسمع، حتى إن أحد أصدقائه الذي كان جالساً معه شاركه وليمة الضرب والركل تضامناً ومؤازرة!

لا ألوم والدي على قسوته فقد كان عليه أن يوفر لقمة الخبز لقبيلة كبيرة وهو الرجل المريض. وأعترف له بشجاعته ورجولته، فقد كان يتسلل مخترقاً

الحدود لإحضار ما تركته العائلة بعد إجبارها على مغادرة البلدة بعد نكبة عام 1948، ولم يعترف مطلقاً بامتلاكه أسلحة، بل ربما بالاتجار بها عندما اعتقلته السلطتان الإسرائيلية والمصرية رغم التعذيب الوحشي الذي تعرض له.

كان شقيقي الأكبر كمال، وترتيبه الثاني بيننا، أكثر دبلوماسية مني في التعاطي مع الوالد، فقد كان يوافقه في كل شيء ولا يرفض له طلباً، ولا يجادله مطلقاً، ولذلك حظي بمعاملة خاصة، وتجنب الكثير من الضرب والصفع؛ كان عكسي تماماً.

شقيقي الأصغر بشير الذي كان يبلغ من العمر ثلاثة أعوام، عندما توفي أبوه، كان دائم السؤال عن أبيه الذي لم يره، أو لم يعرفه، وكانت أسئلته تترك في نفسي حسرة وشفقة، كما كان يرفض أي كلمة نقد عابرة في حق أبينا عندما نجتمع ونتذكر أيام طفولتنا الأولى، بل يحاول أن يجد له الأعذار.

كانت أمي، واسمها ظريفة، شابة في الثامنة والثلاثين من العمر. ورغم حملها وإنجابها عشرة أطفال، كانت لا تزال امرأة مرغوبة. كانت جميلة، بعينين زرقاوين وشعر طويل داكن - وقد ورث كل أشقائي ملامحها، وكنت الوحيد الذي ورث ملامح والدي. حاصر أمي الخاطبون منذ بداية ترملها، بمن فيهم واحد من أولاد عمومتها، لكنها رفضتهم جميعاً وقالت: «أنا متزوجة من أولادي. سأكرس نفسي لرعايتهم وتربيتهم وليس هناك مجال لشيء آخر في حياتي». قررنا مغادرة دير البلح والذهاب إلى مخيم رفح للاجئين. كانت جدتي تعيش هناك، وكذلك أعمامي، وحسب تقاليد العائلة، أصبحنا تحت حمايتهم بعد أن توفي والدنا. كانت الحماية ضرورية، فقطاع غزة مكان قاس. أختي الأكبر، سعاد، كانت في السابعة عشرة، وفي الطرف الآخر من السلسلة، كان أخي بشير ابن الثلاثة أعوام. لا يتذكر بشير أي شيء عن والده، ما أفسد حياته بأشكال عديدة.

عندما استلمت لاحقاً، بسبب كتاباتي، تهديدات بالقتل من الكوكلوكس كلان، شغلتني كثيراً فكرة أنني لو متُّ فإن ابني كريم، الذي كان عمره عاماً واحداً آنذاك، لن يتمكن من معرفة والده، وسيصبح شخصاً غاضباً وممتلئاً بالمرارة مثل بشير. وكان دعائي الدائم لله هو أن لا يجعلني أموت قبل أن يكون كريم قد عاش سنوات كافية مع أبيه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

مخيم رفح للاجئين

كان والدي قد ترك مبلغاً صغيراً من المال سمح لنا بالحصول على بيت متواضع في طرف مخيم رفح، يجاور بيت جدتنا. تلك العجوز، السيئة الحظ، لم تكن تستطيع الخروج من منزلها نتيجة التهاب مفاصل شلَّ وركيها. لم تكن كراسي المقعدين المتحركة بعجلات متاحة في تلك الأيام - كانت غالية جدا - والطريقة الوحيدة التي يمكن لجدتي فيها أن تتحرك هي أن تزحف مثل طفل. احتاجت جدتي الكثير من العناية وكانت عمَّاتي مسرورات لقدوم أمي للمساعدة في غسلها وإطعامها. أحد أبناء خالتي كان يعيش مع جدتي؛ كان عبد الله شاباً جاداً يأتي ويذهب بسرية، ونادراً ما كان يتحدث مع أحد. تمكنَّا من تأسيس بيت مريح بمساعدة العائلة والجيران، وبقليل من المال الذي بقي اشترينا لأمي بعض الدجاج والبط لتقوم بتربيتها بهدف بيعها وبيع بيضها. قامت أمي أيضاً بتربية بعض الحمام الذي كنا نسمِّنه بالحبوب والتوت، لنأكله من حين لآخر كمكافأة خاصة ونادرة. كان عليَّ أن أنظم شؤون تسجيل إخوتي وأخواتي في المدارس، ومقابلة مديريها وحضور اجتماع أولياء الطلبة أحياناً. كما تابعت الدراسة في إحدى المدارس الثانوية التابعة للأونروا. كان رفح هو المخيم الأكبر والأكثر كثافة سكانياً في قطاع غزة؛ وهو يقع على الحدود مع مصر، وكان آنذاك موطناً لحوالي 50 ألف لاجئ، غير أن هذا الرقم تضاعف اليوم. من وجهة نظري، كان هذا المخيم أفضل من مخيم دير البلح؛ كان هناك الكثير من المراهقين، والكثير من الفتيات وبعضهن سافرات، وهذا أمر مهم بالنسبة لي!

عندما وصلنا، كان أترابي قد شكلوا جماعات من الأصدقاء وأحسست في البداية بالوحدة وبأنني مستبعد. بعد ما يقارب الأسبوع، قمت بأكثر من محاولة للحديث مع فتى يقارب عمره السادسة عشرة يدعى زكي. كان طريفاً واستمتعت بصحبته. كان زكي شخصاً تحبه النساء لوسامته رغم صغر سنه، وقد علَّمني كيف أضع الـ«فازلين» على شعري وكيف أمشطه إلى الوراء. أشار زكي عليَّ أيضاً بأهمية أن ألبس بناطيل طويلة لأن ما من فتاة يمكن أن تهتم بولد يلبس سروالاً قصيراً. قمت بمحاولات مرتبكة لأبدو جذاباً لكنني كنت طويلاً، نحيلاً: كنت شخصاً ميؤوساً منه بالمقارنة مع زكي. كانت هناك عادة في رفح ذلك الحين، وهو أنه إذا أعجبت فتاة بشكل شاب فإنها ترسل له منديلاً معطَّراً. الشبان ذوو الشعبية بين البنات كانوا يتلقون العديد من المناديل التي يدسُّونها في جيوبهم. زكي نفسه كانت لديه خمسة منها وكنت أتحرق شوقاً للبدء بجمع مجموعتي الخاصة، ولكن من دون نجاح. في إحدى المرات، اعتقدت أنني جذبت اهتمام فتاة تدعى ثريا، بعد لقاء عينيَّ بعينيها مرة أو اثنتين، وضحكها واحمرارها خجلاً عندما قلت لها مرحبا. انطلاقاً

من إحساس مطلق باليأس، قمت بنظم قصيدة رومانسية ودسستها في يد الفتاة في أول فرصة سنحت لألتقي بها. بعض الأسطر لا تزال محفورة في ذاكرتي، وقد قدَّمت فيها نفسي بصفتي «القمر الشرقي»، بينما الفتاة «الشمس الغربية»، بحسب موقع كل منا على خريطة المخيم، قبل أن أنتقل للتكهن أين سيلتقي هذان النقيضان. في المرة التالية التي رأيت فيها ثريا، حيَّيتها فتجاهلتني. نظرت إلى عينيها فقوبلتُ بأشد نظرة فولاذية واجهتها في حياتي. لقد جرى «هجري» قبل أن أبدأ حتى. هذه التجربة صدَّتني عن كتابة الشعر للأبد، ولم أعد أحاول التعامل مع هذا الشكل الأدبي مرة أخرى، رغم أن العديد من أصدقائي شعراء مهمُّون. كانت ثريا قصيرة ممتلئة بيضاء، نصيبها من الملاحة متواضع جداً، لكنها المراهقة، لعنها الله، والحرمان، وما أقساه، يضفيان الكثير من المبالغة على الأشياء، فيتضخم الصدر ويبلغ أكبر من حجمه، ويزداد حَوَرُ العينين، وتصبح الفتيات العاديات فاتنات!

يظل لثريا فضل كبير عليَّ، وهو اعتزالي نظم الشعر مبكراً، وحمدت الله كثيراً في مرحلة لاحقة عندما تضخَّم عدد الشعراء العرب بفعل موجة ما سمِّي الشعر الحر وقصيدة النثر وفيضان النشر حيث أختلط الحابل بالنابل وبات الشعر مشاعاً.

عام 2002، سافرت إلى الإمارات العربية المتحدة لإلقاء محاضرة. كانت القاعة مليئة بالجمهور، وبعد الأمسية جاء عديدون للسلام عليَّ، أو لطلب توقيعي على «أوتوغراف» أو لأخذ صورة معي. آخر الواقفين كان شخصاً متقدماً في السن، كما اعتقدت، مهندماً وأنيق الملبس، شعره مزيَّت جيداً. قال ضاحكاً: «لا أعتقد أنك تتذكرني، عبد الباري؟». كان ذلك صديقي القديم «دون جوان» المخيم ومحطِّم قلوب العذارى والفاتنات، زكي، الذي كان صديق الطفولة المقرب جداً إليَّ، ومصدر إعجابي. دعاني إلى بيته في الفجيرة واكتشفت أنه متزوج، ولديه تسعة أطفال، ويعمل سائق حافلة مدرسية.

في مراهقتنا كنا مهووسين بالأمور العاطفية وغالباً ما تناقشنا في كيفية لقاء آبائنا وأمهاتنا. عائلة أحد الصبيان، إسماعيل، كانت لديها قصة مثيرة: مثل عائلتي، جاءت أسرته من أسدود، ووالده، محمد، كان يسافر من حين لآخر إلى يافا على الحمار ليبيع القمح والشعير. كان اعتيادياً بالنسبة للقرويين الاستفادة من أنواع التسلية التي توفرها المدن الكبيرة، وكانوا غالباً ما ينفقون كل ما جمعوه من عملية البيع في نوادي الليل وحضور الحفلات الفنية. قال إسماعيل: «في إحدى الليالي في يافا، قابل أبي فتاة جميلة. وقع في حبها من النظرة الأولى وقرر أن يتزوجها. عارضت العائلة ذلك، بل إن القرية كلها عارضت... واستنفروا جميعاً ضدها! «الزواج من فتاة من خارج

القرية! شيء لا يمكن تصوُّره!»، تابع إسماعيل ضاحكاَ: «غير أن والدي كان مصمِّماً على الأمر، وسرعان ما أحضرها إلى القرية للزيارة. دُهشت النساء لثيابها المدنية - كان اللباس الوحيد المقبول في ذلك الحين هو الثوب - لكن أكثر ما اعتبرنه فضائحياً كان أنها تنتعل حذاء! لا أحد كان ينتعل حذاء في تلك الأيام، فهذا ترف لا يحتمله أهل القرية، ويعتبرونه بدعة مدنية غربية مذمومة! كل الناس كانوا يمشون حفاة. حصلت ضجة هائلة!». أخذنا نضحك جميعاً إلى أن توجَّعت خصورنا. قلت معقباً: «كان ذلك زلزالاً اجتماعياً!». تابع إسماعيل: «وعندئذ، عندما جلست العائلة للأكل، طلبَت سكيناً وشوكة!». فتعالت ضحكاتنا، غير أن إسماعيل ما لبث أن أصبح جدياً عندما بدأ يسرد تفاصيل الزواج الذي ولد من حب عميق متبادل، وهو أمر، يجب أن أعترف، كان واضحاً حتى من عشرين عاماً أو أكثر.

في أحد أيام تموز/يوليو 1967، أي بعد احتلال قطاع غزة، كنا جميعاً جالسين في الظل خارج بيت إسماعيل، مسندين ظهورنا إلى الحائط، حين شاهدنا مجموعة غريبة من الناس تقترب منا. كانوا إسرائيليين، لكنهم لم يكونوا جنوداً، من النوع المخيف الذي كنا معتادين عليهم؛ بل كانوا مدنيين، وأحدهم حاخام. قفزنا واقفين، غير مدركين ماذا يجب أن نفعل، وركض إسماعيل لإخبار والده. بادر الحاخام قائلاً: «مساء الخير، هل هذا منزل داود؟». ظهر محمد حينذاك من الباب المظلل، وهو يمسح يديه بجلابيته قائلاً: «أنا هو». قال الحاخام: «نحن نبحث عن زوجتك». رد محمد: «لماذا؟ ما الخطأ الذي ارتكبته؟»، وهو ينظر حوله ليرى إن كان أحد من الجيران يراقب، ثم أصر على أن يدخل الجميع إلى الدار حيث بدأ هذا النقاش: قال الحاخام: «جئنا لنعيدها معنا، إنها يهودية ونريد أن نعرض عليك فرصة المجيء معها لتعيش في إسرائيل. يمكن أن تصبحوا إسرائيليين، وأولادك يعتبرون يهوداً...» لكن قبل أن ينهي الحاخام كلامه، كان محمد قد هرع إلى جلابيته ملتقطاً خنجراً رفعه بيده وقال بصوت خفيض ولكنه يرتجف من التأثر: «أرجوكم غادروا البيت. لقد كتمت هذا السر عشرين عاماً. زوجتي اعتنقت الإسلام من سنين طويلة ولا أريد أن يُذكر هذا الموضوع أمامي مرة ثانية». غادر الإسرائيليون وهم يهزون رؤوسهم غير مصدقين، وأقسمنا أنا وإسماعيل على إبقاء الأمر سراً بيننا. في وقت لاحق، سأل إسماعيل أمه إن كانت قد فكرت بالانتقال إلى إسرائيل، فتلقَّى صفعتين.

خلال تلك الفترة، قام صديق آخر لي، ذو عينين مشرقتين واسمه إبراهيم، بتوجيهي إلى شيء مختلف تماماً: الراديكالية السياسية. كان قد قرأ ماركس وكان يحب الفدائيين الذين ينادون بالمقاومة المسلحة ضد الاحتلال وكان ضد أي قوانين قمعية. كانت تلك المرة الأولى التي أسمع فيها أحداً يتكلم على «الاستشهاد». كانت عيناه تلمعان وهو يقول: «أريد أن أموت شهيداً، وسوف

آخذ معي أكبر عدد ممكن من أولاد الحرام الإسرائيليين هؤلاء». في مسعاه لتحقيق هذه الرغبة، ترك إبراهيم غزة إلى الأردن عام 1967، حيث انضم إلى فتح، واستشهد عام 1968 مع 120 من رفاقه في معركة الكرامة، وكلما غلبني الحزن على موته كنت أذكِّر نفسي بأن الشهادة كانت مطلبه.

مثل دير البلح، مخيم رفح للاجئين كان لديه نصيبه من الشخصيات.

رجل واحد، على وجه الخصوص، لا يغادر ذاكرتي، وهو الشيخ محمد. في ثقافتنا، نسمي أي شخص معاق بأي شكل من الأشكال «شيخ» دليلاً على احترامنا لقضاء الله وقبولنا بأمره في كون هذا الشخص على ما هو عليه، فالإعاقة ليست لذنب ارتكبه ولا نتيجة خطأ فعله. الشيخ محمد كان معاقاً ذهنياً وأصم وأبكم. كانت لديه عادة مزعجة؛ كان يلبس جلابيته من دون سروال داخلي، وحيثما قابل امرأة، كان يرفع جلابيته ويكشف عورته. ورغم الصدمة التي تتعرض لها النساء، فقد كنَّ معتادات على الضحك والحديث عن «عدَّة» الشيخ محمد التناسلية التي كانت ضخمة، بكل المقاييس.

كان الشيخ محمد صديقاً مقرَّباً لأرملة عجوز تدعى أم خليل، لديها بيتها الخاص، وكانت تعتني به. كان معتادا على حمل دلاء من الماء من النبع إلى بيتها، قبل الدخول. بعد ساعة كان الشيخ محمد يظهر مجددا، بعد أن تم تحميمه وتنظيفه وعلى وجهه تعبير واضح عن الرضا والقناعة. كان هذا موضوع ثرثرة من حين لآخر في المخيم، لكن لا أحد كان يعلم بشكل مؤكد ما يجري داخل بيت الأرملة، وكونه لا يستطيع التواصل بالكلام مع الناس، ما كان الشيخ محمد قادراً على إخبارنا أي شيء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

مذبحة

كان قد مضى عليَّ في رفح أكثر من سنة بقليل عندما اندلعت حرب الأيام الستة في 5 حزيران/يونيو 1967. احتل الإسرائيليون قطاع غزة معيدين معهم الذكريات المخيفة لأمي التي التوت ركبتاها وكاد يغمى عليها حين ميَّزت ضجيج الدبابات وسيارات الجيب. إخوتي وأخواتي تجمعوا حولي، مرعوبين. «ابقوا هادئين فحسب»، قلت لهم لأهدئهم بقدر ما أستطيع، وأنا أقفل الباب. «سنبقى هنا حتى يذهبوا، لا أحد يخرج من هذا الباب». كانت أمي تبكي. وضعت ذراعَيَّ حولها: «تعالي، يَمَّه، سيكون الأمر على ما يرام». ردَّت أمي وهي تعول: «ماذا لو أخذوا الرجال مرة أخرى كما فعلوا في دير البلح؟ ماذا لو أخذوك أنت؟ لا أستطيع أن أتحمل خسارتك أنت أيضاً...». لم يكن عندي وقت لأجيب لأن الصمت الثقيل انكسر مع أصوات الإسرائيليين وهم يصرخون، تبعها صوت إطلاق نار، قرب بيتنا. خنقت أمي صرختها.

همست: «لا أحد يتحرك، لن نخرج حتى يغادروا». كان المشهد الذي تكشَّف لأعيننا عندما تسللنا خارج المنزل بعد ساعة من الزمن بشعاً. باب جدتي كان متناثراً إلى قطع نتيجة الطلقات، وكانت جثتها ممددة في الداخل، تغطيها الدماء. قمنا في وقت لاحق بتركيب صورة ما حصل: كان عبد الله منخرطاً مع الفدائيين وجاء الإسرائيليون للبحث عنه في بيت جدتي. قاموا بالطرق بعنف على الباب ولا بد أن جدتي بدأت بالزحف باتجاهه لفتحه. حين شعر الجنود الإسرائيليون بالوقت الطويل قبل فتح الباب، وسمعوا حركة شخص في الداخل، ظنوا أن عبد الله يحاول الهرب فأمطروا جدتي بوابل من الرصاص. المفارقة الفظيعة أن عبد الله لم يكن، في الواقع، قد جاء إلى البيت منذ فترة طويلة، لأنه اعتبر أن وجوده فيه سيهدد سلامة جدتي بالخطر. الجنود الإسرائيليون أطلقوا النار عبر باب الصفيح، الرصاصات استقرت في جبينها وبطنها وصدرها. وجدناها في الصباح تسبح في بركة من الدماء، هي المرأة الثمانينية... لا أعرف هل صرخت؟ هل تألمت؟ هل طلبت النجدة؟ ما هي كلماتها الأخيرة؟ لا أعرف، ولا أمي تعرف.

كان الخروج خطيراً جداً في تلك الأيام، وكان حظر التجول مفروضاً معظم ساعات الليل والنهار، ولا يُرفع إلا لساعتين عند الظهر، ولذلك قررنا أن ندفن جدتي داخل بيتها، حيث حفرنا قبراً في أرض البيت الطينية. نقلناها بعد عدة أيام إلى قبر آخر لكننا لم نستطع دفنها بطريقة مناسبة في المقبرة لما يقارب الشهر.

لم تنتهِ المذبحة مع نهاية الحرب. فرض الإسرائيليون حظر التجول، وفي إحدى الليالي، سمعنا، مجدداً، صياحاً تبعته طلقات رصاص. في الصباح، وجدنا

الشيخ محمد ملقى على وجهه في التراب؛ لم يفهم الشيخ ما معنى حظر التجول وكان في طريقه لزيارة أم خليل كالعادة حين أمره الإسرائيليون بالتوقف. وإن كونه أصم وأبكم جعله غافلاً عما يأمرونه به واستمر بالمشي... فأطلقوا عليه النار من الخلف. مع نهاية شهر حزيران/يونيو 1967، كان ثلاثة وعشرون لاجئاً قد قُتلوا في رفح، وأجبرت عائلتي على اتخاذ قرار سيغير حياتي إلى الأبد.

لا أزال أترحم على الشيخ محمد، ولن أنسى في حياتي جلبابه وقد تعمد بالدم... أعتبره شهيد الرغبة... لعلها الرغبة الجامحة التي دفعته إلى الخروج من منزله في منتصف الليل بحثاً عن بعض الحنان وبعض الاسترخاء عند أم خليل، ولم يعرف أن القدر كان في انتظاره.

من المؤكد أن أم خليل افتقدته أكثر منا جميعاً فقد كانت الأكثر حزناً عليه... وشاهدتُ دموعاً تنهمر من عينيها، حاولتْ كبحها فيما جنازته المتواضعة تمر بالقرب من بيتها في الطريق إلى المقبرة... كانت تتمتم بكلمات لم أسمعها، لعلها دعاء له بالذهاب إلى الجنة... الشيخ محمد قطعاً سيُحشر مع الصالحين والأتقياء. هذا في اعتقادي، والله أعلم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2. النوم على السطوح

كان الخروج من غزة خياري الواقعي الوحيد. أدى الاحتلال الإسرائيلي إلى إغلاق مدرستي في بداية ما كان يجب أن يكون سنتي الأخيرة من التعليم الثانوي، وكانت فرص العمل شبه منعدمة. الأعمال المتاحة كانت على الجانب الآخر من الخط الأخضر، خط ترسيم الأراضي الإسرائيلية والفلسطينية. لن أنسى أبداً، عند شروق الشمس في صباح أحد الأيام، منظر مئات الفلسطينيين الباحثين عن العمل ليوم واحد، متجمعين معاً في ما يشبه الحظائر الحيوانية على الجانب الآخر من نقطة تفتيش إسرائيلية. حالما تلوح شاحنة لمصنع أو مزرعة إسرائيلية، كان الجنود يفتحون تلك الحظائر ويبدأ الرجال بالتدافع والسقوط والدوس على أقدام بعضهم البعض، فيما يتسابقون، بشكل يائس، للوصول إلى السيارة للحصول على أجر يوم واحد. أصحاب الأعمال الإسرائيليون الذين يستأجرون هؤلاء العمال بهذه الطريقة كانوا يتمازحون حول «سوق العبيد» تلك، وكانت هذه الحالة تتكرر في ضواحي معظم المدن الرئيسية في غزة والضفة الغربية. خوف أمي الأكبر كان مجيء الإسرائيليين إلى رفح، كما فعلوا عام 1956، وقتل كل الشباب. ولا بد أنني قد تشرَّبت هذا القلق لاشعورياً، حيث أنني بدأت في تلك الفترة من حياتي أسير أثناء نومي.

بحسب أمي، كنت أستيقظ خلال الليل وابدأ بالسير حول البيت فيما عيناي مفتوحتان على آخرهما، وحين يحاول أحد أفراد المنزل الحديث معي، كان ينتبه إلى أنني غير واعٍ بتاتاً لما يجري حولي. هذا التطور الأخير أضاف إلى مخاوف أمي المسكينة. كانت تقول لي وهي تترجاني: «أرجوك يا سعيد، عِدني ألا تعيش في مبنى مرتفع. أنا خائفة من أن تصاب بأذى نتيجة حالتك هذه». بحلول آب/أغسطس، تشكَّلت قناعة لدى الجميع بأنني يجب أن أغادر فلسطين برضاي أو بالإكراه. كان الإسرائيليون قد تبنوا سياسة للهجرة القسرية، وكانوا قد نجحوا في طرد أكثر من 325 ألف فلسطيني من غزة والضفة الغربية خلال الفترة التي تلت حرب الأيام الستة. العديد من الفلسطينيين كانوا قد غادروا وطنهم في وقت مبكر من بداية الخمسينات، طواعية، متقبِّلين فكرة عدم إمكان استعادة أراضيهم، والعديد من عائلات الطبقة الوسطى كانت قد غادرت إلى دول الخليج لتأسيس مشاريع بما تبقى لديهم من رأسمال. مجموعة مهمة أخرى من المهاجرين تألفت من العاطلين عن العمل، الذين غادروا أيضاً للبحث عن وظيفة في دول الخليج. هؤلاء الذين غادروا تعرضوا للنقد من قبل الذين ظلوا في البلاد لأنهم أختاروا الثروة الشخصية على المقاومة؛ لم يكن هؤلاء المغتربون الفلسطينيون يحظون

بشعبية كبيرة لدى مضيفيهم أيضاَ، لأنهم كانوا ميالين للتشدد والأفكار اليسارية، الماركسية في بعض الأحيان، أو الناصرية الثورية مثلما يحلو للبعض وصفها، وينزعون إلى المطالبة الصريحة بحقوق العمال. كان الفلسطينيون ناشطين، على سبيل المثال، في سلسلة من الإضرابات في مصافي أرامكو السعودية في الخمسينات. وردَّ السعوديون بإصدار تشريعات جديدة بأحكام بالسجن سنتين ضد أي شخص تثبت إدانته بتنظيم إضراب.

حدثت موجة أخرى من الهجرة عندما بدأت حركة حرب الفدائيين في أغوار الأردن في اكتساب القوة والزخم بعد حرب الأيام الستة، وبدأ الإسرائيليون بشن غارات بحثاً عن قادة هذه الحركة، ما كان يسفر في كثير من الأحيان عن مقتل أو إصابة الكثير من المدنيين الأبرياء. والد زوجتي، عبد الخالق أبو عطوان، حمل السلاح في أعقاب الهزيمة العربية عام 1967، وانضم إلى إحدى الجماعات المسلحة المستقلة التي ظهرت بصورة تلقائية في ذلك الوقت. وشارك في عدة غارات عبر الحدود، وقد وضع الإسرائيليون مبلغ 3 آلاف دولار مكافأة لمن يقبض عليه، وهو مبلغ من المال كان ضخماً في ذلك الوقت. كان عبد الخالق معلماً، اختفى عن الأنظار وكان ينام في خمِّ الدجاج خارج منزل إحدى الخالات، زكية أبو عطوان، في مدينة غزة، إلى أن تم تهريبه إلى الأردن ثم التحقت به أسرته، وانتهى به الحال مدرِّساً للغة العربية في الكويت.

بغضِّ النظر عمَّا كانوا عليه قبل الاحتلال، اضطر معظم اللاجئين الفلسطينيين إلى التعاطي مع حالة فقدانهم للمكانة الاجتماعية، سواء في بيوتهم أو في بلدان عربية أخرى. حتى أولئك الذين كانوا يملكون مؤهلات جيدة، ناضلوا من أجل العثور على وظيفة في الدول المجاورة: في لبنان، كانت هناك حصة محددة للوظائف التي يمكن أن يشغلها فلسطينيون، ولاحقاً قامت الحكومة بمنعهم من التوظف نهائياً؛ وكان التمييز في الأردن موجوداً في السلوك اليومي وفي التشريعات، ما يعني أن العديد من أصحاب الكفاءات المهنية الفلسطينية كانوا غير قادرين على العمل في المستويات التي تعكس مؤهلاتهم، على الرغم من أن ذلك البلد استمر في استيعاب أكبر عدد من اللاجئين الفلسطينيين، الذين يشكلون الآن 55 في المئة من سكانه. (لكي نكون منصفين، كان هناك بعض الاستثناءات البارزة، مثل طاهر المصري الذي أصبح لفترة وجيزة رئيساً للوزراء وكذلك المتحدث باسم البرلمان). في لبنان، جرى قانونياً منع اللاجئين من شراء الأراضي الصالحة للزراعة وغالبية الممتلكات وحرَّمت عليهم القوانين أكثر من سبعين مهنة. وخلال هذه الفترة، في الشرق الأوسط، كان العمل المتاح والأكثر شيوعاً للمهاجرين هو في صناعات البناء أو الخدمات. تقبَّل الفلسطينيون هذا المصير بصبر، مدَّخرين المال لإرساله إلى وطنهم، مع الإصرار على أنه بعد إطعام الأسرة، فإن

التعليم هو الأولوية. لقد اعتبروا ذلك، بحق، الطريق الوحيد للهروب من المخيمات خلال الجيل القادم...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

قرار الخروج

منذ وفاة والدي، كان أخي كمال يرسل الأموال لوالدتي من المملكة العربية السعودية، ما أنقذنا من العوز والمجاعة. كما أنه دعم أخي عبد الفتاح في دراسته في مصر. عمِّي إبراهيم، الذي عاش في مدينة رفح، ساهم كذلك في رعايتنا وساعدنا بكل طريقة ممكنة. كان يزورنا بشكل منتظم فربطتنا به مودة خاصة. كان عمي يأمل دائماً في أن أتزوج ابنته يسرا يوماً ما، لكنها توفيت بسبب مرض مجهول في التاسعة عشرة من عمرها. كانت الرعاية الطبية للاجئين غير موجودة تقريباً - كانت الأونروا تصرف أقل من 4 دولارات في السنة على الشخص الواحد في ما خصَّ الرعاية الصحية في المخيمات في ذلك الوقت. وكان إبراهيم رجلاً طريفاً يجعلنا نضحك حتى في أشد الظروف سوءاً. في ثقافة المخيمات الناشئة، كان الأبناء - ولا سيما أولئك الذين يتميزون بعقل راجح - يقوَّمون بناء على قدراتهم المحتملة على كسب العيش. إبراهيم كان سريعاً في تحديد قيمتي «التجارية»: «ظريفة، تطلَّعي على هذا الولد»، قالها مازحاً في إحدى الليالي، ووضع ذراعه حول كتفي. «هذا الولد رأسمال جيد. سوف نستثمر في تعليمه لتسمين دماغه، ثم نحيله إلى العمل. ماذا يمكن أن يصير؟ طبيباً؟».

تدخل أخي الأصغر زياد قائلاً: «أو مهندساً معمارياً». وتدخل أخي الأصغر زياد، قال: «المهندسون يكسبون الآلاف من الدولارات».

قلت مستنكراً: «ولكن أريد أن أكون صحافياً».

ضحك على ردي وقال وهو يربت على كتفي بودٍّ: «صحافي! لا يوجد مال في هذه المهنة. عليك أن تفكر في أمك الآن يا سعيد».

اجتمعت الآراء على أن أترك فلسطين فوراً وأنهي دراستي الثانوية في الأردن، البلد الذي يوفر ميزة تقديم جواز سفر معترف به دولياً لكل اللاجئين الفلسطينيين، قبل أن انتقل إلى مصر حيث سأدخل الجامعة. اختتم إبراهيم حديثه قائلاً: «عندها يمكنك النظر في أفضل السبل للمساعدة في الشؤون المالية للأسرة».

بدأت بالاستعداد لرحلتي، ودهشت كثيراً عندما لم أجد زوج الأحذية الوحيد الذي أملكه، والذي لم أنتعله سابقاً إلا في المناسبات الخاصة. كان زوج الأحذية هذا ضرورياً لرحلتي. سألت والدتي عنه، خائفاً من أن يكون أحد إخوتي قد قرر الاحتفاظ به ضمن مجموعة «الأملاك» المشتركة لعائلة عطوان عندما أغادر، فوراثة الأحذية تقليد محترم في عائلتنا!

قالت: «سوف ترى، سوف يكون هنا غداً».

في اليوم التالي، وصل عمِّي إبراهيم مع كيس من الورق البني من عند الإسكافي تحت ذراعه. اجتمع مع أمي وتحدثا بصوت منخفض.

سألتهما وشعور بالانزعاج يتملكني: «ما الذي يحدث؟ هل هذا حذائي؟ لم يكن بحاجة للإصلاح. فأنا نادراً ما انتعلته». تناولت حزمة الورق من عمي وفتحتها. كان حذائي، بالضبط كما تركته آخر مرة رأيته فيها. تبادلت والدتي وإبراهيم النظرات. هز رأسه وهو يضحك.

قال: «إليك هذه الحزورة يا سعيد، ثروتك كلها في هذا الحذاء». بدا لي الأمر غامضاً. وبعد أن حاول الجميع تكهُّن ما يقصده، وفشلوا، تناولت والدتي الحذاء ونقرت على عقبه. قالت: «عمك أحضر كل مدخراته، وطلب إلى الإسكافي تخبئتها في عقب حذائك». رفض عمي اعتراضاتي فعانقته وشكرته، مصراً على أن أدفع المبلغ له حالما أتمكَّن. لاحقاً، قمت بفتح العقب بعناية وأحصيت 30 جنيهاً مصرياً كان عمي قد نجح في جمعها بصعوبة خلال سنوات من المشقة. إذا قارنَّا قيمة هذا المبلغ بما يعادله اليوم، فهو يقارب مبلغ 10 جنيهات إسترلينية كانت كل ثروته.

حلَّ يوم سفري. عند الفجر ودَّعت عائلتي. لم نكن نعلم ما الذي سيحدث لي وهل ستكون رفح آمنة بعد أن احتل الإسرائيليون غزة. كنت قلقاً على إخوتي وتعهدتُ بأن أمدهم بالدعم وأساعدهم قدر استطاعتي لتحسين حياتهم. صحبني عمِّي إبراهيم إلى المحطة: كان عليَّ السفر أولاً إلى الضفة الغربية ومن هناك إلى عمَّان في الأردن. بينما كنت ألوِّح لعمي من نافذة الحافلة المتوجهة صوب الطريق الواسعة المترَّبة، أحسست بالراحة وأنا منطلق وحدي نحو حياتي القادمة التي عليَّ أن أشكلها كما أريد. كان ذلك أمراً مثيراً وصعباً في الآن نفسه. سرعان ما أوقفت أحلامي المستقبلية من قبل ستة جنود إسرائيليين شكَّلوا حاجزاً عسكرياً في الطريق إلى غزة وكانوا يضربون على نوافذ الحافلة بأعقاب بنادقهم. قاموا بتفحص وجوه المسافرين الممتقعة وكنت بين أولئك الذين أمروهم بالخروج من الحافلة. كنت مذعوراً وكانت يداي ترتجفان لدرجة صعَّبت عليَّ الامتثال للأوامر التي كانوا يزعقون بها بلكنة عربية ثقيلة.

«أوراقكم!» قال أحدهم رافعاً يده. بطاقة الهوية الوحيدة التي أملكها كانت الهوية المدرسية. كنت أخشى ألا تكفي، وأن تتوقف رحلتي هناك وأُرسل مهزوماً إلى المخيم. أشار الجندي إليَّ ودعا زميلاً له أطول منه وأخذا ينظران إلى أوراقي.

ضحك الطويل قائلاً: «إلى أين أنت ذاهب؟». قلت: «إلى عمَّان»، وقد نجحت في النطق مع تأتأة قليلة.

«سوف نرى»، قالها الجندي مستخدماَ بندقيته لتوجيه مجموعة من النساء والأطفال للوقوف بجانبي. بدأ باستنطاق امرأة كانت جارتي في الحافلة. كان معها أربعة أطفال، وقالت للجندي إنها في طريقها إلى الكويت للانضمام لزوجها الذي يعمل هناك.

انضم إلينا جندي آخر بيده حزمة من الأوراق. «وقِّع على هذا»، قال الجندي الطويل، كاتباً أسماءنا على ورقة قبل أن يسلمها لكل واحد منا. همست لي جارتي: «ما هذا؟». لاحظتُ أنها لا تستطيع القراءة. تفحصتُ الوثيقة القصيرة. كانت تعهداً بأننا حالما نرحل عن الأراضي المحتلة لن نعود إليها مرة أخرى. شرحتُ هذا الأمر بالعربية فبدأت المرأة بالبكاء. تقدم الجندي الطويل وسأل: «هل تريدين أن تذهبي أم لا؟».

همست المرأة: «بلى».

رد قائلاً: «إذاً وقِّعي».

«لا تجيد الكتابة»، قلت بعد أن نجحت بالخروج من الجمع. قام الجندي بشد يدها اليمنى ودفعها للأمام واضعاً إبهامها على علبة الحبر. قال: «ضعي بصمتك فوق اسمك، هذا سَيَفي بالغرض. كان عليَّ أنا أيضاً أن أوقِّع وإلا واجهت عواقب لا يعلم نتيجتها إلا الله؛ بعد أن امتثلنا جميعنا للأمر أُطلقنا، ولاحظتُ أن كل ما كان يهمهم هو التخلص من أكبر عدد ممكن منا، بأية طريقة ممكنة.

مع دخول الحافلة مدينة الخليل في الضفة الغربية، كنت قد بدأت باستعادة رباطة جأشي بما يكفي لأنظر إلى المشاهد التي تعرض لي في الخارج؛ كان كل شيء جديداً بالنسبة لي لأنها كانت مشاهدتي الأولى للمجتمع المدني. كان هناك شوارع وأسواق، ومحلات تجارية وسيارات. لم يقتصر الأمر على كون غزة أكثر فقراً، بل كانت أيضاً أكثر محافظة. في الخليل، كان هناك شبان صغار يلبسون ثياباً غربية وكانت النساء يمشين كاشفات رؤوسهن مظهرات تسريحات شعورهن الأنيقة، وهذه كانت رفاهية لا يمكن التفكير فيها في رفح. سألت جارتي عمَّا إذا كانت هؤلاء فلسطينيات حقاً، لأن السافرات الوحيدات اللواتي قابلتهن كنَّ المتشردات الفقيرات في مخيمات اللاجئين بغزة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

عمَّان

كان لدي قريبان في عمان. الأول هو حسين عطوان الذي كان عميداً في جامعة عمَّان ويعيش في بيت جميل في الحي البرجوازي. أسبوع بعد آخر كان شخص من عائلتنا الفلاحية في غزة يحضر إلى بابه مع حزمة من الزعتر متوقعا أن يستقبله في بيته لمدة شهر. لم يكن حسين، رغم دهائه، قادراً على أن يقول لا لأولئك المشردين، لكن زوجته الأردنية الأنيقة والمتطورة كانت تهدد بالطلاق بسبب النبع الذي لا ينتهي من الزوار القرويين غير المعتادين على السلوك المهذب لأهل المدن. كنت أشعر بالشفقة عليه ولذلك قررت أن أرمي حملي الثقيل على ابن عمي صالح الذي سبقني إلى عمَّان على أمل السفر إلى القاهرة لاستكمال تعليمه الجامعي، فقد كان في السنة الأولى في كلية التربية.

كان صالح موجوداً لاستقبالي، وأول شيء لاحظته كان حذاؤه المثير للسخرية. لم يكن طويلاً جداً فحسب، بل كان أيضاً أخضر بظلال زاهية. عانى صالح مثلي من قدميه المسطحتين وكان يجد صعوبة في إيجاد حذاء يناسبهما. كانت هذه لعنة حياته وكان ممتناً لأي شيء يمكن أن يناسب التشوهات الشديدة التي ما عاد، منذ زمن طويل، مهتماً لكيفية ظهورها للناظرين. آخر مرة شاهدت صالح فيها كان شاباً صغيراً بسيطاً؛ كان الآن ضعف حجمه السابق - بكل الاتجاهات - وصار مشعراً للغاية. هذا الغوريلا الضخم ظهر من بين الحشد وحيَّاني بحماسة كبيرة، فيما هو يقبلني ويحتضنني، ويربت بقوة على ظهري. أخذ حقيبتي وبدأ بإلقاء مئات الأسئلة عن فلسطين وعن عائلتنا فيما نحن ماشيان عبر الشوارع. افترضت أنه سيأخذني إلى بيته وفوجئت عندما توقفنا بمواجهة فندق يحمل لافتة مكتوب عليها: «الفندق العربي». أحسست بالإحراج لأن أملاكي الوحيدة في العالم من المال كانت عبارة عن مبلغ ضئيل: 10 جنيهات مصرية دسَّتها أمي في كفي عندما غادرت إضافة إلى الثلاثين جنيهاً في حذائي. لا بد أن صالح فهم التعبير الذي لاح على وجهي، فقال مطَمئناً: «لا تقلق يا سعيد هذا ليس فندقاً».

«لكنه فندق»، قلت وأنا أشير إلى المبنى، «أستطيع أن أرى أنه فندق! لماذا تخبرني بأنه ليس كذلك؟».

أجاب: «بالنسبة لنا نحن الفلسطينيين، هذا ليس فندقاً. إنه مكان الإقامة الأرخص في المدينة كلها، ادخل وسوف ترى». أخذ بيدي وتوجَّه بي عبر باب جانبي إلى الفندق متأهباً لصعود الدرج.

صعدنا طابقاً بعد الآخر. بدأت أظن أن ابن عمي قد جنَّ أو أنه أصبح ثرياً جداً من دون أن يخبر أحداً بذلك، رغم أن ملابسه الرثة وحذاءه المهترئ يشيران إلى عكس ذلك.

سألته وأنا أضحك: «هل نحن ذاهبان إلى السقيفة؟». قال: «ليس تماماً». توقف عند باب صدئ في أعلى مكان من البناء. دفع الباب بكتفه ووجدنا نفسينا على السطح. كانت هناك صفوف من الأسرَّة الحديدية المتهالكة على جانب، قد تكون من بقايا الثكنات العسكرية، وصفوف من الفرشات على الجانب الآخر؛ عشرات من الرجال، جالسون أو ممددون، يدخنون، يتجادلون أو يأكلون تحت السماء الزرقاء اللاهبة. كان صالح معروفاً لديهم، فرحَّب به الناس بطريقة ودية. قام بتقديمي في جولة لا نهاية لها من المصافحات والقبل. «أهلاً بك في بيتك الجديد!» قال صالح، مشيراً إلى سرير في الطرف الأقرب لحافة السطح، والذي لا حاجز حديدياً للسلامة قربه. تخيلت رد فعل والدتي لو رأتني، أنا الذي أسير خلال نومي، نائماً في ذلك الموقع، وقررت أن أخترع نوعا من نظام الأمان لنفسي كي لا أسقط إلى حتفي في الليل. شكرت صالح على تفكيره بتأمين مكان إقامة وجلسنا على السرير نتحادث.

قال صالح: «أنا أعمل مثل كلب، تخيَّل، أريد أن أنهي إجازتي العلمية في الرياضيات، لكن ها أنا هنا، أشتغل كالعبد في ورشة بناء مقابل بضعة فلوس في اليوم». وأضاف وهو ينظر إلى المجموعة المتنافرة من سكان السطح حوله: «رغم ذلك، أنا أكثر حظاً من معظم هؤلاء، الذين لا يستطيعون إيجاد عمل على الإطلاق. سوف يضطرون للعودة إلى المخيمات للعيش على صدقات الأونروا. ماذا عنك؟ ما نوع العمل الذي تتطلع إليه؟».

أجبته بهدوء: «آه، أنا لا أبحث عن عمل. سوف أنهي دراستي الثانوية ثم أذهب إلى الجامعة في مصر مثل أخي عبد الفتاح». بدأ صالح بالضحك ثم سألني: «هل تعلم أنك يجب أن تدفع المال لتدخل المدرسة هنا؟». وتابع قائلاً: «هل لديك أي مال؟». نظرت حولي. لم تكن فكرة عظيمة أن أقوم بالكشف عن القليل من المال المخبأ في حذائي أمام كل هؤلاء اليائسين الجائعين. تمكنت من إفهامه أن لدي ما يقارب 40 جنيها مصرياً. قال: «هذا لا شيء، لا تكفي حتى لدفع تكلفة فصل دراسي واحد. وفوق ذلك يجب أن تأكل وأن يكون لديك سقف فوق رأسك». وتابع مازحاً: «أو تحت قدميك في الحالة التي نحن فيها. سعيد، أنا آسف، لكن المال الذي معك مالوش قيمة». حاولت أن أتحامل على نفسي وأضع بعض ملامح الشجاعة على وجهي لكن فكرة أن مدخرات عمي طيلة حياته «لا قيمة لها» دفعتني تقريباً إلى البكاء. «يجب أن تحصل على عمل، وهذا شيء، الحديث عنه أسهل من الحصول عليه».

هكذا انتهى يومي الأول في الأردن بأن أدركتُ أن خططي كلها كانت غير واقعية، وأن عليَّ أن أعمل بمشقة كبيرة للحصول على ما أريد. هبط الليل وذهب صالح إلى فراشه على الجانب الآخر من السطح. تمددت على السرير، أنظر إلى النجوم وخيوط دخان السجائر المتصاعدة، وأستمع إلى همهمة الرجال. كدت أستسلم للنوم حين تذكرت مأزق المشي أثناء النوم. عدت للجلوس وبدأت أشغِّل دماغي لأجد حلاً. كانت لدي بعض الأغراض لكن أياً منها لم يكن جديراً بإنقاذي، باستثناء، ربما، الكوفية القطنية التي أحضرتها معي. عقدت زاوية منها حول كاحلي وربطت الطرف الثاني بقوة بعمود السرير. قمت بفحص متانة هذا القيد الاختياري، وارتأيت أنه سيمنعني من الذهاب بعيداً خلال الليل.

عشت على السطح لأكثر من شهر واعتدت بسرعة على هذه الإقامة المستحدثة. هذه الإطلالة التي تشبه إطلالة الطائر من أعلى على الأبنية تحته منحتنا مكافآت بعض الأحيان، مثل لمحة من فخذ امرأة وهي تستحم، معتقدة أنها لا يمكن أن تُرى وهي على سطح بيتها. أنا متأكد أن مشهد الغروب كان جميلاً أيضاً لكننا ما كنا مهتمين بالمناظر الطبيعية بل بالبقاء على قيد الحياة. كان هناك مكان على السطح حيث يمكنك أن تتمتع بترف حمَّام الماء الساخن مقابل بضعة فلوس يوم الجمعة.

أذكر جاراً لي على السطح غريب الأطوار. كان يعيد إخباري القصة الغريبة نفسها، ليلة بعد ليلة في الظلام، كما لو كان يحاول طرد شيطان من داخله. كان شرطياً في غزة، وفي إحدى الليالي التي كان فيها مناوباً، أحضرت جثة امرأة شابة إلى مركز الشرطة. وُجدت الجثة على الشاطئ وكانت ضحية لـ«جريمة شرف». تُرك الشرطي وحده مع الجثة لحراستها فيما هي ممددة أمامه على الطاولة.

اعتاد استهلال حديثه بهذه الجملة: «كانت السماء تمطر وكان البرد قارساً في الخارج. لم أكن قادراً على الذهاب للخارج حتى لو أردت ذلك. لكنني لم أرد - كنت مدفوعاً بشكل لا يقاوم نحو جسد المرأة. وفيما ساعات الليل تتناقص وجدت نفسي أتصارع مع رغبة مرعبة: أن انظر إلى جسدها؛ وحتى الفجر بقيت أتعذب بالرغبات المتضاربة والعواطف». كل ليلة كان يعيد تذكر تلك الفانتازيا البغيضة، مطرزاً إياها بتفاصيل أكثر فأكثر، بتشجيع من فضولنا واشمئزازنا. تفاصيل بشعة من المؤكد أنه أخفاها عنا، لكننا، ومن كثرة التكرار عرفناها ضمناً، ولعله بالحديث عنها مواربة يريد أن يكفِّر عن ذنب، أو ينفِّس عن عقدة داخلية تقلقه وتقضُّ مضاجعه.

كان صاحب الفندق مواطنا سورياً يكنَّى «أبو مصطفى»، وهو من المؤمنين بالقومية العربيةِ، ولهذا سِمَّى فندقه «العربي». وكان هذا الرجل السمين

المتواضع كريماً متسامحاً معنا نحن الفلسطينيين النازحين، وكان لا يتقاضى أجرة منا إذا لم نكن نملك المال، وكم من لاجئ غادر من دون أن يدفع، فلم يعترض أو يشكو أبداً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

علاقة مضطربة

كانت العلاقة بين النظام الأردني والشعب الفلسطيني، ولفترة طويلة، علاقة مضطربة. في ظل الانتداب البريطاني بعد الحرب العالمية الأولى، كانت 80 بالمئة من المنطقة المسماة «فلسطين» تقع شرق نهر الأردن. أنشئ إقليم شرق الأردن خلال مؤتمر القاهرة عام 1921 الذي رأسه وزير المستعمرات البريطاني آنذاك، ونستون تشرشل، الذي نصَّب الأمير الهاشمي عبد الله أميراً. كان ينظر إلى عبد الله القادم من الحجاز باعتباره الشخص المناسب لإدارة حزام الأمان هذا الذي يفصل بين أجندة بلفور الصهيونية في فلسطين وباقي العالم العربي. وهكذا تأسست المملكة المستقلة الحديثة للأردن عام 1946.

اغتيل الملك عبد الله بالرصاص يوم 20 تموز/يوليو 1951 على يد مصطفى شكري عشي، وهو فلسطيني كان يريد أن يثأر من النظام الأردني في أعقاب النكبة، حينما بدأ لبنان والأردن يتفاوضان لتحقيق اتفاقية سلام منفردة مع إسرائيل. كان الملك حسين على العرش حين وصلتُ الأردن عام 1967، وكان في تلك الفترة لا يشعر بالارتياح للعدد الضخم من الفلسطينيين في المملكة، وهو ما اعتبره، عملياً، تهديداً لسلطته، خصوصاً عندما بدأ هؤلاء يتسلحون وينخرطون في أعمال المقاومة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عمل شاق

بالنسبة للاجئي عمَّان، كان الحصول على عمل نوعاً من الحرب الضارية. وكان هناك إجماع بين أولئك الذين حصلوا على عمل على أن أصحاب الأعمال الفلسطينيين المتعاطفين مع مواطنيهم، وكذلك البلدية، هما ربَّا العمل المرغوبان أكثر من غيرهما.

خلال الفترة القصيرة التي عشتها في عمَّان، نجحت في العمل لدى هاتين الجهتين. عملي الأول كان في مصنع تعليب للبندورة. كان في مجمع خلف قضبان حديدية، ويضم ثلاثة هنغارات معدنية: يحتوي الأول على الآليات التي تحوِّل الصفائح المعدنية إلى علب؛ ويحتوي الثاني وعاءً ضخماً للسوائل تُغلى فيه أطنان من البندورة قبل أن تعبَّأ آلياً في العلب التي تقوم آلة أخرى بعد ذلك بختمها وضخها بأعداد كبيرة نحو منصة؛ ويضمُّ البناء الثالث المخزن، حيث يُخزَّن المنتج النهائي ويوزَّع بعد ذلك.

بدأت العمل في المستودع، أحمل الصناديق إلى الشاحنات التي تنقلها لتسليمها للزبائن. كان ذلك عملاً «يكسر الظهر»، خصوصاً بالنسبة لشاب صغير عظامه ناتئة مثلي: كان طولي أكثر من 180 سم، غير أنني كنت أزن 55 كلغ فقط نتيجة سوء التغذية التي طغت على سنوات تكويني الأولى. كنت مدركاً، رغم ذلك، انتشار البطالة الكبير بين أبناء بلدي، وكنت ممتناً لكوني أعمل، فأخلصت لعملي بشدة.

صاحب العمل الفلسطيني، السيد حجازي، كان من عائلة خليلية مشهورة. كان في أربعينياته، وكانت عائلته قد غادرت فلسطين قبل أن يقوم الإسرائيليون بمصادرة ممتلكاتها فبقيت ثرية مقارنة بغيرها. أحبني السيد حجازي وانتبه لكوني أجهد نفسي في الحمولات الثقيلة فنقلني إلى الهنغار الثاني حيث تم تشغيلي بنقل العلب المملوءة من المنصة إلى الصناديق.

كان الهواء كثيفاً بسبب البخار ورائحة الفاكهة المتعفنة التي تُترك تحت الوعاء الضخم. المشكلة في هذه الوظيفة الجديدة أن البندورة تكون لا تزال تغلي عندما تُعلَّب. وبما أن أرباب العمل لم يوفروا قفازات للعاملين، فقد امتلأت يداي بالقروح؛ وكل علبة ألمسها كانت تعذيباً رهيباً. اقتربت من السيد حجازي معتذراً وأريته يديَّ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«سوف تقسوان قريباً»، قال وهو يربت على ظهري. «كيف تعتقد أن الآخرين تمكنوا من العمل هنا؟».

«هل تسمح بنقلي مرة واحدة بعد، فقط؟» توسلت إليه. «لن أطلب إليك ذلك مرة ثانية. سوف أتحمل الجحيم على أن أطلب إليك طلباً مرة ثانية».

قال: «حسناً، لكن فقط لأننا أخوين فلسطينيين. لذلك لا تخذلني». وأعطاني وظيفة جديدة في معمل تصنيع العلب.

كان هذا أخطر الأعمال التي قمت بها طوال حياتي، بما في ذلك رحلاتي المحفوفة بالمخاطر عبر الشرق الأوسط بحثاً عن قصص إخبارية ذات قيمة، ومن ضمنها رحلتي إلى تورا بورا للقاء أسامة بن لادن! كانت وظيفتي الجديدة دفع العلب نصف الجاهزة إلى الآلة التي تمسك بها من أسفلها. كان الضجيج غير قابل للاحتمال، ولا شيء يُسمع سوى الضرب والقعقعة والأزيز والصراخ، من الفجر حتى الغسق. كان رأسي يخفق طوال اليوم. لكن هذا كان بسيطاً مقارنة مع رغبة الآلة، على ما يبدو، في قضم يدي في الوقت الذي تقوم به بلصق الغطاء على العلبة. لا تزال لدي ندبة كبيرة على يدي اليمنى من جرح بطول أكثر من 5 سم تركه هذا المخلوق الجهنمي عليَّ. في حادثة أخرى، أدت صفيحة معدنية تركت مرفوعة لأعلى عمل سيف حاد كالشفرة برجلي عندما مشيت عليها من دون انتباه. في الحالتين جرى اصطحابي إلى المستشفى وسط فوضى دموية. كان المشرفون على المصنع مهتمين بموعد عودتي للعمل أكثر من اهتمامهم بمنع حصول هذه الحوادث ووضع تدابير سلامة. لم أحصل على اعتذار أو حتى على تعويض، وقد كان ذلك أمراً لا يمكن التفكير به حتى.

كنت أقبض ما يوازي 30 بنساً باليوم مقابل وردية من اثنتي عشرة ساعة؛ وكان العمل الإضافي متوافراً مقابل 5 بنسات في الساعة. بدأ السيد حجازي بنقد العمال الفلسطينيين مبلغ 10 بنسات إضافية في اليوم كإشارة للتضامن، وهو ما جعل علاقتي تتوطد به كثيراً. تصديقاً لوعدي له، لم أشتكِ أو أتذمر من وظيفتي الجديدة، لكنه نقلني بعد ذلك بفترة قصيرة إلى آلة أكثر لطفاً، حيث كان لدي شخصان يعملان بإمرتي، واحد منهما كان بعمر والدي، وهذه كانت تجربتي الأولى كمدير.

لم يكن كل مديري المعمل متعاطفين مع الفلسطينيين مثل السيد حجازي. من هؤلاء مشرف يدعى حمودة، بترت أصابع يده باستثناء الإبهام والبنصر بعد حادث سابق حصل معه في مقلع للحجارة كان يعمل فيه. خلال عمله الشاق بتكسير الصخور فكر حمودة باختصار الجهد فقرر استخدام الديناميت؛ غير أنه لسوء حظه قام بتفجير يده في حين لم تصب الصخرة بخدش. ربما كان هذا الحادث هو ما جعله يمتلئ بالمرارة، لكنه بالتأكيد لم يكن مهتماً بمعرفة الدافع النفسي لاضطهاده المستمر لنا. كان يضع كل العمال الفلسطينيين تحت مراقبة مستمرة، فيخرج فجأة من بين أكياس العلب حيث يكمنِ

ليتجسس علينا، ويفتشنا عندما نخرج من المعمل بطريقنا إلى المنزل، متهماً إيانا علانية بالسرقة. باختصار، جعل حمودة حياتنا جحيماً. في يوم من الأيام، تغيَّب حمودة عن العمل وعلمنا لاحقاً بأنه طُرد لسرقته مواد تلحيم من المعمل. كنا مسرورين بهذا الخبر وظللنا مبتهجين لأيام، نكرر ونعيد التفاصيل التي نعرفها ونضيف إليها أشياء من اختراعنا، مزينين القصة بتفاصيل جديدة في كل إعادة.

في ذلك الوقت، كان أخي كمال يدعم عبد الفتاح بدراسته وكنت أنا كاسب الرزق الرئيسي لعائلتي في رفح، وهي مسؤولية كنت أضعها في اعتباري دائماً. ذكريات الفقر المدقع والحرمان في المخيمات كانت لا تزال طازجة في ذهني. بعد فترة قصيرة من وصولي إلى عمَّان اكتشفت أن فرشات السطح أرخص من الأسرَّة فقمت بتوفير بعض القروش بالانتقال - وتجنبت خطر السير نائماً هذه المرة بربط كاحليَّ معاً. كان التدخين أمراً شائعاً وغالباً ما كنت ترى سيجارة تتدلى من شفاه أو أصابع الشبان الصغار لكنني رفضت أن أتعلم هذه العادة المكلفة، كما أنني لم أنضمَّ إلى زملائي العمال في نزهاتهم أو لقاءاتهم في المطاعم. كنت أدَّخر، بطريقة أشبه بالتديُّن، كل قرش لم يكن ضمن حاجاتي الأساسية للبقاء، لأبعث به إلى أهلي - وحيث إنه لم يكن هناك حسابات مصرفية أو وسائل أخرى لتحويل المال، فقد اعتمدنا على الصدق وطيبة الفلسطينيين الذين كانوا يمرون على أهالينا في طريقهم إلى غزة لإيصال مدخراتنا باليد. بالنسبة للثلاثين جنيهاً التي أعطاني إياها عمي، فقد قمت بصرف 10 جنيهات منها دنانيرَ أردنية لترتيب أموري عندما وصلت وأعدت الباقي إلى أمي التي استخدمت المال في شراء خضار طازجة للأطفال، ومن حين لآخر، قطعة من أمعاء أو رأس خروف، وهو اللحم الوحيد الذي كان بإمكاننا شراؤه.

في يوم من الأيام، ناداني موسى، أحد العمال القدامى. كان موسى يمضي أغلب وقته مدخناً بشكل مستمر أو في ترتيب مقالب مضحكة للعمال، لذلك كنت حذراً وأنا أتجه نحوه. سحب لفافة من الأوراق من جيبه ووضعها تحت أنفي. احمرَّ وجهي خجلاً وشعرت بالإحراج، لكنني افتتنت بما رأيت. كانت صوراً لنساء عاريات ولم أكن قد رأيت شيئاً مثل هذا في حياتي من قبل. ضحك موسى وصفع فخذه حين رأى ردة فعلي، لكنه - لحسن الحظ - لم ينشر نبأ صدمتي بين باقي العمال. كان هناك امرأتان حقيقيتان فقط في المعمل، سيدة عجوز وابنة لها ذات عين زجاجية. رغم أنهما لم تكونا جذابتين كثيراً، فإن الكثير من الرجال كانوا يحاولون التحجج للحديث معهما والتغزل بهما.

كان تحميل الصناديق إلى الشاحنة التوزيع في المخزن العمل الأقل شعبية. كان متعباً وصعباً واعتاد كل العمال التهرب ومحاولة الانشغال بشيء آخر بمجرد أن يعرفوا أن هذا هو العمل التالي. أعفاني السيد حجازي من هذه الوظيفة بسبب ضعف بنيتي لكنه سألني مرة: «كيف أمنع العمال من الاختفاء وقت تحميل البضائع إلى الشاحنة؟» وكان أن بادرت بتقديم حل: «ضع المرأة العجوز وابنتها في المخزن؛ بهذه الطريقة سيتبارى العمال على إظهار من هو الأقوى والأكثر عضلات أمام الفتاة». نجحت الخطة في علاج الأمر وصار تحميل الشاحنة يتم في دقائق بدلاً من ساعات.

صديقي الأقرب إلى نفسي في المعمل كان مراهقاً فلسطينياً يدعى محمد رشيدي. كان من حيفا وبدا لي متحضراً بشكل هائل. كانت عائلته من أسرة ميسورة وكان يتحدث بلهجة تختلف عن لهجتي الفلاحية. مثلي، كان والد محمد قد توفِّي خلال طفولته؛ كان لديه ثلاثة إخوة وكانوا جميعاً يعملون لتوفير حياة كريمة لأم وأختين رافقنهم إلى الأردن من غزة.

في المرة الأولى التي دعاني فيها إلى بيته، تملَّكني الإعجاب بالمكان - كان فيلا حقيقية في منطقة جيدة من عمان. حين دخلت، أحاطتني موجة من الموسيقى العاطفية المثيرة، وصوت نسوي عميق وعظيم مليء بالعاطفة إلى درجة أن المطربة بدت أحياناً كأنها تبكي، بلحن متموِّج على أوركسترا صغيرة مؤلفة من عود وطبول وكمنجات. توجهنا إلى غرفة المعيشة واكتشفت أن مصدر هذه الموسيقى الرائعة مسجلة كهربائية! لم أكن قد شاهدت هذا من قبل فاستغربت. كانت تلك أم كلثوم، المطربة المصرية العظيمة. بالنسبة لي، كان هذا أشبه بدخول الجنة.

اعتدت الذهاب إلى بيت رشيدي كل يوم جمعة وكانت أم محمد تطبخ لنا أطعمة منطقة يافا التقليدية. وبعدها كنا نذهب إلى السينما لنشاهد ثلاثة أفلام قديمة دفعة واحدة. كانوا يدعونني إلى منزلهم كلما اشترت العائلة شريطاً جديداً، فكنا نستمع للتسجيل المرة تلو الأخرى، ونحن نناقش مزاياه. بعد ذلك اشتروا جهاز تلفزيون، وفي المرة الأولى التي شاهدت فيها هذا الاختراع الرائع كان بطلي، جمال عبد الناصر، يلقي خطبة، مما جعل المناسبة ذكرى لا تنسى.

صداقتي مع عائلة رشيدي لا تزال مستمرة، وأنا أزور محمد عندما أكون في الأردن. لدى محمد محل لبيع الأكسسوارات النسائية، والكثير من الأولاد، وبيت في منطقة جميلة. المرة الأخيرة التي شاهدته فيها كانت عام 2001: أراد محمد أن يفتخر بمعرفته بي لأني كثيراً ما أظهر في التلفزيون، فقام بدعوة جيرانه كلهم للقائي. أخذت صوراً مع الجميع، بل طلب العديدون توقيعي كما لو كنت نجماً غنائياً شِهيراً. استمتعت بسهرتي تلك لأن الجميع

كانوا مسرورين. كنت يومها مقيماً في فندق من فئة الخمس نجوم من النوع الذي ما كنا لنجرؤ على الاقتراب من بوابته عندما كنا أنا ومحمد عاملَين في ذلك المصنع، وجئت من الفندق بسيارة أجرة فاخرة، لكنني أحسست، بالمقارنة بين المكانين، بأنني كنت في مكاني الحقيقي وفي بيتي مع محمد وأصدقائه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

آفق للتحسن

بدأت الليالي تزداد برودة وقررت أنَّ وجودي على السطح طال ويجب أن ينتهي. بدأت أبحث عن غرفة فوجدت واحدة في شقة ضمن منطقة راقية من عمَّان، وفوجئت بكون إيجارها في حدود ميزانيتي.

عرفت سبب ذلك عندما ذهبت لأعاينها: كانت بمساحة أربعة أمتار مربعة، وتحتلها أربعة أسرَّة مخيمات ضيقة. كان عليَّ أن أتشارك الغرفة مع ثلاثة فلسطينيين آخرين، كلهم يعملون في مصانع أو على سقالات في ورش بناء؛ أيمن وسعد كانا بعمري تقريباً، ثم أبو مصطفى الذي على حدود الأربعين، وكان شخصا شكَّاء ينوح بلا توقف. كان يندب كونه ترمَّل، ويتذكر كيف كانت زوجته عندما كانت حية، ويتذمر من أولاده، وعمله. ولأنه كان أكبر منا سناً، فقد كنا معتادين على إخباره بكل مشاكلنا، وكان بعد ذلك يقوم بالأنين عليها بدلاً منا، موفِّراً علينا مشقة ذلك.

كان أبو مصطفى مدققاً بكل شيء، ومخنثاً تقريباً، يجهِّز سريره كل يوم، محافظاً على ترتيب كل شيء عليه. قطعتي الصغيرة الخاصة من الغرفة كانت، من ناحية أخرى، مكرَّسة لحالة من الفوضى الخالصة: لم أكن أفهم الهدف من ترتيب السرير إذا كنا سنعود لاستخدامه لاحقاً ونخرِّب هذا الترتيب. كان السرير والمكان حوله وتحته مليئة بالجرائد والمجلات القديمة. أدى هذا إلى حالة دائمة من التذمر والغمز واللمز، لكنها ما كانت شيئاً مقارنة بردة فعله على حادث المدَّخرات.

نشأت عندي عادة ادخار ورقة دينار واحد أسبوعياً كنوع من خطة طوارئ في حال فقدت عملي. ولكوني لا أثق بالبنوك، فقد فتحت حساباً مصرفياً خاصاً بي، وذلك بإحداث ثقب في غطاء الفرشة، وخبأت المال في الحشوة الصوفية في أبعد مكان تصل إليه يدي، عندما يكون الجميع في الخارج. بعد شهرين، استولت عليَّ حالة خوف شديد من فكرة أن دنانيري سرقت. وحدي في الغرفة، أدخلت يدي من الثقب وحرَّكت أصابعي في الداخل. لم أجد شيئاً! حاولت مرة ثانية، هذه المرة مستخرجاً الحشوة لجعل عملية البحث أسهل. بعد حوالي عشر دقائق، صرتُ محاطاً بتلال من الصوف، فيما الفراش شبه فارغ. فجأة رأيت أبو مصطفى قادماً من خلف إحدى هذه القمم مكتف اليدين. كان منزعجاً لما رأى.

قال هادراً: «انظروا إلى هذه الفوضى! ماذا تفعل يا مجنون؟».

صرخت بطريقة هستيرية: «مالي اختفى!».

ألقى أبو مصطفى نظرة نارية خاطفة حوله وقام بالتقاط بعض الأوراق النقدية من بين الأكوام، واضعاً إياها على الأرض بجانبي. ضرب على الأرض بقدمه، ومثل بركان متفجر بين هذه الأكوام البيضاء، دفع برأسه إلى الوراء وانفجر؛ كل غضب أبو مصطفى المكبوت انقذف باتجاهي.

في تلك الأثناء، صرنا مفتونين أكثر فأكثر بجاراتنا في الطابق الذي تحتنا. لأسابيع، كنا نسمع أصوات نساء قادمة من تحت. كنَّ يضحكنَ بعنف دائماً، ويمازحن بعضهن بعضاً، أو يتعاركن بشدة. بدا لنا أن تلك المجموعة من الصبايا اعتادت النوم كل النهار قبل الخروج والعودة في ساعات الصباح الأولى، برفقة ذكورية. عرفنا ذلك كله لأننا، كلنا، باستثناء أبو مصطفى، كنا نقضي الساعات وآذاننا المرهفة ملتصقة بأرض الشقة، نستمع إلى دراما تلفزيونية حقيقية متبادلين الملاحظات حولها. في أحد الأيام، قام أيمن - الذي كان يعمل في نوبة ليلية - باقتحام غرفتنا مستثاراً، فيما كان الباقون يستعدون للذهاب إلى العمل. كانت الساعة الخامسة صباحاً. «لقد شاهدتهن!».

- «من؟» سألنا وعيوننا شبه مغمضة.

- «اللعوبات!» قالها لأن هذه هي التسمية التي سميناهن بها.

أرانا نافذة نصف مفتوحة في منتصف الطريق لأسفل الدرج؛ كانت الستارة مرفوعة وبإمكاننا بالتالي اقتناص نظرة إلى غرفة المعيشة. كنَّ هناك، ثلاث فتيات جميلات، مشبوهات المنظر، وجوههن مطلية بالكثير من الماكياج، تنانيرهن قصيرة وكعوب أحذيتهن عالية، يتحادثن ويتضاحكن وهن يقدمن بعض المشروبات لرجال معهن.

صرنا، بشكل طبيعي، نحاول اختلاس النظر إلى «اللعوبات» في كل مرة نمر بها، وهو أمر كثير الحدوث، إلى أن التفتت الفتيات إلينا في إحدى الليالي، ورأيننا، ورحنَ يلوِّحن ويضحكن، ويشرنَ لنا بالذهاب إليهن. كان ذلك محرجاً. كنا شباباً خجولين، متلعثمين وسكارى بألغاز الجنس اللطيف. وبعد أن هربنا إلى مكمننا في الغرفة، ما عدنا ننظر باتجاههن مرة أخرى. حتى إننا فكرنا بوضع ستارة على السطح الخارجي للنافذة حتى لا نتعرض للإغواء. أنا شخصياً كنت أصلِّي ولا أقطع فرضاً، وصلاة الجمعة في المسجد الكبير كانت من أفضل أوقاتي، وكنت بمثابة المطوِّع بالنسبة إلى زملائي الآخرين، وهو دور سبب لي الكثير من المتاعب!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

قوة دافعة

كل يوم جمعة، كان خمسة أو ستة منا يجتمعون في مقهى بوسط عمَّان، حيث نقضي معظم ساعات اليوم يرتشف الواحد منا فنجاناً واحداً من القهوة، نلعب الورق ونتحادث، ما كان يزعج صاحب المقهى. كنا نحضر أعداداً سابقة من الجرائد والمجلات، والروايات التي اشتريناها من باعة الشوارع لنقوم بتبادلها، وبعد أن ننتهي من التبادل كنا نعيد بيعها بسعر أقل قليلاً من سعر الشراء. بدايتي بالقراءة الجدية بدأت في عمَّان، مسترشداً في اختياراتي الأدبية بأخي عبد الفتاح. قرأت الروايات الكلاسيكية الأوروبية المترجمة للعربية: شكسبير، بؤساء هوغو، وأعمالاً عديدة لكامو وبيكيت. استمتعت بقراءة ديكنز ودستويفسكي. صارت القراءة وسيلة للهروب من الفقر والإحباط، وكنت أجوب العالم في مخيلتي مع شخصيات تلك الكتب. أعطتني القراءة إحساساً بالطبيعة العالمية للوجود البشري، وهذا بالمقابل أسس لرغبتي بالعمل خارج العالم العربي، وبالنهاية، أوصلني إلى لندن.

عندما كنا نتوقف عن القراءة، كان الحديث ينطلق والمناقشات تتجه بالضرورة إلى السياسة، ويتبع ذلك انبثاق الخلافات. كنا في فورة الشباب وكان هذا يعني التنافس الشديد، ورغم أننا كنا يساريين في ميدان السياسة، فقد اكتشفنا ظلالاً مختلفة من ألوان اليسار الحمراء وتسابقنا إلى إلقاء شتائم مثل «عميل إمبريالي»، «أمريكاني»، و«صهيوني» على بعضنا البعض. بعد إحدى المشاجرات، قام الجميع وانسحبوا. بقيت وحدي مع صالح وفاتورة الطلبات. كنت أشعر بالإحباط في ذلك الحين فاعتبرتها فرصة للحديث وحدي مع ابن عمي. «صار لي في معمل البندورة مدة عام»، قلت له، «ولا أشعر بأنني أقترب من تحقيق أي شيء مما جئت لأجله. كل ما أقبضه يروح ثمن طعام. أشعر بأنني وقعت في كمين». بدا صالح متضايقاً، لكن وجهه أضاء فجأة. قال:

- «تذكرت!، هناك وظيفة عمل لسائق في البلدية وأجره أفضل بكثير.

- «لكنني لا أجيد القيادة!».

- «هذا لا يهم، لن تحتاج وقتاً طويلاً للتعلم. تعال إلى هنا يوم الجمعة الساعة العاشرة صباحاً وسوف ترى».

يوم الجمعة التالي، كان صالح جالساً إلى طاولتنا المعتادة مع رجل لم أره من قبل. سام - اختصاراً لسمير - كان شخصاً متعدد المواهب. كان سائق تاكسي على طريق عمان - بيروت وكوميدياً بالفطرة.

سرد لنا حكايات طويلة عن ملاهي بيروت الليلية والراقصات الشرقيات والورطات التي وقع فيها مع الشرطة. كان من الصعب فرز الواقع عن الخيال في أحاديثه لكن ذلك لم يكن مهماً. لقد استمتعت بأسلوبه المغامر وموقفه المتبسط من المال. بعد معرفته أن لا مال لدي أدفعه لقاء دروس قيادة السيارات، قرر سام أن يعلمني بنفسه. كانت سيارته المرسيدس بالخارج. «يالله!، لنذهب».

بعد ثلاث ساعات، كان سام قد علَّمني المعارف الأساسية: كيف نشغِّل السيارة، كيف نحرك مبدِّل السرعة وننطلق، وكيف نرجع إلى الوراء وكيف نؤشِّر بالأضواء. تجوَّلنا بالسيارة وأنا خلف المقود في جولة قصيرة لكنها كانت كافية لرضرضة عظامي.

ربَّتَ سمير على ظهري حالما جذبت فرامل اليد بصوتها الزاعق وقال: «هذا كل شيء. أنت جاهز للخضوع لامتحان السَّوق. أنا واثق من أنك ستنجح». وكان على حق. يبدو أنه ما كان على المرء سوى أن يقوم بتحريك السيارة، حتى لو تقافز يميناً ويساراً، حتى يحصل على رخصة السَّوق في الأردن تلك الأيام... أعطاني سمير دروساً أخرى بين الحين والآخر ساعدتني بعض الشيء على إتقان أولي لهذه المهنة.

كنت بالكاد قادرا على قيادة سيارة، لكنني ما لبثت أن وجدت نفسي خلف عجلة القيادة، موظفاً في البلدية. بينما كنت أقود «تراكتور» لرشِّ مبيدات الحشرات عبر وسط المدينة، كان أربعة رجال منتصبين وهم يرشون المبيدات من خراطيم حمراء للقضاء على الصراصير والبعوض وغيرها من الحشرات التي تهدد باحتلال شوارع عمان. لم يزوَّد أي منا بقناع أو أي وسيلة أخرى من وسائل الحماية رغم رسم الجمجمة والعظام الواضح على هذه العلب، ما يشير إلى الطبيعة السامة لمحتوياتها. كان من المفترض أن نشتري هذه الوسائل بأنفسنا إذا كنا قلقين على صحتنا، لكننا لم نكن قادرين مالياً على هذا «الترف».

احتجاجي الآخر على هذه الوظيفة كان الحركة البطيئة للسيارة؛ فلأني صرت السائق، كنت أفضِّل شيئاً أسرع.

لحسن حظي أنني طوال حياتي كنت محاطاً بأشخاص أكبر مني سناً يهتمون بي ويوفرون لي يد المساعدة. كان معلمي في البلدية مهندساً يدعى حسن، وهو أيضاً فلسطيني، كان مسؤولاً عن القسم الذي أعمل فيه.

في أحد الأيام، دخلت القسم بعد جولة بالسيارة وعيناي وأنفي تسيل. نظر إليَّ حسن وهزَّ رأسه. «عبد الباري، لماذا تقوم بهذا العمل؟ إنه يمرضك».

قلت وأنا أتنشَّم: «ليس لدي أي خيار آخر يا حسن، أنا ممتن لحصولي على عمل أصلاً، ولا أملك ترف الاختيار».

«هذا عمل للعجائز غير المبالين بالموت. ألا تشعر بتأثير هذه المواد الكيميائية؟ يمكن أن تقتلك»، قالها وهو يحمل دفتراً ويقلِّب صفحاته. «اسمع، أريد شخصاً يعمل في شاحنات القمامة. هل تعتقد أن بإمكانك قيادة شاحنة؟».

كانت الرائحة لا تطاق، خصوصاً في حرارة صيف الأردن، لكن الأجر كان أفضل وكوني السائق فلم يكن عملي بمشقة عمل زملائي الزبالين. كان على هؤلاء الأبطال ذوي العضلات، المسخَّمي الوجوه، أن يلتصقوا بمؤخرة الشاحنة، قافزين بين الفينة والأخرى لإفراغ سلة قمامة أو أشياء أخرى في الجبل المنتن الرائحة خلف الشاحنة. كنت سعيداً وأنا جاثم في الأعلى، عابراً المناطق المختلفة من الأردن وأنا أفكر بمستقبل بعيد المنال أخطط له في أحلامي. كان زملائي معتادين على نبش القمامة لاكتشاف أي شيء يمكن أخذه معهم إلى البيت. كانوا يفضلون نوبات المناطق الغنية من عمان حيث يمكن التقاط أشياء أكثر قيمة، من فواكه أو خضروات، وحتى قطع من المفروشات التي كانوا يرونني إياها بإحساس بالانتصار وأنا أنظر من نافذة الشاحنة.

بعد أسبوعين، انتبهت إلى أنني يمكن أن أستأجر غرفة بنفسي ووجدت مكاناً عند عائلة في حيٍّ ماركا بعمان: منطقة فقيرة لكنها حيوية، مزدحمة بالناس وودِّية. كانت العائلة مؤلفة من أرملة وست بنات عازبات. عاملنني مثل أمير، واهتممن بغسل ملابسي، وكن يطعمنني لدرجة أنني لم أكن قادراً على الحركة بعد ذلك. ثم، بعد أن ينتهين مني، كان الجيران (الذين لديهم ثلاث فتيات عازبات) يتولون مهمة دعوتي إلى القهوة والحلوى وتدليلي بكل طريقة ممكنة.

اندلعت منافسة شرسة بين العائلتين، فقد اعتبرتاني صيداً ثميناً - كان لدي دخل ووظيفة، وأعمل في البلدية - من دون انتباه أحد للرائحة البشعة التي ترافقني بسبب شاحنة القمامة. ما كنت أستطيع الإتيان بحركة من دون أن ألتقي بزوج عيون هائمة وبنية كالشوكولاته للفتيات التسع، عيون لا تلبث أن تنخفض حال رؤيتي لها.

واحدة من الفتيات كانت تدعى سلوى وقد سمعتني أتذمر من البرد مع بداية الشتاء. اقترحت عليَّ أن أشتري بعض خيطان الصوف لتقوم بحياكة سترة لي. جهد العشق هذا استمر شهوراً وكنت أستعد لمغادرة الأردن إلى مصر

حيث كان الشتاء قد انقضى منذ فترة طويلة حين قامت سلوى بتقديم السترة لي، ملفوفة بورق محارم.

لم أفتح الطرد إلى أن وصلت إلى الإسكندرية، لأكتشف القطعة اليدوية الجميلة. بعد تمحيص جيد، انتبهت إلى أنها قامت بحياكة بعض من شعرها في السترة، كرمز لمشاعرها نحوي. هذه اللمحة الرومانسية الساحرة كانت أول تجربة عاطفية لي لكنني كنت قد قررت منذ زمن طويل ألا أرتبط بأي علاقة لأن ارتباطاً كهذا يعني الزواج.

خلال تلك الفترة جاءت والدتي لزيارتي في عمان لعشرة أيام. ترجلتْ من الحافلة ولاحظتُ أنها تحمل حلّة غطاؤها مربوط بحبال.

سألتها بعد أن تعانقنا: «ماذا لديك هنا، يمَّه؟».

قالت بفخر: «طعام فلسطيني حقيقي لك يا سعيد». لقد طبخت لي الطعام في غزة وأحضرته عبر كل المسافة إلى عمان، محمياً في حضنها خلال رحلة الساعات العشر. حضَّرت الطبخة بكل حب وأوصلتها بكل تصميم. كانت وجبة الكوسى المحشية والدجاج المشوي هذه أفضل طعام أكلته في حياتي. ردُّ جميل أمي هذا كان بعد أيام عندما حققت لها إحدى أهم رغبات حياتها... بأن أخذتها لتأكل في مطعم كباب.

خلال بداية زيارتها، ذهبنا في جولة حول عمان. لم تكن قد ذهبت إلى مدينة من قبل وكانت البنايات العالية تدوخها؛ في وسط عمان استوقفها بناء من عشرة طوابق. بعد خمس دقائق من توقفها ونظرها إلى فوق بدأتُ أفقد صبري. قلت وأنا أشدها كمِّها:

- «يلا يمَّه، خلينا نمشي.

- لا، لا، خلِّيني أتفرَّج منيح على بيت الملك حسين».

بدأت أضحك:

- «هذا ليس بيته، يمَّه!

- أكيد لازم هذا يكون قصره. هذي أكبر بناية، وهو أهم شخص في الأردن.

- إنه يقيم في قصر يمَّه، هذا بناء للمكاتب وهو في وسط المدينة. الملك حسين يقيم خارج المدينة على قمة جبله. وهناك مدخل ضخم ودرب خاص للقصر، وحراس في كل مكان».

احتجت الكثير لإقناع أمي بذلك. وعندما قابلت الملك حسين في ما بعد، أخبرته كيف افترضت أمي أنه سيقيم في أكبر بناء في وسط المدينة. ضحك

وسألني:

- «أين هي الآن؟

- في غزة.

- في المرة القادمة رجاء أن تحضرها معك لتراني. أحب أن ألتقي بها وأن أريها القصر الملكي».

والدتي، للأسف، لم تكن قادرة على مغادرة غزة مرة أخرى لوقت طويل، لكنني عندما التقيت الملك مرة ثانية، بعد خمس سنوات، لم يكن قد نسي وسألني عنها.

في تلك الإثناء كنت أواجه مصاعب في العمل. صحيح أن السيارة الأولى التي عملت عليها بطيئة لكنها على الأقل كانت تعمل. أما شاحنة النفايات فكانت تتعطل بطريقة مزعجة بشكل متكرر، ما كان يتركنا ساعات في حرارة الشمس الحارقة إلى أن يأتي حسن بسيارته لإنقاذنا. وعندما لا يستطع إصلاح العطل حيث توقفنا، كانوا يرسلون شاحنة أخرى، فيما الشاحنة الأولى تنفث محتوياتها القذرة وتعاد مقطورة إلى المستودع وسط موجة من السخرية والصراخ بين السكان الذين تمرُّ بمناطقهم.

في المرة التالية التي كنت فيها جالساً لالتقاط الأنفاس مع حليفي وصديقي حسن استكشفت إمكانية الحصول على تبديل وظيفي آخر. قال حسن:

«ضاق ذرعك بتلك الشاحنة الهرمة التعيسة. تريد أن تسوق سيارة أفضل، سيارة حقيقية، أليس كذلك؟».

قلت وأنا متفاجئ بالرد المشجِّع:

- «نعم».

قال مبتهجاً:

- «لديَّ ما يناسبك تماماً! من اليوم فصاعداً سوف تقود سيارة جديدة. أكثر السيارات حداثة في كل البلدية».

وضع ذراعه على كتفي، أضاف: «تعال معي، سوف أريك».

فيما كان يمشي باتجاه الكاراجات أوجز لي مزايا موقعي الجديد:

- «الراتب أفضل مما تحصل عليه الآن. سنعطيك أربعة دنانير أكثر.

- أربعة دنانير في السنة زيادة دفعة واحدة؟ هذا عظيم!».

ابتسم ابتسامة عريضة، وقال، وهو يفتح باب أحد الكاراجات:

- «لا، ليس في السنة، في الشهر! أعلم أن لديك إخوة وأخوات يعتمدون عليك الآن. ألق نظرة على هذا يا صديقي!».

وفتح الباب ليكشف عن سيارة نقل موتى سوداء، لامعة، جديدة. قلت وأنا أتراجع عدة خطوات:

- «آه! لا أعلم... أنا أخاف من الجثث. حتى إنني لم أستطع رؤية جثمان أبي.

حثني حسن على التفكير:

- فكِّر بالإكراميات التي ستحصل عليها! الأغنياء وحدهم من يطلبون الجنازات. عندهم الكثير من المال وهم كرماء في لحظات مثل تلك».

لم أستطع إقناع نفسي بذلك. فكرة القيادة وجثة ممددة ورائي كانت مرعبة. قلت: «قد أصدم السيارة وأحطمها، سوف أضطرب! أنا متأكد من أنني لا أستطيع فعل ذلك».

قال متألماً وهو يشعر بالإهانة:

- «الكل يريد هذا المنصب، وأنا أعرضه عليك وترفض!

- أنا آسف، وممتنٌّ لك أيضاً، لكن يجب أن أقول لا. فلتجعْ أسرتي! سوف تراودني كوابيس كل ليلة إذا قدتُ سيارة الجنازات هذه. أرجوك أبقني في شاحنة القمامة».

بعد أشهر قليلة، عُرضت عليَّ وظيفة عند رجل أعمال سوري ثري صاحب مصنع حلوى. صرت سائق شاحنة في شركة «ناشد إخوان» وجلست خلف مقود سيارة طبيعية لأول مرة، أوصل «راحة الحلقوم» إلى المحلات والمطاعم في كل أنحاء المدينة وأحياناً إلى معظم أرجاء الأردن.

كان معاوني يدعى محمود وكان يتسابق مع علب الكرتون في كل نقطة تسليم نتوقف عندها. كان محمود قصير القامة، ممتلئ الجسم، وفي رأسه بعض خصلات مبعثرة من الشعر الأشقر. لم يكن شخصاً ذكياً، لكن من مظهره، بالإمكان معرفة أنه كان يحب أن يكون موظفاً بيروقراطياً؛ فعلى الرغم من الطبيعة اليدوية لوظيفته، كان يرتدي ملابس موظف، ويبدل قميصه بآخر نظيف كل يوم، ويحرص على تصفيف شعره والإكثار من الكولونيا الرخيصة.

بالنسبة لي، كانت هذه وظيفة أفضل بكثير، وبالتأكيد أحلى رائحةً. أصبحت مدمناً على راحة الحلقوم خلال فترة قصيرة ولم أستطع مقاومة أخذ عينة

منها يومياً. إن تناول كل هذه الحلوى إضافة إلى الكميات الكبيرة من الطعام التي كانت مؤجِّرتي، وبناتها، وجيرانها وبناتهم، يحشونني بها بدأت تعطي تأثيراً على شكلي. لأول مرة في حياتي، اختفت عظامي خلف حشوة من اللحم وصار صعباً عليَّ إغلاق حزام البنطال على وسطي. بعد عدة أشهر، تركت راحة الحلقوم وفي النهاية صارت رائحة أي نوع من الحلويات تشعرني بالغثيان. إلى هذا اليوم، أكره الحلويات، وهو ما يعتبره أولادي أمراً لا يصدَّق، ففي غضون بضعة أشهر أكلت ما يكفي كتيبة لعام كامل، وربما أكثر.

كان معمل «ناشد إخوان» في الليل ينقلب لشيء مختلف تماماً. كنت قد لاحظت أنه بعد انصراف العمال تأتي وجوه جديدة، البعض في ملابس أنيقة، والبعض الآخر يرتدي ملابس الفدائيين المرقطة، والقاسم المشترك هو السجائر التي تتدلى من شفاههم على الدوام. وبعد فترة، أُعلمتُ بسرٍّ ما يحصل بعد مغادرة العمال. بعد إطفاء الآلات وتركها تبرد، تُغلق المداخل، وفيما شمس عمَّان تغرب، كانت مجموعات من الرجال تتجمع في الظلال، يتحدثون ويدخنون. بعد ما يقارب نصف ساعة، تُضاء مصابيح الفلوريسان من جديد ويخيِّم جو إثارة وترقُّب على المعمل. تُفتح الأبواب الجانبية ولا يلبث أن يأتي قادة الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين. كانوا أشخاصاً مثيرين يلبسون الكاكي والثياب المرقطة والأحذية العسكرية الثقيلة، فيما البنادق والأسلحة الرشاشة تتدلى من أكتافهم. معمل الحلوى، مثل عشرات من أماكن العمل الأخرى في المدينة، كان يُستخدم للتجنيد والتعبئة السياسية، وإجراء حوارات ونقاشات ساخنة أحياناً، ترتفع درجة حرارتها لدرجة الصراخ. ووصلت إلى قناعة راسخة بأن قيادة الجبهة تتخذ من المصنع مكاناً سرياً للاجتماع، وأن صاحب المصنع، وهو قومي عربي بالفكر والعقيدة، متعاطف مع الجبهة إن لم يكن من قيادتها.

خلال الفترة بين 1967 و1970، كانت عمَّان ملاذاً للفدائيين: عادت روح العروبة للاشتعال في أعقاب حرب الأيام الستة، وأصبحت العاصمة الأردنية نسخة عربية من هانوي. كانت تلك مرحلة رائعة للنضال الفلسطيني وبدا كما لو أن الناس قادرون على إعلان تأسيس جماعة فدائية جديدة كل يوم. كانت فترة مهمة، لا في تطور حركة المقاومة فحسب، ولكن أيضاً في تجذُّر سياسات العالم العربي عموماً. كانت السياسات الفلسطينية معقدة لكنها كانت دائماً محورية في حياتي، لذلك أجد من الضروري التأمل في تلك الحركات الفدائية الأساسية وعمَّا كانت تعبِّر في ذلك الحين.

تأسست «فتح»، أقدم وأكبر تنظيمات المقاومة، في 10 تشرين الأول/أكتوبر 1959 خلال اجتماع في منزل بالكويت حضرته مجموعة صغيرة، التقى معظم أفرادها في الجامعة في القاهرة. كان بينهم رجال سيصبحون لاحقاً مقاتلين

من أجل الحرية، وسياسيين مشهورين عالمياَ: ياسر عرفات، وصلاح خلف، وخليل الوزير (أبو جهاد)، ومحمود عباس (أبو مازن) الذي سيصبح رئيساً للحكومة الفلسطينية عام 2003، والذي كان مقيما آنذاك في قطر، كان أيضاً من الأعضاء المؤسسين لفتح.

فتح، التي كانت في البداية حركة إيديولوجية، ما لبثت أن صارت طرفاً في الصراع المسلح مع ولادة جناحها العسكري، العاصفة، عام 1965.

شجع قادة فتح المحليين المقاومة الشعبية وقدموا لفلاحي الضفة الغربية تدريباً عسكرياً بدائياً. ردت إسرائيل على الهجمات المتواضعة الناتجة من تلك التدريبات بقوة كبيرة: أكثر من 1000 فلسطيني سُجنوا من دون محاكمات مع نهاية عام 1967: كانت منازل المشكوك بتعاطفهم تُهدم وقوانين حظر تجول قاسية تُفرض. عرفات وقادة فتح الآخرين أعادوا تجميع أنفسهم في الأردن، مؤسسين قيادتهم المركزية في قرية الكرامة، على بعد40 كيلومتراً خارج عمَّان حيث أقاموا قواعد تدريب للمتطوعين في منطقة الأغوار القريبة من الحدود.

بدأت فتح بدفع رواتب للناس للانضمام إليها عندما كنت في عمَّان. أذكر ذلك لأنهم كانوا يعرضون 15 ديناراً في الشهر، وهو ما كنت أتقاضاه مقابل عملي كسائق شاحنة. لم أتقبَّل فكرة هذه الحوافز المالية، لأنني شعرت بأنها تسيء لفكرة الالتزام العقائدي بقضيتنا الوطنية. لكن الحياة في عمَّان كانت باهظة التكاليف، ثم إن هؤلاء لهم أهل ويحتاجون إلى المال، وفي نهاية المطاف هم مشاريع شهداء، وقطعاً لم يكن المال دافعهم الأول.

رغم ذلك، فحقيقة أنهم كانوا يقومون بعمل بدلاً من مجرد الكلام أمَّن لفتح نمواً مستمراً في شعبيتها بين الفلسطينيين. بعد أن قامت بإرسال أعداد كبيرة من المقاتلين إلى داخل الضفة والقطاع لاحقاً لمقاتلة الإسرائيليين بشراسة وعناد جنباً إلى جنب مع الفصائل الأخرى، ولكن بأعداد أكبر، فكرت إسرائيل بإنهاء فتح بشكل نهائي من خلال هجوم خاطف على قاعدتها في الكرامة. لحسن الحظ، علمت المخابرات الأردنية بذلك وأعلمت قادة فتح بالأمر ناصحة إياهم بالهرب. عندما أعلنت فتح قرارها الواضح بالبقاء والقتال، أكد الأردنيون لها أنها تستطيع الاعتماد على الدعم العسكري من الجيش الأردني. في 12 آذار/مارس 1968، هوجمت القيادة المركزية لفتح بقوة من 15000 جندي إسرائيلي، مع الدبابات وطائرات الهليكوبتر، مسلحين بأحدث الأسلحة وبشهوة التدمير. غير أن الفدائيين، رغم أنهم كانوا أقل عدداً بشكل كبير، قاوموا الهجوم، وسرعان ما تلقوا تعزيزات، كما وُعدوا، من قبل وحدات الجيش الأردني المحلية بقيادة اللواء مشهور حديثة الجازي الذي لُقِّب ببطل الكرامة لاحقاً بسبب دوره المشرف في دفع الجيش الأردني لمقاومة الهجوم

الإسرائيلي من موقعه كقائد للجيش. وقد كرَّمه الرئيس الراحل ياسر عرفات وعيَّنه مستشاراً عسكرياً له. تراجع الإسرائيليون بسرعة، متفاجئين بحجم المقاومة، تاركين وراءهم 28 جندياً إسرائيلياً قتيلاً، مقابل 150 من فتح و20 من الجيش الأردني. بعد الإهانة الكبيرة للجيوش العربية في هزيمة 1967، كان هذا نصراً مهماً، اندلعت إثره الاحتفالات في عمان. انضممتُ إلى الحشود المبتهجة التي كانت بالآلاف في الشوارع وهم يهتفون، ويقرعون الطبول ويرقصون، ويوزعون الحلويات ويطلقون الرصاص في الهواء.

الدبابات والعربات الإسرائيلية التي جرى غنمها عُرضت في موكب في ساحة الهاشمية، في وسط عمان، وجاء الناس من كافة أنحاء الأردن لرؤيتها، والأكثر إقداماً منهم كان يتسابق على تسلقها لأخذ صور مع الأصدقاء والمصورين الصحافيين. انحفرت معركة الكرامة في الذاكرة الجمعية للشعب الفلسطيني، وكان اسم البلدة «الكرامة» شديد الملاءمة لمعنى ما حصل. ألهمت البطولات والتضحيات التي قام بها مقاتلو فتح الشجعان الكثيرين وأدت لتقدم 5000 متطوع جديد بطلبات للانضمام لها خلال ثمانية وأربعين ساعة. أدَّت الكرامة أيضاً إلى وضع ياسر عرفات في دائرة الضوء الدولية للمرة الأولى: مجلة «التايمز» قدمت تغطية للمعركة في عدد 13 كانون الأول/ديسمبر 1968 وظهر وجه قائد فتح على غلافها.

احتفى القادة العرب بفتح، خصوصاً في السعودية ودول الخليج، وقدَّموا التمويل الذي كانت تحتاجه بشدة، كما حصلت المنظمة على دعم لوجستي من الحكومة الصينية. وكان قادتها على اتصال مباشر كذلك مع الكوريين الشماليين والفيتكونغ. وبحلول عام 1969، كانت فتح قد سيطرت على منظمة التحرير الفلسطينية، التي تأسست في أيار/مايو من ذاك العام كمظلة جماعية لحركات المقاومة الفلسطينية، حين تولى ياسر عرفات زعامة المنظمة خلفاً للسيد يحيى حمودة الذي شكل فترة انتقالية بعد أن تولى زعامة المنظمة لعدة أشهر من مؤسسها أحمد الشقيري.

رغم أنني كنت معجباً بالنجاحات العسكرية لفتح، فإن سياساتها بدت لي مثيرة للجدل: اتجاهها السياسي يمثل يمين الوسط، وتأسست على يد الدول الخليجية، وكانت مناهضة للحركة القومية العربية التي تمثِّلها الناصرية.

كانت منظمة جورج حبش، الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، بالنسبة لي، أكثر جاذبية. أُعجبت بحبش الذي كان طُرد من مسقط رأسه في اللد خلال النكبة عام 1948، واستكمل بعد ذلك دراسة الطب في بيروت. كانت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين عام 1967 اتحاداً بين عدد من تجمعات المقاومة، والتقى بيان المجموعة الأول مع آمال الكثيرين من المعدمين عندما قال:

«السلاح الوحيد الذي بقي في أيدي الشعب هو العنف الثوري». وكان معظم أعضاء الجبهة الشعبية مثقفين بأجندة عروبية واشتراكية.

قامت الجبهة الشعبية بتنفيذ عدد من العمليات المثيرة كخطف الطائرات، وكان من بين من قام بها الفدائية الشهيرة ليلى خالد؛ وكما تكرَّس تشي غيفارا كرمز ثوري في العالم ومثالاً لمعظم الشباب في تلك الفترة، تكرَّست ليلى خالد في الوعي الفلسطيني العام في صورة أيقونية لأنثى جميلة تحمل سلاحاً، وذات عينين ناريتين. لم أقابل ليلى خالد حتى عام 2005، لكن المرأة التي دخلت إلى مكتبي يومها والتي أضحت في منتصف العمر كانت لا تزال تتحلى بالكاريزما والتحدي اللذين يتصف بهما الثوري الحقيقي.

كانت تلك حقبة الأساطير، وكان الفلسطينيون معجبين بجورج حبش بعد هروبه من السجن عام 1968 من سورية، حيث كان مسجوناً بتهمة تخريب خط أنابيب النفط الذي يمر بعدة دول عربية. عندما كان حبش في السجن، أصدر نايف حواتمة، الذي كان أحد قياديي الجبهة، بياناً نعت فيه حكومة عبد الناصر بـ«نظام البرجوازية الصغيرة». كان غضب القائد المصري كبيراً لدرجة أنه قطع المساعدات عن التنظيم. وفي شباط/فبراير 1969، كان حبش وحواتمة قد اختلفا تماماً، فقام الأخير بتأسيس ما سمِّي «الجبهة الديموقراطية لتحرير فلسطين».

الرجل الذي كنت أعمل لديه، وهو سوري، دعم انشقاق حواتمة وكانت فاعليات الجبهة الديمقراطية تجري في مصنعه. من الناحية العملية، كان صعباً عليه أن يعترض لأنه بذلك يخاطر بأن يوصم بالخيانة - ففي ذلك الجو السياسي الراديكالي اليساري الذي كان سائداً بين فلسطينيي الأردن كان على البرجوازيين الحذر الشديد بخصوص ما يقولونه أو يفعلونه، وكان عليهم أن يختاروا واحدة من الجماعات الفدائية لتقديم الدعم لها.

غالباً ما كنت أبقى في المعمل بعد انتهاء العمل لألتقي متدربي الجبهة الديمقراطية وأراقب أنشطتهم باهتمام، منضماً إليهم في بعض الأحيان. لم يكن غريباً عليَّ التعامل مع السلاح - ففي المدرسة بغزة كان التصويب ببنادق «إنفيلد» القديمة باستخدام طلقات فارغة «فشنك» جزءاً من المنهاج التعليمي. الآن تعلمنا كيف نفكُّ ونركِّب، ننظف، ونحشو ونصوب بالكلاشنيكوف بذخيرة حية.

كنت أيضاً على علاقة مع جماعة الجبهة الشعبية في عمان من خلال قريبي، حسن، الذي كان واحداً من المدربين؛ وكان حسن معتاداً على اصطحابي إلى منطقة قفراء في الضواحي للتدرب على الرماية. لم يكن لدي استعداد لذلك رغم بذلي قصارى جهدي، وكان حسن محظوظاً لأنني لم أصبه وأنا أتدرب

على إطلاق النار على العلب القديمة والقناني التي كنا نصفَّها بعضها جنب بعض لاستخدامها كأهداف. كان هناك الكثير من الحوادث بسبب أكثر من شخص غير كفء راغب في الانخراط في العمليات الفدائية، ممن لم يكونوا في الظروف الاعتيادية قادرين على التعامل مع بندقية طوال حياتهم. كنت أحترم حسن، الذي انضم لاحقا للجبهة الشعبية – القيادة العامة وأُرسل لحراسة مكتبها في العراق. تزوج فلسطينية هناك وكوَّن عائلة كبيرة قبل أن يُقتل خلال فترة العقوبات على العراق في ظروف غامضة.

رغم أنني كنت راديكالياً بأفكار حادة تلك الأيام، فقد قاومت كل المحاولات لتجنيدي في أي منظمة فدائية. كان عقلي مركزاً على حقيقة أن أمي وإخوتي وأخواتي الصغار يعتمدون علي. كانوا سيتضورون جوعا لو أنني متُّ. كان الأمر بهذه البساطة. يجب أن أعترف بإحساسي بالأسف وحسدي لأصدقاء مثل إبراهيم، عاشوا التجربة الفدائية واستشهدوا في سبيل معتقداتهم. وكنوع من التعويض لعزوفي عن القتال، كنت أقول لمن يدربونني إنني أنوي الزواج بفتاة فلسطينية لتلد أجيالاً جديدة من شعبنا. كنت معجباً بالجبهة الشعبية لأن معظم شبابها في ذلك الوقت كانوا من المدرسين والأطباء والمهندسين الذين جاءوا من مختلف أنحاء العالم، ومنطقة الخليج خاصة، تركوا أعمالهم، وانخرطوا في صفوف المقاتلين، فتحوا مستشفيات ومدارس، والتصقوا بالناس، وعاشوا في القواعد دون مرتبات مالية؛ كانوا في قمة التواضع والتقشف. وأعترف أن ميولي السياسية الأقرب إلى القومية العربية والناصرية تلتقي مع الكثير من ميولهم، وإن كنت أرى دائماً أن القومية يجب أن ترتكز على الإسلام، ولم أؤمن بالماركسية مطلقاً.

لم ألتق الحكيم جورج حبش في حياتي، ولكن عندما اعتزل قيادة الجبهة في أواخر أيامه، انتقل إلى عمَّان وعاش حياة عادية بسيطة، وكان فقيراً، حتى إنه استعان بكرم أحد المتعاطفين مع الجبهة من رجال الأعمال لتغطية نفقات طبع كتابه عن ذكرياته وكان المبلغ في حدود عشرين ألف دولار دفعها رجل الأعمال رمزي دلول مثلما قال لي ذلك بنفسه.

تلقيت كلمات إطراء كثيرة في حياتي لمواقفي السياسية، لكن أجملها على الإطلاق تلك التي تلقيتها من الحكيم جورج حبش. فقد كنت أظهر بشكل مستمر على شاشة قناة الجزيرة أثناء وبعد القصف الأميركي للعراق عام 1991. واتخذت مواقف شرسة ضد الوجود العسكري الأميركي في الجزيرة العربية والحصار الظالم على العراق. الأمر الذي عرضني لهجمات إعلامية شرسة من صحافة الكويت والسعودية بخاصة، حيث اتُّهمت بالوقوف إلى جانب الطاغية صدام حسين، وتلقِّي أموال منه دعماً لصحيفة «القدس العربي» التي أرأس تحريرها.

اتصل بي الحكيم من عمَّان، وكانت معه السيدة جرمه (أم الميس) وقال لي إنه يعتز بي ويفتخر بمواقفي، وأضاف أنني «أذكِّره بشبابه» وأنني «صورة منه». سعدت كثيراً بهذا الإطراء الصادر عن مناضل كبير، بل ونموذج في الطهارة والمقاومة والالتزام بالثوابت مثل جورج حبش. وقد استمرت الاتصالات بيننا عبر الهاتف، وكنت دائماً أفتخر ببعض آرائه وتوجيهاته، بل وأستعين بها في افتتاحياتي ومقالاتي.

في الواقع، كنت أبعد ما يمكن عن التفكير بالزواج. كنت أتمتع بحريتي بعد سنين من الحياة في مخيم اللاجئين. زميلي محمود، من جهة أخرى، كان يتصرف بغرابة، محدقاً بذهول من نافذة الشاحنة فيما نحن نتنقل حول عمَّان وهو يتمتم الأغاني الرومانسية مثل «نعم يا حبيبي نعم» لعبد الحليم حافظ وغيرها من أغاني فيلم «الوسادة الخالية»، بابتسامة رضيَّة. في يوم من الأيام، طلب إليَّ القيام بتغيير في جولتنا الاعتيادية لأنه يريد زيارة شخص في المشفى. انتظرت خارجاً، أقرأ جريدة استعرتها من مكتب المدير، فيما ركض محمود إلى المشفى.

بعد عشر دقائق، بدأت أقلق من أن تتأخر جولتنا وأحسست بأننا سنقع في متاعب. بدأت بالتدقيق في واجهة المشفى لتبيُّن أي إشارة لقدوم محمود لأفاجأ به خارجاً مع ممرضة بزيها الكامل. اتجه هذا الزوج غير المتناسب نحو الشاحنة وشغَّلت المحرك، راغباً في التحرك بسرعة. فتح محمود الباب الجانبي للركاب وصرخ ليتغلب على ضجة صوت المحرك: «عبد الباري، هذه خطيبتي سناء، ورايحين نوصلها عا بيتها». كانت سناء شقراء، ذات بنية صغيرة وجسم مليء بالتلافيف الجميلة، سريعة الخاطر ودائمة الضحك. عندما شاهدت بربارا وندسور للمرة الأولى في أفلامها الشهيرة Carry On وطريقتها في الإغراء والإغواء، أصبت بصدمة لأنها تشبه سناء بشكل لا يصدق. لا أستطيع مشاهدة المسلسل البريطاني الشهير «ايست اندرز» من دون أن أفكر فيها، مما يجعلني أضحك، فأسبب الإزعاج لزوجتي وأولادي، الذين لم تكن لديهم أي فكرة لماذا كان لظهور «بيغي ميتشل» (اسم الشخصية في المسلسل) هذا التأثير عليَّ.

بعد أن علمت أن سناء تقيم في الطرف الآخر من المدينة، أشرت لها بأنها ستنتظر انتهاء جولتنا كي أستطيع أن أعيدها إلى بيتها. ابتسم محمود ابتسامة عريضة، قال: «أعرف، عليها أن تنتظر خلال الساعتين اللاحقتين معنا في السيارة». دخلت سناء، ولحق بها محمود.

لابد أن شكلنا بدا غريباً ونحن جالسون في المقعد الأمامي للشاحنة، مع ممرضة شقراء مضغوطة بين محمود من جهة – وهو يحدق فيها، وابتسامة

جنونية مثبتة على شفتيه وهو يحاول (عبثاَ) بدء محادثة – وأنا على الجهة الثانية، محاولاً (دون نجاح) أن أتجنب لمس فخذها كلما نقلت مغيِّر السرعة.

منذ ذلك اليوم صرنا نمر بسناء كل يوم لإيصالها إلى منزلها، فيما شهد شغف محمود بها تعاظماً واضحاً. المشكلة أنه كان ميؤوساً منه بخصوص بدء محادثة، ونادراً ما فتح فمه إلا لإطلاق ملاحظات حول السير أو لعرض قطع راحة الحلقوم عليها المرة تلو الأخرى: «هذه القطعة فيها الكثير من اللوز، أعتقد أن هناك خطأً ما في آلة المزج».

سناء كانت فلسطينية قُتل زوجها في اجتياح غزة عام 1967. منذ البداية اتضح أن لدينا الكثير الذي نشترك فيه، وتحدثنا عن فلسطين والمقاومة. بدا القلق على محمود خلال محادثتنا وأخذ يرسل لي نظرات عتب من خلف كتف سناء وهي ملتفتة صوبي، متوثباً لمعرفة ما أقوله لها. بدا واضحاً أن سناء لم تكن تُبادل محمود عاطفته المشبوبة نحوها ووجدت نفسي في وضع محرج، فالواضح أنها كانت تفضِّلني أنا، رغم أنني كنت مراهقاً. وحيث إنه لم تكن لديَّ رغبة بالزواج، ما كنت في حالة يمكن الدفاع عنها، فطلبت من محمود أن يوقف عروضه لإيصالها لمنزلها. عندما عدت إلى عمَّان بعد سنوات، سمعت من بعض معارفي أن محمود وسناء قد تزوجا لاحقاً، لكن الزواج انتهى بطلاق حاد.

أشعر بحزن شديد لما انتهى إليه أمر هذا الـ«روميو» الذي أحب من طرف واحد لدرجة الجنون، ولا أعرف ما حدث له أو لها، فقد تقطَّعت بنا السبل والمسافات. كل ما أذكره، ومن الصعب أن أنساه، إغراءات سناء وإصرارها بين الحين والآخر على ترك العنان لفستانها القصير لكي ينحسر، الأمر الذي كان يشكل لي إرباكاً في القيادة كاد أن يؤدي إلى حوادث مفجعة، وأنا المراهق في ذلك الوقت.

في صيف عام 1969، تخرَّج أخي الأكبر، عبد الفتاح، من جامعة القاهرة. بعد تأهله كمهندس، جاء إلى عمَّان آملاً بالحصول على عمل جيد. تشاركنا الغرفة التي كنت أستأجرها وقضينا ساعات عديدة نناقش خططنا المستقبلية. كان عبد الفتاح الشخص الوحيد في العائلة الذي وافق على رغبتي في أن أصبح صحافياً وكان دائماً مشجعاً لي. خلال بحثه عن عمل قمت بمساعدته براتبي من معمل الحلوى، وهو أمر كان عبئاً كبيراً على شاب في التاسعة عشرة من العمر، فعادات عبد الفتاح كانت مكلفة - كان يدخن بشراهة وكثيراً ما يذهب إلى المقهى مع أصدقائه، مشترياً العديد من فناجين القهوة. بعد أسابيع قليلة، لم يكن يبدو أنه اقترب من الحصول على عمل، وظهرت فرصة في معمل «ناشد إخوان» لعامل على الآلات. اقترحت عليه أن يقوم بهذا العمل فيما يستمر بالتفتيش عن عمل أكثر مناسبة له. استشاط عبد الفتاح غضباً: صرح:

«أنا مهندس! لماذا عليَّ أن أعملٍ في مصنع للحلوى؟ هل تقول لي إنني صرفت أربع سنين من حياتي عبثاً، وإن المال الذي صرفه والدي ثم أخوك كمال عليَّ كان من دون فائدة؟». هذه المشكلة عاناها الكثير من الفلسطينيين في ذلك الوقت، وكانت بدرجة كبيرة بسبب وجود الكثيرين منا في الأردن وانعدام فرص العمل تقريباً.

بحلول نهاية الصيف، لاحظ عبد الفتاح أنه ما كان سيحصل على وظيفة لائقة في عمان، وبدأ بالبحث عن عمل في الخليج. وما إن حصل على عمل كمدرس في مدرسة إعدادية في المملكة العربية السعودية حتى غادر الأردن. كان رجلاً لطيف المعشر وأعطتني فكرة اهتمام شخص بأمري في هذا العالم الغريب إحساساً بالأمان.

في نهاية شهره الأول في السعودية، استلم عبد الفتاح راتبه وأرسل لي على الفور مبلغاً كبيراً من المال مع رسالة يحثني فيها على الذهاب إلى مصر لاستكمال دراستي. كتب لي قائلاً: «لقد أثبتَّ أنك شخص مسؤول وشاب جاد. أريدك أن تحصل على الشهادة الثانوية وأن تذهب بعد ذلك إلى الجامعة. أنا أؤمن بك وأعلم أنك ستحقق طموحاتك. وسأدعمك خلال فترة دراستك».

رغم أنني كنت سأُثبت لعبد الفتاح صدق إحساسه وإيمانه بأن أصبح شخصية إعلامية في العالم العربي، فإنني لم أكن في الواقع الأول بين الإخوة من عائلة عطوان الذي يظهر على شاشة التلفاز. هذا الشرف تم حفظه لزياد، شقيقنا الأصغر، الذي أسس شركة بناء في السبعينات وفازت شركته بعقد لبناء مسجد في منطقة فقيرة من جدة في المملكة العربية السعودية.

أخي زياد كان يدرس في معهد للمعلمين في رام الله أثناء انتفاضة عام 1976 وقد كان من الشبان المتظاهرين الذين يقذفون الجنود الإسرائيليين بالحجارة، وقد أصيب إصابة بليغة نقل على أثرها إلى المستشفى، وهناك التقته مجموعة من مراسلي محطات التلفزة العالمية لإجراء مقابلات معه من على سريره ورأسه ويده يلفُّهما الشاش الأبيض.

بعد بناء المسجد عُرض خبر يفخر بالإنجاز في الإعلام السعودي. أعلمنا زياد أن التلفزيون السعودي سيعرض مقابلة معه من أمام المسجد الذي بناه، فقام آل عطوان في العالم العربي بضبط هوائيات التلفزيون ليشاهدوا المقابلة. تابعتُ المقابلة مع عبد الفتاح فانقلبنا على ظهرينا ضاحكين لأن مئذنة الجامع كانت مائلة بزاوية باتجاه باقي المبنى. كنا قد سمعنا ببرج بيزا المائل لكننا لم نحلم أن أخانا سيتحف العالم بالمئذنة المائلة في جدة.. طبعاً هُدمت المئذنة وأعيد بناؤها خوفاً على سلامة المصلِّين والمارة!

من دواعي فخري أن عائلتي مترابطة ووفية لأفرادها، وأننا كنا دائماً يساعد بعضنا بعضاً. انضم جلال إلى عبد الفتاح عندما بلغ المراهقة وقد اعتقله الإسرائيليون بتهمة الهجوم على عربة مدرعة. كان في السابعة عشرة من عمره حين حكم عليه بالسجن وعُذِّب بقسوة؛ لكنه لم يعترف بشيء (مثل والدي قبله) وأُطلق سراحه بعد عام. الأمر الوحيد الجيد في هذا الحكم بالسجن أنه تمكن من تقديم امتحانه الثانوي خلف القضبان؛ جرى فحص أوراقه من قبل مدقِّق مصري كان حريصاً على أن يحصل السجناء على أحسن النتائج - ليس تعاطفاً معهم فقط، ولكن أيضاً ليضمن أن الناجح سوف يتوجه إلى الجامعة في القاهرة، كنوع من النفي غير المباشر. ذهب جلال إلى جامعة القاهرة عام 1976، لكن التعذيب كان قد أثَّر كثيراً على قدراته الذهنية ولم يتمكن من الاستمرار ففشل في كل امتحاناته وعاد إلى غزة حيث تزوج جارة لنا وهو بعمر التاسعة عشرة فقط. قمنا، نحن إخوة جلال، بحلِّ مشكلة الحصول على الرزق فتضامنَّا معاً واشترينا له سيارة أجرة ليصبح منذ ذلك الحين معيلاً سعيداً لنفسه. ترك جلال كل فعاليات المقاومة وركز على تنشئة عائلته - لديه ثلاث بنات وولدين. كبر عيال جلال ونالوا تعليماً جيداً، وواحد من أبنائه صار وكيل نيابة في غزة.

صارت عمان، بشكل متزايد، مكاناً خطراً للفلسطينيين. وكنت محظوظاً بمغادرتي قبل أن تصل الأمور إلى ذروتها، لكنني بقيت على اطلاع على الأحداث على الأرض من قبل عمتي المفضلة، حليمة، وزوجها، أبو جهاد، أحد قادة الصف الثالث في حركة فتح في الأردن. رغم أن الملك حسين، في الأيام الثورية التي تلت معركة الكرامة، صرح قائلاً: «سنصبح كلنا فدائيين قريباً»، فقد بدأ يغيِّر رأيه حين لاحظ الانتشار السريع للحركة وانتبه لتهديد الحركات الفدائية لنظامه. مع نهاية الستينات كان هناك أكثر من 50 ألف مقاتل فلسطيني متدرب في المملكة، وكانت جماعات مثل الصاعقة والجبهة العربية لتحرير فلسطين تتحدى النظام الأردني بشكل علني، ناصبة حواجز على الطرقات ومنددة بالملك. ولم يكن الملك قادراً أيضاً على الاعتماد على ولاء جيشه الخاص، فآلاف من الجنود، بمن فيهم ضباط، كانوا يدعمون منظمة التحرير الفلسطينية.

خلق الحضور الهائل للمنظمات الفدائية الفلسطينية في الأردن مشاكل للملك حسين على الساحة الدولية أيضاً، في وقت كان يحاول فيه مدَّ أواصر الصداقة مع واشنطن. وصلت الأمور إلى ذروتها في أيلول/سبتمبر 1970: في السادس من الشهر، خطفت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين أربع طائرات كان يفترض أن تحطَّ في مهبط طائرات لسلاح الجو الملكي البريطاني في الصحراء الأردنية يُعرف بمهبط «داوسون»، والذي أعادت الجبهة الشعبية تسميته «مطار الثورة». قامت طائرتان بالهبوط هناك، وانفجرت الثالثة في

مطار القاهرة وانتهى أمر الرابعة، وهي الطائرة رقم 219 لشركة «العال» الإسرائيلية، بالهبوط في لندن بعد أن تم التغلب على الخاطفين من قبل حراس الطائرة والركاب. خاطفا طائرة العال كانا ليلى خالد والنيكاراغوي باتريك أرغويلو - كإشارة رمزية إلى أن القضية الفلسطينية تحولت جزءاً من الحركة الثورية العالمية. قُتل أرغويلو واعتُقلت ليلى خالد في مطار هيثرو (أذكر دائماً تعليقات ليلى خالد الممتعة عن معاملة السلطات البريطانية لها؛ كان أول من جاء إليها في مركز شرطة إيلينغ ضابط من دائرة الهجرة وكان بيروقراطياً لدرجة أنه سألها كيف دخلت بريطانيا من دون الحصول على فيزا).

في 9 أيلول قامت حركة فدائية فلسطينية أخرى بخطف طائرة لشركة جوية بريطانية هي BOAC وأجبرت أيضاً على الهبوط في «مطار الثورة»، وطالب خاطفوها بالإفراج عن ليلى خالد وسجناء آخرين من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. بثلاث طائرات مختطفة في بلاده، واجه الملك حسين تصاعداً في التهديد لأمنه الوطني. قام الخاطفون بعد ذلك بتفجير الطائرات، وأسروا 300 راكب كرهائن، 65 منهم بريطانيون. ورغم أنها كانت من الموقِّعين على اتفاقية طوكيو لعام 1963 التي تنص على عدم التفاوض مع خاطفي الطائرات، استسلمت بريطانيا للخاطفين وظهر الملك حسين كحاكم ضعيف، غير قادر على الفعل وفي غاية الإحراج.

بحسب قاعدة الكشف عن الأوراق الرسمية بعد ثلاثين عاماً، حصلت البي بي سي عام 2000 على وثائق حكومية بريطانية تكشف أن الملك حسين طلب المساعدة من حكومة إدوارد هيث لتخليص الأردن من الحركات الفلسطينية للأبد: في تلك الوثائق، طلب الملك من البريطانيين، أكبر حلفائه الدوليين، تشجيع إسرائيل على قصف القوات السورية المتجهة لدعم الفدائيين إذا هاجمهم الملك.

بحسب الوثائق، حوَّلت بريطانيا الطلب إلى الولايات المتحدة فاتصلت واشنطن بغولدا مئير ونقلت وجهة نظر الملك هذه لإسرائيل لتسارع بدعمه ضد أقرانه من المسلمين. في تلك اللحظة الحرجة تدخَّل الاتحاد السوفياتي ضاغطاً على سورية لتنسحب من شمال الأردن، فبقي الفلسطينيون وحدهم بمواجهة مصيرهم فيما بدأ الجيش الأردني أعماله الدموية (ولم يتدخل أحد لإنقاذهم بما في ذلك 17 ألف جندي عراقي كانوا مرابطين في الأردن).

بدأت مجازر «أيلول الأسود» الشائنة تلك في 16 أيلول/سبتمبر واستمرت حتى تموز/يوليو 1971 وقُتل خلالها أكثر من 3000 فدائي ولاجئ. في ذلك الوقت، كنت قد غادرت إلى المحطة الثانية من منفاي الشخصي: مصر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3. تعليم قاهري

في تشرين الثاني/نوفمبر 1969، وصلتُ مصر لأتابع تعليمي، فلأكثر من سنتين منذ رحلتي من غزة كان هذا الهدف في رأسي. القاهرة مركز أقدم جامعة إسلامية في العالم، الأزهر، التي تأسست في القرن العاشر. تمتَّعت مصر لفترة طويلة بسمعتها التي لم تنافَس عليها في الشرق الأوسط في كونها مركزاً للتعليم. كنت سعيد الحظ لأن حكومة عبد الناصر كانت تقدم منحاً تعليمية للطلاب الفقراء من الأقطار المجاورة في ذلك الحين، وكنت واحداً من الكثيرين من اللاجئين الفلسطينيين الذين استفادوا من هذا الكرم.

كان الانتقال من عمان إلى القاهرة انتقالاً نحو عالم آخر مختلف. هنا، على عتبات القارة الشاسعة التي بدأت فيها الحضارة، يمكنك أن تحسَّ بكل أفريقيا تتمدد جنوباً والشوارع تخفق بالضجيج. أينما تنظر هناك وجوه مبتسمة، وهو تغيير مرحَّب به بالمقارنة مع الأردن وسكانه المتجهمين. كل من تلتقيه في عمَّان تراه مسكوناً بسلسلة من المشاكل، من جامعي القمامة لمالكي الملايين، فبمجرد أن تسأل الإنسان في الأردن عن حاله ولو من قبيل المجاملة وفتح أبواب الحديث، يسرد لك مسلسلاً لا ينتهي من المآسي الصحية، ابتداء من وجع القولون المزمن وانتهاء باحتمالات سرطان الدم، ثم ينتقل إلى العائلة ونقِّ الزوجة، وعدم وجود وظيفة للابن الأكبر، وجامعة للابن الأصغر، والخلافات مع الجار النكد... وهكذا معظم الشعب الأردني بمختلف منابته يحترف الشكوى.

في مصر كانت هناك مساواة في السعادة؛ بدا الأمر لي كما لو أن الناس يضحكون ويطلقون النكات من الفجر إلى الغسق، بغضِّ النظر عن ظروفهم. الناس المتشبثون بجوانب الحافلات المكتظة يبتسمون خلال رحلتهم الخطرة وعشرات من ركاب القطار المضطرين للسفر على سطحه كانوا سعداء ومرتاحين مثلهم مثل المتمتعين بالسفر على سفينة فاخرة. بساطة المصريين وتواضعهم جعلاني أحس بالراحة بينهم.

كان النظام السياسي والاقتصادي في ظل عبد الناصر أقرب للمساواة بين الناس، وكان هناك إحساس حقيقي بالتقدم، يرافقه شعور بالكرامة وعزة النفس. المبادئ الاشتراكية أثرت في كل شيء. بالنسبة إلى الطعام، في تشرين الثاني/نوفمبر، على سبيل المثال، الكل كانوا يأكلون زهرة القرنبيط والبرتقال لأن هذا كل ما كان متوافراً في الأسواق، أما الأطعمة الشعبية مثل الفول والفلافل والكشري، فهي رخيصة وجيدة وفي متناول الجميع. بالنسبة إلى الثقافة، بطاقات دخول المسارح، كما دور النشر، كانت كلها مدعومة

بسخاء من الحكومة. كانت تلك أيام تفاؤل رغم ذلِّ هزيمة 1967؛ كان الأمر كما لو أن المصريين يحاولون هزم الهزيمة نفسها. لم أضع قبعة السائح على رأسي مسرعاً لمشاهدة الأهرامات؛ كان مستقبلي هو همي الأساسي. كانت خطتي أن أذهب إلى الإسكندرية مع رغبة داخلية في أن أنهي دراستي الثانوية هناك، آملاً بالعودة إلى جامعة القاهرة بعد ذلك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الإسكندرية

انتقلت إلى الإسكندرية مباشرة بحثاً عن «لجوء إنساني» عند ابن خالتي جهاد حسن الذي كان يقيم هناك، وقد سبقني إليها بهدف الدراسة، وكان يقيم في شقة في حي شعبي ورثها عن شقيقه الأكبر الذي أقام فيها أيام دراسته في جامعتها. كانت الإسكندرية مجرد محطة ترانزيت حتى أتدبر أموري، وأجد لنفسي مدرسة تقبلني طالباً فيها.

كانت الإسكندرية أكثر نظافة وأقل ازدحاماً من القاهرة. تجري فيها الأمور بنظام وهدوء، ابتداء من الشوارع العريضة المشجرة وصولاً إلى نظام «الترام» الحديث. كانت المدينة، بأقلياتها الكبيرة الحجم من اليونانيين والإيطاليين، ذات طابع عالمي، وجوٍّ أوروبي تماماً، وسرعان ما عرفت أن سكانها لا يعتبرون أنفسهم مصريين؛ هم «إسكندرانيون» وعندما يرحل السياح عن المدينة بعد انتهاء موسم الصيف، يتنهدون ويقولون: «دلوقت رجعت إسكندريتنا الحبيبة لينا من جديد».

كانت هذه هي البيئة الأكثر ثراء التي عشت فيها. كان الناس يحبون الخروج، وكانت المحلات مليئة بهم. أقمت عند ابن خالتي، جهاد، الذي كان يدرس هناك، وللمرة الأولى في حياتي صارت لدي غرفة خاصة بي في شقة «طبيعية» في منطقة سكنية جيدة. مدينة جميلة قامت في هذا المكان لأكثر من ألفي عام، وساهمت قرون من الخبرة المعمارية في تشكيل هذه الشوارع الأنيقة المشجرة، والساحات الرائعة والأعمدة على طول شوارعها الرئيسية.

كانت هذه مدينة متوسطية عظيمة تذكِّرنا باليونان أو لبنان؛ وآثار الإسكندر الأكبر، الذي سمِّيت المدينة باسمه، كانت واضحة. كنت في التاسعة عشرة من عمري، وشعرت بنفسي أسيرَ كل هذا ومنتشياً بكل تفصيل من تفاصيل المدينة، مغموراً بحالة رومانسية للمرة الأولى في حياتي.

على الصعيد العملي، لم تكن الأمور بهذه السهولة. عانيت الكثير للعثور على مدرسة في الإسكندرية تقبل بي، حيث كان هناك مليون مصري قد فرُّوا من منطقة السويس لتجنب القصف الإسرائيلي خلال حرب الاستنزاف التي تبعت حرب الأيام الستة، واجتاح أطفالهم تلك المدارس. قررت أن من حقي تقديم نفسي باعتباري لاجئا مزمناً من منطقة الحرب التي خلقها الإسرائيليون - في حالتي كانت غزة - وعلى هذا الأساس قمت بتوسل السلطات المسؤولة لإيجاد مكان لي. ولا بد أنني أعطيت انطباعاً قوياً عن حالتي لأنني استلمت رسالة إيجابية خلال أيام.

كان عليَّ أن أداوم في مدرسة «العروة الوثقى»، وهي مؤسسة تعليمية أسسها جمال الدين الأفغاني، الفيلسوف والمصلح الإسلامي المعروف. حملت هذه المدرسة اسمه لكن ارتباطها به توقف عند هذه الحدود. كانت، وبلا شك، المدرسة الأسوأ في الإسكندرية كلها، وكان طلابها بشكل رئيسي من الأحداث الجانحين والرعاع. كانت فعلاً «مدرسة المشاغبين». كانت «العروة الوثقى» قريبة من حديقة «الشلالات»، وكان قضاء الاستراحات وفترة الغداء يجريان هناك.

لم يكن مطلب كل الطلاب التمتع بالهواء النقي، إذ كان الكثيرون منهم يدخنون الحشيش بعيداً عن عيني المدير الساهرتين على تطبيق النظام.

انتصار جمال عبد الناصر للقضية الفلسطينية ضمن لي وضعية اجتماعية مرتفعة في مصر مقارنة بالإجحاف الذي عانيت منه في غزة والأردن. كان يتم تصوير الفلسطينيين كثوار وأبطال مقاومة، وكان زملائي متحمسين للتعرف إليَّ. لعبت جنسيتي دوراً لصالحي مع المعلمين أيضاً وقد سارعت لاستغلال ذلك. في كل يوم كان هناك عرض مدرسي يُرفع خلاله العلم المصري ويقوم الطلاب بتحيته. كنت كسولاً وشخصاً ميؤوساً منه بالنسبة إلى الاستيقاظ باكراً؛ فحيث إن لا أهل يقومون بإستعجالي، كنت دائماً أتأخر على هذه الفقرة، وهو ما أدى إلى ضربي علناً على يديَّ بالعصا. ذهبت لرؤية المدير وقلت إنني بصفتي ممثلاً للمقاومة الفلسطينية (وهو ما لم يكن صحيحاً)، يجب أن أُعامَل مثل المعلمين، وأن أُعفى استثنائياً من حضور الاستعراض الصباحي. منذ ذلك اليوم، صرت أحضر إلى المدرسة عند بدء الدروس، ويحيِّيني الحراس عند البوابة عند دخولي. وقد ندمت كثيراً بعد ذلك على استغلال اسم المقاومة، الظاهرة الأنبل في تاريخنا، من أجل الهروب من طابور الصباح لأسباب لها علاقة بالكسل. لكنها المراهقة، لعنها الله.

مع أكثر من 50 ولداً في كل صف، كانت الدروس كابوساً. كانوا لا يحترمون المدرسين: يقومون بالسخرية منهم، ويقذفونهم بالطائرات الورقية، ويطلقون النكات عليهم، ويصرخ بعضهم على بعض. الوسيلة الوحيدة للمعلمين - وهم كلهم من الذكور - للبقاء على قيد الحياة ابتلاع كرامتهم كما لو أنهم غافلون عن الفوضى المستعرة حولهم. لا أدري كيف استطعتُ أن أتعلم شيئاً، لكنني بالنهاية نجحت بالحصول على شهادة الثانوية العامة (التوجيهية) بعلامات مرتفعة.

كان لي في الإسكندرية ابن خالة آخر، اسمه محمد سرحان. كان عبقرياً بالفطرة، خارق الذكاء؛ فقد استطاع أن يخترع بنادق وقاذفات لرجال المقاومة في ورشة السباكة التي كان يملكها في مخيم رفح. عقدته الأبدية كانت زوجته، وأعتقد أنه لم يترِك القطاع لأن الإسرائيليين كانوا يبحثون عنه

لاعتقاله فحسب، بل أيضاً هرباً من زوجته. استقرَّ محمد سرحان في بلدة أبي قير، إحدى ضواحي الإسكندرية، حيث أحب إحدى بناتها، وكانت شقيقة حنفي محمود، سبَّاح مصر الفائز بميدالية ذهبية أولمبية. كانت أرملة، استشهد زوجها في حرب عام 1967. كانت جميلة بضَّة، هامَ بها ولا أعرف إذا كانت قد هامت به، وعندما تقدم لخطبتها رفض أهلها تزويجه بها، فأصيب باكتئاب لفترة وجيزة، وهجر مصر كلها إلى ليبيا، وعلمتُ أنه تزوج من ليبية وأنجب منها الكثير من الأبناء والبنات ولم أره منذ أربعين عاماً وأكثر.

أذكر أنني زرته في أحد الأيام، وسألني عما إذا كنت أجيد الطبخ، فقلت له «أحاول»، فذهب إلى عمله، وتوليت أنا طبخ الفاصولياء البيضاء الجافة التي أحبها. وجاء هاشاً باشاً لأنه وجد وجبة جاهزة، وكادت هذه الوجبة أن تكون العشاء الأخير لي وله، فقد أصيب بانتفاخ كبير في البطن، وأنا كذلك، ولم نستطع النوم من الألم ومن الغازات وانبعاثاتها من كل أنحاء الجسم، ترافقها أصوات انفجارات أسلحة الدمار الشامل.

كانت تلك الطبخة هي الأخيرة التي أحضِّرها في حياتي، وقد أدركت عند ذلك أنني لا أصلح لمهنة الطبخ هذه وهي لا تصلح لي، وجاء اعتزالي مبكراً جداً بسبب الإصابة المعنوية والنفسية البليغة العائدة إلى وجبة الفاصوليا تلك. وأعتقد أن ابن خالتي لم يغفرها لي حتى كتابة هذه السطور!

«التربية الوطنية» هي الموضوع الوحيد في المنهاج الذي ما كان مثاراً لاهتمام الطلاب. تركِّز هذه الدروس التي كنا نتلقاها مرتين في الأسبوع على التراث العربي، والتاريخ الإمبريالي والنضال في فلسطين. كنت غالبا أُستدعى إلى مقدمة الصف للحديث عن تجربتي، وهو ما كان يتطور إلى أسئلة وأجوبة مرتجلة. أذكر إحدى هذه الجلسات، حيث وقف طالب بشعر مجعَّد وسألني: «عبد الباري، كيف شكل اليهود؟».

فوجئت بهذا السؤال. أجبت:

- «لماذا تسألني عن هذا؟

- هل النظر إليهم مرعب؟

- لا، ما الذي تعتقده؟

- أظن أن لهم مخالب وأنياباً مثل الوحوش».

وهو ما وافقه عليه الأولاد الآخرون. بدأت أضحك من سخافة هذه الفكرة وصدمني بؤسها.

- «لا، اليهود بشر مثلنا. ليست لديهم مخالب وأنياب، لكن أميركا قامت بتسليحهم بالبنادق والصواريخ ونحن ليس لدينا أي منها وهكذا قاموا باحتلال بلدنا الحبيبة فلسطين».

كنت أحب السير في الشوارع، فقط لأعرف ما الذي يجري - لا أزال أمشي في كل مكان من لندن للسبب نفسه.

في أحد الأيام، فيما كنت عائداً من «العروة الوثقى»، ظهر حشد من الناس بين السيارات والشاحنات، سائرين إلى جنب عربة تجرها الخيول وتغطيها الأقمشة الملونة واللافتات؛ كانت الخيول مزينة ومغطاة، وفي العربة فتاتان بعمر الثامنة تقريباً، تلبسان ثوبين أبيضين مثل عروسين صغيرتين وسط زغاريد ورقص وقرع طبول وعزف موسيقى صاخب. سألت عن الأمر أحد الجيران في الحشد، وكان توقف للمشاهدة، فقال: «إنه حفل ختان». ذهبت في طريقي ولم أفكر في الأمر بعد ذلك إلى أن بدأت الطبيبة النفسية والناشطة النسوية المصرية د. نوال السعداوي حملة مناهضة لختان الإناث وقرأت رصدها المروِّع لتلك الممارسات الوحشية. كان هذا هو المصير الذي ينتظر هاتين الفتاتين الصغيرتين. ختان الإناث إرث من الأزمنة الفرعونية ويشمل بتر البظر (وأحياناً خياطة مدخل المهبل). المنطق المؤلم وراء هذه الممارسة يقول إن الأنثى غير القادرة على التمتع جنسياً لن تقع فريسة الإغراء والخطيئة. العملية عموماً تُجرى من دون أي مخدِّر طبي، وباستخدام شفرات غير معقَّمة وإبر. حالات النزيف الحاد والالتهابات الخطيرة شائعة في هذه العملية، وكثيراً ما تكون مميتة. والصدمة والأثر النفسي المؤلم الناتجان عن هذه التجربة يمكن أن يستمرَّا لبقية حياة المرأة التي تتعرض لها.

صراحة د. السعداوي أكسبتها العديد من الأعداء فتلقت العديد من التهديدات بالقتل، بل هي سُجنت في عهد الرئيس السادات عام 1981. الاحتجاجات التي بدأتها السعداوي استمرت بلا هوادة، لكن هذه الممارسة لم تُمنع قانونياً حتى عام 1997، وقد سمعت أنها لا تزال مطبَّقة في القرى البعيدة حتى اليوم، وهي عادة تمارَس أيضاً في السودان والقرن الأفريقي، وقد استغربتُ كثيراً أنها منتشرة في مناطق الأكراد في شمال العراق وشرق تركيا، ومصدر استغرابي أنني كنت أعتقد أنها محصورة في حوض النيل وأطرافه فقط. عندما وصلت لأول مرة إلى لندن، غالباً ما كانت أواجَه بموضوع ختان الإناث، والذي أصبح نقطة مركزية في حالة «الإسلاموفوبيا» التي شهدتُها وعانيتُ منها. هذا الموضوع العاطفي غالباً ما يُستخدم لتشويه صورة ديننا، لكن علاقته بالإسلام ضعيفة جداً. إنه ظاهرة اجتماعية نشأت في منطقة وادي النيل وقد مارسه المسلمون والمسيحيون لقرون عديدة.

في أحد الأيام، ناداني المدير، السيد خليل، إلى مكتبه. كان قصيراً وأصلع بنظارات سميكة، وكانت بدلته العتيقة مصممة بشكل سيئ وقماشتها الثخينة تلمع نتيجة سنين من الكيّ. يهوى المصريون التنكيت على الفراعنة، وكان الأولاد معتادين على القول إن طقم المدير «جاء من قبر الفرعون». أشار لي السيد خليل بالجلوس في الجانب الآخر من مكتبه المبالغ في حجمه كثيراً، سألني:

- «عطوان، أنت ممثل المقاومة الفلسطينية، صحيح؟

- مممم... نعم؟ أجبت، متسائلاً إلى أين سيتجه بنا الحديث.

- زارني المحافظ بخصوص عيد النصر. حدثته عنك وقد رتبنا الأمر بحيث تخطب في الجماهير عن القضية الفلسطينية ومنظمة التحرير».

أحسست بالذعر لأنني لم أكن أعرف إلا القليل عن السياسة الفلسطينية وقتها، ولم أكن مؤهلاً للحديث عن الثورة والمقاومة. لكن لم يكن يمكنني إلا أن أوافق.

جاء اليوم المرتقب سريعاً. ورغم أنني لجأت لوضع ملاحظات عديدة، فإنني لم أفعل أي شيء إطلاقاً في مجال الإعداد للخطاب. ذهبت إلى ساحة التحرير، المكان الرئيسي في الإسكندرية لعقد اجتماع عام، ووجدت عشرات الألوف من الناس هناك. من على منصة ضخمة سوداء، قام خطباء مفوَّهون بالتوجه إلى الجمهور متحدثين عبر مكبرات صوت ضخمة، وأصواتهم تدوِّي بين الحشود. أحسست بالخدر من شدة الخوف، واقفاً في طرف الساحة، لكن سرعان ما سمعت الإعلان عن اسمي، وكان علي أن أشق طريقي إلى المنصة. كان الخطيب قبلي أقصر مني، وكان علي أن أعدِّل عصا الميكروفون، مقطِّباً حاجبيَّ بإحراج فيما يتضاعف صوت تنفسي وطقطقة أصابعي عبر المكبرات وباتجاه الحشد. متحجراً من الرعب، نظرت إلى بحر الوجوه تحتي.

«مممم...» لم أستطع العثور على صوتي. «السلام عليكم». تمكنت من التكلم لكن صوتي بدا هشاً وضعيفاً. «شكراً لدعوتكم لي»، قلتها منتكساً، ثم وقعت في الصمت. سعلتُ وبدأت بالشعور بالغضب من نفسي. ألست فلسطينياً؟ أليس واجباً عليَّ أن أخبر العالم عن العذاب الذي يعانيه شعبي؟ كلمات من الخطب النارية للقائد الأول لمنظمة التحرير الفلسطينية، أحمد الشقيري، انفجرت من لاشعوري وبدأت بالحديث بعاطفة حقيقية، مبعثراً أفكاري الخاصة مخلوطة مع شعارات الشقيري القومية. كنت أستطيع سماع صوتي كما لو كان منفصلاً عني، وهو يصبح أكثر إصراراً وثقة دقيقةً بعد الأخرى. عندما توقفت، انفجر الحشد بالتصفيق، وهم يضربون بأقدامهم على

الأرض ويصيحون. صرخة ارتفعت وتكررت عبر آلاف الأصوات، «عاشت فلسطين! ثورة حتى النصر!». أحسست بالابتهاج وتقدم الآخرون الذين كانوا على المنصة نحوي، بمن فيهم المحافظ، وصافحوني، مهنئين إياي على خطابي.

غيَّرتني هذه التجربة للأبد، ولاحظت أن النجاحات لا تنبع كلها من العقل الواعي - أحياناً على الإنسان أن يثق بغريزته والمعرفة المخزنة في دواخل جهازه النفسي. قبلت أن أخطب في عدة مواعيد لاحقة وبدأت أقرأ في السياسة والتاريخ، كتباً مثل تذكرة عودة لناصر الدين النشاشيبي، واليقظة العربية لجورج أنطونيوس، ومقالات محمد حسنين هيكل وقصائد محمود درويش وسميح القاسم، وقصص غسان كنفاني وغيرها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

وفاة جمال عبد الناصر

يوم 28 أيلول/سبتمبر 1970 بالنسبة للعرب يشبه اليوم الذي قُتل فيه جون كنيدي بالنسبة للأميركيين، أو اليوم الذي ضربت فيه الطائرات مركز التجارة العالمي في نيويورك - كل شخص في العالم العربي يتذكر أين كان حين سمع خبر موت عبد الناصر. كنت جالساً في صالة سينما متهالكة في الإسكندرية أشاهد عرضاً لثلاثة أفلام قديمة بسعر بطاقة واحدة. فجأة، اقتحم رجل الباب من الخلف وهرع إلى مقدمة الشاشة متهجماً علينا مثل مجنون، ووجهه المظلل يغطي وجه الصورة المضخمة لبطل الفيلم. «أيها الأوباش»، صرخ بقوة، وهو يهز قبضته، «بتتفرجوا عالأفلام وبتتسلوا وحبيبنا جمال عبد الناصر مات!». قبض أربعة أو خمسة عناصر أمن على الرجل ودفعوه خارجاً وهو يصرخ ويشتم، وقد نال بعض الكدمات والنزيف في هذه الأثناء.

كان إحساس الجمهور في الصالة (المعتادون على الثرثرة خلال عرض الفيلم) أن الرجل مجنون أو هو من العملاء المحرضين ضد النظام الناشطين في مصر خلال ذلك الوقت، والذين ينشرون الشائعات ويزرعون البلبلة والمشاكل. بعد عشر دقائق، توقف الفيلم وأُشعلت الأضواء؛ فهمنا عندها أن الأمر صحيح. عبد الناصر مات. وسرعان ما علمنا أنه توفي نتيجة ذبحة قلبية بعد جولة من المحادثات المنهكة في اجتماع القمة العربية الذي عُقد لمناقشة مجازر أيلول الأسود ضد الفلسطينيين في الأردن.

في ذلك المساء، بدا كأن كل سكان الإسكندرية قد خرجوا إلى الكورنيش. سرح الناس وهم ذاهلون وصامتون أو توقفوا بلا حركة والدموع تترقرق في أعينهم. وعندما كان يتجمَّع أصدقاء منهم، يتعانقون بهدوء ويبكون معاً. المقاهي أطلقت موجة من الأصوات، وراحت أجهزة المذياع تبث تفاصيل عن موت عبد الناصر وتشيد بالبطل العظيم. كانت تلك من المرات القليلة في حياتي التي سمعت فيها المذيعين يبكون على الهواء مباشرة. فتحت المساجد أبوابها وكنا تستطيع سماع تلاوة القرآن من داخلها. الملاهي الليلية، والمحلات والسينمات أقفلت لأيام وقُطع التيار الكهربائي حداداً.

كانت هناك مشاهد لا تصدق من الحزن في أنحاء العالم العربي وحضر جنازة عبد الناصر في القاهرة، بعد ثلاثة أيام، خمسة ملايين شخص. تابعت ذلك على شاشة التلفاز في أحد المقاهي وقد تأثرنا جميعاً عندما اختطف الناس التابوت من الجنود الذين كانوا يحملونه وحملوه بأنفسهم؛ كان الموكب يمتد على ستة أميال، وستبقى واحدةً من أكبر الجنازات في التاريخ.

قاد عبد الناصر مصر منذ 1954 وكان يُعتبر بالنسبة للكثيرين الأمل العظيم للعالم العربي. لقد ألهمتني أيديولوجيته ولا تزال حتى اليوم. صارت مصر في

أيامه منبع النهضة العربية: عاصمة الثقافة العربية والحركة القومية. واحد من شعارات عبد الناصر كان «نفط العرب للعرب»، وكان يؤمن بشدة بأن الموارد العربية يجب أن يستفيد منها الشعب العربي وليست لملء جيوب الزعماء الغربيين وشركاتهم.

دشَّن عبد الناصر عهداً جديداً من التحدي العربي والمقاومة؛ واستجابت معارضته العنيدة لإسرائيل وأجندته الوطنية الاشتراكية لهوى في داخلي ولملايين آخرين. أدى تأميم قناة السويس، في تموز/يوليو 1956، لاندلاع أزمة السويس وعزز العلاقة المتنامية بين مصر والاتحاد السوفياتي. ساهمت حكومتا أميركا وبريطانيا في الانقلاب «الأحمر» لعبد الناصر، ويصف الكاتب بيتر مانسفيلد كيف أن كراهية رئيس الوزراء البريطاني أنتوني إيدن للزعيم المصري «وصلت إلى حدود الهستيريا». عام 1964، قلَّد الرئيس نيكيتا خروتشيف عبد الناصر نجمة الاتحاد السوفياتي ووسام لينين ومنحه لقب «بطل الاتحاد السوفياتي»، لكن هذا كان «زواج مصلحة» بالنسبة لعبد الناصر. لم يكن يحب الشيوعية، وهو ما أشار إليه في مقدمة كتابه الشيوعية كما هي حقيقة، قائلاً إن هذه الإيديولوجيا «لا تتوافق مع الدين والحرية الفردية».

شجاعة عبد الناصر ونبله كانا سبباً لظهور عدد من الأساطير حوله. في الرابعة من عمري، كنت أعرف كل تفاصيل محاولة اغتياله عام 1954: أطلق أحدهم الرصاص عليه وهو يخطب في حشد من 30 ألف شخص، لكنه لم ينحنِ أو يهرب ليحتمي من الرصاص بل انتظر بصمت حتى ساد الهدوء قبل أن ينطق بواحدة من أكثر الجمل شهرةً في مسيرته: « يريدون أن يقتلوا عبد الناصر. كل واحد منكم هو عبد الناصر». الحشد، بالطبع، تأثَّر واهتاج. لاحقاً، حين انهزم جيشه في حرب الأيام الستة مع إسرائيل، قدَّم استقالته إلى الناس على الهواء مباشرة من التلفزيون، معلناً عن رغبته في «العودة إلى الجماهير، مؤدياً واجباتي في وسطهم مثل أي مواطن آخر». ونزل الملايين إلى الشوارع احتجاجاً على قراره، لا في مصر فحسب، بل أيضاً في كل أنحاء العالم العربي.

بيَّنت أهمية عبد الناصر في حياتي بوضوح عام 1995، عندما دُعيت لإلقاء كلمة في «معهد العالم العربي» في باريس. نظَّمت إدارة المعهد ندوة لإحياء ذكرى عبد الناصر، بمناسبة مرور 25 عاماً على رحيله. كان ضمن المدعوين للحديث وزيران فرنسيان سابقان وضيوف مهمون آخرون تحدثوا عن عبد الناصر رجل الدولة العظيم، وعن القومية العربية والسياسة في الشرق الأوسط بشكل عام. كنت آخر المتحدثين، وكان أسلوب تناولي للموضوع شخصياً، إذ خاطبت الحضور بالقول: «السبب الوحيد لكوني بينكم اليوم هو

عبد الناصر». ثم شرحت لجمهور الندوة كيف دافع عبد الناصر عن الضعفاء؛ وكيف أنني رغم كوني من اللاجئين الفلسطينيين، الذين جرى إفقارهم واقتلاعهم من أراضيهم، وتُركوا من دون مستقبل، تمكَّنت من الحصول على أفضل تعليم يمكن الحصول عليه في الشرق الأوسط بفضل كرم نظام عبد الناصر؛ وذكرت كيف أن رؤية عبد الناصر السياسية قلبت حياتي رأساً على عقب. أنهيت كلمتي بقصة الرسالة التي بعث بها عبد الناصر إليَّ عندما كنت طفلاً صغيراً في مخيم اللاجئين، وتأثرت كثيراً عندما لاحظت أن عدداً من الحضور بكوا انفعالاً بشهادتي البسيطة تلك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

القاهرة

شعرت بميل نحو الإسكندرية وكان يمكن أن أستقر هناك؛ فاللهجة العامية التي يستخدمها أهل المدينة مشابهة للهجتنا الفلسطينية، ربما لكوننا نتشارك وأهلها البحر المتوسط. ثم عُرضت عليَّ الدراسة في جامعة القاهرة للحصول على درجة جامعية في الآداب وتخصص في الصحافة، فبدأت دراستي هناك في تشرين الأول/أكتوبر 1970. كان موقع القاهرة مركزاً مهماً منذ بدء الحضارة رغم أن المدينة تأسست عام 641 على يد عمرو بن العاص. التفاؤل والسعادة اللذان أحسست بهما هناك منذ البداية يعكسهما اسم هذه المدينة غير العادية.

كان النقص في المساكن، ولا يزال، مشكلة المدينة الأساسية. عدد السكان عندما انتقلت إلى القاهرة كان قد وصل إلى 5 ملايين، على الرغم من أن هذا الرقم يُعد ضئيلاً مقارنة مع الـملايين الخمسة عشر الذين يناضلون للبقاء على قيد الحياة فيها حالياً. اقتصادياً، كانت الأوضاع صعبة: استنزفت الحرب خزائن مصر، وفي محاولة لتقويض نظام عبد الناصر، توقفت الولايات المتحدة عن بيع القمح لمصر بالائتمان. نتيجة لذلك، تقوَّض مشروع عبد الناصر للسكن الاجتماعي وأصبح التشرد أمراً شائعاً. بدأ الناس ببناء بيوت على الأراضي الزراعية شمال المدينة، والتي كان ملاك الأراضي الانتهازيون يبيعونها لهم، وكذلك في الصحراء شرق المدينة، وهكذا ظهرت المناطق العشوائية وانتشرت كالفطر. لم يكن هناك رخص بناء ولم يهتم أحد بالحصول عليها. معظم العائلات غير القادرة على بناء بيت كامل اكتفت بطابق الأرضي أو كانت تبدأ بغرفة واحدة ثم تبني غيرها حين تستطيع على قطعة الأرض الصغيرة التي يملكونها، ما أدَّى إلى مزيج من المباني القبيحة بلا سطوح، والتي قد ترتفع ستة أو سبعة طوابق.

الغرفة الأولى التي استأجرتها في القاهرة كانت في إحدى مدن العشوائيات: إمبابة. كانت الشوارع بين المباني ضيقة جداً بحيث إنه لو اندلع حريق فسيكون مستحيلاً لخدمات الطوارئ أن تصل لمساعدة السكان. على مستوى الشارع كانت هناك محلات، وبرك طينية، وأكوام من القمامة تتجول فيها الماعز والدجاج والقطط والكلاب الشاردة، ناهيك عن الجرذان التي ترتع فيها، فيما خطوط وخطوط من الغسيل الملون تتموَّج من النوافذ صعوداً نحو الأعلى فالأعلى باتجاه السماء التي كانت زرقاء دائماً.

كانت إمبابة منطقة ممتنعة على الشرطة، وموطناً لتجار المخدرات والمجرمين من كل صنف. كانت هناك حروب مستمرة بين العصابات المتنافسة، وكان الطعن وإطلاق النار أمرين شائعين. وجدتُ سريعاً طريقة

للبقاء على قيد الحياة في تلك الشوارع: كرة القدم. كان هناك فريقان في القاهرة في ذلك الوقت - الزمالك والأهلي، وكانت المنافسة بين مناصري الفريقين عنيفة لدرجة أنه ما كان ممكناً استمرار نهائي الكأس لعامي 1970-1971 بسبب العنف بين الجمهورين. كنت، من جهتي، مناصراً حقيقياً لفريق ضعيف يدعى «الترسانة». من عاداتي المستعصية على الفهم مساندتي الأبدية للضعفاء والقضايا الخاسرة. حتى عندما انتقلت إلى لندن، شجعت فريقاً لندنياً يدعى QPR لم يعرف في مسيرته الكروية غير الهزائم و«الصعود إلى أسفل»، وورَّثتُ هذه المأساة إلى أبنائي، وهو ما أندم عليه حتى الآن! لهذا، حين سألني مرة شاب خطر الملامح في أحد الأزقة عن فريقي، لاحظت وشاح مناصري الأهلي على رقبته قلت له: «لقد حان الوقت لانطلاق المباراة وأتمنى أن نذبح أولاد الحرام الزمالك أولئك». امتلأ الشاب حبوراً وأخذ يصافحني بدلاً من «العلقة» التي كان ينوي إنزالها بي لو لم أكن «أهلاوياً». صرت خبيراً بتخمين أي فريق يؤيده المهاجمون المحتملون بحيث أقوم بإهانة الفريق الذي يكرهونه بطريقة مقنعة جداً. أخطأت مرة واحدة في تخميني، وانتهى الأمر بأن راح شخص عملاق، مسلح بعصا، يطاردني في أنحاء إمبابة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت تحليلاتي الرياضية مطلوبة في الجوار، وكان «مكوجي» المنطقة (امتلاك آلة كيٍّ كهربائية حديثة كان رفاهية مستحيلة) غالباً ما يزورني قبيل كل مباراة ليعرف آخر تحليلاتي وتخميناتي. بعد ذلك صار يرفض أخذ أجرة مني، ويقوم بكيٍّ أي شيء أعطيه إياه مجاناً، وهكذا أصبحت ملابسي الأكثر كيًّاً بين طلاب الجامعة.

حتى في أكثر المناطق فقراً في مصر، ستجد جيوباً يسكن فيها أناس أغنياء يستفيدون من السكن الرخيص. في إمبابة، كان هناك الكثيرون ممن قاموا ببناء أبنية من خمسة طوابق، طابق لكل واحد من الأبناء، وإذا أعلن ثلاثة آخرون خطوبتهم، يقوم الأب ببناء شقق لهم فوق الشقق الأخرى، من دون أية مراعاة لقواعد الهندسة واعتبارات السلامة، ولهذا نقرأ بين الحين والآخر عن انهيار عمارات فوق رؤوس سكانها.

العكس كان صحيحاً أيضاً: البيت الثاني الذي استأجرته، مثلاً، كان في منطقة تشهد وقتها ازدهاراً تدعى «الدقِّي». وكان الناس يُبدون إعجابهم بسكني حين أعطيهم عنواني الفاخر. قليل منهم كان يعلم أنني أسكن في شبه كوخ بناه تاجر ثري على سطح بيته باستخدام ألواح خشبية وقماش مشمَّع. من حسن حظي أن متاعي كان قليلاً، فقد كنت كثير التنقل خلال سنواتي الأربع في القاهرة من منطقة إلى أخرى، مطروداً بسبب الضجيج أو بسبب تأخري في دفع الإيجار.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

جامعة المعارضة

جامعة القاهرة، التي تأسست عام 1908، هي أقدم وأكبر جامعة علمانية عربية في الشرق الأوسط (تأسست الجامعة الأميركية التي كان اسمها الكلية السورية البروتستانتية في بيروت عام 1866). البناء الذي يضم الجامعة نفسه ضخم جداً وكانت لحظة افتخار بالنسبة لي عندما صعدت تلك السلالم الفخمة وعبرت تحت أعمدتها للمرة الأولى. كان ذلك في تشرين الأول/أكتوبر 1970، وأنا أدخل إلى كلية الفنون. السنة الأولى من دراستي الجامعية شملت دراسات عامة ولغوية، لكن بعد ذلك اتجهت بشكل رئيسي نحو الصحافة والإعلام للسنوات الثلاث اللاحقة.

كان الطلاب من كل أنحاء العالم العربي. إناث وذكور يدرسون جنباً إلى جنب؛ ولم تكن ترى امرأة محجبة في ذلك الوقت، والكثير من الفتيات كن يلبسن الأزياء الغربية والتنانير القصيرة... بل القصيرة جداً.

العكس هو السائد في هذه الأيام، وسيكون من الصعب جداً أن تجد فتاة لا تلبس الحجاب الذي أصبح، بالنسبة للبعض، رمزاً لمشاعر مناهضة الغرب، وللاتجاه للإسلام والحشمة بالنسبة للبعض الآخر.

كانت جامعة القاهرة مرتعاً للأنشطة السياسية الثورية، وقد عاشت أوقاتاً عنيفة. كانت أواخر الستينات بالغة الأهمية في السياسة العالمية: سنة 1967 شهدت تظاهرات واحتجاجات في الولايات المتحدة ضد الحرب في فيتنام، وهي حركة جماهيرية أضفت طاقة على حركة الحقوق المدنية في أميركا. خطبة «لديَّ حلم» لمارتن لوثر كينغ عام 1963 ألهمت جيلاً بأكمله وعززت اعتقادنا بأن التغيير لم يكن فقط ممكناً بل وشيكاً أيضاً. كان اعتناق بطل العالم للملاكمة، كاسيوس كلاي، للإسلام عام 1964، وتغيير اسمه إلى محمد علي، ذا أهمية بالغة أيضاً لنا. بعد سنتين من ذلك، قام علي المولود بأميركا بإعلانه الشهير رفضه القتال في فيتنام، قائلاً: «ليس لديَّ شيء ضد الفييتكونغ. ليس هناك فيتنامي واحد ناداني محقِّراً إياي بكوني زنجياً».

النشاطات الثورية الماركسية - اللينينية في أميركا اللاتينية كانت مصدر إلهام لنا أيضاً. لقد قام فيديل كاسترو بتحويل كوبا، وهي على عتبة باب الولايات المتحدة إلى معقل للشيوعية، محاولاً إشعال الثورة، وتحوَّل ذراعه الأيمن، تشي غيفارا، إلى عامل تحريض، محاولا إلهاب الثورة، أولاً في أفريقيا - التي وصفها كاسترو بأنها «الحلقة الإمبريالية الأضعف» - ثم في بوليفيا. تصفية غيفارا، في 9 تشرين الأول/أكتوبر 1967 على أيدي عملاء السي آي إيه (المختبئين تحت يافطة الجيش البوليفي) أثارت الاشتراكيين في كل مكان وثبتت مكانته الدائمة كرمز ثوري.

استمر التمرد العالمي في باريس من خلال الاضطرابات الطلابية التي تحولت إلى ثورة واسعة النطاق في الشوارع في أيار/مايو، حيث احتل الطلاب جامعة السوربون وحولوها إلى «كومونة» أو «عامية»، وقام عشرة ملايين عامل في كافة أنحاء فرنسا بالإضراب تضامناً معهم. أتذكر قراءتي عن هذا في الأردن كما أنني شاهدت كيف تكشفت تفاصيل هذه الدراما على شاشة تلفاز صديق ثري، وشاهدت بإعجاب كيف كان أقراني الطلاب يبنون متاريسهم ويخوضون معارك ضد الشرطة.

كان من المستحيل بالنسبة إلى الفلسطيني، كفلسطيني، ألا يتورط بالسياسة. في ذلك الوقت، إذا كنت فلسطينياً فمن المفترض أنك ثوري، ولأن كل الآخرين كان يقاتلون من أجل القضية الفلسطينية، فإن التضامن مع الشعوب المظلومة كان متوقعاً في المقابل. معظم تظاهرات الطلاب في القاهرة كانت متضامنة مع الفلسطينيين، وكانت ضد إسرائيل، مع قائمة كبيرة من الاحتجاجات ضد الولايات المتحدة كذلك. كانت سياسات السادات قد بدأت بلدغ مناهضيها وأصبحت اتجاهاتنا بالتالي أكثر محلية، متجهة نحو الداخل، مركزة على الأجندة الاقتصادية والطريقة التي كان الرئيس السادات يقوِّض بها تراث عبد الناصر. كان السادات سريعاً في تفهُّم دور الإعلام، وكان يُعدُّ الشعب المصري لواقع سياسي جديد عبر صفحات الجرائد.

قام السادات بإقالة رؤساء التحرير الناصريين وشجع الموالين للغرب بدلاً عنهم، وقام في الوقت نفسه بتشديد سيطرة الدولة على وسائل الإعلام، وتحت ستار السماح بأكبر قدر من حرية الصحافة، شجَّع نقد عبد الناصر وحلفائه السوفيات (الذين طُردوا من البلاد بعد حرب تشرين الأول/أكتوبر 1973)، لكنه لم يسمح بأي انتقاد لحكمه. كنت عضواً في مجموعة من طلاب الصحافة الذين يصدرون جريدة أسبوعية. كنا منظَّمين في خلايا تحت مظلة اتحاد الطلبة؛ حاولت أحزاب عديدة خطف المجموعة لكننا ابتعدنا عنها. وبسبب نقص التمويل - في الحقيقة لم يكن هناك تمويل أبداً - أخذت الجريدة شكل الملصق مع مقالات مكتوبة باليد، ومنسوخة بمشقة كبيرة، وملصقة الواحدة جنب الأخرى. خلال دراستنا لتاريخ الصحافة، اكتشفنا أن هذا النوع من الملصق - الجريدة كان شائعاً في الاتحاد السوفياتي بعد الثورة، فقمنا باقتباس الفكرة. رحنا نعلِّق هذه الملصقات على الجدران سراً، ليلاً، واحداً في كل قسم.

جريدتنا - الملصق اعتُبرت خطرة جداً لدرجة أن سلطات الجامعة أبلغت الشرطة التي بات عناصرها يجيئون بشكل دوري لتمزيقها عن الجدران. كنا بالمقابل نعيد لصق نسخ جديدة على أمل أن يتمكن الناس من قراءتها قبل

أن تُنزع مرة أخرى. هذا المستوى من الإصرار جعلني، عندما بدأت جريدتي الخاصة، مؤهلاً لمواجهة كل الصعاب في السنوات الصعبة التي واجهتها لاحقاً.

في أحد الأيام، أرسلت منظمة فتح مبعوثاً إليَّ. أرادوا ضمي إلى فرعهم الإعلامي، وقد أوصلوا اقتراحهم هذا من خلال شابة فلسطينية عرضت عليَّ وظيفة في محطتهم الإذاعية. أخبرتني أن راتبي سيكون أكثر من 45 جنيهاً إسترلينياً في الشهر، وهو ضعف ما كان أخي، عبد الفتاح، يرسله إليّ كل شهر. أرادوا مني أن أجري مقابلات على الهواء وهو أمر وجدته مغرياً، لكنني اعتذرت عن عدم قبولي العرض رغم حاجتي الماسة للمال وإعجابي في الوقت نفسه بحاملته شكلاً ومضموناً. فقد كنت أميل إلى التيار القومي اليساري في ذلك الوقت، ولم أرتح حينذاك لبعض الميول اليمينية التي نُسبت للحركة وعلاقاتها مع أنظمة خليجية محافظة.

تزايدت المظاهرات والاحتجاجات بعد أن ابتعد السادات عن الاتحاد السوفياتي، واضعاً نفسه في حلف مع أميركا المكروهة كثيراً. كما تصاعدت تكاليف العيش فاندلعت أحداث شغب ومواجهات واسعة النطاق مع الشرطة، وجاء الصحافيون من كل أنحاء العالم لكتابة تقارير عما يحدث في مصر، مقارنين ذلك بأحداث أيار/مايو 1968. نتيجة الأحداث المندلعة فيها، اعتُبرت جامعتنا النظير المصري لجامعة السوربون الفرنسية. وكانت السلطات تغلق أحياناً الحرم الجامعي لأيام حين تخرج الأمور عن السيطرة.

أذكر، بشكل خاص، إحدى تلك المواجهات المثيرة بين الطلاب والسلطات في كانون الأول/يناير 1972. أحد قادة الطلاب اعتُقل خلال اعتصام داخل الجامعة واندلعت المواجهات (كان الانتفاض العفوي يأخذ شكلاً متماسكاً بطريقة لا يمكن تصديقها، كما لو أن العقل الجمعي كان في عز نشاطه). وقبل أن تعرف الشرطة ما يجري، كنت تجد حوالي 25 ألف طالب محتشدين في مظاهرة.

اجتمع الطلاب مرة في ساحة الحرم؛ وكان في وسطه قاعدة حجرية تحيط بها حديقة صغيرة، عادة ما تكون مكاناً لنصب تمثال لقائد البلاد، لكنها كانت فارغة يومها. كان ذلك يحمل معنى رمزياً كبيراً؛ وأعتقد أن السلطات البلدية لم تكن قد جهَّزت تمثالاً للسادات. اعتاد الطلاب على اعتبار المكان منصة مرتجلة فيتزاحمون لإلقاء خطب عنيفة يصفق لها الجمهور بحماس.

كان هناك مقهى في الساحة يرتاده المثقفون اليساريون الذين كانت تبهجهم تلك الإطلالة الرائعة المتكشفة تحت أنظارهم. كانوا يكتبون التصريحات والبيانات التي يُخرجونها من معاطفهم، محمَّلة بنداءات مشحونة بالعاطفة. كان شعراء ومطربون - أذكر منهم أحمد فؤاد نجم والشيخ إمام - يحضرون

أيضاً وينشدون قصائدهم وأغانيهم أمام جمهور معجب. الكثير من رفاقي من تلك الأيام العنيفة تولوا في ما بعد مناصب سياسية. حمدين صباحي أصبح نائباً في مجلس الشعب المصري ومحمد الشبة صار صحافياً معروفاً وناشطاً سياسياً.

لا زلت أذكر أن الممثل الكبير صلاح السعدني جاء إلى الجامعة مع أحمد فؤاد نجم للقاء الطلاب وإظهار التضامن معهم، وكانت كلمته ثورية، وألقاها في المدرج الكبير. وقد تعرض بعدها لاضطهاد من السلطة وأجهزتها الأمنية حتى إنه تعرض للمنع من العمل في أي فيلم أو مسرحية، ووصل الأمر بالسلطة إلى حذف اسمه وأدواره من الكثير من الأفلام التي عرضها التلفزيون المصري في تلك الفترة، ولم يُرفع عنه الحظر إلا بعد عدة سنوات.

كان حمدين صباحي ومحمد الشبة الأكثر جذرية بين الطلاب، وكانا غالباً ما يقضيان فترات في السجن لقيادتهما المظاهرات والاحتجاجات. كنت، في تلك الأثناء، أحاول الحفاظ على حد أدنى من النشاط لتجنب التعرض للطرد من الجامعة والترحيل من البلد قبل إنهاء دراستي الجامعية، وهو ما سيكون كارثة لي ولعائلتي. الكثير من الفلسطينيين وقعوا بالفعل ضحايا لذلك وتم طردهم خارجاً، بحيث انتهى معظمهم لاجئين في العراق.

ذكرتني أحداث الثورة الشعبية المصرية الجارية هذا العام بما كنا نفعله نحن أنفسنا في ساحة التحرير. لم يكن وجودنا في الساحة أمراً مثيراً لانزعاج المواطنين العاديين في القاهرة. على العكس من ذلك. مع هبوط المساء، كانت سيدات عجائز يحضرن إلينا بالطعام والأغطية لأن الطقس كان بارداً. بعد منتصف الليل، كنا نبدأ جميعنا بالهتاف «ليسقط السادات» و«نيكسون هو الشيطان» ما يدفع الشرطة وقوات الأمن في النهاية إلى تفريق الجمع، مستخدمين الغاز المسيل للدموع وخراطيم الماء، مهاجمين بعصيهم بشدة أي شخص يقع تحت أيديهم. لكن الناس ما كانوا يستسلمون فكانوا يتفرقون باتجاه الشوارع الرئيسية بجماعات صغيرة وهم يصرخون «قومي يا مصر!». وحيث إن لغتي الإنكليزية كانت جيدة نسبياً، وافقتُ على أن أكون الشخص المتحدث باسم المحتجين، وكانت تلك تجربتي الأولى في التعامل مع الصحافة العالمية. هذا، لسوء الحظ، لفت نظر السلطات إليَّ وهو ما أدَّى لاحقاً إلى انعكاسات خطيرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

حب آخوي

وصلت إلى جامعة القاهرة بحالة أقرب للعوز ولم أكن قادراً على كسب المال لأنه كان عليَّ أن أدرس بجد ومشقة كي أكون بمستوى دراستي الجامعية. كان لدي بنطالان وقميصان ظلا معي طوال دراستي في مصر. أما السترة التي ألبسها فكانت مستعارة من صديق ابن عم لي لأنها أصبحت ضيقة جداً عليه. كنت أتقدَّم في مسيرتي، وكل شيء يسير حسب الخطة التي رسمتها، نتيجة رعاية أخي عبد الفتاح المستمرة لي في دراستي. الظروف في المنطقة الجنوبية (نجران) من السعودية حيث كان يدرِّس كانت أقلَّ من بدائية وقد أخبرني لاحقاً أنه كان يعيش في مكان أشبه بكوخ صغير. لم يكن هناك كهرباء، وبالتالي لم تكن هناك إمكانية لتركيب مكيِّفات هواء لتلطيف الحرارة الهائلة في شهور الصيف، ولا حتى مروحة!

لم يتعلق الأمر فقط بالظروف الطبيعية التي لا تطاق تقريباً، فلم يكن هناك أيضاً خدمات تساعدك في غربتك خلال الساعات الطويلة لأيام الإجازة والعطل الرسمية. من المؤكد أنه كان يكره وجوده هناك، ومع ذلك فقد أجبر نفسه على البقاء بسبب التزاماته المالية تجاه العائلة في غزة وتجاهي. أعتقد أن تلك المعادلة التي جمعت قسوة الحياة هناك والمصاعب التي واجهها في فلسطين، هي التي أدت لانهياره عصبياً حين كنت في عامي الثاني في الجامعة. أُقيل إثر ذلك من عمله وأُرسل إلى الأردن، حيث اهتم به ابن عمي الدكتور حسين عطوان. وحسين كان من جيله، وكان يدرِّس الأدب العربي في الجامعة الأردنية ثم أصبح بعد ذلك رئيساً لقسمه، وقد ألَّف عدة كتب في الأدب العربي أبرزها عن الشعراء الصعاليك، وكذلك عن الأدب والشعر في الدولة العباسية. كان إنساناً رائعاً بكل معنى الكلمة، وقد تزوج من فتاة أردنية، من أسرة ثرية، وسكن في منطقة فخمة، وكان العون الحقيقي لأخي عبد الفتاح، يزوره في المستشفى باستمرار، وسأظل مقدراً له ذلك ما حييت.

بعد ستة أشهر، عاد عبد الفتاح إلى السعودية وحصل على وظيفة في جدة لدى السلطات البلدية. أمَّن له ذلك راحة نسبية لسكنه مع أخي كمال الذي كان أيضاً قد انتقل إلى السعودية، لكنها كانت آخر مرة نرى فيها عبد الفتاح. رغم شعبيته بين الفتيات، فإنه لم يتزوج. كان يمزح أحياناً قائلاً إنه لا يستطيع أن يلزم نفسه بامرأة واحدة. لكنني أعتقد أنه لم يتزوج بسبب مرضه؛ فهو لم يرغب برمي عبئه على أحد فقد كان يعاني من مرض انفصام الشخصية (شيزوفرينيا) ونصحه الأطباء بعدم الزواج.

مع نهاية عام 1989، تم تشخيص مرض سرطان الرئة لدى عبد الفتاح، وهو أمر لم يكن ليفاجئ أحداً لأنه كان مدخناً شرهاً منذ سن الرابعة عشرة. في المستشفى، قال له الطبيب: «أريد منك أن تتوقف عن التدخين لنبدأ علاجك الكيميائي». تناول عبد الفتاح سيجارة من علبة الدخان في جيبه، مستعداً لرميها في سلة المهملات، ثم توقف وسأل:

- «دكتور، إذا توقفت عن التدخين، كم لدي لأعيش؟

- من المحتمل أن تعيش ستة شهور إلى سنة.

- وكم سأعيش لو استمريت بالتدخين؟

- ربما أربعة أو خمسة أشهر».

أعاد عبد الفتاح علبة سجائره إلى جيبه بعد أن استلَّ منها سيجارة أشعلها، وبعد نفسين منها قال متنهداً، وهو يسعل: «أريد أن أعيش، لكنني أريد أن أعيش والسيجارة بين شفتي وشعري على رأسي. لا أريد علاجك الكيميائي. لماذا يجب عليَّ أن أمرَّ بكل هذا العذاب فقط لأعيش بضعة أشهر أكثر؟» توفِّي في أيار/مايو 1990. أحببته ولا أزال أفتقده. لن أنساه ولن أنسى لطفه العظيم وكرمه وطريقة حياته البوهيمية. قال لي أخي كمال إن عبد الفتاح مات فعلاً والسيجارة في فمه... رحمه الله كان مثلا رائعاً في حب الحياة، ولن أنسى له دعمه المتواصل لي وإيمانه بقدراتي المهنية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

خارج البيت

كانت شوارع القاهرة مصدراً دائماً للتسلية. خلال النهار، تكون مزدحمة، حارة ولزجة، ويكون الهواء سميكاً بسبب التلوث، والطرق مسدودة دائماً بسبب الازدحام. لا يعير السائقون أيَّ اهتمام لأضواء إشارات المرور، وتبدو أيديهم كأنها ملتصقة إلى أبواق سياراتهم. كان شائعاً أن ترى الناس يخرجون من سياراتهم ويبدؤون عراكاً بالقبضات. وكان العبور إلى الأرصفة شبه مستحيل. عند اللقاء بأصدقاء، يتوقف الناس جماعات للتحدث، فيسدُّون الطريق على الآخرين. ترى أناساً يبيعون الفواكه والشاي والوجبات الخفيفة كل مترين، محاطين بمجموعات من الزبائن، كما حشوداً تتجمع لتشاهد سحرة الثعابين أو مدربي قرود تلبس ثياب البشر أو تؤدي الحيل. أذكر خصوصاً أداءً محدداً: قرد صغير أخضر يلبس بيجاما وملاءة ويتظاهر بالنوم عندما يطلب إليه المدرب ذلك. كان القرد يمسك بإحكام بمخالبه ورقة بيضاء تلوح تحت ذقنه وكان عنوان هذا المشهد «الخدامة القديمة».

العديد من الثقافات الإنسانية لديها يوم خاص لتذكُّر فقيد، لكنني لا أعتقد أن أحداً يحتفل بالموت بالحماسة التي يحتفل بها المصريون. تبدأ احتفالات «يوم الموتى» عند الفجر، عندما تظهر أول العربات التي تجرها الحمير أو البغال حاملة عائلات بأكملها، من الرضَّع على أيدي أمهاتهم إلى العجائز الذين فقدوا أسنانهم. هناك قارعو الطبول وموسيقيون يعزفون على الناي والعود، وينضم الجميع إلى الغناء والرقص مع الزغاريد. تخبُّ البغال أو الخيول الهرمة المتمايلة ضمن حركة السير الاعتيادية وتتوجه إلى المقابر حيث ينقضي اليوم في إقامة الولائم بدلاً من النواح على الأصدقاء والأسلاف الراحلين، وتُستعاد ذكراهم بطريقة ممتعة سعيدة. ليس هناك من يحتفل بالموت بحبٍّ الحياة مثل الشعب المصري؛ أناس في قمة التميُّز، يحملون في جيناتهم سمات حضارية تمتدُّ لأكثر من سبعة آلاف عام. ألم يبنِ الفراعنة الأهرامات لدفن ملوكهم ولتخليدهم في العالم الآخر؟!

شغف القاهريين بالموتى أدى إلى حلٍّ غير اعتيادي لمشكلة التشرد في المدينة؛ بعض أصحاب القلوب القوية اتخذوا المقابر سكناً؛ البعض قاموا ببناء غرف للسكن حول قبورهم لإيواء الأقارب لأربعين يوماً، وهي فترة الحداد، ثم تحوَّلت هذه المساكن سكناً دائماً للأحياء. زرت مقبرة واسعة بطول سبعة كيلومترات تعرف بـ«مدينة الموتى»، حيث جهَّزت عائلات بأكملها منازل بين شواهد القبور التي جرت الاستفادة منها كأرفف وطاولات. كانت الملابس المغسولة منشورة بينها لتجف، والأطفال يلعبون «الاستغماية» أو يطاردون بعضهم، وهم يتضاحكون أو يصرخون في هذا المكان المترب والمظلم. أُنشئت المطابخ المؤقتة في الزوايا، وكانت هناك حتى بعض الأرائك القديمة

وكراسيها. طيور في الأقفاص وحيوانات أليفة تتشارك المكان مع الرجال والنساء والأطفال الذين ينامون على فرشات وحصائر على الأرض المتربة واللزجة أحياناً. بحلول عام 2000، كان هناك خمسة ملايين شخص يعيشون في المقابر، والمرة الأخيرة التي ذهبت فيها إلى هناك وجدت السكان يتمتعون بأضواء الفلورسنت ويستخدمون الثلاجات والتلفزيونات الملونة، بعد أن مدَّدوا أشرطة الكهرباء من المسجد، أحياناً بطرق مشروعة، وفي معظم الأحيان بطرق غير مشروعة.

كل المدن تحب أنهارها، الباريسيون يحبون السين، اللندنيون يحبون التيمس، وأهل القاهرة ليسوا استثناء، وإعجابهم بنيلهم - الذي يخترق المدينة كلها - عاطفيٌّ كثيراً. قضيت الكثير من الوقت أتمشى على ضفة النهر العظيم، للتعرف إلى العالمَين المتوازيَين الموجودين على ضفتَي النهر ومياهه. الصيادون جابوا النهر في قلب المدينة وعاشوا في قواربهم الصغيرة لعدم توافر أماكن إقامة أفضل؛ يصطادون السمك ويبيعونه من الساعة التي يفيقون فيها، وما كانوا قادرين على أكله هم أنفسهم، لغلاء ثمنه، مستعيضين عنه بالفول.

في اليوم الأول من فصل الربيع، رأيت ضفتَي النهر وقد احتلهما مهرجان رائع. حتى أفقر الناس كانوا في هذا اليوم قادرين على التمتع به وكانت المدينة كلها تترقب قدومه. كان الأطفال يلوِّنون البيض المسلوق ويتبادلونه كالهدايا. تجولتُ نزولاً إلى ضفة النهر، مسروراً بمشاهد الاحتفال الرائعة، وتكررت دعوتي للأكل من قبل عدد من مجموعات المتنزهين، رغم أنني كنت غريباً عنهم كلياً. إنه عيد «شمِّ النسيم».

«تعال خدلك اللقمة دي!» كانوا يصيحون بي، وهم يشيرون إلى ما يأكلونه من برتقال، أو سمك فسيخ، أو فول وخبز. كانت هناك نغمات متنافرة تتصاعد من آلات تسجيل، وأخرى لأم كلثوم وغيرها من المغنين العرب، ومن فرق متجولة، وقرع طبول، ونواح قصبات الناي وضربات إيقاعية على العود؛ ومن الجماعات الجالسة للأكل أنفسهم على خلفية دائمة من الثرثرة والضحك. مع نهاية اليوم وغروب الشمس الرائع تتفرق الجموع، تاركة قمامتها كلها خلفها لزملائي من قسم جمع القمامة القاهري.

في فترة وجودي في القاهرة، تحوَّل النيل إلى مستودع لأنواع غير اعتيادية من القمامة - سيارتان وباص! يبدو أن سيارات المدينة القديمة كانت غالباً ما تتعرض لتعطل الكوابح أو جهاز التغيير جارفة السائق والركاب نحو مياه النهر.

المساء كان أفضل الأوقات للذهاب إلى ضفة النهر، عندما تنعكس أشكال القمر والنجوم على سواد الماء الشبيه بالحبر. كان ذلك وقتاً ينتهزه العشاق

الذين يتمشون هناك يداً بيد، هامسين وضاحكين، ومختبئين في الظلام الذي يسترهم، وهم يختلسون الضحكات.

لأنني كنت شديد الفقر، أعيش بأقل من 20 جنيهاً مصرياً في الشهر (ما يعادل 5 جنيهات إسترلينية تلك الأيام)، كان التودد للفتيات ومغازلتهن أمراً غير وارد. إضافة إلى أن معظم الفتيات في دورتنا الجامعية كن من فتيات الطبقة العليا المصرية والعربية، جئن من المدارس الأجنبية مثل الليسيه الفرنسية والمدرسة البريطانية في القاهرة. كنَّ جذابات بشكل لا يمكن إنكاره، لكنهن كنَّ خارج إمكانياتي تماماً. كان مقدراً لي أن أبقى عازباً لبضع سنوات أخرى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

معجب مخلص

كانت القاهرة في تلك الأيام عاصمة الثقافة العربية. عرف نظام عبد الناصر أهمية الفن في مجتمع شامل وقدمت الحكومة مساعدات ضخمة لصناعة السينما ونشر الكتب والمسرح. كان المصريون ينتجون 300 فيلم طويل ووثائقي في السنة، ومنهم خرج فنان السينما العالمي عمر الشريف الذي ولد باسم مايكل ديميتري شلهوب، لكنه عندما اعتنق الإسلام عام 1955 كي يتزوج الفنانة المصرية الشهيرة فاتن حمامة، تسمى بهذا الاسم الإسلامي والذي سيُشتهر به لاحقاً.

كان المسرح وسيلتي المفضلة للترفيه. وأول مرة شاهدت فيها مسرحيات موليير وشكسبير كانت في المسارح التي تموِّلها الدولة في القاهرة. لكن المسرح الخاص كان الأكثر إثارة للدهشة، وهو مسرح اخترع قانوناً لنفسه: لم يكن الممثلون ليكترثوا بالالتزام بالنص، بحيث إن المسرحية التي تكون مكتوبة لفترة ساعة ونصف يمكن أن تستمر طوال الليل، لأن الممثلين يضيفون على النص، ويبتعدون عنه بحسب مزاج الجمهور. عندما كنت هناك، جاء عرض لمسرحية «إلى السيد مع الحب» إلى القاهرة بعد ترجمتها للعربية وتسميتها «مدرسة المشاغبين». ذهبت لمشاهدتها ثلاث مرات وفي كل مرة كانت مختلفة، فالمعدُّون كانوا يقومون بتغيير عدد من الممثلين، بحيث كان الممثل الرئيسي هو الوحيد المستمر في دوره. ما كانت هذه المسرحيات تبدأ في وقتها المحدد أبداً، بل عندما يكتمل عدد الحضور، أو عندما يعتقد الممثلون أنهم صاروا جاهزين للأداء. كان الجمهور معتاداً على إحضار بزر البطيخ وحبوب الفستق معه، وأحياناً الفول الأخضر، وكان صوت تكسير البزر والمضغ المستمر يشكلان خلفية دائمة للدراما. في بعض الأحيان، وبسبب رغبتهم الشديدة لجعل الناس تضحك، كان الممثلون يتجاوزون الخطوط بقولهم كلمات بذيئة أو يدخلون في فاصل من تبادل النكات والقفشات مع الجمهور، مما قد يدفع بأحد الحاضرين لكتابة شكوى ضد العرض. والعديد من المسرحيات توقفت بعد أن جرى تنبيه أجهزة الرقابة إلى هذه التجاوزات.

أحببت أيضاً العروض الموسيقية الحية، وحضرت العديد من الأمسيات مع قريبي أسعد الذي كان قد انضم إليَّ قبل فترة قصيرة في العاصمة المصرية. جذبت القاهرة أفضل الفنانين العرب، لكن سعر البطاقات كان مرتفعاً بشكل يجعل حصولي عليها شديد الصعوبة.

في أحد الأيام، شاهدت ملصقات لأمسية غنائية لفريد الأطرش.

في عالمنا العربي، تحمل أجيال عديدة اسم العائلة الذي يمثل صفة أحد الأسلاف المنكودين، ولذلك تجد أشخاصاً بكامل الصحة يحملون كنية الأعرج

أو الأعور وهكذا دواليك. كنت معجباً بفريد الأطرش، فهو لم يكن يتمتع بصوت بديع ولديه مجموعة كبيرة من الأغاني الرومانسية الرائعة فحسب، لكنه كان أيضاً عازف عود ممتاز. ذهبنا إلى مكتب بيع البطاقات بمجرد أن سمعنا بحفلته، لكن البطاقات الرخيصة الثمن كانت قد بيعت كلها، بحيث لم يبقَ سوى المقاعد المرتفعة الثمن، والتي كان سعرها 5 جنيهات مصرية.

قلت لأسعد وأنا أحمِّسه:

- «فلنشترِها.

- «خمسة جنيهات هي كل ما أملك من أجل مأكلي ومشربي لكامل الشهر.

- خمسة جنيهات هي كل ما أملك لأصرف على كل شيء. سوف أشتري بطاقة. ماذا ستفعل أنت؟

- مستحيل! أخبرني عن الحفل بعد انتهائه».

داخل الصالة، كان المعجبون بفريد الأطرش في جو محموم من الترقب والرهبة. قبل أن يبدأ الحفل بوقت طويل، ورغم أن خشبة المسرح كانت فارغة، كان التصفيق يندلع من حين لآخر. أحضر رجل كرسياً إلى خشبة المسرح ليجلس عليها المطرب ويعزف على عوده، ما أدى إلى اندلاع حالة من الصراخ والصياح. ازداد الصراخ أكثر عندما أحضروا العود ووضعوه على الكرسي. عندما حضر سمير صبري، الممثل المصري المعروف، لتقديم المطرب، زأرت الجماهير وضجَّت بحيث أنني لم أسمع أي كلمة مما قاله لشدة الصراخ والصفير. وحين أطلَّ فريد الأطرش أخيراً، جنَّ جنون الجمهور، وقف الناس وهم يصيحون. انتظر الأطرش - من المؤكد أن سمعه كان قوياً - حتى هدأ الجمهور وجلس الناس على مقاعدهم، وتناول عوده مدندناً عليه ليتأكد من أنه مدوزن؛ النغمات البسيطة هذه أعادت تحميس الجمهور. هذه المرة انضممت أنا للجمع، لكن صراخي كان لأنني دفعت كل ما أملكه على البطاقة، وبدا لي أنهم إذا استمروا يصرخون بهذه الطريقة فلن يسمحوا له بالغناء أبداً. في النهاية، بدأ فريد بالغناء لكنه كان يقاطَع بالتصفيق باستمرار، بحيث إن الأغنية التي مُدتها عشر دقائق استغرقت نصف ساعة. كما كان هناك العديد من الطلبات بتكرار مقاطع، فالصراخ والتصفيق والصفير كان أطول من الأغنية نفسها بمراحل. كان المسرح على بعد عدة أميال من شقتي، وعندما وصلت الحفلة إلى نهايتها، انتبهت مرعوباً إلى أنني يجب أن أمشي إلى البيت لأنه لم يعد معي ما يكفي من المال لأجرة الحافلة. كدت أموت جوعاً خلال بقية الشهر، لكن الحفل كان يستحق العناء.

كنت قد عاهدت نفسي، أيام كنت أقود شاحنة القمامة في عمّان، بأن أحضر أول حفلة غنائية لفريد الأطرش أرى إعلاناً عنها، وهكذا كان وبررت بالوعد. بعد هذه التجربة بفترة، لاحظت أننا إذا ذهبنا لنحضر أداءً موسيقياً في النوادي الليلية بدلاً من قاعات الحفلات، فإن بإمكاننا أن نفعل ذلك من دون دفع المال. منطقي في ذلك كان التالي: لم يكن الغناء الطربي للفنان من الوزن الثقيل يبدأ عملياً قبل الثانية صباحاً، وفي ذلك الوقت يكون المشرفون على هذه النوادي قد سكروا. «لنذهب لمشاهدة عليَّا»، اقترحت على أسعد، وهمست تفاصيل خطتي في أذنه. عليًّا مطربة تونسية كانت معروفة بأدائها الأغاني الشعبية التونسية والفلكلورية الليبية والمغاربية عموماً. وكانت تغني في ناد ليلي قريب من «الأهرام». بدا أسعد متشككاً لكنه وافق على أن نجرب حظنا. نجحت الحيلة بدقة. صعدنا المكان ونحن نضحك ونتحادث، هززنا رأسينا نحو البوابين الذين بدوا بحالة يرثى لها من السكر (وربما كانوا مسطولين بالحشيش أيضاً)، ومشينا بخط مستقيم إلى الداخل. أفرطت في استخدام هذه التقنية، بحيث إنني أعدت التجربة ثلاث مرات خلال إقامة عليًّا في القاهرة، كما أنني استخدمت حيلتي الحديثة هذه لمشاهدة فنانين آخرين أيضاً أحبهم، مثل محمد عبد المطلب الذي كان متميزاً بمواويله وأغانيه الكلاسيكية وطربوشه الأحمر.

لكوني كنت مأخوذاً بالصوت الرائع لعود فريد الأطرش، قررت أن أتعلم العزف على هذه الآلة الموسيقية أيضاً. اشتريت عوداً تناوب عليه عديدون قبلي وحاولت أن أعزف عليه، ترافقني صيحات الاحتجاج من زملائي في الشقة. قررت أن أحضر بعض الدروس في معهد الموسيقى. كان معلمي، الشيخ مصطفى، لديه لحية وكرش كبير. كان يلبس الطربوش الأحمر وأحد طقمين: إما جلابية طويلة رمادية وإما طقم بصدرية مشدود بإحكام، أكل الدهر عليه وشرب. بصوته العميق، كان ينشد الأغاني القديمة، محاولاً تقليد سيد درويش.

كان الشيخ مصطفى مدرساً يحظى بالاحترام، وقد كرَّس الجزء الأكبر من وقته لرعاية المواهب الموسيقية الجديدة. لسوء الحظ، كنت سبباً لخيبة أمله، وربما اعتزاله تدريس العزف على الآلات الموسيقية. كنت قليل الصبر وطاردته بالتعليقات المحبطة والشكاوى، كما لو أن عدم قدرتي على العزف كان خطأه هو.

بعد شهر، كنت لا أزال غير قادر على عزف أكثر من ثلاث نغمات متتالية، وكنت خلال ذلك أحملق منزعجاً في أصابع يدي اليسرى التي تبدو عاجزة عن إيجاد موضعها الصحيح، ما يؤدي لأنغام ناشزة وشتائم تُقذف نحوي.

قلت للشيخ مصطفى:

«لا بد أن هناك شيئاً لم تعلمني إياه! هذا ليس طبيعياً. أريد أن أصبح مثل فناني المحبوب فريد الأطرش.»

وقف الشيخ مصطفى وقفز في الهواء، وهو الذي كان حتى ذلك الحين هادئاً ومحافظاً، وسألني وهو يخطف العود من يدي:

- «كم دفعت ثمن هذا العود؟

- خمسة جنيهات. اشتريت عوداً رخيصاً وسأشتري واحداً أفضل عندما يتحسن عزفي.

- لن يتحسن عزفك أبداً! لن تصبح موسيقياً من أي نوع! أبداً! لا جيداً ولا سيئاً!».

وضع العود على الطاولة وأخرج محفظته وقال:

- «هذه هي جنيهاتك الخمسة. رجاءً خذها واترك عودك هذا هنا. لا أريد أن أراك مرة أخرى. مع السلامة».

لاحقاً، وعندما بدأ أولادي بتعلم العزف على الكيبورد، استطعت أن أفهم المشقات التي سببتها لذلك الرجل، وأنا أستمع إليهم يحاولون أن يعزفوا نغمة واحدة بشكل صحيح. فمن الواضح أن لا علاقة للموسيقى مطلقاً بجينات آل عطوان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خبرة عملية

كجزء من الدورة الصحافية، أُرسلتُ لمدة شهر إلى مجلة «المصور» الأسبوعية للحصول على خبرة عملية. رحَّب بي مدير التحرير، فوميل لبيب، المكلف بالإشراف على الطلاب. وشرح لنا عمل الأقسام المتنوعة في المجلة وسألني أين أحب أن أعمل.

قلت من دون تردد، الأمر الذي صدمه.

- «صفحات الفن والفنانين.

- لكنك... فلسطيني! لابد أنك تريد أن تعمل في قسم السياسة!

- لأنني فلسطيني لا أريد أن أعمل في صفحات السياسة، قلت بإصرار. أعرف أنني سأصرف بقية حياتي كاتباً في السياسة، وهذه قد تكون آخر فرصة لي لاستكشاف عالم الفن».

طلب إليَّ أن أعطيه ثلاث أفكار لمواضيع أريد أن أنجزها. أعجبته أفكاري وتحققت أمنيتي.

أُولى مهامي كانت إجراء مقابلة مع المؤلف الموسيقي حلمي بكر. بعد المقابلة أصبحنا صديقين، واستمتعت بنظرته الواقعية للأمور؛ التقيت مرة به في كاراج برفقة ميكانيكيين يدخنون الحشيش. أخبرني أنه يفضل رفقتهم وحكاياتهم على حفلات كوكتيل الأغنياء المليئة بالبذخ.

إحدى مهامي الأخرى كانت لقاءً صحافياً مع ممثلة صاعدة - آنذاك - هي صفية العمري، كانت قد تركت تأثيراً واضحاً على فوميل. استمر بدفع اسمها في المقالات محاولاً الدعاية لها قد المستطاع - كانت هذه مجلة لامعة ذات توزيع ونفوذ واسعين. طلع فوميل علينا بفكرة استكشاف «الوجوه الجديدة» والتي ستركز، بالطبع، عليها. فوجئت حين أخرج مجموعة من الصور الاحترافية لصفية من درج مكتبه. لعبت وسائل الإعلام دوراً كبيراً في الترويج لهؤلاء النجوم الشباب وهذا استغلَّه محررو الجرائد والمجلات، رغم أنني متأكد أن إيمان فوميل بموهبة صفية، التي لا يمكن إنكارها، كان حقيقياً، ولا أستغرب أن يكون رحمه الله معجباً بجمالها أيضاً ولا ألومه على ذلك.

استعدتُ حكاية صفية العمري بعد سنوات لاحقة عندما كنت أعمل مديراً لمكتب جريدة «المدينة» السعودية العريقة التي تصدر في جدة، وكانت صفية قد أصبحت نجمة مسرحية وسينمائية. كنت في رحلة جوية من أبو ظبي إلى القاهرة وكان هناك مشكلة في جدول الرحلة. استُبدلت الطائرة الكبيرة

بطائرة شارتر ولم يكن فيها مقاعد درجة أولى، فأجلسوا كل ركاب الدرجة الأولى في الصفوف الأربعة الأمامية.

في اللحظة الأخيرة، دخلت صفية العمري إلى الطائرة مثقلة بأكياس «البوتيكات» الغالية وبالحقائب ذات الأسماء الفاخرة. في أعلى السلَّم، أخبرتها المضيفة الجوية بأن كل ما تحمله يجب أن يُترك مع الطاقم، ونشبت مساجلة لم تنتهِ لصالح صفية العمري. كانت لا تزال تغلي من هذه المواجهة حين قيل لها إن لا مقاعد درجة أولى.

- «أين سأجلس إذاً؟

- آسفة، مدام، لكنك ستجلسين في الجزء الأساسي من الطائرة. الصفوف الأربعة الأولى مخصصة لركاب الدرجة الأولى.

- مستحيل! مش ممكن أنا حقعد مع...»

ثم قامت بفحص زملائها الركاب ووقع نظرها عليَّ:

- «... أيِّ حد».

أخيراً، بعد أن اقتنعت بأنها إما أن تغادر الطائرة وإما أن تجلس في مقعدها، جلست قربي، وهي تنقر على حزام مقعدها بغضب. بعد حوالي نصف ساعة، أحسَّت بالملل وقررت أن تبدأ محادثة معي.

- «إيه هيَّ طبيعة عملك؟

- أنا ميكانيكي. أصلِّح سيارات. ونظرت إليها بشكل عارض: وماذا عنك؟ ما الذي تفعلينه؟ هل أنت مدرِّسة؟

- بالطبع لأ! أنا صفية العمري! ألا تذهب أبداً إلى السينما أو تشاهد التلفزيون؟

- لا، السينما شيء غير أخلاقي، وأنا إنسان مسلم ملتزم. مطوِّع يعني. لم أسمع أبداً باسم صفية العمري... هل أنت رقَّاصة؟».

بدا عليها أنها تأذَّت كثيراً بسبب تجاهلي المتعمَّد، لدرجة أنني بدأت أشعر بالإشفاق عليها، ولكن كان الأمر قد فات على الاعتراف وسرعان ما غرقتُ في النوم.

التقيت بصفية مجدداً عام 2001. كنت في الـ«بي بي سي» العربي وأخبرني المدير هناك، وأعتقد أنه كان حسين معوض، ومعه غيمون ماكليلين، أنها موجودة في الأستوديو للمشاركة في برنامج آخر. طلب إليَّ أن أبقى لنتناول الشاي معها. وافقت على ذلك وقمت بتفحصها باهتمام عندما جلست. كان

الزمن قد ترك آثاره على وجهها وبدت أكثر هدوءاً ووقاراً. نظرت إليَّ نظرة متفحِّصة وقالت:

- «أعرف أنني شاهدتك على التلفزيون لكنني متأكدة أنني التقيت بك قبل ذلك.

- هل تذكرين الرحلة من أبو ظبي إلى القاهرة ليلة عيد أضحى عندما جلست قرب ميكانيكي ولم يكن هناك مقاعد درجة أولى وكنت مزعوجة؟ ذلك الميكانيكي هو أنا!

- أذكر! لماذا فعلت ذلك؟

- أردت أن أغيظك.

مع نهاية شرب الشاي، كنا قد تغلبنا على خلافنا ودعتني لمشاهدة مسرحيتها في وسط لندن. زرتها بعد نهاية المسرحية في الكواليس لأقدم تهنئتي على أدائها، مازحاً بالقول إنه كان أفضل من أدائها في رحلة الشارتر. أصبحت صفية العمري لاحقاً سفيرة لليونسكو، وتحوَّلت شخصيتها التمثيلية إلى شخصية إنسانية حقيقية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يوم بعيد

في عطلة صيفية، عام 1973، كانت لدي مهمة غير عادية عليَّ تنفيذها. أخي الأكبر مني، كمال، المقيم في السعودية، قرر أن يتزوج. كانت الفتاة التي قرر أن يتزوجها فلسطينية في الثامنة عشرة تدعى كاملة وهي ابنة عمي حسين وتعيش في مخيم رفح للاجئين. كانت أمي ناشطة في اكتشاف الفتاة الأمثل لكمال وتسلمت مسؤولية أغلب الترتيبات.

كانت حفلة الزواج ستجرى في غزة، وبعد ذلك كان عليَّ أن أرافق العروس كاملة من غزة إلى الأردن حيث ستذهب بالطائرة إلى السعودية.

كانت تلك زيارة خاطفة وكئيبة، فقد غادرتُ القاهرة إلى عمَّان ومنها إلى غزة عبر جسر الملك حسين، وكانت المرة الأولى التي أعود فيها إلى القطاع المحتل بعد أكثر من خمس سنوات. بقيتُ مع أمي، أنام على الأرض في غرفتها - آسف زنزانتها - المؤلفة من أقل من ثلاثة أمتار مربعة، وأحزنني أن أرى أن ظروفها لم تتحسن أبداً، وكذلك الأمر بالنسبة لرفح كلها؛ وفي الواقع فقد تراجعت. المحتلون الإسرائيليون لم يقوموا بإصلاح الطرق - حتى الشارع الرئيسي الذي شُقَّ أثناء الاحتلال البريطاني - ولم يحافظوا على بنية المستشفيات أو الحدائق العامة أو أي من المرافق العامة. حاولت مع ذلك أن أكون مبتسما لأُسعد أمي. لم يكن هناك فائدة من إبداء الحزن على الوضع المؤلم الذي ستعيش فيه حتى نهاية حياتها لكونها رفضت الخروج من غزة، متعلقة دائماً بحلم أنها في يوم من الأيام ستعود إلى أسدود. لاحظت تغيراً في علاقتنا الآن؛ في السابق كنت أتحدث إليها كولد وكنت أعامَل على هذا الأساس، لكن الآن صرت رجلاً بالغاً، وطالباً جامعياً على وشك التخرج.

كان حفل الزواج شكلا من أشكال العناد، وهو تمثيل رمزي، بطريقة ما، للمأساة الفلسطينية. كانت العروس بثوبها الأبيض، مطبوخة بمساحيق الماكياج التي وضعتها أياد عديمة الخبرة، جالسة في مخيم للاجئين في غزة على كرسي من الخشب الرخيص وبجانبها كرسي آخر وُضعت عليه صورة شقيقي كمال، العريس المفترض الذي بقي متحصِّناً في السعودية. شخصياً، لست ضد الزيجات المرتَّبة إذا كان الطرفان يأملان بإيجاد شريك بهذه الطريقة. لكن الزواج القسري، بالطبع، غير مقبول إطلاقاً. الزيجات المدبرة يمكن أن تكون لديها فرصة للنجاح بقدر الزيجات التي يختار فيها الشريكان بعضهما البعض، ففي شبابنا نكون عرضة لارتكاب الأخطاء بينما الأشخاص الأكبر منا، الذين يعرفوننا جيداً، يمكن أن يتجنبوا ذلك نيابة عنا.

بدت كاملة سعيدة ومتحمسة لفكرة لقائها زوجها للمرة الأولى حين تحدثنا ونحن في طريقنا إلى الأردن.

تعرض زواجهما بالطبع لمراحل من الصعود والهبوط، لكن لديهما الآن ثمانية أطفال ولا يزالان متزوجين.

بعد أن صارت كاملة في الأردن، قررت أن أمدد فترة رحلتي وأسافر إلى شمال لبنان حيث تعيش عمتي المفضلة، حليمة، في مخيم نهر البارد للاجئين، إذ إنها وزوجها عبد الله سرحان (أبو جهاد)، وهو أحد رجال فتح، هربا بعد طردهما من الأردن خلال مجازر أيلول الأسود عام 1970. على الرغم من أنني بقيت على اتصال مع عمتي حليمة عبر السنين، فإن ذكرياتي الأكثر وضوحاً عنها كانت عن أيام مخيم دير البلح حين كانت تساعد أمي بالاعتناء بنا ونحن أطفال، وأكثر من مرة قامت بتنظيفنا من القمل الذي غزا رؤوسنا بمشط من العاج مخصص لهذه المهمة الشاقة. كانت الأخت الصغرى لأبي، وكانت طويلة، نحيلة، ترتدي على الدوام الثوب الفلسطيني التقليدي. لم تذهب إلى المدرسة فكانت أمية، لكنها كانت تفهم كل شيء وكان لديها قلب أسد.

مخيم نهر البارد هو ثاني أكبر مخيم للاجئين في لبنان، وهو يقع بالقرب من مدينة طرابلس، غير بعيد عن الشاطئ. كان مثل غابة إسمنت عندما ذهبت إلى هناك. بنى الناس بيوتهم بين الملاجئ التي قدمتها لهم الأونروا، خالقين بذلك مدينة صفيح تتخللها الممرات الضيقة وتمزقها المجاري المفتوحة. يبدو الأمر سخيفاً الآن، لكنني كنت أقارن في عقلي بين هذا المخيم وبين مخيم رفح لأخلق اعتقاداً عندي بأنه أفضل. أتخيل أن اللاجئين لا يزالون يقيمون مقارنات أقرب إلى قياس جحيم بجحيم آخر.

كان بيت أبو جهاد مليئاً بالقنابل والرشاشات والمسدسات، وكانت حليمة معتادة على ترتيبها برفعها عن الكراسي والطاولات، كأنها أعمال منزلية مزعجة أو جرائد أو علب سجائر. كانت هناك بطاريات مضادة للطيران على سقف منزله للتصدي للطائرات الإسرائيلية التي تقصف المخيم بشكل موسمي. أخذني أبو جهاد لزيارة بعض المخيمات الأخرى، بما فيها صبرا وشاتيلا في جنوب بيروت، واللذين سيكونان موقع واحدة من أسوأ المجازر العالمية في أيلول/سبتمبر 1982، عندما قُتل 3500 لاجئ على يد ميليشيا الكتائب اللبنانية بتحريض من أرييل شارون، وزير دفاع إسرائيل في ذلك الحين.

بقيتُ خمسة أيام معهم، فقد كان عليَّ أن أغادر إلى القاهرة مع بداية العام الدراسي. غادرتهم مع وعد بالعودة لم أتمكن أبداً من الوفاء به. يبدو أن القدر وجَّهني لأذهب إلى نهر البارد: بعد أسبوع من ذلك، جاءني اتصال هاتفي إلى القاهرة يخبرني أن الإسرائيليين قصفوا منزلهم وأن عمتي حليمة توفيت بسكتة قلبية. كانت في أواخر عقدها الثالث فحسب.

في صيف عام 2007، ظهر مخيم نهر البارد في الأخبار مجدداً لأنه كان قد أصبح قاعدة لتنظيم «فتح الإسلام»، وهو تنظيم إسلامي سلفي متشدد يتبنى إيديولوجيا تنظيم «القاعدة»، انخرط في قتال عنيف مع الجيش اللبناني. بعد أن علمت أن المخيم كان تحت قصف مدفعي ثقيل، اتصلت بمعارفي لأستخبر عن أوضاع أبو جهاد. اتصل بي بنفسه بعد ساعات وعرفت منه أنه تزوج مجدداً وأنه لا يزال يعيش في المخيم مع أطفاله، الذين صار عددهم الآن ستة عشر! أخبرني بأنه يفتقد حليمة كثيراً لكنه كان مستمراً في حياته وكفاحه، مثلما كانت حليمة لتتمناه أن يفعل. أما المخيم فقد جرى تدميره بالكامل وإجلاء جميع سكانه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون E-BOOK

لا مكان للذهاب إليه

كنت أريد أن أنال درجة الماجستير في جامعة القاهرة، وسببي الرئيسي في ذلك أنني لم أكن أعلم ماذا سأفعل بعد انتهاء دراستي الجامعية ولا إلى أين سأذهب. لم أعرف أن هذه ستكون مشكلة لكنني عندما ذهبت لأجدد إقامتي الدراسية أخبرني موظف متجهم الوجه أن أعود بعد ساعتين. عندما رجعت وجدت ضابط شرطة بانتظاري. سألني، من دون أن يطلب مني أن أجلس حتى، وهو ينظر إليَّ بتكبُّر من أسفل أنفه كما لو كنت شيئاً مزعجاً: - «ماذا تريد؟

- أريد أن أمدد إقامتي.

- لماذا؟

- أريد أن أتقدم لدرجة الماجستير.

- ما تفكَّرش إننا ما نعرفش كل شيء عنك، قال بطريقة عدوانية، كنا نراقبك ولدينا ملف بهذا الحجم عنك، فاتحاً ذراعيه بما يعادل المتر. نعلم عن ماضيك وعن تورطك بمظاهرات غير قانونية، الخطب التي قمت بها وكتاباتك التي تنتقد الرئيس السادات وأنظمة أخرى في الشرق الأوسط. لن نعطيك أي موافقة على الإقامة بعد انتهاء تاريخ إقامتك الرسمية هنا. إذا بقيت بعد ذلك سنعتقلك ونرمي بك في السجن».

أي شخص شاهد سجناً مصرياً من الداخل سيعرف حجم الردع الذي يشكله هذا التهديد. لم يكن لديَّ خيار سوى أن أجهِّز حقائبي للسفر.

في نهاية المدة، كان هناك حفل للمتخرجين من دورتنا في نادي نقابة الصحافيين. من المفترض أن يكون ذلك حدثاً سعيداً: كنت حاصلاً على درجة جامعية مع كل الاحتمالات لسيرة مهنية جيدة، ومع ذلك كنت أشعر بالقلق وهبوط المعنويات. مع نهاية الأمسية، بدأ الناس بتبادل عناوينهم، وأخذوا يتواعدون على استمرار التواصل. وحيث إنه ما كان لدي عنوان معروف لاستقبال الرسائل، فقد حاولت أن أبتعد عن طريق زملائي شاغلاً نفسي بصب كؤوس المشروبات الغازية أو بالتهام بعض الطعام من على الطاولة الممدودة. أستاذي الجامعي، مفيد شهاب، الذي أصبح لاحقاً وزيراً مهماً، وكنت على علاقة جيدة معه، جاء ليسلِّم عليَّ. قال: - «هل يمكن أن تعطيني عنوانك وتقول لي كيف أتصل بك؟

- لا عنوان لديَّ ولا طريقة للاتصال بي، أجبت محاولاً ألا أُظهر المرارة بداخلي.

- لكنني أحب أن نبقى على اتصال، قال مبتسماً بلطف. أريد أن أتابع تلميذي النجم، قال مازحاً.

- في الحقيقة ليس عندي أي فكرة أين سأذهب لأعيش. عليَّ أن أغادر مصر. بلدي تحت الاحتلال الإسرائيلي وأنا...».

أحسست بالإحراج فجأة لأن صوتي بدأ بالتقطع، كاشفاً حقيقة مشاعري. وضع مفيد يده على ذراعي، وقال وهو يتنهد: - «عزيزي عبد الباري، سامحني، لم أفكر بذلك. كم هو صعب أن يكون المرء لاجئاً فلسطينياً. كم هو صعب ألا يكون لديك عنوان ثابت وألا تعلم إلى أين أنت ذاهب».

لاحظت أنني ما لم أغادر الحفل، فإن ظروفي الحالكة ستحبط جميع من حولي، لذلك ودعت الجميع وتركت المكان باتجاه الليل.

رغم أنني غادرت مصر بطريقة بائسة، فإن الوقت الذي قضيته هناك غيَّرني للأبد وعلَّمني الكثير الذي سيفتح طريقي إلى نهاية حياتي. المصريون ملهمون: يواجهون أفظع أشكال الحرمان والمصاعب بالنكات، وهو السبب ربما في كون كوميدييهم هم الأفضل في العالم العربي. من تجربتي، هم صبورون، ومسالمون عموماً - إلا إذا استُفزوا - وهم كرماء بشكل استثنائي. وفي دواخلهم يؤمنون بالمساواة والاشتراكية. هناك تقليد تعودت عليه في مصر كان شكلاً من أشكال الادخار الجماعي يدعى «الجمعية»: مجموعة من الناس يتفقون ويقومون بالمساهمة بمبلغ صغير إلى أن يتجمع مبلغ معقول من المال؛ وهذا المبلغ يستخدم عندئذ لتمويل أمور مكلفة مثل حفل زواج أو علاج طبي لأعضاء المجموعة عند الضرورة. نقوم بمثل هذه العادة في «القدس العربي» وتمكنَّا بذلك من تقديم عون كبير للزملاء المشتركين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4. تنقلات مهنية

ربما كنت، في فترة من الفترات، سأصبح التجسيد العربي لحارس المرمى البريطاني الأشهر غوردون بانكس. أحب كرة القدم، وفي وقت من الأوقات كنت حارس مرمى معتبراً. ولفترة وجيزة فكرت في التحول للاعب كرة محترف بدلاً من امتهان الصحافة، واثنان من أصدقاء طفولتي، عبد الرحيم فلاح وأبو جاموس، أصبحا في الواقع لاعبي كرة قدم شبه محترفين في الأردن. كان لدينا تدريب كاف، رغم أنه لم يكن هناك غير ملعب واحد وعر ومليء بالتعرجات لكل سكان المخيم. اعتدنا اللعب لساعات في أي مكان نجد فيه مساحة كافية، في القفار المتربة أو على الرمال الحارقة، ودائماً حفاة الأقدام - لا أظن أن أحداً منا كان قد شاهد حذاء كرة قدم حقيقي. وإن حقيقة أن لا أحد منا كان يمتلك كرة خاصة بهذه اللعبة لم تكن عائقاً أيضاً. كنا نجرب حظَّنا مع الجوارب القديمة، وبالون، وخيط. البالون المنتفخ يتم حشو الجوارب به ثم يُربط بخيط؛ ثم توضع طبقة أخرى من الجوارب وأخرى إلى أن يصبح لدينا شيء قريب من الكرة المطلوبة.

ولد واحد فقط من دير البلح كانت لديه كرة قدم حقيقية. كان اسمه كامل أبو قاسم وينتمي لإحدى العائلات الغنية القليلة التي تعيش قريباً من المخيم. كان كامل بخيلاً حين يتعلق الأمر بكرته، مستفيداً بمكر من تقنين استخدامها بطريقة تجعلنا مستعدين لفعل أي شيء يطلبه مقابل ساعة واحدة من اللعب بها. كان سريعاً في استغلاله حالة التوق اليائس لدينا، خصوصاً لأنه كان لاعب كرة قدم متوسط الموهبة ولم يكن أحد مستعداً لدعوته للعب. حين كان يرانا نتجمع في المنطقة المقفرة أو على الشاطئ، محددين منطقة المرمى بالصخور أو الخرق، كان يأتي متظاهراً باللامبالاة وحاملاً كرته كما لو كان ذاهباً إلى مكان آخر.

- «السلام عليكم، كامل.

- وعليكم السلام، يجيب، كما لو أنه سيغادر حالاً.

- تعال والعب معنا كرة القدم.

- يجب أن أذهب إلى بيت ابن عمي، كان يقول (أو عمته أو بيت معلمه لكنه كان دائماً يقدم عذراً ضعيفاً).

- يمكن أن تكون الكابتن لواحد من الفريقين لو أحببت (كانت هذه الجملة عادة ما توقفه عن السير).

- أكيد؟

- أكيد.

- وأستطيع أن أختار الفريق الذي يعجبني؟

- نعم!»

كان اللعب بكرة قدم حقيقية أمراً يستحق التضحية وقبول وجود كابتن دكتاتور.

بصفتي حارس مرمى، كنت مفتاح استراتيجيتنا السرية. لم يكن كامل ليختارني في فريقه بحيث أكون مدافعاً عن المرمى الذي يوجِّه ضرباته إليه. عند الاحتمال النادر لوصوله إلى المرمى كنت أفشل طبعاً في صد كرته وكان كامل يبتهج بالتهاني من أفراد فريقه. في بعض الأحيان كانت الخطة تفشل وكنت بشكل غير مقصود أتعرقل بالكرة وأنا أحاول أن أتجنبها أو لا يتمكن أحد أفراد فريقه من كبح نفسه، فيقوم باعتراض حركة كامل البطيئة ويركل الكرة بعيداً إلى أحد أفراد الفريق النشيطين. كانت هذه الحادثة تؤدي لسحب الكرة منا لعدة أيام. هذه المشاغل التافهة توقفت على أي حال مع الاجتياح الإسرائيلي لغزة وتوقفت معه كل مبارياتنا.

تقطعت بنا السبل، وانقطعت أخبار كامل عني إلى أن التقيت به في مدريد عن طريق ابنه أوسكار الذي كان يعمل صحافياً في صحيفة إسبانية معروفة. علمت أن كامل درس طب العيون وتزوج من إسبانية، انجب منها أوسكار، ثم تزوج من فلسطينية، وهو طبيب ناجح جداً حالياً. التقيت به بعد غياب استمر خمسين عاماً وأبلغني أنه واصل هوايته في كرة القدم، وقد عرض عليه مدير أحد أندية الدرجة الثانية الإسبانية عقداً باحتراف كرة القدم بعد أن شاهده يلعب، لكنه رفض وفضَّل الطب على كرة القدم.

عدت لكرة القدم مرة أخرى عندما صرت في الجامعة. كنت قد تمكنت من زيادة وزني قليلاً في الأردن، وأصبحت أكثر قوة ورشاقة من أي وقت مضى عليَّ في المخيمات. طُلب إليَّ الانضمام لفريقَي الجامعة والطلاب الأجانب، وبما يشبه المعجزة حصلت على حذاء كرة قدم وقفازات حارس مرمى لأول مرة في حياتي. في أحد الأيام، لعب فريق الطلاب الأجانب ضد فريق من المشاهير، وكان هناك حشد مهم في ملعب الزمالك، أهم فرق القاهرة الرئيسية. أتذكر وجود عدد من الموسيقيين، والممثل الكوميدي سيد الملاح، وآخرين مثل محمود ياسين ونور الشريف؛ بعضهم كان جيداً لكن الآخرين لم تكن لديهم اللياقة الكافية بحيث بدأوا باللهاث والإحساس بالإرهاق بعد أن ركضوا في أرض الملعب لمرة واحدة فحسب، ولم يستطيعوا الحصول على

الكرة بعد ذلك أبداَ. فريق المشاهير جرى تعزيزه بعد ذلك ببدلاء من نجوم اللاعبين من فريق الزمالك.

إذا كان لي الحق بأن أتحدث عن نفسي، أقول إن حراستي للمرمى كانت شجاعة: كانت ردود فعلي سريعة وكنت أقفز بجسمي في الهواء نازلاً إلى أرض المرمى من دون اهتمام بسلامتي الشخصية. بعد اللعبة، التي سحقنا فيها فريق المشاهير، سألني أحد مسؤولي فريق الزمالك إن كنت أحب التمرن مع لاعبي الاحتياط لديهم. وافقت وبدأت بحضور جلسات التمرين مرتين في الأسبوع. بعد فترة قدموا لي عرضاً للانضمام إلى الفريق كلاعب احتياط. كان ذلك عرضاً مثيراً وشعرت بالإغراء، لكنني كنت في السنة الثالثة في الجامعة وكان علي أن أهتم بدراستي أكثر. إضافة إلى ذلك، فإن الاحتراف في مجال كرة القدم لم يكن عملاً مجزياً مادياً في العالم العربي آنذاك، وكان العمل فيه يستمر لفترة غير طويلة ومرتبطاً بالعمر واللياقة.

لا أزال أذكر تلك الأيام الجميلة في الجامعة وفي ملعب نادي الزمالك، وقد تدربت مع نجوم الفريق القدامى مثل حسن شحاتة الذي كان عائداً لتوه من الكويت حيث لعب مع أحد أنديتها، وأصبح بعد ذلك مدرباً للمنتخب القومي المصري الذي فاز ببطولة أفريقيا، ومع طه بصري، وعمر النور وحمادة إمام، وقد اكتسب حراس المرمى من الفلسطينيين أمثال مروان كنفاني حارس الأهلي شهرة واسعة، وكان مع فؤاد أبو غيدة ظهير الفريق الأهلي من المفضلين جداً لفتيات القاهرة من المجتمع المخملي، وقد تزوج مروان من المذيعة الشهيرة والجميلة نجوى إبراهيم. دخل مروان تاريخ كرة القدم عندما ضرب لاعباً من فريق الزمالك المنافس في مباراة مثيرة ومتوترة بين الفريقين كالعادة، فتحول الملعب إلى ساحة قتال وسقط العديد من القتلى والجرحى، واضطرت الحكومة إلى إلغاء الدوري. مروان الذي عمل لاحقاً مستشاراً للرئيس عرفات لا يحب الحديث في هذا الموضوع ربما لأنه لا يريد أن يذكره الناس كلاعب كرة وإنما كشخصية سياسية.

ورث ابني خالد، الذي ولد وعاش في لندن، هواية كرة القدم مني، وكان مشغوفاً بفكرة أن يصبح ديفيد بيكام الجديد. كانت لديه ثقة عظيمة بقدراته كلاعب كرة قدم ما جعله شخصاً خاملاً في ما يتعلق بشؤون الدراسة. كان خالد جيداً باللعب، لكنني علمت من تجربتي الخاصة أنه لم يكن جيداً بشكل كاف ليصبح لاعباً في الدوري الممتاز، وحتى لو كان كذلك فإن تحفظاتي ستظل كبيرة حول خيار كهذا للحياة والعيش. كانت تلك لحظة محرجة لي كأب، لأنني لم أرغب في إضعاف معنويات أولادي أو أن أضرَّ بثقتهم بأنفسهم. جاء الخلاص عن طريق برنامج تلفزيوني عرض عام 1995 حول أكاديمية فريق تشيلسي للتدريب على كرة القدم. أظهر البرنامج كيف أن آلافاً من

الشبان الحالمين قدَّموا طلبات قبول في الأكاديمية وكيف أن ثلاثة فقط نجحوا، وبين هؤلاء، وحده جودي موريس وقَّع عقداً مع نادي تشيلسي. مع ذلك، بعد شهور من التدريب والمعاملة الشاقة على أيدي المدربين، لعب في الفريق مرة واحدة في سنته الأولى. شاهدت مع زوجتي، باسمة، دعاية البرنامج وقررنا أن أحسن طريقة لإقناع خالد بالتخلي عن أحلامه الكروية هي أن نجعله يشاهد هذا البرنامج. نجحت الخطة. قبل خالد فكرة أن عليه أن يفعل شيئاً آخر وبدأ الدراسة بجدية. خالد، على أي حال، لعب في فريقَي المدرسة والجامعة وكان مصدر فخر وسعادة لنا كلنا. وبالمناسبة، فإن واحداً من أصدقائه، بريت جونسون، هو اليوم لاعب كرة قدم محترف يلعب في الدوري الأول مع فريق نورثامبتون تاون.

عدد قليل من اللاعبين العرب لعبوا مع فرق بريطانية على مر السنين.

الفلسطيني وليد بدير، وهو لاعب خط وسط ماهر، ببنية جسدية مثل دبابة، اشتراه فريق ويمبلدون عام 1999، مقابل مليون جنيه إسترليني، وقد قام بتسجيل هدف ضد مانشستر يونايتد. قمت بدعوته إلى مقر الصحيفة وطلبت إلى محررنا الرياضي إجراء حديث معه للنشر بعد فترة قصيرة من وصوله إلى لندن، وقد تكوَّن لديَّ إحساس بأنه شخص بسيط. كان راتبه عشرة آلاف جنيه أسبوعيا، وهو مبلغ خيالي بالنسبة لشاب فلسطيني فقير من قرية كفر قاسم النائية. وأصبح واضحاً بعد فترة قصيرة أن وليد كان يصرف مبالغ كبيرة من راتبه على المأكولات غير الصحية ما أدى لزيادة في وزنه بحيث لم يعد قادراً على اللعب بالمهارة التي كان يلعب بها من قبل؛ بعد موسم واحد أُعيد بيعه إلى «مكابي حيفا»، وهو فريق إسرائيلي. كنت سعيداً باستعادة وليد لبعض لياقته السابقة عندما لعب ضد إنجلترا في مباريات التأهل للألعاب الأوروبية عام 2007، وظل معروفاً لدى مشجِّعي ويمبلدون بأنه اللاعب الوحيد الذي سجل هدفاً في مرمى مانشستر يونايتد الشهير، لكنها فرحة لم تتم، بالنسبة إليَّ على الأقل.

وكان رشيد حركوك لاعباً عربياً آخر قام بإنجازات جيدة في بريطانيا. حركوك نصف جزائري نصف بريطاني، وقد جعله تيري فينابلس يوقع لكريستال بالاس عام 1976. انتقل بعد ذلك إلى كوينز بارك رينجرز عام 1978 ثم نوتس كاونتي عام 1980. كان رشيد يستطيع ضرب الكرة بقوة صاروخية وقد حصل على لقب Rash the Smash (رشيد الساحق). لسوء الحظ، فإن لقبه هذا يمكن تطبيقه أيضاً على فعالياته الأخرى في الملعب، مثل فقدان أعصابه والهجوم على لاعبي الفرق الأخرى. كان يحصل على بطاقات حمراء كما كان غيره يجمع الطوابع، وكان عادة يُترك على مقعد الاحتياط إلى قبيل نهاية المباراة، حين يسمح المدير بإطلاقه مثل الثور المحبوس إلى الملعب،

ليسجل عادة هدف النصر. عندما أجريت معه حواراَ، سألته لماذا لا يستطيع السيطرة على نفسه بشكل أفضل. «أنا جزائري، شمال أفريقيا منطقة حارة لدرجة الغليان ودمائي هي كذلك أيضاً». لعب حركوك عام 1986 في مباريات كأس العالم بالمكسيك وبعد ذلك اختفى. التقيت بوالده عام 2001، فأخبرني أن رشيد يعمل سائق شاحنة ليكسب رزقه وأنه طلَّق مرتين. القصة التي أذكرها عنه أنه لمع بشكل غير معقول عندما أنقذ فريقه من الهبوط حين لعب معه، الأمر الذي دفع بعض أصدقاء السوء إلى استغلال سذاجته والطلب إليه ترويج عملة مزورة، ووقع في المصيدة، لكن القاضي أفرج عنه لسذاجته وصغر سنه.

بعد ذلك اهتم بالعارضات الجميلات أكثر من اهتمامه بكرة القدم، وكذلك، مثل كل اللاعبين الذين يأتون من قاع المجتمع، بالسيارات الرياضية السريعة، وهذا ما يفسر ضياع ثروته وانتهاءه سائق شاحنة.

السعي وراء ممارسة كرة القدم يمكن أن يؤدي لنتائج خطيرة. حتى حضور المباريات شخصياً فيه مجازفة. أنا نفسي نجوت بأعجوبة من الموت في استاد القاهرة عام 1974 حين سقط سبعة وأربعون شخصاً قتلى بعد أن داستهم الجماهير، حين سمحت الشرطة بإدخال أعداد كبيرة لا يتسع لها المكان.

كنت في الاستاد يومها على بعد أمتار قليلة من مكان الحاجز الذي سقط، لكنني غادرت قبل دقائق من المأساة، وكان معي صديقي محمد غنام. بعد أن دفعتني الحشود التي كانت تكافح للوصول إلى أماكنها أحسست أن مشكلة كبيرة ستقع وشققت طريقي خارجاً عن مجرى تدفق الناس.

حصل معي اقتراب آخر من الموت بسبب الرياضة عندما كنت أدرس في الإسكندرية، خلال لعبي كرة السلة مع نادي الشبيبة المسيحي. بعد مباراة شرسة، ذهبت لأخذ حمام ساخن في شقة ابن خالتي جهاد. أغلقت النوافذ لأن الطقس كان بارداً، وأول شيء أحسست به بعد ذلك كانت صفعات على وجهي وقرصة من أحد الجيران. كان سخَّان الماء الذي يعمل على الغاز معطلاً وكنت على وشك الموت اختناقاً بأول أكسيد الكربون. أخبرني ابن خالتي لاحقاً أنه اتصل طالباً سيارة إسعاف، لكن في مصر، آنذاك، لم يكن هذا أكثر من إجراء رمزي. فإذا كنت محظوظاً كفاية لتصل إلى هاتف يعمل تكون معجزة، ثم أن تجد أحداً من «قسم الطوارئ» في المشفى يهتم بالرد على اتصالك فهي معجزة أكبر. إذا ردوا عليك تواجه وابلاً من الأسئلة البيروقراطية الغبية الطويلة، أولاً عن نفسك ثم عن المريض، وحين يصلون إلى قرار بإرسال سيارة إسعاف إليك، يكون المريض قد مات. كنت محظوظاً

أن جارنا كان يدرس الطب، ونظرة واحدة إلى وجهي الأزرق أقنعته بأنه ما لم أستفق حالاً فسأموت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وظيفة خطرة

كنت شغوفاً بالجرائد منذ طفولتي. عدد قليل من الناس كانوا قادرين على شراء جرائد جديدة في مخيم اللاجئين، لكن الصحف القديمة كانت تباع بسعر رخيص من قبل بعض الأفراد الذين كانوا ينشرونها على الأرض المتربة مع مجلات عتيقة. عقدت اتفاقاً مع رجل كان يملك كشك الصحف الفعلي الوحيد في الجزء الذي نقيم فيه من المخيم. مقابل بعض القروش المصرية القليلة، كان يسمح لي بقراءة صحف ذلك اليوم ثم يضعها للبيع مجدداً، على شرط أن لا أترك أي أثر أو تجاعيد على الصفحات.

أدخل أخي الأكبر، عبد الفتاح، في قناعتي أهمية قراءة الصحف؛ كان دائم الاهتمام بمظهره وكانت نظريته أن شخصية المرء تعرف من خلال اسم الجريدة التي يحملها تحت ذراعه.

مع بداية السبعينات، كانت الصحافة الوحيدة الحرة نسبياً في العالم العربي موجودة في لبنان. بعض الصحف كانت خاصة غير حكومية، وكان هناك عدد من الصحافيين الذين كانت أعمالهم تعجبني، مثل غسان تويني الذي كان يكتب في صحيفة «النهار» اللبنانية ومحمد حسنين هيكل الذي كان رئيس تحرير صحيفة «الأهرام» في مصر. كنت أحترمهما لشجاعتهما بالتعبير عن آرائهما حتى عندما كانت تتناقض مع الخط الرسمي، وكان ذلك يمكن أن يسبب المتاعب لهما. هيكل، على سبيل المثال، سُجن لثلاثة أشهر بسبب انتقاداته الصريحة للرئيس الراحل السادات.

دفع بعض الصحافيين العرب حياتهم ثمناً لآرائهم، كما في حالة سليم اللوزي، والذي كان ينشر ويحرر مجلة أسبوعية لبنانية تدعى «الحوادث».

هرب اللوزي من لبنان إلى لندن مثل معظم وسائل الإعلام التي كانت موجودة في بيروت، عندما اندلعت الحرب الأهلية عام 1975. قامت وسائل الأعلام بالكتابة عن موته بعد عام أو أكثر من دون ذكر أي تفاصيل، لكن أرملته، أميَّة، أخبرتني ما الذي حصل حقيقة: كان اللوزي قد قرر أن يخاطر بالسفر إلى بيروت ليحضر جنازة والدته. اكتُشفت جثته بعد ذلك في منطقة مقفرة بعد فترة قصيرة من عودته إلى لبنان. كان قد عُذِّب حتى الموت، وقُطعت أصابعه وشوِّهت أضلاعه بالأسيد. كان ذلك اغتيالاً سياسياً وكان هناك عدد من المتهمين، فقد انتقد اللوزي عدداً من المنظمات والأشخاص الخطرين، من العقيد القذافي إلى النظام البعثي في سورية وصولاً إلى منظمات راديكالية فلسطينية معروفة. هوية المغتالين ودوافعهم بقيت لغزاً لكن موته مثَّل رسالة قوية لكل الصحافيين الذين يجرؤون على انتقاد القوى ذات النفوذ. كانت رغبتي في كشف تفاصيل اغتياله شديدة، لكنني لم أستطع

أن أكتب الحقيقة عن مصرع اللوزي في ذلك الحين لان الصحيفة التي كنت أعمل بها لم تكن راغبة باستعداء الحكومات والجماعات المتورطة في مقتله. استمر ذلك حتى عام 1996، حين دعتني «الجزيرة» للمشاركة في برنامج عن الرقابة في وسائل الإعلام العربية، فحصلت أخيراً على منبر يمكنني من خلاله قول الحقيقة. بعد دقائق من بث البرنامج، اتصلت أميَّة بي وهي تبكي لأن الحقيقة أُذيعت أخيراً وقالت: «لقد عنى لي ذلك الكثير».

تُصدر المنظمة الدولية غير الحكومية «مراسلون بلا حدود» تحليلاً سنوياً عن حرية الصحافة حول العالم. تقريرها لعام 2006 أظهر أن القليل قد تغيَّر في الشرق الأوسط منذ أن كنت أعمل هناك صحافياً. وجد التقرير أنه في ليبيا وإيران وسورية وتونس والسعودية تمارس الدولة سيطرة كاملة على الإعلام. بين كل الدول المذكورة، كانت كوريا الشمالية البلد الأقل حرية في العالم، وأخذت في الترتيب الرقم 168، لكن إيران أخذت الترتيب 162 وكان ترتيب السعودية 161 فيما كانت سورية ومصر والجزائر وليبيا والسودان والسلطة الفلسطينية في مواقع قريبة بعدها. باصطلاح «الأقل حرية»، لا يشير التقرير فقط إلى الرقابة لكن كذلك إلى التعدي على الحريات المدنية، من دون أن نذكر التعذيب والخطف والسجن، وفي بعض الأحيان، اغتيال الصحافيين. الصحافة في الشرق الأوسط مهنة خطرة إذا كنت راغباً بقول الحقيقة.

أشكر الله على أنني نجوت من الاعتقال والسجن خلال فترة عملي، لكن هذا لا يعني أنني نجوت من كل أنواع القمع نتيجة صراحتي. العديد من الدول العربية بما فيها السعودية ومصر وسورية والكويت والعراق منعتني من دخول أراضيها. بل تلقيت أيضاً تهديدات بالقتل من حكومات عربية أزعجتها كتاباتي.

عام 2004، كتبت عدة مقالات في صحيفة «القدس العربي»، منتقداً الأردنيين على انتهاكاتهم لحقوق الإنسان؛ بعد فترة قصيرة من ذلك استدعيَ مراسلنا في عمان، بسام البدارين، إلى مبنى المخابرات العامة حيث تسلم هذه الرسالة التي قام بعد ذلك بإيصالها إليَّ: «أخبر رئيسك أن ذراعنا طويلة جداً وأنها قادرة على الوصول إلى لندن». سعد خير رئيس المخابرات الأردنية في ذلك الوقت هو الذي أصدر هذا التهديد وكان ردي أن يقطع يده الطويلة هذه ويحشوها في أي مكان يريد، ولم يؤثِّر فيَّ هذا التهديد مطلقاً.

تعرضتُ لتجربة مماثلة من السلطات السورية عام 1998 بعد نشري لروايات لضحايا التعذيب عن تجاربهم المرعبة في السجون السورية. وحين تفشل التهديدات الجسدية في التأثير، تعقبها حملات تشويه سمعة الصحافيين وكرامتهم. في صيف عام 2002، خلال فترة الاستعداد للاجتياح الأميركي للعراق، شنَّت سبع صحف يومية سعودية حملة تشهير ضدي استمرت عدة سنوات. كنت لفترة طويلة من الزمن من أشد المنتقدين لفساد العائلة

المالكة السعودية، ومن الواضح أنهم قرروا تشويه سمعتي، بهدف إسكاتي. ولأنهم لم تكن عندهم أشياء حقيقية ضدي فقد اتهموني، من بين أمور سخيفة عديدة، بكوني تعرضت للطرد من السعودية وأنني كنت دمية مبرمجة للمخابرات المركزية الأميركية هدفها تشويه صورة بعض الأنظمة العربية. ومن المفارقات أن الإسرائيليين كانوا يقومون بحملة تشويه ضدي هم أيضاً، زاعمين أن صحيفتي يموِّلها صدام حسين.

كل هذا كان يمكن أن يكون باعثاً على الضحك، غير أن حملة التشهير السعودية صارت شخصية بحيث أن قصصاً نُشرت كانت تزعم أنني لم أترك السعودية بشكل طوعي ولكن طُردتُ بسبب قضايا جنسية. قررت عند ذلك أن أرفع دعوى تشهير. رفضت المملكة السعودية السماح لمحاميَّ هناك، صالح الحجيلان، بالدفاع عني. وفي خطوة مذهلة، حتى بالمقاييس السعودية، غيَّرت الحكومة السعودية القانون بما يخص الدعاوى المرفوعة ضد الصحف السعودية، بحيث ما عاد هناك مكان لسماع قضيتي في السعودية. إضافة لذلك، فإن صالح الحجيلان أصبح بدوره هدفاً لحملة تشهير. لقد نجح في تبرئة الممرضتين البريطانيتين، ديبرا باري ولوسيل مكلوغلين في محاكمتهما عام 1996 بجرم قتل زميلتهما الأسترالية إيفون غيلفورد وحصل على وسام الإمبراطورية البريطانية نتيجة لذلك. في السعودية، من جهة أخرى، جرى الحطُّ من شأنه باعتباره مدافعاً عن الفاسدين أخلاقياً، بمن فيهم أنا! المفارقة أن ثلاث دعاوى رُفعت ضدي من قبل أمراء سعوديين في بريطانيا بدعوى أن قصصاً نشرتها انعكست بشكل سلبي عليهم. ولأنني لم أكن قادراً على دفع تكاليف محامين كبار في قضايا التشهير، اضطررت لتسوية القضايا واحدة بعد الأخرى خارج المحكمة.

لاحقاً، استخدمت الصحف السعودية أساليب ستالينية للادعاء بأنني ببساطة غير موجود. في إحدى المرات، كنت عضواً في وفد فلسطيني من أربعة أشخاص التقى توني بلير في داوننغ ستريت، لكن حين نُشرت صور المناسبة في الصحف السعودية جرى التلاعب بها بحيث لا يمكن رؤيتي ضمنها، كما حُذف اسمي من التقرير.

لا عجب بعد ذلك أن عائلتي كانت، بشكل عام، معارضة لنوع المهنة التي اخترتها. أذكر أمي، باكية، ترجوني أن أدرس الطب بدلاً من الصحافة. أردت أن أصبح صحافياً لأنني كنت ممتلئاً بالغضب بعد طفولة قضيتها في مخيمات اللاجئين وبسبب كل أنواع الظلم التي شهدتها هناك. احتاج غضبي للتعبير عن نفسه؛ كان بإمكاني الانضمام إلى المقاومة لكنني قررت أن الكلمات، بدلاً من الطلقات، هي الذخيرة التي سأستخدمها. كانت لدي أسباب اجتماعية لخياري المهني أيضاً: النجاح في الصحافة يمكن أن يكسر حاجز الطبقات،

ويؤمِّن طريق انتقال سريع للاجئ فقير بحيث يتمكن من الهرب من حضيض القاع متجهاً نحو الأعلى.

الكويتيون، وبالتحديد بعض صحافييهم وكتَّابهم، كانوا الأكثر هجوماً عليَّ، خصوصاً بعد غزو الكويت من قبل قوات صدام عام 1990، لأنني اعترضت على التدخل العسكري الأميركي وأردت حلاً عربياً للأزمة، والشيء نفسه واجهته مع الليبيين الذين ثاروا ضد نظام معمر القذافي، فالبذاءة والتجريح الشخصي كانا عنوان المرحلة، والطريف أن فناناً كويتياً مجنَّساً من أصل باكستاني اسمه داود حسين قدَّم «اسكتش» فكاهياً يقلِّد ظهوري في الفضائيات، يصوِّرني أتقاضى أموالاً مقابل مواقفي السياسية. البرنامج لم يكن مضحكاً بل كان سمجاً، وعلمت أن تهجمه عليَّ وآخرين أيضاً كان من أحد أسباب حصوله على الجنسية الكويتية وانتقاله من صفة الـ«بدون» إلى صفة المواطن والله أعلم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون E-BOOK

عبر الصحراء

يجب أن أقرَّ أنه، حين يتعلق الأمر بمهنتي، كنت غالباً شخصاً محظوظاً. من الأمثلة على ذلك قصة كيف نشرت مقالتي الصحافية الأولى. في صيف 1974، رفضت السلطات المصرية تجديد إقامتي. كان عليَّ أن أغادر مصر مع نهاية الشهر أو أتعرض للحبس، لكن لم تكن لديَّ فكرة إلى أين سأذهب. في اليوم قبل الأخير، قصدت صديقاً قديماً وأخبرته عن معضلتي. «هل يمكنك أن تسوق؟» سألني. عندما أكدت له أن لدي رخصة قيادة كاملة وخبرة عملية كذلك، أخبرني قصة غريبة عن رجل أعمال غني استأجر سائقاً ليقود سيارته من العاصمة الليبية، طرابلس، إلى القاهرة ويعود به. لسوء حظه، توفِّي السائق بأزمة قلبية ما سبَّب الكرب لرجل الأعمال الذي تقطَّعت به السبل في العاصمة المصرية. سائق جديد صار مطلوباً الآن. «سأقوم بذلك»، قلت بلا تردد. كان لدي القليل من المتاع وكان ذلك مناسباً لأن السيارة كانت محشوة بأمتعة رجل الأعمال وسائقه السابق. بحقيبة واحدة ولا مال على الإطلاق، انطلقت عبر الصحراء باتجاه ليبيا ونحو مستقبل مجهول.

كان حافظ، صاحب العمل، قصيراً وبديناً واصلع. كان يرتدي قميصاً مشجَّراً يوحي بما هو منعش، لكنه كان غارقاً بعرقه. كان يدخن السيكار بشكل متواصل، نافخاً دخانه في وجهي وهو جالس قبالتي، دون أن أتمكن من الاحتجاج. كان حافظ شخصاً عجولاً وأنانياً تماماً: «ليس هناك أي وقت لنستريح»، قال لي. «عليك أن تسوق بلا توقف حتى نصل إلى هناك».

تبلغ الرحلة من القاهرة إلى طرابلس ما يقارب 2500 كلم، معظمها عبر الصحراء. انطلقنا فجراً وقدت بأسرع ما يمكن للسيارة المتهالكة أن تسرع. كان الطريق يختفي أحياناً تحت الرمال التي تدفعها الرياح المشتدة، وخلال الليل لم تكن هناك أضواء أو إشارات طرق. فوجئنا عدة مرات بثعالب الصحراء التي تعبر الطريق بسرعة، وشاهدنا مرة قطيعاً صغيراً من الغزلان. كانت الأفاعي تنزلق على الرمال، لكن أكثر وحوش الصحراء إرعاباً كانت زملاءنا السائقين، فقد كانت الرمال المحيطة بالطريق تتكشف عن سيارات مهجورة أو محطمة. وقد قرأت لاحقاً إحصاءً يقول إن حوالي 3000 شخص يموتون في حوادث طرق في ليبيا سنوياً علاوة على آلاف الجرحى.

على الحدود الليبية، حقق معنا الحراس واكتشفت أنني ما كان ليسمح لي بالدخول لولا أن حافظ قدم نفسه بصفته كفيلاً. أعطاه ذلك سلطة غير مرحب بها عليَّ حيث إن كلمة واحدة منه كان يمكن أن تؤدي إلى طردي من البلد، لكن لم يكن لدي خيار في هذا الأمر. كان لدي إحساس أيضاً بأن ذلك

سيدفعه للامتناع عن دفع المال لي مقابل خدمتي؛ فلحماقتي لم أكن قد اتفقت معه على مبلغ محدد. كل همي كان المغادرة والبحث عن عمل.

بعد عشرين كيلومتراً من دخولنا ليبيا، سمعت صوت شخير. غرق حافظ في النوم، وأنا، أيضاً، كنت منهكاً. قدتُ السيارة إلى جانب الطريق محاولاً عدم إيقاظ مستعبدي، وانبسطت على المقعد الذي أجلس عليه لأنام قليلاً. استفقنا عند منتصف النهار في حالة تشبه حماماً بخارياً. كانت الشمس الحارقة تصفعنا منذ ساعات فقفزنا فاتحين كل الأبواب على أمل التخفيف من حدتها. كان الطقس في الخارج بحرارة الطقس داخل السيارة من دون أي نسيم أو ملجأ على مد النظر. قال حافظ: «لنذهب، سنترك النوافذ مفتوحة ليدخل الهواء».

عندما أغلقنا أبواب السيارة نظر إليَّ مقطباً وقال:

- «لأي سبب توقفت؟

- لم أرد أن أوقظك، كان الطريق مليئاً بالحفر...

- هممم...

لم يبد عليه الاقتناع لكنه أشعل سيكاراً آخر وفتح قارورة عصير برتقال. وقبل أن ينتهي من إفراغها كلها في جوفه، قام بعد تردد بإعطائي الثمالة المتبقية وقد بدت على وجهه حالة من الورع الاضطراري. شكرته.

عندما وصلنا إلى طرابلس، أوقفت السيارة خارج مكاتب حافظ. بعد كل المحن والتجارب التي عانيناها معاً لم يتكلف بدعوتي إلى الداخل، بل أخذ مفاتيح السيارة من تحت المقود من دون تكلُّف. سحبت حقيبتي من الخلف وأقفل السيارة. «حسناً، مع السلامة عبد الباري»، قال وهو يمدُّ مخالبه اللزجة.

«مع السلامة». صافحت الرجل وابتسمت له مترقباً. رفع البخيل محفظة نقوده من جيب بنطاله الخلفي بانزعاج، وأخرج قطعة عشرة دنانير. قال: «خذ، هذا أكثر مما تستحق، قلت لك أن تسوق من دون توقف لكنني قبضت عليك متلبساً بالنوم أثناء العمل». شعرت بخيبة أمل لأنني كنت مفلساً تماماً. حاولت فتح فمي لأحتجَّ ثم تذكرت ما حصل عند الحدود وقررت أن ألزم الهدوء وأترك مصيري للقدر. «ما شالله»، قلت، من دون أن أخفي السخرية، وألقيت حقيبتي على كتفي وانطلقت نحو المجهول.

كانت ليبيا في ذلك الوقت تعيش حالة من الفوضى السياسية، وكان زعيمها الشاب معمر القذافي يريد أن يصبح عبد الناصر الجديد. كان يتميز بالنزق الثوري، ويريد أن يحرر العالم منِ الإمبريالية العالمية، وقد دعا كل كاره

لأميركا وبريطانيا لزيارة ليبيا، وفتح أبواب بلاده على مصراعيها للثوار العرب، ودعم المقاومة الفلسطينية، والفصائل المتطرفة منها على وجه الخصوص، كما ألغى تأشيرة الدخول للعمال العرب، فتحولت ليبيا وقتها إلى دولة قومية فعلاً تلتقي على أرضها كل الأجناس والألوان. وكان من الطبيعي أن يجد بعض الانتهازيين الثوريين فرصتهم للإثراء السريع أو لتبوُّؤ مناصب العليا. وقد حقق القذافي شعبية كبيرة في ذلك الوقت في أوساط الشباب العربي لصراحته وخطبه النارية الناقدة للاستعمار الغربي، وزاد من هذه الشعبية مظهره الشاب البسيط وتعبيره عن عداء سافر لإسرائيل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

هدية من القذافي

ليبيا، التي كانت تعيش فترة ازدهار نفطي، امتلأت بالعمال الأجانب ما جعل أماكن الإقامة نادرة. نجحتُ في الحصول على مكان رخيص للإقامة، ولكن إضافة للسعر الرخيص الذي تفاوضت عليه في الزقاق الخلفي للفندق، فقد اكتشفت أغرب طريقة لترتيب المنامة قابلتها في حياتي. كان هناك ثمانية فرشات في صف وسنتيمترات قليلة تفصل بين الواحدة والأخرى. الفكرة كانت أن ثمانية وأربعين رجلاً يمكنهم أن يتشاركوا هذا المكان بالاتفاق على النوم لا أكثر من 7 ساعات و57 دقيقة لكل واحد. خلال الدقائق الثلاث لتغيير الدور تشهد وقوف الشخص الأول النائم على الفرشة للذهاب إلى العمل، أو الدراسة أو التجول في الطرقات فيما يتمدد الشخص الثاني على الفرشة التي لا تزال دافئة ليحتلَّ المكان الذي فرغ لتوِّه. يحضر الشخص الثالث بعد 7 ساعات و57 دقيقة وهكذا دواليك. «أنت لا تحتاج للمكان إلا عند النوم»، قالت طبرة، زوجة صاحب الفندق الممتلئة والصغيرة الحجم، شارحة الأمر وهي تتلقى أجرة الأسبوع الأول مقدماً. «لماذا تدفع ما يزيد على حاجتك؟». لم أستطع أن أعارض ذاك المنطق.

كانت طرابلس تتفاخر بصحيفتين فحسب: «البلاغ» و«الفجر الجديد». كلا الصحيفتين كانتا تابعتين للجهة نفسها، المؤسسة العامة للصحافة التي تمولها وتسيطر عليها الحكومة وقائدها العقيد معمر أبو منيار القذافي. كانت صور العقيد معلقة في كل مكان. كانت ثورة القذافي مستلهمة من مصر عبد الناصر لكن القليل من الشبه كان يجمع بين البلدين، بل والرجلين. كانت غالبية السكان (5.7 مليون) من البدو، الذين يرتحلون مع قطعانهم والذين يقيمون في خيم أو بيوت بدائية من الطين، لكن كان هناك أيضاً عدد مهم من المراكز الحضرية على امتداد الشاطئ الشمالي بما فيها طرابلس وبنغازي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت مدينة طرابلس مثالاً ونموذجاً صادقاً لمدن البحر المتوسط، الفيلات بيضاء بنوافذ زرقاء، وعبق الياسمين يفوح من حدائق منازلها بشكل ساحر، خصوصاً في الليل. الكورنيش جميل نظيف، ومحلات البيتزا وعصير البرتقال واللوز تملأ جانبي شارع الاستقلال، الأجمل فيها. التسكع بجوار البحر في الليل كان متعة خاصة بالنسبة إلي. وكم كانت صدمتي كبيرة عندما عدت إلى المدينة بعد عشرين عاماً ووجدتها وقد تحولت إلى مزبلة، وأكوام القمامة باتت من معالمها، أما الكورنيش فكان قذراً، والمباني العشوائية أضافت منظراً منفراً، وكذلك مدن الصفيح العشوائية التي أحاطت بالمدينة الجميلة، فالعقيد القذافي يكنُّ كرهاً غير عادي للمدينة أو للمدنية بشكل عام، وكل ما يهمه كان خيمته وصورته البدوية التي كان يحاول إبرازها أينما ذهب.

حاولت الحصول على عمل بدوام كامل كمحرر في طرابلس لكن أي من الصحيفتين لم توافق على تعييني، وأصدر السيد عمر الحامدي الذي كان رئيساً للمؤسسة في تلك الفترة فرماناً بحفظ طلبي في الأرشيف. شعاع الأمل الوحيد كان دعوة من «البلاغ» لتقديم مقالات أحاسَب فيها على القطعة. أثناء ذلك، وحيث إنني لم أكن قادراً حتى على دفع أجرة «السرير الساخن» في فندق طبرة، انتقلت بشكل مؤقت إلى مدينة غريان في الجبل الغربي، وقدمت طلب لجوء إنساني عند ابن عمي صالح الذي يعمل مدرساً محترماً في إحدى مدارسها الثانوية ويعيش في منزل مع ثلاثة من زملائه.

خلال ذلك الوقت (منتصف السبعينات من القرن الماضي) كانت الولايات المتحدة قلقة من تصاعد قوة ونفوذ رجال الدين الإيرانيين، وكانت تدعم نظام الشاه الذي سيسقط لاحقاً عام 1978. قررت أن أكتب مقالة حول الموضوع واعتبرت نسخة شاهدتها من جريدة «التايمز» تتحدث عن إيران فأل خير، وكان ملحقها مليئاً بالوقائع والأرقام التي أحتاجها لدعم حججي. كان سعر الصحيفة البريطانية، لسوء الحظ، دينارين، وهو بالضبط المبلغ الذي كان معي. قررت أن أستغني عن الأكل معتبراً شراء الجريدة نوعاً من الاستثمار في مستقبلي. قمت ببحثي، وكتبت وأعدت كتابة المقالة بخط يدي، حيث إن امتلاك آلة كاتبة في تلك الأيام كان نوعاً من الرفاهية. لكنني حتى اليوم لا أزال أفضِّل كتابة مقالاتي وافتتاحياتي بيدي.

حين انتهت المقالة بطريقة ترضيني ذهبت إلى مكتب المحرر وسلمته إياها شخصياً. نظر إلى عنوانها وهزَّ رأسه. «لا نستطيع نشر مقالة مثل هذه، سياستنا التحريرية لا تسمح لنا بانتقاد قادة الشرق الأوسط، بغضِّ النظر عمن هم أو ماذا فعلوا». نظرت إليه مكروباً وهو يضع الصفحات التي كتبتها بخط يدي على رفٍّ مرتفع.

عدت إلى الفيلا وغرقت في الإحباط. نادراً ما شعرت بهذا اليأس، وكانت معنوياتي متدهورة إلى درجة أنني ما كنت مهتماً بالخروج من السرير في الصباح. بعد عدة أيام، وبينما أنا أتقلب ناعساً في سريري، جاء ابن عمي راكضاً إلى الغرفة، يتبعه اثنان من أصحابه، وهو يصرخ ويضحك من شدة الإثارة. «قوم قوم يا عكروت!».

قفز صالح، وهو يلوح بنسخة من «البلاغ» قائلاً: «مقالتك في الصفحة الأولى». ظننت أنني أحلم لكنني سحبت نفسي خارج السرير وحملقت في جريدة «التابلويد» التي وضعها تحت أنفي مباشرة. لم أستطع أن أصدق عينيَّ عندما قرأت «لماذا يحتاج الأميركيون للشاه كشرطي للخليج - مقالة للكاتب الكبير عبد الباري عطوان». الكاتب الكبير؟ وقبل أيام قليلة كانت مقالتي قد رُميت

على الرف. عند الغداء، قامت الإذاعة ببث المقالة بكاملها، وفي فترة ما بعد الظهر قام التلفزيون بعرضها ضمن تلخيصه لصحافة اليوم.

ذهبت إلى طرابلس لأعرف ما حصل. رئيس تحرير «البلاغ» سالم والي، وكان يُعتبر من المقربين جداً من الزعيم الليبي معمر القذافي، جاء لتحيتي حالما سمع بأنني في مكتب الاستقبال. «كنا نبحث عنك في كل مكان»، قال وثغره مفترٌّ، وقبَّلني ثلاث مرات بحرارة شديدة وشرح لي ما حدث: «بعد وقت قصير من وضعه مقالتي على الرف، جاء مسؤول من وزارة الإعلام إلى مكتب رئيس التحرير. كان القذافي، على ما يبدو، قد اختلف مع شاه إيران. قال المسؤول: «نريد موضوعات ضد شاه إيران، ماذا لديك؟» قام المحرر بإنزال مقالتي وسلَّمه إياها. أخذ المسؤول المقالة إلى القذافي ليلقي نظرة عليها، وعلى ما يبدو، فقد أعجبته كثيراً. ونتيجة إصراره نُشرت باعتبارها الموضوع الأول للجريدة ونُشر اسم كاتبها تحت وصف «الكاتب الكبير».

بعد هذه المقالة القوية عُرضت عليَّ أربع وظائف، واحدة منها في «البلاغ». قررت أن أبقى معهم بدافع الوفاء، رغم أنهم وضعوا قصتي على الرف في البداية، ورغم أن الأجر الذي عرضوه كان الأقل بين العروض.

لفتت المقالة نظر صديق دراسة قديم اسمه عبد الرحمن شلقم درس معنا الصحافة في جامعة القاهرة، وكان في تلك الفترة سكرتيراً لتحرير مجلة «الوحدة» الشهرية. اتصل بي الصديق شلقم وعرض عليَّ العمل في المجلة بأجر مغر. لكني اعتذرت عن قبول العرض بأدب وتواعدنا على اللقاء وهذا ما حدث.

ترأس الزميل شلقم بعد ذلك صحيفة «الفجر الجديد» المفضلة عند القذافي والناطقة باسمه. ثم أصبح سفيراً فوزيراً للخارجية، إلى أن استقال في شباط/فبراير عام 2011 وانضم إلى الثوار الليبيين.

بعد مرور سنة على وجودي في ليبيا، بدأت أحس بالإحباط نتيجة ضعف الكفاءة المهنية في الصحافة التي تديرها الدولة. كنت أعمل بمشقة لكنني ما كنت أتعلم من رؤسائي الذين ما كانوا، بمعظمهم، صحافيين من حيث المهنة، بل ربحوا مناصبهم من خلال تحالفهم مع الحزب الحاكم. جرى اختراق الصحافة الليبية من عملاء الحكومة، وكان محررو الصحف يعيَّنون بشكل مباشر من وزارة الإعلام أو حتى من القذافي بنفسه. محمد الزوي وزير إعلام الثورة في تلك الفترة، والذي أصبح سفيراً في لندن بعد إعادة العلاقات الدبلوماسية مع بريطانيا عام 2001، كان يزور مكاتبنا باستمرار ويحشر أنفه في كل شيء نفعله. رئيس التحرير، سالم والي، كان عضواً في مجلس قيادة الثورة وصديقاً مقرباً من القذافي الذي كان يزور الجريدة شخصياً عدة مرات

حين كنت هناك، نازلاً من سيارته «الخنفساء» (الفولكسفاغن بيتل) الزرقاء العتيقة. في إحدى المرات، طُلب إلينا أن نرسل الصفحة الأولى كلها إلى خيمة القذافي في قاعدة العزيزية العسكرية ومركز قيادته حيث جرى تغييرها بشكل كامل وأعيدت إلينا للنشر. لم يعلِّق أحد بحرف.

عندما حان الوقت لتجديد عقدي، لم أفاجأ بأن ذلك يتضمن زيارة إلى مكتب المخابرات المركزي. قام ضابطان بالزي العسكري بوضعي على ما يشبه مقلاة من الأسئلة لمعرفة مدى ولائي للثورة، كما أُعلمت بأنه لكي تجري «حماية» وتعزيز القومية العربية يجب أن أكون «مرناً جداً». «ابقَ على تواصل معنا». وقام أحدهما بتوضيح ما يريدان: «أعلمنا إذا لاحظت أي شيء غير اعتيادي، أي انتقاد للدولة، أي شخص يتحدث بطريقة غير ثورية...».

«الواضح أنكم تريدون أن أتجسس لكم على زملائي»، قلت معترضاً، وقررت في تلك اللحظة أن الأفضل لي أن أغادر. عرفت لاحقاً أن هذه كانت ممارسة واسعة الانتشار في الشرق الأوسط وأخبرني أحد الزملاء الصحافيين أنه عندما اشتغل بجريدة يومية مصرية خلال الستينات والسبعينات، كان رئيس التحرير يطلب من مراسليه أن يرسلوا له تقارير «خاصة» عما يحدث في الشوارع. لم تكن تلك مقالات للنشر ولكن لإبقائها في ملفات خاصة وإرسال نسخ منها إلى مسؤولي الحكومة أو الأمن.

لم تطل إقامتي في ليبيا. بعد هذا اللقاء المقزز في دائرة المخابرات مع ذلك الضابط الأحول، قررت المغادرة نهائياً، ولأنه ممنوع على المناضلين الثوريين من أمثالي - حسب تصنيف القادة الليبيين وزعيمهم القذافي وريث عبد الناصر تقديم الاستقالة، لأن ذلك خيانة للأمانة والنضال، أرسلت رسالة إلى شقيقي كمال في السعودية أطلب إليه أن يرسل إليَّ برقية يطلب مني فيها الذهاب فوراً إلى جدة من أجل إتمام الزواج، وتحت هذه الذريعة يمكن أن أحصل على إجازة قصيرة للمغادرة، خصوصاً أنني كنت قد عدت منذ أسبوعين من إجازتي السنوية. ودخلت على رئيس التحرير ومعي البرقية، مستأذناً السفر والحصول على تأشيرة مغادرة، إذ كان يُمنع على الجميع المغادرة من دون تصريح رسمي. اتصلت أيضاً بصديق دراسة قديم اسمه عبد الله أمان عبيد وكان وكيلاً لوزارة الإعلام في الإمارات، وعرضت عليه رغبتي في القدوم والعمل في صحافتهم، ورحَّب كثيراً، فغادرت طرابلس إلى دمشق ومنها إلى أبو ظبي على متن الخطوط الجوية السورية لأنها كانت الأرخص وتقدم تسهيلات وتخفيضات خاصة للصحافيين.

بسبب التدخل الحكومي الواسع الانتشار في صحافة البلدان العربية، يفترض الناس أن أي قصة تُنشر في صحيفة عربية هي قصة مفبركة، أو أن السلطات قد وافقت عليها. ونتيجة هذا الافتراض، فإنني، من دون قصد، سببت بعض

الفوضى في أسواق الأسهم الدولية. عام 1977، كانت منظمة الدول المصدرة للنفط (أوبك) منقسمة إلى جبهتين متعارضتين، يرأس الأولى الأعضاء الراديكاليون مثل الجزائر وليبيا، الذين أرادوا أن يزيدوا سعر النفط بنسبة 10 بالمئة، وفي الجهة الثانية الأعضاء الآخرون الذين تقودهم دول مثل السعودية التي كانت تريد الحد من ارتفاع الأسعار بنسبة 5 بالمئة نتيجة ضغط من الولايات المتحدة الأميركية. الرئيس الفنزويلي، كارلوس أندريس بيريز رودريغيز، الذي كان يتصرف كوسيط بين الطرفين، جاء إلى الرياض في ما يشبه جولة للنوايا الحسنة. كتبت افتتاحية في الجريدة السعودية «المدينة» أحثُّ فيها على الوحدة بين أعضاء أوبك، مبيناً أنه يجب أن يكون هناك اتفاق على مستويات الأسعار. غير أن وكالات الأنباء سارعت لتلقُّف القصة لظنِّها أنها رد الفعل الرسمي للحكومة السعودية على الوساطة الفنزويلية، بالموافقة على رفع الأسعار 10 بالمئة. دخلت الأسواق العالمية في حالة جنونية، ولو كنت مضارباً لأصبحت مليونيراً بين ليلة وضحاها لكنني انتبهت لما حصل بعد فوات الأوان، وعلى أي حال، فإن الصحافة وجمع الملايين نادراً ما يجتمعان في جملة واحدة.

على ذكر النفط، يصعب عليَّ أن أنسى أول مهمة صحافية جرى تكليفي بها خارج ليبيا. في ربيع عام 1975 جاء إليَّ رئيس التحرير حاملاً عرضاً بأن أتوجه إلى الجزائر لتغطية مؤتمر لمنظمة «أوبك»، على أن أكون مترجماً للوفد الليبي المشارك في الوقت نفسه. سعدت بالمهمة لأنها الأولى التي أقوم بها في حياتي المهنية. ذهبنا إلى الجزائر، وواجهت صعوبة في الدخول بسبب وثيقة السفر التي أحملها. وأصر الوفد الليبي على دخولي باعتباري عضواً في الوفد، وقالوا إما أن ندخل جميعاً أو نعود أدراجنا جميعاً، وجرى التوصل إلى تسوية تقضي بدخولي ولكن مع احتفاظ الأمن بوثيقة سفري واستعادتها لاحقاً قبل المغادرة.

في اليوم التالي ذهبنا إلى قاعة الاجتماع في قصر الصنوبر في العاصمة الجزائر للمشاركة في الاجتماع، وكنت فرحاً بصفتي الصحافية والرسمية كعضو وفد ومتحدث باسمه. وزير النفط طلب عقد مؤتمر صحافي قبيل الاجتماع بدقائق، وطلب مني الترجمة. جلسنا على المنصة وعجَّت القاعة بالصحافيين. أخرج الوزير ورقة من جيبه وقرأ ثلاث كلمات «قررنا الانسحاب من المؤتمر». وغادر القاعة إلى المطار ونسيني خلفه، أو بالأحرى تركني لمواجهة الصحافيين، ولم أكن أدري كيف أرد، وعندما أفقت من وقع الصدمة ذهبت إلى وزارة الداخلية لكي أسترد وثيقة سفري فوعدوني خيراً، وبقيت أنتظرها لأكثر من أسبوع، حتى أُفرج عني وعدت إلى طرابلس من دون أن أتمتع بوظيفتي الجديدة كمتحدث رسمي إلا بضع دقائق!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

السعودية

في أواخر العام 1975، قررت ترك ليبيا والانتقال إلى جدة في السعودية حيث كان أخي كمال يقيم مع عائلته. كان كمال قلقاً عليَّ بسبب عملي كصحافي وانشغل بالبحث عن وظيفة مغايرة لأن الصحافة مهنة لا تطعم خبزاً، علاوة على كونها مهنة خطيرة في بلد محافظ مثل المملكة العربية السعودية. قام بترتيب مقابلة عمل مع صديق له كان يعمل في وكالة تجارية لسيارات المرسيدس، حيث يترجم كتيباتهم ووثائق أخرى تهمُّ أصحابها. وشكراً لله أن ذلك الصديق لم يعجبه شكلي وأخبرني، بطريقة أقرب للوقاحة، أن أكون أكثر هنداماً وأناقة وأن أقص شعري. كانت تلك فترة الشعر الطويل وكنت شاباً صغيراً. اعتبرت الأمر إهانة وسبَّاً شخصياً وانسحبت من دون رجعة.

بعد ذلك ساعدني صديق سعودي في الحصول على وظيفة لفترة قصيرة كمعلم خاص لأميرة سعودية صغيرة، ما سمح لي بإطلالة مثيرة على الترف المتباهي داخل قصر أهلها والمساحات الهائلة المبلطة بالرخام الأبيض، وزوَّدني بلمحة عن طريقة الحياة الغريبة والخانقة المفروضة على هذه الصبية المحظوظة ظاهرياً.

كنت في تلك الفترة أكتب مقالاً يومياً مع صورتي في الصحيفة التي أعمل فيها، ويبدو أن الشابة أُعجبت بصاحب الصورة وليس بمضمون المقالات، فطلبت أن أعطيها دروساً باللغة الإنكليزية. وافقتُ على مضض بسبب الحاجة إلى دخل إضافي يساعد إخوتي ووالدتي في القطاع المحتل، فذهبت إلى القصر، وأخذتني خادمة أثيوبية سمراء إلى قاعة كبرى... جلست أنتظر تلميذتي. بعد دقائق أفقت من حلم يقظتي على عاصفة من العطور النفَّاذة الرائحة وسطها صبية في بدايات المراهقة (15 عاماً على ما أعتقد). تعارفنا بشكل مقتضب وبدأت أشرح الدرس، ومرت الجولة الأولى بجدية، ولكن في المرة الثانية بدأ الدرس يأخذ طابع السخونة، فالملابس بدأت تصبح أكثر كشفاً عن بعض المؤهلات، فأدركت أنني على وشك الوقوع في مصيدة خطيرة، فآثرت السلامة والحفاظ على عنقي. وانتهت أول تجربة لي في التدريس بعد حصتين فقط، ولم أعد إلى تلك المهنة حتى هذه اللحظة!

سرعان ما تمكنت من استئناف مسيرتي الصحافية عندما عُرض عليَّ عمل في صحيفة «المدينة». كان محرر الصحيفة في ذلك الحين هو محمد علي حافظ الذي أصبح لاحقاً أحد مؤسسي صحيفة «الشرق الأوسط». كانت عائلته تملك «المدينة» التي كان والده وعمه قد أسساها في المدينة المنورة، ثم انتقلوا لاحقاً إلى جدة. كان صحافياً محترفاً وكانت العلاقة بيننا على ما يرام، لكنه لم يكن مستعداً بعد ليقدم لي وظيفة كاتب مباشرة.

وحيث إنني أتحدث بعض الإنكليزية، قال لي إنه سيمتحنني لوظيفة مترجم وأرسل محرراً سودانياً يدعى سباعي عثمان بهدف اختبار لغتي الإنكليزية وتقرير ما إذا كنت أصلح للمهمة. الأستاذ سباعي قدم لي مجموعة من أوراق مطبوعة من رويترز بالإنكليزية وطلب إليَّ أن أستخرج بعض الأخبار منها. قمت بذلك بشكل جيد وسرعان ما جرى توظيفي كمحرر ومترجم. بعد بعض الوقت، أحضرت لسباعي تقريراً من رويترز لأطلعه على شيء. سألني:

- «ماذا فيها؟».

- «ظننت أنك تتكلم الإنكليزية بطلاقة!» قلت ضاحكاً.

- «لا أعرف حتى كلمة واحدة منها. لعل معرفتي بالصينية أفضل من معرفتي بالإنكليزية»، قال معترفاً.

ذُهلت وتضايقت قليلاً.

- «ولكن كان من المفترض أن تمتحنني بالإنكليزية عندما جئت إلى هنا. كنت سأصبح مترجماً. كيف كنت ستحكم على مقدرتي؟».

- «لقد حصلتَ على الوظيفة بسبب لغتك العربية، وليس بسبب الإنكليزية».

أصبح سباعي عثمان مديراً لتحرير صحيفة «المدينة» وصديقاً عزيزاً. كان شخصاً غير عادي بالنسبة لصحافي في جريدة من حيث إنه كان حساساً وفناناً، وقد كتب عدداً من الروايات الناجحة وكان مغرماً بالأدب. شجعني سباعي على الكتابة الإبداعية وأصبح مسؤولاً في وقت لاحق عن الملحق الأدبي في «المدينة»، حيث نشر عدة قصص قصيرة كتبتها، وكنت مولعاً بهذا النوع الأدبي. عندما ابتعدت بعد سنوات عن فكرة كتابة القصة القصيرة، كتب في عموده بالصحيفة أن تَركي الأدب إلى السياسة خسارة عظيمة. تأثرت بمديحه هذا لكنني لم أقتنع. للأسف فقد خسرنا سباعي في بداية خمسيناته، الذي كان علامة فارقة في الصحافة السعودية الأدبية، واحتضن الكثير من الأدباء الشباب، وكان كائناً ليلياً، يحب العمل في الليل ونوم النهار، وكان يقضي معظم وقته مع الهاتف مغازلاً، فالشيء الوحيد المتاح في ذلك الوقت للاتصال بالجنس الآخر هو الهاتف حيث تتأجج العواطف، وتنسج قصص حب رومانسية. لقد حصل بعد ذلك على الجنسية السعودية وتزوج مدرِّسة في جامعة الملك عبد العزيز في مدينة جدة من أسرة محترمة ولا أعرف ماذا حدث لزوجته وأولاده الذين أعادهم إلى السودان. وقد حزنت كثيراً عندما علمت بوفاته في أوائل التسعينات، حيث نقل إلى المستشفى في حالة من الغيبوبة لم يفق منها مطلقاً. رحمه الله، كان أديباً وإنساناً رائعاً، أدين له بالكثير من الفضل في تعلمي مهنة الصحافة، ولم أندم مطلقاً على تفضيلي

الصحافة السياسية على كتابة القصص والروايات مثلما كان يحثني دائماَ، ويرى فيَّ موهبة أدبية كبرى لم أرها أنا شخصياً.

خلال عملي الصحافي في السعودية عام 1976، عرفت أن ياسر عرفات، قائد منظمة التحرير الفلسطينية، موجود في جدة، ولأنني فلسطيني، فقد كنت أكنُّ إعجاباً كبيراً للرجل الكبير، وقررت أن التقي به، آملاً بالحصول على «سبقي» الصحافي الأول. عرفات والوفد المرافق له جاء إلى المملكة العربية السعودية لأداء العمرة ولقاء المسؤولين. اكتشفت مكان وجودهم واتصلت بهم عبر وسيط لترتيب لقاء. كان الهدف الظاهر للِّقاء الحديث عن الحرب الأهلية اللبنانية، التي كانت في أوجها، والآثار المترتبة على الفلسطينيين بسببها. لكنني كنت آمل بمقابلة شخصية مع عرفات. أمسكت بدفتر ملاحظاتي الذي كتبت فيه كل أسئلتي، وأنا أشعر بالتوتر. كيف كان عرفات، الشخصية الرمز، والأب في عرف الفلسطينيين، سينظر لي، أنا المراسل الصحافي المبتدئ؟ ماذا سأقول له؟ هل سأكون قادراً حتى على الكلام؟

حين وصلت إلى الفيلا التي يقيم فيها في فندق الكندرة، أخبرني حراسه أنه ذهب لأداء مناسك العمرة في مكة وأن عليَّ الانتظار لحين عودته، وأنه في الطريق على أي حال.

هذا جعل أعصابي في وضع أسوأ، وبدأت يدي ترتجف وأنا أشرب كأس الشاي الذي قدمه لي أحدهم. ثم فُتح الباب ودخل عرفات من دون أي رداء باستثناء منشفة بيضاء حول خصره.

كدت أوقع كأس الشاي نتيجة الصدمة - فبدل القائد بثيابه المموهة ومسدس قائد حرب العصابات ظهر شخص قصير، أصلع، بدين، في منتصف العمر. استعدت أنفاسي ثم جلسنا نتباسط ونثرثر لفترة قصيرة. خاب أملي بعد رفض عرفات طلبي إجراء مقابلة معه، ولكن بأدب شديد، واقترح أن يقوم الناطق الإعلامي باسم منظمة التحرير بتزويدي بالمعلومات التي أريدها. ولابد أن الشعور بالخيبة كان واضحاً على وجهي، فقد بدأ يضحك وسألني إن كنت أقبل الحديث مع وزير خارجيته، فاروق القدومي، كبديل عنه. في ذلك الحين، كان القدومي هو الشخص الثالث في منظمة التحرير، فارتفعت معنوياتي من جديد.

بينما كنت اجري المقابلة، لاحظت أن عرفات كان يستمع باهتمام لأسئلتي. بعد نصف ساعة، خرج من المكان وعاد بلباسه الاعتيادي حاملاً جهاز كاميرا بولارويد. التقط عرفات صوراً لي وأنا أتحدث إلى القدومي، وحين انتهينا، أعطاني إياها وقال، «هاك، كما ترى، لقد كنت مصورك الخاص اليوم. ما الذي

يمكن أن تطلبه أكثر من ذلك؟ قائد منظمة التحرير الفلسطينية يلتقط صوراً للصحافي الشاب الموهوب عبد الباري عطوان». طلبت صورة لي معه، وفي هذه المرة نال القدومي شرف التقاطها. حين كتبت مقالتي، أدخلت كل تلك التفاصيل وشهد نشرها نجاحاً باهراً. لم يكن هناك تقليد من هذا النوع يسمح بإدخال هذا «اللون» من القصص في الصحف العربية، قمت بذلك بتثبيت علامتي المسجلة. وكان لي أن أقابل عرفات بعد ذلك مرات كثيرة، وقد خصصت في هذا الكتاب قسماً كاملاً لذكرياتي معه.

الحياة في السعودية قدمت القليل من المشاغل بالنسبة لشاب صغير عازب مثلي. لكن الشيء الأكثر إثارة الذي حصل في مكاتبنا في «المدينة» كان زيارة من سيدة تلبس الجينز من تكساس تدعى ماري راندولف انتقلت مؤخراً مع زوجها إلى جدة. سبب زيارتها كان فقدان كلبها العزيز من نوع «يوركشاير تيريير»، جيميني. أرادت ماري نشر إعلان يكافئ من يعيده إليها. لم تكن السيدة راندولف السيدة الأولى التي تضع قدماً في تلك المكاتب المأهولة كلياً بالرجال فحسب، بل كان شغفها بكلبها جيميني شيئاً لا يمكن فهمه بتاتاً بالنسبة لزملائي السعوديين. أحسست ببعض التعاطف، لأنني كنت أملك كلباً في طفولتي، لكن الكلاب في السعودية كانت تعتبر نوعاً من الخطر على الصحة العامة، لا حيوانات يمكن استئناسها وتدليلها. كانت الكلاب في السعودية تمضي معظم أوقاتها تنبش في أكوام القمامة، وتتقاتل في ما بينها، وعلى الأغلب، يمكن أن تصيب الشخص الذي تعضه بداء الكلب. الأسوأ من ذلك أن الكلاب تُعتبر نجاسة بالنسبة للمسلمين الملتزمين والذين يغسلون أيديهم بالطين أو التراب سبع مرات لو لمس أحدهم كلباً.

دخول السيدة ماري إلى مبنى جريدة «المدينة» كان حدثاً تاريخياً بكل المقاييس، ليس فقط بسبب بنطالها الملتصق بجسدها، ولا بالقميص الصيفي الخفيف الذي يكشف معظم صدرها العامر جداً، ولا بلون شعرها الأحمر Ginger غير المألوف، وإنما أيضاً لأن الشباب والكهول في مبنى الصحيفة عاشوا حالة من الإثارة الفضولية غير المسبوقة، وتدافعوا نحوها في مظاهرة وكأن إنساناً من كوكب آخر هبط علينا. فمن النادر رؤية النساء سافرات في السعودية، والشرطة الإسلامية (المطوِّعة) تلسع بخيزراناتها كل من تكشف وجهها، هذا إذا لم تُقد إلى المخفر، فالوجه النسائي الوحيد الحاسر الذي رأيته في جدة هو وجه ابنة عمي وزوجة أخي فقط.

كانت المهمة الأصعب بالنسبة لي أن أشرح للسيدة ماري عدم قدرة صحيفتنا على نشر إعلانها الغريب لأسباب دينية وثقافية وأخلاقية، لأن نشر إعلان عن فقدان كلب سيفجر ثورة في بلد لا يعرف الثورات من أي نوع. وسيجد رئيس

التحرير المسؤول نفسه في السجن أو مطروداً من عمله مجللاً بالعار ولعنات المؤسسة الدينية.

قسم الإعلانات في الصحيفة رفض مناقشة الموضوع من الأساس وأشار لي رئيسه بأن أصرفها «بالتي هي أحسن». قالها وهو يمعن النظر فيها من قمة رأسها إلى أسفل قدميها.

السيدة ماري كانت تتحرق شوقاً لعودة كلبها العزيز الذي لا تستطيع النوم من دونه، وأنا أتصبب عرقاً لأنني لا أعرف كيف أخرج من هذا المأزق الذي أوقعتني فيه معرفتي باللغة الإنكليزية. قلت لها صراحة إننا لا نستطيع نشر الإعلان مهما كان الثمن بسبب الاختلاف في الثقافات، فأشعلت السيدة ماري أول فصل في حرب صدام الحضارات عندما هددت بالشكوى للسفير الأميركي عن هذا التصرف الأخرق من قبلي ومن قبل صحيفتي.

لا أعرف ما إذا كان كلب السيدة ماري قد خلق أزمة دبلوماسية بين السعودية وأميركا، لكن ما أعرفه وما أنا متأكد منه هو أنها لن تعثر على كلبها المدلل المترف، فإما أن تكون قد دهسته سيارة أو أكلته الكلاب الأخرى الضالة، وما أكثرها في السعودية في ذلك الحين.

في معظم أنحاء العالم تنحصر مهام السفارات والسفراء في أعمال التجسس وفتح آفاق تجارية واقتصادية لبلدانها، لكن السفارات الأجنبية في جدة غرب المملكة العربية السعودية كانت لها، وقبل أن تنتقل لاحقاً إلى الرياض، مهام أخرى أبرزها الإكثار من الحفلات الدبلوماسية لتقديم الخمور للمدعوين «الليبراليين» من السعوديين والعرب الوافدين. وكان هناك تفرقة عنصرية مثلما علمت من أحد أقاربي العاملين في إحداها، في التعاطي مع المدعوين. فالخمور الجيدة، والويسكي الرفيع بشكل خاص، كان لكبار المدعوين، والعادي منه كان مخصصاً للأقل أهمية والزوار المتطفلين الدائمين على هذه الحفلات.

السفير الدنماركي في المملكة في ذلك الوقت (منتصف السبعينات) أضاف مهمة أخرى لمهام السفارات في جدة، وهي تنظيم حفلات للشاذين جنسياً باعتباره كان واحداً منهم مثلما علمت من مصادري الخاصة، فقد كان يقيم حفلات في بيته ويدعو إليها شاذين وأحياناً أناساً عاديين وتستمر حتى الصباح.

الشرطة الدينية في السعودية بدأت تغضب وتضغط على الحكومة السعودية لاتخاذ إجراء لوقف هذا المنكر لأنها لا تستطيع الاقتراب من السفارات والسفراء في ممارستها لمهامها في نشر الفضيلة ومحاربة الرذيلة. وزارة الخارجية طلبت من الحكومة الدنماركية سحب سفيرها هذا فوراً، وعندما استفسرت الخارجية عن الأسباب قيل لها إنه شاذ جنسياً وهذا يتعارض مع

أخلاق المملكة وتقاليدها وشرائعها الدينية. الحكومة الدنماركية ردَّت بأن هذا حق شخصي ولا يستطيعون سحب سفير بسبب ميوله الجنسية وإلا لانهارت الحكومة، وأصرُّوا على بقائه حتى انتهاء مدته وكان لهم ما أرادوا.

الطريف أن الحكومة السعودية تغيرت وفق تغيرات العالم وأصبحت تستقبل رؤساء وزراء ووزراء خارجية أوروبيين شاذين جنسياً ومعهم عشاقهم، ولا تستطيع الاعتراض. بل إنها كانت تعرف أن هناك شارعاً في جدة اسمه شارع الغرام غرب الحمراء يجري فيه لقاء الشواذ جنسياً عصر كل يوم ويذهب إليه رجال الأعمال والدبلوماسيون الغربيون لاصطياد ضحاياهم، برغبتهم طبعاً... الزمن يتغير وكذلك الحكومات.

خلال ذلك الوقت حظيت صحيفة «المدينة» بمحرر جديد، متحمس ومهني يدعى أحمد محمود. كان شخصاً جاداً في عمله، يصل إلى المكاتب في السابعة صباحاً ونادراً ما يعود إلى بيته قبل منتصف الليل. حسَّن محمود مستوى الصحيفة وازداد التوزيع خمسة أضعاف خلال فترة سنتين من رئاسته للتحرير. وبسبب عدم وجود حياة اجتماعية يمكن الحديث عنها، وجدت نفسي أعمل ساعات مشابهة لساعات رئيس التحرير وقاد التزامي وحماسي بسرعة إلى ترقيتي وإلى راتب أفضل. سرعان ما كوفئت بحصولي على زاويتي الخاصة... مع صورتي في الأعلى، الأمر الذي كان يطمح إليه كل صحافي عربي تلك الأيام. أصبحت كتاباتي معروفة بسبب طبيعة شخصيتي، ونقدي وأسلوبي الصريح، وهو أمر كان نادراً في الصحافة السعودية ذات الطبيعة المحافظة، وعلمت لاحقاً أنها كانت تشكل تنغيصاً لحياة وزير الإعلام السعودي، الدكتور محمد عبده اليماني. «كنت ممزقاً»، قال لي حين التقينا في لندن. «كنت أستمتع كثيراً بعمودك وكان الشيء الأول الذي أفتح صفحات الجرائد عليه حين تصلني نسخ منها في الصباح، لكنني كنت قلقاً كل الوقت، أتساءل متى ستصلني مكالمة من العائلة المالكة تأمرني بترحيلك من البلد!».

كان لدي إحساس جميل دائماً في ما يتعلق بصحيفة «المدينة»، لكونها أهلتني بتجربة قيمة وقدمت فرصاً في وقت حرج من حياتي المهنية، وقد حزنت كثيراً حين اكتشفت أن صحيفتي القديمة تلك انضمت لحملة التشهير ضدي عام 2002، والتي ذكرتها سابقاً.

أيامي في صحيفة «المدينة» كانت مليئة بالحماسة، فقد أحدث تعيين أحمد محمود رئيساً للتحرير عاصفة من المنافسة المهنية، وحفَّز الرغبة لدى الجميع، باستثناء الحرس القديم، بالنجاح، وعملت مع نخبة من المحررين والكتَّاب من أمثال علي خالد الغامدي ومحمد الفايدي وعبد العزيز شرقي ومحمد صادق دياب وسليم هلالي وسباعي عثمان والصديق العزيز سعيد فالح الغامدي. استحدثنا زاوية يومية اسمها «رحلة الأيام»، كانت عبارة عنِ

يوميات تنشر على الصفحة الأخيرة التي كنت أنا أحد كتَّابها، وحققتْ نجاحاً كبيراً لجرأتها وتميزها وطرافتها.

سعيد فالح الغامدي كان إنساناً عصامياً فقيراً معدماً، عمل معنا بوضع «غير متفرغ»، وكان مدرساً، واستطاع أن يكمل دراسته حتى حصل على الدكتوراه في علم الاجتماع. كان متمرداً في انتقاداته للسلطة، ومن أطرف الأشياء أنه قرر أن يؤسس مدرسة خاصة أصرَّ على تسميتها «مدارس الحجاز» فتأخر قرار منحه الترخيص، وعندما سأل قالوا له إن المشكلة في الاسم وطلبوا إليه تغييره لأنه يعكس توجهاً مناطقياً، فأصر على الاسم وقال: «لماذا تكون هناك مدارس خاصة تحمل اسم نجد ولا يحق لي أن أطلق اسم الحجاز على مدرستي؟». جواب أفحم وزير التربية والتعليم، وأجبره على تلبية الطلب. «مدارس الحجاز» هي الأضخم في منطقة جدة، وأصبح صديقي سعيد فالح الغامدي مليونيراً وانقطعت أخباره عني بسبب الفارق الطبقي ومعارضتي لبعض السياسات السعودية!

على الرغم من أنني كنت سعيداً بوظيفتي وبإنجازي، فقد وجدت الصحافة السعودية خانقة. سرعان ما اكتشفتني صحيفة «الشرق الأوسط»، وهي صحيفة توزع في البلدان العربية، وذات طموح واسع، وأغراني عرض منها بالذهاب إلى لندن.

كانت الخطة أن نصدر الصحيفة في لندن عام 1978، وأن تُطبع في وقت واحد في اثنتي عشرة مدينة في أربع قارات. كنت معجباً برئيس تحرير الصحيفة، جهاد الخازن، الذي كان وراء بعض أهم المشاريع المثيرة للاهتمام في عالم النشر في العالم العربي في ذلك الحين، ومنها «العرب نيوز»، أول صحيفة يومية ناطقة بالإنكليزية في منطقة السعودية. حين سمع أن لديَّ بعض التحفظات طلب إليَّ الحضور لمقابلته. قال مفتتحاً الحديث: «عبد الباري، إلى أن تتغير ظروفك، نصيحتي لك هي: أن تكون لاجئاً دائماً في لندن أفضل من أن تبقى في جدة».

وحيث إنني لم أكن مقتنعاً بعد، ذهبت إلى الصحافي الفلسطيني المخضرم، يوسف صلاح. نشأ يوسف في ظل الانتداب البريطاني وكان، مثل الأرستقراطيين الإنكليز، يلبس بذة من ثلاث قطع وحذاء مصقولاً تميز بارتدائه الإسكتلنديون والأيرلنديون، وشعره مصبوغ ناعم مصفف إلى الخلف على وجه ناعم الملامح. أخبرته عن عرض العمل فضحك وقال: «عبد الباري، هذا خبر جيد لدرجة أنه صعب التصديق». وضع صلاح الأمر في سياق سياسي، مشيراً إلى أن أغلب البلدان العربية منعت الصحف المصرية التي أصبحت بوقا للرئيس المصري أنور السادات وأصدقائه الجدد، أميركا وإسرائيل، بعد زيارتهِ إلى القدس المحتلة؛ «هناك حاجة لصوت «معتدل» جديد»، قال

شارحاً. «هناك فراغ في السوق وفي حرب المعلومات». الواضح أن تعابير وجهي بدت محبطة لأن يوسف ربَّت على يدي وقال: «فليكن. ستحصل على راتب جيد وهي فرصة للذهاب إلى لندن. يمكنك أن تحصل على درجة ماجستير ودكتوراه هناك أيضاً. نصيحتي لك أن تذهب وأن تعطي الأمر فرصة».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صحيفة «الشرق الأوسط»

التحقت بالعمل في صحيفة «الشرق الأوسط» رسمياً اعتباراً من شهر مارس/آذار 1978. وصلت لندن في يوم شتوي قارس قادماً من جدة. ذهبت من المطار مباشرة إلى مكاتب الصحيفة في شارع فليت ستريت الذي كان يُعرف في ذلك الوقت بـ«شارع الصحافة»، حيث استقبلني الأستاذ جهاد الخازن رئيس التحرير هاشاً باشاً وأخبرني أن الشركة استأجرت لنا بيتاً للإقامة بشكل مؤقت. وكان في البيت الزميل الصديق عرفان نظام الدين الذي قلت إنه سيصبح مديراً لتحرير الصحيفة، وكذلك الزميل عادل الأحمر وهو شاب لبناني متدين من الضاحية الجنوبية في بيروت.

وجدت نفسي غريباً في الصحيفة، فالغالبية الساحقة من الزملاء المحررين جاؤوا من صحيفة «الحياة» التي توقفت عن الصدور بسبب الحرب الأهلية اللبنانية التي اندلعت في منتصف السبعينات. الصحيفة كانت يمينية محافظة، وصاحبها الراحل كامل مروة كان معادياً للرئيس جمال عبد الناصر ومن مؤيدي حلف بغداد، ويتبنى السياسة السعودية المحافظة.

بدأت أسرة الصحيفة تلتئم، وبدأ الزملاء يتوافدون من بيروت على وجه الخصوص، وكنت أنا الوحيد القادم من المملكة العربية السعودية، واعتقدت أن هذه ستكون ميزة لصالحي، فقد كان السيد محمد علي حافظ، أحد الناشرين، يعرف قدراتي المهنية جيداً، فقد عملت معه عندما تولى رئاسة تحرير صحيفة «المدينة» وكان هو شخصياً وراء التعاقد معي، وأراد أن أنقل عمودي اليومي إلى الصحيفة الجديدة «الشرق الأوسط» للاستفادة من انتشاره ونجاحه، الأمر الذي أثلج صدري.

بعض الزملاء المصريين تعاقدوا مع الصحيفة أيضاً، منهم حسن فؤاد القادم من «الأهرام» وكذلك حافظ قباني. وباتت هناك مدرستان متصارعتان داخل الصحيفة، واحدة لبنانية غالبة، وأخرى مصرية، وُضعتُ أنا وسط الاثنتين، فلا اللبنانية قبلت بانتمائي إليها رغم فلسطينيتي أو شاميتي، ولا المصرية اعترفت بي رغم أنني خريج جامعة القاهرة.

بدأ صدور الصحيفة رسمياً في الرابع من تموز/يوليو 1978، وهو يوم عيد الاستقلال الأميركي، ولا أعرف ما إذا كان اختيار هذا الموعد صدفة أو أمراً مقصوداً، لكنه لم يكن يوماً سعيداً بالنسبة إليَّ على أي حال. وبدأت أشعر أنني شخص غير مرغوب فيه بسبب يساريتي الواضحة، وبدأت أسمع همسات تتردد في أوساط الصحيفة بالحذر مني وضرورة التدقيق في كتاباتي ومراجعتها بشكل جيد قبل النشر. وجرت محاولات متعمدة لشطب الكثير من المواد، وتزيين تقاريري بالحبر الأحمر من كثرة التصحيحات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مسيرة من أجل فلسطين، 1979

هذه التصحيحات والتدخلات المتعمدة في تقاريري للتقليل من شأني من قبل من كنت أعتقد عند ذلك أنهم أقل مني خبرة وكفاءة ضايقتني كثيراً، وأشعرتني بالدونية، وبلغ غضبي ذروته، وكنت انفعالياً جداً في أحد الأيام حين وجدت بعض الفتيات في قسم الصف والطباعة يتغامزن بسبب ما اعتبرنه عدم إجادتي الكتابة وكثرة التصحيحات في أحد تقاريري، فشعرت بالإهانة، وخصوصاً أن إحداهن كانت ممن رشَّحتهن للزواج، وكانت جميلة وطيبة ومهذبة.

اقتحمت مكتب الأستاذ جهاد الخازن غاضباً، وقلت له: «هل هو المحيط الأطلسي أو الأطلنطي؟»، بصوت أدرك منه أن في الأمر مشكلة، فطلب إليّ أن أهدأ بعد أن شاهد وجهي في قمة الاحمرار، وعينيَّ تكادان تخرجان من محجريهما. قلت له: أجبني من فضلك فوراً. قال: «الاسمان صحيحان». سألت مرة أخرى: «ماذا تريدني أن أفعل؟ كتبتها «الأطلسي» فشطبوها ووضعوا مكانها «الأطلنطي»، كتبت «الأطلنطي» فكتبوا مكانها «الأطلسي»، هل هي محاولة لإذلالي وإظهار جهلي، أو ماذا؟».

المفاجأة الكبرى جاءت عندما أبلغني رئيس التحرير الأستاذ الخازن بأنهم قرروا أن أحرر صفحة الرياضة، باعتباري هاوياً لكرة القدم، ولا أحد غيري يمكن أن يقوم بهذه المهمة، وأحسست بأنها محاولة لإبعادي من قسم تحرير الأخبار العربية، وربما كان إحساسي في غير محله، لكن المقدمات السيئة عمقت لدي هذا الإحساس. قبلت المهمة شريطة أن تكون مؤقتة أولاً، وأن أستمر في العمل في قسم الشؤون العربية ثانياً. وقد قبلوا بشروطي على مضض.

الأستاذ هشام علي حافظ الناشر الثاني والقوي لم يكن يكنُّ لي أي ود على الإطلاق، بسبب يساريتي، وعلمت بعد ذلك أنه كان مديراً لمكتب السيد كمال أدهم رئيس جهاز المخابرات العامة السعودي، ويبطن كرهاً يبلغ درجة الحقد للرئيس الراحل جمال عبد الناصر، وهذا لم يساعد قضيتي في الصحيفة على الإطلاق. وقد بذلت جهداً كبيراً لتحييده، وتخفيض حقده، حيث حرصت أن أزوره في مكتبه مع شقيقه محمد علي حافظ في جدة في كل مرة أزورها، لكن هذه المحاولات باءت بالفشل.

اكتشفت لاحقاً أن أحد أهداف إصدار الصحيفة هو تسويق سياسات الرئيس السادات المؤيدة للسلام مع إسرائيل، وأن السيد كمال أدهم هو الذي يقف خلف المشروع الصحافي هذا، كما يهدف إلى ملء الفراغ الناجم عن غياب الصحافة المصرية عن الأسواق العربية بعد صدور قرار عن القمة العربية

التي انعقدت في بغداد بمقاطعة مصر ورئيسها السادات بعد زيارته للقدس المحتلة وخطابه أمام الكنيست الإسرائيلي.

سوء حالتي النفسية، بسبب الصراع في داخلي وعدم الرضا عن ظروف العمل وسياسة الصحيفة المتناقضة مع قناعاتي في ذلك الوقت، وصل إلى ذروته عندما بدأ السيد مصطفى أمين وهو كاتب مصري كبير ومؤسس صحيفة «أخبار اليوم» المصرية الشهيرة، يتردد على مقر الصحيفة، ويكتب مقالات فيها. فالسيد أمين كان من أشد المعادين للرئيس عبد الناصر وجرى اتهامه وسجنه بتهمة العمالة لوكالة المخابرات المركزية (سي آي إيه) ولم يُفرج عنه ويُرد الاعتبار إليه إلا بعد وفاة عبد الناصر وتولي السادات سدة الحكم، وتردد أن هنري كيسنجر وزير الخارجية الأميركي حينذاك هو الذي طلب من السادات هذا الإفراج كشرط لبدء المباحثات لاستعادة العلاقات المصرية الأميركية المقطوعة في تلك الفترة، حيث ظلت مصر في عهد الرئيس عبد الناصر شديدة العداء لأميركا بسبب دعمها لحروب إسرائيل ضد العرب واغتصابها لأرض فلسطين، وتشكل حليفاً استراتيجياً للاتحاد السوفياتي والكتلة الاشتراكية، وهي سياسة تخلى عنها الرئيس السادات كلياً.

حاولت قدر الإمكان التركيز على عملي المهني، وأكثر على المقابلات الصحافية و«الخبطات» الإخبارية، وساعدني على ذلك طموحي الصحافي، وإعفائي من تحرير صفحة الرياضة بعد تولي هذه المهمة الزميل أياد أبو شقرا الذي تعاقدت معه الصحيفة لهذا الغرض. نشاطي الصحافي هذا لفت الكثير من الزملاء خصوصاً أن قصصي كانت تُنشر على الصفحة الأولى، وأحياناً تكون المانشيت الرئيسي.

في أحد الأيام، جاءني الأستاذ جهاد الخازن وقال لي إن شخصاً مهماً معجب بتقاريرك الإخبارية ونشاطك الصحافي المتميز ويريد أن يتعرف عليك، وقد قررت أن أدعوك إلى الغداء وأدعوه أيضاً، حتى يتم التعارف. سألت الأستاذ الخازن عن اسم هذا المعجب الذي يريد أن يتعرف عليَّ، فقال إنه الأستاذ الكبير مصطفى أمين، فشعرت بالصدمة. كيف أجلس إلى مائدة الغداء مع شخص يؤمن بمواقف سياسية نقيضة لقناعاتي، ويكره الزعيم الراحل جمال عبد الناصر؟ رفضت الدعوة بغضب وانفعال، وفشلتْ جهود رئيس التحرير في تغيير قناعاتي هذه، ومن المؤكد أن حقد الناشر هشام علي حافظ الذي كان صديقاً لمصطفى علي أمين قد زاد تجاهي بسبب هذه الإهانة من قبلي لأستاذه ومعلمه ومثله الأعلى، ولهذا لم أحصل على أي ترقية، ولم أتقلد أي منصب في المؤسسة. ووصل به الحقد درجة حرماني من جائزة «أفضل عمل صحافي» قرر رؤساء تحرير المؤسسة منحها لي في الاجتماع السنوي

وقيمتها عشرة آلاف جنيه إسترليني كنت في حاجة ماسة لها لمساعدة أسرتي وتهيئة عش الزوجية، فقد كنت في تلك الفترة أفكر في الزواج.

كانت صحيفة «الشرق الأوسط» نقطة تحول بالغة في مسيرة الصحافة العربية عند صدورها، فقد أسست لصحافة «بان آراب»، أي الصحافة التي تخاطب العرب جميعاً، على عكس الصحافة المحلية التي كانت تخاطب القارئ في بلدان الصدور فقط. ولأن ميزانيتها كانت ضخمة، فقد تعاقدت مع أفضل المحررين وفتحت مكاتب في معظم الدول العربية، واختارت أفضل المراسلين، واستكتبت أهم الكتَّاب العرب النجوم مثل ميشال أبو جودة، وناصر الدين النشاشيبي، وغسان تويني، وصلاح حافظ والقائمة تطول.

العاهل السعودي الملك فهد بن عبد العزيز تولى الحكم مكان شقيقه الملك خالد الذي توفَّاه الله بأزمة قلبية. وكان هو الحاكم الفعلي للمملكة عندما كان ولياً للعهد. الملك فهد لم يكنَّ أي ودٍّ للسيد كمال أدهم رئيس الاستخبارات، ولم يكن مفاجئاً اشتراطه تنازله عن ملكية مؤسسة «الشرق الأوسط» مقابل دعم المشروع مالياً والسماح للصحيفة بالطباعة والتوزيع المباشر داخل المملكة، وقد حدث ما طلب وجرى تحويل ملكية الصحيفة للأمير سلمان بن عبد العزيز أمير الرياض، والمعروف بثقافته الواسعة وعلاقاته القوية بالإعلام العربي ورجالاته.

حققت صحيفة «الشرق الأوسط» نجاحاً كبيراً وذاع صيتها في البلاد العربية، وبات الزعماء يتوقون للإدلاء بأحاديث صحافية لها، خصوصاً الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات الذي أدرك أهميتها ونفوذها، وحرص على توثيق علاقته بها، وبي شخصياً بسبب إشرافي على تغطية الحدث الفلسطيني الذي كان الحدث الأهم في ذلك الوقت. وسأتناول بعض هذه الجوانب في الفصل الخاص الذي خصصته للحديث عن الرئيس عرفات.

علاقاتي بدأت تتوتر داخل الصحيفة مع رؤسائي خصوصاً، ومع بعض الزملاء، ربما نتيجة المنافسة الشديدة والغيرة المهنية، وربما أيضاً لأنني كنت متطرفاً ونزقاً في آرائي ومواقفي، ولا أتسامح مع من يختلفون معي في الرأي. وأذكر أنني اشتريت بذة جديدة وربطة عنق، وحذاء جديداً، وذهبت إلى الصحيفة في قمة أناقتي، الأمر الذي أذهل رئيس التحرير جهاد الخازن، وقال متعجباً: ماذا حدث لك؟ هذه المرة الأولى التي أراك فيها إنساناً متحضراً أو لورداً إنكليزياً! قلت له إن الأمر، وببساطة شديدة، أنني لاحظت أن نجاحي المهني وخبطاتي الصحافية الجيدة لم تعجبكم فلعل تغيير مظهري وأناقتي يحسِّنان من حظوظي لديكم!

سأعرض للجوانب الاجتماعية والثقافية لانتقالي إلى لندن في فصل لاحق؛ أما بالنسبة لسيرتي المهنية، فقد كانت مضطربة بعض الشيء. كان أجري في «الشرق الأوسط» ممتازاً كما استمتعت في البداية ببيئة العمل.

نتيجة النزاع اليومي في العمل تقريباً، وتضخُّم الإحساس بأنني مضطهد وشخص غير مرغوب بوجوده، بدأت أشعر بالضغط وبدأ وضعي الصحي بالتدهور. انخفض وزني وبدأت أعاني آلاماً مبرحة في معدتي. شخَّص طبيبي الأمر على أنه قرحة اثنا عشرية سرعان ما انفجرت بعد أيام قليلة. نُقلت إلى المستشفى في سيارة إسعاف، شبه مغمى عليَّ، متألماً من نزيف داخلي: أدركت عندها أنني غير قادر على الاستمرار في وضعي المهني هذا. فدخلت إلى مكتب رئيس التحرير حاملاً استقالتي بيدي ووضعتها على مكتبه، فأصيب بالدهشة، وحاول أن يغيِّر رأيي، وقدَّم لي إغراءات مالية عديدة، بل وذهب إلى ما هو أبعد من ذلك، وعرض عليَّ إجازة مفتوحة ومدفوعة لمدة شهرين، ومهمات سفر إلى أي مكان أريد الذهاب إليه، لكني رفضت جميع هذه العروض، وتمسكت باستقالتي لأنني لم أعد قادراً على الاستمرار في العمل في مناخ لا يلائمني. وجاءت القشة التي قصمت ظهر البعير بكتابة الناشر هشام حافظ مقالاً في صفحة الرأي هاجم فيه القومية العربية، بل والعرب جميعاً، وتفاخر بجدته التركية، ومقولتها الشهيرة «عرب خيانات».

مرة أخرى، وجدت نفسي في المكان الصحيح والوقت الصحيح، فصحيفتي القديمة، «المدينة»، قررت فتح مكتب في لندن وطلبوا مني أن أرأسه. خلال أسابيع أصبحت مدير نفسي وحامل اللقب الخطير، «مدير مكتب لندن». وجدت مكتباً في الطابق الخامس من مركز الصحافة العالمي، وهو بناء حديث للمكاتب في شو لين، قرب فليت ستريت، واشتريت جهاز هاتف، وفاكس، وطابعة كهربائية لم أستعملها ولا مرة. نشرت إعلاناً في صحيفة «الغارديان» أطلب فيه مساعِدة شخصية، مشيراً إلى الحاجة لشخص لديه تدريب صحافي، وفوجئت بالحصول على 3000 رد، معظمها من متخرجين بدرجات جيدة.

كان مركز الصحافة العالمي مقراً لعدد من المنظمات المرموقة: في الطابق الذي تحتي كان مكتب لندن لصحيفة «نيويورك تايمز»، الذي كانت ترأسه هيذر برادلي، وهي أميركية في الأربعينات من عمرها تلبس ثياباً سلطوية. كان المصعد يفتح مباشرة على مكاتبها وأتذكر مرة مجموعة من المجاهدين الأفغان يلبسون الجلابيب والعمائم وبلحى طويلة جاءوا لأقوم بالحوار معهم لكنهم اتجهوا خطأً إلى «نيويورك تايمز» في الطابق الرابع. واحد من هؤلاء، صبغة الله مجددي، أصبح رئيساً مؤقتاً لأفغانستان لاحقاً. أعاد ذكر القصة

ضاحكاً مشيراً إلى الحيرة التي أصابت الطرفين والتي تحولت إلى دعابة، ثم إلى عرض لشرب القهوة فمرافقة للوفد إلى الطابق الصحيح.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

صوت أميرة

منصبي الجديد منحني إمكانية أن أختار القصص التي أريد نشرها وأن أسافر كثيراً لأحضر كل الأحداث السياسية المهمة في العالم العربي، والغربي، وفي بعض الأحيان مشاهدة التاريخ وهو يصنع. في قمة الجامعة العربية في تونس في تشرين الثاني/نوفمبر 1979، على سبيل المثال، كان لقائي الأول مع الشخص الذي سيصبح الشوكة التي تخز الخاصرة الأميركية: صدام حسين. كنت واقفاً مع صحافيين آخرين خارج فندق هيلتون مكان انعقاد المؤتمر حين خرج صدام من سيارة ليموزين سوداء. كان قد أصبح رئيساً منذ فترة قصيرة بعد استقالة أحمد حسن البكر في تموز/يوليو، غير أنه سار بغطرسة محاطاً بحراس أمنه وحاشية من أتباعه؛ تجاهلنا كلية فيما قام أغلب القادة (خصوصاً الذين حصلوا على مناصبهم حديثاً) ببعض الجهد للتأثير في وسائل الإعلام. في الواقع، كان لدى الأغلبية من هؤلاء الذين مروا بعض اللباقة فقاموا بتحيتنا ومصافحتنا ومجاملتنا. وبسبب فضولي تبعت حاشية صدام الضخمة إلى مركز المؤتمر.

أعتقد أنني كنت الصحافي الوحيد الذي شهد ما حصل بعد ذلك: فيما هو يدخل بهو الفندق، تقدم ابن الرئيس التونسي آنذاك، الحبيب بورقيبة، والذي كان يدعى الحبيب الابن أيضاً، وتوجه وابتسامة واسعة على فمه نحو صدام ليحيِّيه. فهم حراس صدام تلك البادرة الدبلوماسية بطريقة خاطئة، فلأنهم لم يعرفوا ابن الرئيس التونسي اعتبروا الحبيب سيئ الحظ خطر اغتيال محتملاً، فهاجموه كلهم، ولووا يديه خلف ظهره ودفعوه بقوة نحو الحائط. تدخل المسؤولون التونسيون ووضعوا حداً لهذا الشجار المحرج. بعد أن تعرف حراس صدام على هوية ضحيتهم، سمحوا للحبيب المنزعج والذي هزَّه الموقف بالوقوف مع رئيسهم. لكن أمله بالحصول على اعتذار كان خاطئاً. تفحصه صدام من فوق لتحت كما لو كان هو الذي تعرض للمضايقة بإيقافه عن التوجه نحو هدفه. لم ينتج من تلك الحادثة أثر وهذا دليل على دبلوماسية الحبيب بورقيبة وسعة صدره وصبره على العرب وهو الرجل الحكيم. أكثر من ذلك، لقد بيَّنت الحادثة حقيقة أن صدام كان قادراً على توليد الخوف بين الزعماء الآخرين.

اعتدت الحصول على بعض اللمحات عن صدام في تلك الأيام الأولى لرئاسته من ياسر عرفات. في اللقاءات الخاصة، وقبل أن يصبح رئيساً بشكل رسمي، كان صدام يوجه التهديدات فعلياً. لقد اتهم عرفات وقادة منظمة التحرير بشكل صريح برعاية المعارضة المحتملة للنظام البعثي، وقد غضب كثيراً من استقبال منظمة التحرير الفلسطينية للمنشقين العراقيين.

مع نهاية السبعينات، شكّل صدام روابط قوية مع مجموعات معارضة لمنظمة التحرير، مثل حركة أبو نضال (المجلس الثوري)، والتي كان لها قاعدة في بغداد في ذلك الوقت. شكَّ عرفات، وأعتقد أنه كان محقاً، في أن أجهزة مخابرات صدام كانت متورطة في اغتيال ممثلي منظمة التحرير في لندن وبروكسل وباريس وروما ومدريد عام 1978، وبأنها تعاونت مع «المجلس الثوري» في هذا الأمر. كانت لدى عرفات أسباب وجيهة ليحتاط من صدام حسين، وهذا يمكن أن يفسر، جزئياً، دعمه للعراق عندما اندلعت الحرب مع إيران عام 1980.

مثل معظم المراسلين، انتسبتُ إلى منظمة الصحافيين الأجانب التي مقرها في مكان ممتاز قريب من حيٍّ «مول» Mall وفيها أكثر من 700 عضو. اعتدت الذهاب إلى هناك من وقت لآخر لتبادل الآراء مع الأعضاء الآخرين من كل أنحاء العالم. في الأيام الأولى كنت محبطاً من فشلي في الحصول على أي مقابلات مع كبار وزراء الحكومة وكنت أتذمر من ذلك يوماً وأنا أتناول الغداء مع رئيس مكتب لندن للصحيفة الإيطالية «لا ريببليكا».

قال مؤكداً، فيما يتناول طعامه: «سوف تحصل على مقابلة حين يحتاجون شيئاً منك. سجل كلامي هذا».

عام 1980 ثبتت لدي صحة هذا الكلام حين قامت قناة «آي تي في» البريطانية ببث دراما عنوانها «موت أميرة». كان الفيلم عملاً درامياً عن أحداث حقيقية حصلت في السعودية بعد إعدام أميرة صبية مع حبيبها بشكل علني بسبب الزنا وبعد ذلك الزواج من حبيبها الذي كان من عامة الشعب، وهو أمر محظور في عرف العائلة المالكة السعودية. وكان والدها هو الأمير محمد بن عبد العزيز الذي كان يسمَّى بأبي الشرَّين لشدة بأسه. أجرى الصحافي الذي أنجز الفيلم، أنتوني توماس، مقابلات مع سعوديين عبَّروا عن مشاعر الإحباط التي تتملكهم من النظام القمعي المحافظ الذي يعيشون فيه. هاجت هائجة النظام السعودي وهدد بفرض حظر تجاري على بريطانيا لائماً حكومة مارغريت ثاتشر للسماح بعرض هذا الفيلم على شاشة التلفزيون. باعتباري رئيس مكتب صحيفة سعودية رئيسية، اعتُبرتُ مخلباً هاماً في لعبة الشطرنج الدبلوماسية الدائرة وعُرضت عليَّ مقابلة حصرية مع دوغلاس هيرد، وزير الخارجية البريطاني في ذلك الحين.

متجاهلاً، بلطف، أسئلتي حول السياسة الخارجية في الشرق الأوسط، وفلسطين على وجه الخصوص، تحدث دوغلاس هيرد مطولاً عن احترامه للسعوديين معبراً عن أسفه الشديد للتدهور الحاصل في العلاقات. قام هيرد بحثِّ الشعب السعودي على فهم طبيعة الاختلافات الثقافية والسياسية بين البلدين، وحيث إن الإعلام ليس تحت سيطرة الدولة في بريطانيا، فقد شدد

على أن الحكومة ليس لها دور في ما يُبث. قمت بإرسال كل هذا، وقرأه الأشخاص المناسبون. بطريقتي الصغيرة، قمت بتحجيم النزاع الحاصل بسبب الحادث الذي اعتبر ذا أهمية تاريخية في ما بعد إلى حد أنه تمت الإشارة إليه في مسلسل كوميدي يدعى «نعم سيدي الوزير» حين يتحدث همفري عن «أسوأ أزمة منذ موت أميرة».

بعد سنتين من ذلك، دعيتُ إلى مقابلة مارغريت ثاتشر مع اثنين من الصحافيين العرب. مرة أخرى، كانت هناك أسباب دبلوماسية لهذه المعاملة المميزة: كانت ثاتشر على وشك التوسط في الصفقة السيئة السمعة، «اليمامة»، بين شركة «بي آي إي سيستمز» BAE Systems (وسلفها، شركة بريتيش آيروسبيس) والسعودية، تعادل قيمتها 45 مليار جنيه إسترليني (75 مليار دولار). كنت، بطبيعة الحال، متلهفا لرؤية «10، داوننغ ستريت» مقرِّ رئاسة الوزراء من الداخل، ومقابلة «السيدة الحديدية» الشهيرة. لم تكن هناك حواجز حول داوننغ ستريت في ذلك الحين، وكان بإمكانك أن تسوق سيارتك نحو الرقم 10 من دون أن تواجه أي عناصر أمنية باستثناء شرطي واحد واقف عند الباب. فتحت إحدى السكرتيرات الباب ورافقتني إلى مدخل القاعة، التي لم تكن غرفة مؤثرة بالنسبة لأي شخص زار قصراً سعودياً. بعد ثوان معدودات، كنا في مكتب السيدة ثاتشر. كانت بانتظارنا وصافحتنا واحداً بعد الآخر. بدت لي أطول مما توقعت، بعينين زرقاوين لماعتين ونظرة حادة، تخترق الشخص، كل ذلك مع جو عام يوحي بالقوة المعنوية والنفسية. ولو كان لي أن أتحدث الصدق، فقد كنت خائفاً منها بعض الشيء.

كنت معارضاً لسياسات مارغريت ثاتشر وتوقعت بعض العداء تجاهي لكنها، على العكس، عاملتني والآخرين بطريقة مريحة، حيث أخذتنا في جولة في الرقم 10. كانت الفعالية كلها مخططاً لها بعناية مع غياب مخيِّب لأي حدث مسلٍّ. كنت آمل أن أقابل دنيس ثاتشر، زوج رئيسة الوزراء الذي كان يتم تصويره دائماً في الإعلام بشكل تعيس، لكنه لم يظهر ولم أتجرأ على السؤال عن مكان وجوده.

خلال المقابلة، تداورنا على الأسئلة التي كان قد دُقِّق بها سلفاً وتمت الإجابة عنها بشكل جدي ولهجة رسمية. بعد ذلك تناولنا الشاي والبسكويت وحضر المصور الرسمي لحزب المحافظين لالتقاط بعض الصور. وفيما كنا واقفين لأخذ الصور مرَّرت لثاتشر بعض المعلومات غير الاعتيادية، قلت لها: «الملك السعودي فهد كتب قصيدة عنك، هل سمعت عنها؟» هزَّت رأسها، وهي تنظر إلى الكاميرا. «هو يعتبرك امرأة كاملة الأوصاف. كان معجباً بجمالك ويتغزل بك».

فوجئت ثاتشر لدرجة أنها وجهت لي ابتسامة لطيفة. قام المصور بالتقاط الصور بحماسة لكنها لوحت بيدها بشدة لتقول «أعد الصورة» ووقفت متجهمة أمام الكاميرا. قررت ثاتشر أن الصورة ليست للنشر، ورغم إلحاحي لم أحصل على نسخة منها. الأمر الوحيد الذي نجحت في استخراجه من السيدة ثاتشر كان تلك الابتسامة التي لم يسمح لي بتوثيق مصوَّر لها.

وظيفة «رئيس مكتب صحافي» في لندن، التي كانت حلمي، وصلت إلى نهاية غير متوقعة بعد أقل من سنتين، حين وقع أحمد محمود، رئيس تحرير «المدينة»، الذي أصبح صديقاً جيداً لي في ذلك الوقت، في متاعب نتيجة مقالة حول الرئيس السوري حافظ الأسد. عام 1984، أحد صحافيي الجريدة كتب مقالة يزعم فيها حصول انقلاب عسكري قاده رفعت الأسد قائد سرايا الدفاع وشقيق الرئيس بينما كان الأسد في المشفى بعد عارض صحي خطير تعرض له.

لسوء حظ هذا الصحافي اللبناني، واسمه كمال سنُّو، وحظ أحمد محمود، استعاد الأسد صحته واشتكى لمقربين منه في العائلة المالكة السعودية من المادة ومن انعدام مصداقية محررها. صُرف الشخصان وعيِّن رئيس تحرير جديد، حمزة أبو الفرج، وهو شخص لم أكن على وفاق معه، مكان أحمد محمود. فقد كان رئيس التحرير الجديد فظاً جاهلاً متصابياً ويعتبر نفسه أديباً، وقد أدى تعيينه إلى انخفاض التوزيع بشكل كبير ووصل الخلاف معه إلى الذروة عندما طلب إليَّ أن أوظف سكرتيرة معينة لأسباب عرفتها لاحقاً عندما جاءت لمقابلتي بأمر منه. ولذلك قررت الاستقالة من منصبي.

عدت إلى حظيرة «الشرق الأوسط» كمحرر للشؤون العربية. وجاءت المبادرة من الزميل الصديق عرفان نظام الدين الذين عُيِّن رئيساً لتحرير الصحيفة وأراد تطويرها بالتعاقد مع بعض المحررين، وعندما علم باستقالتي من منصبي كمدير لمكتب صحيفة «المدينة»، ألحَّ عليَّ بأن أنضم مجدداً إلى الصحيفة، وقد قبلت العرض خصوصاً أنني كنت حديث الزواج، بل حرفياً في شهر العسل، فقد بدأت مشاكلي المهنية منذ اليوم الأول لزواجي، إنه سوء الحظ، وهكذا قبلت العرض رغم أنه أقل من إمكانياتي، فقد كنت أريد منصب مدير التحرير لكن الناشر رفض.

الصديق عثمان العمير كان له فضل كبير في كسر «الفيتو» الذي كان يفرضه الناشر هشام حافظ على تقليدي أي منصب تحريري في مؤسسة الشرق الأوسط، وعندما تولى رئاسة تحرير مجلة «المجلة» في آذار/مارس عام 1984، أصر على أن أنضم إليه كمدير تحرير، وكان شعلة نشاط، ونجح في تطوير «المجلة» وزيادة توزيعها بشكل لافت، بالمقارنة مع ما كانت عليه أيام تولي الزميل عماد الدين أديب رِئاسة تحريرها. وكان العمير صلباً في مواقفه

في مواجهة الإدارة والرقابة معاً، وأوفدني أكثر من مرة في مهام صحافية خطيرة إلى اليمن الجنوبي خصوصاً أثناء الحرب الأهلية عام 1986 عندما حاول الرئيس في تلك الفترة علي ناصر محمد تصفية زملائه في المكتب السياسي للحزب الاشتراكي اليمني. الخبر اليمني كان مقروءاً في السعودية حيث يوجد مليون مغترب يمني. وأحد أعداد «المجلة» عن محاكمة الشخص الذي قام بإطلاق النار على أعضاء المكتب السياسي جرى طبعه مرتين، وكانت المرة الأولى في تاريخ «المجلة» التي تعاد فيها طباعتها مرتين لنفاد الطبعة الأولى في ساعات.

بعد أربع سنوات ترك الزميل العمير مجلة «المجلة» إلى صحيفة «الشرق الأوسط» التي عمل فيها رئيساً للتحرير خلفاً للزميل عرفان نظام الدين. وبعد ستة أشهر طلبني للعمل معه كمدير للتحرير مجدداً، لكن إقامتي لم تطل بسبب خلافات مهنية وسياسية وصلت فيها الأمور إلى ذروتها في 14 أيار/مايو 1988 حين كانت الانتفاضة الفلسطينية، التي راح ضحيتها ما يقارب 1200 فلسطيني، قد وصلت إلى نقطتها القصوى. كان هناك الكثير من القتلى في ذلك اليوم بالذات، ووصلتني صور مرعبة عن الأعمال الوحشية الإسرائيلية والتي أردت أن أضعها في الصفحة الأولى. في ذلك اليوم بالذات فاز فريق «ويمبلدون» اللندني بكأس الاتحاد الإنكليزي، وقرر رئيس التحرير، عثمان العمير، أن يضع هذه القصة بدلاً من تلك، وهو أمر أثار استيائي الشديد.

قال: «لقد أعطانا أملاً كلنا. لقد هزموا ليفربول - مثل مواجهة داود لغوليات».

المفارقة الساخرة التي فاتت العمير أن قصة داود وغوليات كانت تجري حقيقة في «انتفاضة الحجارة»، كما كانت تسمى، لأن الحجارة كانت كل ما لدى الفلسطينيين ليقاتلوا بها قوة جيوش إسرائيل. العمير كان ولا زال صديقاً مقرباً لي. في داخلي، كنت قد استقلت في تلك اللحظة والمكان، لكنني غادرت الصحيفة للأبد يوم 14 أيلول/سبتمبر 1988.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5. تجربة صحافية مريرة

عندما سلمت كتاب استقالتي من «الشرق الأوسط» كنت متزوجاً ولي طفلان وعلى عاتقي دفعات شهرية كبيرة لتسديد قرض شراء المنزل. لكنني قررت ألا أتسرَّع باختيار عملي التالي. وصلني عرض جديد من جميل مروة، رئيس تحرير صحيفة «الحياة» الذي كان قد انتقل منذ مدة قصيرة إلى لندن، لكنني أردت أن أعمل بشكل مستقل، وكنت أفكر بتأسيس مطبوعة أسبوعية باللغة العربية تشبه مجلة «سبيكتيتور» البريطانية. كان هدفي الأساسي في ذلك الوقت أن أصنع شيئاً جديداً يمكن أن يحقق تأثيراً حقيقياً في عالم النشر العربي.

جميل مروة هو الابن الأكبر لكامل مروة مؤسس صحيفة «الحياة» في لبنان، كان والده من أقرب حلفاء السعودية، ومن أشد المعارضين للرئيس الراحل جمال عبد الناصر، وصحيفة «الحياة» في عهده كانت يمينية محافظة. وقيل إنه اغتيل بسبب مواقفه هذه. كان جميل مختلفاً كثيراً عن والده. شاب ليبرالي متحمس لديه أفكار مهنية عديدة، وكان صديقاً لي في فترة أواخر السبعينات عندما وصلت إلى لندن. لديه على الدوام مشاريع إعلامية متميزة، ويتمتع بتعليم غربي راق للغاية. عندما قرر إصدار صحيفة «الحياة» مجدداً اتصل بي، وكنت أعمل في آنذاك مديراً لتحرير مجلة «المجلة»، وعرض عليَّ العمل معه في الصحيفة الجديدة كرئيس تحرير تنفيذي. لم أتحمس للعرض لأنني أردت أن أبتعد تماماً عن الإعلام السعودي. كما أنني شعرت بأن الخط السياسي للصحيفة قد يكون متناقضاً مع خطي بعد أن علمت أن الأمير خالد بن سلطان نجل وزير الدفاع السعودي هو ناشر الصحيفة. ولمست أيضاً نوعاً من التنافس بين جميل مروة رئيس التحرير وجهاد الخازن رئيس مجلس الإدارة. وأحسست أن الخازن كان لا يريدني أن أعمل في الصحيفة ولا أن أكون قريباً من مروة. التنافس بين الاثنين حُسم لمصلحة جهاد الخازن، فهو إنسان ماهر ذو أعصاب حديدية، وقدرة غير عادية على الصبر وحسم المعارك لصالحه، مستنداً في ذلك على خبرة كبيرة جداً في كيفية التعاطي مع السعوديين وأمرائهم على وجه الخصوص.

علمت أن الأمير خالد بن سلطان قرر شراء جميع أسهم «الحياة»، ومنح آل مروة مبلغاً من المال مقابل تنازلهم عن حقوقهم القانونية كملاك لها، وهكذا خرج جميل مروة مكرهاً ربما من الصحيفة التي أسسها. وجرى تعيين جهاد الخازن رئيساً للتحرير مكانه.

صحيفة «الحياة» قدمت نموذجاً فريداً ومتميزاً في الصحافة العربية الليبرالية المهاجرة، واستطاعت بحكم ميزانيتها الضخمة (أبلغني عبد الكريم أبو النصر رئيس تحرير مجلة «الوسط» التي كانت تصدر عن المؤسسة أن ميزانية الصحيفة كانت 30 مليون جنيه إسترليني سنوياً، حيث كان أبو النصر عضواً في مجلس الإدارة). استطاعت توظيف نسبة كبيرة من الكفاءات الإعلامية العربية، وبرواتب عالية جداً، كما استكتبت نخبة من خيرة الكتَّاب والمراسلين، وأصبحت بحق أفضل صحيفة عربية من نوعها، حيث حرص جميل مروة أن يقتبس نموذج صحيفتَي نيويورك تايمز وواشنطن بوست الأميركيتين، إذ زارهما وقضى فترة فيهما للتعرف على تجربتيهما، وقد نجح في ذلك، وواصل الخازن السير على النهج نفسه، مع إضافة الكثير من خبرته العملية إلى المشروع، ونجحت الصحيفة في آنذاك نجاحاً كبيراً.

الأمير خالد بن سلطان أصدر الصحيفة لهدف سياسي داخلي أولاً وعربي ثانياً. فقد كان يريد أن يجد لنفسه أداة للنفوذ داخل الأسرة الحاكمة، بعد أن أطاح به العاهل السعودي الملك فهد بن عبد العزيز من منصبه كرئيس لهيئة أركان الجيش السعودي، بعد فترة قصيرة من حرب الكويت. تضاربت الروايات حول أسباب هذه الإطاحة؛ تحدث بعضها عن أخطاء ارتكبها الأمير خالد أثناء الحرب، مثل السماح لقوات عراقية بالدخول إلى المملكة (بلغ تعدادها 40 ألفاً تمركزت في منطقة رفحة في الصحراء السعودية) وقالت روايات أخرى إن بروز الأمير خالد العسكري كقائد للقوات السعودية أثار غيرة العديد من الأمراء الآخرين وحفيظتهم.

على أي حال، نجحت خطته في إصدار «الحياة»، إلى جانب أمور أخرى في استعادته لمكانته، واصبح مساعداً لوزير الدفاع، ويقال إنه الأبرز لخلافة والده في منصب وزير الدفاع في حال وفاته.

الأمير خالد شخصية جذابة وقد التقيت به مرة على مائدة غداء دعا إليها صديقه باسل عقل وهو شخصية فلسطينية سياسية معروفة، وكان مقرباً من ياسر عرفات، وعضواً في المجلسين الوطني والمركزي الفلسطينيين. المأدبة كانت في منزل السيد عقل. دار حوار بيني وبين الأمير خالد. الرجل كان قمة في التهذيب ويملك كمَّاً هائلاً من المعلومات والقدرة التحليلية. وعلمت لاحقاً أنه كان معجباً بتجربة «القدس العربي»، وقدرتها على منافسة صحيفته رغم تواضع إمكاناتها المالية. وعلمت أيضاً أنه كان يعيِّر الزملاء في صحيفة «الحياة» كيف أن صحيفة فقيرة مالياً، وبعدد قليل من المحررين استطاعت منافستهم... والله أعلم.

في تشرين الأول/أكتوبر 1988، سافرت إلى الجزائر لحضور اجتماع المجلس الوطني الفلسطيني. خلال إحدى الاستراحات، تقدم إليَّ وليد أبو الزلف، الابن

الأوسط لعائلة أسست واحدة من أقدم الصحف فلسطينية، صحيفة «القدس» التي كانت تصدر في المدينة المقدسة، وسأل إن كان يستطيع الحديث معي. أخبرني وليد أن العائلة تريد نشر طبعة دولية من الجريدة ودخل معي في تفاصيل خططها لصحيفة على النطاق العربي، يومية ومستقلة.

قلت له: «هذه أخبار جيدة! أرجو أن يتحقق ذلك قريباً، إن شاء الله».

ربَّتُّ على كتفه فيما كنت أتحرك للذهاب. ردَّ عليَّ قائلاً: «عبد الباري، نريد لهذه الجريدة أن تتأسس في لندن».

- «ممتاز. سوف تحظى بحرية تحريرية أكبر بالتأكيد من الشرق الأوسط. لكن لندن مكلفة جداً.

- ... ونريدك أنت أن تكون رئيس التحرير!».

قالها مقاطعاً، وقد بدا عليه الغضب من عدم ملاحظتي إلى أين يتجه هذا الحديث.

رغم أنني أخذت بعض الوقت لإعطاء قراري النهائي، فإنني عرفت منذ البداية أن هذا عرض لا أستطيع رفضه. وجود صوت إعلامي حر يدعى «القدس العربي» كان أمراً شجاعاً، جديداً، وقد طال انتظاره. رغم أن الميزانية المتوافرة لهذه المغامرة التي لم يسبق لها مثيل - أن تسمى الصحيفة «القدس العربي» - ضئيلة، فإن الطموح والتفاؤل والإيمان عناصر متوفرة بقوة. كانت هناك فرصة للنجاح، لكنني لاحظت أيضاً إمكانية كبيرة للفشل.

كانت هناك بالفعل ثلاث صحف عربية راسخة تعمل في لندن (بعد أن تراجع دور بيروت الإعلامي). اثنتان منها كانتا هناك منذ 1977: الصحيفة التي كنت أعمل فيها، «الشرق الأوسط»، التي يملكها الأمير فيصل بن سلمان، ابن حاكم الرياض، و«العرب»، التي يملكها وزير إعلام ليبي سابق، أحمد الهوني. انضمت «الحياة»، والتي توقفت عن الصدور في بيروت عام 1976 نتيجة الحرب الأهلية، إلى هاتين عام 1988، ويملكها الأمير خالد بن سلطان، رئيس هيئة أركان الجيش وابن وزير الدفاع السعودي.

سيطرت هذه الصحف على الإعلام العربي في لندن. كانت مموَّلة بسخاء، وجُهزت مكاتبها في مبان كبرى، وكانت قادرة على تكليف أهم الكتَّاب وفرق الإنتاج. مقارنة مع هؤلاء العمالقة، جاءت «القدس العربي» إلى العالم كجنين خديج وُلد قبل أوانه. معظم من يعملون في الإعلام العربي اعتقدوا أنها ستتوقف عن الصدور بعد عدة أشهر من النضال الشجاع. وقد علَّل المشككون في استمرارها، بحق، كما اتضح في ما بعد، أن الكتَّاب الكبار لن

يتركوا وظائفهم ذات الأجور المجزية للانضمام إلى هذا المشروع المغامر. ليس ذلك فحسب، فمن الناحية السياسية، إن أي صحافي ينضم لمطبوعة شديدة الانتقاد للأنظمة العربية يخاطر بعدم العمل مرة أخرى.

خطتي، مع ذلك، لم تتطلب كتَّاباً مرتفعي الأجور، أو من ذوي الخبرة والمشهورين. أردت من الجريدة أن تكون لديها شخصيتها المستقلة الخاصة وأسلوبها، وأفضل طريقة لفعل ذلك هي العمل مع صحافيين شبان طموحين يتدربون أثناء العمل على أيدي مجموعة صحافية أكثر حنكة. بهذه الطريقة كان بإمكاننا، بشكل عضوي وجماعي، تطوير صوت وأخلاقيات للصحيفة، من خلال عملية شحذ خبرات الكتَّاب الجدد.

أسست مقرَّاً لـ«القدس العربي» في طابق رث من بناية للمكاتب في منطقة همرسميث حيث لا نزل موجودين. «الحياة» كانت الصحيفة العربية الأولى، وعلى الأرجح واحدة من أولى الصحف في العالم في استخدام الكومبيوترات للإخراج والتصميم. وقد رأيت أن هذه الطريقة ليست الأسرع والأكثر كفاءة فحسب، بل أقل تكلفة بكثير من طرق التنضيد التقليدية فتبنينا هذه التقنية منذ البداية. جمعنا عدداً من الكمبيوترات من مراحل مختلفة القدم، وكانت مؤجرة من شركة للكمبيوتر، فلم نملك المال لشرائها، وعانينا من مشاكل «التوافق» اللانهائية بسبب المزيج الخطر من كمبيوترات آبل ماك مع كمبيوترات «بي سي» في مكاتبنا.

في البداية، كان كامل الفريق، من المحررين إلى موظفة الاستقبال، يتألف من ثمانية عشر شخصاً، وحتى اليوم، عددنا عشرون. حصلت محاولات إغراء عدد من أعضاء الفريق الأول - غالبا من دون نجاح - من قبل الصحف المنافسة التي عرضت عليهم رواتب أعلى بكثير. في عام 1991، قامت حكومة المنفى الكويتية بتأسيس صحيفة في لندن سمَّتها «صوت الكويت» استطاعت اصطياد ثلاثة من المصممين الأربعة لدينا. هؤلاء الشبان الصغار كانوا رائدين في مجال تصميم وإخراج المطبوعات إلكترونياً، ولم يكن إيجاد بدلاء عنهم سهلاً. كان علينا أن نكافح لإخراج الصحيفة بمصمم واحد، كافح بدوره لتدريب شخصين آخرين فيما كان يشرف على كل شيء وحده. انهارت المطبوعة الكويتية بعد سبعة أشهر، وعاد الفارُّون من العمل إلينا مع الكثير من الاعتذار. «السبب كان المال»، قال واحد منهم، بصراحة واستقامة. «اللعنة على بئر النفط الكويتي المؤقت!»، قال الآخر. أعدتهم إلى العمل وفجأة صارت عندنا وفرة في المصممين.

بالنسبة لي، كانت الصفة الأهم في العمل والصداقة هي الإخلاص والاحترام والعفو. في صحف عربية أخرى، كان اقتطاع أجور الموظفين أو توقيفهم عن العمل أمراً اعتيادياً. من ناحيتي، وعندما أواجه مشكلة، أعالجها بطريقة

هادئة، وجهاً لوجه، مع الشخص وبشكل خصوصي في مكتبي. أقوم بأدب بشرح الخطأ الذي حصل من وجهة نظري وعادة ما يتم القبول بوجهة نظري وتصحيح الخطأ الحاصل.

كانت مسيرة الصحيفة محفوفة بالمصاعب منذ لحظة ولادتها كفكرة. كنا جاهزين لبدء الإنتاج بعد ثلاثة أشهر من موافقتي على ترؤس المشروع لكنني واجهت متاعب جديدة على جبهتَي الطباعة والتوزيع. ألغت «الشرق الأوسط» اتفاقها معنا في الساعة الأخيرة، قائلين إنهم لا يعتقدون أننا قادرون على الوفاء بالتزاماتنا المادية. كانوا محقين! وجرى إنقاذنا على يد توم جونسون، وهو زميل سابق، لإيمانه بمشروعنا؛ وكان قد أسس حديثاً شركة تدعى «نيوزفاكس» وكان يطبع الطبعة الدولية من «هيرالد تريبيون». من ناحية التوزيع، كان إبراهيم سويداني، صاحب شركة «كويك مارش»، مستعداً لتحمل المخاطرة وتقديم الائتمان المالي لنا.

ولا أزال مَديناً للاثنين بالكثير من العرفان، وخصوصاً إبراهيم سويداني مدير عام شركة كويك مارش للتوزيع والشحن فقد صبر عليَّ كثيراً، حتى إن ديوني الصحافية تفاقمت لدرجة كبيرة جداً، ووصلت إلى أرقام خيالية (حوالي 800 ألف جنيه إسترليني في بعض المرات). ولأن السيد سويداني كان يعمل في شركة مملوكة لصحيفة «الحياة»، والأمير خالد بن سلطان، فإن وضعه كان حرجاً، وكان يخشى الفصل بسبب ديون شركته المتفاقمة، خصوصاً أنها كانت تشحن صحيفتنا إلى مختلف أنحاء العالم. توم جونسون رئيس مجلس إدارة شركة الطباعة لم يستطع الصبر، وقد تقدم إلى المجلة بطلب إعلان إفلاس صحيفتنا بضغط من شركائه، وقد نجحنا بصعوبة في منع صدور حكم بالإغلاق.

أنتجنا ثلاثة أعداد «صفر» كنوع من التجربة وأُصبنا بخيبة أمل من كل شيء في تلك الأعداد، لكن بسبب كوننا شباباً ومتحمسين، قررنا أن نبدأ على أي حال. يوم 26 نيسان/أبريل 1989، ظهرت الطبعة الأولى عصراً بدلاً من الصبح، وكانت مليئة بالأخطاء، لكننا كنا سعداء لأن الجنين وُلد أخيراً. الأعداد الأولى من الجريدة كانت ضعيفة بكل شيء ومضت الأعداد من دون أن يلحظها أحد، باستثناء أولئك الذين تمنوا سقوطنا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

مشاكل في التوزيع

عندما غزا صدام حسين الكويت، كانت «القدس العربي» من الصحف القليلة في الشرق الأوسط التي اتخذت موقفاً نقدياً من الولايات المتحدة، وأظهرت غضبها من تواجد نصف مليون جندي أجنبي على الأراضي السعودية. قمنا بكشف أجندة أميركا الخفية لتوسيع هيمنتها في المنطقة وربطنا بين هذه الطموحات وبين النفط. نتيجة ذلك، مُنعنا من معظم دول الخليج ومصر وسورية، وتراجع توزيعنا بشكل كبير، ورغم أن التوزيع كان يتزايد في أوروبا فإن مصاعبنا المالية استمرت.

قام ياسر عرفات بإنقاذنا عدة مرات لكنه هو نفسه كان مفلساً بعد أن وُضع على القائمة السوداء من قبل دول الخليج التي اتهمته بالانحياز لصدام حسين. إيرادات الإعلانات هي شريان «الحياة» في أي صحيفة، ويمكن استخدامها أيضاً كشكل من أشكال الرقابة السرية؛ وبما أن معظم الإعلانات الثمينة في «القدس العربي» كانت من شركات الخليج، فقد بدأت بعد ذلك بمنعها عنا.

في أحد الأيام، جاء رجل قصير يرتدي معطفاً إلى مكاتبنا برفقة رجل طويل يلبس قميصاً بأكمام مرفوعة ولم يتحدثا بشيء لكنهما أخذا ينظران بلامبالاة. «أبو المعطف» أخبرني أنه مأمور تحصيل ديون وأنه جاء لتقييم «ممتلكاتنا». كانت أصولنا عبارة عن عدة أجهزة كمبيوتر قديمة ومجموعة من فناجين القهوة المتكسرة؛ «أبو القميص» بدا غير مرتاح أبداً لما رأى.

هذا الزوج صارا جزءاً من الديكور، ترسلهما المحاكم للحصول على قيمة فواتير من إيجار المكتب وحتى القرطاسية.

جاءتني وفود من الحكومتين السعودية والكويتية بعروض لمساعدتنا بملايين الجنيهات، مقابل تغيير المواقف السياسية في الصحيفة. بالطبع رفضت ذلك. في مناسبة أخرى، قامت شركة علاقات عامة بريطانية تمثل الحكومة الكويتية في المنفى بدعوتي إلى غداء مع مدير البنك المركزي في الكويت «لمناقشة قضية تهم الطرفين». رفضت الدعوة لكنني احتفظت بالرسالة كتذكار.

في تلك الأثناء، كنا في مرحلة أزمة. شركة النقل رفضت شحن الصحيفة بسبب التأخر الكبير في دفعاتنا ولعدة أسابيع كنا نوزع في لندن فحسب. قمت بعقد اجتماع للعاملين في الصحيفة وشرحت الوضعية لهم، من دون أن أخفي أي شيء، وطالباً أن يزودوني بأي أفكار تخرجنا من المأزق. بعد نقاش

لمدة نصف ساعة، أحدهم، ولا أتذكر من هو الآن، قال: «اسمع، هل نريد لهذه الصحيفة أن تستمر؟».

«نعم». جاء الجواب بالإجماع.

تابع صاحب الروح الشجاعة: «هناك طريقة واحدة. علينا جميعاً أن نقتطع جزءاً من رواتبنا. أستاذ عطوان، كم هو الاقتطاع الذي سيسمح بعدم إقفال الجريدة؟».

تشاورت مع المحاسبة، بات ساندرام. سألت: «هل نتحدث عن الجميع؟».

لم يجب أحد بشيء. أجابت بات: «كلنا». وقامت بإدخال بعض الأرقام في الحاسبة. هزَّت رأسها وأعلنت: «يجب أن يكون 50 بالمئة».

قلت: «نصف الراتب. كم شخصاً منكم مستعد للعمل بظروف شاقة أكثر حتى لإنتاج صحيفة أفضل مقابل نصف ما يحصل عليه حالياً؟».

لدهشتي ارتفعت كل الأيدي في الغرفة وصاح الجميع موافقين على الخطة. كانت لحظة مؤثرة ولاحظت أن عينَي بات، أيضاً، لمعتا بالدموع.

تمكنَّا بالتدريج من إعادة السفينة إلى الإبحار. وتزايد توزيعنا في البلدان التي لم نمنع فيها باستمرار، والعديد من دائنينا كانوا صبورين وداعمين لنا، وقد واصلوا ذلك حتى اليوم. «نيوزفاكس» قامت حتى بإلغاء بعض ديوننا وهو أمر يدفعني للامتنان الشديد. رغم ذلك، فقد مرت سبعة أشهر تقريباً قبل أن يستعيد الموظفون أجرهم الكامل، وأنا متأكد من أن العديد من التضحيات الشخصية قد حصلت خلال تلك الفترة.

لم يكن أحد يعلم ذلك آنذاك، لكن زميلتي سناء العالول مديرة التحرير، وكذلك أنا وبات ساندرام، لم نتلقَّ أجوراً لمدة أربعة شهور، أما زميلي الآخر أمجد ناصر، وهو شاعر مهمٌّ، فكان يتقاضى نصف أجر، لكننا استطعنا أن نستمر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

ثورة الإعلام العربي

أصبحت «القدس العربي» صحيفة جيدة، مستقلة بكل المقاييس.

على صعيد وسائل الإعلام العربي، شكلت الصحيفة نوعاً من الزلزال، الذي هزَّ وقوَّض نظاماً محافظاً راسخاً راضياً عن نفسه تسيطر عليه الدولة، والذي كان مستمراً منذ عقود. كنا ثورة في مجال الإعلام المطبوع كما شكلت الجزيرة ثورة في مجال الإعلام المرئي بعد سنين لاحقة.

العاملون في الصحيفة الذين خرجوا من الأزمة المالية كانوا أكثر حماسة وتصميماً من قبل، ونمَت سمعتنا الجيدة من خلال التقارير والمقالات الصريحة التي لا تخاف. لم نكن نتورع عن انتقاد أي أنظمة، لفسادها، أو لسجل عدائها لحقوق الإنسان ولانعدام الديمقراطية لديها. يجب أن أقرَّ أننا ارتكبنا بعض الأخطاء في أيام بداياتنا تلك؛ كنا في بعض الأحيان عدوانيين أكثر من اللازم وفي بعض الأحيان كانت آراؤنا حادة لدرجة إمكان اتهامنا بعدم التوازن وعدم المهنية. لم نقم بالتدقيق في بعض القصص عن كثب كما يجب، ولأننا ما كنا قادرين على دفع أجور كتَّاب كبار، فقد كان علينا أحياناً أن نلجأ لحلول وسط في سياستنا التحريرية وأن نفرط في نشر أعمال شديدة الحماسة.

وجدت نفسي في مواجهة قوانين التشهير في أكثر من مناسبة بسبب قلة الخبرة، حيث إن هذا النوع من الحماية القانونية لا يوجد في الشرق الأوسط. حالياً، أصبح أمراً اعتيادياً لدى أثرياء المنطقة العربية اللجوء للتقاضي في المحاكم البريطانية. خلال حرب الخليج الأولى استلمت رسالة من بيتر كارتر - رك، وهو محامي قضايا تشهير معروف، تطالب بخمسين ألف جنيه تعويضاً بعد أن قام أحد كتَّاب الصحيفة، صبحي حديدي، بالخلط بين أمير كويتي وشخص مختلس، والفارق كان في الاسم الرباعي. في مرة ثانية، قمت بالاقتباس من صحيفة «صنداي تايمز» التي زعمت أن الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم، حاكم دبي، كان من الأشخاص الذين تسببوا بانهيار مصرف عالمي شهير. وعلى الفور تلقيت رسالة من مكتب محاماة آلان وأوفيري، وهو واحد من أكبر شركات المحاماة في العالم. كتبت اعتذاراً على الصفحة الأولى وكان الشيخ كريماً فأنهى الدعوى ضدنا. لقد علم أنه يمكن أن يدمر «القدس العربي» وسامحنا في دفع الأتعاب، وكانت في حدود خمسة آلاف جنيه، فلم أكن أملك هذا المبلغ على أي حال.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

مشاكل مع الراقصات

أغرب دعاوى التشهير التي تلقيناها جاءت مع نهاية عام 2001. كنت قد نشرت قصة أتابع فيها مقالاً ظهر أصلاً في «صنداي تلغراف»، زعمت فيه إن أجهزة مخابرات صدام حسين وظفت بعض العراقيين العاملين في الصناعات الترفيهية لتسميم أعضاء من جماعات المعارضة الخارجية في لندن. مقالتنا كانت تأملاً طريفاً في هذا الموضوع يتخيل وجود راقصة شرقية في ناد عربي في «إدجوار رود». في اليوم التالي، وصلنا اتصال هاتفي غاضب من امرأة شابة أخبرت موظفة الاستقبال، الشكَّاكة في كل ما يصلها من اتصالات، أن اسمها «ملايين». حوَّلت لي السكرتيرة الاتصال.

«عبد الباري عطوان؟» تساءل صوت أبحّ من التدخين. بعد أن تأكدتْ من أنني المجيب تابعت المتصلة حديثها في لهجة غاضبة: «لماذا تشهِّر بي؟».

- «ماذا تقصدين؟» سألتها وقد بعثت كلمة تشهير برعشة في عمودي الفقري.

- اسمع، أنا أحب جريدتك واقرأها يومياً لكن ما عندك حق تقول أنني أسمِّم أفراد المعارضة العراقية.

- نحن لم نفعل... بدأت بالحديث لكن تم إسكاتي قبل أن أنهي الجملة.

- لقد قلت إنها راقصة شرقية عراقية في إدجوار رود. كل الناس يعرفون أنها أنا»، أصرَّت ملايين.

كنت مندهشاً لهذه الحادثة السيئة التي تجمع بين الواقع والخيال، ومرة أخرى، كان علينا دفع عدة آلاف من الجنيهات كتعويض.

الراقصة «ملايين» كانت مشهورة في بغداد، وكانت من المفضلات لإحياء حفلات «أهل الحكم» عندما كان نظام البعث في عزِّ أيامه، ومن شاهدوا رقصها الشرقي في بغداد، ومن ثم في لندن، يشهدون لها ببراعتها.

المشكلة معها لم تكن في مواهبها الفنية، وإنما مع محام إيراني الأصل تبنَّى قضيتها ضدي، وقد ساومني على نشر حديث لها في الصحيفة مقابل إسقاط الدعوة، لكنني، وبسبب نصيحة قانونية خاطئة، رفضت بعناد، وقد دفعت مبلغاً كبيراً كأتعاب لهذا المحامي النصاب، الذي تبيَّن أنه لم يكن مؤهلاً لممارسة المحاماة في لندن، وجرى إغلاق شركته، ولا أعرف ماذا حلَّ به. وقد تلقيت دعوة على العشاء في مطعم كانت ترقص فيه ملايين، ولم أقبلها رغم إلحاح صاحب الدعوة.

وهكذا لم أستمتع بفن ملايين «العريق» حتى هذه اللحظة، ولا أعرف ما إذا كانت قد اعتزلت الرقص أو لا تزال تمارسه. مشاكلي مع الراقصات لم تنتهِ بانتهاء الدعوى التي رفعتها «ملايين» هذه، أكثرَ الله من ملايينها؛ ففي إحدى المقابلات في التلفزيون البريطاني، وباللغة الإنكليزية، قلت إننا نريد أن نكون شعباً مثل كل الشعوب الأخرى، وأن نكون طبيعيين، لدينا مطربون وعازفون ومهندسون وحتى راقصات شرقيات مثل كل البشر الآخرين... بعد ذلك بعدة أيام، وصلتني رسالة تهديد من رابطة للراقصات الشرقيات تهدد بمقاضاتي لأنني أسأت إلى أعضائها وسخرت من مهنتهن الشريفة جداً، كما وصلتني أكثر من خمس رسائل فردية تحتوي على شتائم مقذعة، وكأنني ناقص شتائم في ذلك الوقت، حيث كانت بعض الأقلام السعودية والكويتية تجد متعة كبيرة في شتمي لأنني كنت ضد الوجود الأميركي العسكري في الجزيرة العربية والكويت.

الأزمة «الفنية» الأكبر جاءت مع راقصة إسرائيلية، فقد حدث أن السفير المصري في تل أبيب تعرض لاتهام من راقصة معروفة بأنه حاول اغتصابها، واهتمت الصحف الإسرائيلية بالاتهامات هذه، ونشرتها على صدر صفحاتها. السفير المصري نفى التهمة واعتبرها محاولة لتشويه صورته. الصحف المصرية ردت الصاع صاعين، ودافعت عن سفيرها بشراسة، واتهمت الراقصة بأنها عميلة لجهاز «الموساد». مراسلنا في القاهرة بعث إلينا بتقرير عن الصحافة المصرية ودفاعها عن سفيرها، بما في ذلك اتهام الراقصة بالعمالة للموساد. نشرنا التقرير ولم تتوقف متاعبنا حتى اليوم معها، أي الراقصة. فقد تلقَّينا رسالة من محكمة في تل أبيب تتهمني بالتشهير بالراقصة المحترمة، وتطلب مثولي أمامها للدفاع عن نفسي وصحيفتي.

استشرت محامياً، فقال لي إن هذه القضية خارج اهتمامات المحاكم القضائية البريطانية وليس لها قيمة فعلية، وأي حكم غيابي يصدر عن المحكمة ضدي لن يطبَّق في بريطانيا، ولو كانت صادقة في أقوالها لرفعت القضية أمام المحاكم البريطانية.

الراقصة الإسرائيلية كسبت الدعوى ضدي، وأصدرت المحكمة الإسرائيلية حكماً غيابياً بتغريمي 100 ألف شيكل إسرائيلي، وجرى إبلاغي بأنه يمكن اعتقالي فور وصولي إلى فلسطين المحتلة بالتهمة المذكورة. وبما أنني في الأساس شخص غير مرغوب بي من قبل السلطات الإسرائيلية، وهناك قرار بعدم دخولي وربما اعتقالي، لم أعر الأمر أي اهتمام، فقد اغتصبوا وطني، وقتلوا الآلاف من أبناء بلدي ولا يزالون لا يتورعون عن فبركة دعوى قضائية ضدي، والضرر الذي لحق بي لا يساوي قطرة دم من شهيد سقط دفاعاً عن أرضنا وعرضنا وكرامتنا. وسأتحدث في فصل لاحق عن معركتي مع اللوبي

الصهيوني في بريطانيا وأميركا وهو اللوبي الذي حاول ويحاول إسكاتي واغتيال شخصيتي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رئيس في حقل ألغام

عملي كرئيس تحرير لـ«القدس العربي» كان يجازى أحياناً بدعوات غير اعتيادية من مواقع غير متوقعة. الرئيس اليمني علي صالح، الذي يتعرض حكمه لثورة شعبية حالياً، على سبيل المثال، طلب إليَّ زيارته عدة مرات أواخر التسعينات.

في إحدى هذه المرات، أخذني إلى أحد البيوت المتواضعة التي يقيم فيها في العاصمة صنعاء. يملك الرئيس عدة منازل مثل هذه إلى جانب قصره الرئاسي، أربعة منها يستخدمها بيوتاً لزوجاته الأربع. بعد استفساراتنا الأولية عن الصحة والعائلة، اقترح أن نقوم بمضغ القات معاً. القات هو الاسم الشائع لنبتة «كاتا أدوليس»، وهي شائعة في القرن الأفريقي وشبه الجزيرة العربية، وتحتوي مادة الكاثينون، وهي مادة تبعث على الابتهاج بشكل معتدل. لم يسبق لي أن تعاطيتها من قبل، ولا أياً من أشكال «المخدرات»، لكنني أعلم أن مضغ القات، في اليمن، له نفس الوزن الاجتماعي لتناول فنجان من القهوة في بلاد أخرى، ولم أرد أن أسيء لرئيس اليمن برفض البادرة المضيافة. علمت آنذاك أن الطريقة التقليدية لتعاطي القات هي دس كرة نصف ممضوغة منه تحت الخد و«حلب» عصيرها. لكوني غير عالم بتلك الطريقة، قمت بقضم بعض أوراق النبتة وأغصانها مثل ماعز، ماضغاً ثم بالعاً إياها بدلاً من عصرها. طريقتي غير التقليدية أدت إلى آلام معدة فظيعة وإسهال؛ ليس ذلك فحسب، بل لم أستطع النوم طول الليل. لم أعد هذه التجربة والرئيس صالح غيَّر رأيه في هذا الموضوع أيضاً، بحيث أصدر عام 1999 بياناً يحث فيه الأمة اليمنية على التوقف عن القات، مشيراً إلى كونها تستهلك الوقت، ومقترحاً أن يقضوا أوقات فراغهم في الرياضة أو القراءة. لكنه مثلما علمت كان الأقل التزاماً بهذا القرار.

في عام 2000، دُعيت مرة أخرى إلى صنعاء، هذه المرة لإجراء حوار مع صالح في قصره الرئاسي، المبني على الطريقة اليمنية العتيقة، وكان موروثاً عن حكم الأئمة في اليمن، وهو عمارة تشبه العمارة المغربية، ودخلت إلى بهو واسع عبر بوابات حديدية يحرسها جنود. كان هناك مفاجآت وتناقضات في كل مكان في المجمَّع: في الوسط حيث الحدائق المرتبة بعناية نصب الرئيس خيمة عسكرية ضخمة؛ الأرضية مغطاة بسجاد تقليدي فخم لكن الأثاث يضم طاولات وكراسي بلاستيك رخيصة. داخل جدران القصر بركتان للسباحة، وصالة رياضية ومجرى للعبة البولنغ.

حين انتهت المقابلة دعاني صالح للبقاء للغداء. ذهبنا إلى غرفة أخرى وقام بعض الخدم بمد غطاء طاولة بلاستيكي على الأرض، واضعين الوسائد في

دائرة حولها. تراكمت الأواني الساخنة المليئة بالأرزّ واللحم والخضار التي أحضروها لنتشاركها. كنا حوالي خمسة عشر شخصاً، وكان الحراس وأعضاء الحكومة جميعاً جاهزون للولوج في الصحون معاً، مستخدمين أيديهم بالطريقة اليمنية التقليدية.

إنه أمر اعتيادي بالنسبة لليمنيين أن يغيِّروا بناطيلهم قبل الأكل لتخفيف الضغط على منطقة البطن. لم يكن صالح مستثنى من ذلك، فقد قام بتغيير بنطاله لابساً بدلاً منه الوزرة - وهي قطعة قماش تشبه التنورة الإسكتلندية. وحين فعل ذلك سقط مسدس صغير من جيب بنطاله. التقطتُ المسدس ونظرت إليه. كان من نوع كولت مع مقبض مصنَّع خصيصاً من أحجار كريمة.

«أنه مسدس جميل»، قلت، ناسياً أنه في اليمن، كما في العديد من البلدان العربية، يعتبر إعطاء الزائر أي غرض يعجبه حين يكون في بيتك أمراً مستحباً.

جلسنا لشرب الشاي وحاولت أن أعيد المسدس إلى صالح.

«رجاء، عبد الباري، اقبل هذا كهدية!»، قال صالح وهو يبتسم، ملوحاً بيده، كأنه يقول: «ضعه جانباً ودعنا نتابع غداءنا». أصابني الرعب.

كيف يمكنني أن أخرج من هذه المشكلة من دون أن أبدو جاحداً أو فظاً؟ لاحت أمامي تخيلات عن اعتقالي أو سجني كخاطف طائرة أو إرهابي.

- «أشكرك، لكنني لا أستطيع أخذه!

- لماذا؟ نظر الرئيس إليَّ متجهماً، فيما مال حراسه قليلاً نحوه.

- أولاً، لأنني لا أعرف كيف أستعمله، قلت شارحاً، لكن الرئيس بدا غير مرتاح. ثانياً، لأنني أقيم في لندن، وليس في جبال اليمن حيث القبائل المتحاربة تحتاج للتسلح، وثالثاً لأنني لو صعدت إلى الطائرة مع مسدس فسوف أعتقل!

- خذه معك، قال صالح، وهو يربِّت على كتفي مشجعاً، ولا تهتمَّ، سوف تسافر على متن الخطوط الجوية اليمنية. سأرسل تعليمات تسمح لك بحمله.

- هذا لطف منك، ولكن ماذا عن مطار هيثرو؟ لا يسمح لك بحمل مسدس في إنجلترا. ستكون فضيحة وسوف أسجن لسنين.

- لا تهتم، سأرسله لك عبر الحقيبة الدبلوماسية ويمكنك أن تأخذه من السفارة اليمنية في كروميل رود».

حين قال ذلك بدأت أعصِّب، فأخذت أقلِّب فكري للبحث عن طريقة تخرجني من هذه الورطة. خففت عقدة ربطة العنق ومسحت حاجبيَّ. عند ذلك سمعت صوت ضحك مكتوم وشاهدت الرئيس وحراسه يضعون أيديهم على

أفواههم. أخذ صالح المسدس مني وهو يقهقه. «رفضك مقبول، عبد الباري»، قالها وهو يمسح الدموع من عينيه، «والآن، دعنا نأكل».

لاحقاً، أراني صالح بقية القصر. كانت عنده غرفة مخصصة للهدايا التي تلقاها من قادة العالم. كانت هناك جرتان زجاجيتان ضخمتان حصل عليهما من زعيم صيني، أثناء زيارة رسمية إلى بكين، مليئتان بسائل أبيض وحرباوات وثعابين في أسفلهما.

كان لديه سيف ذهبي من قائد الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين جورج حبش؛ مبخرة ذهبية على قاعدة بعلو متر من الملك فهد؛ أما هدية الشيخ زايد، رئيس الإمارات الراحل، فكانت قارباً مزيناً، مصنوعاً من الذهب؛ وساهم العقيد القذافي بساعة رولكس من النوع الفاخر.

كان هناك حائط تغطيه الرفوف مخصص لهدايا من ياسر عرفات - حوالي عشرين نوعاً من قبة الصخرة بأشكال مختلفة. بعد احتلال صدام للكويت، كان اليمن من بين عدد قليل من الدول التي استقبلت عرفات وكان يزورها كثيراً، ومن الواضح أنه كان ينسى في كل مرة أنه قد أعطى صالح نموذجاً لقبة الصخرة قبل أشهر. كان هناك أيضاً بعض الهدايا من قادة أفريقيين تتضمن على الأغلب منحوتات وخناجر ورماحاً مزينة. كان ذلك معرضاً فريداً مثيراً للإعجاب في العالم العربي.

فيما كنا نتمشى في الخلاء، ذكر صالح أنه يقوم بإخراج أوبرا. ضحكت وقلت:

- «لكنك رجل عسكري!

- تعال معي وتفرَّج بنفسك».

قال ذلك واصطحبني إلى منطقة نائية خارج العاصمة حيث كان عدد ضخم من الرجال ينتظرون للتمرين على أوبرا يمنية تقليدية بمناسبة العيد العاشر للوحدة اليمنية.

كان مشهداً سوريالياً أن ترى رئيساً، في زي عسكري، واقفاً في باحة مبنى عتيق، محركاً عصاه، ليوجه مجموعة من الرجال بالزي اليمني التقليدي يغنون ويرقصون.

أخبرني صالح بعد ذلك أن كل هؤلاء جنود تلقوا أمراً بالمشاركة في الفعالية.

عندما عدت إلى لندن كتبت تقريراً صحافياً عن معرض هدايا الرئيس اليمني في أحد أجنحة قصره، وتوقفت عند هدية الزعيم الصيني من الثعابين والسحالي المخللة في جرتَي المشروب الكحولي، وقد علمت أنه من أفخر أنواع المشروبات، ولا يقدَّم إلا لكبار الزوار، وعلمت بعد ذلك أن أعداد

الصحيفة بيعت بشكل جنوني بسبب هذه القصة الإخبارية، وقد تدخلت وزارة الإعلام اليمنية بسرعة وصادرت ما تبقى من أعداد. والسبب أن رجال الدين احتجوا على قبول الرئيس اليمني المسلم هدية من المنكر والاحتفاظ بها في قصره. الرئيس أعلن تخليه عن الهدية وتحطيمها وعلمت لاحقاً أنه أعطاها لأحد معاونيه. أما باعة الصحف، فقد صوروا القصة الإخبارية وباعوا الآلاف منها إلى قرائهم المتعطشين للمعرفة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

القذافي وخيمته

عام 1992 وصلتني دعوة لزيارة العقيد القذافي، القائد الليبي الفار حالياً بعد سقوط طرابلس بيد الثوار، بعد أن سمعني في راديو بي بي سي العربي أعارض الحصار المفروض على بلاده. طرت إلى طرابلس عبر أمستردام ووصلتْ طائرة الخطوط الليبية متأخرة أربع ساعات، بعد منتصف الليل. لم يكن هناك أحد للقائي، الأمر الذي بدا لي مفاجئاً، حيث إنني كنت أتوقع استقبالاً رسمياً باعتباري ضيف القائد. كان المطار فارغاً؛ كل الواصلين التقوا بمن ينتظرونهم والعاملون في المطار غادروا. لم تكن لدي فكرة عمَّا أفعل أو إلى أين أذهب، فأخذت سيارة أجرة إلى الفندق الوحيد الذي أعرفه، الـ«غراند».

قلت لموظف الاستقبال الذي نظر إليَّ من فوق إلى تحت:

- «أريد غرفة لليلة، رجاءً.

- هل أنت هندي أحمر؟

- لماذا تسأل؟ أجبت متحيراً.

- لأن العقيد القذافي أعطى جائزته السنوية للهنود الحمر بسبب اضطهادهم على يد الولايات المتحدة. كل الغرف مشغولة بأعضاء الوفد من وادي الموت.

- أنا هندي فلسطيني أصفر وأصلي، غامرت بالقول، لكنه لم يستسغ دعابتي.

- آسف، لا أستطيع أن أساعدك».

قال ذلك واستدار. ظهر موظف آخر وعرفني من خلال ظهوري في التلفاز. بادر بمحادثة هامسة مع موظف الاستقبال العنيد وفي النهاية تمكن من توفير غرفة لي ليست أكبر من خزانة المكانس، إضافة لكونها قذرة وليس فيها قفل للباب.

في الصباح، اتصلت بوزارة الإعلام أستفسر عن عدم وجود أحد لاستقبالي في المطار، فأخذوا يعتذرون وقالوا إنهم سيرسلون سيارة لاصطحابي. اتصلت بزوجتي التي كانت قلقة عليَّ لأنها سمعت أخباراً عن أشخاص اختفوا في ليبيا مثل الإمام موسى الصدر، أو المعارض منصور الكيخيا، وربما اعتقدت أن «الإمام عطوان» انضم إلى القائمة. لم يأت أحد إلى الفندق وكنت تعباً جداً ومحبطاً بحيث عدت للنوم مرة أخرى. حين فتحت عينيَّ مجدداً وجدت رجلين واقفين عند سريري يحدقان بي. كانا مضيفيَّ.

- «ما هو البرنامج؟ سألتهما بعد أن لبست وتمكنت من الحصول على فنجان قهوة من موظفي الفندق المتمنعين عن الخدمة.

- لقد حجزنا لك رحلة بالطائرة للذهاب إلى سرت غداً. هي مكان ولادة القذافي وسوف تحضر اجتماع مؤتمر الشعب العام بحيث تستطيع أن تفهم طريقة عمل ديمقراطيتنا الليبية.

- حسناً، هذا يبدو جيداً. كم سيستغرق ذلك؟

- ثلاثة أسابيع.

- ثلاثة أسابيع! لكن لديَّ جريدة أديرها. متى أستطيع مقابلة القذافي؟

- بعد أن تشاهد كيف تعمل ديمقراطيتنا وتطَّلع على سلطة الجماهير الحقيقية سيكون ممكناً أن تقابله. سوف ننظر في طلبك».

أخبراني بعد ذلك أن سيارة ستأتي في السابعة من مساء الغد وأمرا موظف الاستقبال بإيجاد غرفة جيدة لي، وهو ما فعله. بعد أن قضيت مجمل اليوم أدور في طرابلس، عدت للنوم باكراً واستيقظت في السادسة صباحاً، أخذت سيارة أجرة إلى المطار واشتريت بطاقة سفر لأغادر بأول رحلة على متن الخطوط السويسرية إلى زيوريخ.

لم أتمكن من لقاء القذافي شخصياً حتى عام 1999. هذه المرة كان هناك من ينتظرني في المطار وأخذتني السيارة مباشرة إلى ثكنة العزيزية، قاعدة القذافي العسكرية في طرابلس. كانت في الحديقة ثلاث خيام كاكية اللون ومتطابقة في الشكل، مغطاة بالسجاد ومزينة بشكل زاه ومليئة بالوسائد المريحة والكراسي للجلوس. كان القذافي يحبُّ استقبال ضيوفه في خيمة ليذكرهم بجذوره البدوية. كان شهر آب/أغسطس والطقس حار لدرجة الغليان مع أقل ما يمكن من النسيم القادم من رشاشات الماء التي تروي العشب في الحديقة. طُلب إليَّ الانتظار في واحدة من هذه الخيام والجلوس. بينما كنت أنظر حولي، لاحظت مجموعة من الكتب عن العولمة والنظرية السياسية وسقوط الإمبراطوريات. رغم سمعته المخيفة بين الصحافيين حول عدم التزامه بالوقت، جاء القذافي إلى الخيمة بعد دقائق واعتذر مباشرة لأننا لم نلتق في زيارتي السابقة لبلاده. كان يلبس ثياباً عسكرية لكنه لم يتوقف عن السعال والعطس في منديل يحمله.

قبل أن نبدأ بالحوار قدَّم لي عصير فواكه بارداً وتأكد من وجود كل ما أرغب فيه.

حالما جلس، وضع جهاز تسجيل تحت الطاولة وضغط زر التسجيل. بعد ذلك أحضر ورقة ومسَّدها على الطاولةِ قربه. رغم أن الورقة كانت بعكس

اتجاهي، فقد كان بإمكاني الاستنتاج أن فيها أسطراً متقاربة تحتوي معلومات عني وعن تعليمي الجامعي ومواقفي السياسية وعضويتي في المجلس الوطني الفلسطيني (برلمان المنفى) وأخرى عن نشأتي وخلفيتي الاجتماعية. كان القذافي مجهزاً جيداً، وهو الشخص الوحيد الذي قابلته ولم يتأثر بأسلوب حديثي معه قبل الحوار وقام بقلب المعادلة من خلال تسجيل كل كلمة من حوارنا منذ البداية.

اللقاء مع الزعيم الليبي استمر ثلاث ساعات، في الساعة الأولى منها كان الحديث مسجلاً، أما الساعتان الأخريان فكانتا حديثاً عفوياً دار حول أوضاع العالم وأحداث الشرق الأوسط. بدا العقيد محبطاً من العرب لأنهم لم يساعدوه مطلقاً في كسر الحصار المفروض عليه من قبل الغرب بسبب لوكربي. فاجأني العقيد بقوله إنه علم بأننا نواجه متاعب مالية في صحيفتنا «القدس العربي»، وسأل إن كنت بحاجة إلى مساعدة، فاعتذرت له بلطف شديد وشكرته على اهتمامه، وقلت له إن هناك صعوبات فعلاً، لكنها ليست أكبر من الصعوبات التي تواجهها ليبيا بسبب فترة الحصار الطويلة التي فرضت عليها. وسأتناول لقاءاتي مع الزعيم الليبي وشخصيته في فصل لاحق.

متاعبي مع القذافي لم تتوقف، ففي أحد الأيام، اتصل بي الدكتور علي عبد السلام التريكي وزير الخارجية الليبي في ذلك الوقت وقال لي: «أريد أن ألتقيك لأمر هام جداً يتعلق بحياتك وأمنك الشخصي. سأكون غداً في باريس ولا بد أن أراك».

كان المسؤولون الليبيون ممنوعون من دخول لندن في تلك الفترة بسبب تأزم العلاقات مع بريطانيا إثر مقتل الشرطية إيفون فليتشر برصاص أحد دبلوماسيي السفارة عندما كان يطلق النار على متظاهرين أمامها.

التقيت الدكتور التريكي في أحد مطاعم باريس وجلسنا في زاوية بعيدة عن الأعين، والآذان. بادرني بالقول إن العقيد القذافي غاضب جداً منك، وقد يذهب به الغضب إلى تصفيتك جسدياً، لأنك نهشت عرضه، واتهمته في أخلاقه ورجولته.

فوجئت بهذا الاتهام وقلت له إنني لم أنهش عرض أحد في حياتي، ولم أتطرق مطلقاً إلى الأمور الشخصية لأي من الزعماء أو حتى المواطنين العرب بما في ذلك من أساءوا إليَّ شخصياً ونهشوا في عرضي وشكّكوا في ذمتي المالية. ووصلتني ملفات فضائح لملوك وأمراء من الخليج، ولم أكتفِ برفض استلامها، بل قمتُ بإهانة من أحضرها لي لأن مجرد التفكير بأني سأنشرها هو قمة الاستخفاف بي وبمهنيتي وأخلاقي. قال: «أنت ظهرت على

قناة «سكاي نيوز» قبل أسبوع واتهمت العقيد بالشذوذ، وهذا اتهام، علاوة على كونه جارحاً وكاذباً، فإنه قد يعرِّضك للانتقام».

تذكرت الواقعة فجأة، ففي أحد الأيام استضافني جيريمي تومسون مذيع محطة سكاي نيوز الشهير للتعليق على طرد العقيد القذافي للفلسطينيين إلى الحدود مع مصر، والظروف الصعبة التي يعيشونها، وشرحت وجهة نظري بعلمية، وهنا التفت إليَّ المذيع وقال: «باختصار سيد عطوان، وفي ثوان، لماذا فعل القذافي ذلك؟». أجبت ببساطة: «إنه مهووس بالإعلام» Publicity maniac.

قال الدكتور التريكي:

- «لماذا استخدمت هذه الكلمة بالذات Maniac ولم تستخدم Crazy أو Mad التي تعطي المعنى نفسه؟

- وما أدراني أن العقيد القذافي يجلس في خيمته يشاهد قناة إنكليزية، وهو الذي يجد صعوبة في فهم لغتها، وما أدراني أنه يتحسس من هذه الكلمة؟ يا سيدي والله لم يكن قصدي أن أستخدمها متعمداً، وأعرف أن العقيد «زير نساء» ويستمتع بصحبة الحسان، واختياره حارسات جميلات، وإصراره على لقاء حسناوات إيطاليا وفرنسا لشرح الإسلام لهنَّ في جولاته الأوروبية خير مثال على ما أقول».

حتى كتابة هذه السطور، لا أعرف أين هو العقيد الليبي، فقد أطاحت به قوات المعارضة واقتحمت منزله في باب العزيزية، واستعادت مدينة طرابلس، وقد عارضتُ تدخل حلف الناتو في ليبيا رغم أنني عارضت نظام القذافي بشدة وكتبت أكثر من 25 مقالاً فنَّدت فيها جرائمه في حق الشعب الليبي، ولكن بمجرد معارضتي التدخل الأجنبي اتُّهمت فوراً بأنني مؤيد للقذافي وأقبض منه، فكل من تختلف معه من العرب يتهمك بالقبض والارتزاق، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لقاء مع ملك الأردن

حين توّج الملك الأردني عبد الله بعد وفاة والده، الملك حسين، عام 1999، كان قلقاً جداً من وسائل الإعلام، لكنه بعد أن شاهدني عدة مرات على شاشة التلفاز، أخبر مستشاريه برغبته في الحديث إليَّ لأنني بدوت شخصاً يمكن التواصل معه. ليس من قبيل المبالغة القول إن الملك عبد الله صار ملكاً بالصدفة، وأحسست عندما قابلته في المرة الأولى أنه غير جاهز لهذا الدور. قبل وفاته بقليل، أعلن الملك حسين أن أخاه، ولي العهد الحسن، لن يخلفه. بعد ثلاثين عاماً من الانتظار كانت تلك ضربة مدمرة، فالحسن كان يدير المملكة منذ غياب أخيه في «مايو كلينيك» بأميركا للعلاج من السرطان، لكن من الواضح أن تصرفاته لم تعجب أخاه الأكبر، فكتب الملك حسين رسالة طويلة، مؤرخة بتاريخ 25 كانون الثاني/يناير، نشرها في صحيفة «جوردان تايمز» كما في موقع الملك الإلكتروني. باعتباره دبلوماسيا حتى النهاية، فإن إعلان الملك ما يريده بشكل علني وبأكثر الطرق بلاغة وعقلانية، جعل قراره غير قابل للجدل.

الشائعات التي كانت تدور في القصر، عندما كنت هناك، هي أن زوجة الأمير الحسن، الأميرة ثروت، أضرَّت بالعلاقات مع الملك خلال فترة احتضاره من خلال انشغالها بإعادة تصميم الطوابق الملكية وبتصوير نفسها كما لو كانت الملكة القادمة للأردن.

القصر الهاشمي شأن دولي: الأميرة سيئة الحظ ثروت، على سبيل المثال، هي من باكستان؛ وزوجة الملك حسين الأخيرة، الملكة نور، ولدت باسم ليزا حلبي في الولايات المتحدة الأميركية، وزوجته الثانية (من أصل أربع زوجات)، الملكة منى، امرأة إنكليزية، هي أنطوانيت غاردنر.

قضية وراثة العرش كانت حديث كل الناس في الوقت الذي كنت فيه هناك، وكان ذلك يشبه حقاً المسلسلات الدرامية. في رسالته، لم يخفِ الملك محبته لابنه، الأمير حمزة، ابن نور الأكبر، الذي يصفه في رسالته بشكل مؤثر بأنه كان إلى جانبه دائماً خلال فترة وجوده في «مايو كلينيك»، ولم يكن يفارقه إلا بعد أن يأمره الملك (باعتباره حاكماً) بالعودة إلى التدريب العسكري في كلية «ساندهرست». من الممكن أن كون حمزة في الثامنة عشرة فحسب حين مات والده هو ما منع توريثه العرش. في نهاية الرسالة، التي كانت قراءتها أمراً مؤلماً جداً للأمير الحسن، قام الملك بتسمية عبد الله، أكبر أبنائه من زواجه من الملكة منى، وريثاً لعرشه.

بعض رجال الحاشية الملكية أعربوا عن شكوكهم بقدرة الملك عبد الله على الحكم لكونه نصف إنكليزي وقد ترعرع في الغرب. تزوج الملك حسين من

أنطوانيت في 25 أيار/مايو 1961 وولد عبد الله في 30 كانون الثاني/يناير 1962. على أية حال، مستشارو عبد الله كانوا مصممين على أنه يجب أن يعتاد على التعامل مع الإعلام وأن يبرهن مصداقيته كعربي بالوقت نفسه.

كان الملك حسين يفضل، وبالأحرى كان يحضِّر، لتولية ابنه حمزة خلافته كملك للأردن، تلبية لرغبة زوجته المفضلة الملكة نور التي رافقته طوال فترة علاجه في «مايو كلينيك» حتى وفاته. تلقَّى الأمير حمزة تدريباً سياسياً وعسكرياً راقياً، جزء منه في كلية «سانت هيرست» للعلوم العسكرية في بريطانيا، وهي الكلية التي تخرَّج منها معظم القادة والمسؤولين العرب البارزين مثل الملك حسين، وأمير قطر، والأمير بندر بن سلطان بن عبد العزيز، وملك البحرين حمد بن عيسى، وعدد كبير من أولياء عهود دول الخليج. والأهم من ذلك أن الأمير حمزة، وبتوجيه من والده ووالدته، تعلم اللغة العربية، واختلط بقبائل الأردن وعشائرها وأجاد لهجاتها.

تعيين الأمير حمزة ولياً للعهد خلفاً للأمير حسن، الذي أزيح من المنصب بسطور في رسالة عاطفية كانت آخر رسائل أخيه الملك، كان يتطلب تعديل الدستور الذي ينص على أن أكبر أبناء الملك يصبح ولياً للعهد، وبالتالي استدعاء البرلمان للانعقاد وإقرار هذا التعديل. ومن حسن حظ الأمير عبد الله أن والده لم يملك الوقت الكافي لإجراء هذه التعديلات، فقد تدهورت صحته بعد يومين أو ثلاثة من عودته إلى عمَّان، واضطر للعودة بسرعة إلى الولايات المتحدة للعلاج، الأمر الذي دفعه إلى إصدار مرسوم بتعيين الأمير عبد الله ولياً للعهد على أمل العودة لاحقاً وترتيب الأوضاع لولاية الأمير حمزة، لكن القدر لم يمهله وعاد إلى عمَّان في تابوت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متأملاً تغيُّر وضعي في المجتمع الأردني منذ أيام شاحنة القمامة، راقبت مشهد الجبال الجميلة من نافذة سيارة مرسيدس كانت تقلني إلى محل إقامة الملك عبد الله في المنطقة الجبلية خارج عمان، برفقة عبد الكريم الكباريتي، رئيس الديوان الملكي.

يُعتبر السيد الكباريتي من دهاة الأردن، فهو شخص خفيض الصوت، حاد النظرة، ذكي ذكاءً فطرياً، تقلَّد عدة مناصب في الدولة ابتداء من سفير مروراً برئيس للوزراء وانتهاء برئيس للديوان الملكي، ثم أخذ نجمه في الأفول. الكباريتي هو الذي اقترح على العاهل الأردني الحديث العهد في الحكم دعوتي واللقاء بي، لأنه كأحد صانعي الملوك في الأردن أراد تدريب الملك على لقاء الصحافيين، وإعطاء انطباع عام بأنه، أي الملك، شخص قوي الشخصية مثقف، والأهم من ذلك يجيد اللغة العربية، تفنيداً لإشاعات كانت تقول عكس ذلك.

رحَّب بي الملك عبد الله في مكتبه الخاص، وقد بدا رشيقاً ذا عضلات؛ من المؤكد أنه كان يعمل جاهداً على مظهره. وسرعان ما لاحظت أن لغته العربية كانت ضعيفة لكن، لأعطيه حقه، كان مصراً على التحدث بها لساعة كاملة قضيتها معه. سألته أسئلة بالإنكليزية لأنني لم أرد له أن يجهد نفسه بالحديث بلغته العربية، المكسَّرة في ذلك الوقت، لكنه ظل مصراً على الرد على أسئلتي بالعربية. كان عفوياً جداً واعترف بأنه ما كان ليعتقد أبداً أنه سيصبح ملكاً، ولذلك كرَّس نفسه للحياة العسكرية في الجيشين البريطاني والأردني. في الجيش الأول، ترقَّى ليصبح عقيداً آمراً لكتيبة، وفي الثاني أصبح «لواء ركن».

أحسست بالكثير من التعاطف مع هذا الشاب اللطيف وقدَّرت صعوبة ما سيواجهه لملء الفراغ الذي تركه والده. سألت الملك عبد الله إن كان والده قد أشار عليه ببعض كلمات النصح عندما التقيا قبيل وفاته بقليل. فكَّر الملك وبدا عليه التأثر.

«نعم، قال لي: عبد الله، يجب أن تتبع قلبك. عندك الشجاعة الكافية لهذه الوظيفة لكن عليك دائماً أن تتبع قلبك».

بلغته العربية المكسَّرة، نطق الملك الجملة، لسوء الحظ، كما لو أنه يقول: يجب عليك دائماً أن تتبع كلبك. وكان صعباً عليَّ منع ابتسامة خفيفة ظهرت على وجهي، خصوصاً بعدما قال الكلمة مرتين. انتبه الملك إلى ردة فعلي ولاحظ أنه نطق الكلمة خطأ وقام متردداً بتصحيح نفسه بالإنكليزية: «اقصد اتبع قلبك، بالطبع»، قالها وهو يبتسم. كان متواضعاً بما يكفي ليستمع، وليقوم بأخطاء ويتعلم، ويجب أن أقول إنه بعد ثلاث سنوات أصبحت لغته العربية ممتازة. مرة قمت بممازحته حول زوجته، رانية، التي هي مثل زوجتي، باسمة، فلسطينية، لكنهما ترعرعتا في الكويت. أشرت إلى التشابه وقلت: «بيننا قاسم مشترك»، فانتبه وعلامات الحيرة على وجهه، ربما متسائلاً أين هو هذا القاسم المشترك وهو ابن الملوك وسليل الأسرة الهاشمية، وأنا ابن العامة من مخيم للاجئين، فبددت حيرته بالقول مداعباً: «زوجتي تعرضني لوقت عصيب. أتمنى أن زوجتك لا تفعل الشيء نفسه». ضحك الملك وقال: «لا، أبداً. في الحقيقة هي الآن في البوسنة لمساعدة ضحايا الحرب». تحدث بمحبة واعتزاز عن الملكة رانية وكان سعيداً بشكل عام للتعبير عن نفسه بحرية. أعتقد أن هذا النقاش قرَّبنا من بعضنا البعض أكثر، وكلما التقيته بعد ذلك كان يفضِّل أن يتحدث معي في مواضيع سياسية لا يمكن الكتابة عنها - وهو أمر كان صعباً من الناحية المهنية لأنه أخبرني الكثير من القصص المهمة التي ما كان باستطاعتي نشرها.

مع نهاية عام 2002، ذهبت لمقابلة الملك عبد الله بعد عودته بقليل من لقاء في واشنطن مع جورج بوش، وكان لقائي الخامس والأخير معه. جلسنا لشرب القهوة وسألته عن نتيجة اللقاء. «مروعة»، قال، بينما كان يمسح كفه بمنديل. «كان أسوأ لقاء يمكن تخيله». تحدث الملك كيف أنه حذر الرئيس الأميركي من الحرب في العراق، مؤكداً له أن صدام لا يملك أسلحة دمار شامل، وأسهب الملك عبد الله، كما قال لي، في إظهار مخاطر شنِّ حرب على العراق، وما يمكن أن يؤدي إليه ذلك من اضطراب وعدم استقرار في المنطقة برمتها. قال لي إن الرئيس بوش لم ينظر إليه مطلقاً وهو يتحدث، بل كان ينظر إلى السقف، وإنه تجاهله تماماً، وإنه ألمح إلى أنه سوف يقوم باجتياح العراق والتخلص من صدام سواء وافق الملك الأردني أو رفض. وقال بوش مخاطباً الملك عبد الله بعد أن ضرب على الطاولة بقوة بقبضة يده، والرواية هنا للملك: «اسمع يا... (واستخدم كلمة فظة رفض الملك أن يذكرها) هل أنت معنا أو معه؟». فقال الملك: «نعم أنا معكم...» فقال بوش بغلاظة: «ما هي مطالبك ومخاوفك؟». فأجاب مظهراً قلقه من عملية تسفير للفلسطينيين من الضفة الغربية إلى الأردن في حالة حصول مناورات من هذا القبيل فحصل على وعد بالحفاظ على الأمن الوطني الأردني. يبدو أن ما أثار غضب الملك عبد الله أكثر من أي شيء آخر هو فظاظة بوش معه، بحيث إنه رفض أن ينظر في عينيه طيلة المقابلة. على الرغم من ذلك، أقر الملك أنه وافق على الأجندة العسكرية الأميركية رغم أن ضميره كان ضدها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صدام حسين وآنا

كنت أعتقد أن أبعد الناس عن أن يكون من «المعجبين» بي نتيجة ظهوري المتكرر في التلفاز كان رئيس العراقي صدام حسين، إلى أن سمعت من عزام الأحمد، سفير منظمة التحرير الفلسطينية في العراق، والذي كان على علاقة جيدة مع النظام البعثي في أوائل التسعينات، أن صدام كان يشاهد قناة سي إن إن مع وزير خارجيته، طارق عزيز، حين ظهرت في نيسان/أبريل 1993 بعد محاولة اغتيال جورج بوش الأب، خلال زيارته «الانتصارية» التي قام بها إلى الكويت «المحررة» بعد خروجه من البيت الأبيض. ردَّت الولايات المتحدة على ذلك بقصف بغداد، ما أدى لمقتل الفنانة التشكيلية العراقية الشهيرة ليلى العطار إضافة إلى كثيرين حين قام الأميركيون بتدمير فندق الرشيد. تساءلت عن الأسباب المنطقية خلف هذا الرد العنيف وحول ما إذا كان يمكن محاسبة صدام على ما جرى حيث إن العراق كان يخضع آنذاك لعقوبات. بعد ذلك قلت إن محاولة الاغتيال يمكن اعتبارها مكيدة لإعطاء الولايات المتحدة الذريعة لعمل عسكري ضد العراق ثم إن التحقيقات في عملية الاغتيال المزعومة هذه ومحاولة معرفة المتورطين فيها لم تبدأ بعد. استدار صدام نحو طارق عزيز وسأل: «هل هو عراقي؟»، فأخبره طارق عزيز بأنني لست عراقياً.

- «من أين هو؟

- فلسطيني سيدي الرئيس.

- هل زارنا سابقاً؟

- لا، لم يفعل.

- هل هو أحد الفلسطينيين الذين يدعمون حزب البعث؟

- لا، إنه مستقل. هو رئيس تحرير جريدة.

- هل نحن نموِّل صحيفته؟

- لا، لا نفعل. وصحيفته لم تدخل العراق مطلقاً.

- إذا كان محلل مستقل مثل هذا يقف إلى جانبنا فهذا يدل على أننا منتصرون. اتصل بعرفات وقل له إننا فخورون أن فلسطينياً يتكلم الإنكليزية بهذه الطلاقة يمكن أن يساجل بهذا الشكل الجيد إلى جانبنا على شاشة تلفاز أميركية».

اتصل طارق عزيز بالسفارة الفلسطينية في بغداد، التي قامت بإيصال الرسالة إلى عرفات الذي لم يتردد في نسبة الفضل لنفسه على آرائي حيث قام بالاتصال بطارق عزيز مباشرة: «تحدث عطوان بشكل جيد، لكنني كنت قد تحدثت معه قبل أن يظهر على التلفاز».

قام صدام في وقت لاحق بإرسال ثلاث دعوات لي لزيارة بغداد من خلال مبعوثين وسفراء عراقيين في لندن لكنني رفضت. كصحافي كنت فضولياً، وسمعت العديد من القصص عن ترتيبات أمنية لا تصدق تتَّبع خلال زيارات من هذا القبيل بسبب خطر اغتيال دائم لصدام من قبل المخابرات المركزية الأميركية، أو عدد من الأعداء الآخرين الذين نجح صدام في تجميعهم ضده. عبد الله حوراني، عضو اللجنة المركزية لمنظمة التحرير، أخبرني أنه عندما زار صدام خلال فترة العقوبات وُضع في سيارة لا يمكن أن يشاهد فيها من الخارج بسبب نوافذها المظللة، سارت به عشر ساعات، وأوصل إلى بيت صغير في مكان بعيد من العراق للقائه. سمعت عن أناس طُلب إليهم غسل أيديهم بمحلول كيميائي خاص قبل اللقاء به لكي لا يقوموا بتسميمه من خلال المصافحة؛ أو عن تعريتهم لتفتيشهم للشك في إخفائهم أسلحة أو أجهزة إلكترونية يمكن أن توجه أعداءه إلى مكان تواجده.

قبل اجتياح الأميركيين للعراق في أبريل/مارس2003 بثلاثة أشهر، أي في مطلع العام نفسه، ذهبت إلى الدوحة للمشاركة في برنامج الاتجاه المعاكس في قناة الجزيرة الفضائية. علاقات قطر كانت قوية آنذاك بنظام الرئيس العراقي، وكذلك قناة الجزيرة. الصديق العزيز الدكتور محمد المسفر قال لي إن هناك شخصاً قادماً من العراق خصيصاً يريد مقابلتك لتسليم رسالة من الرئيس العراقي صدام حسين، واسمه أبو أحمد.

أبو أحمد هذا ليس الشخص الوحيد الذي حمل إليَّ رسائل من القيادة العراقية، وبعد إلحاح صديقي الدكتور المسفر وافقت على مقابلته، وكان اللقاء في ردهة فندق شيراتون الدوحة.

قال أبو أحمد: «اسمع، صدام يحبك، وهو يريد أن تكون إلى جانبه. تعال إلى بغداد لتسمع ما يريد قوله. بريطانيون آخرون مثل توني بن وجورج غالاوي كانوا هناك، لذلك لا تخف».

وافقت على الذهاب من باب المجاملة، رغم أنه لم تكن لدي نية لفعل ذلك؛ فقد كانت المعارضة العراقية قد نشرت أنني أقبض من صدام حسين أو أنني مدعوم منه، ولم أكن أريد أن أصبح داعية له. الشيء الصحيح الوحيد في هذه الإشاعات أنني كنت قد قابلت السفير العراقي، مظفر أمين، خلال حفل عشاء عند صديق مشترك في لندن، وقد فاجأني بعرضه دعم «القدس

العربي» مالياً. خلال فترة العقوبات الاقتصادية، عُرضت عليَّ أيضاً قسائم نفطية كان يمكن أن يتاجَر بها بشكل غير قانوني مقابل مبالغ ضخمة من المال، عبر وسطاء عراقيين آخرين. رفضتُ هذه العروض كلها.

الدكتور مظفر أمين سفير العراق في لندن حتى يوم غزو القوات الأميركية واحتلال بغداد كان إنساناً راقياً، وقد حصل على شهادة الدكتوراه من إحدى الجامعات البريطانية، ويجيد الحديث باللغة الإنكليزية، ويعرف كيف يطرح وجهة نظر حكومته بشكل علمي على شاشات التلفزة البريطانية والأميركية. تجنبت لقاء الدكتور أمين قطعاً للشائعات حول علاقتي بالعراق، فالحملات التي تريد تشويه صورتي كانت في ذروتها، خصوصاً في الصحافتين الكويتية والسعودية.

دعاني صديق مشترك إلى العشاء في منزله، وكان شقيق رجل أعمال عراقي معروف. فوجئت بأن الدكتور أمين كان مدعواً أيضاً. انتحى بي جانباً وأبلغني بأنه يحمل رسالة إليَّ من الرئيس صدام يعرض فيها دعم صحيفة «القدس العربي» بعد أن تحسنت أوضاع العراق المالية إثر السماح بتصدير النفط، لكنني اعتذرت له عن عدم قبول العرض بأدب شديد، وقد كتب الدكتور أمين عن هذه الواقعة مشكوراً في ردِّه على أحد الكتَّاب.

على الرغم من أنني، بشكل أكيد، لم أكن موافقاً على نظامه، فإن الإعدام المتلفز لصدام حسين في 30 كانون الأول/ديسمبر 2006 أشعرني بالانزعاج وجعل من الرجل شهيداً بالنسبة للبعض من خلال بث مشهد شجاعته على المشنقة عبر العالم. اعتماد الأميركيين على التلفزيون للتأثير على الرأي العام في بلادهم وفي الخارج غالباً ما يكون مضلِّلاً وفي أحيان كثيرة غير شريف.

الكثيرون سيتذكرون اللقطة المهينة التي عرضت اعتقال صدام، على سبيل المثال، والتي أخبرني محاميه، خليل الدليمي، أن كل ما فيها كان مفبركاً. لقد تم أسره قبل أيام من ذلك، بعد أن خانه أحد رجاله الذي زعم أنه ذاهب لشراء الخبز، فيما اتجه بدلاً من ذلك إلى أحد المراكز الأميركية وأخبرهم عن مكان اختباء صدام. بحسب الدليمي، فإن صدام خُدِّر لاحقاً وصُوِّر في الحفرة التي «اعتقل» فيها على يد الجنود الأميركيين المبتهجين الذين قاموا بفحصه للتأكد من خلو رأسه من القمل وكذلك فحصوا أسنانه بطريقة سخيفة لإذلاله.

بعض العراقيين يتذكر صدام الآن كبطل قاتلَ المحتلين؛ وقد تضاءل أثر أفعاله الدموية أمام الأكاذيب والأهوال التي جرت في الحرب الأخيرة. كما أن إرثه المحلي يمكن أن يُظهره كرئيس قام بتحديث العراق وتزويده بقاعدة علمية وتكنولوجية مزدهرة، حيث قام بمحو الأمية، وأمم صناعة النفط، وجعل من

بلاده قوة مرهوبة في الشرق الأوسط. سمعة صدام في العالم العربي بعد وفاته تعززت باعتباره الزعيم الذي قام بقصف تل أبيب صاروخياً، ودافع عن المقاومة الفلسطينية، وعوَّض عائلات الشهداء، كما دافع جيشه عن دمشق ضد دبابات الغزاة الإسرائيليين في حرب رمضان عام 1973.

أعترف أنني لم أكن معجباً قط بالأسلوب الفظ والدموي الذي كان الرئيس صدام حسين يستخدمه في حكمه للعراق، وقتله لمعارضيه بعد تعذيبهم من خلال أجهزة مخابراته الرهيبة. كما أنني لم أكن مؤيداً لحربه ضد إيران عام 1980، لأن إيران كانت في تلك الفترة تعيش ثورة أطاحت بنظام الشاه المتحالف مع إسرائيل، وكنت مثل الملايين غيري من المعجبين بالإمام الخميني مفجِّر هذه الثورة، وزاد إعجابي به عندما طرد السفير الإسرائيلي وأغلق سفارته، ثم سلمها بعد ذلك إلى ياسر عرفات لتصبح سفارة فلسطين.

المركز الثقافي العراقي الذي كان يديره الزميل سعد البزاز في تلك الفترة تحول إلى خلية نحل، فقد تأسس فيه استديو تلفزيوني لتسجيل مقابلات مع سياسيين وصحافيين عرب مؤيدين لحرب صدام ضد «الفرس المجوس» مثلما كان يسميهم الإعلام العراقي.

أما طائرة «جامبو» التابعة للخطوط الجوية العراقية التي تطير يومياً من بغداد إلى لندن وبالعكس، فكانت درجتها الأولى محجوزة لزوار العراق المؤيدين لصدام وحربه، ورفضتُ دعوات عديدة لزيارة بغداد حمل إحداها في يوم من الأيام السيد خالد القشطيني الذي كان يعمل مساعداً للسيد البزاز، وكان الزميل كاميران قره داغي يعمل في المكتب نفسه، وجميعهم انضموا للمعارضة بعد غزو العراق للكويت.

السيد البزاز أبلغني أنه كان يحتفظ في درج مكتبه بستين ألف جنيه إسترليني شهرياً يوزعها كيفما شاء على من يريد من الكتَّاب والصحافيين والسياسيين من دون تقديم أي إيصال، و120 ألف جنيه أخرى شهرياً يجب تقديم إيصالات بها وذكر أسماء من يتلقونها، وتبيَّن لاحقاً أن المركز الثقافي العراقي في لندن كان الفرع الرئيسي للمخابرات العراقية في أوروبا كلها.

كانت علاقتي بالبزاز جيدة على الصعيد الشخصي، فقد كان شخصاً لطيفاً يتمتع بحضور جذاب، وكان محباً للحياة الفارهة وعلى درجة كبيرة من الثقافة، وقد ألَّف أهم الكتب في نظري حول الحرب العراقية الكويتية بعنوان حرب تلد أخرى، وقد نشرتُه مسلسلاً في صحيفتنا وحقق نجاحاً كبيراً لأنه كان الأول من نوعه والأجود، لكنني لم أتعامل معه مطلقاً عندما كان مديراً للمركز الثقافي العراقي.

السيد البزاز انشق عن النظام وانضم إلى المعارضة وأسس صحيفة «الزمان» وأنشأ محطة تلفزيون «الشرقية»، وانقطعت علاقتي به.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

قيادة السفينة الغارقة!

صارت «القدس العربي» معروفة، ليس فقط لموقفها السياسي، ولكن أيضاً بتغطيتها غير التقليدية للفن والثقافة في القسم الثقافي الذي حرره الشاعر المعروف أمجد ناصر. أمجد أردني قضى العديد من السنوات مع الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. أراد الخروج على الأشكال التقليدية للشعر العربي الكلاسيكي وكان مثيراً للجدل في أسلوبه ومواقفه. قام من خلال صفحتي الثقافة في «القدس العربي» بدعم اتجاه غير تقليدي للشعراء والروائيين الجدد وحوَّل الصحيفة إلى منبر لهم، إضافة إلى الفنانين الذين يعملون في أشكال فنية حديثة. كانت النتيجة أعمالاً ما كانت لترى النور في الجرائد المحافظة، كما عززت صورة الصحيفة وشعبيتها بين الشباب.

قمنا أيضاً بمجهودنا الخاص في دعم المساواة. من الصعب على النساء المضي قدماً في معظم وسائل الإعلام العربية وأتمنى أن تكون قصة نجاح مديرة التحرير، سناء العالول، مثالاً يشجع أخريات في هذا التخصص. جاءت سناء إلى مكاتبنا منذ اليوم الأول لبدء عملنا في الصحيفة وأصرت على أن ترى رئيس التحرير (أنا).

طرحت سناء الموضوع مباشرة:

- «اسمع، عبد الباري عطوان، أنا منذ زمن معجبة بكتاباتك. أريد أن أتعلم منك وأن أعمل معك هنا».

فوجئت بالموقف. قلت:

- «عظيم، ولكن ليس لدي حالياً أي وظيفة شاغرة.

- أنا أحضِّر أطروحة ماجستير في الصحافة في «سيتي يونيفرستي»، ليس عليك أن تدفع لي. سيكون عملي نوعاً من الخبرة العملية. ماذا تقول؟

- هل لديَّ خيار؟

- لا.

- حسناً.

ضحكتْ. أقرُّ بأنها أثارت إعجابي؛ فأنا أحب الإصرار والتصميم على شيء. بدأت سناء العمل في اليوم التالي وكانت شديدة الحماسة، ويمكن الاعتماد عليها، كما كانت تعمل بجهد كبير بحيث أصبحت لا يمكن الاستغناء عنها. تطورت سناء لتصبح صحافية سياسية ممتازة وقمت بترقيتها عبر المراتب التحريرية إلى أن أصبحت مديرة عامة للتحرير تدير الصحيفة في غيابي. في

بعض الأحيان، أفكر في أنها الشخص القادر على امتصاص الصدمات لأنها قادرة على التعامل مع الانتقادات والصراعات والمشاكل، بشكل أفضل من كثير من الرجال الذين يمكن أن يتراجعوا في المواقف الصعبة. حين ذهبت لمقابلة بن لادن، كانت الشخص الوحيد الذي أخبرته بالسر. لم أخبر حتى زوجتي وعائلتي إلى أين كنت ذاهباً. على حد علمي، نحن الصحيفة الوحيدة التي تشغل فيها امرأة منصب نائب رئيس التحرير. لدي صحافية أخرى بين المحررين، مها بربار، المسؤولة عن الشؤون الفلسطينية. سناء ومها متزوجتان من شخصين يعملان في الجريدة المنافسة لنا، «الحياة» (عبد الوهاب بدرخان، زوج سناء، كان نائباً لرئيس تحرير «الحياة»، وقد ترك الصحيفة لاحقاً لكنه لا يزال يكتب فيها).

عندما حدث خلاف بيني وبين ناشر الصحيفة، وصدر قرار بفصلي من رئاسة التحرير، وقفت الزميلة سناء العالول موقفاً صلباً إلى جانبي، ورفضت مع مجموعة من الزملاء العودة إلى العمل، وأصرت على أن أعود إلى منصبي، وقد نجحت بحكم صلاتها القوية مع القيادة الفلسطينية في تونس بإلغاء قرار الفصل، وبعودتي إلى العمل على رأس الصحيفة. وظلت دائماً تقف إلى جانبي، وكانت شريكة مخلصة ورمزاً للوفاء والتفاني في العمل.

الزميلة سناء صبورة، هادئة، وتتعلم بسرعة، ولديها قدرة كبيرة على التحمل والعمل لساعات طويلة، ويعود لها الفضل الأول في تأسيس وتطوير موقع الصحيفة إلكترونياً، فقد كنت ولا أزال جاهلاً في أمور التكنولوجيا، ونجحت وحدها تقريباً في جعل موقع صحيفة «القدس العربي» على الإنترنت واحداً من أكثر المواقع الصحافية قراءة، وبلغ عدد الزوار حوالي ربع مليون زائر يومياً، ووصل ترتيبنا إلى 3000 على مستوى العالم بأسره أثناء فترة اندلاع الثورات العربية، وهو موقع متقدم للغاية مقارنة مع مواقع صحف أخرى.

لا أعرف كم سنستمر في إصدار طبعتنا الورقية، ولكن ما أعرفه هو أن المستقبل للصحافة الإلكترونية، وبدأنا منذ عامين تقريباً استثمار الكثير من الجهد والقليل من المال (لعدم وجوده) في التركيز على الموقع الإلكتروني، وبات هذا التحول يعطي ثماره، فقد انهالت علينا الإعلانات بسبب كثرة الإقبال على موقعنا، وهو أمر لم يحدث مثله في الطبعة الورقية.

يشبِّه البعض صحيفتنا بالجامعة العربية لأن العاملين فيها هم من كل أنحاء العالم العربي. يشكل العاملون في الصحيفة مجموعة متماسكة. خلال شهر رمضان، نقوم بتداول تنظيم وجبة الإفطار بين كل العاملين ونفطر معاً بعد أذان المغرب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

هجمات 11 أيلول/سبتمبر 2001

رحلتي إلى أفغانستان في تشرين الثاني/نوفمبر عام 1996 التي استغرقت عشرة أيام قضيت ثلاثة منها في صحبة الشيخ أسامة بن لادن زعيم تنظيم القاعدة الراحل في جبال تورا بورا الوعرة (يمكن متابعة تفاصيل الرحلة كاملة في الفصل الثامن من هذا الكتاب)، شكَّلت انقلاباً، بل نقطة تحول في حياتي المهنية، فقد نقلتني من صحافي عربي محلي إلى كاتب عالمي ومرجع في شؤون الإسلام السياسي وما يسمى بالإرهاب الدولي، حيث تهافتت على استضافتي كبريات المحطات العالمية مثل سي. إن. إن وبي. بي. سي وسكاي وغيرها. ومع ذلك، فإن كل هذه الخبرة لم تجعلني أتوقع ما حدث في الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، وأعني هنا الهجمات على مركز التجارة العالمي في نيويورك.

كنت في مكتبي حين اتصل بي صديق. «افتح التلفزيون»، قال. لم أستطع أن أصدِّق عينيَّ حين شاهدت الدخان يتصاعد من أحد البرجين التوأمين، اللذين يعتبران منارتين للرأسمالية والحضارة الغربية. في البداية، مثل معظم وسائل الإعلام العالمية، اعتقدت أن ذلك كان حادثاً عادياً مثل كل حوادث الطيران الأخرى، لكن عندما اصطدمت الطائرة الثانية بالمبنى وكشفت الأخبار أن البنتاغون كان مستهدفاً أيضاً، تأكدت من أن من المرجح أن يكون ذلك الهجوم من صنع «القاعدة». الرمزية وكذلك حجم الهجوم والجرأة عناصر حملت كلها بصمات التنظيم، وكذلك، فإن الطريقة التي استخدمت لتدمير البرجين ذكَّرتني بتفجيرات الشاحنات في دار السلام ونيروبي، حين استخدمت إحدى العربتين للهجوم الأول، ثم تبعتها أخرى لتقوم بالضربة القاتلة. بالطبع، هذه العملية كانت أكبر بكثير من أي هجوم إرهابي في التاريخ، وقد فاجأني أن تكون لدى «القاعدة» الموارد لتنفيذه، لكن أسامة بن لادن كان قد أقسم أن «يوجه ضربة لأميركا سوف تهزها من أساسها»، وهو لم يفشل في تنفيذ تهديداته، بشكل أو بآخر. ما لبث أن امتلأ مكتبي بعاملي الصحيفة وصرنا جميعنا نشاهد الدمار وهو يتكشف شيئاً فشيئاً.

مثل معظم الناس في بريطانيا، كنت مصدوماً ومرعوباً، خصوصاً حين بدأ الضحايا برمي أنفسهم من البناء الذي يحترق. لم يرَ العالم شيئاً مماثلاً إلا في الأفلام. لا أزال اعتقد أنه، لو قام الأميركيون بالاستفادة من التعاطف العالمي معهم، فإن التاريخ كان سيتجه اتجاهاً مختلفاً. على العكس من ذلك، قام الرئيس بوش وتوني بلير باعتبار 11 أيلول/سبتمبر «هجوماً على الحضارة الغربية»، بحيث جعلوا العالم الإسلامي كله عدوهم الجديد، كما لو كانا يعيدان تقديم الحرب الباردة بديكور جديد، من خلال قصف شامل لأفغانستان، وبعد سنتين من ذلك، اجتياح العراق.

بدأ هاتفي بالرنين فيما كنت متسمراً أمام شاشة التلفزيون في مكتبي.

كان أليستير ليون من رويترز. كنا نعرف بعضنا البعض جيداً ولم يكن مهتماً بالمجاملات التقليدية. «عبد الباري، ماذا تظن؟». أجبته: «هذا من عمل القاعدة». لدينا ثمانية خطوط هاتفية في «القدس العربي» وهي لم تتوقف عن الرنين خلال الشهرين التاليين. الجميع في وسائل الإعلام العالمية كان يريد التحدث إليَّ لأنني كنت الوحيد من بين الصحافيين العالميين الذي التقى الشيخ أسامة بن لادن ومكث معه ثلاثة أيام في تورا بورا. في 11 و12 أيلول/سبتمبر، كان هناك ثلاثون طاقماً أو أكثر يخيِّمون خارج مكاتبنا في «كنغ ستريت، همرسميث». كان عليَّ أن أغادر من الباب الخلفي لتجنب حجزي من قبل الصحافيين وبدأت أشعر بالأسف على المشاهير الذين يعانون من اقتحام خصوصياتهم بشكل يومي.

في أعقاب أحداث 11 أيلول/سبتمبر وتعليقاتي على هذا الحدث المأساوي، اتصلت بي أربع شبكات تلفزيونية (سي إن إن، آي بي سي، سي بي سي، إن بي سي) لأكون مستشارها الخاص في موضوع «القاعدة». من هذه المحطات، اخترت سي إن إن التي كانت، برأيي، الأفضل في تغطيتها لحرب الخليج، وقد نالت التقدير على ذلك في العالم العربي.

وكان العقد مفتوحاً، وبمبلغ مالي يومي كبير، ووظيفتي بحسب نصوصه أن أكون مستشاراً ومعلقاً. وكنت أظهر على شاشة المحطة ثلاث مرات في اليوم، وقد اخترتها بسبب شهرتها العالمية رغم أن عروض القنوات الأخرى المالية كانت أفضل كثيراً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

تحت الضغط

ازدياد التوزيع بشكل يومي إضافة إلى الرسائل والردود من القراء كانت دلائل على تزايد شعبيتنا رغم أن «القدس العربي» مُنعت عدة مرات في معظم البلدان العربية. لم يكن الكل مسرورين من نجاحنا، وكان هناك عدة محاولات لتخريب عملياتنا. اقتُحمت مكاتبنا عدة مرات من جهات عديدة بهدف اكتشاف علاقات بيني أنا شخصياً أو أحد الموظفين بأي «بعبع» من جهة صدام حسين (بسبب وجود مزاعم بأنه كان يدعم الصحيفة مالياً) أو أسامة بن لادن. في أعقاب 11 أيلول/سبتمبر، وجدت نفسي مستهدفاً بحملة كراهية بالبريد الإلكتروني من منظمات يمينية، كانت تعتبرني مناصراً للقاعدة لا صحافياً محترفاً يقوم بعمله وفق الأصول المهنية. إحدى هذه الرسائل تقول، «أيها الحثالة الأجنبية. نحن نعرف أين تقيم وسوف نقتلك».

تلقيت تهديدات أخرى بالقتل وكانت لكل واحدة منها وجهة نظر خاصة ومنطقاً غريبين. كان هناك العديد من الأصوليين الإسلاميين الذين اعتقدوا أن القاعدة غير قادرة على هجوم كهذا وظنوا أنني أشوِّه صورتهم. أشاروا إلى تفجيرات أوكلاهوما التي اتُّهمت بها تشكيلة من المنظمات الأصولية بما فيها حزب الله، ليتبيَّن للجميع بسرعة أن الجاني كان أميركياً يدعى تيموثي مكفي.

بحسب آرائهم، كنت جزءاً من حملة تشويه ضد القاعدة ساهمت فيها السي آي إيه، ولذلك أرادوا موتي. بقيت هدفاً لنظرية المؤامرة هذه لمدة ثلاث سنوات إلى أن أعلن أسامة بن لادن رسمياً في تشرين الأول/أكتوبر 2004 مسؤوليته عن هجمات 11 أيلول/سبتمبر.

بعد ذلك، جاء دور فرع منظمة كلو كلكس كلان البريطاني، وهي منظمة عنصرية اشتهرت بعنفها الوحشيِّ ضد السود في الولايات المتحدة الأميركية.

لم يكن أحد يعلم أن هناك فرعاً في لندن لهؤلاء إلى أن دخلت في الصورة. صباح أحد الأيام، في منزلي، سمعت رنَّة صندوق البريد ونزلت إلى أسفل. وجدت رسالة مصممة على الكومبيوتر تحمل رمز المنظمة، تقول: «أنت تدافع عن هؤلاء الإرهابيين المسلمين وسوف نعود مرة أخرى ونصل إليك». هذه المرة، اتصلت بالشرطة التي أخذت التهديد على محمل الجد لأن الكي كي كي وصلت إلى عنواني. عرضت الشرطة عليَّ حراسة مسلحة على مدى 24 ساعة عند بيتي، لكنني رفضت.

وجود الشرطة كان سيسبب القلق لعائلتي وفضلت أن أجازف في موضوع الكي كي كي، فهم كانوا قادرين على مفاجأتي والتعرض لي بدلاً من وضع

رسالة فحسب. حتى كتابتي هذا الكتاب لم تكن عائلتي تعرف شيئاً عن تلك الرسالة أو عن تلك المعضلة التي عانيت منها.

كانت هناك محاولات تخريب أخرى أكثر حذراً. إحدى الطرائق التي أصبحت معتاداً عليها هي حملات الشكوى ضدي من مشاهدين مزيفين.

خلال حرب الخليج الأولى كنت معتاداً على التعليق في الخدمة العربية في البي بي سي التي أُغرقت بالرسائل التي تزعم أنني كنت منحازاً وأنني مؤيد لصدام حسين. انتبهت سكرتيرة ذكية إلى أن كل تلك الرسائل كانت تجيء من ثلاث مناطق بعينها ونقلت شكوكاً بصدقيتها للمسؤولين في المؤسسة. قامت خدمة البي بي سي العالمية بمراجعة تعليقاتي خلال عدة أشهر وخلصت إلى أن طريقتي في التعليق كانت متوازنة. نتيجة ذلك، طُلب إليَّ أن أشارك في برامجها بتعليقاتي وتحليلاتي بشكل أكبر.

بعد 11 أيلول/سبتمبر صرت ضيفاً منتظماً على برنامج يدعى «ديتلاين لندن» على قناة بي بي سي 24 الإخبارية وهو برنامج يعتبر من أنجح برامجها، ويعاد بثه عدة مرات في محطة بي بي سي وورلد ويشاهده الملايين في مختلف أنحاء العالم، وبدأ مكتبهم بتلقي سيل لا نهاية له من الرسائل الإلكترونية اللاذعة من «بروفسور في جامعة حيفا». اشتكى «البروفسور» من أنني كنت أساند الإرهاب والعمليات الانتحارية وطالب بمنعي من الظهور. قرر أحد الباحثين في بي بي سي البحث عن هوية البروفسور واكتشف أنه شخص غير موجود وخلص إلى أنه قد يكون عميلاً للموساد. وقبل فترة كنت أيضاً هدفاً لحملة تشويه إلكترونية، حيث تمَّ تشويه المعلومات عني في ويكيبيديا ووضع عدد من المعلومات الخاطئة بدلاً منها، بعض هذه المعلومات أُرسلت من «ميمري»، وهي منظمة يرأسها أعضاء سابقون في المخابرات الإسرائيلية.

تلقيت تهديدات بالاغتيال من جهات أعتقد أنها إسرائيلية، خصوصاً في عامي 2010 و2011 حيث ألقيت سلسلة من المحاضرات في جامعات بريطانية عريقة مثل أكسفورد وكامبريدج وكلية لندن لعلوم الاقتصاد حول اللوبي الصهيوني وأخطاره، وقد كانت صحيفة «جويش كرونيكل» الأسبوعية الناطقة باسم اليهود في بريطانيا رأس الحربة في حملة التحريض ضدي، ونشرت صورتي على معظم صفحتها الأولى مع عنوان رئيسي يتساءل عن السماح لشخص مثلي بإلقاء محاضرات ضد إسرائيل في الجامعات البريطانية، واتهمتني بمعاداة السامية، وشاركت في الحملة أيضاً صحيفة «جيروزاليم بوست» الإسرائيلية اليمينية، وعشرات المواقع على شبكة الإنترنت أيضاً. وطالب صحافيون إسرائيليون محطات تلفزة بريطانية بمنع استضافتي في برامجها بحجة دعمي للإرهاب، ومن المؤسف أن هذه الحملة أعطت ثمارها،

فقد امتنعت هذه المحطات مثل بي بي سي وسكاي نيوز عن استضافتي لأشهر عديدة.

الرسالة الأخطر التي أعتقد أن مخابرات إسرائيلية تقف خلفها جاءت في مطلع عام 2011 عبر البريد من نوتردام في هولندا، تطالبني بالرحيل من بريطانيا والذهاب إلى أي بلد آخر، واقترحت قطر حيث قناة الجزيرة، وإلا فإني سأتعرض للاغتيال. وقال كاتب الرسالة إن عليَّ أن أحذِّر أيضاً الشيخ رائد صلاح أحد زعماء الحركة الإسلامية في فلسطين المحتلة عام 1948 فهو مستهدف بالاغتيال أيضاً.

بادرت بإبلاغ البوليس البريطاني بهذا التهديد أيضاً، ولا أعرف ماذا حدث بعد ذلك، لكني لم أغيِّر مطلقاً أسلوب حياتي، ولم أعبأ بمثل هذه التهديدات، فأنا إنسان مؤمن لا أخاف الموت مطلقاً، وأرد دائماً على من يسألني عما إذا كنت أخشى التهديدات بالقول إنني لست أفضل من أطفالنا وشبابنا العرب والمسلمين، وخصوصاً في فلسطين، الذين يستشهدون من أجل قضايانا العادلة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حزب العمال والبي بي سي

في أعقاب هجمات نيويورك وواشنطن انتبهنا، نحن الصحافيين العرب العاملين في لندن، إلى أن وزارة الخارجية البريطانية تعاود التودد إلينا. باعتبارها الحليف الأول للولايات المتحدة، قررت الحكومة البريطانية أن تربح عقول المسلمين وقلوبهم ورأت أن تأثيرنا في الرأي العام العربي والإسلامي أصبح مؤثراً ومطلوباً. عُرضت عليَّ مقابلات مع توني بلير، رئيس الوزراء البريطاني في ذلك الوقت، وجاك سترو وزير الخارجية، بل عُرض أيضاً نشر مقالات لجاك سترو في صحيفتنا، لكنني رفضت. لم أكن مقتنعاً بصدق هذه المبادرات، خصوصاً أن هذين الرجلين كانا عضوين في لوبي أصدقاء إسرائيل في حزب العمال. إضافة إلى ذلك، كنت أدرك أن هدف هذه المقالات واللقاءات دعائيٌّ ويهدف لتحقيق أهداف متناقضة مع قناعاتي ومواقفي السياسية.

بعد أسابيع قليلة، دُعيت للظهور في «نيوزنايت» (برنامج الأخبار المسائية الأشهر في بريطانيا). كنت قد بدأت أرفض طلبات الظهور في مقابلات لأنني بدأت أحس بالإنهاك، لكنني قبلت الظهور في «نيوزنايت» لاحترامي لهذا البرنامج.

تركت كل شيء آخر يشغلني واتجهت مباشرة إلى السيارة التي أرسلتها بي بي سي، ووصلت إلى الاستديو الساعة العاشرة والربع مساء، لأكون جاهزاً مع بداية البرنامج الساعة العاشرة والنصف. فوجئت، وانزعجت كثيراً، حين جاءتني مساعدة المنتج مبتسمة إلى مكتب الاستقبال لتقول: «مساء الخير، سيد عطوان. أنا متأسفة لأننا لن نستطيع أن نستضيفك الليلة». درت بكعبي وخرجت. بعد ليلتين، حصل الأمر نفسه مرة أخرى. وصلت هناك وظهرت المساعدة نفسها، وهذه المرة كانت تبدو خجلة:

- «أنا آسفة.

- لماذا؟

- لأننا غيرنا التركيبة، وهو الأمر الذي بدا غير مفهوم بالنسبة لي اليوم مثلما كان تلك الليلة. البي بي سي 1 تريدك، أضافت كما لو كانت تعزيني.

- أعلم، كلهم يريدونني».

أجبت محاولاً أن أرسم ابتسامة على وجهي رغم غضبي. فبنهاية الأمر، هذا ليس ذنبها. عدت إلى السيارة وتوجهت إلى همرسميث. أقسمت ألا أظهر مرة أخرى في برنامج «نيوزنايت» ما لم أحصل على اعتذار كامل، وفوق ذلك، على تفسير لما حصل.

مضت ستة أشهر إلى أن اكتشفت السبب الحقيقي خلف سلسلة الأحداث هذه. في أحد الأيام، جاء مراسل مخضرم من فريق «نيوزنايت» إلى مكتبي، طلب إليَّ عدم ذكر اسمه، واعتذر بداية عن الطريقة التي عوملت بها. بعد ذلك شرح لي أن ظهوري أُلغي في الدقيقة الأخيرة في المرة الأولى لأن رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق إيهود باراك كان مدعواً للمشاركة في الجلسة نفسها. في المرة الثانية، كان بنيامين نتنياهو هو من سيجلس بمواجهتي: «الإسرائيليون يكرهونك، لأنك تتحدث بصراحة وحماسة عاطفية بحيث تُظهر ممثليهم ضعفاء. السفارة الإسرائيلية لديها سياسة غير رسمية تمنع أي شخص من طرفها من الظهور معك».

قد يتساءل القارئ لماذا تقوم البي بي سي بالطلب إلى إسرائيلي - ناهيك عن كونه رئيس وزراء - أن يناقش قضية «القاعدة» بدلاً من شخص لم يقابل بن لادن فحسب، بل لديه أيضاً خبرة سنوات عديدة في الموضوع. السبب، كما أعتقد، هو العلاقة الوثيقة بين بي بي سي والحكومة البريطانية، وكذلك العلاقة الأوثق بين الحكومة البريطانية وإسرائيل، والتي ينتج منها انحيازها ضد العرب وتأييدها لإسرائيل. بنهاية عام 2005، كنت مدعواً لتقديم ورقة إلى «لجنة الحياد» في بي بي سي التي كانت تحقق في هذه القضية، وسررت من هذه الفرصة لتقديم ملاحظاتي التي جمعتها عبر السنين. أشرت إلى أن بي بي سي بشكل اعتيادي هي منبر للإسرائيليين للتعبير عن آرائهم وتحليلاتهم للقضايا العربية، العراق، وما يسمى «الحرب على الإرهاب»، وقضايا استراتيجية ذات علاقة بكل ذلك، بينما تلجأ لآراء المعلقين العرب بشكل أقل بكثير. نتيجة ذلك، فإن المعلقين الإسرائيليين يقدَّمون باعتبارهم خبرات لا يمكن الطعن فيها في مجالات السياسة الشرق أوسطية.

على مدى فترة من الزمن، كان لهذا الأمر تأثير تشويهي ومضلل وكانت كتابة التاريخ المعاصر تتم أثناء حصوله. بالنسبة لأغلب مشاهدي بي بي سي، تشكِّل المؤسسة مصدرهم الأساسي للمعلومات والتعلم، وهم يثقون بها بشكل مطلق. لذلك فإن العرض الواضح والموضوعي لا يجب أن يقتصر على الإخبار ولكن أيضاً على السياق السياسي والتاريخي للأحداث الراهنة.

هذا البعد مهمَل بالنسبة للصراع الفلسطيني - الإسرائيلي. لقد أخبرني عاملون في بي بي سي أن السفارة الإسرائيلية في لندن تقترح بشكل منتظم أفكاراً على منتجي «توداي» (برنامج ذو تأثير مهم للأخبار والتحاليل يُبث يومياً في بي بي سي راديو 4) وأن هذه الأفكار غالباً ما يؤخذ بها. فريق العمل في القدس المحتلة يقوم بعد ذلك بالعمل عليها، وهو ما يؤدي في بعض الحالات إلى تقارير تؤدي دوراً منحازاً بدلاً من أسلوب التحقيق الصحافي الذي هو العمود الفقري في الصحافة الجيدة.

يركز الإسرائيليون على التأثير في برامج ذات وزن كبير تُبث في أوقات الذروة مثل «توداي» لأسباب واضحة. وفي الحالات النادرة التي يقوم فيها برنامج بدراسة المنظور الفلسطيني للقضية فإنه يُبث في أوقات ضعيفة المشاهدة.

حتى المثقفون الفلسطينيون المشهورون عالمياً مثل إدوارد سعيد كانوا يُهمَّشون. أذكر في عام 2003، أن بي بي سي كان لديها برنامج ممتاز عن إدوارد سعيد لكنها اختارت أن تبثه على قناة بي بي سي 4 ذات الجمهور المحدود. من ناحية أخرى، فإن برنامجاً وثائقياً مثل «الموقف الأخير»، الذي بُثَّ يوم الخميس 10 تشرين الثاني/نوفمبر 2005 والذي تناول التعاطي مع انسحاب المستوطنين الإسرائيليين من غزة، عُرض في الساعة 9 مساء على قناة بي بي سي 2، وهي فترة ذروة في عدد المشاهدين. كان ذلك الوثائقي رصداً انفعالياً وذا جانب واحد في رؤية هذا الحدث التاريخي، وأنا متأكد من أن استيعاب المشاهدين للمستوطنين - الذين جرى تصويرهم كضحايا وأبطال - كان يمكن أن يكون مختلفاً لو قُدِّم لهم عرض لكامل الوقائع التاريخية والقانونية والسياسية لهذه القضية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المقارنة الأكثر وضوحاً تاريخياً هي مع جنوب أفريقيا العنصرية.

فهناك كان نظام غير ديموقراطي تشرف عليه الأقلية وملتزم بالقمع، والإذلال، والاستغلال، وإهانة الشعب الأصلي. نحن نعلم أن هذا الأمر نتج من التغطية الإعلامية الممتازة للوضع البغيض خلال فترة النظام العنصري، ولم تكن بي بي سي استثناء. عند حصول أمر وحشي ضد السكان السود في جنوب أفريقيا، لم نكن نشهد مسارعة إلى تقديم تغطية «متوازنة» من خلال مستوطن «أفريكاني» يشرح أجندته بعناية. كان موقف بي بي سي ضد العنصرية واضحاً ولم تكن خجلة من بث الحقيقة بطريقة كانت تعرِّضها لدعوات الإدانة.

الاهتمام باللغة التي تستخدمها بي بي سي في تغطيتها للنزاع الحالي يكشف الكثير. في بداية الانتفاضة الثانية تحولت المناطق المحتلة إلى مناطق «متنازع» عليها، المستوطنات غير القانونية أصبحت «المناطق المجاورة» ووفيات الفلسطينيين كان يتم عرضها كأرقام بينما كانت إنسانية بي بي سي تظهر حين يموت إسرائيليون وتُقرأ أسماؤهم.

تقرير غريغ فيلو، «أخبار سيئة من إسرائيل: التغطية الإعلامية للنزاع الإسرائيلي - الفلسطيني» (الذي وصفته السيدة الفائقة الاحترام كلير شورت لي بأنه «يقول الحقيقة كلها، حقاً»)، قام بتسجيل عدد من الحالات أدى اختيار الكلمات فيها إلى تشويه فهم المشاهدين للأحداث. على سبيل المثال، «عشرات من الفلسطينيين والإسرائيليين قتلوا في جولة من العمليات الانتحارية والعمليات الهجومية المضادة الإسرائيلية». هذا يعني أن الإسرائيليين لم يستخدموا العنف إلا عند اضطرارهم للدفاع عن أنفسهم.

وفي برامج ومواضيع بي بي سي حول تاريخ الإرهاب في الشرق الأوسط نادراً ما تُذكر عصابات الإرهاب الصهيوني. رغم أن هذه العصابات الإرهابية نفَّذت العديد من المجازر ضد البريطانيين خلال فترة الانتداب: عصابة الأرغون نسفت فندق الملك داود في القدس عام 1946، على سبيل المثال، حين كان يُستخدم قاعدة للحكومة البريطانية، ما أدى لمقتل واحد وتسعين شخصاً ودفع الحكومة البريطانية لوضع جائزة نقدية قدرها خمسون ألف جنيه إسترليني مقابل معلومات تقود لاعتقال قائدها الفار من العدالة. ذلك القائد كان ميناحيم بيغن الذي سيصبح رئيس وزراء لإسرائيل بين 1977 و1982. لم يكن بيغن القائد الوحيد الذي جاء من خلفية إرهابية: يتسحاق شامير (رئيس الوزراء بين 1983 و1984 ثم خلال الفترة 1986-1992) والذي رأس عصابة شتيرن؛ ويتسحاق رابين (1974-1976) كانا جزءاً من الجماعة شبه العسكرية

الغامضة، هاغانا. كل الجماعات الإرهابية الإسرائيلية التي ذكرتها قامت بمجازر ضد الفلاحين الفلسطينيين العزَّل. وقد ناقشت ذلك في قسم سابق من هذا الكتاب.

أنا، كما آخرون كثيرون، أعتقد أن اللوبي الصهيوني يمارس تأثيراً كبيراً على السياسة التحريرية لبي بي سي وبرامجها، من خلال الحكومة، التي تقوم بدورها بتمويل بي بي سي. «جمعية أصدقاء إسرائيل في حزب العمال» على الأغلب، هي المنظمة الأكبر تأثيراً من بين عدة منظمات. وهي المجموعة الأولى التي انضم إليها توني بلير حين دخل البرلمان عام 1983، وتُعتبر هذه العضوية أساسية كنقطة انطلاق نحو منصب وزاري. وتسعى «جمعية أصدقاء إسرائيل» لضمان بقاء سياسة حزب العمال مؤيدة لإسرائيل، وتجري استشارة أعضائها بشكل منتظم بخصوص المواضيع ذات العلاقة بالشرق الأوسط.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

لوبي يهودي ماكر

اللوبي اليهودي الموالي لإسرائيل في بريطانيا يُعتبر الأنشط والأخطر، فرغم أن تعداد اليهود كجالية لا يزيد عن 400 ألف (المسلمون حوالي 1،5 مليون على الأقل) إلا أنه مسيطر تماماً على الإعلام وبعض أوجه القطاع المالي والاقتصادي، وإن كانت هذه السيطرة بدأت في التآكل بشكل بطيء بفعل الجيلين الثاني والثالث من المهاجرين المسلمين والعرب وازدياد حضورهم في الجامعات وأوجه الحياة الأخرى، وهؤلاء يختلفون عن آبائهم من حيث تخلصهم من عقدة الخوف، والتصرف كمواطنين مثل زملائهم «البيض»، لهم الحقوق نفسها.

بدأ اللوبي اليهودي الإسرائيلي ينتبه إلى تأثيري مبكراً، لكنه كثَّف عمليات مطاردتي، ومحاولات منعي من الظهور كمحاضر في الجامعات، وكمعلق على شاشات التلفزة، في أواسط التسعينات، حيث كنت أركز على أن الحرب على العراق كانت لأهداف إسرائيلية بالدرجة الأولى واقتصادية نفطية بالدرجة الثانية، فإسرائيل كانت تخشى من طموحات الرئيس العراقي الراحل صدام حسين إلى تحويل العراق إلى قوة إقليمية عسكرية عظمى تملك أسلحة بيولوجية وكيميائية ونووية. وبدأت أطالب بنزع أسلحة إسرائيل النووية التي تشكل خطراً أكبر على المنطقة والعالم في كل مرة تثار فيها مسألة أسلحة الدمار الشامل العراقية.

تضاعفت الضغوط الصهيونية عليَّ بعد أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، حيث ربطت هذه الأحداث بالإهانة الكبيرة والإذلال المتعمد الذي يتعرض له العرب بسبب الدعم الأميركي والغربي لإسرائيل وعدوانها على الأمتين العربية والإسلامية، وأصبحت أركز على أن إسرائيل تشكل عبئاً أمنياً وأخلاقياً كبيراً وثقيلاً على الغرب بسبب سياساتها العدوانية على جيرانها ولا بد للغرب من أن يتخلى عن هذا العبء إذا كان يؤمن فعلاً بالديموقراطية وحقوق الإنسان واستقرار منطقتنا والعالم.

استراتيجية اللوبي اليهودي الإسرائيلي لمحاصرتي ومحاربتي كانت على درجة كبيرة من الدهاء وركزت على أمرين أساسيين، الأول هو تشويه صورتي من خلال تهمة التطرف ودعم الإرهاب، والعمليات الاستشهادية على وجه الخصوص بحسب توصيفهم، وبذل كل الطرق والوسائل لمنعي من الوصول إلى الرأي العام الغربي من خلال وسائل الإعلام المرئية والمسموعة بخاصة.

أحد الأصدقاء في محطة بي بي سي أبلغني بأن السفارة الإسرائيلية في لندن كلفت مجموعة من الباحثين بإجراء دراسة حول النفوذ العربي والإسلامي في وسائل الإعلام البريطانية، وخلصت هذه الدراسة إلى أن عبد الباري عطوان

هو الأخطر على المصالح الإسرائيلية، لأن كل من يظهر معه على شاشة التلفزة يخسر المنازلة ومعظم المشاهدين بالتالي، لأنه عفوي وصادق ومباشر ولديه قدرة وموهبة غير عاديتين في التأثير على الرأي العام Good communicator ولهذا يجب إبعاده بكل الطرق والوسائل.

السفارة الإسرائيلية تبنت طريقة خبيثة في محاولة منعي من الظهور في المحطات البريطانية، تتلخص في منع أي إسرائيلي من الظهور معي في أي برنامج، ومطالبة المحطات باستضافة أي شخص آخر إذا كانوا يريدون متحدثاً إسرائيلياً في البرنامج، وبهذه الطريقة استطاعوا إبعادي، لأن أي برنامج يريد أن تتمثل وجهتا النظر فيه، خصوصاً إذا كان الموضوع عن الصراع العربي الإسرائيلي، ووجهة النظر الإسرائيلية الرسمية مهمة في هذا الشأن.

سقط الإعلام البريطاني سقطة مريعة أثناء حرب غزة، وخصوصاً شبكة بي بي سي وقنواتها. فقد التزم المسؤولون في هذه المحطات بوجهة النظر الإسرائيلية للأسف، وأبعدت وجهة النظر العربية قدر الإمكان في المقابل، وكان أمراً مؤسفاً أن تغطي المحطات العالمية هذه الحرب من على بعد عدة كيلومترات من حدود القطاع ومن على تلة صغيرة، وكان مؤسفاً أكثر أن المراسلين كانوا يرتدون السترات الواقية من الرصاص للإيحاء بأنهم في مناطق العمليات. كان السفير الإسرائيلي مقيماً في محطة بي بي سي ويقضي معظم وقته بين قنواتها ومحطاتها الإذاعية، بينما لم أُدعَ على الإطلاق للمشاركة في أي برنامج، وأنا ابن القطاع، وأهلي كانوا تحت القصف لأكثر من ثلاثة أسابيع.

المساهمة المالية التي تقدمها «جمعية أصدقاء إسرائيل» لحزب العمال لا يمكن تجاهلها، فحسب البي بي سي، في 7 أيلول/سبتمبر 2007، فإن اللورد سينزبري دفع قرضاً بأكثر من 16 مليون جنيه، ومايكل ليفي، الذي منحه توني بلير لقب لورد، تقديراً لخدماته، والذي سلَّمه منصب «المبعوث الخاص للشرق الأوسط»، كان ناجحاً في دوره بجمع التبرعات لحزب العمال لدرجة أنه صار يُعرف باسم «اللورد خزانة النقود»، إلى أن اعتقلته الشرطة وحققت معه عام 2007 بخصوص فضيحة «المال مقابل ألقاب اللوردية». إذا أخذنا بالاعتبار أن لديه منزلاً وشركات في إسرائيل وأن ابنه دانييل كان يعمل مع وزير العدل في إسرائيل، يوسي بيلين، فمن المستحيل أن يكون لمايكل ليفي رأي حيادي في القضية الفلسطينية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

قناة الجزيرة

لعدة سنوات، وقفت «القدس العربي» بشكل أو بآخر شبه وحيدة باعتبارها في طليعة الإعلام العربي المستقل؛ أما قناة الجزيرة، التي ستغيِّر مشهد البث العربي، فلم تظهر حتى عام 1996. وفي بداياتها تجمعت كل العناصر الموجودة في المسلسلات الدرامية الطويلة التي تسمَّى في الغرب «أوبرا الصابون»؛ الانتهازية، والثروة، والالتزام البطولي بقضية (في هذه الحالة التزام بالحقيقة) وخصوم عازمون على تدميرها.

عام 1994، أعلنت بي بي سي عن إطلاق قناة تلفزيونية ناطقة بالعربية كجزء من خدمة بي بي سي العالمية. من الطبيعي أن هذه الخطوة أثارت حماسة في العالم العربي: كانت القنوات الأميركية مثل سي إن إن تبث منذ فترة إلى المنطقة، لكن أقلية فقط من العرب تتحدث الإنكليزية. قناة بي بي سي العربية الوليدة أعلنت عن حاجتها لموظفين في لندن وكنت قلقاً من أن يغري ذلك بعضاً من العاملين في صحيفتنا الفقيرة بالالتحاق بالعالم البراق للبث التلفزيوني. في أحد الأيام، زارتني سيدتان أنيقتان، بدتا غريبتَي الشكل في مكاتبنا البائسة، بورق الجدران المتقشِّر والبقع المنتشرة في كل مكان على الأرضية تحت السقف المنشَّى ببقع المطر المتسربة. «بورشيا وفيكتوريا»، قامتا بالتعريف بنفسيهما. وقامت فيكتوريا باستلام دفَّة الحديث:

- «هل سمعت بقناة بي بي سي العربية؟.

- نعم، إنها فكرة عظيمة. البي بي سي محترمة جداً في العالم العربي.

- لماذا لا تتقدم لوظيفة رئيس تحرير فيها؟ سألتني فيكتوريا بسرعة.

أحسست بالارتباك. قلت متمتماً:

- همم... لا، شكراً لك.

- هل للمسألة علاقة بالراتب؟ قالت فيكتوريا بإصرار، لقد أُعلمنا أن بإمكاننا أن نتفاوض صعوداً.

- ومن أنتما بالضبط؟ سألت، محتاراً بأمرهما.

- استشاريتان، أجابت بورشيا.

- لقد سمعنا أن صحيفتكم تعاني من مشاكل مالية، قالت فيكتوريا، هذه هي اللحظة المناسبة لنقلة استراتيجية».

هنا، أجبت بحزم:

- «لا! صحيح أن سفينتنا تغرق لكن أنا القبطان؛ أغرق مع السفينة أو أبقى حياً معها. يشرفني أنكما سألتماني، وتقدمتما بعرض وظيفي مغر مادياً ومهنياً، وأرجو أن تشكرا من وظفكما».

الحمد لله أنني لم أتأثر ولا العاملون معي، باستثناء شخص واحد حمدت الله أنه غادرنا بإغراء الانضمام لتلك المغامرة، لأنها انتهت خلال عامين. أنشئ المشروع بالاشتراك مع شبكة أوربت، ومركزها في روما، وهي إحدى المؤسسات التابعة لمجموعة «موارد» السعودية. كانت القناة تبث عبر الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، وكان رعاتها السعوديون يتابعونها باهتمام في البداية، لكنها سرعان ما أثارت لديهم القلق. مفهوم الحرية التحريرية غير موجود في صناعة الإعلام السعودي، وحين بدأ منشقون سعوديون معروفون مقيمون في لندن مثل د. محمد المسعري ود. سعد الفقيه بالظهور على الشاشة منتقدين بشكل صريح العائلة المالكة السعودية، كان الأمر أكبر مما يمكن احتماله.

قامت السعودية باتهام شريكتها في الإنتاج، بي بي سي، بـ«عدم الحساسية الثقافية»، وحاولت «أوربت» التأثير في قرارات الإنتاج والتوظيف والتحرير. حين ظهر برنامج بانوراما عن الحالة المحفوفة بالمخاطر في النظام «القضائي» السعودي وفي التطبيق السهل لعقوبة الإعدام، وتمت ترجمته للعربية وبثه عبر المنطقة، قررت «أوربت» إنهاء المشروع وسحبت خط الحياة عن المحطة الوليدة في نيسان/أبريل 1996.

وهكذا فإن الموظفين الذين قامت بي بي سي بدفع تكاليف كبيرة لتدريبهم بمستوى عال عام 1994 صاروا زائدين عن الحاجة وعاطلين عن العمل، وكانت هناك فرص عمل قليلة في مجال البث التلفزيوني العربي. هنا تدخَّل أمير قطر، الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني، الذي قام بحصاد هؤلاء ليقوموا بالعمل في مشروع يحلم به - قناة الجزيرة، التي مركزها الدوحة. المحطة الجديدة كانت، ولا تزال، مموَّلة من قبل الأمير الذي قام باستثمار 150 مليون دولار لتأسيسها، واستمر بدفع هبة سنوية لتغطية أي عجز في إيرادات الإعلان أو الاشتراك.

إضافة إلى عامل موظفي بي بي سي العربي، كان هناك برنامج ناجح في تلفزيون قطر أثَّر وجوده في فكرة الجزيرة. كان يقدِّم البرنامج د. محمد المسفر، وهو أستاذ علوم سياسية في جامعة قطر، وكان برنامجه الحواري متميزاً وقد استضاف فيه معظم الخارجين عن السرب في الحياة الثقافية والسياسية العربية مثل د. عبد الله النفيسي ورياض نجيب الريس وخير الدين حسيب ومعن بشور وغيرهم. أثار البرنامج اهتماماً عربياً لجرأته وشجاعته في طرح قضايا لم تكن تُطرح بالقوة نفسها في محطات أخرى.

قبل انطلاقة الجزيرة كانت هناك محطة منوعات سعودية تدعى إم بي سي، كانت من بنات أفكار العاهل السعودي الراحل فهد بن عبد العزيز الذي كان مغرماً بالإعلام ويملك رؤية استراتيجية في فهم دوره وكيفية توظيفه لصالح المملكة. الملك فهد كان خلف مشروع صحيفة «الشرق الأوسط» من حيث دعم انتشارها. وأدرك بعد غزو قوات العراق للكويت أن الرأي العام العربي برمَّته يقف خلف صدام حسين، وتعرض لصدمة أكبر عندما شاهد شعوب المغرب العربي، وبالذات في الجزائر والمغرب وتونس، تقف في غالبيتها الساحقة مع العراق ضد المملكة ودول الخليج، وبعد استشارة الخبراء، والأميركيين منهم على وجه الخصوص، وصل العاهل السعودي إلى قناعة راسخة بأن الصحافة الورقية لم تعد توفِّر التأثير المأمول منه في الرأي العام العربي، فقرر إنشاء فضائية عربية تصدر أو تبث من لندن، وتوظيف كل الخبرات الإعلامية العربية والأجنبية فيها، أي تحويل تجربة صحيفة «الشرق الأوسط» الورقية إلى تجربة فضائية تلفزيونية. وقد بدأت المحطة في البث في شهر آب/أغسطس 1991، أي بعد «تحرير» الكويت بستة أشهر.

كانت إم. بي. سي تجربة رائدة في إعلام التسلية Entertainment، وتولَّى السيد وليد الإبراهيم صهر الملك فهد الإشراف عليها، واستعان بالسيد علي الحديثي عديل الملك فهد أيضاً (الاثنان متزوجان من شقيقتي السيد الإبراهيم). استعانت المحطة بمذيعات ومذيعين من مختلف أنحاء الوطن العربي، وكانت المرة الأولى التي يشاهد فيها أهل المشرق مذيعات من المغرب مثل كوثر البشراوي وكلثوم السعفي، ويشاهد أهل المغرب مذيعين أو مذيعات من المشرق مثل لينا صوان ورانية برغوث وأنطوان عون وعرفان عرب ومعتز الدمرداش، إلى آخر القائمة.

المحطة الجديدة كانت تبث نشرة أخبار في الساعة الثامنة مساء بتوقيت لندن، وكانت مفاجأتي كبيرة عندما دعتني لأكون أول ضيف في نشرتها الإخبارية الأولى يوم الانطلاق رسمياً. مصدر المفاجأة أنني كنت من أشرس الناقدين بل المهاجمين للسياسة السعودية والحكام السعوديين بسبب دورهم في تدمير العراق تحت عنوان تحرير الكويت، وكنت أظهر في كل المحطات الأميركية تقريباً، وخصوصاً سي إن إن، للدفاع عن العراق والتشكيك بالنوايا الأميركية، وكذلك للغرض نفسه في المحطات البريطانية الناطقة بالإنكليزية، والنافذة الوحيدة لي باللغة العربية كانت محطة راديو بي بي سي العربية.

بعد التدقيق والتمحيص فهمت أن مخرجة النشرة، وهي إنكليزية، هي التي تقف خلف الدعوة لأنني كنت من الوجوه المعروفة في المحطات الإنكليزية، وهي لا تعرف مدى عداء السعوديين الرسميين لي. ويبدو أن السيد طارق ريري رئيس التحرير في ذلك الوقت لم يشأ أن يدخل في صدام معها،

ويكشف عن القائمة السوداء للمحطة مبكراَ أمام «الخواجات»، أو لعله استشار رؤساءه فلم يمانعوا.

مقدمة النشرة، نيكول تنوري، شابة لبنانية جميلة كانت وقتها في منتصف العشرينات من عمرها، وقد جاءت إلى المحطة مثلما قيل لي من محطة تلفزيونية يمينية. اللبنانيون واللبنانيات يعتبرون دائماً أن الصحافي أو المحلل اللبناني في ذلك الوقت هو الأفضل في العالم، أما أبناء باقي الجنسيات العربية ففي مرتبة أقل، لكي لا أقول ما هو أكثر من ذلك. سألتني نيكول:

- «مين حضرتك؟

- عبد الباري عطوان.

- أنا نيكول، مقدمة النشرة.

- تشرفنا يا ست نيكول.

- بدي إسألك خمسة أسئلة. مدة المقابلة خمس دقايق ولما بحرِّك إصبعي تحت الطاولة بشكل دائري، يعني كمِّل جملتك وتوقف... أنا بساعدك وما تخاف... وإذا نشَّف ريقك خوفاً من الكاميرا بيكون قدامك كباية ميه ممكن تشرب... وإذا ارتبكت أنا بنقذك.

- شكراً ست نيكول على تفهمك وتعاطفك معي وسأفعل ما تأمرين به...».

الست نيكول لم تعرف، وهي معذورة، أنني ظهرت في مئات المقابلات التلفزيونية باللغة الإنكليزية وفي محطات عالمية، وفوجئتْ أثناء المقابلة بأنني لم أتلعثم ولم «أتأتئ»، ولم أحتج إلى دوران إصبعها لأختصر إجابتي، أو أعطيها الفرصة لكي تقاطعني، الأمر الذي أوقعها في حرج كبير لاحقاً أدى بها إلى تجنب الحديث معي لسنوات إلى أن التقينا في منزل الصديق عرفان عرب على دعوة عشاء، وجرى كسر حاجز الحرج بيننا لأكتشف أنها إنسانة مثقفة طيبة محترمة، ولا أزال أعتز بها وبصداقتها ومهنيتها ولغتها العربية الجميلة الخالية من أي أخطاء.

ظهوري على شاشة إم. بي. سي لم يعمِّر طويلاً، ففي أحد الأيام اتصل بي الدكتور محمد الصبيحي مدير المركز الإعلامي السعودي في لندن، وهو رجل مهذب، وقال بلهجته الحجازية المحببة: «وينك ياهو يا عبد الباري؟». قلت له: «يا سيدي أنا موجود». سألني، وكنا في شهر تشرين الثاني/نوفمبر 1991: «هل تشاهد محطة إم بي سي؟». أجبت بالنفي لأن المشاهدة تحتاج إلى طبق لاقط، وأنا لا أملك ثمنه وكان مكلفاً، وكنت والصحيفة في حال إملاق، أو إفلاس بلغة العصر. قال الدكتور الصبيحي: «سنرسل فوراً من يأتي إليك

بالطبق ويثبته فوق سطح مبنى الصحيفة»... المتهالك حيث نستأجر شقة في الدور الأول.

بعد أربعة أو خمسة أيام اتصل الدكتور الصبيحي مجدداً وسأل عما إذا كنت أشاهد المحطة.

- «نعم أشاهدها بين الحين والآخر...

- هل شاهدت مقابلة الملك فهد؟

- لا... لم أشاهدها.

- يا شيخ... حرام عليك، لا بد أن تشاهدها... سأرسل لك شريط فيديو... والنص المكتوب».

لم أعرف سر اهتمام الدكتور الصبيحي بهذه المقابلة وضرورة مشاهدتها إلا لاحقاً. المقابلة كانت الأولى للملك فهد صاحب المحطة الحقيقي، وقد أجراها الزميل عرفان نظام الدين الصديق والزميل حيث كان يتولى إدارة المحطة إخبارياً.

لم يكن لدي الوقت لمشاهدة ساعتين هما مدة المقابلة، لكنني اطلعت على النص المكتوب بطريقة القراءة الكمبيوترية السريعة. رن جرس الهاتف وكان على الخط الثاني الدكتور الصبيحي إياه:

- «أستاذ عبد الباري... هاه... هل شاهدت المقابلة؟

- والله لم أشاهدها لكني قرأت النص المكتوب.

- هل لفت نظرك شيء ما؟

- نعم... تلك الفقرة التي يقول فيها الملك إن العداء مع العراق لن يكون أبدياً، وإن الانقسام العربي الناشئ عن غزو الكويت سيتم ردمه في يوم قريب بإذن الله فنحن أمة واحدة، ويجب أن نتطلع إلى المستقبل.

- ماذا أعجبك فيها؟

- إنها لهجة تصالحية تبعث على التفاؤل بإمكانية إنهاء الانقسام العربي، وعودة التضامن إلى صورته السابقة.

- هل يمكن أن تقول ذلك على شاشة إم بي سي؟ الآن سأرسل لك سيارة لتظهر على الهواء مباشرة وتقول هذا الرأي».

تلعثمت في الرد، فقد أسقط في يدي، أنا لا أحب أن أعلِّق على رأي العاهل السعودي مجاملاً وبصورة قد يُفهم منها أنني غيرت رأيي في الحرب في

العراق، وأن الأموال السعودية قد اشترتني، خصوصاَ أن هناك اتهامات عديدة بأنني على قائمة من اشتراهم صدام، ولأنني «مقدام» قررت الموافقة على مضض.

اتصل بي الزميل عرفان نظام الدين وقال لي إن الدكتور الصبيحي هاتفه، وسيرسل لي السيارة الآن لإحضاري إلى المحطة، فازدادت دقّات قلبي من الخوف والقلق، لكنه قلق لم يطل. بعدها بساعة اتصل الأستاذ عرفان مرة أخرى، وقال إنه تقرر أن تكون المقابلة «مسجلة» لا على الهواء... تفهمت ذلك، فالزميل عرفان يخشى أن أقول كلمة انتقادية تُغضب العاهل السعودي أو أصحاب المحطة فيدفع ثمنها إبعاداً من وظيفته. قبلت لكني اشترطت عدم حذف أي كلمة مما أقول... فوافق.

بعد الاتفاق، لم تأت السيارة. اتصل الزميل عرفان للمرة الثالثة حاملاً عرضاً جديداً... أي أن يرتب ندوة في الغد لمناقشة مقابلة الملك فهد يتحدث فيها كل من جعفر رائد (سفير إيراني سابق) وعمر الحسن (أحد الذين ساندوا موقف الكويت أثناء الاحتلال العراقي) والأستاذ سليم نصار (كاتب لبناني) وشخص رابع نسيت اسمه، وأنا، المدعو عبد الباري عطوان.

هنا استشطتُ غضباً، وقلت للزميل نظام الدين إنني أعتذر عن عدم المشاركة، لأن هذا إخلال بالاتفاق، ثم أنا لست «مستميتاً» على الظهور في المحطة من الأساس. حاول الزميل نظام الدين أن يثنيني عن رأيي وقال إن ظهوري فيه مصلحة كبرى لي ولصحيفة «القدس العربي»، لكنني أصريت على رأيي ولم أشارك في المقابلة، وصدر فرمان بمنع ظهوري في محطة إم بي سي لعدة سنوات، ولم أندم.

علمت بعد ذلك، ومن مصادري الخاصة، أن العاهل السعودي الملك فهد، كان يريد أن أعلِّق أنا بالذات على مقابلته، وأن يحاول رجاله في المحطة تحييدي أو كسبي بالأحرى إلى جانب المملكة، لكن الرياح جرت بما لا تشتهي سفنه، وأعفاني تردد أصحاب المحطة من حرج شديد!

محطة إم بي سي لا تزال متألقة وتُعتبر الأنجح تجارياً بين نظيراتها، وقد توسعت كثيراً، وأنشأت عدة قنوات أخرى على النهج نفسه، وقبل حرب العراق الثانية (آذار/مارس 2003) أنشأت محطة إخبارية (العربية) لمنافسة الجزيرة.

حاولت المحطة، وبعد أن ذاع صيتي بعد ظهور الجزيرة وقبلها محطة بي بي سي العربية، إلغاء الفرمان بمقاطعتي، فزارني زملاء مثل أنطوان عون ونيكول تنوري ومعتز الدمرداش لكي أعود للظهور فيها مجدداً أثناء وجودها في لندن، لكنني نفسياً لم أستطع أن أغفر لهم إبعادي طوال سنوات. وعندما

بدأ الفنان الكبير دريد لحام تقديم برنامج فيها دعاني مرتين للظهور معه في برنامجه الحواري الظريف، لكنني اعتذرت بطريقة مؤدبة.

وعندما جرى الإعداد لانطلاق محطة العربية دعاني الشيخ وليد الإبراهيم مشكوراً لحضور حفل التدشين في دبي، وللسبب نفسه اعتذرت وأرسلت له رسالة طويلة أشكره فيها على الدعوة، وأعترف أن عقلي كان يلحُّ عليَّ بالذهاب، فالمقاطعة خطأ، والإصرار عليها خطأ أكبر، لكن قلبي لم يطاوعني، وأحمد الله أنني اتبعت قلبي، فقد أخذت محطة العربية خطاً مؤيداً للغزو الأميركي للعراق ومتعاطفاً معه، وهو غزو عارضته بشراسة ولا أزال. وكان المؤكد أن ظهوري فيها لن يطول، تماماً مثل ظهوري على شاشة شقيقتها إم بي سي.

خلال فترة تحرير هذا الكتاب في طبعته الإنكليزية كانت الجزيرة تتابع من قبل 50 مليون مشاهد في العالم، بعد اكتسابها شعبية مستمرة نتيجة تعاطيها الشجاع مع أخبار العالم وسياسات الشرق الأوسط. للمرة الأولى صارت النقاشات الحقيقية ممكنة، حيث يسمح للطرفين في أي قضية بالحديث، باللغة العربية، وفي أوطانهم.

السماح بوجهة النظر الإسرائيلية كان خطوة مفاجئة، وفي البداية كانت الجماهير العربية غاضبة وانتُقدت المحطة من قبل بعض الصحف العربية ومنها صحيفتنا واستغلتها صحف سعودية للتنكيل بقطر والغمز من قناتها، حيث كان الخلاف بين حكومتَي البلدين في قمته على أرضية الحرب الحدودية بين البلدين أو ما سمِّي آنذاك حرب «الخفوس» حيث هاجمت قوات سعودية مخفراً حدودياً قطرياً واستولت عليه وغيَّرت خط الحدود بين البلدين. لكن ضرورة نقاش عادل وكامل أصبحت مفهومة بشكل عام وأصبح هذا هو الأمر الاعتيادي واقتدت محطات عربية أخرى بسابقة الجزيرة هذه للأسف. بقي السعوديون غير مقتنعين وقاموا بمنع الجزيرة من فتح مكتب في المملكة ومن تغطية الحج. والمفارقة أنه بعد أن أطلق السعوديون قناتهم الفضائية الخاصة، «العربية»، سمحوا بإجراء مقابلات معمقة مع القادة والصحافيين الإسرائيليين.

تعاطت الجزيرة مع كل المواضيع التي كانت محرَّمة لعقود: حقوق الإنسان، التعذيب، القمع، التعامل السيئ مع العمال الأجانب في الخليج، تبديد المليارات على أيدي الحكام فيما تجوع شعوبهم، قضايا المرأة والمطالبة بالديمقراطية والإصلاح. نوعية البث كانت احترافية جداً والكل انتبهوا لذلك، بمن فيهم الأميركيون.

في البداية، أعجب الأميركيون بالقناة وأثنوا عليها، مصورين إياها على أنها صوت عربي حر يمكن أن ينافح عن الطريقة الأميركية في الحياة، وعن سياساتها العالمية وطموحاتها. وبالكاد كان يمر أسبوع من دون أن نرى مقالاً في المطبوعات الأميركية عن هذا الإنجاز الإعلامي العربي. عام 1999، وصف توماس فريدمان كاتب العمود في نيويورك تايمز الجزيرة بأنها «الشبكة التلفزيونية الأكثر حرية، والأكثر مشاهدة في كل العالم العربي». صحافي أميركي آخر، هو جون فز بيرنز، وصفها بأنها «شديدة اللهجة» وامتدح جرأتها. ما لبث المدُّ أن أصبح جزراً خلال فترة الانتفاضة الثانية التي اندلعت في 28 أيلول/سبتمبر 2000، بعد أن قام أرييل شارون، الذي كان زعيم المعارضة الإسرائيلية آنذاك، بدخول باحة المسجد الأقصى في القدس الشرقية مصحوباً بجيش صغير من عناصر الشرطة حيث أعلن «السيادة اليهودية» عليه. تعاطفت تغطية الجزيرة مع الفلسطينيين العزَّل الذين حاربوا الدبابات والبنادق الإسرائيلية بالحجارة، وفي حالة العمليات الاستشهادية، بأجسادهم وحياتهم. كانت تلك التغطية على خلاف مع الخط العام لوسائل الإعلام في أميركا التي سعت، كما كان الأمر دائماً، لتصوير الإسرائيليين كمدافعين عن أنفسهم ضد «الإرهابيين».

قامت المحطة بإزعاج الأميركيين أكثر حين قامت ببث بيان لأسامة بن لادن في 7 تشرين الأول/أكتوبر 2001، بعد فترة قصيرة من هجوم الأميركيين الانتقامي لأحداث 11 أيلول/سبتمبر على تورا بورا. تبعها بث الجزيرة أشرطة أخرى لبن لادن وسليمان أبو غيث (الناطق باسمه)، لتبرير هجمات 9/11 على نيويورك وواشنطن. عندئذ بدأت الولايات المتحدة بتوصيف الجزيرة بأنها بوق دعاية لتنظيم القاعدة - على عكس الشبكات الأميركية مثل سي إن إن وآي بي سي التي قامت هي أيضاً ببث مقاطع من أشرطة الفيديو تلك، والتي قامت تلك المحطات بشرائها من الجزيرة أو من جهات أخرى.

في الواقع، فإن بن لادن اختار الجزيرة بسبب استقلاليتها، كما اختار صحيفتي لنشر بلاغاته الورقية قبل ذلك، وحين أوقفت الجزيرة بثَّ خطب بن لادن (ربما بضغط من الولايات المتحدة)، اتجهت القاعدة لشبكة الإنترنت حيث كانت قد بنت بالفعل وجودا كبيراً لها عليها.

مع اجتياح العراق عام 2003، بثت الجزيرة عدداً من الانتقادات العلنية للسياسة الأميركية في المنطقة. أنا نفسي ظهرت في مقابلات على القناة، قبل الاجتياح بفترة قصيرة، وقلت إن الغزو سيكون كارثة ستزعزع استقرار المنطقة بأسرها لسنوات قادمة.

توقعت خلال ذلك أن الولايات المتحدة ستربح «الحرب» بسهولة لأن المقاومين سيتراجعون إلى الخلف وينتظرون الوقت المناسب لشن حرب

استنزاف طويلة بعد أن تكون صيحات الانتصار الأميركية قد خفتت. كل ما ذكرته تحقق لاحقاً، لكن المحطة صُنِّفت «مناهضة لأميركا».

تبث الجزيرة واقع الحرب، بما في ذلك مشاهد قتل المدنيين والكوابيس الإنسانية التي تنتج منها. حين قامت بعرض لقطات عن الضحايا المدنيين في الفلوجة في نيسان/أبريل 2004، وصف دونالد رامسفيلد تغطية الجزيرة بأنها «لئيمة، وغير نزيهة، وغير مبررة». رد الجزيرة كان بسيطاً: «الصور لا تكذب». أميركا لا تحب أن تكون الصور التي يعرضها الصحافيون وصفية وتفصيلية حين يكون هناك قتلى. أذكر متابعتي لبيتر أرنيت، (وهو صحافي أحترمه) على سي إن إن، عام 1991، حيث كانت سماء بغداد وراءه تشتعل، يقدم تقاريره قائلاً إن القصف كان «مثل الألعاب النارية التي تطلق في احتفالات عيد الاستقلال في 4 تموز/يوليو في واشنطن».

نتيجة الإهانات المتلاحقة التي تتعرض لها أميركا وحلفاؤها، بدأوا باستهداف العاملين في الجزيرة بشكل مباشر، ربما بقصد توجيه إنذارات لصناع قراراتها التحريرية. في كانون الأول/ديسمبر 2001، أوقف مصور في قناة الجزيرة يدعى سامي الحاج في باكستان، واعتُقل باعتباره «مقاتلاً عدواً»، وأُرسل إلى غوانتنامو حيث سُجن من دون توجيه أي تهمة إليه. على الرغم من أن الجزيرة أعطت الجيش الأميركي إحداثيات مكتبها في كابول لتجنب الهجوم عليها عن غير قصد، فإن المبنى دُمِّر بقصف أميركي في تشرين الثاني/نوفمبر 2001. كذلك قُصف مكتبها في بغداد مع بداية الاجتياح في آذار/مارس 2003، ما أدى لمقتل مراسلها طارق أيوب مباشرة. كما أن مراسلاً رفيع المستوى، هو تيسير علوني، نجا بطريقة ما من قصف مكتب بغداد، وبسبب معاناته مع مرض القلب، عاد إلى مكان إقامته في غرناطة، في أيلول/سبتمبر 2003، حيث وجد نفسه تحت الإقامة الجبرية وصدر بحقه عام 2005 حكم بالسجن سبعة أعوام من محكمة عليا إسبانية بتهمة «دعم القاعدة».

كان تيسير علوني صديقاً عزيزاً، عرفته قبل التحاقه بمحطة الجزيرة، حيث كان يعمل في وكالة الأنباء الإسبانية، وزارني في مكتبي في لندن عدة مرات، وكان إسلامي الميول، وشخصاً في قمة الأدب والأخلاق والمهنية في الوقت نفسه. واكتشفت أثناء محاكمته أن المخابرات الإسبانية سجلت مكالماته الهاتفية الخاصة لأكثر من خمس سنوات، وكانت تتابعه بشكل لصيق، وبلغ عدد المكالمات المسجلة أكثر من سبعة آلاف. ترى كم مكالمة سجلت لي المخابرات البريطانية؟

دافيد بلانكيت، وزير داخلية بريطانيا الأسبق، أخبر برنامج ديسباتشس على القناة الرابعة البريطانية في تشرين الأول/أكتوبر 2006 أنه خلال غزو العراق عام 2003 قال لتوني بلير إنه يجب أن يقصف الطيارون البريطانيون أجهزة

إرسال قناة الجزيرة في بغداد، ما يضيف وزناً لفرضية أن قصف المكتب هناك لم يكن حادثاً عرضياً. في تشرين الثاني/نوفمبر 2005، نشرت «دايلي ميرور» وثيقة مسرَّبة من مكتب رئيس الوزراء البريطاني تشير إلى ملخص لمناقشة بين توني بلير وجورج دبليو بوش اقترح فيها الأخير قصف مقر الجزيرة الرئيسي في الدوحة حين كانت معركة الفلوجة في عز احتدامها في نيسان/أبريل 2004، غير أن بلير تمكن من الالتفاف حول الموضوع مذكراً حليفه الأميركي بأن قطر بلد صديق لهما في المنطقة.

في شباط/فبراير 2004، قررت الإدارة الأميركية أن تواجه الجزيرة بقناة خاصة بها ناطقة بالعربية من واشنطن، بكلفة قدرها 62 مليون دولار سنوياً. أعطت الإدارة القناة اسم «الحرة» - دون إحساس منها بالمفارقة الساخرة ربما - وهذه القناة التي تبث تلفزيونياً وإذاعياً أنتجت دعاية سافرة مؤيدة للولايات المتحدة بحيث فقدت أي مصداقية كان يمكن أن تكتسبها في العالم العربي. في محاولة لتحقيق التوازن، يقال إن القناة دفعت ما وصفته صحيفة «فايننشال تايمز» «مبالغ غير اعتيادية» كمكافآت لبعض الصحافيين العرب والمثقفين اليساريين والقوميين للمساهمة في برامجها. مشروع الحرة تعرض لمزيد من التداعيات غير المقصودة حين أدى ارتفاع مستوى عدم الثقة في مشروع العلاقات العامة المكلف هذا ليشمل كل وسائل الإعلام الأميركية. وقد رفضتُ الظهور مطلقاً في هذه المحطة وما زلت عند موقفي.

أطلقت الجزيرة قناة طموحة جديدة ناطقة بالإنكليزية في تشرين الثاني/نوفمبر 2005، تبث من لندن، وواشنطن، ونيويورك، وقطر. استُهدف المشروع مباشرة من قبل اليمين الأميركي، الذي أدت مكائده ضد الجزيرة لظهور مصطلح «جزيرة غيت». جوان ليفين، المنتج التنفيذي للبرامج في الولايات المتحدة، انتج تقريراً يقول فيه إن الموظفين العرب كانوا عرضة للعنصرية والتمييز، بحيث إن الشركة لم تستطع الحصول على بوليصة تأمين ضد التشهير، وإن واحدة من شركات المحاسبة الكبرى في الولايات المتحدة، إضافة إلى مصرف دولي رئيسي، رفضا التعامل معها في واشنطن رغم أنهما يتعاملان معها في الدوحة. لجنة المحافظين الأميركيين المتحدة نشرت رسالة في موقعها الإلكتروني «للمواطنين المهتمين» ليقوموا بنسخها وإرسالها إلى شبكات الكابل المحلية، تحثُّهم فيها على عدم السماح للجزيرة بالظهور ضمن خدماتها. من ضمن الأسباب التي عددتها، أن القناة تبث «دعايات إسلامية» وأنها ستكون «مدرسة إسلامية بتكنولوجيا عالية». ولنا أن نتوقع كيف ستسير هذه المحطة الوليدة في مواجهة هذه المعارضة المصمِّمة على تحطيمها.

قلبت الجزيرة عالم البث التلفزيوني العربي رأساً على عقب، كما لاحظ حسني مبارك بأسى حين زار مقرها الرئيسي في الدوحة.

أشار الرئيس المصري السابق إلى صغر حجم مبانيها الجاهزة الصنع مقارنة بحجم المباني الضخمة التي يشغلها نظيرها التلفزيون المصري. بحسب ما قاله وضاح خنفر، الذي أصبح رئيساً للجزيرة عام 2006، أنه أضاف: «إنتو عندكو علبة كبريت صغيرة ولكنها أشعلت نيراناً ضخمة حول العالم».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

وجه معروف

بسبب ظهوري المتكرر على الجزيرة أصبحت وجهاً معروفاً في العالم العربي. ظهوري، واشتهاري بكوني أتحدث بصراحة، زادا من شعبيتي بين الغالبية العظمى من مشاهدي المحطة الخمسين مليوناً، لكن لم يكن الأمر كذلك، كما يبدو، عند الولايات المتحدة وحلفائها. دُعيت عام 2003 إلى الدوحة كضيف في استوديوهات القناة للتعليق على غزو العراق. ذهبت إلى هناك للبقاء خمسة أيام، كنت أظهر خلالها بشكل متكرر على الشاشة، ووافقت على البقاء لفترة أطول رغم أن عليَّ أن أدير صحيفتي في لندن. كانت الولايات المتحدة تقوم بمراقبة ما يُبث في المحطة وبدأت باتهامها بأنها منحازة ضد الأميركيين في تغطيتها.

في محاولة للظهور بشكل متوازن، قررت الجزيرة بث مقابلة مع وزير الخارجية آنذاك، كولين باول، الذي قدَّم أداء حيوياً مبرمجاً لكسب قلوب العرب وعقولهم. وعد باول بأن الحرب لن تكون ضد العرب أو المسلمين بل لإسقاط صدام فحسب، وبأن حلا عادلاً للنزاع العربي الإسرائيلي سيكون على رأس أجندة الولايات المتحدة حين تنتهي الحرب. بعد المقابلة، طُلب إليَّ التعليق وقمت بالتعبير عن تشاؤمي، مذكراً المشاهدين بأننا سمعنا هذه الأقوال الأميركية بالذات من قبل - من جورج بوش الأب، في المرة السابقة التي قامت فيها الولايات المتحدة بمهاجمة صدام حسين - وأن الفلسطينيين لا يزالون بعيدين كل البعد عن السلام والعدالة كما كان الأمر من قبل. رنَّ الهاتف في مكتب المدير فيما كنت في طريقي للخروج وسمعت صوتاً أميركياً يحتج قائلاً إن «عطوان قام بتخريب محاولات باول الحسنة النية». ووصلت بعض التهديدات الكبيرة، كما يبدو، فبعد عشرين دقيقة جاء مساعد إنتاج إلى قاعة الاستراحة حيث كنت أشرب كوب قهوة وسألني متى سأسافر إلى لندن. لم تقم الجزيرة بالاتصال بي لعدة أشهر بعد ذلك وسمعت من شخص في الداخل أنهم تلقوا مئات المكالمات الهاتفية ورسائل البريد الإلكتروني من مشاهدين منزعجين لعدم ظهوري مجدداً متهمين إدارة المحطة بأنها تحاول إسكاتي. ونتيجة إحساس الجزيرة بأن غيابي سيخلق أزمة مصداقية، أو هكذا اعتقدت، قرروا أن من الأفضل أن أعود للظهور وعادت الأمور لطبيعتها.

يذكر الكاتب الفلسطيني سعيد أبو الريش في مقالة له حادثة كنا فيها نمشي معاً في شارع في مدينة نيس حيث يقيم حين تعرَّف إليَّ عاملان من شمال أفريقيا كانا أسفل حفرة في الأرض. كان من دواعي سرور أبو الريش أن الاثنين صعدا من الحفرة وتقدما إلينا لعناقنا ومصافحتنا.

اللقاءات بعموم الناس لها أيضاً سلبياتها؛ بعد هجمات 7 تموز/يوليو 2005 في لندن، ظهرتُ في لقاء على شاشات سكاي نيوز، وبي بي سي، وآي تي في، وأشرت إلى أن توني بلير جعل بريطانيا مستهدفة من القاعدة نتيجة دعمه لبوش في غزوه العراق. فيما كنت أمشي باتجاه منزلي، تعرَّفت عليَّ مجموعة من المراهقين الذين قاموا بعبور الشارع باتجاهي وأحاطوا بي بطريقة ملؤها التهديد. قام الشباب بالبصق بوجهي فحسب (لحسن الحظ) قبل أن يتركوني، مضطرباً، ولكن من دون أن أتعرض لأذى.

البرنامج الذي لفت الأنظار إليَّ في قناة الجزيرة كان «الاتجاه المعاكس»، والذي يقدمه الزميل «المشاغب» فيصل القاسم. كنت ضيف الحلقة الأولى فيه، حيث دعيت من لندن للذهاب إلى مقر المحطة في الدوحة، وكان خلف هذه الدعوة أمير قطر الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني، وهو رجل يتمتع بجرأة نادرة، واختيرَ السيد عبد الله بشارة، أمين عام مجلس التعاون الخليجي، ليكون الضيف الخصم. وتزامن بث البرنامج على الهواء مباشرة في تشرين الثاني/نوفمبر عام 1995 مع انعقاد قمة مجلس التعاون الخليجي في الدوحة.

موضوع البرنامج كان الحرب على العراق، والحصار المفروض على الشعب العراقي من قبل الولايات المتحدة وحلفائها تحت غطاء أممي، وكانت المرة الأولى في تاريخ الإعلام العربي التي تحدث فيها مواجهة بهذه السخونة بين رأيين متناقضين بل متصادمين، وكنت شرساً جداً في معارضتي لسياسة مجلس التعاون الخليجي في تشديد الحصار والعداء للعراق والمشاركة في تدميره وتجويع أكثر من عشرين مليون عراقي.

تحوَّل البرنامج إلى موضوع رئيسي في معظم المجالس والديوانيات، وقامت مكاتب بيع أشرطة الفيديو ومحلاته بطباعة نسخ عديدة منه بيعت بكميات كبيرة عندما طُرحت في الأسواق. فالمحطة لم تكن تبث في ذلك الحين على قمر عربسات المنتشر في مختلف أنحاء العالم العربي، وإنما على قمر صناعي جديد وغير منتشر عربياً.

تكررت التجربة بعد أشهر، وكان غريمي في تلك الحلقة السيد أحمد الجار الله رئيس تحرير صحيفة «السياسة» الكويتية، وأديت دوراً رائعاً في الحلقة، لا بسبب قوة حجتي وانحياز غالبية الشارع العربي إلى وجهة نظري ضد الحصار على العراق والهجوم الشرس على سياسات مجلس التعاون المعادية للعراق ورئيسه صدام حسين في ذلك الوقت، وإنما بسبب ضعف موقف خصمي وسوء أدائه وعدم استعداده بشكل جيد، الأمر الذي عرَّضه لهجوم شرس من قبل كتَّاب الأعمدة في الصحافة الكويتية لأنه لم يتفوق على عبد الباري عطوان.

من البرامج الأخرى التي شاركت فيها بكثافة برنامج «أكثر من رأي» الذي كان يقدمه الإعلامي المخضرم سامي حداد حيث كان يُبث مرتين في الأسبوع، قبل أن يُختصر إلى حلقة واحدة يستضيف خلالها ثلاثة مشاركين لمناقشة قضية سياسية رئيسية. كان البرنامج أقل شهرة وشعبية من الاتجاه المعاكس بسبب طبيعته المختلفة، والاختلاف في شخصية مقدمه سامي حداد عن نظيره فيصل القاسم، فالدكتور القاسم كان يفضل الإثارة أكثر بكثير من سامي حداد. وقد قررت إدارة الجزيرة لأسباب غامضة إيقاف برنامج «أكثر من رأي»، لأنها لم تكن على وفاق مع الزميل حداد، ربما لأن الأخير له رأي مستقل ويتمسك بالمهنية العالية في برنامجه. حجة الإدارة في إيقاف البرنامج تلخصت في أن حجم المشاهدة كان الأقل بالمقارنة مع البرامج الأخرى. ولا أعتقد شخصياً أن هذا هو السبب الحقيقي، وقد افتقدت سامي حداد وبرامجه رغم أنني كنت دائماً على عراك معه، ولم نكن على وفاق إلا في حالات نادرة جداً.

بعد انطلاق شرارة ثورات ما سمي بالربيع العربي، لعبت قناة الجزيرة دوراً كبيراً في تفجير وإنجاح الثورات العربية من أجل التغيير، خصوصاً في كل من مصر وتونس واليمن وسورية، ولأسباب غامضة قررت إدارة المحطة إبعادي تماماً عن شاشتها لأكثر من ثلاثة أشهر، فلم تستضفني على الإطلاق، وبشكل متعمد، وربما لأسباب شخصية، أو لغيرة مهنية، فأعترف أن علاقتي بالسيد وضاح خنفر المدير العام للمحطة والشبكة لم تكن جيدة، بل كانت أقرب إلى البرودة، وحاولت «تسخينها» من جانبي لأنه لا يوجد بيني وبينه أي خلاف شخصي أو مهني، ولا أنافسه مطلقاً على منصبه ولا يستطيع منافستي على منصبي، لكن محاولاتي باءت بالفشل وظلت العلاقة رسمية وباردة إلى أن انقطعت بشكل نهائي في آذار/مارس 2011.

الشيخ حمد بن تامر رئيس مجلس إدارة الجزيرة من أكثر الناس الذين قابلتهم أدباً وخلقاً، وهو رجل هادئ الأعصاب يمتص كل الصدمات، قاد الجزيرة دائماً إلى بر الأمان بلطفه وذكائه، لكنه كان يقوم بأكثر من وظيفة في الوقت نفسه، فهو رئيس مجلس إدارة شبكة الجزيرة، والإذاعة والتلفزيون، ونادي الغرافة الرياضي، وفوق كل ذلك، هو من أقرب مستشاري الأمير وأحد أبرز مساعديه أيضاً في ملفات إقليمية ودولية.

عندما علم باستيائي من إبعادي عن شاشة الجزيرة دعاني إلى الدوحة، وكان اعتذارياً بشكل مهذب، واستغرب أنني لم أظهر لبضعة أشهر من على شاشة المحطة، وقال إنه لا يوجد قرار منه بذلك وطلب إلى إدارة القناة استقبالي وحلِّ الإشكال، لكن ذلك لم يحصل.

كنت حريصاَ على الظهور على شاشة الجزيرة أيام ثورتَي تونس ومصر لأنني أعتبر نفسي من أبرز المحرضين على ثورات التغيير في الوطن العربي، خصوصاً في مصر، فقد منعت السلطات المصرية توزيع صحيفتي في مصر، ووضعت اسمي على القوائم السوداء بسبب معارضتي لنظام حسني مبارك وفساده ومخططاته للتوريث، وتعرضت لهجمات إعلامية شرسة على صدر الصفحات الأولى وبأقلام رؤساء تحرير الصحف المصرية الكبرى، وهي سابقة غير مألوفة، ما يعكس حجم عداء الرئيس مبارك ونظامه لي وتأثره من انتقاداتي.

أحد مساعدي الرئيس محمود عباس أبلغني أن الرئيس مبارك كان يشتكي مني في الكثير من لقاءاته مع الوفود الفلسطينية وكان يقول «هو العطوان ده بتاع لندن عايز مني إيه...؟ مش قادرين تسكتُّوه؟». كان محمود عباس يرد بأسلوب اعتذاري قائلاً: «يا فخامة الرئيس، إن ما يكتبه ضدي أكثر بكثير مما يكتبه ضد مصر وأشرس».

سبب عتبي على الجزيرة هو حرماني من الاحتفال عبر شاشتها بالثورة المصرية وانتصارها الكبير في إسقاط مبارك، ومن قبله زين العابدين بن علي الذي تفنَّن وزراء إعلامه في مصادرة صحيفتي وحجب موقعها على الإنترنت.

قامت الجزيرة بدعم غير مشروط للثورة في ليبيا من دون نقد كاف لحلف الناتو، وتعرضت تغطيتها للانتفاضة في سورية إلى انتقادات حول مهنيتها، لكنها ظلت تتمتع بشعبية عالية في أوساط الشعوب العربية رغم ذلك.

دُعيت أكثر من مرة وبإلحاح من قبل المسؤولين عن دعوة الضيوف للمشاركة في برامج المحطة بعد ذلك أكثر من مرة لكنني اعتذرت بلطف لانشغالات مهنية أو شخصية، فلم أستطع أن أتحمل بسهولة مسألة إبعادي المتعمد، ووجدت الجزيرة في تلك الفترة غير الجزيرة التي أحببتها، وربما تتغير الظروف والإدارة وتعود المياه إلى مجاريها.

الجزيرة كانت بمثابة «التسونامي» في الإعلام العربي إذ رفعت سقف الحريات عالياً، وارتقت بالمستويات المهنية، وشكلت برلماناً حراً بالنسبة للعالم العربي تتصارع فيه الآراء، والأهم من ذلك، أفسحت مجالاً للرأي الآخر، ووفرت منبراً للمعارضة لم يكن موجوداً على الإطلاق، وخصوصاً للمنفيين، وهذا سيظل يُحسب لها دائماً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

6. صدمة ثقافية

كتبت عن انتقالي إلى لندن من وجهة نظر مهنية؛ غير أن هذا الانتقال أثَّر بي أيضاً بعمق على المستوى الشخصي. حين وصلت في آذار/مارس 1978، لم أكن قد زرت بلداً أوروبياً من قبل، وكانت توقعاتي عن الغرب معتمدة بشكل أساسي على عدد قليل من مسلسلات الدراما الأميركية التي شاهدتها في الصحراء السعودية ورسائل تلقيتها من بكر عويضة، صديقي الذي سبقني إليها. كان بكر صديقاً فلسطينياً وتزاملنا في طرابلس؛ مثلي، كان من مواليد غزة لكنه يقيم حالياً في العاصمة البريطانية، «لندن رائعة»، كتب لي. «هذه هي الحرية! يجب أن تأتي إلى هنا». بعد السعودية، كانت فكرة «الحرية» آسرة ومخيفة في الوقت نفسه.

كنت أكره بريطانيا لأنها مزروعة في مخيلتي بالدولة الاستعمارية المسؤولة عن ضياع وطني وتشريد أهلي، لذلك لم أفكر قط بزيارتها أو الإقامة فيها، حتى إنني كنت أرفض تلبية الدعوات لحفلات الاستقبال التي كانت ترسلها إلي السفارة البريطانية في جدَّة للسبب نفسه. عندما كنت في طرابلس كان لي صديق يدعى فتحي النجار وهو من بلدتنا نفسها، قال لي: «لماذا لا تذهب إلى بريطانيا وهناك فرص عمل ودراسة معاً ويمكن أن تحصل على منحة دراسية؟». لكنني رفضت أن أناقش الفكرة مطلقاً.

عندما ضاقت بي الحياة في السعودية بسبب القيود الاجتماعية، واقتصار فرص الترويح عن النفس على المساجد وتأدية واجبات العمرة، بحثت عن طريقة للهروب إلى عالم أرحب. وقدمت طلبات الالتحاق إلى عدة جامعات كندية، وجاءني قبول من جامعة ماغيل في تورنتو، إلى أن جاءني عرض العمل في صحيفة «الشرق الأوسط» في لندن.

تعرضت لصدمة ثقافية لحظة عبوري الأولى لبوابة القادمين في مطار هيثرو فيما كانت حقائبي متراكمة بشكل خطر على السير الناقل. كان ذلك انفجاراً للألوان بعد اللون الأحادي للسعودية، عشرات من اللغات المختلفة فيما يتلقى المسافرون التحايا من أناس من كل أنحاء العالم، إعلانات بأسماء الرحلات بالإنكليزية، محلات مضاءة ومقاه وبارات... تنقلت عيناي عبر صف من اللافتات التي يحملها سائقو سيارات الأجرة الذين ينتظرون زبائنهم الواصلين، وحين وجدت اسمي، نظرت إلى حامل اللافتة. الوجه الذي ظهر خلف اللافتة كان وجه فتاة شقراء صبية! كان ذلك أمراً لا يمكن التفكير فيه في البقاع التي تركتها قبل ساعات. كنت مرتبكاً نوعاً ما. قدمت نفسي لها واكتشفت أن اسم سائقتي هو تانيا. «هل أساعدك في نقل حقائبك، سيدي؟»

ما كان عندي ثقة بتسليم حقائبي لأي شخص فوضعت يدي عليها كما لو كنت أحميها. «أستطيع حمل حقائبي إلى حيث ركنتِ السيارة». استخدمت كلمة «باركينغ» بالباء المخففة (B) بدلاً من الباء المنبورة (P)، والتي تعني «عواء» بدلاً من مكان ركن السيارات، وقد استمريت في استخدام هذا الحرف بدلاً من الثاني لسنوات لاحقة، وهو ما كان يسلّي أصدقائي الإنكليز. لم تتأثر تانيا بطريقة لفظي - ويجب أن أذكر هذا التصرف الحسن لها - ولم تفعل غير أنها ابتسمت بلباقة.

قالت: «يجب أن نصعد إلى الطابق الثالث».

مشيت بوداعة الخراف خلف تانيا إلى كاراج السيارات، وأنا أدفع عربة الحقائب محاولاً – من دون نجاح - تجنُّب التركيز على تفاصيل جسمها التي تتلامح من تنورتها القصيرة (بحسب مقاييسي). مصارعاً خجلي الذي لا يقاوم، لم أجد في نفسي قدرة على الحديث مع هذه الكائن الغرائبي فيما جلست في المقعد الخلفي لسيارة الليموزين اللامعة التي استأجرتها صحيفة «الشرق الأوسط» وكانت تانيا تقودها بسهولة، مفكراً في أن النساء في السعودية ممنوعات من قيادة السيارات أصلاً!

رغم أنني كنت قادراً على الحديث بالإنكليزية بشكل بدائي، وكنت أُعتبر نوعاً من الخبير في الموضوع بين زملائي في مصر والسعودية، فإن لغتي الإنكليزية لم تكن حقاً كافية لمتابعة محادثة حقيقية. الشيء القليل الذي كنت أعرفه جاء من قراءاتي ومن مدرس الأونروا في مخيم دير البلح للاجئين. السيد عزت نشبت، الذي كان هو نفسه لاجئاً، نجح بفرض كل أخطائه بالقوة علينا، ولا أزال إلى اليوم أحمِّله مسؤولية الأخطاء التي أقوم بها في اللغة الجديدة التي تبنيتها. بدلاً من «ثياب» (كلوث)، ما زلت أقول (كلوزيث)، وبدلاً من «مريح» (كمفورتابل)، (كمفورتبل) وهكذا دواليك. أكثر من ثلاثين عاماً في هذا البلد، ولا أزال أعلم تماماً أنني ألفظ هذه الكلمات وغيرها بطريقة خاطئة، لكنني لا أزال خائفاً من لفظها بطريقة صحيحة، متوقعاً أن يقفز السيد عزت بعصاه من عقلي الباطن إذا تجرأت على تغيير طريقته في نطق اللغة الإنكليزية. لا أعرف إذا كان الأستاذ عزت حياً أو لا، لكن ما أذكره أنه كان صارماً لا يضحك أبداً، وأدعو له بطول العمر على أي حال.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

لا جنس رجاء، نحن بريطانيون

أنزلتني تانيا أمام البناية التي فيها الشقة في ماربل آرش، والتي ستكون مكان سكني للشهور القادمة. كانت الشقة مستأجرة من الصحيفة وكنت أشارك فيها شخصين، الأول هو عرفان نظام الدين، وقد قيل لنا إنه سيتولى منصب مدير تحرير في الصحيفة الجديدة، والثاني عادل الأحمر، وهو شاب لبناني متدين للغاية، يقضي معظم وقت فراغه بتلاوة القرآن، وكان مهذباً جداً، ويشكل النقيض بالنسبة إلي وإلى عرفان، لأننا كنا، رغم إيماننا، أكثر انفتاحاً على الحياة، وأقل تزمتاً، مع أني قضيت ثلاث سنوات من حياتي في المملكة متنقلاً بين المساجد أو في الطريق إلى مكة وعائداً منها.

كانت لندن مدينة ضخمة، لا مقارنة بينها وبين جدة التي قدمت منها. كل شيء فيها مرتب ونظيف، وقد عانيت كثيراً من برودتها، سواء برودة الطقس أو برودة الشعب الإنكليزي. قالوا لنا إن البنات الشقراوات يتحرشن بالشبان السمر، خصوصاً إذا كان شعرهم أسود وكثّاً على الطريقة الأفريقية، وهي مواصفات تنطبق كلها عليَّ، فقررت أن أختبر إيماني وصمودي في وجه الإغراءات، ونزلت فوراً إلى الشارع صباح اليوم الثاني، أسير وشعري أمامي، لكن النظرية هذه لم تكن دقيقة في حالتي ولم تتحرش بي أي امرأة، كبيرة أو صغيرة، شقراء أو سمراء، جميلة أو قبيحة، رغم أنني قطعت حديقة «هايدبارك» طولاً وعرضاً، وكذلك الحال مع «أكسفورد ستريت» المجاور. لعنة الله على هؤلاء الكتّاب الذين أسهبوا في قصص وحكايات عن الأوروبيات اللاتي يقعن في تلابيب الشبان العرب. أستثني من هذه اللعنة فقط الصديق الطيب صالح صاحب الرواية الأشهر «موسم الهجرة إلى الشمال»، فقد أسرنا بقصصه عن نساء الغرب وفحولة محمد سعيد الشاب الأفريقي القادم من الجنوب ومغامراته مع البريطانيات.

بكر عويضة، الذي كان قد تطلَّق حديثاَ، جعلني أعده أن أتصل به حالما أحصل على يوم عطلة. أراد أن يريني «لندنه» وسرعان ما التقينا مجدداً؛ وصل بسيارته المازدا في يوم سبت واصطحبني في رحلة تعرُّف على الأماكن، كانت ذروتها زيارة إلى قلب الحكومة البريطانية في «وايتهول». وفيما كنا نتهادى بالسيارة بهدوء مقابل وزارتَي الدفاع والخارجية، رحت أفكر في القوة العظيمة التي تمتلكها هذه المجموعة الصغيرة من البنايات على كل القضايا في العالم، التي كانت جذورها هنا، ومن بينها قضية بلادي نفسها هنا، ففي هذه البنايات كانت تُطبخ المؤامرات وتدار عبر دهاليزها المستعمرات. الأبنية قديمة عالية لها هيبة خاصة، بالنسبة لشخص مثلي على الأقل، كان أحد ضحايا مؤامراتها.

تمشينا بعد ذلك في ترافلغار سكوير حيث استثارتني أعداد الحمام الكبيرة والطريقة اللطيفة التي كان الناس يتعاملون معها هناك. كانوا يطعمونها لسبب واضح، وليس لأخذ صور معها فحسب. في غزة كانت أمي تسمِّن طيور الحمام من أجل إطعامنا، وكان طير واحد منها كافياً ليكون وليمة لنا؛ هذا الحمام الموجود في الساحة اللندنية و«مرقته» كان كافياً لإطعام كل سكان مخيم اللاجئين الفلسطينيين لأسابيع. اختيارنا للمطعم، «بيتزا أون ذا بارك»، كان مدفوعاً بحنين لماضينا المشترك - فبسبب أن ليبيا كانت محتلة من قبل الفاشيين الإيطاليين من عام 1934 حتى 1947، فإن عدداً من مطاعم البيتزا الممتازة كانت موجودة في العاصمة الليبية طرابلس، وكنا أنا وبدر قد وزرنا الكثير منها معاً.

توافقنا أنا وبكر على أن طبق «القذافي» (بالزيتون والفلفل الأحمر الحرِّيف) كان أفضل من أي شيء آخر في قائمة الطعام.

اقترح بكر أن نزور نادياً ليلياً، وكانت تلك أول تجربة لي في الحياة الليلية الغربية. التصقنا بالحائط حيث أخذنا نراقب أقراننا الغربيين وهم يمشون الهوينى باتجاه الفتيات ويطلبون مراقصتهن وكيف كنَّ من دون استثناء يجبن بالإيجاب.

«قم بمحاولة، عبد الباري»، حثَّني بكر. اكتشفت لاحقاً أنه يريد أن يستخدمني كما كان عمال المناجم يستخدمون طيور الكناري (لو مات الطائر الذي أرسلوه إلى الأسفل فإن ذلك دليل على وجود غاز الميثان): إذا فشلتُ في النجاة من المجهول، يحفظ خط الرجعة ولا يغامر هو نفسه. كانت معظم الفتيات هناك مرعبات بالنسبة لي، ولأكون صادقاً، كانت لدي شكوكي حول مزاعم سهولة الفتيات الغربيات. كنت قلقاً من أنني لو طلبت فتاة للرقص، فإنها سترفض وستتعرض كرامتي وثقتي بنفسي لضرر لا يمكن إصلاحه، فقاومت دفع بكر بي للمحاولة لأكثر من ساعة. بعد ذلك انتبهت لفتاة بدت لي وحيدة وراقبتها بحذر لبعض الوقت. لم يطلب منها أحد الرقص وتركها كل أصدقائها؛ كانت فتاة ممتلئة قليلاً وجمالها متواضع جداً، وبدت قابلة للتجاوب. أخذت نفساً عميقاً واتجهت نحوها. نظرت إليَّ من فوق لتحت وقبل أن أفتح فمي هزَّت رأسها بإصرار ونظرت بالاتجاه الآخر. كانت تلك تجربة مرعبة.

في تلك الأيام الأولى عانيت كثيراً من طريقة تفكيري، التي أعترف بأنها كانت مؤلفة من كليشيهات وقوالب مسبقة حول النساء الغربيات اللاتي يتصرفن ويلبسن بطريقة مختلفة عن النساء اللاتي قابلتهن في الشرق الأوسط. لاحقاً سوف أقدِّر فرصة العمل والتعاطي مع الجنس الآخر بمساواة بعد تعرفي على العديد من النساء اللاتي صرن بين الأكثر قرباً وموثوقية بين أصدقائي وزملائي.

لقد بدا لي أن البريطانيين كانوا مهووسين بالجنس وكان ذلك جزءاً كبيراً من الصدمة الثقافية التي تعرضت لها. في كل مكان كنت أذهب إليه، وفي الإعلانات وبرامج التلفزيون، وفي مزحات العمال، كل شيء كان ذا طبيعة جنسية. لهذا السبب كنت متفاجئاً من مسرحية شعبية تُعرض في منطقة المسارح بوسط لندن آنذاك عنوانها: «لا جنس رجاء، نحن بريطانيون»، كما اكتشفت لاحقاً أن البريطانيين كانوا عفيفين جداً بالفطرة، وأنهم يتعاطون مع الجنس كأمر صادم ومضحك، ومن هنا نفهم شعبية الكلمات والجمل التي تُفهم بطريقتين بين الكوميديين هناك - وأنا أفكر هنا بلز دوسون وفرانكي هيوارد وسلسلة الأفلام التي حملت عنوان «استمر» Carry on.

كانت أكشاك الهاتف في منطقة ماربل آرش مليئة بإعلانات مصنَّعة منزلياً عن «لقاءات هاتفية»، كانت مصممة، على ما أعتقد، للقاءات من طبيعة جسدية أكثر حميمية. كان السعوديون رائدين في مجال المغازلات الهاتفية حيث يقوم رجل ما بالاتصال برقم عشوائياً، وإذا كان محظوظاً، ردَّ عليه صوت أنثوي. إذا لم تكن هناك مقاطعة من والد أو أخ، فإن المكالمة يمكن أن تتطور (الشيء الوحيد الذي لن يتكلم الطرفان عنه هو الطقس لأنه هو نفسه في السعودية: حار لدرجة الغليان). سوف يتحدثان عن الأغاني ونجومها الكبار مثل محمد عبده صاحب الحزب الشبابي الأكبر، وطلال مداح الإنسان البسيط ولونه الطربي الأصيل. وهكذا إلى أن يستجمع واحد منهما شجاعته ويتكلم عن أمور ذات طابع شخصي أكثر. قد تصبح المحادثة مجازفة أحياناً، فلأن الطرفين غريبان عن بعضهما البعض واكتشافهما قليل الاحتمال، فإن إحساساً عاطفياً قد يتطور، وصولاً ربما إلى خطوبة. وقع قريب لي يعيش في السعودية في حب صوت أنثوي رائع وتقدم لخطبة صاحبته عبر الهاتف. تزوج الشابان ولا يزالان معاً، رغم اعتراضات عائلته التي اكتشفت، حين قابلت مبعوثة من طرفه الفتاة، أنها أكبر منه بكثير (الأمر الذي اعتبرته عائلته أمراً معيباً)، وكانت سمينة جداً وحظها من الجمال بسيطاً، وفشلت كل ضغوط والدته في ثنيه عن رأيه، مثلما فشلت عروضها المغرية بتزويجه من فتيات أجمل منها بكثير. والحق أن أغلب الناس في السعودية لديهم حكاية تروى حول هذه الظاهرة.

كلما اكتشفت بريطانيا أكثر، ازداد استيعابي للفارق بين القيم في عالمنا العربي والعادات في الغرب. أجد الأمر رهيباً، على سبيل المثال، أن يقيم رجل وامرأة معاً وينجبان أطفالاً من دون أن يتزوجا، أو أن يقبلا بوضعية عابرة أو غير مستقرة، ويسميان ذلك حرية. أحسست بنفسي رجعياً في بعض الأحيان لكنني أحسست بانتهاك أخلاقي في أحيان أخرى؛ هذا التشوش وعدم التوازن جعل حياتي الجديدة صعبة في بعض الأوقات وطبع تجربتي الشخصية في لندن لسنوات عديدة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

عنصرية بريطانية

كنت أحب التنقل بالحافلة، خصوصاً عندما أجلس في مقدمة الطابق الأعلى من الحافلة ذات الطابقين، حيث كنت أستمتع بالمنظر كطائر من أعلى شجرة. أمر عادي في العالم العربي حين تصعد إلى الحافلة أن تسلِّم على المسافرين الآخرين، لكنني حين قلت «صباح الخير» للجالسين في الحافلة رقم 11 في المرة الأولى التي صعدت فيها إلى حافلة، لم يقابلني سوى الصمت والنظرات الحديدية. في أواخر 1970، كان لدى اللندنيين نظرة صارمة وعنصرية ضد الغرباء، وإذا كنت فلسطينياً، فالأمر أسوأ، إذ سيُنظر إليك غالباً كإرهابي أو خاطف طائرات. حتى ضمن الزملاء الصحافيين، كان دخولي إلى مؤتمر صحافي أو حفل استقبال يواجه غالباً بنظرات قلقة (وهي تجربة غير مريحة كان عليَّ أن أعاني منها مرة أخرى بعد أحداث 9/11 وتفجيرات لندن في تموز/يوليو 2005). بعد عدة أشهر من هذه المعاناة كنت منزعجاً جداً لدرجة أنني، في مؤتمر صحافي لوزارة الخارجية البريطانية، قمت في أحد الأيام بتقديم نفسي إلى الوزير آنذاك بهذه الجملة: «عبد الباري عطوان، فلسطيني وغير مسلح»، وهو ما قوبل بضحك من زملائي الصحافيين والموظفين الحاضرين معاً، وكسرت بذلك تلك الوضعية التي تواجهني.

كانت العنصرية قوية في العاصمة، وبشعري الأفريقي الطراز وبشرتي السمراء كنت هدفاً دورياً لتلك العنصرية. تجربتي الأولى كانت في حافلة عامة حين قام مساعد السائق «كومساري» أو قاطع التذاكر برميي منها لأنني لم أكن أحمل المبلغ الصحيح للركوب، رغم أن أحد الركاب عرض أن يصرف ورقة الجنيهات العشرين التي كانت معي. كنت محرجاً أمام العيون المبحلقة بي وتملكني غضب شديد. قاومت رغبتي الغريزية بالعنف ولاحظت أنني بترك العنان لغضبي قد أضرُّ بمستقبلي في البلد. وقفت بهدوء وانسحبت بأكثر ما يمكنني من الكبرياء التي استطعت أن أحافظ عليها.

كان لدي قريب في السعودية وقد تمكن من جمع الكثير من المال؛ اشترى لنفسه شقة في واحدة من أكثر ضواحي لندن السكنية غلاء (سانت جونز وود) وكذلك سيارة ديملر جديدة باذخة عرض أن يعيرها لي حين يكون بعيداً عن لندن. باشرت بقيادة السيارة حول المدينة، لكن كثيراً ما كانت الشرطة توقفني. في بعض الأحيان كانوا يسألونني عن بطاقة تعريف بشخصيتي فحسب لكنهم، مرتين، طلبوا إليَّ إفراغ جيوبي وقاموا بتفتيشي. كانت تلك أيام قانون التوقيف والتفتيش السيئ السمعة، والذي كان يسمح للشرطة بذلك، وحتى باعتقال أي شخص يختارونه، فقط على أساس الاشتباه بأنه يمكن أن يرتكب جرماً. من الواضح أنني كنت هدفاً أساسياً لأفراد عنصريين من الشرطة كانوا يفترضون أنني لص بسبب شكلي وصغر سني، لذلك أعدت

السيارة الفخمة إلى الكاراج واشتريت لنفسي سيارة فورد فييستا قديمة، ولم تعد الشرطة توقفني بعد ذلك.

قوانين الإيقاف والتفتيش استُخدمت بشكل متكرر ضد السود في أحياء الغيتو الداخلية في المدينة، مما ساهم في خلق جو من الاستياء والغضب أديا إلى توتر ملموس بين المواطنين السود والشرطة. لم أكن متفاجئاً حين اندلعت الاضطرابات في كل أنحاء البلاد في مدن تضم غيتوات السود - حي سانت بول في بريستول كان الحي الأول الذي اندلعت فيه المجابهات في 2 نيسان/ أبريل، ثم بريكستون في لندن، وتوكستيث في ليفربول، وأدت هذه الاشتباكات لخلق مناخ معاد للغرباء ما جعل الحياة صعبة لكل الأقليات، بمن فيهم العرب، الذين يقيمون في لندن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

معركة في الصالون

صديق فلسطيني آخر، عادل بشتاوي، كانت لديه شقة جميلة مستأجرة في أولد تشيرش ستريت بمنطقة تشيلسي - وهي منطقة مثيرة، وقد شهدت رواجاً بحيث صارت تجذب كل الأشياء الغريبة وغير الاعتيادية في لندن أواخر السبعينات. في تلك الأيام، كان عادل منفصلاً عن زوجته الإنكليزية كاثي إيفانز، وهي صحافية في الغارديان، وكان مقيماً في لندن منذ سنوات عديدة؛ كان بشتاوي يعتمد الطراز الغربي والمديني في لباسه وأسلوب حياته، وكنت غالباً ما الجأ لنصائحه بالنسبة للشيفرات المضمرة للمجتمع البريطاني. سكنت مع عادل بشكل مؤقت حين انتقلت من شقة ماربل آرش وكنت أبحث عن مكان خاص بي. في أحد الأيام كنت أتذمر من عدد المرات التي مُنعت فيها من الدخول إلى فندق هيلتون في بارك لين حيث كنت أريد أن أراقب الأغنياء الكبار وهم يتصرفون على سجيتهم.

أخذ عادل يضحك وشدَّني من كوعي إلى مرآة مزخرفة مذهَّبة معلقة فوق موقد النار، قال: «انظر إلى نفسك عبد الباري»، قال لي مؤنباً. «أنت ترتدي ملابس أناس من العالم الثالث في بلد من العالم الأول. انظر إلى بنطالك!».

نظرت إلى القماش اللماع الذي خيط بطريقة سيئة والذي يغطي ساقيَّ النحيلتين، ويرتفع فوق حذائي عدة سنتمترات. تابع عادل مستفهماً: «ولماذا تصرُّ على ارتداء هذا الجاكيت الجلدي المقرف الذي يجعلك تبدو كأحد البلطجية؟». تألمت من حديثه لكنني حاولت أن أكون موضوعياً.

استمر عادل بتفتيشه الدقيق ثم ربَّت على الشعر الكثيف المجعد المتجه بكل الاتجاهات حول وجهي: «وبالنسبة لهذا...» راح يتكلم، وكان ذلك فوق طاقتي على الاحتمال.

رحت أحتجُّ بحرارة قائلاً:

- «إنه على الطراز الأفريقي! هي الموضة الدارجة!

- ربما كان كذلك قبل عشر سنوات، لكن حتى لو كان كذلك، إنه يبدو كمظلة أكثر مما هو طراز أفريقي!».

أدى ذلك إلى استسلامي لمنطقه، فعادل نفسه بدا لي مقبولاً تماماً من قبل الجمهور البريطاني. أخذني إلى الصالون الذي يتعامل معه، وقد أثار حذري ما كان مكتوباً على واجهته من كونه «صالون للجنسين». حين دخلنا، لاحظت أن كل من يعملون هناك فتيات. بعث هذا الأمر الاضطراب في نفسي، فالأنثى الوحيدة التي لمست رأسي في كل حياتي، ناهيك عن غسله، كانت أمي. سمحت لنفسي بأن أُقاد إلى مغسلة للشعر وأطعت التوجيهات بأن أرجع

رأسي إلى الخلف قبل أن أترك لعدة دقائق في تلك الوضعية الحرجة. سرعان ما جاءت فتاة جميلة تلبس قميصاً قصيراً وبدأت بتحميم شعري بماء دافئ فيما تقوم بتمسيد رأسي. وجدت كل ذلك جديداً تماماً وممتعاً. «هل تريد ملطِّفاً للشعر؟» سألتني المزينة.

في الشرق الأوسط كنا نستخدم صابوناً عادياً (نابلسي) لغسل الشعر وزيت الزيتون لتطريته، لكنني أشرت لها بالموافقة. بعد دقائق حصلت على تمسيد أكثر، ثم روائح ذكية، ثم وُضعت بمواجهة مرآة، وكانت المزينة ترفع خصلاً من شعري الكثيف بهذا الاتجاه وذاك فيما كنا نتناقش في الطراز الذي أرتئيه للتسريحة. باشرت بقص بعض رؤوس الخصل ثم بدأنا بالحديث. «من أين أنت قادم؟» سألتني. كانت لغتي الإنكليزية لا تزال بدائية وأسأت فهم السؤال، فرددت عليها: «السعودية». رحت أتحدث عن الوضع في الشرق الأوسط ودُهشتُ لمعرفتها بتلك الخريطة السياسية المعقدة. كان ذلك في آذار/مارس 1978 حيث كان الإسرائيليون قد اجتاحوا جنوب لبنان، وقتلوا الكثير من اللاجئين الفلسطينيين في محاولة لإخراج منظمة التحرير الفلسطينية من قواعدها القوية هناك. «ابن الحرام مناحيم بيغن، ذاك إرهابي»، بدأتُ بالقول، واستمريت بالحديث بهذه الطريقة لعدة دقائق. لم أترك فيها كلمة سيئة ضد الإسرائيليين وأنصارهم إلا وشددتً عليها، من دون أن انتبه لما كان يحصل في شعري. حين انتبهت إلى التطور الحاصل في تسريحتي في المرآة، بدوت مثل الخروف الذي قُصَّ صوفه حديثاً، وذُهلت، فيما كانت تنظف رقبتي وكتفي بفرشاة شعر للتخلص من بقايا الشعر. وحين دارت حولي، لاحظت أنها كانت تضع حول رقبتها سلسلة ذهبيةً مع نجمة داود تتمايل على صدرها العامر. قالت: «عائلتي تقيم في إسرائيل، لكنني أفترض أن كل شخص حرٌّ بالتعبير عن وجهة نظره بالطريقة التي تناسبه».

لم أعد لنقاش الأمور السياسية مرة أخرى مع حلاق أو خلال زيارة إلى صالون تزيين للجنسين. حين طال شعري مجدداً، زرت حلاقاً تقليدياً لا أزال أعتمده حتى اليوم. هو حلاق قبرصي يوناني يتحدث كثيراً. نادراً ما أفتح فمي فيما يتحدث ليخبرني، في كل مرة أزوره فيها، كم أن الأتراك «أولاد حرام». رغم أنني أستمع منه إلى القصص نفسها، لكنني قررت منذ فترة طويلة أن أسكت وأتنازل عن الدفاع عن إخوتي المسلمين خوفاً من أن أتعرض إلى قصة شعر مفاجئة مدفوعة بالخلاف السياسي.

لإكمال إعادة التشكيل التي تعرضت لها، اصطحبني عادل للتسوق في أكسفورد ستريت، وقام عملياً بتوجيهي إلى ما يجب أن أشتريه، فأخذت معي للبيت بذة جديدة، وحذاء أسود، وسترة رياضية، وبنطالاً فخماً، وقمصاناً وربطات عنق، فقد قبضت راتبي وفوقه بدل سكن، أي أن الجيب كان عامراً.

وفيما كنت أجرب شكلي الجديد أمام المرآة، تذكرت بما يشبه الصدمة أيام طفولتي البائسة في مخيم اللاجئين: قدماي الحافيتان، الثياب التي كنت أرتديها والتي لم تكن على قياسي، شعري المجعد وجلدي المحروق بأشعة الشمس. قررت أن أجرب شكلي الجيد مع بواب فندق هيلتون بارك لين، واقتربت من المدخل بالطريقة المفعمة بالحيوية التي يستخدمها الرجال الإنكليز والتي تفترض احتراماً من المرؤوسين، فيما كنت أشد ربطة عنقي بإحكام. لم ينظر البواب إليَّ غير مرة واحدة قام بعدها بفتح الباب والترحيب بي قائلاً: «مساء الخير، سيدي».

صرت أقضي الكثير من الوقت في كينغز رود وكنت مشغوفاً بشكل خاص بالشباب الذين كانوا يدعون أنفسهم «بنكس»، والذين كانوا يتمشون هناك كثيراً. بعد أن قاموا بتأسيس طريقتهم الخاصة غير التقليدية، وبين هؤلاء من كانوا يقصون شعورهم على طريقة هنود الموهيكان الحمر ويرصعون أجسادهم بالدبابيس. لم أعد شخصاً غريب الشكل في أماكن لندن العامة، كما أن البنكس ما كانوا ينظرون إلى غريب فلسطيني نظرة مختلفة.

إثر «إعادة تشكيلي» بفترة قصيرة، ذهبت وعادل إلى مقهى للبنكس مليء بالدخان كنت قد ذهبت إليه عدة مرات من قبل، لأشرب فنجاناً من القهوة وللتحدث والنظر إلى الناس.

بعد فترة قصيرة لاحظت أن الساقية، التي كانت تدعى فيري سنو، وثلاثة من الزبائن الذكور يتناقشون وينظرون إلينا. أغلقت فيري سنو باب المقهى واتجهت نحونا وهي تدخن لفافة، بثيابها السوداء والدبابيس التي ترصِّع أنفها، وسوار مصنوع من الأسلاك الشائكة التي أدت لجرح في يدها. في هذه الأيام، يمكن لمفتشي الصحة أن يغلقوا المقهى لأسباب تتعلق بالصحة العامة وسلامة الزبائن، لكن في ذلك الوقت لم يكن أحد يفكر في تلك المسائل. رغم أنني كنت قد زرت المقهى عدة مرات من قبل، وحتى إنني تحادثت مع فيري سنو، فإنها لم تتعرف إلي وسألتنا إن كنا نبحث عن شخص ما. أكدنا لها أننا لم نكن نبحث عن شخص، وأننا كنا هناك لنشرب بعض القهوة فحسب. سألتنا:

- «ألستما من رجال الشرطة؟

- بالطبع لسنا كذلك، قلنا ونحن نضحك.

- لماذا أنتما هنا إذاً؟ أصرّت فيري سنو على السؤال، هل تريدان أن تحرزا هدفاً؟

- ماذا تقصدين بـ«هدف»؟ سألتها فيما نظرت إليَّ كما لو كنت معتوها.

- هدف، أنت تعرف، غرزة، وبعض الشجن».

كانت تلك لغة غير مفهومة بالنسبة لي.

- «لا، طبعاً لا، قال عادل، وهو يتمتم لي بالعربية كلمة «مخدرات» وهو يخفي فمه بيده. شكرا لك، أضاف بلطف.

- «اسمعا، إذا لم تكونا من الشرطة السرية ولا تريدان مخدرات، فلماذا، بحق الجحيم، أنتما هنا؟ أرجوكما أن تخرجا وأن تتركانا بحالنا».

كان افتراضها أنني مفتش شرطة متخف أمراً مضحكاً، لكن المقصود هو أن بدلاتنا الرسمية تلك كانت مريبة في ذلك المكان. إعادة التشكيل على طريقة عادل سمحت لي بالدخول إلى الهيلتون لكنها كانت مثاراً للشك في المناطق السفلية لتشيلسي حيث لم يكن منظري السابق يثير الشك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون E-BOOK

معارف

انتقلتُ عام 1979 إلى شقة استأجرتها في هولاند بارك لأعيش وحدي لأول مرة في حياتي. فالصديق عادل بشتاوي لم يتحمل فوضويتي، كما أنني وجدت من الصعوبة التعايش مع صرامته، وتصرفاته كضابط في فرقة عسكرية في جيش محافظ (خدم بشتاوي كضابط احتياط في الجيش السوري)، إلى جانب تأثير نزاعه مع زوجته السابقة على أعصابه. كان أمراً جديداً كل الجدة عليَّ أن أفعل كل ما أريد في البيئة التي تحيط بي، وفي الأسابيع القليلة اللاحقة بدأتُ برمي الجرائد والثياب على الأرض وبترك الصحون غير المغسولة تتراكم عالياً في المغسلة. لكن المدن الكبيرة يمكن أن تُشعرك بالعزلة، وسرعان ما بدأت أفتقد وجه صديق حولي حين أعود إلى البيت من العمل. استغربت ولم أفهم انعدام التواصل بين الجيران. في البلدان العربية أنت محاصر دائماً بجيرانك: يراقبون ذهابك وإيابك وهم يدخلون عليك باستمرار، غالباً حاملين طبقاً من المآكل الشهية التي قاموا بطبخها للتو. فوائد شبكة الدعم الاجتماعي غير الرسمي هذه عديدة: العجائز والمرضى لن يبقوا وحدهم وعروض المساعدة كثيرة.

مع مرور الوقت، بدأ يتكون لدي إحساس مزعج بأن الجارة بمواجهتي كانت تراقبني من «العين السحرية» للباب كلما جئت للبيت من العمل. بعد عدة أشهر على هذا الحال، تغلب عليَّ الفضولي وذهبت إلى باب الجيران. «مساء الخير، قلت، أنا جارك وأحب أن أتحدث معك. هل يمكنني دعوتك إلى شرب فنجان قهوة؟». بعد صمت محرج، كنت خلاله لا أتحرك، بل استمريت بالابتسام مشجعاً، فتحت امرأة صبية الباب. بعد أن خرجنا من الإحراج الأولي والخجل، أصبحنا أنا وكارول - التي كان تعمل في بنك أوف إنجلاند - صديقين مقربين. بل راودتني بعض الآمال الرومانسية حول علاقتنا لكنني شعرت بالخيبة عندما انتقلتْ إلى منطقة أخرى؛ خصوصاً بعد أن سكنتْ في الشقة بدلاً منها راهبة من ويلز لم تكن متحفظة مثل كارول بل كانت تقرع بابي في أي وقت ليلاً أو نهاراً لتخبرني آخر الأخبار، في كنيستها، وتبقى دائماً أكثر مما يجب. رغم ذلك فقد استمريت بحملتي الحازمة للتعارف مع الجيران، محيِّياً سكان البناية بابتهاج في أي وقت ألتقي بهم، متجاهلاً عدم اهتمامهم، وبالتدريج بدأت طريقة جديدة في التعامل بين الجيران بالظهور في البناية.

حتى اليوم لا أعتبر أنني اعتدت تماماً على التحفظ الجسدي البريطاني، حيث إنهم يمكن أن يحيُّوا صديقاً قديماً يلتقونه بالمصافحة فحسب. لقد تغير الأمر قليلاً الآن لكنه لا يزال مختلفاً عن الطريقة التي يلتقي بها العرب فيتعانقون ويقبِّل بعضهم بعضاً. كانت العادة أن يتبادل العرب قبلتين، لكن ياسر عرفات بدأ ثقافة جديدة تماماً، بتقبيله كل من يلتقيه ثلاث مرات على الأقل. كان

الأمر مقبولاً لدى العرب لكنه كان مزعجاً للزعماء الأجانب. لقد شهدت المشهد المسلِّي هذا عدة مرات، حين تقوم شخصية دبلوماسية مهمة أوروبية أو أميركية بمدِّ يد المصافحة نحو عرفات ليتفاجأ (أو تتفاجأ) بسحبه إلى احتضان تُشدُّ فيه عظام الصدر وترافقه قبلات صافعة على كلا الخدين فيما يحاول الشخص، عبثاً، التملص منها.

وإذا كانت فرص اللقاء الاجتماعي ببريطانيين قليلة، فقد كانت أقل في جوِّ العمل. مكاتب «الشرق الأوسط» كانت في غوف سكوير، قرب فليت ستريت. نظرياً، كانت المؤسسة محدَّثة بشكل غربي، حيث كان لدينا جميعاً أحدث الأجهزة الإلكترونية كما كانت جداول أعمالنا شبيهة بأي صحيفة أخرى في فليت ستريت، لكن تحت هذا المظهر الخادع بقيت المؤسسة جهازاً عربياً يتدخل فيه أصحاب الشركة بكل الشؤون التحريرية، إضافة إلى الطعن في الظهر ومحاباة الأقارب.

حتى بيئة العمل كانت خاضعة، على الطريقة العربية، لنظام الفصل بين الجنسين. كانت هناك بنايتان، واحدة للشؤون التحريرية يشغلها ذكور عرب، والثانية للإدارة، وكانت بريطانية بأكملها تقريباً، وشاغلاتها من النساء. كنت أختلق مجموعة منوَّعة من الذرائع للذهاب إلى القسم الإداري لأقابل الفتيات هناك، اللواتي كن شابات ومحبات للمرح. كانت المحاسِبة تدعى ستيفاني وهي فتاة صريحة وخفيفة الدم، كانت تتابع نثر ملاحظات ساخرة عن زملائها، وتلبس نظارات معدنية تجثم على نهاية أنفها، وكانت صريحة في إبداء رغبتها بإيجاد رفيق درب، كما كانت تخبرني عن رحلات العطل المخصصة للعازبين التي كانت تشارك بها.

في أحد الأيام، فوجئت بستيفاني تصبِّحني بمجاملة لطيفة. كنت مبتهجاً بشيك راتبي الذي سلمتني إياه، فقالت: «لديك أصابع جميلة حقا». أبقيت الأمر في داخلي لأستشير عادل الذي شخَّص لديها حالة «نوايا رومانسية». كان صعبا عليَّ تصديق ذلك لكنني تبادلت وستيفاني في الشهرين اللاحقين محادثات مبهجة وقررت أن أدعوها للعشاء. استغرقتني المسألة أسبوعين آخرين لأستجمع شجاعتي، لكن عندما ذهبت لأراها، كانت جالسة ويداها مشتبكتان بيدَي شاب إنكليزي يعمل في أرشيف الصور. لقد حلَّت مشكلة وحدتها العاطفية وأحسست أنا بالراحة بشكل لم أتوقعه، فقد كتب الله لي عدم الوقوع في مصيدتها.

صار لي أصدقاء جيدون بين المحررين. مثل معظم الشباب العرب، وجدت العمل والصداقة في بيئة كلها من الذكور أمراً اعتيادياً. كان يمكن تصنيف زملائي ضمن عدة أصناف يمكن اختصارها على الشكل التالي: المثقفون، و«العازبون». د. نبيل عياد كان زعيم فئة المثقفين، وقد كلَّف نفسه بحماسة

بمهمة إقناعي بالانضمام لشلته. قرر أخذي إلى الأوبرا حيث قضيت الجزء الأول من العرض وأنا أسدُّ أذنيَّ لصدِّ الصوت الذي يصمُّ السمع، وسائلاً إياه أن يشرح ماذا يجري، ما وضعه في حالة محرجة بين زملائه محبِّي الأوبرا الذين أخذوا يحدِّقون بي بغضب، هامسين «ششش!». خلال الاستراحة قدَّمت عذراً للرحيل، حاثاً إياه على البقاء إن كان مستمتعاً حقاً، وهو ما أكد عليه، رغم شكوكي بذلك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ردم الفجوة

الانتقال من الإعلام العربي، والسعودي على وجه التحديد، إلى لندن عاصمة الإعلام العالمي لم يكن عملية سهلة، بل كان انقلاباً جذرياً في حياتي المهنية والشخصية. في السعودية حيث كنت أعمل وأعيش، كان الإعلام، والصحافة المكتوبة بالذات، في قمة البؤس، فكل همِّ رئيس التحرير أن لا يخسر وظيفته، وأن لا يُغضب الأسرة الحاكمة، لأن اختياره يتم في الغالب من وزارة الإعلام، أو رقيب المؤسسة على وجه التحديد، ويتساوى في ذلك جميع رؤساء التحرير سواء في الملكيات أو الجمهوريات، ولا أبالغ إذا قلت إن الحال في الملكيات أفضل، لأن الصحف في معظمها خاصة، أو شبه حكومية، وفي الحالة السعودية يختار مجلس الإدارة ثلاثة أسماء كمرشحين لرئاسة التحرير، وتقدَّم اللائحة إلى وزارة الإعلام لاختيار واحد منهم، وغالباً ما يكون هناك شبه اتفاق على واحد معين، وحدث أكثر من مرة أن رفضت وزارة الإعلام المرشحين الثلاثة.

معظم القصص في الإعلام المرئي والمقروء في السعودية هي إما عن «فضائل» العائلة المالكة أو عن الدين. في المرة الأولى التي وصلت فيها إلى لندن، أحسست بطوفان من الانفتاح والتنوع في الصحافة البريطانية يغمرني وقررت أن أقرأ بقدر ما تمكنني طاقتي البشرية، منتبهاً بشكل متزايد إلى الفجوة في معرفتي الشخصية وفي تجربتي ومهاراتي.

لكن فيما كان لديَّ الكثير لأتعلمه، كنت آمل أيضاً بأن أقدم مساهمتي في تغيير الطريقة التي ينظر بها الصحافيون البريطانيون إلى الشرق الأوسط. بدا لي على سبيل المثال أن هناك انحيازاً مؤيداً للصهيونية (رغم أنه ليس مطلقاً) في تغطية النزاع العربي الإسرائيلي، مع بعض الاستثناءات النبيلة. نخبة من الصحافيين والكتّاب الشجعان قرروا الانحياز إلى الحقيقة، تضم أشخاصاً مثل بيتر مانسفيلد وديفيد هيرست وجوناثان دمبلبي الذين قاموا جميعهم بإنتاج كتابات مرجعية وثاقبة النظر في الموضوع، غير أن غالبية الصحافيين البريطانيين الذين التقيت بهم أواخر السبعينات وأوائل الثمانينات ما كانوا مهتمين بالبحث الصحيح والمتعمق في سياسات الشرق الأوسط وجاءت معظم قصصهم وتقاريرهم الإخبارية من وكالات الأنباء. قررت أن أحاول تغيير هذه الوضعية من خلال إشراك زملائي البريطانيين في النقاش شارحاً تجربتي ووجهة نظري لهم.

حالة الكراهية المرتكزة على الجهل، والتضليل الإسرائيلي، وعنجهية المؤسسة البريطانية كانت في ذروتها ضد العرب، ومن المؤسف أن الجهود العربية المبذولة لتغيير هذا الوضع نادرة. فمعظم السفراء العرب في

العاصمة البريطانية كانوا لا يجيدون اللغة الإنكليزية، ويتحاشون الإعلام عموماً، أما الملحقون الإعلاميون فكانوا في معظمهم أكثر جهلاً باللغة والواقع البريطانيَّين. فالسفراء العرب كانوا إما من أقارب الملك أو الرئيس، أو من الوزراء السابقين، أراد الحاكم إكرامهم أو إبعادهم، وكان لافتاً أن معظم السفراء المصريين في لندن كانوا رؤساء أركان الجيش المصري، مثل سعد الدين الشاذلي بطل حرب أكتوبر، أو الجنرال أبو سعد. والشيء نفسه يقال أيضاً عن السفراء العراقيين، فقد كان عبد الرزاق النايف أحد قادة انقلاب البعث في العراق عام 1968 سفيراً لبلاده في لندن، حيث خيَّره صدام حسين بين السجن أو النفي، فقرر قبول أهون الشرين أي النفي كسفير في لندن، لكن صدام حسين لم يمهله طويلاً فقد أرسل من يغتاله أمام فندق إنتركونتننتال عام 1978.

ومن المفارقة أن الشخص الذي نفذ عملية الاغتيال هذه ويدعى سالم حسن، كان على اتصال دائم معي بعد تأسيس «القدس العربي». وقد طلب إليَّ إرسال نسخة منها له يومياً، وفعلاً وافقت على طلبه من دون أن أعرف هويته أو أسباب سجنه، فهو كان واحداً من عشرات المساجين العرب الذين أرسل لهم اشتراكات مجانية، فكيف أرفض طلب إنسان في غربة خلف القضبان ولا أحد يؤنس وحدته، ويريد أن يتواصل مع هموم بلاده عبر هذه الصحيفة التي يقول إنه يحبها والله أعلم.

لم أعرف أن سالم حسن هذا هو الذي أطلق الرصاص على عبد الرزاق النايف إلا قبل الإفراج عنه بأشهر، وقد أبلغني بحقيقته الزميل سعد البزاز وكان مديراً للمكتب الثقافي العراقي في لندن في تلك الفترة.

قصة سالم حسن غريبة، فقد خصصت له إدارة السجن مكالمة شهرية لمدة ساعة، وكان يخصني بها دون أن أختار أنا ذلك، يحدثني فيها عن عالم السجون وما يجري فيها، وبعضها قصص وتجارب جنسية لا أستطيع روايتها. وكل ما أستطيع الكشف عنه هو أن حراس السجن كانوا يتغاضون عن الكثير من الممارسات في غرف الزيارة الأسبوعية، حيث يلتقي المسجونون مع زوجاتهم أو عشيقاتهم، ربما لأسباب إنسانية، أو لإشباع الفضول، خصوصاً إذا تطورت الأمور وتصاعدت الآهات وتلاحقت الأنفاس. إنه فيلم جنسي أو عرض جنسي حيٌّ حسب توصيف صاحبنا سالم.

سالم حسن كان وسيماً مثل معظم أهل الموصل حيث ولد، وقد أحب مدرِّسة الرسم التي كانت تزوره وزملاءه أسبوعياً، مثلما أحب إحدى السجَّانات وانتهى أخيراً بالزواج بالمدرِّسة وهو لا يزال خلف القضبان، وأقنعها باعتناق الإسلام، وفعلاً أسلمت، وتلقَّبت باسم زينب كما قال لي. وقد التحقت به في العراق بعد الإفراج عنه بشهر، ولا أعرف ما حدث له بعد ذلك، فقد قامت

الحرب في العراق، وسقطت البلاد تحت الاحتلال الأميركي، وانقطعت أخبار سالم حسن عني، ولا أعرف إن كان حيَّاً أو ميتاً. وأعترف بأنه أراد مقابلتي بعد الإفراج عنه قبل أن يستقلَّ الطائرة إلى عمَّان من مطار هيثرو، لكنني لم ألاقِه، فقد ترددت كثيراً بعد أن عرفت طبيعة جريمته.

ظلَّ اختلاطي بالوسط الصحافي البريطاني محدوداً رغم كل محاولاتي لاختراقه، فالحاجز العنصري والثقافي كان ضخماً جداً في ذلك الوقت، وإن كان أصبح أقل سماكة هذه الأيام. تلقيت دعوة لحضور حفل عيد ميلاد الزميلة ماري كولفن التي كانت (ولا تزال) تعمل في صحيفة «صنداي تايمز»، وقد سعدت بها ولبَّيتها فوراً، فماري كولفن كانت متزوجة من باتريك بيشوب محرر الشؤون الخارجية في صحيفة «دايلي تلغراف» اليمينية المؤيدة لحزب المحافظين، والأكثر ميلاً لإسرائيل من بين الصحف البريطانية، وقد اشتراها اللورد كونارد بلاك وهو مليونير كندي تزوج من بارباره إميل وهي يهودية صهيونية تزوجت من ثلاثة رجال قبله، وكانت تكره العرب وتؤيد إسرائيل بشراسة.

كنت الضيف الوحيد الأسمر البشرة في حفلة ماري كولفن، بل وغير الإنكليزي. كان جميع الضيوف من العاملين في صحيفة «دايلي تلغراف»، وتجنبوني جميعاً تقريباً، باستثناء اثنين، واحدة بيضاء جميلة، وكانت ثملة للغاية، وربما أعماها سكرها الشديد عن رؤية لون بشرتي، وجعلها تتخطى الحاجز العنصري، أما الشخص الآخر فكان عازف الأكورديون، والذي جيء به من إحدى محطات مترو الأنفاق حيث كان يتكسب قوت يومه من التسول من خلال العزف للمارة.

عازف الأكورديون قوبل بالتجاهل مثلي، ولم يستمع إليه أحد وجرى تركه في غرفة مجاورة يعزف لوحده. لاحظت في فترات الاستراحة أن معه صبيتين تبدو عليهما سمات الفقر والتشرد مثله، وقد استمتعت بصحبتهم بعد أن يئست من اختراق البرودة الإنكليزية. لفت نظري أن الفتاتين والعازف يذهبون إلى المرحاض فرادى بكثرة. دفعني فضولي للسؤال، فجاءت الإجابة صاعقة؛ كانوا يتعاطون المخدرات وعرضوا عليَّ الانضمام إليهم لكني رفضت وانسحبت من الحفل بهدوء عائداً إلى بيتي.

اغترابي الاجتماعي تراجع بشكل عظيم حين تعرفت إلى منظمة تدعى «كابو» (الأحرف الأولى بالإنكليزية من: مجلس تطوير التفاهم العربي البريطاني)، والتي تأسست عام 1967 بعد حرب الأيام الستة لإقامة علاقات أفضل بين بريطانيا والعالم العربي، وخصوصاً لـ«كشف التجاهل والتحيز السلبي الذي تعانيه هذه العلاقات معظم الأحيان» كما يقول بيان المنظمة.

من خلال تلك المنظمة التقيت، للمرة الأولى، ببريطانيين، بمن فيهم العديد من السياسيين وأعضاء الهيئة الإدارية، المهتمين بثقافتنا والمتعاطفين مع قضيتنا.

تأسست «كابو» في إيرلز كورت وسط لندن وغالباً ما كنت أحضر الخطب والنقاشات التي ترعاها. مرة أخرى، كان هناك الكثير لأتعلمه، وهذه المرة، في ما يتعلق بفن الحوار. عدم الاتفاق مع وجهة نظر الآخر في البلدان العربية عادة ما ينتهي بالتجريم (صهيوني) والإهانة (غبي) أو بعراك بالقبضات. هنا، للمرة الأولى، تعلمت أن التبادل اللطيف للأفكار ووجهات النظر أمر ممكن وتمتعت بالاستماع إلى وجهتَي نظر الطرفين المتحاورين بصبر وتأنٍّ، عند إجابتهما على أسئلة عديدة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أنا وإدوارد سعيد

التقيت برمزين للشتات الفلسطيني، خلال إقامتي في أوروبا، ممن اعتبرهم من بين أعظم الفلسطينيين في القرن العشرين.

الأول كان إدوارد سعيد الذي التقيت به للمرة الأولى في «كابو» عام 1981. كنت أعرف آنذاك عن كتاباته الراديكالية المحكمة والصريحة من خلال صفحات إنترناشيونال هيرالد تريبيون وحين جاء إلى إيرلز كورت لإلقاء محاضرة كنت في المقاعد الأمامية أستمع إليه باهتمام متأثراً بشكل كبير بثقته وأسلوبه. لم يكن يستخدم ملاحظات مكتوبة وقد أجاب حتى على أكثر الملاحظات جدية بدعابة وخفة دم. قدمت نفسي له بعد ذلك وتقاربنا بسرعة كبيرة. كان شخصاً جميل المحيَّا بشكل صادم، وعنده كاريزما، ومثقف بشكل رهيب ورفقته مسلية وساحرة.

عندما تسلمت منصب مدير تحرير مجلة «المجلة» كان اتصالي بإدوارد سعيد أول شيء قمت به، طالباً إليه أن يكتب لنا، وكان ذلك بالاتفاق مع رئيس التحرير عثمان العمير. «بكل سرور، أجاب، أجرتي هي دولار واحد مقابل كل كلمة». أذهلني كلامه، فالإعلام العربي لم يواجه هذا النوع من الطلب أبداً، مهما كانت مبرراته.

- «ماذا لو كانت الكلمة هي «أل» التعريف أو التنكير؟

- «صغيرة أو كبيرة، كلماتي هي دولار واحد مقابل كل كلمة»، قال بإصرار.

قرأت مؤخراً في مجلة «برايفت آي» أن جوليا بورشيل، الصحافية الموسيقية الماركسية سابقاً، طلبت 250 جنيهاً لكل كلمة تكتبها في زاوية لجريدة «صن»، فيما حصل توني بلير على 240 ألف جنيه لخطبة قصيرة في جنوب الصين قال مراقب عنها (رغم أنه من ذلك الإقليم البعيد) إن رئيس الوزراء البريطاني الأسبق «لم يقل شيئاً جديداً».

تمكنَّا من دفع أجرة مقالة واحدة من ألف كلمة لإدوارد سعيد كل أسبوعين، على أن تكون المقالة أصلية، حكيمة، وتستحق كل دولار مدفوع فيها، وكانت تلك خبطة صحافية ممتازة لصالح قراء «المجلة». رغم أنه كان يتحدث اللغتين، فإن إدوارد سعيد كان يكتب بالإنكليزية، وكان يصرُّ على مراجعة الترجمة العربية لمقاله والموافقة عليها قبل طبعها، وكان يقوم بالترجمة الصديق المرحوم عوني بشير.

ما اكتشفته من خلال علاقتي التي توطدت مع إدوارد سعيد، خصوصاً بعد احتلال صدام حسين للكويت عام 1990، أن الرجل كان يحتكم دائماً إلى ضميره، فرغم أنه كليبرالي عاش معظم حياته في أميركا، إلا أنه لمِ ينسَ

مطلقاً جذوره الفلسطينية بشكل خاص، والعربية بشكل عام. ولا أضيف جديداً عندما أقول إنه كان على درجة عالية من الثقافة والرقة في الوقت نفسه. وكان محطّ إعجاب النساء لرقته ووسامته، وقد علمت أنه أقام العديد من الصداقات الحميمة مع الجنس الآخر.

إدوارد سعيد لم يطلب دولاراً عن كل كلمة يكتبها لمجلة «المجلة» لأنه كان يحب المال، وإنما لأنه يريد أن يرسِّخ مبدأ في الصحافة، وهو الارتقاء بقيمة الكاتب، وتعزيز مكانته، وتغيير أسلوب نمطي سائد في الصحافة العربية، وهو عدم تقدير الكاتب حقَّ قدره مثلما يحدث في الصحف الإنكليزية والغربية عموماً.

لم تطل فترة إطلالة إدوارد سعيد على القارئ العربي عبر مجلة «المجلة»، فأثناء حرب تحرير الكويت حدث انقسام كبير في العالم العربي بين معارض للوجود الأميركي في الجزيرة العربية (الأغلبية الساحقة) ومؤيد للاستعانة بالشيطان من أجل إخراج قوات صدام حسين وإنهاء احتلالها للكويت بالقوة، وهذا المعسكر كان يمثل الأقلية، لكنها أقلية تملك المال الوفير (دول الخليج) والأكثرية العددية (مصر) و«الشرعية الثورية» (سوريا)، وقد انحاز إدوارد سعيد إلى ضميره، وأيد معسكر الفقراء وهو البرجوازي التنشئة، الليبرالي الميول، الأميركي الثقافة والجنسية، وبدأ يكتب مقاله في مجلة «المجلة» بطريقة لم تعجب الزميل عبد الرحمن الراشد رئيس التحرير في ذلك الوقت، فتوقف عن نشر المقالات لأسباب سياسية بحتة، فالرأي الآخر المختلف لم يكن موضع ترحيب لديه. بدأ إدوارد سعيد يكتب مقالاته في صحف بريطانية وأميركية، وينتقد فيها الاستعمار الأميركي بشدة، وقد كان يرسلها إليَّ في صحيفة «القدس العربي» ونقوم بترجمتها وإعادة نشرها «مجاناً». لم يطلب مليماً واحداً في المقابل، وربما كان يعرف مدى تدهور وضعنا المالي جيداً في الوقت نفسه. وحدث أن زارني في الصحيفة مرة واحدة، ووعدني بأنه عندما سيحضر في المرة المقبلة سيجلس في غرفة التحرير لكتابة مقالاته ومراجعة بعض المؤلفات الأخرى، لكنه لم يفعل لانشغاله، فقد كان نجماً والجميع في بريطانيا يسعى إليه.

بدأ خلافي مع إدوارد سعيد عندما قرر أحد الأثرياء الفلسطينيين تمويل مؤتمر لبحث كيفية عدم جعل الخلاف العربي حول حرب الكويت ينعكس سلباً على القضية الفلسطينية، ووضع استراتيجية لاختراق محطات التلفزة الأميركية والبريطانية من خلال وجوه إعلامية خبيرة وقادرة على مخاطبة الغرب بلغته. وقد كلف الممول البروفسور إدوارد سعيد صاحب هذه الفكرة بتنظيم المؤتمر واختيار الشخصيات الملائمة للمشاركة فيه.

علمت بهذا المؤتمر والمشاركين فيه عن طريق الصدفة المحضة، فقد دعاني السيد عفيف صافية، وكان ممثلاً لمنظمة التحرير في لندن، إلى حفل استقبال في بيته للمشاركين، وعلى رأسهم إدوارد سعيد، فاعتذرت عن عدم الحضور، فكيف يعقد مؤتمر على هذه الدرجة من الأهمية من دون أن أدعى إليه، وأنا رئيس التحرير الفلسطيني الوحيد في لندن عند ذلك، ثم إنني كنت وجهاً دائماً في محطات التلفزة الأميركية والبريطانية مثل بي بي سي وسي إن إن وسكاي وغيرها.

البروفسور جورج جقمان، وهو صديق لإدوارد سعيد، علم من عفيف صافية مدى غضبي من استبعادي، فاتصل بي هاتفياً حاملاً إليَّ دعوة للمشاركة، لكنني اعتذرت عن عدم قبولها، وكنت قاسياً في ردِّي عليه، وقلت له: «أنتم غير مهنيين وغير أكاديميين وغير موضوعيين، فكيف تتجاهلونني وأنا أكاديمي أولاً، ورئيس تحرير صحيفة ثانياً، وتتهافت عليَّ جميع المحطات لاستضافتي، بينما معظم المدعوين لم يظهر أحد منهم على شاشات التلفزة الغربية. هل استُبعدت لأنني لست من أسرة برجوازية مثل الآخرين، أو لأنني ابن مخيم؟ أو لأن الممول لا يريد وجودي حتى لا يغضب الكويتيون؟».

كنت قاسياً في عتابي، ولم أكن مرناً في تفهمي لظروف الآخرين، فقد علمت أن مموِّل المؤتمر، وقد أصر على أن يظل مجهولاً، يقيم علاقات جيدة مع الكويت وأسرتها الحاكمة، وقد جمع ثروته من خلال أعماله التجارية فيها، وكنت مكروهاً جداً من الكويتيين حكومة وشعباً بسبب معارضتي للتدخل العسكري الأميركي تحت اسم «عاصفة الصحراء» لتدمير العراق تحت ذريعة تحرير الكويت.

انقلبت الصداقة التي بيني وبين إدوارد سعيد جفاء، وذهب كل منا في طريقه، واستقال إدوارد سعيد من عضوية المجلس الوطني الفلسطيني، وشنَّ بعد ذلك هجوماً شرساً على الرئيس ياسر عرفات، بعد أن كان من أقرب المقربين إليه، وازداد هذا الهجوم شراسة بعد توقيع اتفاقات أوسلو في 13 أيلول/سبتمبر 1993 في حديقة البيت الأبيض، وكان إدوارد سعيد محقاً في هجومه، فقد عارض الكثيرون هذه الاتفاقات، وأنا واحد منهم، لأنها جاءت تفريطاً في الثوابت الفلسطينية، وقبولاً مهيناً بالشروط الإسرائيلية كاملة. وعبَّر عن هذه الشراسة في العديد من المقالات في صحف بريطانية وأميركية، وتضمَّن بعضها قدحاً شخصياً بالرئيس عرفات وهو ما اختلفت معه فيه كثيراً.

لكن الخلاف الأكبر حصل عندما كتب إدوارد مقالاً عنيفاً لم يكتفِ فيه بمهاجمة الرئيس عرفات، وإنما هاجم بعنف العديد من المثقفين الفلسطينيين الذين عادوا معه إلى مدينة رام الله وقبلوا بمرتَّباته العالية، واحتلوا مناصب بارزة

في سلطته، وركّز على ركوبهم سيارات فخمة، وسكنهم في فيلات فارهة، واعتبر ذلك ثمناً رخيصاً لبيع الثوابت الفلسطينية وتخلياً عن دور المثقف في الدفاع عنها، والوقوف في خندق أبناء شعبه.

كتبت مقالاً في صحيفة «القدس العربي» رداً على مقال إدوارد سعيد، وقلت فيه إننا كشعب فلسطيني لا نملك النفط، ولا الثروات الهائلة، وكل ما نملكه هو مخزون من العقول المبدعة مثل إدوارد سعيد ومحمود درويش ووليد الخالدي وغيرهم. وليسمح لي إدوارد سعيد أن أختلف معه حول مقاله الأخير عن المثقفين الفلسطينيين، فليس من حقي، أنا الذي يقيم في لندن أو من حقه هو الذي يقيم في منهاتن (حيّ راق في نيويورك) أن يقسو على هؤلاء المثقفين لأنهم اجتهدوا وقبلوا خيار العودة إلى الوطن تحت مظلة أوسلو. فهؤلاء كانوا، ولا يزالون، مشاريع شهداء، وكانوا مع الثورة في لبنان، وقبلها في الأردن، وبعدها في المنفى التونسي، ثواراً ومقاتلين، وقد استشهد زملاء لهم في هجمات إسرائيلية، وعلينا أن نقدر ظروفهم.

رغم نعومتي الشديدة في التعاطي مع إدوارد سعيد والتأكيد على تميزه وعبقريته وفخرنا به، إلا أن ردي على مقاله أغضبه كثيراً مثلما أبلغني صديقنا المشترك شفيق الحوت، الذي هاتفني من بيروت يشرح لي مدى تأثر إدوارد سعيد من مقالي، وحاولت أن أشرح له مدى حرصي عليه وتجنبي أي كلمة مسيئة، إلا أنه قال لي إن إدوارد يهاتفه بشكل شبه يومي ويعتصر ألماً من مقالي، وختم شفيق رحمه الله إحدى مكالماته لي بقوله «يا عبد الباري رفقاً بالقوارير». وكان مصيباً.

أصيب إدوارد سعيد بسرطان الدم في أوائل التسعينات، وكانت صدمة كبيرة بالنسبة إليه. وقد قاوم هذا المرض اللعين طويلاً، وكاد أن ينتصر عليه، لكن مقاومته انهارت، وانتقل إلى رحمة الله في 25 أيلول/سبتمبر 2003.

تعرَّض إدوارد سعيد لهجمات قاسية من قبل الكثيرين في الغرب بعد صدور كتاب الاستشراق، وأذكر أن أستاذي الذي كان يشرف على رسالتي في جامعة لندن البروفسور ياب كتب عرضاً سيئاً للكتاب في ملحق صحيفة «التايمز» الأدبي، وقد انتصرت لإدوارد سعيد ضد أستاذي من دون أن أقرأ الكتاب المذكور كاملاً، فقد كان انتصاري دافعه وطنيٌّ أكثر منه علمي أو موضوعي، وهو موقف لم ينسه لي أستاذي حتى هذه اللحظة.

كتاب الثقافة والإمبريالية الذي كتبه وهو يصارع مرض السرطان كان من أجمل كتبه إن لم يكن أجملها على الإطلاق، وهو كتاب خلق له العديد من الأعداء الجدد، وبدأت الصحف تبتعد عنه، وكذلك محطات التلفزة، وانقلب الغرام به إلى حملات شرسة يشنها عليه الإسرائيليون وجماعات الضغط

المؤيدة لهم بخاصة. حتى إن أحد الإسرائيليين شكك في سيرة إدوارد سعيد الذاتية التي نشرها في كتابه خارج المكان، وادعى أنه لم يكن لاجئاً، ولم يعانِ مثل باقي الفلسطينيين، وهي معاناة لم يدَّعها سعيد مطلقاً، واعترف دائماً بأنه ينتمي إلى أسرة برجوازية كانت تملك مصنعاً للنسيج في الإسكندرية، وأنه تعلم في كلية فيكتوريا التي درس فيها الملك حسين بن طلال، وهاجر إلى لبنان مع أسرته بعد ثورة تموز/يوليو 1952 ومنها إلى الولايات المتحدة.

بلغت المضايقات الإسرائيلية لإدوارد سعيد ذروتها عندما زار جنوب لبنان بعد تحريره على أيدي رجال المقاومة، وأصرَّ على الوقوف أمام «بوابة فاطمة» الحدودية وهي أقرب نقطة إلى أرض أجداده وأجدادنا جميعاً، وإلقاء حجر على دورية إسرائيلية على الجانب الآخر، فأخذت جماعات اللوبي الصهيوني هذه اللقطة له وهو يلقي الحجر ووزعتها على نطاق واسع لاغتيال شخصيته، وإلصاق تهمة الإرهاب به، لكن هذه اللقطة في نظري كانت وسام شرف على صدر أستاذ عظيم في مكانته وإبداعه ووطنيته، قدم لأمته وشعبه الكثير من وقته وجهده ومن سوء حظنا أنه لم يعمر طويلاً حتى هذه اللحظة.

يوم وفاته كتبت مقالاً على صدر الصفحة الأولى في «القدس العربي» نعيته فيه، والأهم من ذلك أنني قدمت له اعتذاراً مؤثراً ومن القلب عن مقالي الذي أغضبه، رغم أنني لا أزال مصرَّاً على أنه كان عتباً رقيقاً من جانب تلميذ لأستاذه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

محمود درويش

لم أتعرف على محمود درويش وشخصيته عن قرب إلا في وقت متأخر من حياتي المهنية، فقد كان نجماً يشع ضياء أينما حلَّ، وكعبة ثقافية يسعى إليها الجميع. كان يبدو متعالياً مغروراً في نظر الكثيرين، وهي تهمة ظالمة سأفندها لاحقاً، ولذلك ابتعدت عنه، ولم أحاول الاقتراب منه مطلقاً، رغم أننا تواجدنا في القاهرة في الفترة نفسها، وبعدها انتقل إلى بيروت وتولى مواقع عديدة في الثورة الفلسطينية ومؤسساتها وكتب العديد من المقالات والقصائد.

أول مرة سمعت فيها باسم محمود درويش هي عندما كنت في الإسكندرية تلميذاً في الثانوية العامة بعد أن انتقلت إليها من العاصمة الأردنية. لم تعجبني فقط قصائده الوطنية التي جمعها رجاء النقاش الكاتب المصري في كتاب مهم بعنوان أدب المقاومة، وإنما أيضاً بقية قصائده العاطفية الغزلية مثل «قالوا أتحب الجميلة... قلت حبي عبادة... والشعر أحلى خميلة... والصدر أحلى وسادة». وهي قصائد كان المرحوم يتنصَّل منها ويعتبرها هرطقات.

في أحد اجتماعات التحرير أثناء عملي كمدير تحرير مجلة «المجلة» بدأنا نبحث في نوعية التحقيقات والمقابلات التي يجب أن يتضمنها العدد القادم. فالعمل في المجلات الأسبوعية أصعب بكثير من العمل في الصحف اليومية، لأن عليك أن تختار مواد جديدة لم تتناولها الصحف، وأن تعيش لأسبوعين، أسبوع التحرير، وأسبوع آخر هو مدة عرضها في الأسواق.

منذ قصيدته الأولى التي ألفها عام 1964 «سجل أنا عربي» والتي كانت رداً غاضباً على الاحتلال الذي كان يريد طمس الهوية العربية، بدأ درويش يحتل مكاناً بارزاً في الذاكرة الفلسطينية. كان صوتاً لكل أحاسيسنا، كان أسلوبه حديثاً، عباراته جميلة قوية مؤثرة بسبب بساطتها وسهولتها، قصائده غنائية فيها نغمات موسيقية تفوح من ثناياها، ولهذا أحبه الملايين، حتى إن رؤساء الدول كانوا يتصورون معه وليس العكس من شدة الانبهار به والإعجاب بقصائده وأدبه. بل إنه كان الشاعر العربي الوحيد، إلى جانب الشاعر نزار قباني، القادر على ملء المدرجات وملاعب كرة القدم بالمعجبين.

اقترحت أثناء الاجتماع المذكور أن يخصَّص غلاف العدد المقبل من«المجلة» لمحمود درويش وصورته، وإجراء مقابلة معه حول قصيدته «عابرون في كلام عابر» التي أغضبت إسرائيل وجعلتها تشن حملة شرسة ضده تتهمه بالعنصرية والرغبة الدفينة في تدمير الدولة العبرية بل وإزالتها من الوجود وطرد جميع اليهود من فلسطين.

لقي الاقتراح استحساناً من الجميع بمن فيهم رئيس التحرير عثمان العمير في ذلك الوقت، وتطوع أحد الزملاء بأن يسافر إلى باريس لإجراء المقابلة باعتباره صديقاً لمحمود درويش، لكنه فشل في إقناعه في ما يبدو بإعطاء مقابلة للمجلة.. فطلب إليَّ رئيس التحرير أن أبادر بالاتصال به لحل المشكلة، حيث إنه لم يبق على إرسال العدد إلى المطبعة إلا يومان، والغلاف محجوز له. لم أكن صديقاً لمحمود درويش ومعرفتي به كانت محدودة، إن لم تكن معدومة في ذلك الوقت. اتصلت به هاتفياً، ووافق على إعطاء حديث للمجلة شريطة أن أجريه بنفسي.

ذهبت إلى باريس، وتوجهت من المطار مباشرة إلى شقته، وقد فوجئت بتواضع هذه الشقة الأسطورية. فقد كتب حاسدو محمود درويش مقالات يتحدثون عن القصر الذي يملكه في عاصمة النور، وفخامته، وبذخ صاحبه. وجدت شقة في الدور الرابع على ما أعتقد مكونة من غرفتي نوم وصالون بسيط وشرفة تطل على حديقة صغيرة، قال لي إنه لم يقف فيها مطلقاً لأنه يخاف الأماكن المرتفعة.

استقبلنا بحرارة، وكان طبيعياً أن أبدأ حديثي معه حول قصيدته المثيرة لغضب الإسرائيليين، فقال لي إنه عرضة دائماً للانتقادات والهجمات منذ مغادرته فلسطين إلى موسكو عام 1970 ومنها إلى القاهرة، تارة بسبب الغيرة والحسد من نجاحه، وتارة أخرى بسبب مواقفه القوية الصريحة الرافضة للاحتلال وعنصريته، ولذلك لا يستغرب هذه الحملة الإسرائيلية ضده.

اعترف لي درويش لاحقاً أن هذه القصيدة سببت له صداعاً مستمراً، ولا يستغرب أن يكون سبب عدم منحه جائزة نوبل للآداب، التي كان درويش تواقاً للحصول عليها، وهو يستحقها، هذه القصيدة والحملة الإسرائيلية ضده، فلم يغفر له الإسرائيليون مطلقاً نشاطه المعادي لهم عندما كان في حيفا ناشطاً سياسياً في صفوف الحزب الشيوعي.

حديثي الصحافي مع درويش استغرق أربع ساعات، بدأ بالقصيدة المثيرة للجدل وانتهى برأيه في الحب والمرأة وقضايا ثقافية وسياسية أخرى. وقد نُشر على حلقتين وحقق العدد نجاحاً كبيراً، ونفدت النسخ من الأسواق سريعاً. ما آلمني أن رئيس التحرير غيَّر رأيه ولم يضع صورة درويش على الغلاف كاملاً، لأن مستشاره الأول الياس منصور، وهو لبناني مخضرم وانطوائي في شخصيته، رأى أنه من العيب مهنياً أن يحتل شاعر غلاف مجلة سياسية، وفعلاً نُشرت صورة درويش والإشارة إلى حديثه في ذيل الصفحة الأولى، وهو أمر ضايقني كثيراً، وأشعر بغضب شديد منه حتى يومنا هذا، عندما أتذكره.

بعد هذا الحديث الصحافي توثقت علاقتي الشخصية مع محمود درويش وأصبحنا أصدقاء، وتوثقت هذه الصداقة بعد أن أصبحت عضواً مستقلاً في المجلس الوطني الفلسطيني حيث كنا نجلس متجاورين في جلسات الانعقاد، ثم توطدت الصداقة أكثر بعد صدور صحيفة «القدس العربي».

كان درويش أكثر المقربين إلى الرئيس عرفات، وكان يكتب خطاباته الهامة والعبارات القوية فيها، خصوصاً منها الخطاب الذي ألقاه في الأمم المتحدة في 13 تشرين الثاني/نوفمبر 1974 الذي أنهاه بالكلمات المؤثرة التي ترددت كثيراً بعد ذلك وذاعت شهرتها: «أنا هنا اليوم حاملاً غصن الزيتون في يد والبندقية في يدي الأخرى... لا تدعوا غصن الزيتون يسقط من يدي».

ولأن منظمة التحرير قدمت لنا دعماً في المراحل الأولى لتأسيس صحيفة «القدس العربي» والذي استمر متقطعاً، فإن البعض في أوساطها في تونس اعتقد أننا نصدر من ناطحة سحاب، ونعيش حياة باذخة تماماً مثلما كان الانطباع عن محمود درويش وقصره الباريسي الفخم. ومن هنا وعندما جاء درويش إلى لندن لإحياء أمسية شعرية بدعوة من مؤسسة التعاون الفلسطينية، وهي ناد للأثرياء فقط يقدم دعماً لمشاريع في الأرض المحتلة، قرر زيارتنا في مكاتبنا، وقد بدت الصدمة على وجهه منذ اللحظة الأولى. كنت أتوقع ذلك، لأنني سمعت بما يقال عن صحيفتنا من بعض المغرضين والحاسدين. سألته عن سبب حيرته، قال: «معقول أن هذه الصحيفة تصدر من هذا الكهف؟»

ازدادت شفقته وتعاطفه معنا في الصحيفة عندما دعوته إلى العشاء في مطعم لبناني يدعى «الباشا» ودعونا على شرفه مجموعة من الأصدقاء بينهم المرحوم إميل حبيبي الأديب المعروف. محمود درويش تطرق إلى ذكرياتهما معاً أثناء انخراطهما في الحزب الشيوعي، وقال: «كنا نذهب إلى القرى والمدن العربية للترويج للحزب أثناء الحملات الانتخابية، ويصوِّت العرب ويفوز اليهود بالمقاعد في الكنيست. أما إميل حبيبي فرد عليه بالقول: «إنك لا تزال يا محمود تحمل أربع بطيخات كبيرة في الوقت نفسه وتحاول منع سقوط أي منها أو كلها»، في إشارة إلى انخراطه في العمل السياسي كعضو في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير، ورئيساً لتحرير مجلة «الكرمل» علاوة على الإبداع الشعري والأدبي والأنشطة الأخرى.

أحسَّ محمود درويش أن وضعنا المادي المهلهل لا يسمح بدعوة إلى عشاء فاخر وفي مطعم لبناني في وسط لندن، فساورته الشكوك، فمال عليَّ يسأل ما الحكاية، وقال بفطنته: «هل هذا مقابل «كوبونات خيرية» من جهة ما؟». قلت له: «استر علينا، نحن ننشر إعلانات للمطعم مقابل هذه الدعوات للعشاء مناصفة مع بعض النقود!».

تعمقت الرابطة بيننا، وأصبحت بيننا مكالمة هاتفية يومية في الساعة الثانية عشرة بتوقيت لندن، الواحدة بتوقيت باريس، لمدة ساعة على الأقل، نتناول خلالها أحوال الدنيا، وبعض النميمة السياسية والثقافية، وننهيها دائماً بنعي أحوال المنظمة، وبؤس قيادتها. ولا ننسى الحديث عن بعض أنشطة درويش الثقافية والنسائية أيضاً. واعترف أن هذه المكالمة شكلت لي ذخيرة سياسية وثقافية، مثلما أوحت لي بالكثير من الأفكار السياسية أفادتني كثيراً في مقالاتي الافتتاحية.

بعد توقيع اتفاقيات أوسلو عام 1993، قرر درويش الاستقالة من عضوية اللجنة التنفيذية في المنظمة، لأنه لم يوافق على هذه الاتفاقات أولاً، ولأنه توقع أن يرفضها الشعب الفلسطيني، وأن تشهد الساحة الفلسطينية حالة من الفوضى والاغتيالات، بل ونهاية منظمة التحرير وهيبة عرفات نفسه. لكنه فوجئ بأن ما توقعه لم يحدث، وأن الشعب الفلسطيني في معظمه موافق على الاتفاقات، وشاهد على شاشات التلفزة شباناً فلسطينيين يضعون أغصان زيتون في فوهات بنادق الجنود الإسرائيليين في قطاع غزة احتفالاً بالسلام الموعود.

عارضتُ اتفاقيات أوسلو مثل درويش، وأصابتني صدمة مثله عندما جاء رد فعل الرأي العام الفلسطيني مرحباً بها، ولم أحضر حفل التوقيع في واشنطن لأنني لم أُدع أساساً، ولم أسعَ للذهاب، فلو سعيت لاعتُبرت من بين المصفقين. افتتاحية «القدس العربي» يوم توقيع الاتفاق كانت مخصصة للحديث عن الحرب الأهلية في الصومال، حيث تجاهلت الاتفاق كلياً، وكأنه لم يحدث، الأمر الذي أزعج عرفات كثيراً.

اتصل بي محمود يوم توقيع الاتفاق ليقول لي إنه أرسل بياناً يريد نشره على الصفحة الأولى، وكان البيان إدانة قوية للاتفاق وتحذيراً من أخطاره على القضية الفلسطينية. وعدته بالنشر في الصفحة الأولى، وهكذا كان، ولأن التوقيع حصل في ساعة متأخرة بسبب فارق التوقيت بين لندن وباريس من جهة وواشنطن من جهة أخرى، فقد فوجئنا باليوم الثاني بالترحيب العربي ومن ثم الدولي بالاتفاق. اتصل بي محمود درويش ثلاث مرات طالباً نشر بيان آخر، وفي الصفحة الأولى، يخفف من حدة بيانه الذي نُشر في عدد اليوم، ويؤكد فيه أنه ليس ضد السلام، وقال لي إن هذا لا يعني تراجعه عن الاستقالة، أو عن موقفه من الاتفاق، وإنما لتمييز موقفه عن موقف أحمد جبريل أمين عام الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين (القيادة العامة) الذي اتهم عرفات بالخيانة وحلّل دمه وهدد باغتياله.

تدهورت علاقات محمود مع ياسر عرفات، والده الروحي، وحدثت قطيعة بين الرجلين ترتب عليها إصدار عرفات أمراً بوقف جميع مخصصات محمود

درويش المالية، الأمر الذي جعل الشاعر الكبير في وضع مالي سيئ للغاية بحيث لم يعد قادراً على تسديد أجرة شقته.

في إحدى المرات، لم أتصل بمحمود هاتفياً في موعدنا اليومي، وتكرر الأمر في اليوم التالي، والسبب أنني كنت بدوري أمر بمأزق صعب، فلم ندفع أجرة الشقة التي تصدر منها «القدس العربي» فأرسل المالك جامعي الديون لمصادرة أجهزتنا وطردنا من المكان. اتصل بي محمود غاضباً ومتسائلاً عن سبب عدم اتصالي به ليومين متتاليين فشرحت له الأمر وتفهَّم، لكنه أردف قائلاً:

- «اسمع، أنا أتلقى في اليوم مكالمتين هاتفيتين فقط، الأولى منك ظهراً، والثانية في المساء وتأتي عن طريق الخطأ.

- هل من المعقول أن محمود درويش الشاعر الأكبر في الوطن العربي لا يتلقى إلا مكالمتين؟ قلت مستغرباً.

- لماذا تستغرب؟ لا يهود... لا نقود... ولا نفوذ!

- ماذا تعني؟

- لا يهود لأنني لست منخرطاً في المفاوضات... ومن يتفاوض معهم الجميع يلهث خلفه... ولا نقود: فأنا مفلس تماماً... ولا نفوذ: أي لم أعد عضواً في اللجنة التنفيذية ومقرباً من ياسر عرفات حتى يطلب الناس مني مساعدتهم».

ما هو أغرب من ذلك أن محمود قال لي:

- «هل اتصلت بي يوماً ولم تجدني؟

- لا... قال ماذا يعني هذا؟ يعني أنني لا أغادر البيت مطلقاً، لأن خروجي يعني أن أذهب إلى المقهى، ويعرفني الناس، فيجلسون معي واضطر إلى دفع الفاتورة... وأنا لا أستطيع ذلك في الوقت الحالي».

بعد هذه المكالمة مع درويش ذهبت إلى تونس غاضباً، وتوجهت مباشرة إلى مقر الرئيس عرفات، وقلت له: «كيف تتعامل مع شخص بقامة محمود درويش بهذه الطريقة، هل يعقل أن نترك هذا الإنسان المبدع يتضور جوعاً؟».

نفى عرفات أن يكون أوقف مخصصات محمود درويش، وبحركة بهلوانية طلب الحديث مع ياسر عبد ربه عضو اللجنة التنفيذية ليشهد بأن كل مخصصات محمود كعضو لجنة تنفيذية لا تزال تُدفع له، وصدقت الرواية.

اتصلت بمحمود لأسأل عن صحة رواية عرفات فقال لي: «نعم إنها صحيحة. مرتبي كعضو لجنة تنفيذية لم يتوقف فعلاً، وهي في حدود 1200 دولار شهرياً، فماذا تنفع في بلد تكاليف المعيشة فيه مرتفعة جداً، ولكن ما توقف هو المخصصات الأخرى مثل بدل السكن والمصاريف الإضافية».

واجهت منظمة التحرير حالة إفلاس بسبب مقاطعة الدول الخليجية ووقف المساعدات كلياً انتقاماً من عرفات لوقوفه إلى جانب صدام حسين أثناء حرب الكويت، وضاقت الحال بكل العاملين فيها من دون استثناء، وقد اضطر درويش في نهاية المطاف إلى إصدار «الكرمل» من هناك. وقد لاحقته الأقاويل حتى في الأردن وقيل إن أحد الأثرياء الفلسطينيين اشترى له قصراً في حي عبدون الراقي في عمان الغربية، وقد زرته حيث دعاني إلى العشاء، وكانت شقة متواضعة من غرفتين وأثاث بسيط. وتبيَّن بعد وفاته أنه اشتراها بالتقسيط المريح من مقاول قريب من صديق عمره غانم زريقات، وهو كاتب أردني، ومخلص للقضية الفلسطينية.

من الإشاعات الأخرى التي ترددت في باريس وعمان أن محمود درويش طباخ ماهر، وفعلاً كانت هذه الشائعة الوحيدة الصحيحة، فقد تذوقت طعامه أكثر من مرة وكان رائعاً وشهياً. سألته عن جذور هذه الموهبة، هل هي والدته؟ قال: «لا... الأمر ببساطة أنني أُكثر من الثوم في الطعام فيضيف مذاقاً خاصاً، وكفى الله المؤمنين شر القتال!».

كان محمود يقضي معظم أوقاته في عمان بعد عودته إلى الوطن من باريس بعد جهود خارقة بذلها الرئيس عرفات، وقيل إن الإسرائيليين رفضوا السماح له بالعودة إلى غزة وبعد ذلك إلى رام الله إلا بعد تنازلات كبيرة قدمها الرئيس عرفات لأنه كان يهمه أن يعود نجوم كبار في حجم درويش إلى مناطق الحكم الذاتي. وتردد أن الإسرائيليين طلبوا الإفراج عن أحد جواسيسهم لدى السلطة مقابل رفع الفيتو عن عودة الشاعر الكبير، لكني لم أسأل محمود عن هذه النقطة بالذات لأني أعرف مدى حساسيته تجاهها.

خيبة أمل محمود بالسلطة وأدائها في العهدين «العرفاتي» و«العباسي» كان كبيراً، وكان يقول لي إننا فشلنا في إقامة حتى حكم ذاتي، ناهيك عن وطن... هؤلاء الناس (يعني أهل السلطة) يتصرفون كما لو أنهم في قاعة ترانزيت وليس في وطن يريدون بناءه، ناهيك عن استعادته. فحقائبهم جاهزة دائماً استعداداً للرحيل، والوطن بالنسبة إليهم فرصة للحصول على أكبر قدر ممكن من الامتيازات المالية والشخصية، وهم مستعدون، أو البعض منهم على الأقل، لتقديم كل التنازلات للإسرائيليين مقابل بطاقة «في آي بي» VIP ويهمهم رضا الإسرائيليين أكثر من رضا الشعب الفلسطيني.

أقسم لي محمود أنه لولا الخشية من الاتهام بأنه هرب من الوطن، لعاد إلى باريس بعد أشهر قليلة من عودته إلى رام الله، وفضَّل العيش في استديو صغير هناك حتى وفاته، لكنه مكره على البقاء في ظل سلطة عنوانها الفساد.

وانتقاد محمود للسلطة لا يعني أنه كان يفضل حركة «حماس»، بل كان يكره الثانية ويعتبرها حركة متخلفة، وهذا مفهوم بسبب خلفيته الشيوعية، وكان يختلف معي دائماً لأنني كنت أبدي تعاطفاً مع الحركة وتمسكها بالمقاومة، ويعيِّرني دائماً بالقول: «أصحابك فعلوا... أصحابك صرحوا...» وهكذا.

كنت أزور درويش مرة في الشهر تقريباً أثناء مرحلته الباريسية، وأقضي معه عطلة نهاية الأسبوع، وكانت من أمتع الأيام التي قضيتها معه في حياتي، فهو رجل ظريف خفيف الدم، مفرط في الذكاء وسرعة البديهة، وراو جيد للنكات... والأهم من ذلك كله قصص غرامه المتعددة... كان يستمتع بالحديث عن النساء... وأنا أستمتع بدوري بالإصغاء.

عندما انتقل درويش إلى القاهرة في أوائل السبعينات حظي بمكانة مرموقة فيها في أوساط النخبتين السياسية والثقافية، وكان فتى أحلام الكثير من نساء الطبقة المخملية المصرية. ففي مصر تكون فرصك كبيرة بين النساء إذا كنت أبيض البشرة، وبشعر ناعم غير مجعد، لأن السمرة هي اللون الغالب في مصر وكذلك الشعر الأكرت المجعَّد. ومحمود درويش جمع الحسنيين، إي أنه كان أبيض البشرة وناعم الشعر، ولذلك تهافتت عليه النساء المعجبات من كل الأعمار والألوان.

أنا شخصياً كانت حظوظي مع النساء في مصر أقرب إلى الصفر، فبشرتي كانت حنطية، أما شعري فكان كثيفاً مجعداً أقرب إلى شعر أفارقة خط الاستواء، وكانت كل مساهماتي في الأحاديث النسائية مع محمود محصورة في نعي حظي العاثر مع نساء العزيز من بنات مصر الفاتنات حفيدات شجرة الدر.

كان درويش يقيم في فندق شبرد في وسط القاهرة ومنحته الحكومة المصرية مكتباً في صحيفة «الأهرام» مع كبار الكتَّاب من أمثال يوسف إدريس، عباس العقاد، طه حسين، نجيب محفوظ، وكان مكتب صديقه أحمد بهاء الدين مجاوراً لمكتبه.

في أحد الأيام جاء أحد موظفي الفندق إلى غرفته حاملاً باقة ضخمة من الورود، وعندما فتح الظرف لمعرفة مرسلها، وجد توقيع: مع تحيات «نتَّا». استغرب الاسم، فهو لا يعرف أي امرأة اسمها نتَّا. تكرر إرسال الورود...

فذهب إلى أحمد بهاء الدين رئيس تحرير «الأهرام» في ذلك الوقت، فأبدى له حيرته، وسأله عمن تكون نتَّا هذه؟

- اسمع يا سيدي... قال بهاء... نتَّا هذه يمكن أن تكون نفيسة... ناعسة... ناريمان... نادية... أنت وحظك، في مصر نطلق اسم الدلع «نتَّا» على كل فتاة يبدأ اسمها بحرف النون.

- لكنك لم تفدني... يا قاضي الغرام.

- والله نِفسي... بس ما عنديش أي فتوى.

بعد بضعة أيام رن جرس الهاتف... وكان على الطرف الثاني صوت ناعم.

- طبعاً أنت تريد أن تعرف من هي نتَّا.

- دخيلك. أنا متشوق لذلك... أجاب درويش.

- يا سيدي... بكره الساعة 12 ظهراً سآتي إلى الفندق وستعرف من أنا.

في اليوم التالي استحمَّ صاحبنا وتعطَّر منتظراً الست نتَّا... فعلاً في الوقت المحدد رنَّ الهاتف وكان على الطرف الآخر صوت رجل هذه المرة... قال بصوت جهوري: «أنا سائق الست نتَّا. في انتظارك في الاستقبال لأخذك إلى عربية الست».

قال درويش: «نزلت مهرولاً وفعلاً قادني السائق إلى سيارة مرسيدس مظللة الشبابيك... ثم فتح الشباك الخلفي، فدخلت وهناك كانت المفاجأة... المطربة نجاة الصغيرة!! ماذا حدث بعد ذلك؟ الأمر بسيط. أمرت «نتَّا» السائق أن يتوجه إلى شاطئ المعمورة في الإسكندرية حيث كانت تملك شاليهاً خاصاً قضينا فيه أسبوعاً كاملاً».

تزوج محمود درويش مرتين، الأولى مكرهاً عندما أصيب بجلطة قلبية راح بسببها في غيبوبة، وكانت بصحبته سيدة مصرية، وقد نُقل بين الحياة والموت إلى أحد مستشفيات فيينا التي كان يزورها، ووقفت إلى جانبه طوال فترة مرضه ورضوخه لعملية جراحية، ووفاء لها... أو خوفاً من الموت وحيداً... أو للسببين معاً قرر الزواج منها لكنه طلقها بعد بضعة أشهر... أما الزواج الثاني فكان بعد قصة حب مع الدكتورة رنا قباني التي تنتمي إلى أسرة دمشقية عريقة... وقد طلقها ثم عاد وتزوجها ثانية... وهي إنسانة مثقفة جداً وجميلة جداً.

عندما شاهدتها لأول مرة سألته غاضباً عن كيفية طلاق امرأة في جمالها وثقافتها وعلمها... غضب كثيراً من سؤالي وطلب إليَّ أن لا أكرره مطلقاً، وقال لي: «أنت لا تعرف النساء».

فعلاً أنا لا أعرف النساء... لكنني أعرف محمود جيداً فهو لا يحب الارتباط أو القيود... يريد أن يظل حراً... قال لي إنه لا يفضل أن ينام طيلة الليل مع امرأة على سرير واحد... لأنه لا يستطيع النوم... ويفضل أن ينام في السرير وحده يسبح فيه كيفما يشاء طولاً وعرضاً.

في سنواته الباريسية العجاف، كتب محمود درويش أجمل قصائده الشعرية، وأعتقد أن ديوانه أحد عشر كوكباً الذي أرَّخ فيه لمرحلة العرب في الأندلس وشبَّه فيه الرئيس ياسر عرفات بابي عبد الله الصغير، من أجمل دواوينه على الإطلاق، وقد استغرق تأليف هذه المرحلة الشعرية (على طريقة الإلياذة والأوديسه) أكثر من عامين اطَّلع خلالهما على عشرات الكتب عن حضارة العرب في الأندلس وكيفية نشوئها وانهيارها، وكتب كذلك ديوان لماذا تركت الحصان وحيداً؟

في إحدى زياراتي لباريس وجدته في مزاج جيد. استفسرت عن السبب فقال لي إن الوحي الشعري نزل عليه في الليلة السابقة وألهمه نظم ثلاثة أبيات شعرية! يا إلهي، ليلة كاملة من أجل ثلاثة أبيات شعرية! أنا أعرف شعراء يؤلفون ديواناً كاملاً في ليلة أو ليلتين!

عندما فاز الشاعر الجامايكي ديريك ويلكوت، المقيم في إنجلترا، بجائزة «نوبل» للآداب عام 1992، اتصل بي محمود طالباً أن أرسل له جميع دواوينه أو ما كُتب عن أعماله من دراسات نقدية، وفعلاً لبَّيت طلبه، وفوجئت عندما قابلته بعد شهر بأنه قرأ معظم هذه الدواوين وبعض الدراسات التي أرسلتها له. إنه إنسان يتعب على نفسه، ويتابع كل جديد، وهذا هو أحد أسباب عبقريته وحداثته وتطوره الإبداعي المتواصل.

عام 1997، وردتني مكالمة من صديقنا المشترك والكاتب المبدع صبحي حديدي، الناقد الأدبي المعروف والسياسي العنيد في الحق، وأكثر شخص يفهم أدب درويش وشعره. قال لي صبحي إن محمود في المشفى وقد أجريت له عملية خطيرة في القلب والشرايين وهو الآن على سرير المستشفى بين الحياة والموت. في اليوم التالي ركبت أول طائرة إلى باريس، وكان في المستشفى العسكري راقداً على سريره. انهمرت دموعي عندما شاهدت هذا الرجل العظيم على هذه الدرجة من الهشاشة والضعف، وقد أحاطت به أجهزة إنقاذ الحياة في غرفة العناية المركزة. في اليوم الثاني زرته وقد أفاق من غيبوبة التخدير. كان روب المستشفى مفتوح الظهر وعليه بقع من الدماء... هجم عليَّ وعانقني وطلب إليَّ أن أخرجه من المستشفى، وقال لي: «يريدون قتلي... أرجوك خذني من هنا».

أخبرني الطبيب الجراح بحضور صبحي حديدي أن فرص نجاته لم تزد عن خمسة في المئة، فالكوليسترول انتشر في شرايينه وكاد أن يسبب له جلطة دموية قاتلة.. وقد مكث 18 ساعة إلى جانبه لضمان نجاح العملية.

في العملية الأولى طلب إليه الطبيب أمرين، الأول أن يتوقف عن التدخين كلياً (كان مدخناً شرهاً) والثانية أن يمتنع عن شرب الكحول. فقال للطبيب:

- «دعنا نتفاوض!

- لا مجال للتفاوض! ممنوع يعني ممنوع.

- طيب. ما هو الأخطر وما هو الأقل خطورة؟

- الاثنان خطران... لكن الخمر أقل خطورة.

- إذاً مسموح لي شرب بعض الخمر... الويسكي مثلاً؟

- تستطيع شرب قدح من النبيذ الأحمر فقط يومياً.

- وماذا يفعل القدح الواحد؟ فليكونا قدحين مثلاً.

- نعم، يمكن ولكن هذا يظل خطراً... أما الويسكي فممنوع الاقتراب منه.

- إذاً ننتقل إلى الممنوع الآخر وهو السجائر.

- لا مفاوضات حول هذا الموضوع... فالسجائر هذه مضرة لك وتقصر العمر.

- يا سيدي... هل عمري في بدايته أو نهايته؟

- طبعاً. بدلاً من أن تعيش 80 عاماً يمكن أن تعيش 75 عاماً أو أقل.

- هذا يعني أن الدخان سيقلص شيخوختي... ماذا أفعل وأنا في عمر الثمانين... لا أريد أن أعيش حتى أرذل العمر هذا».

الطبيب الفرنسي قال لمحمود إن لا مجال للاستمرار في التدخين لأن عليه التوقف عنه فوراً وإلا سيموت فعلاً. كما أوصاه بأن لا يُقدم على أي عملية جراحية أخرى في المستقبل لأنها ستعني موته.

شاعرنا لم يرتح لوصية الطبيب الفرنسي بعدم إجراء أي عملية جراحية في المستقبل خصوصاً بعد أن كشفت فحوص طبية لاحقاً أن الشريان الأورطي لديه يتضخم بصورة غير عادية... لكنه عمل بالوصية فعلاً وتوقف عن التدخين... وإن كان ظلَّ يحب صحبة المدخنين ويحثهم على التدخين بحضوره لاستنشاق رائحة التبغ.

سألت محمود مرة عن أحواله الصحية فقال لي إنها ليست على ما يرام. قال: «أشعر بأن هناك قنبلة في صدري يمكن أن تنفجر في أي لحظة». وقال إنه يفكر بإجراء عملية جراحية بعد أن أبلغه أطباء في الأردن بأن هناك مركزاً لجراحة الشرايين في هيوستون في أميركا، وأضاف أنه يريد أن يغامر ويذهب إلى هناك حتى يرتاح من هذا الكابوس الذي يعيشه ويهدده بالموت في أي لحظة.

قبل سفره إلى أميركا بشهر اتصل بي هاتفياً وقال إنه سيرسل إليَّ هدية يأمل أن أقبلها. قلت: «شرف لي أن أتلقى هداياك». قال إنها قصيدة جديدة فوعدته بنشرها على الصفحة الأولى. اتصل بي لاحقاً سائلا إن كانت القصيدة وصلت، أجبت بالنفي، غضب وزمجر، ثم اتصل مرة ثانية وثالثة، حتى وصلت عبر الإيميل. طمأنته إلى أنها وصلت. طلب إليَّ أن أقول رأيي فيها وما إذا كانت تصلح للنشر. تأخرت في الرد لوصول مكالمات هاتفية. غضب مرة ثالثة أو رابعة إلى أن قرأتها. إنها قصيدة «لاعب النرد» وهي من أجمل قصائده. نزلت الدمعة من عيني. كانت قصيدة وداع. كان محمود درويش يرثي نفسه، تماماً كما فعل مالك بن الريب في يائيته الشهيرة التي رثى فيها نفسه وهو على سرير الموت.

هاتفني محمود من جنوب فرنسا. قال إنه سيكون في باريس في اليوم التالي ويريد رؤيتي بشكل ضروري. بعد وصولي إليه أخبرني أنه حصل على تأشيرة دخول إلى أميركا بعد تدخل كونداليزا رايس وزيرة الخارجية الأميركية في ذلك الوقت... لعن أولئك الأميركيين الذين يتعاملون مع شخص مثله كما لو كان إرهابياً. التقينا على مائدة العشاء نحن الثلاثة، أنا ومحمود وصبحي حديدي. طلب طعاماً من المحار والحبَّار والأسماك التي يحبها ونحبها أيضاً، وكان عشاء حافلاً بالحميمية، لكن محمود كان قلقاً.

روى لي أنه زار عاصمة عربية قبل بضعة أسابيع حيث تعود لقاء صديقة تربطه بها علاقة حميمة. قلت له:

- «وأين المشكلة؟

- أعتقد أنهم صوروني معها في غرفة النوم.

- وما الجديد؟ أنت شاعر ومعروف بغرامياتك ولكن كيف عرفت أنهم صوَّروك؟

- جاء إلى الغرفة أربعة أشخاص لتغيير مصباح غرفة النوم المعلق فوق السرير. هل يعقل أن تغيير مصباح يحتاج إلى أربعة أشخاص؟

- يا سيدي فليصوِّروك! نظام صدام صورك... ولا بد أن المخابرات المصرية البارعة في هذا المضمار تملك لك صوراً فممَّ الخوف؟

- أنا لا أخشى على نفسي وإنما على الفتاة. أخاف أن يبتزُّوها في المستقبل وهي إنسانة طيبة من أسرة محترمة».

ودَّعت محمود تلك الليلة بعد أن قضينا معظم الليل نتسامر وهو، بالمناسبة، يخشى الظلام. تواعدنا على الاحتفال في باريس بعد عودته من واشنطن بعد نجاح العملية الجراحية.

هاتفني مجدداً من هيوستون يوم الأحد، أي قبل وفاته بيومين. قال إن الطبيب الذي سيجري له العملية أجرى المئات مثلها، وإن الخطر يقلُّ عن خمسة في المئة، وإنه سيلتقينا حتماً في باريس للاحتفال كما توافقنا. سعدت كثيراً بذلك.

بعد يومين اتصل بي الدكتور أحمد الطيبي من رام الله. قال لي إن الرئيس محمود عباس يستعد لإرسال وفد إلى هيوستون... وصمت. أدركت أنها النهاية.

جاءني الخبر الأكيد عندما كنت على وشك إلقاء محاضرة في مهرجان أدنبرة العالمي للكتاب وهو الأضخم والأعرق في العالم، حول كتابي عن تنظيم القاعدة الصادر باللغة الإنكليزية في ذلك الحين، وقد انتظرت هذه الدعوة طويلاً. كانت القاعة مليئة والتذاكر مباعة بالكامل... لا أعرف كيف ألقيت المحاضرة... كل ما أعرفه أن الدموع لم تتوقف عن الالتماع في عينيَّ.

خسرت بوفاته إنساناً كبيراً وصديقاً حميماً، فقد كنت أشاوره في أمور كثيرة، وأطلب نصائحه، ولم يتردد مطلقاً في مساعدتي والوقوف إلى جانبي. وفي إحدى المرات اشتكى السعوديون مني ومن مقالاتي في صحيفة «القدس العربي»... ولمَّحوا إلى أن إغلاق الصحيفة قد يؤدي إلى إصلاح العلاقات المقطوعة مع المنظمة. وتحمَّس كثيرون لهذه الخطوة طالما أنها يمكن أن تفتح الخزائن السعودية وتنقذ المنظمة من أزمتها، وكان على رأس هؤلاء السيد محمود عباس (أبو مازن) وكذلك أحمد قريع (أبو علاء).

الوحيدان اللذان عارضا قرار الإغلاق هما محمود درويش وأكرم هنيَّة، وهو إنسان لا يمكن نسيان دوره في استمرار الصحيفة وتقدمها في بداياتها الأولى. ذهب محمود إلى أبو عمار وقال له إذا كان إغلاق «القدس العربي» سيعيد لكم أموال قارون السعودي فأنا سأحضر لكم رأس عبد الباري عطوان على طبق من الذهب، وهو قطعاً سيكون أول المرحبين بمصالحة السعوديين أو التنحي عن رئاسة التحرير أو حتى إغلاق الصحيفة إذا كان ذلك يصب في مصلحة الوطن والقيادة الفلسطينية. هاتوا وعداً ملزماً من السعوديين، وليس

مجرد تلميحات أو رسائل غامضة، وأنا أول من سيغلق «القدس العربي»، أما شراء سمك في بحر فهذا أمر مرفوض، إضافة إلى كونه مهيناً. ونجح في إقناع عرفات بعدم قتل «القدس العربي» مجاناً وبلا مقابل.

كان محمود يرفض تقاضي أي أموال مقابل أمسياته الشعرية، ودُعي مرة من قبل وزارة الإعلام في الإمارات لإحياء أمسية شعرية في إطار مهرجان ثقافي ولبَّى الدعوة، وقبل أن يغادر قدم له إبراهيم العابد مدير الإعلام الخارجي في ذلك الوقت مظروفاً بمئة ألف درهم (33 ألف دولار) مقابل الأمسية، لكنه رفض المبلغ وأصر على رفضه.

إبراهيم العابد يعرف أنني صديق محمود وهو الذي روى لي هذه القصة، وعندما قابلته سألته عن سبب هذا الرفض وهو الذي يعاني أزمة مالية تعرقل إصدار مجلة «الكرمل» بانتظام، فقال لي إنه يخجل من أخذ أموال مقابل شعره. فإسعاد الجماهير هو أكبر مكافأة. قلت له ممازحاً: «أنت اشحذ فلوساً من أجل «القدس العربي» وأنا أتسوَّل أموالاً من أجل إحياء مجلة «الكرمل» واستمرارها». اتفقنا على ذلك لكن الاتفاق لم ينفَّذ على الإطلاق.

عندما نُقل محمود للعلاج في باريس اتصل بي الشيخ عبد الله بن زايد وزير الإعلام الإماراتي في ذلك الوقت طالباً أن أنقل رسالة إلى الرئيس عرفات عن استعداد الإمارات لتسديد نفقات علاجه والعملية الجراحية، وفعلاً نقلت الرسالة، لكن عرفات رفض وكلفني بأن أبلغ الشيخ عبد الله بأن السلطة قادرة على أداء هذه المهمة، وهو يقدِّر للإمارات هذه الخطوة. بعدها قال لي إن تكفُّله بعلاج أهم موهبة فلسطينية مبعث فخر له وللسلطة ولفلسطين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

قضايا مالية

عودة إلى أيامي الأولى. أذكر أنني كنت بعيداً كل البعد عن العلاقات المهمة، وأول الأشخاص المفيدين الذين تعرفت إليهم في لندن لم يكن نائباً في البرلمان ولا محامياً أو صحافياً، بل مدير مصرف. حين انتقلت للمرة الأولى للسكن وحدي في هولاند بارك، لم يكن لدي تاريخ مالي مشرف وكاف للحصول على أي قرض. ذكرت هذا لصحافي أسترالي صديق يدعى نايجل هارفي الذي، مثل الكثيرين من مواطني بلاده، لم يداور حول الموضوع بل قال ما يجب قوله بصراحة تذهل (وأحياناً تدفع للحذر).

قال: «أدعُ مدير البنك إلى غداء، دعه يتحدث عن أي شيء يريد، استمع لكل كلمة، حرك رأسك مشجعاً واجعله يشعر بالراحة. سوف يحب ذلك وبعدها سيصبح جاهزا لخدمتك».

وهكذا فعلت بعد يومين، حيث اصطحبت السيد رايت من فرع أحد البنوك الرئيسية في فليت ستريت إلى «إل فينو»، منتجع المحامين والصحافيين الصغار. كان السيد رايت معجباً بالنبيذ وشجعته على الشراب، طالباً قنينة كاملة ليتمتع بها وحده، فيما كنت أشرب الماء المعدني. بعد عدة كؤوس، بدأ السيد رايت يتحدث عن زوجته.

«إنها امرأة جميلة وجيدة، أسرَّ لي، لكنها تحب الترؤس بشكل بشع. تأمرني دائماً بالقيام بأشياء، كما لو كانت هي رجل البيت». مع نصيحة نايجل في رأسي سكتُّ كي لا أوقف تدفق احتجاجاته وهو يشرح لي بالتفصيل كيف أنها تريد أن تكتب كل الشيكات وأن تقود السيارة وتقوم بضبط الأولاد. «سيد رايت، قلت له بعد أن أفرغ كل عاصفته الداخلية، أهلاً بك في النادي». لم أكن متزوجاً في ذلك الوقت لكنني أحسست بقدرة على التحدث بشكل افتراضي عن الموضوع. «أنت شخص مهم. أنت مدير بنك. لماذا تشغل نفسك بفواتير المنزل؟ ألا يجب أن يقوم شخص بإدارة حياة شخص عظيم بدل أن يديرها هو نفسه؟ من وجهة نظري، إنه أمر مناسب جداً أن تنشغل زوجتك بهذه الواجبات بحيث تتركك حراً لتركِّز على قضايا أكثر أهمية، على المسائل الاستراتيجية». لمع وجه السيد رايت المعتكر فجأة، وقال متألقاً: «سيد عطوان، أنت على حق!».

مع نهاية الوجبة كان سعيداً جداً بالتعديل الجديد الذي طرأ على وضعيته المنزلية بحيث عرض عليَّ خدمة سحب 10 آلاف جنيه على الرصيد وبطاقة ماستر كارد ذهبية. منذ ذلك الحين، لم تعد لي أي مشاكل مع البنك، فشيكاتي التي لا رصيد لها صارت شيئاً من الماضي وكل ذلك أعزوه لرغبة السيدة رايت بالزعامة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

اليسار المعتوه

المظاهرات القليلة التي شاركت فيها في الأردن ومصر قوبلت بعنف الشرطة. لم أكن معتاداً، في ذلك الحين، على حرية الاحتجاج التي أشاهدها في بريطانيا والتي شاركت فيها بحماسة في المسيرات الكثيرة التي تخرج في لندن تأييداً للفلسطينيين أو لمناهضة العنصرية. خلال تلك المظاهرات كان عليَّ أن أتعرف على المجموعة التي يتم التعريف بها في جرائد التابلويد بأنها «اليسار المعتوه»، الذي يضم أشخاصاً مثل بول فوت، وكن ليفنغستون، وتوني بن وعائلة ريدغريف.

بعض أفراد هذه المجموعة كانوا اجتماعيين جداً وكانوا يدعونني إلى حفلاتهم وتجمعاتهم، للاستمتاع بالنقاشات الحادة والحوارات مع كل أنواع الاشتراكيين والماركسيين وصولاً إلى التروتسكيين والستالينيين. كانوا جميعهم على اطلاع واسع على السياسات العالمية، وتعلمت الكثير عن أوضاع في أميركا اللاتينية وطبيعة التدخلات الأميركية هناك. كما أنني أعجبت كثيراً بالشبكات الرومانسية المعقدة التي نشأت بين بعض أفراد هذه المجموعة، المتحررة من القيود الأخلاقية «البرجوازية»، والتي لا يمكن أن تحصل أبداً في العالم العربي.

ضمن «اليسار المعتوه» كان هناك عدد من المجموعات الأخرى مثل حزب العمال الاشتراكي، والعمل الاشتراكي وحزب العمال الثوري. كل مجموعة من هؤلاء عملت بمشقة لضم أعضاء جدد وكان لديها طرق عديدة لخطف القضايا: حزب العمال الاشتراكي، على سبيل المثال، أنتج (ولا يزال) معظم اليافطات التي يحملها الناس في المظاهرات.

الممثلة فانيسا ريدغريف، التي التقيتها عدة مرات في المظاهرات، كانت شعلة قيادية في حزب العمال الاشتراكي، وقد أثارتني بحماستها. كانت الصحف والمجلات مليئة بقصص عن نجوم السينما، وسلوكياتهم المتقلبة، وطلاقاتهم وفضائحهم، ومع ذلك فهذه كانت واحدة من أكثر الممثلات موهبة بين أبناء جيلها والتي تحاشت حماقات كهذه ومشت عبر الشوارع، من دون أن يقوم أفراد الحراسة بتطويقها، مع الآلاف من الناس «العاديين»، دعماً لقضية سياسية. كنا غالباً ما نتناقش بقضايا الشرق الأوسط وكنت مندهشاً بعمق معرفتها وبفهمها للحالة الفلسطينية المعقدة إضافة إلى سلوكها العام والذي لم يكن متغطرساً أبداً أو متكبراً، بل كان طبيعياً ومرتاحاً تماماً. لا أعتقد أن فانيسا ريدغريف قد وضعت يوماً على وجهها أي نوع من أنواع الماكياج باستثناء عندما تكون على المسرح أو في الأفلام، وكانت عيناها الزرقاوان الثاقبتان، حين تلتقيان بعينيك، تتركان أثراً لا يمحى. بعد إحدى المظاهرات

عام 1979، طلبت منها مقابلة وقد دعتني بحرارة إلى منزلها قرب تشيزيك. كان بيت النجمة السينمائية متواضعاً ومريحاً، وهو بعيد كل البعد عن هوليود، وشاهدت هناك ابنها كارلو، الذي كان بسن العاشرة حين التقيتها، الذي نزل إلى الطابق السفلي لتحيَّتي بلطف. كارلو كان ابن فرانكو نيرو (الذي ستتزوجه، في خطوة مفاجئة، ليلة رأس السنة 2006 بعد سبعة وثلاثين عاماً من انفصالهما). شريك ريدغريف الزوجي آنذاك كان تيموثي دالتون، الذي سيكون لاحقاً نجم عدة أفلام جايمس بوند. صنعت فانيسا ريدغريف لي كوباً من القهوة وجلسنا في المطبخ نتحادث؛ سألتني عن تاريخ عائلتي واستمعت باهتمام كبير وبتعاطف لدرجة أنني نسيت تقريباً سبب قدومي للقائها.

المشكلة مع الكثير من الناس الذين أعرفهم ممن اعتنقوا أفكار اليسار المتطرف السياسية في شبابهم أنهم، على عكس فانيسا ريدغريف، لم يحافظوا على مسارهم. فبمجرد تجميعهم لبعض الثروة أو حصولهم على منزلة ما، فإنهم يرمون بكل مثالياتهم الاشتراكية في سلة القمامة. لقد راقبت عدداً كبيراً من الحرباوات السياسية؛ شيوعيون عراقيون هم منفيون سياسيون في لحظة ثم لا يلبثون أن يعملوا مع السي آي إيه في اللحظة التالية؛ صحافيون بريطانيون ممن كانوا اشتراكيين جذريين في شبابهم ينتهي بهم الأمر في الكتابة في الدايلي مايل؛ ماركسيون عرب ينقلبون بين ليلة وضحاها إلى إسلاميين أصوليين. اعتقادي السياسي الشخصي بمبادئ العدالة وبالتوزيع العادل للثروة، رغم أنها بالتأكيد يسارية، كانت دائماً عملية ولم تكن يوماً من الأيام راديكالية بحيث لا يمكن الدفاع عنها. ربما كان هذا السر في هذه الحياة الطويلة لعقيدة سياسية.

من الشخصيات المفضلة عندي ضمن اليسار المتطرف كان كين ليفنغستون وتوني بن. ليفنغستون، الذي انتُخب مرتين عمدة للندن والذي كان قبل ذلك زعيماً لمجلس لندن الكبرى، كانت الصحف تسميه «كين الأحمر» واعتبرته الجريدة اليمينية، ذي صن، «أكثر شخص مكروه في بريطانيا». كوني قادماً من مناخ سياسي لا يمكن فيه للسلطات أن تتسامح ولو للحظة مع شخص مثل «كين الأحمر»، راقبت سلوكه بتعجب. لقد أزعج حكومة مارغريت ثاتشر المحافظة من خلال نصب لوحات ضخمة تعرض إحصاءات البطالة المتصاعدة في لندن على سقف بناء مجلس لندن الكبرى، والذي كان مواجهاً تقريباً لمبنى البرلمان على الجهة الأخرى من نهر التيمس. كما أنه أعلن لندن «مدينة خالية من الأنشطة النووية» ودعا جيري أدامز، قائد حركة «شن فن» الأيرلندية الشمالية، لزيارته في مجلس لندن الكبرى عام 1982. لسوء الحظ، فقد مُنع من دخول البلاد استناداً إلى قانون مكافحة الإرهاب، ما دفع «كين الأحمر» لتصريحه الشهير بأن معاملة بريطانيا للأيرلنديين خلال الثمانمئة سنة الماضية كانت أسوأ من معاملة هتلر لليهود. في الشؤون العربية لم يكن كين

أقل إثارة للجدل، بتصريحه بأن العائلة المالكة السعودية يجب أن «تعلّق على أعمدة الإنارة» ووصفه أرييل شارون بأنه مجرم حرب (مستشهداً بمجازر صبرا وشاتيلا). طبعاً، اتُّهم بمعاداة السامية، وهي تهمة قام بدحضها من خلال استضافته لحفل هانوكاه اليهودي في السيتي هول في كانون الأول/ديسمبر 2005.

في أوائل الثمانينات، كان توني بن شخصية معزولة في أقصى يسار حزب العمال. حالياً، وهو في ثمانيناته، يُعتبر شخصية ذات نفوذ وقائداً شعبياً ضمن حركة معاداة الحرب. إعجابي بالرجل يعود لزمن طويل لصلابته الواضحة في الدفاع عن معتقداته وقوته الهائلة كخطيب داخل وخارج البرلمان حيث كان نائباً لأكثر من أربعين عاماً. المرة الأولى التي سمعت فيها عنه كانت عام 1963؛ كنت قد اشتريت نسخة قديمة من مجلة عربية في رفح وقرأت عن هذه الشخصية الأرستقراطية البريطانية الاستثنائية، والذي قام بنبذ لقب النبالة الذي ناله بناء على قانون النبالة الجديد (مجلس اللوردات)، ليظل نائباً عن الشعب في البرلمان. هذا الازدراء وعدم الاهتمام بالثروة والمنزلة الاجتماعية التقيا مع حساسيتي العربية وأثرا فيَّ بعمق. توني بن كان ضيف الشرف في حفل إطلاق كتابي الأول التاريخ السري للقاعدة عام 2006.

النائب السابق جورج غالاوي، دُمغ أيضاً بكونه من «اليسار المعتوه» بحسب صحف التابلويد، وهو كان لفترة طويلة منتقداً صريحاً للسياسات البريطانية والأميركية في الشرق الأوسط. لقد دافع عن القضية الفلسطينية لسنوات طويلة وقد أخبرني قبل نشر النسخة الإنكليزية من هذا الكتاب بفترة قصيرة أنه قضى عدة أشهر مع منظمة التحرير الفلسطينية في بيروت عام 1967.

أول مرة سمعت به كانت حين قامت المدينة الإسكتلندية التي يمثلها في المجلس البلدي المحلي، دندي، بالتوأمة مع مدينة نابلس في الضفة الغربية عام 1980. عام 1981، عمدة نابلس، بسام الشكعة، فقد قدميه بتفجير إسرائيلي بوضع قنبلة موقوتة أسفل مقعده خلف مقود سيارته. وفد من دندي، قاده جورج غالاوي، ذهب إلى فلسطين لشجب هذه الوحشية ودعا في عام 1983 بسام الشكعة إلى اسكتلندا حيث حصل على علاج طبي، بما في ذلك ساقان اصطناعيتان.

وقد أذهلني غالاوي عندما حمل بسام الشكعة على كتفيه وسار به وسط مطار هيثرو. جورج كان، ولا يزال، محباً للنساء، ولا غرابة في ذلك، وقد أرسلتُ مساعدةً لي لمقابلته في اسكتلندا اسمها إيلين ماكدونالد، وكانت حسناء، أمها ملكة جمال اسكتلندا سابقاً، وأبوها كان مديراً لتحرير صحيفة «دايلي إكسبريس». عندما عادت أبلغتني بأنه غازلها ودعاها إلى العشاء مع زوجته، وقد أثار إعجابه بها غيرة زوجته. ولم أفاجأ عندما سمعت أنه انفصل

عن هذه الأخيرة وتزوج من أمينة أبو زياد، وهي دكتورة في الكيمياء من القدس المحتلة، ثم بعد ذلك من سيدة لبنانية فاضلة أنجبت له طفلين.

في آذار/مارس 2003، قبل اندلاع حرب العراق بقليل، بدأت بلقاء جورج غالاوي بشكل منتظم أكثر، إذ كنا نتحدث معاً ضد الغزو الأميركي غير القانوني وغير المبرر للعراق. إنه معلق مثير للإعجاب على سياسات الشرق الأوسط وهو قادر على أسر اهتمام المستمعين لفترة غير محددة ببلاغته النارية في المظاهرات. وقد جذب الكثير من الانتقادات العامة لحياته الشخصية، التي لا أعلم الكثير عنها. سألته مرة، مازحاً، عمَّا جذبه إلى زوجته الفلسطينية، د. أمينة أبو زياد، التي تزوج بها عام 2000. ردَّ بأنه، من بين العديد من الأسباب، أحبَّ قدرة د. أمينة على التقدير الفطري، «النساء العربيات لا يثرثرن للصحافة، إنهن مشغولات بالشرف». وكان مفاجئاً بالنسبة لي، بعد ذلك، وأنا أفتح جريدة صانداي تايمز يوم 1 أيار/مايو 2005، ليلة ما قبل الانتخابات، لأكتشف مقابلة صريحة بشكل مدهش مع د. أمينة مع نيك فيلدينغ أعلنت فيها عن انفصال الزوجين الوشيك.

لعل الأكثر تعرضاً للذم إعلامياً من بين كل أفراد «اليسار المعتوه» هو آرثر سكارغيل، الذي كان قائد النقابة الوطنية لعمال المناجم خلال السنوات 1981-2000. راقبت مساره بإعجاب لأن النقابات في العالم العربي منظمات عرجاء غالباً ما تمثل مصالح الحكومة أكثر من تمثيلها مصالح العمال. كقائد لعمال مناجم يوركشر، أسس سكارغيل سمعة مخيفة له باستخدامه «الحواجز الطيارة» - حيث يقوم العمال بالسفر للانضمام إلى اعتصامات في المناجم التي تنفِّذ إضراباً - ما أمَّن انتصارات لعمال المناجم في إضراباتهم عامَي 1972 و1974. اسم أرثر سكارغيل صار رمزاً للحركات العمالية في أذهان الجماهير البريطانية، وكان كوميديُّون مثل جيمي تاربك ومايك ياروود كثيراً ما يؤلفون نكاتاً عنه، مثلاً: «فريق مانشستر يونايتد سوف يشتري أهم لاعب هجوم (سترايكر بالإنكليزية والتي لها المعنى نفسه للقائم بالإضراب) في العالم؛ من هو؟ آرثر سكارغيل».

سيتم تذكُّر نهاية السبعينات باعتبارها الفترة التي خسرت فيها اتحادات العمال الكثير من التعاطف الشعبي معها. المناخ السياسي كان صدامياً، ورغم تعاطفي مع اليسار، فإنني أستطيع أن أعتبر أن العناصر الجذرية فيه قد ذهبت بعيداً وسحبت البساط من تحت أقدام الاشتراكيين عموماً. الإضرابات التي لا نهاية لها والتي فتكت بالمجتمع والاقتصاد البريطانيَّين لعدة سنوات مع نهاية العقد سهَّلت صعود مارغريت ثاتشر نحو السلطة. كل هذا تجمَّع في ما سمِّي «شتاء الغضب» في فترة 1978-1979، حين كانت شوارع لندن وحدائقها العامة تعج بالقمامة المتروكة. أذكر الرائحة البشعة ومنظر الجرذان

تتراكض في أكوام الأوساخ. حتى حفارو القبور قاموا بإضراب، بحيث تُركت الجثث من دون دفن فيما كانت النقابات تتفاوض على المال.

كانت النقابات على رأس قائمة الجهات التي تريد ثاتشر استئصالها حين استلمت السلطة، وكان مقدراً لأرثر سكارغيل والسيدة الحديدية أن يتصارعا رأساً برأس، وقد حصل ذلك مع إضراب عمال المناجم في فترة 1984-1985 الذي جرى خوضه بشراسة. أذكر سكارغيل عام 1983 وهو يعلن، مع تنصيب إيان مكريغور رئيساً لهيئة الفحم البريطانية، أن الحكومة تخطط لتحطيم صناعة المناجم، مع قائمة من المناجم التي ستغلقها سنوياً. فرضية سكارغيل أن تفكيك الحكومة للصناعات الثقيلة التي يشكل عمالها أكثر النقابات صلابة (المناجم، وصناعة السفن، والحديد، والفولاذ)، ستقوم عملياً بتحطيم أقصى اليسار في اتحاد نقابات العمال. الكثيرون قاموا بتسخيف هذا السيناريو باعتباره «بارانويا»، لكن التاريخ برهن أنه من أصل 170 منجماً عام 1984، لم يبق سوى 50 بعد انتهاء عمليات الخصخصة عام 1994.

نهاية إضراب عمال المناجم عام 1985 اعتبرت هزيمة رئيسية ليس فقط لاتحاد عمال المناجم بل لاتحادات العمال عموماً. لقد مزَّقت ثاتشر قلب ذلك الوحش العملاق، مؤتمر العمال العام، للأبد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

آكاديميا

في كانون الأول/ ديسمبر 1978، توقفت صحيفتا ذي تايمز والصانداي تايمز، حتى تتفق الإدارة والنقابات على إدخال آلية طباعية جديدة وخفض عدد الموظفين الذي سيؤدي إليه ذلك. قررتُ مقابلة هارولد إيفانز، الذي كان آنذاك محرر الصانداي تايمز. وافق على إعطائي ساعة من وقته وتحدث عن كيفية عمل الصحف البريطانية وكيفية تنظيمها. انصبَّ حديثه الصريح حول السياسات الداخلية التي كانت سائدة في ذلك الحين، والتي ستؤدي في النهاية لانشقاق ستولد منه صحيفة «إندبندنت» بعد سبع سنوات من ذلك. ما تعلمته ساعدني في مسيرتي المهنية وخصوصاً حين بدأت بتأسيس صحيفتي الخاصة.

في نقاشي معه حول ما يجعل من شخص معيَّن صحافياً كبيراً، شدد هارولد إيفانز على التميز الأكاديمي، ما دفع بي للعودة إلى طموح شخصي لجمته لفترة طويلة. تقدمت للحصول على درجة ماجستير في الدراسات السياسية الشرق أوسطية في كلية الدراسات الشرقية والأفريقية (سواس)، بحيث أبدأ الدراسة في خريف عام 1980. بعد خمسة أيام من تقديم طلبي، وصلتني رسالة رفض من سواس وهو الأمر الذي اعتبرته غريباً. طلبت من صديق كان يدرس في ذلك القسم، هو أياد أبو شقرا، أن يكتشف لي السبب، وعلمت أن سواس لديها عدة تجارب سيئة مع صحافيين شبان عرب، متغطرسين وقليلي المعرفة، اعتبروا الجدل مع مدرسيهم ومحاضريهم غير العرب شرفاً لهم. توجهت مباشرة إلى سواس وطلبت مقابلة بروفسور ياب، رئيس القسم.

كان البروفسور ياب في نهاية خمسيناته وكان مكتبه مليئاً بالكتب؛ على الرفوف، وفي أكوام على الأرض، وفي أبراج متمايلة على طاولته. كنت أعتقد أنني أعلم الكثير عن الشرق الأوسط لكن هذا البروفسور قام بشيِّي بأسئلة غامضة بالنسبة إليَّ وبدا تقريباً مبتهجاً بنصره عليَّ في كل مرة كنت أتعثر فيها بالرد، وهي الحالة الغالبة. سألني عن مسيرتي المهنية، فقلت له إنني عملت لمدة عام تقريباً في ليبيا فطلب مني أن أذكر له أسماء أهم عشر قبائل فيها ودورها في تاريخ البلاد، فبدا جهلي واضحاً من خلال إجابتي المرتبكة. ثم سألني عن أهم القبائل السعودية، التي عملت فيها أيضاً، فازددت ارتباكاً. وأخيراً سألني عن القومية العربية التي خمَّن أنني أميل إليها، بدءاً من قسطنطين زريق مروراً بشبلي العيسمي وانتهاء بجورج أنطونيوس صاحب كتاب نهضة العرب، فلم تكن إجاباتي مقنعة. تذكرت البروفسور ياب عندما اندلعت الثورة في ليبيا ضد نظام القذافي والدور الذي لعبه العنصر القبلي فيها، وقد أفادتني معرفتي بالخريطة القبلية هذه في كتابة مقالات لصحيفة «الغارديان» البريطانية وصحيفتنا «القدس العربي».

قال البروفسور ياب حين اكتملت الإهانة:

- «أخبرني، سيد عطوان، لماذا تريد أن تدرس هنا؟

- أريد أن أتعلم الطريقة البريطانية في التفكير. أنا متأكد أن الأمر يتعلق بنظام تعليمكم، بالطريقة التي تدرِّسون بها الطلاب. أريد أن أعلم سبب احتفاظ الخبير البريطاني بهدوئه على التلفزيون فيما يقوم معلق عربي بالصراخ وإحباط الناس...».

ضحك البروفسور ياب لإجابتي. قال:

- «لديك الكثير من الحماسة، وأعتقد أن هناك إمكانية كامنة لديك، لكنك تفتقد شيئين أساسيين؛ المعرفة والتجربة الأكاديمية الصحيحة.

- ما الذي تقترحه؟

أصبح الأمر بالنسبة لي في تلك اللحظة متعلقاً بكرامتي. لم أستطع أن أقبل رفضاً صريحاً، وأردت أن أغادر من دون أن يغلق الباب بوجهي. فتح البروفسور ياب درجاً في طاولته وأخرج قائمة من حوالي أربعين كتاباً. قال: «هذه قائمة القراءة لدرجة الماجستير. أقترح عليك أن تذهب وتقرأ كل هذه الكتب ثم تعود لمقابلتي خلال عام. عند ذلك ربما نستطيع أن نفسح لك مكاناً هنا».

فاوضتُ البروفسور ياب على تقصير الفترة من عام إلى نصف عام، وكنا في شهر آذار/مارس، لعلِّي ألحق بالعام الدراسي الجديد بعد ستة أشهر. قال إن ستة أشهر ليست كافية، قلت له: «جرِّبني، وإذا فشلت في الاختبار فأنا أتحمل المسؤولية». وافق على مضض وحدد لي موعداً بعد ستة أشهر، أي في أيلول/سبتمبر 1980. أهم شيء أنني خرجت من المواجهة غير مهزوم.

لم تكن لديَّ نية لقراءة كل تلك الكتب. ذلك كان سيستهلك كل ساعات بقائي مستيقظاً، وكنت في تلك الفترة رئيس مكتب صحيفة «المدينة»، وهي وظيفة كانت تتطلب كل وقتي. بحثت عن مخرج سهل، فقدَّمت طلباً لدورة ماجستير في فرع لندن لجامعة جنوب كاليفورنيا، لكنني تركتها بعد عدة محاضرات، لأنني عرفت أن هذه الدورة لم تكن ما أريد، وكانت مثل دروس محو الأمية، فمعظم طلابها لا يجيدون اللغة الإنكليزية، وأدركت أن الهدف تجاري بحت، وليس للعلم إلا علاقة واهية بهذه الكلية. قلبي كان لا يزال معلقاً بسواس، وبعد عام طلبت موعداً آخر مع البروفسور ياب. قرَّرت استخدام استراتيجية معينة - أو مقامرة بالأحرى - للدخول إلى الكلية. قمت ببعض البحث حول خلفية البروفسور ياب الأكاديمية واكتشفت أنه مهتم خصوصاً بقضايا القومية العربية. وفكرت أنني لو قرأت حول هذا الموضوع، فمن الممكن أن أؤثر به

بشكل كاف ليوافق على طلبي. بالصدفة، وصلتني نسخة للمراجعة لكتاب جديد حول الموضوع كتبه بروفسور عربي مهم يدعى زين نور الدين زين، كشف فيه اهتمامه الأولي بالماركسية، ثم استنتج بعد ذلك أن القومية يجب أن تؤسَّس على الإسلام فحسب. قرأت الكتاب في الليلة السابقة للمقابلة. وفي اليوم التالي، وصلت للقاء البروفسور. تحدثنا عن السيدة ثاتشر، التي كنت قد قمت بمقابلة معها قبل فترة قصيرة، وقد ظهرتُ على اطلاع على الشؤون المحلية في حديثي معه. قال: «حسناً، والآن، هل نجحت في قراءة الكتب الموجودة في القائمة؟». اخترت طريق الصراحة الواضحة: «للأسف لا، لو أنني قرأت كل تلك الكتب فماذا ستكون حاجتي للدراسة عندك؟ سأكون عندها قد عرفت تقريباً كل شيء تريد أن تعلِّمني إياه. لكنني درست القومية العربية بعمق، وربما يمكنك أن تحاورني في هذا الموضوع لتعرف إن كانت قدراتي المعرفية والأكاديمية قد تحسنت».

أُعجب البروفسور بطريقة تقديمي للأمر. وكانت المقابلة تسير جيداً إلى أن سألني سؤالاً عن زين نور الدين زين أجبت عنه بشكل مفصل، مشيراً إلى كتابه الجديد. بالطبع، لم يكن بروفسور ياب على علم بالكتاب لأنه كان قد طُبع في بيروت، وبالعربية، ورفض تقبُّل أن زين ليس ماركسياً ولم يجعل من الماركسية أساساً لنظريته القومية. لحسن الحظ، فقد كان الكتاب في حقيبتي وقدمته له، ملخِّصاً له محتوياته باختصار. تأثر البروفسور أخيراً وقال لي إنني يمكن أن أبدأ الدراسة في تشرين الأول/أكتوبر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

عطوان، الرجل المتزوج

بين من صادقتهم في سواس امرأة كندية تدعى ديبورا بيو. كانت كوميدية بالفطرة مع كره طبيعي للسلطات.

كانت ديبورا يسارية وعلى علاقة بشؤون السياسة الشرق أوسطية وبجماعات الضغط. بعد إنجازها درجتها الجامعية، قررت أن تذهب إلى غزة لتعليم الإنكليزية في مخيمات اللاجئين وقد أبهجتني حين قالت إنها ستزور أمي في مخيم الشابورة في رفح. لكي أُعلم أمي بقدوم ديبورا، كان عليَّ أولاً أن أتصل بجيرانها الأفضل حالاً الذين يملكون جهاز الهاتف الوحيد في تلك الجهة من المخيم. بعد اتصالي أُرسل واحد من أولاد العائلة ليجد أمي وليخبرها بأنني سأتصل بها بعد نصف ساعة.

حين ذهبت ديبورا إلى غزة، سألت الناس عما تأخذه معها كهدية إلى أمي عند زيارة منزلنا. اقترح شخص بعض الدجاج، وبعد أن اشترت أربعاً منها، انطلقت إلى مخيم رفح للاجئين.

دخولها إلى تلك البلدة البائسة خلق هزة كبيرة. ديبورا امرأة طويلة القامة، حوالي ستة أقدام، وشعر طويل أحمر؛ وكانت تلبس شورت وتي شيرت وتحمل زوجين من الدجاج المقأقئ، تمسك بها بقوة بكلتا يديها. خلال ثوان، تجمعت حولها حاشية فوضوية من الأطفال بثيابهم الرثة، يتراكضون ليجاروا مشيتها السريعة وهي تفتش عن بيت أمي. خلال الفوضى الحاصلة وقعت الدجاجات منها وكان هذا الأمر هو العذر الضروري لمشاركة أبناء المخيم الذين أخذوا يتراكضون للقبض على الدجاجات الهاربة.

بعد عدة أيام، اتصلت بي أمي، قالت:

«إنها ممتازة.

- من؟ ماذا تقصدين؟

- دايبوره. الله يرضى عليك يا بنيّ أنا موافقة»

أرعبتني فكرة الزواج. بغباء، ولأن الأمر كان بعيداً جداً عن تفكيري، لم يخطر لي أن أمي يمكن أن تفكر في ديبورا باعتبارها زوجتي المستقبلية. قلت:

- «لأ، يمَّه، هي صديقة فقط.

- لا تكن خجولاً، حبيبي، تزوجها، إنها جيدة. إنها جميلة وسمينة وحمراء من شدة البياض وساقاها قويتان. أنت محظوظ. أنا فخورة بك».

لا شيء كان قادراً على إبعاد أمي عن هذه الفكرة، واحتاج الأمر عودة ديبورا لاحقاً إلى رفح مع زوجها الجديد، الكاتب المسرحي الإنجليزي - المصري كريم الراوي، لتقتنع بصدق إنكاري للموضوع. وحتى بعد ذلك، بقيت غير راضية عن نجاح ذلك الرجل الذي اعتبرته خصمي في الحب وقالت متذمرة، «لماذا يتزوجها هو وليس أنت؟ لقد خيَّبت ظني. لم أعهدك جباناً... كيف تسمح له بأن يخطفها منك؟».

بعد أن اقتنعت أمي بأن ديبورا بيو لم تكن خطيبتي، بدأت مهمة شاقة لتزويجي بأسرع وقت ممكن. مع عملي كرئيس مكتب لجريدة «المدينة» في لندن والتصاعد المستمر في وضعيتي الاجتماعية وراتبي، كانت أمي مقتنعة بأنني كنت أكثر العازبين الفلسطينيين مناسبة لأي فتاة (باستثناء ياسر عرفات).

«تستطيع أن تتزوج أي فتاة تريد، أرجوك، فقط عليك أن تنتظر. أنت عريس لقطة يا سعيد!»

الأمر الذي لم تعلمه والدتي أنني أقمت حلفاً مع «العازبين» بأن نبقى كلنا على هذا الحال. لقد شاهدنا الزيجات الخربة وتحطُّم حيوات زملائنا، وشاهدنا الانغماس السريع في الروتين والحياة المنزلية، وفقدان حرية السفر في أي لحظة يريد المرء. وقد تكوَّن في اعتقادنا أن العزوبية لا تتناسب مع الحياة المهنية الصحافية. اشتريت أول منزل لي في كانون الأول/ديسمبر 1982؛ كان بيتاً متواضعاً يتوسط منزلين آخرين في منطقة تشيزيك لكنه شكل فارقاً كبيراً بالنسبة لي. لم يكن لدى عائلتي بيت خاص بها منذ أن أُجبرت على الرحيل عن أسدود، وأنا قضيت حياتي كلاجئ ومواطن بلا دولة. بمجرد أن انتقلت، زرعت شجرة تين وعنب في الحديقة الصغيرة لتذكيري بفلسطين. لم تنتجا فواكه حقاً بسبب الطقس الإنكليزي البارد وكان العنب حامضاً، لكن شجرة التين كانت تكبر كل ربيع ومنحتني الكثير من السعادة. كان بيتي المركز الرئيسي لحفلات مجموعة «العازبين»، حيث كنا نستطيع أن نسهر حتى الفجر ونعزف الموسيقى من دون المجازفة بإسكاتنا من قبل صاحب عقار مستأجر أو جيران أو زوجات. كنت أيضاً سائق العازبين الرسمي، أصطحبهم من منازلهم بسيارتي الفورد فييستا. كنت قيِّماً لأصدقائي طالما بقيت عازباً، وكنت مصمماً على عدم تخييب آمالهم.

خلال أشهر، بين 1982 و1983، كان عليَّ تلقِّي سيل من الاتصالات الهاتفية من غزة بشكل متناوب بين التوسل والغضب. «أريد أن أرى أولادك قبل أن أموت»، كانت أمي تنوح مرة، رغم أن لديها عشرات من الأحفاد. بعد ذلك سمعتها تقول لأخي، وهي تظنُّ أن وضعها يدها على سماعة الهاتف يجعل صوتها غير مسموعاً: «هذا العكروت يقضي أوقاته بالزعرنة، سوف أجد زوجة

له ولو كان ذلك آخر شيء أفعله في حياتي». في مرة أخرى، اتصلت بي، بعد أن شحنت بطارياتها وقالت: «اعترف لي، أنت لا تحب النساء، مش هيك؟». أجبتها: «أمي، أنا أحب النساء، كل ما في الأمر أنني غير نافع، ليست لدي أي فكرة عمَّا أفعل مع النساء. حاولت لكن لم ينجح الأمر. إذا أحببتهن فهن لا يحببنني، والعكس صحيح».

حين هدأت لعدة أشهر، اعتقدت أنني سمعتُ كل ما تريد أمي قوله عن الزواج لكن كان عليَّ أن أعرف أن أمي لا يمكن أن تترك حلمها بسهولة. ظننت أنني في أمان نسبياً، إذ إنها رفضت القدوم إلى لندن حيث يمكنها فعلياً أن تتدخل، قائلة إنها تفضل أن تموت على أن تزور بلاد الكفار. مثل العديد من العرب، كانت خائفة من البلاد التي تتجاوز عالم المسلمين لاعتقادها بوجود لغات غريبة وأديان وأزياء تسود هناك. في أزمان سابقة، كان العرب يسمُّون ما وراء الأطلسي «بحر الظلمات»، وكانوا يعتقدون أنه محيط قفر واسع. كان لدى أمي الشعور نفسه. من جهة أخرى، كان عليَّ أن أسافر إلى السعودية لاجتماع عائلي (كان الإسرائيليون مصرِّين على رفض زيارتي لغزة) في كانون الأول/ديسمبر 1983، وكان ذلك المكان الذي قامت فيه أمي بالهجوم. بمجرد أن مسحت دموعها التي هطلت بسبب رؤيتها لي مرة ثانية، وأخبرتني أن لي قريبة في الكويت يقال إنها جميلة وخريجة جامعية ويمكن أن تصلح لي كزوجة.

إضافة إلى كونها فلسطينية ولديها شهادة جامعية وإن والدتها من يافا، فقد جمعني مع باسمة أن والدها من أسدود مثلي، وأنها ولدت في مخيم لاجئين لكن العائلة هربت إلى الكويت، حين كانت هي في السابعة من العمر، حيث لا يزالون يعيشون.

بكل النوايا والأسباب كان هذا زواجاً مخططاً له، وكوني قد عشت عدة سنوات في الغرب، فقد كنت لا أزال أحمل بعض الأفكار الرومانسية حول فرصة لقاء الشريكة المثالية التي قد تكون من أي جنسية ما دام الأمر يتعلق بي. عليَّ أيضاً أن أعترف، مع ذلك، أنني لم أتمكن من اللقاء مع أي واحدة مناسبة ولو قليلاً، ولاحظت أنه، طالما كانت عائلتانا المحترمتان تعرف الواحدة الأخرى جيداً، فلا بد أن تقديرهما لإمكانية تناسبنا لا يمكن أن يُرفض؛ كما كان بإمكاني أن أرى أن زواجاً مرتباً بشكل جيد يُغني عن الفوارق الثقافية، وهو مؤسس على أرضية مشتركة ويمكن أن يقلص حجم المشاكل الناجمة عن صعوبة التعايش بين شخصين غريبَي الطباع يلتقيان لأول مرة تحت سقف واحد.

رغم ذلك، لم تكن لدي نية للزواج وكنت في أمان من ذلك لمعرفتي أن مشروع أمي كان مكتوباً له الفشل لأن عدداً من الهجمات بالقنابل على

سفارتَي الولايات المتحدة وفرنسا في الكويت أدت إلى حالة طوارئ ولم يكن ممكناً الحصول على تأشيرات دخول. لم تكن أمي تعلم شيئاً عن هذه الظروف كما أنني لم أخبرها. «اذهب وقابلها»، حثّتني، ولأنني كنت متأكداً أن تأشيرتي سترفض، وعدتها بالذهاب إلى السفارة الكويتية في اليوم التالي.

كنت مسروراً باكتشافي وجود شخص بيروقراطي حقيقي في مكتب التأشيرات، والذي اعتبر تفكيري بالذهاب إلى الكويت جنوناً، حين سمعت صوتاً قوياً ورائي يصيح: «أنت عبد الباري عطوان!». كان ذلك السفير، عائداً من استراحة الغداء. أخذ بيدي إلى مكتبه حيث قام بمجاملتي حول عمودي الأسبوعي في جريدة «المدينة» التي قال إنه يقرأها يومياً. سألني لماذا أريد أن أذهب إلى الكويت فأخبرته أنني أريد أن أقابل عروس المستقبل، مضيفاً بتردد: «لكن ذلك تحت ضغط من أمي. أنا سعيد بكوني عازباً». «لا أفهم، قال السفير، هل تريد أن تذهب إلى الكويت أو لا؟».

لم أستطع أن أقاوم الرد بنكتة، قلت: «اسمع، أريد أن أساعد في حل «مشكلتكم الفلسطينية». إذا ذهبت إلى الكويت، وتزوجت واحدة من الأربعمئة ألف فلسطيني وأعدتها معي إلى لندن فسيكون لديكم عدد أقل منهم هناك. ولو بقيت فهذا يعني زواجها من فلسطيني وإضافة سبعة أو عشرة فلسطينيين جدد». لم أكن أقرأ الغيب في تلك اللحظة، ولم أكن أعلم أنه بعد سبع سنوات سيُطرد هؤلاء جميعاً من الكويت إلى الأردن. وقبل أن أنهي كلامي، كان قد ختم تأشيرة ذهابي، بتاريخ يسبق تاريخ الأزمة. وتمنى لي التوفيق في مهمتي الصعبة!

التقيت بباسمة عدة مرات برفقة عائلتها. وجدت أن اسمها يناسبها كثيراً. منذ البداية أحسست بانجذاب إليها وبدا حلفي مع ثلة «العازبين» سخيفاً مقارنة بشريكة الحياة المليئة بالحيوية والذكاء (من دون أن أذكر الجمال). اقتنعت بأن الوقت قد حان لتأسيس عائلة وبأن ذلك قرار حكيم. بسبب غطرستي الطفولية لم أتخيل أن باسمة يمكن إلا أن تكون مسرورة بالزواج بي، لكنها عندما عبَّرت عن شكوكها فوجئت. لم تكن باسمة متحمسة للعيش في لندن، لم ترد أن تغادر عائلتها وكان بعض أقاربها معارضين عملياً لفكرة زواجها بي. أحسست أن كبريائي صارت معرضة للخطر، وبدلاً من الإحساس بالاكتئاب، فقد عززت جهودي لأبدو شخصاً لا يقاوم؛ أنيق دائماً، ومحمَّل بالزهور والأساور وعلب الشوكولا. لحسن الحظ، نجحت، ومع نهاية زيارتي، كنا مخطوبين ومستعدين للزواج. ولم أتذكر حتى دخلت الطائرة إلى لندن أنني سأتعرض لمتاعب مع «عصابة العازبين».

في اليوم الأول لعودتي، دعوت «العازبين» بعد انتهاء العمل لعشاء في مطعم لبناني. وفيما كانت الطاولة تتأوه من أعداد أطباق المازة والمشويات،

انتهزت الفرصة للدعاية لفكرة الزواج.

«ما هذا؟» سأل حافظ ذو العينين الصقريتين، لامساً خاتمي الذهبي.

«سأتزوج»، قلت لهم. وضع الثلاثة الملاعق من أيديهم وفغروا أفواههم في صمت اندهاش ورعب. أعطيتهم بضع لحظات لاستيعاب الصدمة. «إنها لطيفة جداً»، قلت متلعثماً. لا رد. «ذكية وجميلة»، تابعت. مسح عثمان فمه بالمنديل الورقيِّ ونهض. قال تاركاً الطاولة: «عبد الباري، لم أفكر أبداً في أنني سأعيش لأقول هذا، لكنك خائن!».

في تلك الفترة، كنا أنا وباسمة نتبادل الرسائل ونتحادث كثيراً على الهاتف، وما لبثت المشاعر العاطفية أن أثمرت. بعد ستة أشهر حددنا موعد الزفاف. قبل يومين من السفر إلى الكويت، أغلقت الحدود مرة أخرى بعد أن تعرض أمير البلاد لمحاولة اغتيال فاشلة قُتل فيها العديد من حراسه. مرة أخرى، قامت السفارة باستثنائي وسُمح لي بالسفر. غير أن أحداً من عائلتي أو أصدقائي ما كان قادراً على الحصول على تأشيرات دخول لحضور الزفاف؛ وأنا، المنفي الدائم، كنت قبيلة من شخص واحد بين عائلة باسمة التي تعدُّ بالمئات، لكنه كان يوماً مميزاً جداً وكنت سعيداً بشكل استثنائي. كنت أتفاجأ دائماً من انتشار زاوية «القلوب المتوحدة» حتى في أكثر الصحف البريطانية احتراماً، وقد انضمَّت إليها مؤخراً مواقع الإنترنت للمواعدة والتي تؤدي عملاً مشابهاً، ولو أنه أكثر بدائية، لعمل الخاطبة (من دون اللمسة الإنسانية). ليس هناك طريقة للقاء الأزواج تعرَّضت لكل هذا الانتقاد في الإعلام الغربي مثل الزيجات المرتبة، ومع ذلك، كما تبيَّن لنا، فبعد أكثر من عشرين عاماً ونحن معاً، لا المال ولا البحث أو التوق كان يمكن أن يؤدي إلى هذه الشراكة المثالية بالنسبة لي مع باسمة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

تغيير

لم تسافر باسمة إلى بلد أوروبي من قبل ولم تكن مستعدة لطقس لندن الرمادي والظلام الذي يهبط مع الساعة الرابعة في الشتاء، وهي أمور لا تزال تبعث على الاكتئاب لديها. كنت الشخص الوحيد الذي تعرفه في لندن ولم تكن تعرفني جيداً بعد. بعض أصدقائي قاموا بتأليف لجنة زفاف وكانت المفاجأة لي حفلة كبيرة في جمعية الصحافيين الأجانب للاحتفال بزواجي والترحيب بباسمة. كنت شديد السرور لأن الثلاثة الباقين في ثلة «العازبين» كانوا بين الحضور.

كانت أيام الزواج الأولى تلك وقتاً للتغير والتعديل لكلانا، لكنني كنت قادراً على ملاحظة أن الأمر كان أصعب بالنسبة لباسمة؛ كنت أعمل في أوقات غير متوقعة وغالباً لساعات طويلة وكانت وحيدة في البيت من دون أشياء كثيرة تفعلها. بالنسبة لامرأة شابة ذكية وذات طاقة روحية عالية كان ذلك مثيراً للإحباط. تحسنت الأمور ببطء بالنسبة لها بعد أن تسجَّلت في دورة للغة الإنكليزية وبدأت بالانتقال من بيتها الجديد إلى قلب المدينة. كنت فخوراً بالطريقة التي واجهت بها التحديات في حياتها الجديدة.

بعد سنين في نفق الانتظار، وصل طلبي للمواطنة البريطانية إلى أعلى كومة الأوراق عام 1985 وتمَّ قبوله. لا أزال أتذكر الفخر الكبير الذي أحسست به من كوني قادراً على الانتخاب للمرة الأولى في حياتي، وذلك في انتخابات عام 1987 العامة. لم أكن في أي وقت سابق جزءاً من هذا السياق الديمقراطي؛ استفقت باكراً، ارتديت أحسن بدلاتي ولمَّعت حذائي قبل أن أنطلق إلى مركز التصويت.

عام 1985 أيضاً، وُلد طفلنا الأول؛ كنا في المشفى ليومين ننتظر وصول خالد. كانت وضعيته في البطن مقلوبة، ولكن لحسن حظنا فقد وُلد بطريقة طبيعية، بحيث ظهرت مؤخرته أولاً، ومن دون تعقيدات طبية. وعندما خرجتُ من حالة القلق، ركَّبت طرفة مستلهمة من حالته «الانقلابية» تلك، فقلت إنه عرف أنه فلسطيني، ولذلك جاء إلى العالم بهذه الطريقة، معلناً تحديه منذ البداية.

قررنا ألا نفرض معتقداتنا وممارساتنا على أطفالنا، باستثناء قضية صغيرة: كمسلمين، كنا نعتقد أن من واجبنا أن نقوم بختان ابننا. لسوء الحظ، كانت هذه العملية محملة بذكريات الألم والكارثة بالنسبة لي، لأن والدي كان فقيراً، ولم يكن قادراً على تحمُّل تكاليف احتفال بكل أولاده الذكور، فقرر الانتظار حتى يصبحوا ثلاثة وقام بختاننا معاً، في ما يشبه عروض شراء ثلاثة أغراض بسعر واحد في السوبرماركت هذه الأيام.

إجراء العملية يتم بعد الولادة بوقت قصير، حين تكون سهلة نسبياَ، أما أنا فكنت في الثامنة حين أخذونا لزيارة «الدكتور» خليل في مخيم دير البلح للاجئين. «الدكتور» خليل كانت لديه عين زجاجية وكان مسبِّع الكارات، إذ كان يعمل حلاقاً وطبيب أسنان وبيطرياً. في الواقع، كان معتاداً على خلع الضرس الخرب ومعالجة الحيوانات أكثر من اعتياده على ممارسة تلك الجراحة الدقيقة. كانت العملية مؤلمة وبعدها التهب الجرح. كان ذلك أمراً موجعا لشهور ولم أكن قادراً على لبس البنطال، مكتفياً بالجلابية، والتي كان عليَّ أن أبعدها إلى الأمام طول الوقت بحيث لا تلمس الجرح. لم يكن هناك أطباء لمعالجتي لكن جهاز مناعتي قام بتجميع وسائل المقاومة لدحر الالتهاب وشفيت. لكن كان ممكناً أن ينتهي بي الأمر بالعقم طول حياتي، أو بالموت.

حين وُلد خالد لم تكن لدي نية لتعريضه لمحنة مشابهة وقررت أن أختنه في أبكر وقت ممكن. سألنا في المشفى إن كان بإمكانهم ختانه وابتهجنا حين أخبرونا أنهم يستطيعون فعل ذلك مباشرة. كنا جالسين ننظر إلى الطفل، حين دخل علينا شخص ملتح يلبس طاقية الرأس اليهودية. تقدَّم إلينا معرِّفاً بنفسه باعتباره الحاخام المحلي، وقال إنه جاء لختان الصبي. هذا الطقس مشترك بيننا وبين أولاد عمومتنا اليهود، وهكذا كان خالد واحداً من الفلسطينيين القلائل الذين جرى ختانهم على يد حاخام، وكان محظوظاً، لأن الرجل كان متقناً لحرفته وكانت التجربة، نسبياً، بلا ألم.

عام 1987، صار لدينا طفل آخر؛ بنت صغيرة سمَّيناها ندى. في واقع الأمر لم أختر لها هذا الاسم، وقد فضلتُ أسماء مثل زينة، ومَي، ومريم، لكن زوجتي أصرت على اسم ندى، ربما اعتقاداً منها أن الأسماء التي اخترتها هي لصديقات قديمات لي من أيام العزوبية السعيدة، ولهذا رفضتها جميعاً، وأصرَّت على ندى. قلت لها: «فلتكن نادية». قالت: «لأ... ندى». قلت: «حاضر!». وهكذا اعتبرت أن مهمتي في الإسهام في زيادة عدد سكان العالم قد أُنجزت مع هذين الاثنين، لكن بعد ثلاثة عشر عاماً، عام 2000، كنت في استوديوهات بي بي سي أنتظر دوري للمشاركة في مناقشة حول القاعدة وأسامة بن لادن، حين رنَّ هاتفي الجوال. أخبرتني باسمة أنها حامل بطفل جديد. فوجئت، ولا بد أن الصدمة ظهرت على وجهي. نظرت إليّ معدَّة البرنامج بقلق وسألتني إن كنت بخير. قلت متألقاً: «إذا أخذنا في الاعتبار أنني في الخمسين من عمري، أعتقد أنني في حال جيدة جيداً، يبدو أنني لا أزال بكامل قدراتي».

فوجئتْ بتعليقي الخارج عن السياق وانفجرت في ضحك هستيري!

حين يتعلق الأمر بأولادي لديَّ عدد من الأشياء التي أحس بالأسف عليها. أنا أحبهم كلهم، لكنني أعرف أنني لم أكن قادراً على منحهم وقتاً كافياً، بسبب

حاجات عملي. قبل بضعة أعوام كانت باسمة تتحدث إلى خالد، الذي كان في الثانية عشرة في ذلك الوقت، عن المهنة التي يريد أن يمتهنها لاحقاً. أجاب: «أي شيء ما عدا الصحافة، لا أريد أن أكون مثل أبي، أريد أن أتمتع برفقة أولادي وأن أراهم وهم يكبرون».

حين أخبرتني باسمة ذلك، كان أمراً جارحاً بشدة لأن حياة العائلة كانت جزءا أساسياً من تراثنا. بالتدريج، صرت أقوم بجهد أكبر لأكون أباً أفضل. هذه الأيام، وفي اليوم الوحيد الذي لا أعمل فيه - السبت عموماً - أقفل هاتفي الجوال وأخصص وقتي لهم، رغم أن ندى وخالد لديهما الآن حياتهما الخاصة، وأصدقاءهما الخاصين ولا يريدان أن يكون والدهما حولهما مثلما كانا يطمحان عندما كانا أصغر سناً. حين حصل خالد على درجته الجامعية، بذلت جهدي لأن أكون في حفل التخرج رغم أنه كان اليوم التالي لتفجيرات سكة حديد مومباي وظهوري في محطات سكاي نيوز، وبي بي سي، وسي إن إن، فيما كنت في طريقي إلى الحفل.

كان لدى خالد سبب إضافي للمرارة: حين كان في الثامنة كنت معتاداً على أخذه لمشاهدة مباريات كرة القدم في أي وقت يتوافر لي يوم السبت. فريقنا المحلي كان كوينز بارك رينجرز، لذلك اشتريت له بطاقة فصلية لكل مبارياتهم وأصبح مشجعاً مخلصاً لذلك الفريق غير المحظوظ. كان على خالد المسكين أن يراقب تراجع فريقه من الدوري الممتاز، إلى دوري الفرق الأولى، ثم هابطاً إلى المؤخرة وصولاً إلى دوري الفرق الثانية. تمنيت لو أنني أخذته لمشاهدة مباريات تشيلسي أو أرسنال أو أي فريق آخر كان يمكنه تشجيعه مطمئناً إلى أنه سيفوز في مباراة أو أخرى. ابتعت مؤخراً بطاقة فصلية لكوينز بارك رينجرز لكريم وسيكون عليه هو أيضاً أن يمر بالآلام التي مر بها أخوه. يبدو أنني أفضل دائماً تشجيع القضايا الخاسرة حتى في كرة القدم، وأحاول توريث هذا العناد لأبنائي... وأسأل دائماً لماذا لا أختار القضايا السهلة، أو الأندية الكبرى... لماذا انحاز دائماً إلى الضعفاء في مواجهة الأقوياء. إلى الفقراء في مواجهة الأغنياء؟

كانت تربية أطفالنا في بريطانيا نوعاً من التحدي. حاولنا أن نعطيهم الإحساس بمعنى أن يكونوا فلسطينيين في الوقت نفسه الذي نشجعهم فيه على التكامل الكامل مع المجتمع البريطاني. لقد تجنبت الحديث عن السياسة معهم لأنني أريد لهم أن يكونوا آراءهم بأنفسهم حول كل القضايا.

الإنكليزية هي لغتهم الأولى، مع لهجة لندنية، لكننا نتحدث العربية في البيت وفي وقت مبكر من حيواتهم كانوا زواراً منتظمين للنادي العربي في لندن، الذي أُسس عام 1980 ويقوم بتنظيم الحفلات الموسيقية وفعاليات ثقافية أخرى، إضافة للإِشراف على مدرسة تعلم اللغة العربية أيام السبت. أنا سعيد

لكوني كنت قادراَ على اصطحاب ندى وخالد لرؤية القدس وزيارة جدتهما في مخيم رفح للاجئين ثلاث مرات قبل وفاتها عام 2003. يحزنني، مع ذلك، أنها لم ترَ ثالث أولادي، كريم.

وصلت ندى وخالد إلى مرحلة يحاولان فيها أن يفتشا عن هويتهما. هل هما عربيان أو بريطانيان؟ هل يمكن أن تتحقق الهويتان معاً؟ حين كانا صغيرين، كانا يريدان التوافق مع زملائهما، كما يفعل معظم الأطفال، ومع مرور السنين تعرَّض بيت العائلة للاهتزاز بأشكال مختلفة، بفعل موسيقى البوب البريطانية والأميركية. لم نتدخل أو نعلق على ذلك بأي شكل، وقد أصبحا بشكل مستقل عنا مهتمين بجذورهما. هما متحمِّسان لمعرفة مخيمات اللجوء وأيام طفولتنا في فلسطين، يبحثان بنفسهما في تاريخ النزاع العربي الإسرائيلي. اكتشفت ندى «نانسي عجرم»، المغنية اللبنانية التي بزغ نجمها بشكل عاصف في العالم العربي، وهو أمر كان محبباً بالنسبة لي ولباسمة. ندى وخالد يقومان باستكشاف الإسلام بطريقتهما الخاصة، وأنا مسرور بالقول إن خالد يتبع خطوات والده بكونه أصبح سائق الليل لرفاقه العازبين، ويصوم رمضان، وكذلك ندى التي لا تقطع فرضاً مثل أمها، وباتت تتعمق أكثر في فهم الشريعة الإسلامية وشرحها لزميلاتها.

أنا أتعاطف مع الوضعية التي يعيش فيها أبنائي. حتى بعد ثلاثين عاماً في بريطانيا، لا أزال أنا نفسي مشوشاً، وأفكاري وأحلامي يظهر نصفها بالعربية ونصفها الآخر بالإنكليزية. أحس أن هويتي الثقافية أصبحت غائمة مع الوقت وأنني إلى درجة معينة فقدت بعض جذوري، وهي حالة تتعبني كلما قذف بي الحال لمكان وانطلقت، كما حدث على سبيل المثال عندما زرت غزة وتعرضت في البداية لشعور الغريب أكثر مما تملكني إحساس العائد لوطنه. أخبرتني باسمة عن مشاعر مشابهة، وأنا في بعض الأحيان أتساءل إن كان التاريخ قد عرَّضنا للعنة الإحساس الدائم بالمنفى النفسي. أحسست بأنني تغيرت... أفسدتني المدنية وحياة الغربة، وجدت الناس بسطاء حنونين طيبين تماماً مثلما تركتهم، يقنعون بالقليل ويحلمون كثيراً، قدريون في تعاملهم مع الصعاب التي تواجههم، وما أكثرها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7. بيروت على التيمس

رغم أنني اخترت سبر الثقافة البريطانية والتكامل معها ما استطعت، فإن العرب الذين رغبوا في تجاهل حقيقة أنهم غادروا الشرق الأوسط كانوا قادرين أن يفعلوا ذلك في لندن السبعينات. العاصمة البريطانية كانت قد قطعت مسافة مهمة لتصبح عالماً عربياً مصغراً، بشيوخ نفطها، وسلفييها المتزمتين، وراقصاتها الشرقيات، و«شيفات» الطبخ اللبنانيون، والمقاتلون من أجل الحرية، والسياسيون المنفيون من كل اتجاه سياسي. أعتقد أن السبب في كون العديد من المسلمين ينجذبون إلى لندن كامن في النضال القديم بين المستعمِرين والمستعمَرين؛ التوتر المتناقض بين الضغينة والإعجاب بين أولئك الذين تعرضوا لاحتلال بلدانهم، والإحساس الكامن بالذنب للمحتلين والذي أدى لسياسة هجرة منفتحة أكثر من العديد من الحكومات الغربية الأخرى. الأغنياء العرب كانوا يملكون كميات كبيرة من المال بحيث أحسوا أنهم قادرون، بالعديد من الطرق، على أن يقهروا قاهريهم السابقين وشراء صكوك عبوديتهم. العمال الفقراء، من جهتهم، جاءوا بشكل رئيسي إلى لندن لخدمة أقرانهم المسلمين الأغنى منهم بوظيفة أو بكفاءة يملكونها، بينما كان هناك دائماً عرب في لندن، من البحارة اليمنيين الذين عاشوا حول الموانئ في القرن التاسع عشر، إلى المغتربين العراقيين الذين بدأوا بالوصول منذ ثلاثينات القرن العشرين، فإن هجرة كبيرة على نطاق واسع بدأت في السبعينات. أزمة 1973 النفطية أدت إلى ازدهار اقتصادي في مجال إنتاج النفط والكثير من الأغنياء الخليجيين الجدد قرروا الهرب من بلدانهم غير المستقرة سياسياً والبحث عن مجالات استثمار جديدة في لندن. الإعلام البريطاني خلال ذلك الوقت امتلأ بقصص عن موجة شراء قام بها زوار خليجيون. بعض القصص كانت صحيحة: أمير من إمارة رأس الخيمة غير الشهيرة بثرائها اشترى فندق الدورشستر في بارك لين وباعه عام 1985 لسلطان بروناي؛ مهدي التاجر، سفير الإمارات العربية المتحدة إلى لندن، اشترى قلعة ميروورث وقام لاحقاً بإضافة 18 ألف دونم من الأراضي في بيرث شاير وبارك تاور إلى قائمة ممتلكاته؛ الأقل استعراضاً بينهم اشترى سلسلة من البيوت في ماي فير وكنزنغتون. مقالة ظهرت عام 1976، بقلم دافيد هيرست، نُشرت في الغارديان، أشارت إلى أن 10 آلاف عقار في لندن امتلكها شرق أوسطيون بما قيمته 100 مليون جنيه إسترليني في تلك السنة وحدها.

الحرب الأهلية في لبنان، التي بدأت عام 1975، والاجتياح الإسرائيلي له بعد سبعة أعوام، أديا إلى موجات هجرة جديدة إلى العاصمة البريطانية. كانت

بيروت مركز الصحافة العربية إضافة لكونها مركز الإجازات والعطل المفضلة لما يقارب 800 ألف عربي؛ تستقبل لندن الآن الجهتين وأصبحت معروفة بـ«بيروت الصغيرة» أو «بيروت على التيمس». أصحاب الفنادق اللندنيين ورجال الأعمال كانوا سريعين في الاستجابة بتقديم خدمات للسياح الجدد أصحاب محفظات النقود المنتفخة، فوظَّفوا من يتكلم العربية والطهاة المهرة، وقام عرب من مختلف البلدان بالتعرف إلى فنادقهم المفضلة فاكتسحوها بأعداد كبيرة؛ السعوديون كانوا يفضلون الغروزفنر، على سبيل المثال، بينما كان اللبنانيون يتواجدون عادة في الهيلتون والإماراتيون في كارلتون تاور. الفروق الناجمة عن الثقافات أنتجت بعض اللحظات الكوميدية. مرة كنت في «البيانو لاونج» في فندق بارك لين حيث كانت مجموعة من الرجال بالجلابيات يتشاركون تدخين نرجيلة، فيما كان كل من حولهم رجال أوروبيون ببدلات ونساء بأثواب أنيقة يتناولون شاي الظهيرة ويتهامسون. بعد حوالي نصف ساعة، أصبحت رائحة الدخان الناتجة المنبعثة من مدخني النرجيلة الثلاثة أشبه برائحة حريق وتكاثف الدخان لدرجة أنه أطلق جرس إنذار الحرائق. وصل رجال الإطفاء، ولحقت بهم الشرطة التي قررت أن تغض النظر عن طبيعة الأشياء التي كان الرجال يدخنونها وسألت أولئك الزوار الغريبين أن يخففوا من استخدام النرجيلة.

هارلي ستريت كان جهة معروفة وظاهرة للسياحة الطبية التي بدأت آنذاك. إجراءات الفحص والكشف على المرضى كانت تجري لكل أنواع الأمراض المتخيلة والعمليات الروتينية مثل استئصال اللوزتين، والتي كان يمكن أن تجرى في أي مشفى عربي، كانت تُجرى في لندن من أجل التباهي فحسب. ولم يكن أمراً غير شائع لبعض نساء عائلات الخليج المالكة أن يدَّعين المرض للخروج من الجوِّ الخانق هناك وزيارة لندن، يرافقهن الوصي عليهن متمتعاً بزيارة مدفوعة كامل المصاريف. معظم السفارات الخليجية تستخدم خدمات ملحق طبي مسؤول عن الترتيبات لاستقبال المرضى وخدمتهم. العديد من العيادات في هارلي ستريت وقعت ضحية نوع من الفساد الشائع في الشرق الأوسط؛ ملحق طبي واحد في إحدى السفارات على الأقل اكتُشف أنه يقبض حصته من الفواتير المضخمة التي يدفعها رجال بلاده إلى أطباء متفق معهم. هذا المغامر اعتقل خلال رحلة عودته لبلاده وقد عوقب بمدة سجن طويلة.

الأقسام الموجودة في العيادات الخاصة والمستشفيات كانت فخمة، مع سجاد كثيف وأزهار مزينة بطريقة مثيرة في كل مكان. كان المرضى في النقاهة يستقبلون تجمعات مبتهجة من أصدقائهم وأقاربهم المقيمين في فنادق قريبة، والذين جاءوا خصيصاً لتقديم الدعم العاطفي. كانت المآكل تُستقدم من أهم المطاعم في لندن، كما كانت ضروب مختلفة من التسلية متوافرة، من الأفلام إلى عروض الأزياء. في بعض الأحيان كان يِحصل أن

تنضم الممرضات إلى الفعاليات، وحصل أكثر من مرة أن مريضاَ وقع في الحب وعاد إلى بلاده بحالة نقاهة، ومع خطيبة بريطانية.

كان آلاف من العمال القادمين من شمال أفريقيا الذين يخدمون من وراء الكواليس في الفنادق والمطاعم، والعديد من الطلاب العرب الذين كانوا في الجامعات البريطانية، يشكلون وجوداً عربياً لا يلاحظ بالقدر نفسه - وبالنسبة لقارئ الصحف البريطانية لا يثير الاهتمام بالقدر نفسه. ثم كان هناك أناس مثلي، عاديون، من المهنيين القادمين من بلدان مثل سورية وفلسطين والأردن، راغبين في تطوير أوضاعهم الحياتية ومتمتعين بالتحديات الجديدة والفرص التي توفرها لهم لندن.

كان من المثير للفضول أن بعض بلديات لندن جذبت جنسيات شرق أوسطية مختلفة وتكوَّنت طبقات من جاليات الاغتراب: إدجوار رود كان مليئا بعرب الخليج، إضافة لكونه مركز عطلة عربي عالي المستوى؛ نايتسبردج استضاف الطبقة العليا من الأغنياء، وبعض أفراد الطبقات الحاكمة، والطبقات العليا - كنا معتادين على تسميتهم شيوخ نايتسبردج؛ كوينزواي كانت منطقة العرب الأفقر حالاً من شمال أفريقيا، فيما أصبحت بلديات شمال لندن مركز جذب للإسلاميين.

من بين كل هذه المناطق، كانت إدجوار رود، ولا تزال، المنطقة الأكثر تلوُّناً. هنا، العرب من بين كل الشعوب لا يزالون يجيئون لقضاء العطلة، هاربين من حرارة الصيف في بلادهم ومتطلعين نحو الثقافة والحرية والمتعة التي تقدمها لهم هذه المدينة. إدجوار رود عُربت حين وصلت إلى هنا وقد كتبت قصة ساخرة في «المدينة»، زاعماً أن الحكومة البريطانية قررت أن تفتح سفارة لها هناك لتمثيل مصالحها.

مركز خدمات ضخم نما حول هؤلاء السياح، وشركات الأعمال العربية المقيمة استفادت كما مثيلاتها البريطانية. كانت هناك مجلات عربية تقوم بإفشاء آخر أخبار النميمة، معلنة عن خدمات ترجمة ومترجمين (وهؤلاء كانوا يربحون ثروات صغيرة من تسهيلهم لصفقات شراء العقارات والمصالح، إضافة إلى اصطحاب الزبائن إلى هارلي ستريت)، وكانت هناك قائمة منوعة من الأعمال الفنية من فنانين عرب، من نجوم الغناء إلى الراقصات الشرقيات المتواضعات القيمة والمبتدئات.

كنت أذهب إلى إدجوار رود كثيراً في أيامي الأولى فقط لأراقب أقراني العرب المستمتعين بأوقاتهم كما لو كانوا في بيروت أو القاهرة. فتيات من الخليج، قضين حياتهن مختفيات خلف الثياب السوداء، يُغرقن أنفسهن بالعطر وينزلن إلى الشوارع مستبدلات الحجاب بمنديل صغير على رؤوسهن وأحياناً

من دونه، حيث تتهدل شعورهن الحالكة السواد على أكتافهن، وينافس في سواده كحل عيونهن الواسعة. شباب صغار يستجيبون لعرض الجمال هذا بابتهاج وتسمع محاولاتهم الهامسة للإغواء. «أنت قمر، أنت هايلة، عليش ما تحكين؟» وتقوم الفتيات بالابتسام والقهقهة فحسب قبل الإسراع بالرحيل. في بعض الأحيان، يمكنك أن ترى واحدة تعطي مُغازلها رقم هاتفها وهذا يكون سبباً للاحتفال بين الشاب وأصدقائه، فغالباً ما يحصل الاتصال الهاتفي وتتطور العلاقة إلى رومانسية صيفية ربما تنتهي بمجرد العودة إلى أرض الوطن والمجتمع المغلق بإحكام في وجه العواطف البريئة أو غير البريئة!

استغلال هؤلاء الزوار كان واسعاً. كانت هناك محلات على طول إدجوار رود تبيع كاسيتات مقرصنة لموسيقى عربية يقوم صاحب المحل بنسخها أمامك على آلة لنسخ الشرائط. في محاولة لإبقاء مصاريفهم قليلة يقوم هؤلاء المقرصنون باستخدام شرائط أقصر من الأصلية ما يعني أن الوجه الأول للشريط سيكون أقصر بخمس أو عشر دقائق من المطلوب. اشتريت شريطاً لأم كلثوم وحالما وصلت إلى ذروة إحدى وصلاتها الرائعة التي كانت تقوم بتطريب الجمهور للوصول إليها خلال العشرين دقيقة السابقة، فوجئت بانقطاع الغناء مع انتهاء مدة الشريط. والشيء نفسه يتكرر في بعض الحالات في أشرطة الفيديو لأفلام ومسرحيات مقرصنة. انتشرت المطاعم في كل المكان مع كلمة «حلال» تزركش شبابيكها وقوائم الطعام تعرض مفاتنها للمارة.

في أحد الأيام، لاحظنا مطعماً جديداً يبيع الأطعمة العربية وقد وضع صاحب المحل ملاحظة يفتخر بها ببيع «فلافل حلال» ما أثار ضحك البعض منا، وانزعاج بعض المسلمين المتعصبين، فكلمة «حلال» هي، بالنسبة للشرع الإسلامي الصحيح، مرتبطة أو مخصصة للحيوانات أو الطيور المذبوحة على الطريقة الإسلامية ولا علاقة لها بالفلافل، المصنوعة بشكل رئيسي من الحمّص. اكتشفنا لاحقاً أن ذلك الرجل صاحب الفكرة الذكية كان يهودياً عربياً ظن أن كلمة حلال هي بمعنى كلمة «كوشير».

الكثير من قصص النشالين تُروى عن أغنياء عرب يحملون آلاف الجنيهات نقداً، وكثير من هؤلاء السياح تعرضوا للسرقة في وقت من الأوقات. لقد كانوا أهدافاً سهلة لأنهم لم يفهموا الطريقة التي تعمل بها شوارع لندن، ولم تكن لهم تجارب سابقة مع هذا النوع من الجرائم. لم يكن أمراً غير طبيعي أن يصطدم أحدهم بأحد المارة من دون أن ينتبه أن محفظته قد سُرقت. غالباً ما رأيت رجالاً ونساءً يتركون حقائبهم خارج أكشاك الهاتف ليجروا مكالمة، من دون أن ينتبهوا إلى أن لصاً ينتظر ليخطفها في اللحظة التي يقفلون بها الباب عليهم. كان هناك صحافي فلسطيني يدعى عبد الله الشيتي، وكان ذا شخصية

رائعة ظريفة متألقة، ومعروفاً بكتاباته الساخرة. من مكان إقامته في الكويت، جاء في زيارة إلى لندن وجرى نشله في ضوء النهار في شارع قرب ماربل أرش، وفقدَ بذلك كل المال الذي كان بحوزته للرحلة. تحدث عن حادثته هذه في زاويته اليومية وفوجئ حين أرسل إليه بعض الأغنياء العرب كمية كبيرة من المال لتعويضه عن خسارته. حصل عبد الله على مبلغ أكبر من الذي فقده. كان من أبرز الظرفاء العرب، ويتمتع بروح مرحة وثقافة عالية، خصوصاً في التراث الإسلامي. كان سميناً ومتواضعاً ومبذراً، ولذلك أحبَّ صحبته وجلساته أمراء الخليج وشيوخه. وكان من عادة هؤلاء إهداء الصحافيين ساعات رولكس، ويبدو أن أحدهم تأخر في توزيع هداياه، وكان عبد الله ينتظر مع مجموعة من زملائه. وعندما جاء الأمير أو الشيخ أخذ عبد الله يتمتم بصوت لا يكاد يكون مسموعاً، فقال له الشيخ: «ماذا تقول يا أستاذ عبد الله؟»، فردَّ بأنه يرتل القرآن الكريم، فسأل عن اسم الآية، فقال: «الآية التي تقول إن الساعة آتية لا ريب فيها». ضحك الشيخ وفهم القصد، وأتت الساعة فعلاً وكانت رولكس على ذمة الرواة، والله أعلم.

كان هناك حوالي عشرين ملهى ليلياً عربياً ومعظم المطربين والموسيقيين المشهورين في الشرق الأوسط جاءوا إلى لندن لتقديم حفلات، بمن فيهم المطربة اللبنانية صباح، التي كانت حياتها آسرة مثل صوتها. تجمهرنا لرؤية مدمنة الزيجات، والتي انتهى الأمر بها بالزواج عشر مرات، رغم أنها في ذلك الحين كانت مع زوجها رقم 6. واحدة من زيجاتها - إلى رشدي أباظة عام 1967 - استمرت ثلاثة أيام فقط. فايزة أحمد من مصر، سعدون الجابر من العراق، والمغني اللبناني وليد توفيق، جاءوا كلهم إلى ملاهي لندن في أيام عزهم. حين جاءت فيروز للغناء في ألبيرت هول في منتصف الثمانينات، جاءت جموع من العرب المستعدين لدفع مئات الجنيهات لرؤية مطربتهم العظيمة واحتشدت طوابيرهم حول البناء ليومين قبل موعد عرض التذاكر للبيع.

حزنت كثيراً عندما رأيت مطربة كبيرة مثل فايزة أحمد تغني في أحد الملاهي الليلية وسط السكارى في لندن، فقد كانت من مطرباتي المفضلات. ولكن بعد أن توفيت بعد ذلك بشهرين، عرفت السر، فقد كانت بحاجة إلى المال للعلاج من مرض السرطان الذي كانت تعاني منه. وأذكر أنني التقيت المطرب السوري فهد بلان خلال دعوة على العشاء من أحد الأصدقاء، وكان في قمة السذاجة والبراءة، لكنه كان كريماً شهماً كأنه خرج من جبل العرب (الدروز) لتوِّه، وهو يتحدث بلهجة أهل السويداء المحببة. لم أستغرب بساطته، وهو الذي عمل «كمساري» أو بائع تذاكر في الحافلات قبل أن يصبح مطرباً مشهوراً، وكان - رحمه الله - مزواجاً محترفاً، فقد بلغ عدد زيجاته ثمان أشهرها زواجه من مريم فخر الدين.

من عادة اليونانيين أن يرموا الأطباق على الأرض للتعبير عن تقديرهم وإعجابهم بالمطرب أو المطربة، لكن العرب يرمون المال. كان أمراً شائعاً بالنسبة للحضور في الملاهي العربية أن يسكروا لدرجة لا يعودون فيها قادرين على التمييز، وبحيث يرمون المال تحت أقدام أسوأ المطربين. وحين يتعلق الأمر بالراقصات الشرقيات، فإن الأمر كان يخرج عن كل الأطوار، خصوصاً إن كان هناك أناس من بلاد متنافسة أو مختلفة سياسياً مثل السعودية والكويت وليبيا. فإذا قام الليبي بوضع 100 جنيه في حزام الراقصة، فإن الكويتي ينافسه بوضع 200 جنيه في جانب وركها الآخر. ولكي لا يتفوق عليه الكويتي، يرفع السعودي المبلغ إلى 300 جنيه من الأوراق النقدية الجديدة ويرشُّها على المسرح. أثناء زيارتي أحد الملاهي لإعداد تحقيق عن العرب في لندن، شاهدت شيخاً من عائلة مالكة، مخموراً لدرجة أنه لم يكن يستطيع الوقوف على قدميه، متمايلاً نحو المسرح حيث كانت راقصة عادية تهزُّ خصرها هزات مملة فيما تنظر إلى الفضاء. لوَّح الأمير الشاب لصاحب الملهى وأعطاه بطاقته الائتمانية، قال بإصرار: «أريد ألف جنيه نقداً. اضطر صاحب الملهى للتصرف وعاد بالأوراق النقدية التي وُضعت، بهيام، وإن يكن بترنُّح، تحت أقدام الراقصة التي لمع وجهها وامتلأ حيوية بعد ذلك.

العديد من الموسيقيين الممتازين والراقصات كانوا يقومون بزيارات سرية إلى ملاهي لندن تلك لأنهم كانوا قادرين على جمع الكثير من المال في ليلة واحدة. أيَّاً كانوا، على أي حال، فقد كان عليهم أن يدفعوا ثلث ما يحصلون عليه لأصحاب الملاهي وثلثاً آخر للموسيقيين. قمة هذا الجنون كانت في أوائل الثمانينات، وقد تراجعت حين هبطت أسعار النفط بشكل مثير، وحتى أمراء الخليج لاحظوا أن مصادرهم المالية ليست بلا حد.

الملاهي الشرق أوسطية غيَّرت نظام الحياة الليلية البريطانية، حيث كانت الملاهي تبقى مفتوحة حتى التاسعة صباحاً. بالنسبة لزبائنها العرب، كان الجدول اليومي يعمل هكذا عموماً: فطور عند العصر، غداء في الخامسة مساء تتبعه قيلولة، والعشاء حوالي الساعة 11 مساء. ما كان أحد ليغادر عادة قبل منتصف الليل، وما زال الأمر دارجاً في إدجوار رود حيث لا تزدحم المطاعم والملاهي كثيراً حتى حلول الساعة الواحدة أو الثانية صباحاً. ازدهرت أندية القمار في تلك الفترة بسبب الرواد العرب، وكان لافتاً التنافس بين اليهود والعرب في هذا المضمار، لكن جميع الخلافات تتبخر ولو مؤقتاً على موائد القمار، وهذا لا يمنع أن ينفجر الصراع أحياناً بفعل المنافسة بين من يخسر أو يربح أكثر. ومن المألوف أن يتساوى الجميع في الخسارة. فلا أحد يربح في أندية القمار غير الشركة المستثمرة لها.

كان من عادة الأندية إعطاء الزبائن نسخاً مجانية من صحف الصباح عندما يغادرون الكازينو مع ساعات الفجر الأولى. وقد سعدت كثيراً عندما اتصل بي شاب جزائري في أوائل التسعينات يعمل في قسم العلاقات العامة في أحد الكازينوهات يعرض أن يوقع عقداً بشراء مئة اشتراك من «القدس العربي» لتوزيعها على الزبائن أسوة بالصحف الأخرى، فقد كان من المحبين لها. فرحت بالعقد - الصفقة، لكنها فرحة لم تدم، فقد اتصل بي بعد أسبوع طالباً إلغاءه، فقد احتج عرب وخليجيون على وجودها لأنها معادية لحكومات بلادهم وشاركهم الاحتجاج يهود متطرفون أيضاً، وهددوا بالتوقف عن لعب القمار في النادي إذا لم يمنع دخول هذه الصحيفة فوراً، وكان لهم ما أرادوا!

بعض البلدان العربية، خصوصاً دول الخليج، بدأت بالقلق من السلوك الفاسد والمبذر لبعض أبنائها خلال عطلاتهم في لندن. العديد من صحف التابلويد والمجلات نشرت أخباراً ترصد أشكالاً فضائحية من سلوكيات بعض العرب المشهورين، وغالباً من أفراد العائلات الحاكمة الخليجية. معظم هذه القصص كان يرويها للصحف سائقون وخدم يتحدثون عن الملايين التي صُرفت في المقامرة بالكازينوهات، كما عن مغامرات أرباب عملهم الجنسية الداعرة: أمراء يفتشون عن الشقراوات فيما زوجاتهم، حسب ما يقول أولئك المخبرون، يتجهن إلى مراقص الديسكو حيث يبحثن بدورهن عن عشاق الليلة الواحدة.

مع مرور الوقت، بدأ بعض الصحافيين الأقل نزاهة باستخدام هذه القصص للابتزاز والعديد منهم حصلوا على مبالغ كبيرة ليمتنعوا عن نشرها. بعض سفارات بلدان محافظة بدرجة أكبر أرسلت جواسيس إلى الملاهي لمعرفة ما الذي يجري، وقامت بعمليات تأنيب هامسة عند الضرورة. كانت التقارير تُرسل إلى تلك البلاد وتُحفظ في السجلات. في بعض الأحيان، يقوم الجواسيس بالاستمتاع بمهمتهم أكثر مما يجب، بحيث ينسون السبب الذي جاءوا من أجله وينضمون إلى جلسات الفسق.

حصلت الصحف البريطانية على فترة زاهية للكتابة عن سلوكيات زوارها العرب المتهورين. كانت هناك قصص عن خادمات حصلن على بقشيش بمئات الجنيهات من أثرياء خليجيين مسرورين بالخدمة وعن أصحاب ملايين سعوديين يسرقون من هارودز؛ كان هناك أيضاً كاريكاتيرات مثل ذلك الذي يصور رجلاً بديناً يلبس جلابية وكوفية يقود جملاً نحو إدجوار رود مع أربع نسوة من حريمه البدينات الملفعات بالبرقع يسرن وراءه. صحيح أن بعض هؤلاء العرب كانوا شبه أميين وعديمي التجربة وغير متحضرين، لكن هؤلاء كانوا الأقلية ولا يمثلون إلا نسبة ضئيلة من مجتمعاتهم، ولكن غالباً ما تسيء القلة إلى الكثرة؛ ألم يقل الرسول (ص): «داروا سفهاءكم».

لا أريد أن أعطي انطباعاً بأن كل عربي جاء إلى لندن كان شخصاً مسرفاً. بالعكس من ذلك، الغالبية كانت عائلات محترمة، وإدجوار رود تكون عادة مليئة بالناس الخارجين للتجوال في المساء، لمقابلة أصدقاء قدامى أو معارف، داخلين إلى المقاهي والمطاعم لاحتساء شاي بالنعناع أو قهوة، أو للتنزه وأكل المشاوي في هواء هايد بارك الطلق.

كان منظراً جميلاً في الصيف أن ترى العرب يتجمعون حلقات في حديقة الهايدبارك قبيل غروب الشمس يرقصون أو يعزفون العود ويتمايلون طرباً في مرح بريء. فهؤلاء، والقادمون من الخليج خصوصاً، حُرموا من متع الحياة لقرون بسبب بيئتهم الفقيرة القاحلة، حيث كانت حياتهم قاسية، وتعتمد بالدرجة الأولى على الغوص وصيد اللؤلؤ أو الرعي قبل اكتشاف النفط. ومن الطبيعي أن يكونوا من ضحايا الصدمة الثقافية عند زيارتهم للغرب، ولندن على وجه الخصوص. كنت، ولا أزال، أتعاطف معهم كثيراً، وأفرح لاستمتاعهم بالحياة.

ذروة أي زيارة إلى «بيروت على التيمس» هي في التوجه إلى زاوية الخطباء عصر الأحد. أنظمة الشرق الأوسط لا تشجع حرية الكلام، ولذلك فإن وجود مكان يستطيع فيه أي شخص أن يقف ويقول ما يشاء فكرة جديدة ومثيرة. كان هناك خطيب يدعى هارون، وهو مسلم من موريشيوس، يقوم بإلقاء خطبة بالإنكليزية على الحضور. انتشرت حكايته من شخص لآخر بحيث أصبح شخصية شهيرة بين زوار الشرق الأوسط. كان شخصاً ساخراً يُلقي نكاتاً بذيئة حول البريطانيين وحكومتهم وملكتهم، وينهي حديثه دائماً بشعارات معادية للصهيونية ويقوم عندها برفع علم فلسطيني ملوحاً به بين صيحات الابتهاج من الحاضرين. رغم استمتاعهم بما يتشدق به الرجل، كان المستمعون العرب يبدو عليهم القلق؛ فنتيجة اعتيادهم على تدخلات سلطات بلادهم العنيفة، كانوا يشعرون أن الرجل في خطر داهم من الاغتيال من قبل جهاز المخابرات البريطاني MI5. كانوا يعرضون عليه كل أنواع المساعدة والدعم، من المال إلى مكان آمن في الشرق الأوسط إذا أراد أن ينجو بحياته. فالخوف من أجهزة المخابرات هاجس العرب الدائم في حلِّهم وترحالهم، وهم يعتقدون أن انتقاد الملكة هو أقصر الطرق إلى السجن والتعذيب، وربما الإعدام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

مركز عبد الباري لاستشارات المواطنين

ابتداء من تشرين الثاني/نوفمبر 1979، كان لدي مقر صغير لمكتبنا في مركز الصحافة الدولية باعتباري مديراً لمكتب صحيفة «المدينة». كان أصدقاء ومعارف من الشرق الأوسط غالباً ما يجيئون أو يتصلون بي طالبين المساعدة؛ بعد عدة أشهر لاحظت أن محاولات التعرف إليَّ قد تزايدت بشكل لا يمكن تحمله، إلى أن وصلت إلى نقطة أن الزائر ما عاد مهتماً بأن يقول إنه «صديق فلان وفلان الذي التقى بك في القاهرة»، وبدلاً من ذلك يدخل مكاتبنا مقدماً نفسه. بسذاجة، كنت أتعامل مع هذا السلوك الفجِّ بالنسبة إليَّ، والطبيعي بالنسبة إلى شخص قادم من منطقتنا في تلك الفترة، بالطريقة العربية المجاملة التقليدية وبحسِّ الضيافة. سياسة الباب المفتوح هذه انتشرت أخبارها مثل النار في الهشيم وأصبح مقرُّنا بمثابة المكتب السياحي للزوار العرب. كانوا يحضرون أو يتصلون بي لمعرفة أحسن المطاعم والملاهي، أو أين يمكنهم أن يشتروا بدلة معينة من الكتان أو عن أفضل طبيب لأمراض القلب أو السكر، وفوجئت في إحدى المرات بأن أحدهم طلب مني عنوان طبيب للأمراض الجنسية والتناسلية وشرح لي مطولاً أسباب إصابته وأعراضها، وسرد لي قصة تلك الشقراء التي رمته بدائها واختفت. الأسوأ من ذلك أن الكثيرين كانوا يستخدمونني كما لو كنت مركز نصائح قانونية بحيث يحضرون لاستشارتي في متاعبهم؛ أحدهم يريد أن أجد له عملاً؛ الآخر، المتهم بجريمة، يطلب خدماتي كمترجم في مركز الشرطة؛ مرة اقتحم شخص بابي وهو في حالة مخيفة، صارخاً بأنه استفاق لتوِّه ووجد نفسه مستلقياً على أرض الغرفة في فندقه وقد سُرقت منه 10 آلاف جنيه. لا أزال لا أعلم ما كان يظن أنني سأفعل له حيث أنني لم أكن شركة تأمين ولا مصرفاً.

في أحد الأيام، اتصل بي شخص من كشك للهاتف. نظرت إلى ساعتي بعد أن تبادلت معه المجاملات الاعتيادية لمدة طويلة، فيما كنت أسمع صوت النقود المعدنية وهي تسقط في الآلة. بعد أن أجبت عن تساؤلاته عن صحتي وأحوالي للمرة الخامسة وقبلت تهانيه واستمعت إليه وهو يحمد الله على أحوالي الحسنة، تساءلت عمَّا يريد هذا المتصل حقاً. كانت سيارة أجرة تنتظرني لإيصالي إلى استديو تلفزيوني، فطلبت إليه الاستعجال، وبعد أن عيل صبري، سألته ماذا يريد، قال:

- «آه، عبد الباري، المشكلة أنني أشعر بالملل.

- تشعر بالملل؟

- نعم، أنا في مستشفى بهارلي ستريت، زوجتي ذهبت للتسوق وليس هناك شيء أفعله هنا، لا أحد للتحدث معه، لا نوع من أنواع التسلية، ليس هناك غير المرضى».

الزواج من أجنبيات

وصلني العديد من الاتصالات والزيارات من رجال عرب تزوجوا بريطانيات، كان معظمهن، لسبب ما، من أصل أيرلندي. بعض هؤلاء العرب وقعوا في الحب، لكن كان هناك الذين تزوجوا ليحصلوا على الجنسية البريطانية. رغم أنني ما كنت متعاطفاً مع النوع الثاني، فقد حاولت مساعدة أولئك الذين أرادوا أن تتحسن الأمور مع زوجاتهم، حيث كنت أشرح لهم أن النساء البريطانيات لديهن توقعات تختلف عن توقعات أقرانهن العربيات وما كنَّ بالضرورة سيقبلن بالحياة المنزلية التقليدية. الشكاوى التي سمعتها غالباً ما كانت أن شريكاتهم البريطانيات لم يكنَّ «مثل أمهاتهم». الأم، بالطبع، قامت بكل شيء من أجل هؤلاء الرجال: الطبخ، والتنظيف، والجلي، والعناية بهم. القضية الأكثر جدية كانت العنف المنزلي. من المؤسف أن بعض الأزواج العرب يضربون زوجاتهم، والشبان العرب الذين تربوا بهذه الطريقة في عائلاتهم اعتبروا أنه من الممكن التعامل بالطريقة نفسها مع زوجاتهم البريطانيات. رغم أنني متأكد من أن بعض النساء عانَين من هذه المشكلة بصمت بائس، فإن عدداً كبيراً منهن قمن بالرد على العنف بالعنف. وردتني اتصالات من رجال تخنق الدموع أصواتهم وهم يصفون كيف تكشفت زوجاتهم عن نساء قويات. أخبرني أحدهم كيف لكمته زوجته «بضربة قاضية نحو رأسه، لم يسدد مثلها محمد علي كلاي في قمة مجده». ما كان لدي تعاطف مع أولئك الرجال المعنَّفين، ولم أكن آسفاً أيضاً حين كان ينتهي الأمر بمن يضربون زوجاتهم في السجن.

كانت هناك صعوبات ثقافية أخرى حتى في أكثر الزيجات الإنكليزية - العربية انسجاماً. واحدة منها كانت كيفية تربية الأطفال، خصوصاً حين يتعلق الأمر بالدين: مسلم، مسيحي، مزيج من الديانتين، أو لا ديانة؟ كان الأطفال يكرهون أن يكونوا مختلفين عن غيرهم، وهكذا كانت هناك نزاعات حول ما يجب على أهلهم أن يسمُّوهم. الجالية العربية في لندن اكتشفت أسماء يمكن استخدامها في كلا الثقافتين، مثل سامي وسارة.

في ثقافة المسلمين، خيانة المرأة لزوجها هي الأمر الأكثر جلباً للعار الذي يمكن أن يحصل لرجل. لا يعني ذلك نهاية الزواج فحسب، إنها أيضاً ضربة مميتة لكبريائه وشرفه وأحياناً نهاية لحياتها وحياته. لسوء الحظ، يبدو أن احتمال أن تقوم الزوجات البريطانيات بتعريض أزواجهن لهذه المحنة أكبر من إمكان أن تفعل ذلك مثيلاتهن العربيات، أو ربما هن أقل قدرة على إخفاء

ذلك. كنت أنصح الرجال الذين يعانون من هذا الوضع بالذهاب إلى المسجد والتحدث إلى الإمام؛ أحد التأثيرات الإيجابية كان أن عدداً من الرجال وجدوا عزاء في الدين وعمَّقوا فهمهم له. الجانب العملي والقانوني للطلاق على الطريقة البريطانية كان مفهوماً غريباً، والبعض وصلوا إلى نقطة اللاعودة حين اكتشفوا أنهم يمكن أن يخسروا حضانتهم للأطفال، إضافة إلى أن عليهم دفع جعالة شهرية لامرأة خانتهم مع رجل آخر، إضافة إلى نفقة شهرية للأطفال، والأهم من ذلك حق الزوجة في طرد الزوج من البيت وإلقاء أغراضه خلف الباب وتغيير القفل. وعلى الزوج أن يستمر في دفع الإيجار أو أقساط ثمن المنزل إذا كان ملكاً له. من الأشياء الأخرى التي كانت تفجِّر الخلافات وأحياناً تنهي الزواج مبكراً، المعاشرة الجنسية. فالرجل الشرقي يعتقد أن ممارسة الجنس مع الزوجة حق شرعي في أي زمان ومكان ومتى شاء هو، فعندما تبلغ الشهوة ذروتها لا بد أن تكون المرأة جاهزة لتلبية ندائها. المرأة الأوروبية تختلف كلياً عن المرأة العربية، وهي ليست دائماً جاهزة لتلبية النداء. فأحياناً تكون في مزاج متعكر، وتعتقد محقة أن الجنس علاقة متبادلة وليس طريقاً باتجاه واحد.

إيجاد زوجة مناسبة كان غالباً مشكلة للمسلمين من القادمين الجدد إلى لندن. حين كان الراحل زكي بدوي إمام مسجد ريجنتس بارك، جاء بحلٍّ مبتكر لهذه المشكلة. في نهاية السبعينات، طلب إلى العاملين معه تأسيس مجلس غير رسمي للزواج. وهكذا طُبع فهرس للنساء العازبات المناسبات مع صورهن ووصف شخصي مختصر لكل واحدة منهن. كان الرجال يقلِّبون الفهرس ويناقشون التناسب والتوافق مع أعضاء من المسجد. إذا أُقرَّ وجود توافق، يقوم الموظفون بتعريف الاثنين ببعضهما البعض، بحضور مرافقين، وبعد ذلك تُناقش التفاصيل. هذا الحل المبتكر جاء محاكاة لمكاتب الزواج التي بدأت في الانتشار في لندن في ذلك الحين، وأكثر اللواتي لجأن إلى هذا المكتب كنَّ من البريطانيات اللواتي اعتنقن الإسلام عن قناعة... أو من البريطانيات المطلقات من أزواج مسلمين. هذا المكتب وجد حلولاً للكثير من مشاكل الجالية، بعض الذين لجأوا إليه كانوا جادين يبحثون عن إكمال نصف دينهم من مسلمات. البعض الآخر كان يهدف للحصول على إقامة شرعية وجواز سفر. سألت الدكتور زكي بدوي، وكان شيخاً حضارياً متنوراً رحمه الله، عما إذا كان واعياً لبعض المتسللين إلى المكتب لأسباب مصلحية، قال: «يا ابني نحن نحكم على الظواهر، والله أعلم بالبواطن».

زواج العرب من أيرلنديات على وجه الخصوص كان مفهوماً لأنهن شقراوات وغالباً قرويات طيبات من أسر فقيرة. فأيرلندا كانت مستعمرة بريطانية، ومعظم الفتيات كن يحضرن إلى لندن للبحث عن عمل، ويعشن الغربة في أسوأ معانيها، بما في ذلك الشعور بالوحدة. ولذلك يكون من السهل على

الشاب العربي التعرف إليهن والوقوع في حبهن، وهو حب ينتهي غالباً بالزواج. أول مرة زرت أيرلندا (دبلن) كانت عام 1980، وقد ذُهلت عندما قرأت في صحيفة محلية قصة فتاة عمرها 26 عاماً وقعت في حب شاب، لكنها لا تستطيع مغادرة مزرعة والدها ووالدتها المسنين وتذهب مع حبيبها إلى بلدته بعيداً بغرض الزواج. كما أنها لا تزال تحتفظ بعذريتها ولم تمارس الجنس مطلقاً. مصدر ذهولي أن وجود فتاة عذراء في سن السادسة والعشرين ولا تريد ترك والديها ومزرعتها من أجل اللحاق بحبيبها حالة تُعتبر نادرة في أوروبا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المطرب الإسلامي المعتزل

مغني البوب البريطاني الشهير، المعروف سابقاً باسم كات ستيفنس، اعتنق الإسلام عام 1977 واتخذ لنفسه اسم «يوسف إسلام». التقى بزوجته الأفغانية، فوزية علي، ابنة محاسب من سيربيتون، في مسجد ريجنتس بارك وتزوجا في 9 أيلول/سبتمبر 1979. كنت أول شخص يُجري حواراً مع يوسف إسلام بعد إسلامه. رتَّب د. بدوي اللقاء معه في المسجد. كنت مسحوراً من كون شاب ناجح، يملك كل شيء يحلم الناس بالحصول عليه، يترك كل ذلك ليكرِّس نفسه للإسلام. كان يوسف إسلام متواضعاً، يتكلم بلطف، وفخوراً بدينه. أراد أن يبدأ فصلاً جديداً من حياته وكان خجلاً من حياته السابقة المليئة بالمخدرات والكحول والنساء.

تبين لي أنه حتى كات ستيفنس لم يكن اسمه الحقيقي. لقد ولد باسم ستيفن ديميتري جورجيو ونشأ على يد والده القبرصي اليوناني الأرثوذكسي. تغيير الاسم حصل حين بدأ مسيرته الموسيقية وهو مراهق بعد. اعترف لي في مقابلتنا بأنه عامل النساء مثل «سلع» قبل أن يتحول للإسلام. كان يجب أن يكنَّ جميلات وهذا كل ما في الأمر، كما قال. كان لديه الكثير من العشيقات، بمن فيهن باتي داربانفيل التي أصبحت لاحقاً صديقة مايك جاغر. وصف يوسف إسلام كيف بدأ يتخلص من أوهامه حول زخارف الشهرة وبدأ يفتش عن معنى أعمق لحياته. عام 1977، كاد أن يغرق في المحيط الهادئ، وبعد ذلك بفترة قصيرة، أخوه، دافيد، أحضر له ترجمة إنكليزية للقرآن، وأحس مباشرة بأنه أمام «الحقيقة الروحية» بعد قراءته وهو على سرير المرض في المستشفى.

وصف لي د. بدوي المرة الأولى التي ذهب فيها يوسف إسلام إلى مسجد ريجنتس بارك ليصلِّي. يقول بدوي وهو يتذكر: «قلت له إنني أتمنى ألا يترك الموسيقى، لكنه كان متصلباً في الأمر، مصراً على أن الآلات الموسيقية تُعتبر حراماً في الإسلام. حاولت أن أتناقش معه من وجهة نظر سلفية، لكنه باع كل آلاته ووظَّف المال في الجمعيات الخيرية الإسلامية».

عام 1983، تبرع يوسف بمبالغ كبيرة لتأسيس مدرسة إسلامية في لندن واستمر كشخصية أساسية في الجالية الإسلامية في العاصمة البريطانية.

رأيته مجدداً في مؤتمر إسلامي في الخرطوم عام 1992. رئيس السودان، عمر البشير، أقام مأدبة لبعض المشاركين كنت أنا ويوسف إسلام من بينهم. لم يغنِّ يوسف بشكل علني منذ اعتناقه الإسلام لكنه وافق على الغناء بعد أن طلب إليه الرئيس البشير ذلك، وغنى أغنية إسلامية كانت مشهورة أيام النبي

محمد (ص): «طلع البدر علينا من ثنيات الوداع». كان أداءً رائعاً، بالعربية ومن دون مرافقة عازفين، وتبعه تصفيق الحاضرين وقوفاً.

عاد يوسف إلى استديو التسجيل عام 1995 بعد غياب سبعة عشر عاماً للمشاركة في «حياة آخر الأنبياء»، وهو ألبوم أغنيات وسور وتلاوة من القرآن. في وقت لاحق، عزف على الغيتار في ألبوم «دولي بارتون» وأطلق شريطه الأول منذ 1978، «كأس أخرى»، أواخر عام 2006. بدا أنه تغلب على شكوكه حول الآلات الموسيقية - فهو ينقل بيانو صغيراً معه في حقيبة حيث يقوم بعزف أغانيه - لكن إيمانه لا يزال قوياً وأغانيه تعكس ذلك.

عام 2004، كان يوسف إسلام ضحية للموجة الحالية للإسلاموفوبيا حين رُفض دخوله إلى الولايات المتحدة على أساس أنه يمكن أن يكون إرهابياً، وهو افتراض مبني فقط على الاشتباه باسمه وحقيقة أن له لحية. الطائرة التي كان عليها جرى تحويلها إلى قاعدة عسكرية في الولايات المتحدة، ومن هناك أُبعد إلى بريطانيا. اتصلت به بعد ذلك وكان حانقاً، قائلاً إنه سيطلب تعويضاً وتغييراً رسمياً للقرار.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الجهاد يصل إلى نيسدين

إن كان يوسف إسلام قد خفف من تطرُّفه إلى حد ما، فإن أعوام التسعينات شهدت قدوم آلاف المسلمين الذين لا يتقبلون الحلول الوسطى بتاتاً. كان هؤلاء مجاهدون عائدون من أفغانستان والبوسنة. العديد من هؤلاء الإسلاميين كانوا غير قادرين على العودة إلى بلدانهم وطلبوا اللجوء السياسي في بريطانيا، مشكلين مشاهد مثيرة لعجب الناس في ضواحي شمال لندن، بلحاهم الطويلة وملابسهم الإسلامية التقليدية: السروال الواسع والقميص الطويل والعمامة. كان من ضمن هؤلاء رجال قاتلوا مع الشيخ أسامة بن لادن ضد الروس وكانوا عناصر أساسية في تشكيل القاعدة. قام الشيخ أسامة بن لادن بتأسيس «لجنة النصيحة والإصلاح» وكان لهذه المنظمة مكاتب في لندن منذ 1994، ويرأسها خالد الفواز.

الفواز، الذي كان معروفاً بين جاليات المغتربين العرب باعتباره «سفير بن لادن»، سجن عام 1999، متهماً بلعب دور في تفجيرات القاعدة لسفارتَي نيروبي ودار السلام عام 1998. بالنسبة لصحافي فضولي مثلي، كان هؤلاء الرجال يمثلون بوابة تُعتبر العتبة الأولى لذهابي لمقابلة الشيخ أسامة بن لادن في أفغانستان عام 1996.

كانت فنزبري بارك ونيسدن معروفتين بكونهما منطقتي تجمّع للإسلاميين، الذين أسسوا مسجداً ومدارس إسلامية في كلا المنطقتين. بعد أن قضوا فترة الثمانينات في معسكرات تدريب المجاهدين، قاطنين في خيام أو بيوت طينية، كانوا ممتنِّين حين وصلوا مع عائلاتهم، التي كانت كبيرة في معظم الأحيان، حيث وفرت لهم الدولة بيوتاً كبيرة ومدارس وخدمات طبية مجانية. بالنسبة لشخصيات مثل هذه، إن عناصر الراحة التي وفَّرها الغرب أسرتهم أكثر من الجهاد فاستقروا هنا بشكل دائم، واعظين الشباب في المساجد بالحكايات الآسرة حول بطولات الماضي.

كان أسامة بن لادن قد توقع هذا الوضع، ولذلك أصدر فتوى ضد الإقامة في بلاد «الكفار»، وقد أخبرني حين التقيته أنه يفضل «أن يموت على أن يعيش في دولة أوروبية».

د. أيمن الظواهري (الذي أسس مع أسامة بن لادن «الجبهة الإسلامية العالمية للجهاد ضد اليهود والصليبيين») قال إنه لا يخاف من أن يتعرض زملاؤه للإفساد، ولكن من أن يصبح أولادهم «أوروبيين».

شكلت فتوى بن لادن عائقاً للجهاديين أمام السفر إلى الغرب، ولم يجرِ التخلص منها إلا عندما أصدر مفتي الجهاد، د. سعيد إمام، فتوى فردية تسمح

للناس بـ«الذهاب إلى أوروبا والعيش هناك مع الملحدين على أسس مؤقتة إلى أن يتم تأسيس دولة إسلامية تقوم بتطبيق الشريعة الحقَّة ويمكن الانتقال إليها». وجود المجاهدين السابقين في بريطانيا ساهم، على الأغلب، في تجذير قسم من الشباب المسلم البريطاني الذين رأوا في أولئك الروح المقاتلة التي كانوا يرغبون في وجودها لدى آبائهم، والذين اعتُبروا متقبِّلين سلبيين للحالة الاجتماعية السفلى والإهانات من العنصريين وكارهي الإسلام.

من بين الشخصيات الإسلامية المعروفة في لندن، د. محمد المسعري ود. سعد الفقيه، اللذان يقودان معاً المنشقين السعوديين ويشكلان نبعاً من المعلومات المفيدة. د. المسعري، الذي يمتلك قدرة على ملاحظة المفارقات، يحب أن يلتقي بمحاوريه وزملائه في مكدونالدز. شخص غريب جالس على طاولة فورمايكا تحيط به الأدوات المبهرجة لمحلات المآكل السريعة، وهو يلبس ثوباً أبيض طويلاً ولحية طويلة متدلية. يقيم د. الفقيه في شمال لندن حيث يدير «حركة الإصلاح الإسلامي في الجزيرة العربية» من الغرفة الأمامية لمنزل في الضواحي. قدمت لندن مركزاً لاستقبال أشخاص ذوي صلات وثيقة بالقاعدة، وقد قابلت العديد منهم. واحد منهم كان أبو قتادة، الذي غالباً ما يوصف في الإعلام بأنه «القائد الروحي للقاعدة في أوروبا» والذي عاش في لندن منذ قدومه إلى بريطانيا بجواز سفر إماراتي مزور عام 1994. شاهدته في التلفزيون وتكوَّن لدي انطباع بأنه ليس فقط متزمتاً بل هو عنيف: كان يدافع عن جبهة الإنقاذ الإسلامي الجزائرية في الوقت الذي صدرت فيه تقارير بأنها أصدرت عام 1995 فتوى تشرِّع قتل زوجات «المرتدين» وأطفالهم.

أبو قتادة شخصية متميزة حقاً، فهو شاعر يتمتع بثقافة أدبية عميقة جداً، وحافظ للقرآن، ومتبحر في علم الحديث والتفسير، ومجلسه فيه الكثير من الظرف، أي أنه ليس رجلاً مملاً ولا يبدو عدوانياً مع من يختلفون معه في الرأي. كان يتحرك في لندن بحرية وأقام صلات وثيقة مع الجماعات الإسلامية في شمال أفريقيا، وتحوَّل إلى مرشد روحي بالنسبة إليهم. وقد أصدر عدة نشرات إسلامية تحثهم على الجهاد ضد السلطة الجزائرية، واتُّهم بإصدار، أو الوقوف خلف، الفتوى الشهيرة المثيرة للجدل بتحليل قتل أطفال ونساء أنصار الحكومة الجزائرية أثناء حملتها ضد الإسلاميين وجبهة الإنقاذ التي ألغي فوزها في انتخابات عام 1991 ما سبب انفجار الحرب الأهلية الدموية التي راح ضحيتها 200 ألف جزائري.

فوجئت في صيف عام 2005 حين قالت لي موظفة الاستقبال في «القدس العربي»: «هناك ضيف ينتظر في مكتبك». أنا معتاد على استضافة الضيوف في مكتبي وليس العكس. تحولت مفاجأتي إلى صدمة حين تبيَّن لي أن

ضيفي لم يكن سوى أبو قتادة الذي كان في تلك الفترة تحت الحراسة المنزلية ومزوَّداً بسوار إلكتروني حول أسفل ساقه لمتابعة تحركاته من قبل البوليس.

اسم أبو قتادة الحقيقي هو عمر عثمان أبو عمر، وهو فلسطيني ولد عام 1960 في بيت لحم. كان مختلفاً عمَّا تخيلته، ويتمتع بحس الدعابة، وليس متطرفاً مثلما توقعت، رغم أنه راديكالي في آرائه السياسية والدينية. كانت فترة وجود أبو قتادة في مكتبي مسلية، بحديثه عن الشعر والأدب وقضايا ثقافية أخرى، إضافة للقضايا الفقهية. بقيت مع ذلك متنبهاً، ومتسائلاً كم يشكِّل هذا الشخص من خطر في حال كانت الاتهامات ضده صحيحة.

فرَّ أبو قتادة من السلطات في كانون الأول/ديسمبر 2001، بعد اتهامه بالتورط في التخطيط لهجمات 11/9 في نيويورك وواشنطن، إضافة إلى كونه موجِّه ريتشارد ريد «مخطط تفجير طائرة بالحذاء». سألته ما الذي قاد إلى اعتقاله مجدداً وسجنه لاحقاً في سجن بلمارش الذي خرج منه مع بطاقة إلكترونية في آذار/مارس 2005. قال أبو قتادة إنه تعب من التنقل من بيت لآخر، مزعجاً بذلك أصدقاءه ومعارفه الذين يخبئونه، ومعرضاً إياهم للخطر. قال متذكِّراً: «كنت قليل الحذر واتصلت بعائلتي. كنت أعلم أن هاتفي مراقب وهكذا قاموا باعتقالي».

أنكر أبو قتادة علاقته بالعنف المرعب الذي تورطت فيه «جبهة الإنقاذ الإسلامي»، وقال إنه يؤمن بأنهم اختُرقوا من قبل المخابرات الجزائرية. حين سمع أنني أكتب كتاباً عن القاعدة، قال لي إنه قبل شخصياً حلف الزرقاوي مع أسامة بن لادن حين أصبح أمير القاعدة في بلاد الرافدين (العراق) في تشرين الأول/أكتوبر 2004، وألمح إلى أنه كان يقف وراء هذا الحلف ومبايعة الزرقاوي للشيخ أسامة بن لادن زعيماً للقاعدة. وهي بيعة تأخرت طويلاً بسبب خلاف بين الرجلين أدى إلى ابتعادهما عن بعضهم البعض أثناء وجودهما في أفغانستان حيث أقام الزرقاوي معسكراً مستقلاً له ولجماعته في خوست. كان ذلك خبراً صحافياً خطيراً. بعد فترة قصيرة من زيارته غير المتوقعة لمكتبي، اعتقل أبو قتادة مرة أخرى ولا يزال في السجن منذ آب/أغسطس 2005 بانتظار ترحيله إلى الولايات المتحدة.

الشخصية القيادية الأخرى في «القاعدة» التي التقيتها في لندن في منتصف التسعينات كانت أبو مصعب السوري (واسمه الحقيقي مصطفى ست مريم نصر). قُبض على أبو مصعب في باكستان في أيلول/سبتمبر 2005 وهو متهم بالتورط في عدد من الأعمال الوحشية الكبيرة بما في ذلك تفجيرات مدريد ولندن، التي حصلت عامَي 2004 و2005. التقيت به في المرة الأولى خلال عمله كصحافي في لندن عام 1995. مثل أبو قتادة، كان منخرطاً في «جبهة

الإنقاذ الإسلامية» وكان يحرر صحيفتها الإخبارية الراديكالية «النصر». أخبرني أنه يخطط للانتقال إلى أفغانستان وعرض خدماته كمراسل لـ«القدس العربي» وهو الأمر الذي رفضته بعد قراءتي لبعض اندفاعاته الكتابية في «النصر». استاء من الرفض وسألني إن كنت على الأقل أستطيع أن أكتب رسالة اعتماد صحافية لتسهِّل له العمل، فرفضت مجدداً ولكن بطريقة دبلوماسية تنطوي على الكثير من المراوغة.

شكرت الله ألف مرة على أنني لم أفعل ما طلبه «السوري» مني، فحين وصلت إلى تورا بورا، في تشرين الثاني/نوفمبر 1996، حيث كنت سأقضي ثلاثة أيام مع أسامة بن لادن، كان هو الشخص الأول الذي التقيت. أخبرني أنه انضم إلى القاعدة واكتشفت لاحقاً أنه تدرب في عدد من مخيمات المجاهدين في شبابه وأنه كان قائداً في تنظيم الإخوان المسلمين في سورية. هو متهم أيضاً بأنه درَّب المقاتلين المنتخبين من القاعدة في الاستراتيجيا العسكرية والتفجيرات وحرب العصابات في المدن بين 1988 و1992 وألَّف كتاباً مهماً حول كيفية تجنيد العناصر وشن حرب العصابات أهداني نسخة منه. لو أن المخابرات الأميركية وجدت رسائل تعريف واعتماد بالسوري مني معه حين اعتقل كنت سأحتاج الكثير من الشرح للمسألة ولربما انتهيت في معتقل غوانتنامو الأميركي إلى جانب 500 من رجال القاعدة.

«السوري» شخصية صلبة، وأذكر أنه غالباً ما كان يهتاج عصبياً ويصرُّ على آرائه بشدة - شاهدته يختلف بشكل علني مع بن لادن خلال وجودي في تورا بورا. كثيرون قاموا بالتعليق على قسوته وصرامته والمرة الوحيدة التي شاهدت ابتسامة على وجهه كانت حين تذمرت من الطعام الذي أعطاني إياه أسامة بن لادن في الكهف.

رغم النقص في الجاذبية الشخصية لديه، فإن أبو مصعب السوري محترم بين الجهاديين لثقافته الكبيرة وكان مفتاحاً استراتيجياً في تنظيم القاعدة لعدة سنين. في آب/أغسطس 2005، ظهرت مقالة واسعة الانتشار لأبي مصعب السوري نُشرت في عدد من منتديات الجهاديين على الإنترنت، وقد قمت بترجمتها للإنكليزية. تتضمن المقالة آراء نافذة البصيرة عن حياة الجهاديين في لندن خلال الفترة الذي أتحدث عنها:

«الجهاديون الذين كانوا في لندن بين 1992 و1997 كانوا ناشطين في الجالية الإسلامية في بريطانيا وقاموا بتأسيس مسجد، مؤسسات إسلامية، محاضرات، وسائل تعليمية، ونشروا بيانات ومدونات. أنا نفسي (أبو مصعب)، قمت بتأسيس مركز دراسات لنزاعات العالم الإسلامي في لندن وعملت فيه كوسيط إعلامي لأسامة بن لادن. حين ذهبت فرق التلفزيون إلى جلال أباد

للقاء الشيخ (أسامة بن لادن) قمت بمرافقتهم، كما أنني عملت كمترجم لروبرت فيسك من صحيفة «إندبندنت» حين التقى الشيخ.

كانت لندن مركز الاتصالات بين الجماعات الإسلامية والجماعات التي تعارض حكومات بلادها. حافظنا على التواصل مع القادة الجهاديين خارج بريطانيا، وخصوصاً د. أيمن الظواهري (الشخص الثاني في تنظيم القاعدة) الذي كنت أتلقى مكالماته المنتظمة في كشك هاتف في ضواحي لندن. كان معتاداً على إعطائنا نصائحه من مكان اختبائه في بلاد القوقاز. كنا أيضاً على اتصال مع الشيخ أسامة بن لادن الذي كان في السودان، إضافة إلى قياديين جهاديين في أوروبا والشيشان، البوسنة، تركيا، مصر، شمال أفريقيا، لبنان واليمن. كنا نلتقي هؤلاء القادة بشكل منتظم ونتدارس الأوضاع. حيث إنني كنت أحمل جواز سفر إسبانياً فقد كنت قادراً على التحرك بسهولة.

كل هذه النشاطات كانت تجري بعلم السلطات والأجهزة الأمنية خلال حكومة جون ميجور وهذا ما شجعني على العيش في لندن لثلاث سنوات. أغلب التنظيمات كانت علنية - على سبيل المثال إن «لجنة أسامة بن لادن للنصيحة والإصلاح» كان لديها مكتب في لندن حيث كان يرسل منه كل بلاغاته... حكومة ميجور كانت ذكية وخدمت أمن بريطانيا ومصالح شعبها بقبولها الهدنة معنا، والتي عنت أننا لن نستهدف البلاد أو نستخدمها كقاعدة للهجوم ضد أي بلد ينتمي إليه الجهاديون، طالما أن الأجهزة الأمنية لم تتعرض لنا.

معظم الجهاديين والإسلاميين كانت تتم مقابلتهم من قبل الأجهزة الأمنية البريطانية بين 1994 و1997، لكن هذا حصل بطريقة مهذبة ومعقولة. حين جاء توني بلير إلى السلطة عام 1997، قام بتمزيق الاتفاق غير المكتوب وطعن المجاهدين في الظهر بتغييره القوانين وبمضايقتنا. أعتقد أن ذلك أظهر باكراً أن توني بلير كانت لديه النية المسبقة لمهاجمة العالم الإسلامي تحت المظلة الأميركية. في الماضي، كانت التحقيقات مع الأجهزة الأمنية محاورة فقهية وسياسية. كانت هناك تهديدات غير مباشرة بالطرد من البلاد كعقوبة قصوى لكن لم يكن هناك عنف وكان المسؤولون مهذبين. كنا قادرين على التعايش مع هذا لكن بعد 1997 أصعب الأمر صعباً وخطراً.

ذهبت إلى أفغانستان عام 1996 ثم عام 1997. التقيت أسامة بن لادن وأعطاني رسالة للمجاهدين في لندن يحثهم فيها على الذهاب إلى أفغانستان، لأن الحياة في لندن أصبحت غير محتملة ولم تعد بريطانيا ملجأ آمناً. الكثيرون غادروا في ذلك الحين ولا أجد عذراً لأولئك الذين لم يغادروا. لابد أنهم كانوا مرتاحين للحياة الجيدة في بريطانيا أو لأنهم خُدعوا بخدعة الديمقراطية وفكرة أنهم محميُّون بالقانون».

انقطعت عني أخبار أبو مصعب السوري منذ أن قابلته آخر مرة في معيَّة الشيخ أسامة بن لادن في أواخر تشرين الثاني/نوفمبر عام 1996. اتصل بي عدة مرات من أفغانستان وعلى هاتفي الخاص. أبلغني أنه ترك تنظيم «القاعدة» ولم يعد قريباً من قائده، والتحق بحركة طالبان، وأصبح يدير إذاعة لها باللغة العربية والبشتونية، كما انخرط ببعض الأعمال التجارية الخاصة، وهو الذي أبلغني قصة طرد الملا عمر زعيم طالبان للأمير تركي الفيصل رئيس الاستخبارات السعودية الذي ذهب إلى قندهار طالباً، وبغرور ينطوي على صلف وتكبُّر، تسليم الشيخ أسامة، بعد تفجير السفارتين الأميركيتين في نيروبي ودار السلام لتقديمه إلى المحاكمة بتهمة الإرهاب.

استغرب الملا عمر هذه اللهجة المتعالية ووبَّخ الأمير السعودي على وقاحته، واستهجن أن يطلب تسليم مجاهد مسلم إلى الكفار الأميركيين وطرده من مجلسه.

علمت مؤخراً أن السلطات الأميركية اعتقلت أبو مصعب السوري في باكستان بعد اعتراض مكالمة هاتفية أجراها مع زوجته وأطفاله، وتردد أنها سلمته بدورها إلى سورية حيث تعرض للتعذيب في أحد سجونها ولا يزال هناك حتى هذه اللحظة، ولكن لا تأكيد رسمياً لذلك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

طواويس

إذا كانت غالبية اللندنيين، بمن فيهم معظم الصحافيين، جاهلين بما يجري في دائرة الجهاديين، فإن الصحافة البريطانية كانت مشغولة بعرب شخصياتهم مثيرة ومليئة بالحياة يقيمون في لندن، مثل المصري محمد الفايد، الذي امتلك - حتى فترة قريبة - متاجر «هارودز» (إضافة لممتلكات أخرى) والفلسطيني نعيم عطا الله.

في أوائل عام 2004، كنت في «هارودز» خلال فترة التنزيلات، أبحث عن ربطات عنق جديدة، حين رأيت محمد الفايد نفسه الذي لا يمكن أن تخطئه العين. كان يسير بجولة مع ابن عم القذافي، أحمد قذاف الدم، في أقسام متاجره باعتزاز يليق برئاسته لهذا «الشعب من الباعة». انتبه الشخصان لي وجاءا للسلام عليَّ. بعد أن عرف أن ابني، خالد، كان مجنوناً بكرة القدم، ذكَّرني الفايد بأنه ابتاع فريق فولهام لكرة القدم عام 1997 واقترح بكل لطف أن أجيء مع خالد لأحضر مبارياتهم باعتباري ضيفه الشخصي. عرضه التالي أذهلني. لقد أخرج علبة مزخرفة من جيبه الداخلي وأخرج حبتين، وقال مبتسماً: «يجب أن تجرب هذه، عزيزي، إنه دواء جديد مخصص لنا نحن الرجال - يدعى فياغرا». لم تكن لدي فكرة إن كانت تلك إحدى مزحات الفايد، فقد تكون حبتا نعناع، غير أنني لست متأكداً لأنني رفضت عرضه، ولكن بعد ذلك علمت أنه لم يكن يمزح على الإطلاق، فقد اعتاد الكثيرون على تلقي هذه الهدية كنوع من المزاح، أما استخدامها من عدمه، فشيء مختلف.

في المرة التالية التي التقينا فيها، كنت أتغدى مع سياسي لبناني في مطعم هارودز. وصل الفايد ورحب بنا بلطف كبير. سألني:

- «لماذا لا تتصل بي أبداً؟ لدينا الكثير لنتحدث عنه.

- اعتقدت أنك تقيم في جنيف، قلت شارحاً، ظننت أنك ستقيم هناك كاحتجاج على رفض إعطائك جواز السفر البريطاني.

- لقد عدت. كما تعلم، في تقاليدنا، الأصغر سناً يجب أن يتصل بالأكبر منه احتراماً، لذلك سأنتظر اتصالك».

أعرف أن الفايد كان يريد مناقشة موت الأميرة ديانا.

مزاعم الفايد حول وجود مؤامرة قادت إلى وفاة الأميرة ديانا كانت معلنة على الملأ في التحقيق الجاري، بعد إعلان الطبيب الشرعي أنه لم يكن هناك دليل لتأكيد ادعاءاته. كانت هناك سوابق عديدة، مع ذلك، بما فيها الجريمة التي حصلت عام 1944 وقُتلت فيها المطرِبة أسمهان. ولدت أسمهان باسم

أمال الأطرش، وكانت أميرة سورية، رغم أنها عاشت معظم حياتها في مصر حيث قامت بمنافسة أم كلثوم كمغنية. حاجتها الشديدة للمال نتيجة مشاكلها مع الكحول جعلتها فريسة سهلة للمخابرات البريطانية، إذ قامت بالتجسس لصالحهم خلال فترة الحرب العالمية الثانية، إلى أن توفيت في حادث سيارة تواقت مع اكتشاف أنها كانت عميلة مزدوجة. غرقت أسمهان في قناة ماء صغيرة ونجا سائقها بجروح بسيطة. في الولايات المتحدة أيضاً، ميتات كهذه كانت شائعة: خلال فترة فضيحة ووترغيت، ثلاثون شاهداً أساسياً قُتلوا بظروف غامضة بين 1972 و1975، ثلاثة منهم بحوادث سيارات. كان لديَّ تعاطف مع وجهة نظر الفايد.

لماذا تسعى المؤسسة البريطانية لموت أكثر أفراد العائلة الملكية شعبية؟ ديانا كانت تحب دودي الفايد، وربما كانت على وشك الزواج به، وهو مسلم. تحدثت عن نظرية الاغتيال في قناة آي تي في البريطانية، وخلال الحوار المتلفز، وجدت نفسي على خلاف مع برنارد إنغهام، الذي كان السكرتير الصحافي لمارغريت ثاتشر. قلت إن المؤسسة البريطانية، التي كان هو عضواً فيها وجدت أن فكرة وجود ولي عهد للعرش البريطاني مع زوج أم مسلم أمر غير مقبول البتة. انتهى النقاش إلى جدل حاد وما أن أُطفئت الكاميرات، حتى سارع السيد إنغهام للخروج وهو يتمتم: «هذا ليس تلفزيوناً بريطانياً»، من دون أن يصافحني أو يودِّع أياً كان.

خلال العرض نفسه تناقشنا حول قضية الزيجات التقليدية المرتبة من قبل الأسرة والتي كانت وسائل الإعلام البريطانية مجندة ضدها. واحدة من الضيوف المشاركين كانت ابنة رئيس وزراء محافظ سيئ السمعة أنجبت عشيقته طفلاً منه. هذه السيدة كانت متزوجة ومطلقة أكثر من مرة، ما جعلني أشير إلى أن الناس لا يقومون بالاختيار الصحيح لأنفسهم دائماً. اقترحتُ مازحاً أنها لو تسمح لي بترتيب زيجة لها من مسلم جيد، فإنني قد أتمكن من أن أجد لها علاقة ناجحة. ضحكت ورفضت عرضي لكنني استمتعت بأن أرى، بعد سنتين، أن قناة بي بي سي 2 أطلقت مسلسلاً عنوانه «رتِّب لي زيجة» مؤسساً على الافتراض نفسه. المفارقة أن زواج الأميرة ديانا من الأمير تشارلز كان، لكل النوايا والأسباب، زواجاً مرتباً.

نعيم عطا الله مليونير عصامي صنع نفسه بنفسه، يدير مؤسسات «إسبرايس» و«مابن إند ويب»، وينشر «ذا ليتراري ريفيو» و«ذا أولدي»، كما أن لديه دار نشر تدعى «كوارتيت بوكس». عطا الله فلسطيني مثلي، لكن هنا يتوقف التشابه بيننا. هو شخص نشيط أكبر مني سناً، ورغم أنه في سبعيناته، فهو يحيط نفسه بالصبايا الجميلات. أجريت مقابلة معه عدة مرات في الثمانينات حين كان في عز عنفوانه، ومشهوراً بتنظيم «أحسن حفلات

البلد» في مكاتبه، في الطابق الأعلى من بناية في مايفير بإطلالة أخاذة وبجلد نمر معروض في الزجاج في وسطه. عطا الله ذو شعر بلاتيني، أصابعه، كما الماركات التي يبيعها، مليئة بالمجوهرات والألوان الزاهية؛ يفضل القمصان الصفر وربطات عنقه بألوان صارخة بصوت عال مثل صوته. موظفاته مختارات من بنات الطبقة العليا البريطانية اللواتي تملأ صورهن مجلة «هيلو» التي ظهرت عام 1988، وهو يشير إليهن بشكل جماعي بكلمة «البنات». إحدى هؤلاء «البنات» كانت الطاهية الشهيرة وابنة وزير مالية بريطاني سابق، نايجيلا لاوسون. سألته مرة عنه اختياراته لموظفاته وضحك، قائلاً بشكل غامض، «هذا أمر لطيف لنا جميعاً».

عطا الله شخص مليء بالحيوية جرَّب تشكيلة من المؤسسات، بعضها كان ناجحاً، والبعض الآخر كان أقل نجاحاً. كناشر، قام بنشر اثنين من الكتب المفضلة لديَّ. البندقية وغصن الزيتون لدافيد هيرست (تأريخ موضوعي للفلسطينيين) والفلسطينيون لجوناثان ديمبلبي الذي زينته صور رائعة من تصوير دون مكيلان. حتى مشاريعه الفاشلة كانت مثيرة للعواطف، لجهة تناسبها مع شخصيته المزركشة. قبل سنوات قليلة اتجه للكتابة وقام بتأليف عدة كتب، بينها روايات صورت مشاهد إيروتيكية فاحشة وغير واقعية بتفاصيلها بحيث أن مجلة «برايفيت آي» سمَّته (لاعبة على إيقاع اسمه) «نعيم أترلي ديسغستنغ» (أي نعيم المقرف تماماً).

عام 1979، قرر عطا أن ينتج فيلماً عن ابن سعود، مؤسس المملكة العربية السعودية. باعتباري مراسلا لندنياً لإحدى الصحف السعودية آنذاك، كان الموضوع مهماً بالنسبة لي فذهبت لمقابلته. الاستعداد للفيلم لم يكن على أحسن ما يرام، وعطا الله كان في مزاج سيئ جداً، بحيث إنه كان يندفع اندفاعات عصبية أو يكسر الهاتف أو يعصِّب على إحدى «البنات». كانت قد استولت عليه فكرة أن الملك يجب أن يركب جملاً أسود، وهو نوع نادر جداً من الجمال، لكن أحداً لم يستطع أن يجد له هذا الجمل. ظلوا يحاولون لأيام وكلهم كانوا «عديمي النفع، عديمي النفع تماماً».

«لماذا لا تقوم بصباغة جمل بالأسود؟»، اقترحتُ عليه. توقف عما كان يفعل وحملق بي: «عبد الباري عطوان، هذه أكثر الأفكار بلاهة...» ثم توقف في منتصف الجملة، وهو يعيد التفكير. «نعم، فكرة جيدة!» صاح بي، ثم طلب رقماً على هاتفه. «اصبغوا واحداً فحسب!»، صرخ حالما رد عليه الشخص. «نعم... أحضروا واحداً عادياً واصبغوه بالأسود!».

كان عطا الله قد صرف الكثير من المال على هذا الفيلم. لقد دفع لكاتب سيناريو مهم لاقتباس سيرة بالعربية لابن سعود عن نص إنكليزي، وأخبرني أنه انتهى تقريباً من إعادة بناء مكة في الصحراء المغربية. كتبت عن الجمل

بطريقة طريفة في مقالة لصحيفة «المدينة»، وقد فوجئت حين علمت أن الفيلم، بعد كل شيء، لن ينتج. الإشاعات كانت أن العائلة المالكة السعودية فقدت الثقة في المشروع ورتبت أن يتم التراجع عنه بهدوء، مع التأكد أن كل الأطراف المعنية لم تخسر مادياً، وفهمت بعد ذلك أن نعيم عطا الله أراد أن يلفت نظر آل سعود إلى هذا الفيلم لعلهم يساهمون في تمويله، ولهذا حرص على إعطائي المقابلة، ويبدو أنهم لم يتحمسوا وقرروا أن يقتلوا المشروع في مهده، ودفعوا تعويضاً كبيراً للسيد عطا الله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

8. أسامة بن لادن

كنت في اليمن عام 1998 حين حوصرت السيارة التي كنت فيها بمجموعة من الناس الذين تعرفوا عليَّ وأقفلوا الطريق. صاحوا: «يا شيخ عطوان! أخبرنا عن الشيخ. كم كنت مباركاً لأنك قضيت وقتاً معه». كانوا يقصدون أسامة بن لادن، المبجل بشكل خاص في اليمن لأن أباه جاء أصلاً من إقليم حضرموت في جنوب البلاد. ولكوني أجريت معه مقابلة وقضيت ثلاثة أيام بمعيَّته في كهفه المفضل، وجدت نفسي في وضع مربك إذ اعتُبرت بدوري مرجعاً دينياً وشيخاً.

خلال فترة إقامتي القصيرة في اليمن، طُلب إليَّ حتى أن أؤم المصلين في الجوامع وألقي خطباً رغم أنه لا معرفة فقهية لدي، ولم أكن غير مسلم متدين عادي.

أراد ناشر كتب في صنعاء أن يستخدم الرابطة العابرة التي جمعتني بأسامة بن لادن بطريقة أكثر مكراً. توسل إليَّ: «رجاء، عبد الباري! اكتب لنا فقط كتيباً صغيراً عن الشيخ، سنضع الصورة لك معه في جبال تورا بورا على الغلاف وسوف نصبح أنا وأنت ثريَّين جداً جداً!». رفضت الفكرة لأنني كنت متأكداً من أن هذا الرجل لم يكن يرغب بالحصول على رواية موضوعية متوازنة عن لقائي مع زعيم القاعدة كتلك التي قدمتها لاحقاً في كتابي التاريخ السري للقاعدة عام 2006.

ليست هذه الظاهرة مقصورة على اليمن. يبدو أنني حصلت على مريدين من كل الأشكال في كل أنحاء العالم العربي. حين ألقيت محاضرة في تونس مع نهاية عام 2006، على سبيل المثال، بدعوة من الاتحاد الوطني للشغل، اضطرت الشرطة لتطويق الشارع بسبب الجماهير. حتى في لندن، يوقفني باستمرار في الشارع أشخاص يريدون أن يصافحوني أو أن يتصوروا معي. هذا أمر يروِّع أولادي، الذين يتمتمون: «ما هذه الشهرة المخيفة؟». الفضل في هذه الشهرة ليس عائداً إلى بن لادن فقط، وإنما أيضاً إلى ظهوري المتكرر على شاشات التلفزة العربية والعالمية متحدثاً عن قضايا العرب والمسلمين بجرأة غير مألوفة.

حين ذهبت إلى تورا بورا عام 1996 للقاء أسامة بن لادن ورجاله في مكان اختبائهم، لم تكن لدي فكرة كم أن المقابلة ستقوم بتغيير حياتي ومسار عملي بذاك الشكل المثير. طبعة «القدس العربي» التي نشرت المقابلة نفدت من الأسواق خلال دقائق من عرضها في المكتبات والأكشاك. وقد تعرضت لسيل من الاتصالات الهاتفية من كلِ أنحاء الشرق الأوسط تطلب

طبعات جديدة. صديق سعودي كان يدَّعي خلافاً معي كسر صمته واتصل بي، طالبا خمس نسخ، واحدة منها لأمير كبير من العائلة المالكة. منتهزو الفرص قاموا بنسخ صور للمقالة جرى تداولها بالأيدي بأعداد هائلة. العالم الإسلامي كان، على ما يبدو، مسحوراً بأسامة بن لادن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قليلون يمكن أن يوافقوا على الأساليب الدموية التي يستخدمها زعيم القاعدة، ومن المحتمل أن الغالبية في العالم الإسلامي لا تتمنى العيش تحت نوع الحكم الشرعي الصارم الذي يستلهمه، لكن الغرب لا يزال يفشل في فهم أن الرجل أصبح شخصية رمزية عالية في العديد من البلدان الإسلامية. ويستحق الأمر استرجاع مختصر لسيرته في هذا السياق وتحديد دقيق للصدى القوي الذي صار هذا الرجل يبعثه بين أقرانه.

ولد أسامة بن لادن في الرياض، السعودية في 10 آذار/مارس 1957. والده، محمد بن لادن، كان قد بدأ كعامل حين انتقل من اليمن إلى السعودية لكنه سرعان ما أظهر كل الذكاء والجسارة اللذين يشتهر بهما أهل بلاده في كل أنحاء العالم العربي، إذ أسس شركة بناء خاصة به وجمع بسرعة ثروة مستفيداً من الازدهار العمراني المدعوم بالبترودولار في المملكة. تعرَّف محمد إلى التي سوف تصبح أم أسامة بن لادن، عالية غانم، حين كان في رحلة عمل إلى اللاذقية في المنطقة الساحلية من سورية عام 1956. حين جعلها زوجته الرابعة بعد فترة قصيرة من ذلك، كانت تلك زيجته التاسعة، حيث إنه كان قد طلَّق ست مرات قبل ذلك. كانت عالية جميلة جداً بكل المقاييس، وحين ولد أسامة بن لادن بعد سنة من ذلك، ورث معالمها الجميلة. عالية ومحمد تطلقا حين كان أسامة طفلاً صغيراً لكنها تزوجت مجدداً، هذه المرة إلى محمد عطاس وهو سعودي من أصل حضرمي وينتمي إلى السلالة الهاشمية. وأنجبت منه ثلاثة صبيان وبنت.

رغم أنه كان الابن الثالث والأربعين بين ثلاثة وخمسين ابناً، فإن أسامة بن لادن كان مفضلاً لدى والده الذي توفي حين كان هو في العاشرة من عمره فحسب. أفراد من العائلة أخبروني أن أسامة بن لادن لم يكن يلعب مع الأطفال الآخرين وكان يفضل الجلوس ساكتاً مع والده، وكان غالباً ما يُرى وهو يقرأ القرآن. حين سألته عن طفولته، تذكَّر أسامة بن لادن كيف كان غالباً ما يرافق والده إلى مواقع البناء، وفي سن مبكرة انضم إلى العمال، ليعمل في الشوارع والأبنية بقدر ما كانت قوته تسمح له بذلك. كان فخوراً خصوصاً بحقيقة أن أباه كان مسؤولاً عن خطط البناء والصيانة للجوامع في مكة والمدينة وأنه فاز بعقد لترميم قبة الصخرة في القدس. بالنسبة لأسامة بن لادن، كانت طبيعة عمل والده «بركة ربانية»، أكثر منها مكافأة، «الثواب

الربَّاني»، هو ما كان مهماً. هذا أمر مهم في سياق عدم الاهتمام بالثروة أو بالراحة المادية التي كشف عنها أسامة بن لادن في حياته اللاحقة.

بات محمد بن لادن مليارديراً في منتصف الستينات، وقد حصل على نفوذ كبير داخل العائلة المالكة. حين اختلف الملك سعود مع أخيه وولي العهد فيصل، كان محمد بن لادن بين أولئك الذين أقنعوا سعود بأن يتنازل لصالح فيصل. من المؤكد أن مقتل أبيه في حادث تحطم طائرة كان مزعجاً بشكل فظيع بالنسبة لأسامة ابن العشر سنوات. أخبر الملك فيصل الأطفال اليتامى أنه صار مسؤولاً عنهم منذ ذلك الحين، لكن أسامة قرر أن يقضي وقتا أطول مع أمه وعائلة عمه زوج أمه. ربما كشف هذا نفوراً مبكراً من آل سعود الذين سيصبحون لاحقاً أعداء الحياة والموت.

نادراً ما التقيت رجلاً عربياً يتحدث بشكل طيب عن زوج والدته، لذلك فوجئت حقاً بالمودة التي عبَّر عنها أسامة بن لادن نحو محمد عطاس خلال الفترة التي قضيتها معه. محبة بن لادن لوالدته استثنائية حقاً، وهي، أيضا، تحب ابنها وتتابع سيرته كمطارَد بشكل غير طبيعي، وتسجل ظهوره في التلفزيون وتجمع القصص التي ترويها الصحف عنه. سيستغل السعوديون هذه المسألة لاحقاً حين كانوا، في النصف الثاني من التسعينات، يحاولون إعادة بن لادن إلى المملكة ليعتذر للعائلة المالكة التي اتهمها بأنها غير إسلامية. عالية، مع مبعوثين رفيعي المقام من أقاربه، أرسلوا إلى السودان وأفغانستان في طائرة خاصة تسع مرات على الأقل، بحسب بن لادن، لكنه رفض الخضوع.

قال لبيتر أرنيت في مقابلة مع قناة السي إن إن بُثت في 10 أيار/مايو 1997: «اعتذرت من عائلتي لأنني عرفت أنهم دُفعوا بالقوة للمجيء والحديث إليَّ». السي آي إيه أيضاً كانت عالمة بالعلاقة الوثيقة بين الأم والابن، ولهذا السبب، لم يتمكن هذان الاثنان من اللقاء لعشر سنوات تقريباً.

تزوج أسامة بن لادن ابنة عمه، نجوى غانم، حين كان في السابعة عشرة من عمره وانجبا أحد عشر ابناً وابنة. تزوج بعد ذلك أربع مرات أخرى، مطلقاً واحدة من زوجاته، أم علي، بناء على طلبها لأنها لم تستطع أن تتعايش مع طراز الحياة المتقشفة التي يتوقع من عائلته مشاركته إياها. ابن بن لادن الأكبر، عبد الله، عاد أيضاً إلى السعودية بعد جدال مع أبيه قام خلاله بتأكيد حقه في التمتع بالرفاهية والثروة اللتين يمكن أن يحصل عليهما، وهو ما اعتبره «منَّة من الله». أخبرني بن لادن أن ذلك جرحه بعمق. حين التقيته كان لديه أحد عشر ابناً وثلاث عشرة بنتاً.

عادت نجوى إلى بلدها سورية مع بركاته وأخبرني أن زوجاته الثلاث الباقيات يعشن بانسجام تحت سقف واحد.

درس بن لادن الاقتصاد وإدارة الأعمال في جامعة الملك عبد العزيز في جدة وتابع تطوره الديني.

كان معلموه رموزاً إسلامية مشهورة مثل محمد قطب ود. عبد الله عزام. والأخير هو من عرَّف أسامة بن لادن إلى السياسة وخصوصاً إلى الوضع في أفغانستان التي غزاها الجيش السوفياتي عام 1979. شدد عزام على الضرورة الدينية للجهاد لتحرير «إخوانهم المسلمين من الاحتلال الأجنبي». ومع حلول عام 1982، كان أسامة بن لادن قد انتقل إلى أفغانستان حيث قضى بشكل أو آخر معظم وقته محارباً مع «الأفغان العرب» جنباً إلى جنب مع المجاهدين الأفغان.

بدأت بسماع تقارير عن أنشطة بن لادن في أفغانستان ولاحظت أن شيئاً غير عادي كان قائماً على قدم وساق. في ذلك الوقت كان بن لادن مليونيراً، وقد دفع ثمن أسطول من آلات البناء الثقيلة وجهز انتقالها إلى حيث يقيم في جبال هندكوش البعيدة. وصول البلدوزرات وآلات الثقب والحفارات نقل حملة المجاهدين إلى مستوى أعلى. حينذاك سمعنا عن فتح طرق في الجبال التي ما كان يمكن تنقل العربات فيها قبل ذلك ومتاهات من المعسكرات المخبأة مثل ذلك الذي في تورا بورا الذي زرته عام 1996. هذا الأمر من دون أدنى شك ساهم بهزيمة الغزاة السوفيات عام 1989.

شيء آخر سحرني: المجاهدون الزائرون بدأوا بالحديث عن طريقة تفكير جديدة بين الأفغان العرب. كان أسامة بن لادن من ضمن مجموعة من الإسلاميين الذين كانوا يطورون رؤية أوسع لا يتعلق بها الجهاد فقط، أو ينتهي، بالحرب المحلية في أفغانستان. مع عام 1986، بدأ بن لادن بتأسيس مخيمات التدريب الخاصة به في أفغانستان، وشهد عام 1988 تأسيس التنظيم الجنيني للقاعدة الذي انتقلت قيادته العامة إلى السودان، مع أسامة بن لادن، عام 1991.

بعد الحرب الأفغانية، عاد أسامة بن لادن لفترة قصيرة إلى السعودية عام 1990 وقد جرى الاحتفاء به في البداية كبطل، لكنه مع دعوة الحكومة السعودية لنصف مليون جندي أميركي إلى أراضيها للدفاع عن الكويت ضد جيش صدام حسين، انزعج أسامة بن لادن، رُفض عرضه لتجنيد جيش من 100 ألف من محاربي الأفغان العرب لمساعدة الكويتيين بدلاً من السماح لجيش «الكفار» بالتواجد في «الأرض المقدسة». كراهيته التي لا هوادة فيها للولايات المتحدة (ومعارضته الصريحة للنظام السعودي) تعود إلى تلك المرحلة. وقد بدأ بإلقاء خطب ضد الأميركيين في المساجد السعودية، رابطاً بين الولايات المتحدة واضطهاد إسرائيل المستمر للفلسطينيين. رجل الدين السعودي الشيخ بن عثيمين أصدر فتوى تحث المسلِمين على الاستعداد

للحرب مع «الغزاة»، وبثَّ بن لادن هذه الدعوة، مشجعاً الشباب السعوديين على التدرب العسكري في أفغانستان. صار بن لادن يُعتبر تهديداً أمنياً للحكم السعودي ووُضع تحت الاعتقال المنزلي. صودر جواز سفره، ولكن تحت ذريعة تصفية بعض الشؤون التجارية غادر إلى باكستان ولم يعد بعد ذلك أبداً.

استلم حزب الإنقاذ الوطني الإسلامي الثوري السلطة في السودان عام 1989 بعد انقلاب عسكري وشرع بن لادن في تأسيس ملجأ آمن هناك لقدامى محاربي الأفغان العرب الذين ما كانوا قادرين على العودة إلى بلادهم، مثله تماماً. انتقل خبر أن القاعدة كانت تؤمن بيوتاً ووظائف في السودان وانتقل مئات من الجهاديين إلى هناك مع عائلاتهم إلى بيوت استأجرها التنظيم لهم. اشترى تنظيم القاعدة أيضاً العديد من المزارع حيث استُخدمت بعض الأراضي للتدريب العسكري. قامت القاعدة بهجماتها الأولى على أهداف أميركية خلال تلك الفترة: الأول كان عام 1992 حين قُصف الجنود الأميركيون الذين كانوا بطريقهم إلى الصومال، في فندق غولدموهر في عدن، اليمن، فقُتل ثلاثة أشخاص وجُرح خمسة؛ الثاني حصل في مقديشو، الصومال، وجرى تخليده عام 2001 في فيلم هوليودي هو «فجر الصقر الأسود»، الذي أخرجه ريدلي سكوت. حتى مقابلتي مع أسامة بن لادن عام 1996، لم يكن أحد يعلم عن تورط القاعدة في معركة مقديشو التي دمِّرت خلالها طائرتا هليكوبتر بلاك هوك أميركيتان ولحقت أضرار كبيرة بثلاث أخرى بقذائف آر بي جي. أكد أسامة بن لادن أن أبو عبيدة البنشيري (قائد القاعدة العسكري الذي غرق لاحقاً في حادث عبَّارة في بحيرة فكتوريا) قاد رجال القاعدة الذين شاركوا في الهجوم الذي خططوا له بالتعاون مع زعيم الحرب الصومالي الجنرال محمد فارح عيديد. سبعة عشر جندياً من سلاح الطيران الأميركي ماتوا في المعركة وسبعة وثلاثون جُرحوا؛ إدارة الرئيس كلينتون ردت بانسحاب سريع من كل القواعد العسكرية الأميركية في الصومال. أخبرني أسامة بن لادن أنه أسف لأنهم «هربوا» لأنه كان قد «أعد خططاً أخرى لهم».

أظهر رجال أسامة بن لادن أنهم قادرون على تحدي وضرب القوة العالمية العظمى في عقر دارها. مع ذلك، فإن معظم وقت أسامة بن لادن في السودان قضاه وهو يطور عقيدة التنظيم السياسية وفي مشاريع مختلفة للبناء والزراعة موَّلها بنفسه بنية حسنة، فكلفته ما يقارب 165 مليون دولار قبل أن يدرك أن الرئيس السوداني البشير غير قادر على الوفاء بهذه الديون. أخبرني أسامة بن لادن أن السودانيين عرضوا عليه تعويضاً عينياً من الماشية والحبوب وقد فاجأني بحسه الفكاهي حين تساءل عمَّا يُفترض به أن يفعل بهذا التعويض ومن سيشتري ماشية وذرة من أسامة بن لادن! كان وقتها قد أصبح ضمن قائمة المخابرات الأميركية لأهم المطلوبين حين أُجبر على

مغادرة السودان عام 1996؛ لم يستطع الرئيس البشير تحمل الضغط المتزايد من مصر والسعودية والولايات المتحدة، فاضطر للتخلص من الضيف الخطير.

عاد أسامة بن لادن إلى أفغانستان حيث شكَّل في البداية حلفاً غير مستقر مع حركة طالبان الحاكمة وأسس قاعدته ومخبأه في جبال تورا بورا، وبالنسبة للكثير من المسلمين، كان بن لادن يتحول إلى الشخصية الأسطورية التي هو عليها الآن؛ ملياردير ترك كل أشكال الراحة المادية في سبيل حياة من المشاق والحرمان من أجل عقيدته الفكرية. وهذه العقيدة كانت إسلامية قومية عربية، شاملة، تحوِّل أفراداً محرومين وشعوباً يائسة إلى أمة إسلامية واحدة. العديدون من هؤلاء الذين انجذبوا إلى القاعدة ذكروا حقيقة أن «الجنسية لم تكن أمرا مهمَّاً»، وهذه كانت إحدى النقاط الجاذبة في عالم قابل بسهولة للانقسام لأقوام وأعراق. إضافة لذلك، كان بن لادن مقاتلاً، وانتشرت قصص عن شجاعته في المعارك في أفغانستان بشكل واسع. وحيث إن الولايات المتحدة، بعد سنوات من التدخل من أجل مصالحها في سياسات المنطقة، تُعتبر بالنسبة للعديد من المسلمين مصدراً لكل المشاكل، فإن قدرة القاعدة على شن هجمات ناجحة ضد القوة العسكرية العظمى في العالم كان مؤثراً بحيث استجاب آلاف الشبان لدعوة بن لادن لهم لامتشاق السلاح.

في الغرب، أثناء ذلك، ورغم أن بن لادن كان بالتأكيد تحت رصد رادارات المخابرات الأميركية، فإنه بقي مجهولاً نسبياً خلال فترة التسعينات، مع أن بعض الصحافيين كانوا يشيرون إلى صعوده وأهميته في العالم العربي. منذ البداية كان بن لادن مدركاً أهمية الإعلام، فكان يختار عدداً قليلاً من الصحافيين، عارضاً عليهم مقابلتهم مستنداً في عرضه على أعمالهم وفهمهم السياسي. روبرت فيسك كان أول من قابله في السودان عام 1993، كما قابله لاحقاً في أفغانستان عام 1996؛ الكاتب ومقدم البرامج الأميركي، بيتر بيرغن، قام بالمقابلة المتلفزة الأولى لقناة سي إن إن عام 1997. كنت معروفاً ضمن مجموعة صغيرة من المختصين في الغرب حين كان يجري الاتصال بي للتعليق، أو من أجل المعلومات أو الأشخاص، لكن شهرتي كانت بسيطة نسبياً. كل ذلك تغير بعد أحداث 11/9؛ قامت صحيفة «الغارديان» بإحياء قصة رحلتي ونشرت ترجمة إنكليزية لمقابلتي مع بن لادن. وظهرت صورة لي مع زعيم القاعدة على الصفحة الأولى للقسم الثاني في الصحيفة وجرى توزيع النص في كل أنحاء العالم. كنت قد كتبت في مكان آخر من هذا الكتاب كيف أن صحافة العالم «خيَّمت» أمام مكاتبنا لعدة أيام بعد هجمات نيويورك وواشنطن، وبليلة واحدة أصبحت شخصية إعلامية عالمية و«خبيرا عالمياً» في القاعدة.

كتابي التاريخ السري للقاعدة نُقل إلى أكثر من عشرين لغة، وكان من الكتب الأكثر مبيعاً في العديد من البلدان. بينما كانت رحلتي إلى تورا بورا جيدة مهنياً لي، وهو أمر لا أستطيع نكرانه، فإنها جلبت لي العديد من المتاعب أيضاً. في شباط/فبراير 2003، دُعيت كضيف خطيب إلى جمعية كتَّاب الكومنولث في سري لانكا. في فترة الأسئلة والأجوبة التي تبعت الكلمة، سألني صحافي آسيوي أن أصف شخصية بن لادن كإنسان. قارنته بشخصية بوذا لأنه قام بنبذ كل ثروته وممتلكاته، وبالمهاتما غاندي الذي تحدث باسم الفقراء وعاش حياة متواضعة جداً وأضفت: «لكنه بوذا عنيف وغاندي عنيف بالتأكيد». في اليوم التالي، كانت المانشيتات في شبه القارة الهندية تصرخ بعناوين مثل: «رئيس تحرير عربي يقارن بن لادن ببوذا وغاندي»؛ وحذف الصحافيون كلمة «عنيف» الأساسية في جوابي. الأسوأ من ذلك أن القصة جرى بثها وتناقلها عبر العالم خلال ثمانٍ وأربعين ساعة. كان عليَّ أن أقوم بالكثير لأخفف الضرر، معيداً التأكيد على ما قلته، لكنني لا أزال أُواجه بهذا التشبيه الإشكالي الذي لم أكرره بعد ذلك أبداً. وبينما يؤدي الربط مع أسامة بن لادن، مهما كان قصيراً أو هشاً، إلى إعجاب في العالم الإسلامي، فإنه في الغرب مفتوح بشكل خطر على التأويلات الخاطئة.

لم أكن أنا الذي سعيت للتواصل مع القاعدة لترتيب مقابلة مع أسامة بن لادن - لا أحد كان قادراً على كسر الترتيبات الأمنية المعقدة التي يستخدمها التنظيم - لكنهم قاموا بالاتصال بي. يبدو أن قيادة التنظيم أُعجبت بمواقف صحيفة «القدس العربي» المستقلة، والتي كانت فريدة من نوعها في الإعلام العربي خلال تلك الفترة، لأننا استلمنا عام 1994 أول بلاغ من سلسلة بلاغات من أسامة بن لادن، ينتقد فيه بعض أنظمة الخليج، زاعماً أن بعض حكامها يسرقون ميزانياتها النفطية التي يجب أن يستفيد منها الشعب. قليل من الصحف الأخرى في العالم العربي كان يمكن أن تفكر بنشر هذه الأشياء. لا يزال لدي مجموعة من تلك البلاغات، والتي أُرسلت إليَّ بالفاكس ووقَّعها بن لادن، بما في ذلك «إعلان الجهاد ضد الأميركيين المحتلين لأرض الحرمين الشريفين» الذي وصلني في آب/أغسطس 1996 قبل فترة قصيرة من المحاولات المترددة التي كانت تُجرى لترتيب زيارتي إلى تورا بورا. عندما انتقلت إلى استخدام الإنترنت، أرسلت القاعدة كل بلاغاتها إلينا: آخر ما وصلنا زعم مسؤولية التنظيم عن تفجيرات القطارات في مدريد. لم يكن تنظيم القاعدة وحيداً في اختيارنا: صدام حسين أرسل إلينا بالفاكس بلاغات مطولة كتبها بخط يده بعد اختفائه بعد سقوطه بغداد وقيادته المقاومة العراقية ضد الاحتلال خلال وبعد غزو الولايات المتحدة 2003 للعراق. بالنسبة لي، كان هذا دور الصحافة الحر، غير الخاضع لرقابة، والموضوعي الذي أطمح إليه، لكن كل الناس لم ينظروا إلى ذلك بالطريقة نفسها.

مع بداية عام 2004 تمت دعوتي إلى «أوريلي شو» على قناة فوكس نيوز. يفضل بيل أوريلي الأسلوب العدائي جداً في المقابلة التي أصبحت مدرسة من أبرز نجومها جيرمي باكسمان، حيث يحتفظ عادة بالضربة الكبرى إلى النهاية آملاً في إحراز ضربة قاضية. بالنسبة لي، فقد سألني فجأة لماذا اختار تنظيم القاعدة وصدام حسين (الذي كان مطارداً في ذلك الحين) صحيفتي لنشر بياناتهما، متهماً إياي بالتعاطف مع المطلوبين من العدالة والمتطرفين. أجبته: «صدام شخص علماني ويساري وأسامة بن لادن إسلامي ومحافظ. إذا استلمت بلاغات من هذين القابعين على طرفي نقيض فهذا يعني أنني في الوسط، أليس كذلك؟». للحظة بدا أن أوريلي تراجع. استغليت تقدمي عليه. تابعت: «إذا استلمت فوكس نيوز شريط فيديو من أسامة بن لادن غداً فيه صور خاصة لها، وبذلك تنفرد بنشرها، هل تخبرني حقاً أنكم ستقولون لساعي البريد: لا، شكراً، لا نريدها. اذهب بالشريط إلى محطة سي إن إن أو آي بي سي المنافستين؟». رد أوريلي بغمغمة وانتهت المقابلة. وهذا كان من أبرز انتصاراتي التلفزيونية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عش النسر

في تشرين الثاني/نوفمبر 1996، أصبحت واحداً من قلة من الصحافيين المقيمين في الغرب الذين استطاعوا مقابلة أسامة بن لادن والوحيد الذي يُدعى لقضاء فترة مهمة من الزمن معه في عرينه الجبلي العالي «عش النسر». لقد كتبت بشكل موسَّع عن هذا الوقت في «عش النسر» والمحادثات الرائعة التي أجريتها مع أسامة بن لادن في كتابي التاريخ السري للقاعدة ولا أرغب هنا في أن أعيد كتابة ذلك لأسباب قانونية ومنعاً للتكرار أيضاً، لكنني سأصف باختصار تلك الرحلة الخطيرة.

لا أزال غير متأكد لماذا قام أسامة بن لادن ومساعدوه الأساسيون باختياري أنا لاستضافتي دون الصحافيين العرب لهذا اللقاء الخاص والفريد. فأنا بالتأكيد لم أعبِّر عن أي نوع من أنواع التعاطف مع أهدافهم، رغم أنني أقرُّ بأنني كنت مذهولاً باستراتيجيتهم العالمية والتي كانوا قد بدأوا بتطويرها والتعبير عنها منذ 1996. لاحظت أن هذه كانت معارضة من نوع جديد تماماً وغير متوقع وملتزم بشكل كامل، ضد السيطرة الأميركية المتزايدة. اكتشفت لاحقاً أن بن لادن ود. أيمن الظواهري أعجبا بنقدي الصريح لأنظمة شرق أوسطية ومعارضتي لحرب عام 1991. إضافة إلى أن صحيفتي كانت الصوت المستقل الحقيقي الوحيد في الإعلام العربي خلال ذلك الوقت وقد فكَّرا بأنني سأقوم بالكتابة بشكل موضوعي ودقيق حول ما سأجده هناك - ولم أخيِّب أملهما.

لا بد من الاعتراف هنا بأنني كنت معارضاً بشكل متطرف للهيمنة الأميركية على المنطقة تحت عنوان تحرير الكويت، مثلما كنت مشككاً بالنوايا الأميركية الرامية إلى حصار العراق وتجويع خمسة وعشرين مليوناً من أبنائه، وتجريده من أسلحة الدمار الشامل. وكان يخامرني اعتقاد راسخ بأن الهدف هو خدمة إسرائيل وإبقاؤها القوة النووية الوحيدة في المنطقة بلا منازع، وتدمير أي مشروع خطر مستقبلي على وجودها، والعراق كان يشكل هذا الخطر.

الاتصال الأول مع أسامة بن لادن كان عن طريق ممثله في لندن خالد الفواز، الذي كان حوَّل سؤاله بشكل عرضي جداً إن كنت أرغب أن أقابل «الشيخ» إلى حديث آخر مختلف تماماً. لم يكن أسامة بن لادن سيئ السمعة في ذلك الوقت لكنه كان مطلوباً من قبل الكثير من أجهزة الاستخبارات العالمية، بما فيها السي آي إيه، وكان هناك جائزة 5 ملايين دولار لاصطياده. عرفت أن الرحلة ستكون مليئة بالمخاطر وصعبة، حيث إن أفغانستان كانت ربما أكثر بلدان العالم خطورة خلال ذلك الوقت. علمت أيضاً أنني قد أتعرض لخطر من السي آي إيه - إذا قاموا بتعقب أثري ثم بالهجوم - ومن رجال بن لادن لو أنني كشفت من دون قصد مواقع قيادة القاعدة بسبب عدم الحذر من ناحيتي.

طلبت من الفواز أن يعطيني ثمانية وأربعين ساعة لأقرِّر، وتصارعت مع سيناريوهات كابوسية عن ترك أولادي أيتاماً، وزوجتي أرمل وصحيفتي بلا رئيس تحرير. مع ذلك، كصحافي له أكثر من عشرين عاماً من الخبرة، علمت أن عليَّ أن أذهب.

كان هناك سبب آخر لقبولي بتلك المهمة الخطرة. نحن الصحافيين العرب قمنا لزمن طويل بانتقاد أنفسنا لتمنعنا عن ترك راحة ورفاهية فنادق الخمس نجوم وقد تجنبنا دائماً المناطق الخطرة لتغطية الأحداث والحروب بطريقة مهنية. وقد أُعجبنا دائماً بأقراننا الغربيين المستعدين دائماً لوضع أنفسهم على خط النار. لم أكن مراسلاً شاباً يريد أن يثبت نفسه، لكنني أردت أن أكون رائداً في مجال شجاع من الصحافة بحيث أكون مثالاً لزملائي في «القدس العربي».

عرفت أن سرِّية الرحلة قضية أساسية وأنني لن أكون قادراً على إخبار عائلتي أو زملائي إلى أين كنت ذاهباً فعلاً. لقد كنت دائماً أثق بأن الحظ يلعب دوراً مهما جداً في النجاح الصحافي، وهذا ما حصل. فقد دعتني قناة الجزيرة إلى قطر للمشاركة في حوار تلفزيوني في الوقت المناسب. أخبرت كل من أعرفه أنني ذاهب إلى قطر ثم إلى دبي «لأستريح» لعدة أيام. وحيث إنني لا «أرتاح» أبداً، والجميع يعلمون ذلك، فإن هذا أدى إلى بعض التحقيق الخفيف معي، وكنت في بعض الأحيان أضطر لأكون جافاً وفظاً، وهو أمر ليس من صفاتي، لأوقف تدقيقاً معمَّقاً. لم تكن زوجتي، باسمة، لتتراجع بسهولة. رغم أنني أسافر بشكل منتظم، وهو وضع تتقبله عادة من دون اعتراض، فلا بد أنها تلك المرة قد توجست أن شيئاً غير اعتيادي كان يجري.

«ماذا تريدني أن أضع في حقائبك؟»، سألتني، وهي تفتح الحقيبة الصغيرة التي عادة ما آخذها في أسفاري. كانت تعليمات صارمة قد وصلتني بألا أحمل أي شيء معي، ربما لأسباب أمنية خوفاً من إخفائي سلاحاً أو وسيلة تعقُّب.

- «لا شيء، أجبتها.

- لا شيء؟ حدجتني باسمة بنظرة استفهامية.

- حسناً... بعض القمصان، وربما ربطتا عنق.

- ملابس سباحة؟ سألت باسمة، وهي تلتقطها من الدرج.

- لا!».

أعادت باسمة وضعها على السرير واستدارت نحوي.

أشارت إلى حجتي، قالت:

- «لقد قلت إنك ذاهب إلى دبي للراحة، ألن تقوم بالسباحة والتشمُّس هناك؟

- ربما...!».

كان صعباً عليَّ أن أكذب عليها أو على أي إنسان آخر، فتقاطيع وجهي تخذلني وتكشف ما أريد إخفاءه. وقد جرت العادة أن أحرص على أخذ شورت السباحة معي أينما ذهبت، لأنني أحب هذه الهواية من قبيل الترويح والرياضة معاً. كيف أشرح لزوجتي أنني ذاهب إلى بلد (أفغانستان) لا توجد فيه بحار أو ليس له حدود بحرية، ولا توجد فيه فنادق أساساً ناهيك عن فنادق خمس نجوم؟ أنا ذاهب إلى البلد الأخطر في العالم في ذلك الوقت، وسأكون في ضيافة الرجل الأكثر خطورة أيضاً، والمطلوب رقم واحد على قائمة الإرهاب الدولي. كيف أشرح ذلك؟ إنها مهمة صعبة للغاية إن لم تكن مستحيلة!

لم يقدم لي خالد الفواز أي تلميح حول كيفية إجراء المقابلة. كل ما علمته هو أن عليَّ أن أكون في فندق بيرل كونتيننتال في بيشاور، باكستان، في وقت محدد بيوم محدد، وأنه عند وصولي عليَّ أن أتصل هاتفياً بشخص يدعى فيصل الذي أعطيت رقمه مكتوباً بقلم رصاص على قطعة ورق. إجراءات الرحلة نجحت بشكل مثالي. سافرت متخفياً من بيشاور إلى جلال آباد في ثياب أفغانية لتجنب الشبهات - قميص طويل، بناطيل منتفخة وعمامة بدت سخيفة تماماً عليَّ لأنني لم يكن لديَّ السلوك الفخور والملامح النسرية للبشتون الذين يلبسون هذه الثياب عادة. هذه الملابس أحضرها إليَّ فيصل وهو شاب سعودي من المدينة المنورة. عبرنا عدة سلاسل جبال في تشكيلة من أقدم سيارات العالم قادتنا فيها سلسلة متتابعة من السائقين العجلين، ونجونا عدة مرات بما يشبه المعجزة من التفافات حادة يشيب لها الشعر، ومنحدرات مرعبة وتساقط صخور، لنصل بعد أكثر من ست وثلاثين ساعة إلى معسكر «عش النسر» في أعماق كهوف تورا بورا.

كان الوقت ظلاماً حين وصلنا، لكنني استطعت بشكل غير واضح تبيُّن أشكال من الرجال المسلحين يتحركون بسرعة حولنا، والبخار يتصاعد من أفواههم وأنوفهم في هواء الليل البارد. كانت هناك عدة عربات مدرعة حول مداخل الكهوف محملة بمدافع الآر بي جي والرشاشات.

كان ذلك قبل منتصف الليل بقليل يوم 23 تشرين الثاني/نوفمبر حين دخلت إلى الكهف الذي كان فيه أسامة بن لادن جالساً القرفصاء على حصيرة مع بعض أتباعه، تبيَّنت بينهم مساعده، الرأس العسكري المدبر أبو حفص المصري، وأبو مصعب السوري. كانت لحظات أقرب للغرابة لأنني لم أكن قد رأيت هذا الوجه المعروف إلا في الصور. كان «الشيخ» يضع بندقيته الكلاشنيكوف في حجره (لم أره أبداً من دون سلاحه طوال الفترة التي

أقمت فيها هناك) لكنه وضعه إلى جانبه عندما قام للترحيب بي بابتسامة حارة. ضحك قليلاً حين انتبه إلى لباسي الغريب وتوقفت عيناه عند العمامة قبل أن يقوم بتعديلها لتصبح أنسب لمزاج العمل وقادني للجلوس معه، سائلاً عن مجريات رحلتي.

تحدثنا لبعض الوقت ونحن نتناول عشاء غير شهيٍّ مطلقاً من البيض المقلي والخبز القاسي. احتفظت بأسئلتي ذات الطابع السياسي إلى اليوم التالي ليكون ذهني أكثر اتقاداً بعد نوم جيد، لكنني بدأت بمحادثة فكاهية عن كيف يقضي رجاله أوقات فراغهم في تلك البيئة الصعبة. أسامة بن لادن يعشق الأحصنة وقد تمكَّن من الاحتفاظ بإسطبل مثير للإعجاب حتى في خلال فترة اختبائه: الظاهر أنه يقضي بعض الوقت خارج المعسكر، راكباً حصانه نحو البراري برفقة زوجاته الثلاث وأطفاله ليقيم سباقات للأحصنة والتهديف بالبندقية. فوجئت حين أخبرني الرجال أن أسامة بن لادن لاعب كرة يد بارع. «ذلك يعود لكونه طويلاً جداً»، قال أبو حفص واصفاً كيف أنه كان كابتن أحد الفرق فيما كان بن لادن الذي يبلغ طوله 6 أقدام و3 إنشات في الفريق المنافس له. كانت هناك مباريات منتظمة يقوم بمتابعتها كل المعسكر بحماسة.

ضحكُنا جميعاً ذكَّر أسامة بن لادن بوضوح بالقصة المثيرة للرعب، ولكن المضحكة مع ذلك، عن رحلتهم من السودان إلى جلال آباد في أيار/مايو تلك السنة. واحد من أكثر مرافقي بن لادن العسكريين موثوقية، سيف العدل المصري، كان ينسِّق شؤون الرحلة، التي تمت في سرية كبيرة بحيث أن قائد الطائرة الروسي نفسه لم يكن يعلم إلى أين كانوا ذاهبين. لم يكن قائد الطائرة جاهلاً مكان الهبوط فحسب، بل إنه لم يكن يتكلم أي كلمة عربية ولم تكن لديه أي فكرة عن جنسية ركابه - كلهم من رجال القاعدة المثقلون بالأسلحة. جلس سيف العدل في حجرة القيادة مع قائد الطائرة طوال الرحلة، ورشاشه موضوع على ركبتيه، وهو ينقِّب في الخرائط ويدقق في آليات التحليق، مطلقاً تعليمات شفوية بصوت عال مترافقة مع لغة الإشارات. بطريقة ما وصلت الطائرة الأنتينوف القديمة المستأجرة إلى مطار جلال آباد في أفغانستان حيث رحَّب بها وفد صغير من الإسلاميين.

سألتهم لماذا اختاروا أسلوب الحياة القاسي هذا. أخبرني أسامة بن لادن أن طموحه كان أن يعيش حياة أقرب ما تكون لحياة صحابة الرسول. لم يكن لديه اهتمام بالرفاهية أو حتى الراحة رغم أنه كان ملياردیراً. قال: «من الأفضل أن تعيش تحت شجرة في هذه الجبال بدلاً من القصور العظيمة، على أن تقوم بمساومات على دينك» (في إشارة إلى العائلة المالكة السعودية). قام بن لادن بتصوير الحياة على أنها امتحان للعقيدة وللصمود

ولطاعة الله؛ طلبه الوحيد هو الجنة، وقال إن الطريق الأسرع هو الشهادة (وقد عبَّر عن رغبته بالموت شهيداً عدة مرات خلال حديثنا). كما أنه تحدث عن الفشل العسكري لعدد من المنظمات التي يكون قادتها محبُّون للرفاهية وجنودها غير قادرين على تحمُّل المشاق العظيمة.

كان هناك شيء متناقض مع هذا الحديث، لكن دافعه التعاطف معي، حين أصر من استضافوني بلهجة متفهمة على أنني لا بد مجهَد من رحلتي الشاقة. أخذوني إلى سرير لأتشارك الكهف مع أسامة بن لادن نفسه. هذا «السرير» كان فرشة موضوعة على سرير مصنوع من فروع الأشجار وتحته عدد من صناديق الأسلحة، وترسانة كاملة من البنادق والرشاشات متدلية من السقف. هذا كله، بالإضافة إلى ديك أحول لا يكف عن الصياح، لم يسمحا بليلة نوم هانئة. لم تكن لدى بن لادن أي مشاكل من هذا النوع أو للنوم في مثل هذه الأجواء، فقد اعتاد عليها، بعكسي تماماً، فأخذته سنَّة من النوم مثل طفل حتى الفجر، فيما كلاشنيكوفه الخاص نائم إلى جانبه. أشهد بالله أنه كان نائماً مثل الطفل الوديع ولم يشخر مطلقاً.

في اليوم التالي تمشينا وحدنا في جبله الذي يحبه وأخبرني عن ماضيه، موضحاً عدداً من الألغاز (على سبيل المثال علاقة القاعدة بالهجمات على طائرتَي بلاك هوك في مقديشو التي أشرت إليها سابقاً). كما أوجز لي الاستراتيجيات طويلة الأمد لتنظيمه، التي قام بتطويرها عبر الزمن مع مخطِّطين استراتيجيين من المؤهلين علمياً وذوي الثقافة العميقة، ليس آخرهم د. أيمن الظواهري وأبو مصعب السوري. في رؤية استرجاعية، أستطيع أن أرى أن ذلك التخطيط الحذر والرؤية البعيدة كانا مفتاحاً لنجاح ذلك التنظيم، وأنا مذهول من عدد الأشياء التي أخبرني عنها قائد القاعدة والتي تحققت. في ذلك الحين كان أمراً غير معقول أن القاعدة يمكن أن تؤدي إلى إلحاق ضرر حقيقي ومستمر لقوة الولايات المتحدة العظمى واستنزافها مالياً وبشرياً وسياسياً. أسامة بن لادن قال إنه يريد أن يحارب الولايات المتحدة على الأرض العربية حيث يمتلك مجاهدوه اليد العليا؛ لفعل ذلك عليه أن «يدفعها»، أو بالأحرى يجرُّها لإرسال قواتها إلى المنطقة. هذا بالضبط ما حصل لاحقاً في أعقاب أحداث 11/9 حيث شنَّت الولايات المتحدة هجوماً واسعاً في أفغانستان ثم غزت العراق. في سبيل زيادة أعداد «الجيش الإسلامي» في البلاد العربية، ركَّزت أدبيات القاعدة على الوحدة الإسلامية والتأكيد على الإحساس بالانتماء لأمة إسلامية. بحسب الخطة المركزية للقاعدة، فإن الولايات المتحدة ستتمدد عسكرياً، بحيث تقاتل في عدة حروب على عدة جبهات، وتنخرط بالتالي في حرب استنزاف طويلة (كما حصل بالتأكيد في العراق وأفغانستان حيث استمرت المقاومة بلا هوادة). لخَّص لي أسامة بن لادن، الخبير بالاقتصاد، كيف أن التكلفة الكبيرة للحروب

ستستنزف خزائن الولايات المتحدة، مما يؤدي إلى سلسلة من التراجعات الاقتصادية تؤدي إلى إفلاسها وانهيارها المالي. نحن نعلم الآن أن الحرب في العراق وحدها كلفت الولايات المتحدة 3 تريليونات من الدولارات على المدى البعيد وأنها لا تزال تواجه ركوداً طويلاً.

سألت أسامة بن لادن عن النتيجة النهائية لهذه المواجهة مع الغرب، فنظر إلى الجبال المكللة بالثلوج بابتسامة هادئة وشرح لي كيف ستسقط «الأنظمة العربية المكروهة والفاسدة»، ويتحرر المسلمون بحيث يتفرغون «لمحاربة الكفار كلهم». وأخيراً، بحسب رؤيته للأمور، فإن خلافة عالمية ستتأسس. يملك أسامة بن لادن جاذبية شخصية كبيرة وهو يتحدث بهدوء ولطف، مبتسماً ابتسامات مطمئنة بشكل مستمر. رغم أنني لا أتفق مع تأويلاته، فإنني أعتبره مرجعية دينية وقائداً يملك تفهماً استثنائياً ومعرفة بقضايا الشريعة. لهذا السبب، حين كتبت انطباعاتي عن تلك الرحلة، أشرت إليه باعتباره شيخاً، وكنت أول شخص يقوم بذلك في الصحافة المطبوعة. لقب الشيخ هو تعبير عن الاحترام لكبار العمر، وللقادة الدينيين أو لكبار الأغنياء. أسامة بن لادن، في الواقع، يملك هذه الصفات كلها، وقد التزمت بهذه الصفة رغم اعتراضات صاخبة من شيوخ الخليج الذين أحسوا أنه يقوم باغتصاب مراكزهم ومصداقيتهم ويشوِّه صورتهم وينتزع لقباً لا يستحقه.

استمر حوارنا حتى الليل وصولاً إلى عشاء آخر لا يمكن استساغته. في الصباح، كان عليَّ النهوض عند الساعة الرابعة صباحاً من أجل صلاة الفجر. أعطوني سطلاً من الماء الفاتر، وقالوا: «هيا للوضوء يا شيخ عبد الباري». سألت: «أين المرحاض؟». قالوا هل تعتقد أنك تقيم في فندق شيراتون؟ اذهب إلى الغابة وتوضأ. خرجت من الكهف لأواجه برداً زمهريراً، فقد كانت درجة الحرارة تحت الصفر بحوالي عشرين درجة. لا أعرف كيف توضأت، وكل ما أعرفه أن رجليَّ تجمَّدتا وكذلك أطرافي الأخرى، وأمَّ فينا الشيخ أسامة نفسه.

لكن رغم مصاعب الحياة في «عش النسر»، كنت شبه آسف حين حان الوقت للمغادرة وتبادلنا تحايا الوداع. لم أتحدث مع أسامة بن لادن مرة ثانية، فبسبب احتياطاته الأمنية، كان بن لادن لا يستخدم الهواتف النقالة ولا يستخدم أي أداة إلكترونية، لكن رجاله ظلوا على اتصال معي إلى أن قامت المخابرات الأميركية بتطبيق أسلوب مراقبة متطورة بحيث أصبح أي نوع من الاتصالات الهاتفية خطيراً جداً بالنسبة إليهم. بعد نشري ما حدث لي في تورا بورا في «القدس العربي» وصلتني مكالمة من أحد رجال «عش النسر» الذي لم يعط اسمه. قال: «حين تحدثت عن العشاء الرهيب الذي أكلتموه،

انفجر الشيخ بالضحك. لقد وعد بأنه إذا التقيتما مرة أخرى فسيقيم مأدبة مع خروف محشي لأجلك».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نتائج

عام 1998، أعلن أسامة بن لادن ود. أيمن الظواهري تأسيس «الجبهة الإسلامية العالمية للجهاد ضد اليهود والصليبين» في مؤتمر صحافي انفردت صحيفتي بنشر تفاصيله عند ذلك. حين قامت هذه المظلة السياسية بأول هجماتها ضد سفارات الولايات المتحدة في دار السلام ونيروبي في 7 آب/ أغسطس 1998، أعلنت مسؤوليتها عنها في إعلان ظهر في صحيفتنا. ردت الإدارة الأميركية بقصف قواعد بن لادن في أفغانستان، وبعد فترة قصيرة تلقيت اتصالاً هاتفياً شخصياً من أبو حفص المصري، الذي أخبرني أن هجوم الولايات المتحدة قد فشل: بن لادن وكل قادته الأساسيين لا يزالون على قيد الحياة. أضاف: «الشيخ أسامة بن لادن لديه رسالة لرئيس الولايات المتحدة بيل كلينتون: سينتقم من هذا الهجوم بطريقة مذهلة وسيؤدي ضربة هائلة لأميركا تهزها من أساساتها، ضربة لم ترَ مثلها من قبل». نشرتُ هذه الرسالة لكنني لا أنا ولا أحد من خبراء القاعدة خمَّن أن التنظيم قادر على هذا المستوى من التدمير الذي تعرضت له نيويورك وواشنطن بعد ثلاث سنوات فقط.

نتيجة للأيام الثلاثة التي قضيتها في تورا بورا ونشر كتابي التاريخ السري للقاعدة يبدو أن اسمي صار الآن مرتبطاً بشكل لا يمكن فصمه مع أكثر رجل مطلوب في العالم. نتيجة ذلك حصلت عدة تشعبات غريبة وغير متوقعة بتاتاً: في كانون الثاني/يناير 2008، على سبيل المثال، تلقيت مكالمة هاتفية محيِّرة من قناة سي بي إس تتعلق بعمر بن لادن، أحد أولاد أسامة بن لادن التسعة عشر الذي كان موضوع الكثير من اهتمام الصحافة بعد زواجه من امرأة تكبره بأكثر من ثلاثين عاماً ومطلقة من عدة زيجات تدعى جين فيليكس - براون، والتي اتخذت لها اسماً عربياً جديداً هو زينة. عمر، على ما يبدو، أخبر العاملين في سي بي إس أنه لن يعطيهم مقابلة من دون «موافقتي»، وكان اتصالهم للحصول على هذه الموافقة. أجبت: «لكنني لم أقابل أياً منهما، أنا لست وكيلاً لعائلة بن لادن!».

منذ طباعة كتابي الذي نشر عام 2006 تعرضت لعدد كبير من المشاكل في ما يتعلق بدخولي إلى الولايات المتحدة ولم أستطع الذهاب إلى واشنطن تلبية لدعوة من مؤسسة «نيو أميركان فاونديشن» للمشاركة في مؤتمر نظمته حول تنظيم القاعدة بحضور عدد كبير من الخبراء. فقد رفضت السفارة في لندن منحي تأشيرة الدخول. وعندما أذاع المنظمون نبأ هذا المنع على الهواء مباشرة، حيث كانت وقائع المؤتمر تبث على شاشة قناة بي. بي.إس الأميركية، اتصل مسؤول في الخارجية وطلب التصحيح وقال إنني لم أُمنع من الدخول وإن طلبي لا يزال قيد البحث.

في المرة الثانية دعتني جامعة هارفارد للمشاركة في مواجهة مع ريتشارد بيرل (أمير الظلام مثلما كان يسمى)، أحد صقور المحافظين الجدد بحضور نخبة من الطلبة والأساتذة. تقدمت للسفارة في لندن للحصول على الفيزا فاصطحبوني إلى غرفة مظلمة وأخذوا بصماتي مثل المجرمين!

في أيلول/سبتمبر 2007، دُعيت للحديث في مهرجان بريزبان للكتاب؛ رغم تقديم طلب تأشيرة الدخول قبل وقت كاف، لم أكن قد حصلت عليها مع حلول وقت سفري إلى مدينة بريزبان. واستمر ذلك إلى أن بدأت الصحافة الأسترالية بنشر القصة التي صوروها (بشكل صحيح، كما أعتقد) كمثال عن الإسلاموفوبيا، بحيث إن السفارة اضطرت لإصدار التأشيرة خلال أربع وعشرين ساعة. وعلمت أن حكومة هوارد اليمينية في ذلك الوقت تعرضت لهجمات شرسة من قبل النواب في البرلمان بسبب عدم منحي الفيزا واضطرت الحكومة للتراجع عن قرارها. حضرت المهرجان لكنني كنت متأخراً يومين عن توقيت كلمتي مما اضطر المنظمين لإعادة جدولتها.

ظهر للعلن أن المخابرات البريطانية كانت قد وضعت أجهزة تنصت على النائب المسلم في البرلمان البريطاني صديق خان وأنا متأكد من أنني أنا أيضاً كنت مرشحاً للمراقبة. أصدقاء وزملاء اقترحوا أن أقوم بإجراء «مسح» لأجهزة المراقبة في بيتي ومكتبي لكنني أكدت لهم أنني أفضل أن يجري الاستماع لما أقوله على أن أكون موضع اشتباه لا أساس له، فليس لديَّ ما أخفيه.

قُدم لي عرضان آخران لمقابلة بن لادن مرة أخرى. في نيسان/أبريل 2001 تلقيت مكالمة هاتفية من أبو حفص المصري. اقترح أن آتي إلى أفغانستان وأن أقابل ليس فقط أسامة بن لادن ولكن أيضاً قائد طالبان، الملا عمر، الذي لم يكن قد تحدث إلى الصحافة حتى ذلك الحين. تطور الأمر إلى حد طلب تأشيرة دخول من سفارة باكستان قبل أن أغير رأيي، فالرحلة كلها كانت خطيرة جداً - حتى تقديم طلب لتأشيرة دخول يمكن أن ينبه أجهزة المخابرات الأميركية والبريطانية ولم أكن أريد أن أكون الشخص الذي سيقودهم إلى بن لادن. لو أنهم هاجموا مكان اختبائه فسوف أقتل، وإذا فشلوا باعتقاله أو اغتياله فإنه ورجاله سيعتقدون أنني تعاونت مع أجهزة الأمن ويمكن أن يقتلوني هم أنفسهم. رغم أنني قد أذهب شهيداً إلى الجنة، فإنني لم أكن مستعجلاً حصول ذلك.

جرى الاتصال بي مرة ثانية بعد 11/9. قُتل أبو حفص المصري في قصف الولايات المتحدة لمواقع القاعدة في قندهار في 16 تشرين الثاني/نوفمبر 2001 لكنني تلقيت ثلاثة اتصالات هاتفية من شخص آخر لم يعط اسمه، أفترض أنه خالد الشيخ محمد، الذي كان مقرباً جداً من أسامة بن لادن خلال

ذلك الوقت. قال لي: «الشيخ ينتظرك»، ودعاني للذهاب إلى مكان ما للقاء به مرة ثانية. كنت أرغب كثيراً في أن أذهب وكان أمراً مذهلاً أن التقي أسامة بن لادن مجدداً، لكنني لا أستطيع تخيل أن شيئاً كهذا كان عملاً آمناً.

ꝏ ꝏ ꝏ ꝏ ꝏ

اغتيال غامض

كنت أتوقع مقتل أو استشهاد الشيخ أسامة بن لادن في أي لحظة. فمهما بلغت درجات الحذر عنده وكذلك الإجراءات الأمنية لحمايته، فإن جميع استخبارات العالم، والأميركية منها على وجه الخصوص، كانت تبحث عنه وتريد اغتياله أو اعتقاله. ولم أفاجأ عندما أعلن الرئيس باراك أوباما عن نجاح وحدة من قوات المارينز الأميركية في الوصول إليه في منزل متواضع كان يقيم فيه مع زوجاته وأطفاله، وقتله.

هذا القتل إذا ما كان قد حصل بالطريقة التي أُعلن عنها لا يبعث على الابتهاج أو الشعور بالنصر في أوساط الأميركيين، بل هو هزيمة منكرة. فنجاح الرجل لأكثر من عقد ونصف العقد في تدويخ المخابرات الأميركية، وتجنب الاعتقال، ومليارات الدولارات التي صرفتها أجهزة المخابرات في عمليتها هذه، هو انتصار كبير له، وهزيمة كبرى لهم ولأجهزتهم التنصتية القوية والمعقدة، وشبكة المخبرين الضخمة التي جنَّدوها لهذا الغرض.

لم أقتنع مطلقاً بالرواية الأميركية حول العملية، ليس فقط لأنها من جانب واحد، وإنما لأنها جاءت مرتبكة، فتارة قالوا إنه قاوم المهاجمين لمنزله في أبوت آباد قرب العاصمة الباكستانية إسلام آباد، وتارة أخرى قالوا إنه استخدم زوجته الأصغر، أمل السادة اليمنية الجنسية، كدرع بشري. ثم اعترفوا أنه لم يكن مسلحاً، وأن زوجته حاولت الدفاع عنه وأصيبت في ساقها. في البداية وصفوا البيت الذي كان يختبئ فيه بأنه قصر يقدر ثمنه بأكثر من مليون دولار لنكتشف أنه كان منزلاً عادياً متواضعاً. لا توجد أي من مقومات الحياة الحديثة في هذا البيت: مطبخ متواضع، وجهاز تلفزيون قديم جداً انقرض استخدامه منذ عشرين عاماً.

شكَّكتُ في هذه الرواية الأميركية الأحادية الجانب، واستضافتني عدة قنوات تلفزيونية أجنبية للحديث عن إرث بن لادن بعد وقبل وفاته. وفي إحدى المرات كان على الطرف الآخر خبير بريطاني في الإرهاب ومؤلف للعديد من الكتب. أعربت في اللقاء عن شكوكي في الرواية الأميركية، وفندتها وقلت إن هناك ما تريد هذه الإدارة إخفاءه عنا، وإلا أين الصور ولماذا لا تجعلنا نراها ونرى الجثمان مثلما فعلت قبل ذلك بنجلَي الرئيس الراحل صدام حسين بعد مقتلهما، أي قصيّ وعُديّ، أو حتى مثلما فعلوا مع صدام حسين نفسه عندما سرَّبوا شريط فيديو عن عملية إعدامه للتأكيد على أنه مات؟ الأستاذ الجامعي والخبير قال لي إن عليَّ أن أصدق هذه الرواية، فالرئيس الأميركي لا يكذب، وهنا استشاط غضبي، وقلت له: ألم يكذب الرئيس الأميركي السابق جورج بوش الابن عندما أكد وجود أسلحة دمار شامل في العراق وغزا هذا البلد

تحت وقع هذه الأكذوبة؟ ألم يكذب حليفه توني بلير رئيس وزراء بريطانيا الأسبق عندما عرض ملفه الشهير أمام برلمان بلاده وقال فيه إن الرئيس العراقي يمكن أن يجهز أسلحة الدمار الشامل التي في حوزته للاستخدام الفوري في غضون خمس وأربعين دقيقة؟

من المؤكد أن الشيخ أسامة انتقل إلى دار البقاء بجوار ربه، واذكر أنني عندما قابلته في تورا بورا سألته عن أمنيته فقال: «أن أموت شهيداً وألتحق بزملائي المجاهدين الذين سبقوني إلى جنة الخلد». ربما يكون أوباما حقق له الشقَّ الأول من هذه الأمنية، أي الموت شهيداً، لكن الشق الآخر، أي الذهاب إلى الجنة، متروك للخالق عز وجل، وآمل شخصياً أن تكون الجنة مأواه الأخير.

قلتها في السابق وأقولها حالياً، إن إطلاقي لقب شيخ عليه، ما أثار غضب البعض وحنقه، جاء من قناعة راسخة لديَّ بأنه كان متبحراً في الإسلام والشريعة، وأذكر أن أحد شيوخ الخليج عرض عليَّ مبلغاً كبيراً جداً من المال، وفيلا، بل وجنسية بلاده، مقابل أن أتوقف عن إسباغ هذا اللقب عليه، لكني رفضت هذا العرض بأدب شديد جداً، فوجهة نظره أن إسباغ هذا اللقب عليه يسيء إلى شيوخ الخليج وألقابهم، وأستغرب هذا التفسير، فهل رجال الدين المنافقين من وعّاظ السلاطين في الدول العربية أهل لهذا اللقب بينما الشيخ أسامة الذي جاهد ضد السوفيات في أفغانستان، وبعد ذلك ضد الأميركيين، لا يستحقه؟ ثم لماذا يقبلون بخلع هذا اللقب، أي المشيخة، على شخص مثل سعد الحريري مثلاً ويرفضونه لشخص مثل الشيخ أسامة الذي أنقذ والده محمد بن لادن الخزينة السعودية من الإفلاس وسدد رواتب الموظفين في بداية عهد الملك فيصل لستة أشهر؟

الشيخ أسامة رفض عرضاً من الحكومة السعودية حمله إليه عمه محمد العطاس (زوج أمه) بإنهاء تجميد رصيده في البنك وكان يحتوي على 220 مليون دولار ومضاعفة هذا الرقم مقابل أن يصرح أثناء عودته إلى الرياض بأن الأسرة الحاكمة تطبِّق الشريعة الإسلامية، لكن المال لم يكن مطلقاً من صميم اهتماماته، بل كان يفضل أن يعيش حياة الفقراء.

بوفاته، سواء كانت على يد الأميركيين، أو قبل ذلك نتيجة مرض، خسرت خسارة كبيرة على الصعيد المهني على الأقل، فبسبب مقابلتي له، وكتابي الذي ألفته عن القاعدة، أصبحت من الخبراء العالميين الذين تسعى الجامعات ومراكز البحث والمحطات التلفزيونية المشهورة لاستضافتهم والاستماع إلى آرائهم. وقد حققت بعض الدخل المالي المعقول من جراء ذلك، الآن ربما تتغير الصورة قليلاً، وربما تتراجع أهميتي قليلاً أو كثيراً، وإن كنت أعتقد أن تنظيم القاعدة سيظل لاعباً مهماً على الساحة الدولية لعدة سنوات، أو ربما عقود قادمة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

سفراء وصحافيون وأمراء

علاقتي بالوسط الدبلوماسي، العربي منه قبل الأجنبي، كانت دائماً، بل ولا تزال، سيئة إن لم تكن معدومة؛ فالدبلوماسية وما تتطلبه من نفاق اجتماعي أو سياسي ليست من طبعي مطلقاً، ولهذا قاطعت جميع حفلات السفارات العربية تحديداً في لندن، منذ عشرين عاماً تقريباً، ولكن ظلت هناك محطات، ومع سفراء عرب أعتقد أنهم متميزون، من أمثال الشيخ ناصر المنقور والدكتور غازي القصيبي السفيرين السعوديين الأسبقين في لندن، وكذلك عدنان عمران السفير السوري في أواخر السبعينات وأوائل الثمانينات.

الشيخ ناصر المنقور كان رجل دولة بحق، وعمل وزيراً للتعليم لفترة قصيرة إلى أن نفاه الملك فيصل إلى اليابان كسفير بسبب معارضته القوية لنظام الحكم، حيث خيَّره بين السجن أو العمل كسفير، فقبِل الخيار الثاني مكرها. عندما احتلت القوات العراقية الكويت، عارض قرار بلاده استقدام نصف مليون جندي أميركي لتحريرها، لقناعة راسخة لديه بأن الأميركيين سيخربون المنطقة تحت هذه الذريعة، ولذلك التزم الصمت المطبق. وكان، وهو السفير السعودي في ذلك الحين، من أبرز المحبِّين لخط صحيفتنا المعادي للتدخل العسكري الأميركي، وقد كلفه هذا الموقف إبعاده عن السفارة في لندن، واستبداله بالدكتور غازي القصيبي الذي أيَّد التدخل الأميركي بشراسة وخصص عموداً استحدثه في صحيفة «الشرق الأوسط» لمهاجمة صدام حسين والسخرية من الزعماء العرب الآخرين الذين صُنفوا في معسكر دول «الضد»، مثل الرئيس الراحل ياسر عرفات، والرئيس اليمني علي عبد الله صالح، والرئيس السوداني عمر البشير.

أذكر للشيخ ناصر موقفين، الأول في حفل استقبال نظَّمته سفارة دولة الإمارات في عيدها الوطني في كانون الثاني/ديسمبر عام 1990، وكنت أكتب مقالات نارية في صحيفتنا ضد دول الخليج، والسعودية بالذات، بسبب وقوفها في الخندق الأميركي ومساندتها تدمير العراق ومن بعده حصاره. كنت مثل «الغنمة» السوداء في ذلك الحفل. كان الشيخ ناصر واقفاً مع سفراء آخرين، وعندما لمحني، تقدَّم للسلام عليَّ، وكنت مع مجموعة من الزملاء: جهاد الخازن رئيس تحرير «الحياة» آنذاك، جورج سمعان مدير تحريرها، عبد الوهاب بدرخان أبرز كتَّابها، وغسان شربل (رئيس تحريرها حالياً)، وزكي شهاب أحد أنشط محرريها وكتَّابها، وخير الله خير الله مدير تحريرها لاحقاً. كان الشيخ ناصر ودوداً جداً معي بشكل ملحوظ وهو سفير الدولة التي أنتقدها بشراسة، وهنا سأله الزميل خير الله خير الله عما إذا كان يقرأ صحيفة «الحياة» التي كانت حديثة العهد بالصدور (صدرت عام 1988)، فقال

له إنه يقرأها يوم الأحد فقط، فسأله لماذا يوم الأحد فقط، فقال لأن صحيفة «القدس العربي» لا تصدر في هذا اليوم من الأسبوع!

المرة الثانية، أو الموقف الثاني كان عندما هاجمت الطائرات الأميركية بغداد بعد محاولة اغتيال مزعومة استهدفت الرئيس الأسبق جورج بوش الأب أثناء زيارته للكويت بعد تحريرها. اتصل بي الشيخ ناصر من ماربيا الإسبانية، وكان مهمَّشاً من قبل حكومته ومن دون أي منصب دبلوماسي، وقال وقد بدا الغضب واضحاً في صوته: «أرجوك يا عبد الباري أن تقول عندما تستضيفك المحطات الأجنبية إن هذه الغارات غير مبررة وتكشف عن عقلية دموية همجية، فالتحقيقات في دولة الكويت نفسها حول عملية الاغتيال هذه لم تبدأ بعد، ولم يوجَّه أي اتهام للعراق، فكيف تفعل أميركا ذلك، وتتصرف بعقلية عصابات المافيا، وتقتل عشرات الأبرياء بعد ساعات من عملية الاغتيال هذه التي لم يُقتل فيها أحد، وقبل أن تبدأ التحقيقات الأولية بعد؟».

فعلاً، استدعتني محطة سي. إن. إن للتعليق على الحادثة وكررتُ كلام الشيخ ناصر حرفياً. واتصل بي بعدها وشكرني، لكنني أنا الذي شكرته على مشاعره الوطنية. الشيخ ناصر توفي في لندن إثر أزمة قلبية على ما أعتقد، ولم تُقم له دولته أي تكريم كمواطن يستحق التكريم، وكرجل دولة خدم بلاده وشعبه وأمته لسنوات عديدة.

الدكتور غازي القصيبي كان شخصية نادرة ليس لها علاقة بالدبلوماسية، وإن وُجدت فبحكم المنصب فقط. كان شاعراً وأديباً ومفكراً غزير الإنتاج أثرى المكتبة العربية بالعديد من المؤلفات القيمة مثل كتبه عن علم الإدارة، ورواية شقة الحرية، والوزير المرافق (كتبه وهو على سرير المرض ويعتبره النقاد من أفضل كتبه) وغيرها.

التقيت بالقصيبي للمرة الأولى في بداية توليه لمنصبه كسفير لبلاده في لندن عام 1992 على ما أذكر. دعاني إلى منزله. استغربت الدعوة، فعلاقتنا، كصحيفة، بدولته، كانت متوترة جداً. تحدد الموعد في الساعة السادسة مساء. وصلت إلى هناك وكان في استقبالي. كان رجلاً ممتلئ الجسم طويلاً ضخماً، وابتسامة ساحرة على وجهه. رحَّب بي بحرارة وقادني إلى غرفة الجلوس غير الرسمية.

سألني أين درست وماذا درست ومن أي جامعة تخرجت كفاتحة للحديث... قلت له: «دكتور غازي، كل هذه المعلومات متوفرة لديك في أرشيف السفارة، ومن المؤكد أن لي ملفاً ضخماً هناك، أرجو منك أن تطَّلع عليه إذا لم تكن قد اطلعت عليه فعلاً، توفيراً للوقت. أعرف أنك تريد أن تناقشني في

موضوع صحيفتنا «القدس العربي» وموقفها من المملكة، فكم مدة اللقاء؟ ودعنا ندخل في الموضوع مباشرة.

ابتسم لصراحتي، وقال إن مدة اللقاء ساعة، وإن «الجماعة» في المملكة منزعجون من موقف صحيفتنا الهجومي. قلت له: «نحن صحيفة تختلف معكم سياسياً، وهذا من حقنا، ويجب أن تتفهم أنت ذلك، خصوصاً أنك متزوج من سيدة ألمانية، ودرست في ألمانيا (حصل على درجة الماجستير من إحدى جامعاتها) وكذلك في الولايات المتحدة حيث حصلتَ على درجة الدكتوراه. وأضفت: نحن لا نشتم ولا نسبُّ ولا نخوض في القضايا الخاصة لأمرائكم وما أكثر فضائح بعضهم».

هنا قال لي إنه يوافقني على كل ما أقول، ولكن المشكلة، على حد قوله، أن العاهل السعودي في ذلك الحين، الملك فهد بن عبد العزيز، هو الذي «يطلب إليَّ أن أحاول كسبك إلى جانبنا، فالمشكلة ليست في الأخبار بقدر ما هي في افتتاحيتك على الصفحة الأولى. ليتك تسبُّ وتشتم مثل الآخرين، فدواؤك عندنا، ولما كنت اتصلت بك أساساً، لكنك مثل الجرَّاح الماهر الذي يشقُّ البطن ويزيل الكبد والطحال والرئتين والقلب من دون أن تسيل نقطة دم واحدة».

بقية الحديث تظل من أسرار المجالس ولكن ما يمكن قوله إننا أصبحنا صديقين على الصعيد الشخصي حتى في ظل تصاعد الخلاف بيني وبين حكومته، وكانت بيننا رسائل مكتوبة متبادلة تتعلق بشؤون سياسية وأدبية، وتعليقات ظريفة. كان القصيبي يستخدم ورقه الشخصي الذي يحمل اسمه وليس ورق السفارة الرسمي في مراسلاته معي.

من السنن الحميدة أنه كان في مطلع كل شهر رمضان يرسل إلى صحيفتنا صندوقين من التمر مرفقين بصندوقين من ماء زمزم، وكنت أرد على هذه الهدية برسالة، قلت فيها مرة: «الدكتور غازي... وصلتنا جعالتكم السنوية من التمور المتوسطة الجودة، ومرفقة بما تيسَّر من ماء زمزم المقدس لتسهيل ابتلاعها في هذا الشهر الفضيل... شاكراً لكم ومقدراً هذه المبادرة. جعلها الله في ميزان حسناتكم». ووضعت عدة خطوط تحت عبارة «جعالتكم السنوية من التمور»، خشية أن يتصور من تقع في يده هذه الرسالة مستقبلاً أن يعتقد أنها أموال!!

في العام التالي وصلت صناديق التمر في موعدها ولكن من دون ماء زمزم، فبعثت إليه برسالة خاصة تقول: «وصلتنا جعالتكم السنوية من التمر ولكن غاب عنها ماء زمزم. أرجو أن لا يكون النبع قد جفَّ!». فاتصل بي هاتفياً وقال:

«يا سيدي توقفنا عن إرسال ماء زمزم لأن هناك من كتب يقول إننا نتربَّح منه. استر علينا سأرسل لك براميل منه فوراً!».

كان ظريفاً جداً... ويحرجني في شهر أيلول/سبتمبر من كل عام بدعوتي للعيد الوطني السعودي، ويصرُّ على أن أحضر وإلا سيغضب، وكنت أذهب إلى مقر حفل الاستقبال في السفارة حيث كان ينصب خيمة في فنائها الأمامي، وتتجه كل العيون إليَّ مستغربة دعوتي وأنا «العدو»... الدكتور غازي بجثته الضخمة مرتدياً اللباس السعودي التقليدي يتصدر المستقبلين عادة. وعندما أقترب لمصافحته يصرخ بالمصور أن يلتقط الصور لتوثيق اللحظة، وينادي موظفاً آخر بصوت عال أمام الحضور لإحضار «الصك»... كانت دعابة لطيفة لكنها محرجة. هذا هو غازي القصيبي.

صحيفتنا «القدس العربي» كانت من الصحف المفضلة لديه. طلب شراء ثلاثين اشتراكاً يومياً منها، قلت له هل هي «رشوة»؟ قال ليتك تقبل الرشاوى مني، إنها «ضرورة» لأن عندي أكثر من ثلاثين مخبراً في السفارة كل واحد يمثِّل جهة رسمية في الرياض، واحد للمخابرات العامة، وثان للمباحث، وثالث للديوان، ورابع للداخلية، وخامس للأمن العام، وسادس للأمن الخاص... وهكذا... وكل هؤلاء يتسابقون في كتابة التقارير وصحيفتكم مليئة بما «يمتِّع» جماعتنا من مقالات وأخبار.

في أحد الأيام اتصل الدكتور القصيبي أكثر من مرة بالصحيفة سائلاً عني، قائلاً إنه يريد الحديث إليَّ. عندما وصلت المكتب كعادتي في العاشرة صباحاً، قمت بالرد على المكالمة:

- «أخ عبد الباري... ما الذي فعلته بنا هذا الصباح؟

- دكتور غازي... أنا لم أفعل شيئاً.

- القصة الإخبارية المنشورة في الصفحة الأولى عن الأمير بندر بن عبد العزيز سفير المملكة في واشنطن، هل أنت متأكد منها؟ إنها خطيرة جداً. أعرف أن «القدس العربي» لا تفبرك الأخبار وأن أخبارها دائماً صحيحة ولكن يبدو أن خبر اليوم خروج على هذه القاعدة.

- لا أعتقد ذلك، فأنا كاتب الخبر، ومتأكد من كلمة فيه».

كان الخبر ينقل محضر لقاء بين الأمير بندر بن عبد العزيز ومجموعة من رجال الأعمال السعوديين الزائرين لواشنطن. في ذلك اللقاء انتقد الأمير بندر طريقة إدارة الأوضاع في المملكة من قبل أسرته الحاكمة، وقال إن الملك فهد مريض، والأمير عبد الله ولي العهد متقدم في السن وقليل العلم، ووالده الأمير سلطان مثله ومريض أيضاً، وهؤلاء هم قمة الحكم، فالملك هو رئيس

الوزراء، وولي العهد هو النائب الثاني، ووالده هو النائب الثالث، وانتقد أيضاً طريقة إدارة والده لشؤون وزارة الدفاع وقال إنه يخاطب الجنود وكبار الضباط على طريقة وعَّاظ المساجد وخطباء الجمعة. المملكة تحتاج إلى تحديث (الحديث لا يزال للأمير بندر) ولا بد من تعيين نائبين شابَّين لرئيس مجلس الوزراء يديران شؤون الدولة بطريقة عصرية.

قال لي الدكتور غازي إن الديوان الملكي (الملك فهد) اتصل به منذ الصباح الباكر مستفسراً عن هذا التقرير ومدى صحته، ولذلك هو يسألني، فمن غير المعقول، بل من المحرَّم، في تقاليد الأسرة الحاكمة أن ينتقد البعضُ البعضَ الآخر في العلن أو السر أمام الغرباء. من هنا لا بد أن هناك خطأ ما.

قلت له: «أنا متأكد من الخبر». قال: أرجو منك أن تعدني بأن تنشر تكذيباً وفي المكان نفسه إذا طلب «الجماعة» ذلك». لم يصدر التكذيب، وبعد شهرين التقيته على مائدة عشاء صديقنا المشترك عثمان العمير، فسألته عما حدث، فقال: «الحمد لله ثبتت صحة خبركم، وهذا أثلج صدري لأنني كنت أردد دائماً أن «القدس العربي» لا تكذب».

في أواسط التسعينات زار فاروق الشرع، وزير الخارجية السوري في ذلك الوقت، لندن وأقامت سفارته حفل عشاء دعت إليها السفراء العرب ونخبة من الإعلاميين كنت أنا أحدهم. سأل صحافي الدكتور القصيبي عن رأيه في صحيفتنا بهدف إحراجه وإحراجي، فقال بصوت عال: «أتضرع إلى الله أن لا يشتريها «جماعتنا» مثلما اشتروا صحفاً أخرى حتى تبقى لنا صحيفة عربية نقرؤها!».

المشهد نفسه تكرر تقريباً في الرياض، بعد إقالة القصيبي من موقعه كسفير في لندن عام 2002 وعودته إلى بلاده وتعيينه وزيراً للمياه، ثم وزيراً للعمل بسبب قصيدة نشرها تأييداً وإطراء للاستشهادية وفاء الأخرس التي فجَّرت نفسها وسط مجموعة من الإسرائيليين فقتلت عدداً منهم. سأله صحافي «ملقوف» أمام جمع من الوزراء والسياسيين والإعلاميين في جلسة سمر عما يفتقده في لندن، فأجاب بصوت عال: «صحيفة «القدس العربي»، فقد كنت لا أنام قبل أن تصلني هذه الصحيفة بعد منتصف الليل لأنها تفاجئني دائماً بما تحمله من أخبار وتحقيقات ومقالات رأي... إنها الصحيفة الوحيدة التي أقرأها وأنا مطمئن؟». روى لي هذه القصة المحامي صلاح الحجيلان الذي كان حاضراً المجلس.

على ذكر السعودية، حضر إلى لندن في أحد الأيام الصديق محمود درويش لزيارة نزار قباني الذي كان يرقد في مستشفى سانت توماس في لندن إثر أزمة قلبية. ذهبنا إلى زيارته سوياً، ولاحظت أن نزار رحمه الله (مات بعدها

بأيام) كان مرحباً بي أكثر من درويش، وذلك لسببين، الأول أننا نشرنا في صحيفتنا حوالي خمس صفحات عن شهادات كبار الأدباء في نزار قباني وشعره، ولهذه قصة غريبة، فقد أعد الزميل حسام الدين محمد هذا الملف بعد أن ترددت أنباء عن أن نزار يعاني أزمة صحية خطيرة وقد يموت في أي لحظة، وكانت بمثابة تكريم له قبل أن يتوفَّى، وقد أردنا في الصحيفة تغيير العادة بتكريم الكبار قبل وفاتهم لا بعدها. تأثر نزار بذلك كثيراً وقدَّر لي ذلك كرئيس للتحرير.

أما السبب الثاني، فإن الشعراء، أو معظمهم، كباراً كانوا أو صغاراً، تتملكهم الغيرة بعضهم من بعض، والحب مفقود بين معظمهم، ولاحظت ذلك جلياً في علاقة نزار ومحمود أثناء تلك الزيارة.

قال محمود درويش لنزار إنه أرسل مقالة إلى صحيفة «الحياة» تحية له، لكنها لم تُنشر. هنا قال نزار: «أعلم ذلك... ناشر الصحيفة الأمير خالد بن سلطان أصدر فرماناً بعدم نشر أي خبر أو مقال عني إلا بعد التشاور معه مسبقاً. القصة أنه عندما دخلت المستشفى إثر أزمة قلبية نشرت صحيفة «الحياة» هذا النبأ على صدر صفحتها الأولى... وصدف أن الأمير سلطان بن عبد العزيز أجريت له عملية جراحية في ركبته وجرى نشر خبره في اليوم نفسه وفي صفحة داخلية من الصحيفة، الأمر الذي أغضبه كثيراً. فكيف يُنشر خبر مرض شاعر على الصفحة الأولى، ومرض وزير دفاع وأمير على الصفحة الخامسة؟!»

علَّق نزار بمرارة قائلاً: «من كان سيعرف سيف الدولة لولا أبو الطيب المتنبي، ثم من يذكر وزير دفاع سيف الدولة أساساً، وأتحدى أن يعرف أحد اسمه!».

شرهة الأمير سلمان

في أحد الأيام دعاني الشيخ ناصر المنقور سفير المملكة (عام 1983) إلى لقاء مع الأمير سلمان بن عبد العزيز إلى جانب صحافيين آخرين. فقد كان الأمير متواجداً في العاصمة البريطانية للإشراف على علاج زوجته المريضة بمرض عضال وطالت فترة إقامته.

الصديق عثمان العمير كان مثلي مديراً لمكتب صحيفة «الجزيرة» (كنت مديراً لمكتب «المدينة») واستغرب دعوتي مثله، وقال لي:

- «من المؤكد أن هناك «شرهة» في الطريق.

- ما معنى «شرهة»؟

- إن الأمير سيوزع في نهاية اللقاء ظروفاً بنِّية فيها آلاف الدولارات أو الجنيهات الإسترلينية...».

الأمر أسقط في يدي، فقد كنت حادَّ المزاج يساريَّ النزعة ومسألة «الشرهات» هذه خارج ثقافتنا اليسارية. قال الصديق العمير: «يجب أن تأخذ ما يُعطى لك من دون تردد، وإلا لا تذهب مطلقاً... أعرفك جيداً. لا نريد فضائح...». كان من الصعب عليَّ أن أرفض الدعوة فقد كانت الصحيفة التي أعمل معها سعودية، والداعي هو السفير، ومن أوعز في الدعوة هو أمير الرياض.

ذهبنا إلى الجناح المخصص في فندق دورشستر العريق. كان هناك جمع من الزملاء الصحافيين الكبار أمثال ناصر الدين النشاشيبي، وفؤاد مطر، وسمير عطا الله، وسليم نصار، وبسام فريحة، والناشرَين لصحيفة «الشرق الأوسط» هشام ومحمد علي حافظ.

يتمتع الأمير سلمان بدرجة عالية من الذكاء، وكان معروفاً بعلاقاته الجيدة مع الصحافيين العرب، ومتابعته اللصيقة للصحافة العربية، حتى قيل إنه المسؤول الأول عن الملف الإعلامي العربي في الأسرة الحاكمة السعودية، وتعزَّز هذا الموقع بعد تكليفه من الملك فهد بن عبد العزيز بامتلاك صحيفة «الشرق الأوسط» التي تحوَّلت إلى إمبراطورية ضخمة بعد ذلك.

الزملاء الصحافيون، والكبار منهم خصوصاً، تباروا في التنافس على جذب اهتمام الأمير، تحديداً في إلقاء نكات بعضها في قمة السماجة والبذاءة والهدف إضحاك سموِّه. كنت أجلس في الخلف إلى جانب الصديق العمير نراقب المشهد ولم أضحك مطلقاً لهذه النكات ولم أشارك في حفلة النفاق هذه. بعد جلسة استمرت حوالي ساعتين، تحدث الأمير الذي كان يتصدر المجلس وإلى جانبه الناشران وقال:

«الآن جاء دوري لكي أحكي لكم هذه الطرفة. تعرفون أن لدينا تقليداً خاصاً في بلدنا اسمه المجالس المفتوحة، وفي يوم محدد من كل أسبوع (أعتقد أنه الثلاثاء) أستقبل المواطنين من أصحاب الحاجة في مجلس، أستمع إلى شكاواهم، وأتلقى عرائضهم المكتوبة. تقدَّم مني رجل «أحمر» يضع كوفية على رأسه ويلبس ثوباً سعودياً. قلت له:

- «تفضل، ما قصتك؟

- أنا، يا سمو الأمير، لبناني اسمي الياس. قررت أن أُسلِمَ على يديك.

- أهلاً وسهلاً. تعال إليَّ بعد أسبوع».

وتابع الأمير: «أدركت أن هناك أموراً خفية خلف هذا الطلب فأوعزت لرجال المباحث بمعرفة قصته وخلفياتها، فجاءوني بمعلومات تقول إنه اختلف مع كفيله وإن الكفيل قرر ترحيله من البلد، واعتقد أن دخوله الإسلام يمكن أن يحصِّنه من الإبعاد، خصوصاً إذا حصل الأمر على يدَي أمير الرياض. بعد أسبوع، جاء الياس وقلت له: هل لا تزال على رأيك بخصوص اعتناق الإسلام؟ أجاب: نعم سيدي. قلت: «شوف يا الياس، لدينا مفتي واحد في المملكة بينما هناك أكثر من عشرة مثله في لبنان، اختر أحدهم وأسلِم على يديه!»».

بنهاية النكتة الملكية انتهى الاجتماع، وبدأنا في الخروج الواحد تلو الآخر، الكبار أولاً، ثم نحن في آخر الطابور. صافحنا الأمير مودعين، وكان إلى جانبه رجل بالملابس التقليدية يوزع مظاريف بنية ضخمة. لكزني الصديق العمير بأن أقبل ما يُعرض عليَّ. كنت مرتبكاً... تناولت الظرف الثقيل وخرجت مسرعاً. لحق بي العمير... طلب إليَّ أن أفتح مظروفي. فتحته وكانت المفاجأة: كتاب جلال كشك الشهير السعودية والحل الإسلامي.

الصديق العمير أصيب بخيبة أمل، واتهمني بأنني مصدر النحس وأن وجهي النكد وكشرتي العابسة دفعت الأمير لتغيير رأيه، حسب اعتقاده، فطارت الشرهة!

بعد ذلك بيومين دعا الأمير سلمان جميع الحاضرين باستثنائي إلى حفل غداء في الفندق نفسه، ولا أعرف ما إذا كان قدَّم لهم «الشرهة» الموعودة أو لا، فالصديق العمير الذي كان من بين الحضور لم يجب عن إلحاحي حول هذه المسألة، بل قابل سؤالي له بنظرة استنكار.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تكريم مفقود

أشعر بالحزن لأن أهم سفيرين للمملكة العربية السعودية لم تكرِّمهما الدولة التكريم الذي يستحقانه. ربما لأن ناصر المنقور وغازي القصيبي يملكان شخصيتين قويتين، ولا يترددان في التعبير عن آرائهما بقوة وشجاعة أمام أولي الأمر. الدكتور القصيبي أحيا سفارة المملكة في لندن من موتها، وجعلها كتلة من النشاط، وكان أحرص على لقاء من يختلفون مع سياسة بلاده من حرصه على لقاء مؤيديها، ولم يؤمن أو يمارس قط سياسة إقصاء الرأي الآخر، فقد جعل من المركز الإعلامي السعودي خلية نحل، يستضيف محاضرات أو ندوات أسبوعية يتحدث فيها كبار الأدباء والسياسيين من أمثال الطيب صالح ولم يرضخ مطلقاً للضغوط الصهيونية للاعتذار عن قصيدته التي كتبها تمجيداً للاستشهادية الفلسطينية وفاء الأخرس، لكن حكومته أذعنت للأسف وسحبته بحجة تعيينه وزيراً للمياه في دولة ليس فيها إلا القليل منه.

عندما انتقل الدكتور غازي إلى جوار ربه في 15 آب/أغسطس عام 2010 إثر مرض عضال، أقامت أسرته مجلس عزاء له في المنامة التي أحبها، الأمر الذي ينطوي على رسالة سياسية قوية للسعودية، واضطرت السلطات في الرياض إلى إقناع أحد إخوانه بفتح مجلس عزاء له في العاصمة السعودية لمنع أي تأويل وقطعاً لدابر الأقاويل والشائعات حول خلافه مع الأسرة الحاكمة خصوصاً، وهو ما لمح إليه في قصيدته الشهيرة «آخر قصائد المتنبي لسيف الدولة» التي انتقد فيها البطانة الفاسدة حول الملك فهد وكانت بداية القطيعة بينهما ماثلة للأذهان.

الزميل عثمان العمير الصديق الوفي للقصيبي كان الوحيد الذي تجرأ وأقام له حفل تأبين في تشاتام هاوس (مقر المعهد الملكي للدراسات الاستراتيجية)، وتجرأ مرة ثانية وطلب إليَّ أن أكون أحد المتحدثين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

عطوان والبزنس

العلاقة بيني وبين «البزنس» مقطوعة كلياً، وقامت محاولات كثيرة من قبل العديد من الأصدقاء لجرِّي للانخراط في هذا المضمار، لكنني قاومتها بشدة، ليس كرهاً للمال، وإنما لأنني أرى، وقد أكون مخطئاً، أن الصحافة وقطاع الأعمال مثل الزيت والماء لا يختلطان أو يمتزجان أبداً.

هناك زملاء جمعوا بين الحُسنيين، وحققوا نجاحاً كبيراً، وهؤلاء قلة، وهنيئاً لهم في جميع الأحوال، وهناك آخرون وهم الكثرة انتهوا بخيبة أمل كبرى، وتبخرت جميع أحلامهم في الثراء وفي وضع حد لأشكال المعاناة كافة.

تعرفت إلى الزميل الياس حداد، وكان صحافياً فلسطينياً يقيم في لبنان، في مدينة جدة غرب المملكة العربية السعودية أثناء انضمامه للعمل في صحيفة «عرب نيوز» الصادرة باللغة الإنكليزية.

الياس حداد كان ابن مخيم، ورجلاً عصامياً يملك موهبة في شراء السيارات القديمة وإصلاحها بنفسه، ولم يحدث مطلقاً أن احتاج إلى ميكانيكي أو كهربائي لإصلاح ما لديه من أجهزة، ولكن كانت لديه موهبة أخرى لم أتوقعها مطلقاً.

في أحد الأيام زرته في بيته في «كيلو 3» وكان عازباً بينما كنت أقيم عند أخي كمال، المتزوج. أردت الذهاب إلى الحمام لقضاء حاجة، وعندما دلفت إليه، وجدت حوض الاستحمام وقد امتلأ في معظمه بسائل أحمر بلون الدم فانتابني الرعب، وعدت إلى صديقي الذي كان غارقاً في الضحك بعد أن رأى الدهشة والخوف على وجهي.

شرح لي الأمر، وقال إنه ببساطة شديدة أراد أن يؤمِّن حاجته من النبيذ، فاشترى عدة صناديق من عصير العنب من السوبرماركت وأفرغ زجاجاتها في حوض الاستحمام، وعالجها ببعض الخمائر، وبعد ثلاثة أسابيع سيبدأ في جني المحصول وتوزيع بعض منه على أصدقائه.

الياس حداد تزوج من «رائدة»، إحدى فتيات مخيم ضبيّة في لبنان الذي تعرض لمجزرة من قبل قوات الكتائب أثناء الحرب الأهلية، وقرر الهجرة إلى الولايات المتحدة الأميركية، حيث لن يُضطر إلى تخمير عصير العنب على الأقل.

دُعيت إلى لوس أنجلس في أواسط التسعينات لإلقاء محاضرة حول تطورات الأوضاع في المنطقة العربية، من قبل قيادة الجالية العربية فيها، وأبلغني أحد الأصدقاء أن الياس حداد يبحث عني ويريد أن يراني في أسرع وقت ممكن، فاتصلت به على الرقم الذي أعطاه للصديق المشترك، وجاء لاصطحابي إلى

مطعمه «الإيطالي» الذي افتتحه وأصبح مصدر رزقه بعد أن هجر الصحافة غير آسف.

روى لي قصته مع «البيزنس» في أميركا بلد الأحلام، وقال إنه عندما وصل إليها مهاجراً قرر أن يشتري مزرعة لتربية الماشية لكنه باع المزرعة لاحقاً، ليس لأنه تعرض للنطح من أحد ثيرانها لينتهي به الأمر في المستشفى، وإنما لأنه شعر بأنها مهنة لا تناسبه، وخسر بذلك معظم ثروة العمر التي جمعها أثناء عمله في المملكة العربية السعودية، وقرر الانتقال إلى عالم المطاعم وافتتح مطعماً في أطراف لوس أنجلس، وأداره مع زوجته، وأشهد أن طعامه كان شهياً. ولا أعرف أين انتهى الأمر بالياس حداد، فقد انقطعت عني أخباره منذ أكثر من عشر سنوات، ولعل المطعم تناسخ وأصبح الياس من الأثرياء، أو انتقل إلى مغامرة «بزنسية» أخرى أطاحت بما تبقى من ثروته.

مثلما قلت، حاول كثيرون الاستفادة من اسمي وشهرتي بجرِّي إلى ميدان البيزنس. أحدهم عرض عليَّ مبلغاً من المال يقدَّر بالملايين مقابل أن أقدمه إلى سيف الإسلام القذافي نجل العقيد الليبي على أمل أن يفوز ببعض الصفقات التجارية، لكني رفضت العرض بأدب شديد.

في أحد الأيام اتصل بي الزميل بسام البدارين مدير مكتب «القدس العربي» في عمَّان، وقال لي إنه قادم إلى لندن بصحبة رجل أعمال أردني فلسطيني كبير لمناقشة أمور تتعلق بكيفية تطوير صحيفة «القدس العربي»، وأكد أن الرجل ملياردير، والتعاون معه سيضع حداً لمعاناتنا المالية المزمنة، وسيسدد كل ديون الصحيفة.

الملياردير كان في زيارة إلى ليبيا، وأدرك من الجوقة المحيطة بالزعيم الليبي أنه حريص على لقائي. لم يكن يعلم أن اتصالات عديدة لترتيب لقاء بيننا قد باءت بالفشل بسبب رغبتي في تجنب هذا اللقاء بعد تجربتي المريرة مع النظام الليبي، سواء عندما عملت في صحيفة «البلاغ» أو عندما زرت طرابلس بدعوة من العقيد وواجهت الفوضى في أسوأ أشكالها.

صاحبنا اعتقد، بما لديه من أموال، ومعرفة ببعض الصحافيين العرب في الأردن خصوصاً، أنه قادر على جلبي إلى طرابلس حتى من دون أن يعرفني، وقد بذل جهوداً كبيرة لإقناعي بالسفر معه على طائرته الخاصة إلى طرابلس، وعرض شراء مبنى ومطبعة للصحيفة، بل وشهر دفتر شيكاته وقال لي: «حدِّد المبلغ الذي تريد، كل ما أريده في المقابل هو أن تذهب معي إلى سرت وتتناول طعام الغداء في خيمة الأخ العقيد والعودة في اليوم نفسه». لكنني تهربت من أي التزام.

تبيَّن لاحقاً أن الرجل كان موعوداً بأعمال تجارية تصل قيمتها إلى حوالي 700 مليون دولار، وأعتقدَ أن سفري معه إلى طرابلس سيسهل الحصول على هذه الصفقة، لكن أمله خاب في إقناعي، ولا أعرف ما إذا كان قد حصل على هذه الصفقة أو لا، وكل ما أعرفه أنه غضب مني غضباً شديداً، وهاجمني في إحدى الصحف الأردنية.

ربما يعود نفوري من البيزنس إلى تجربة مريرة محفورة في قاموس طفولتي، فالوالد افتتح حانوتاً صغيراً، وكان يطلب مني دائماً أن أكون إلى جانبه لأساعده، ولأنه كان أمِّياً فقد كلفني بأن أكون محاسب الحانوت، أسجل ديون الزبائن، وكانت قليلة بائسة، لكن هذه التجربة، أي البقاء في الحانوت لساعات طويلة، حرمتني من حريتي واللعب مع أقراني، فكنت أشعر بالغيظ وهم يلعبون كرة القدم وأنا سجين في الحانوت. فالوالد كان قاسياً، وإغضابه أو كسر أوامره عقابه الضرب المبرح.

تلقيت عروضاً بتأسيس محطات تلفزة بالملايين، شريطة أن أكون شريكاً أساسياً، لكني رفضت لأن معظم أصحاب هذه العروض كانوا يملكون أجندات سياسية ويمثلون حكومات لا أتفق مع سياساتها في معظم الأحيان، ثم إنني تعبت من المعاناة في الحفاظ على استمرارية صدور صحيفة «القدس العربي» وجميع محطات العالم الناطقة باللغتين العربية والإنكليزية مفتوحة على مصراعيها أمامي، فلماذا أحشر نفسي في محطة واحدة؟

الصديق عثمان العمير كسر القاعدة، ونجح في ميدان البيزنس نجاحاً كبيراً وكوَّن ثروة لا بأس بها، لكنه لم يتغيَّر كثيراً، وظل يحنُّ إلى ميدان الصحافة والإعلام حتى نجح في إصدار صحيفة «إيلاف» الإلكترونية الرائدة في مضمارها، وكانت تجربة متميزة في جميع الأحوال.

وقعت قطيعة بيننا استمرت لأكثر من سبع سنوات بسبب استقالتي من صحيفة «الشرق الأوسط» التي كان رئيساً لتحريرها في أيلول/سبتمبر 1988، وزادت الفجوة بيننا اتساعاً عندما غزا صدام حسين الكويت صيف عام 1990 حيث أخذت صحيفة «القدس العربي» خطاً مصادماً للمملكة العربية السعودية ودول الخليج الأخرى.

في عام 1993 على ما أذكر، وبعد أن بدأت المياه تعود إلى مجاريها تدريجياً بيننا، دعاني الصديق العمير لزيارته في فيلته في مراكش وقضاء عطلة نهاية الأسبوع. الفيلا كانت في حي النخيل الفخم، وتحتوي على حمام سباحة ومزرعة فيها خضروات وبعض أشجار الفاكهة.

مديرة الفيلا التي كانت ترعى شؤونها والعمال والخدم العاملين فيها، وتدعى سميرة، كانت من المعجبات بمداخلاتي التلفزيونية على محطة الجزيرة حيث

كنت شرساً في معارضتي لدول الخليج وأميركا. السيدة سميرة قالت إنها تتمنى أن أشتري قطعة أرض وأقيم فيلا عليها في هذا الحيِّ الراقي، للإقامة أو من قبيل الاستثمار، واقترحت شراء قطعة أرض تقع بين فيلا العمير وقصر كبير قيد الإنشاء يملكه الأمير بندر بن سلطان بن عبد العزيز الذي كان سفيراً لبلاده في واشنطن.

قالت السيدة سميرة، محقة، إن ثمن الأرض سيرتفع بشكل جنوني بسبب قصر الأمير بندر، ولذلك يجب الإقدام بسرعة على شراء القطعة المحددة، وعندما سألت عن الثمن قالت إنه في حدود مئة ألف دولار أو أكثر قليلاً.

المشكلة أنني لم أكن أملك المبلغ، وأوضاع الصحيفة المادية كانت متأزمة للغاية، فخطرت في بالي فكرة جهنمية قررت أن أعرضها على صديقي ومضيفي العمير الذي كان في بحبوحة مالية في ذلك الوقت بفضل مشاريعه الاستثمارية الناجحة وعلاقاته القوية مع الملك فهد بن عبد العزيز والعاهل المغربي الحسن الثاني، فقد كان ملكياً، محبَّاً للملوك، ويمينياً محافظاً من أبرز المحافظين العرب القدامى والجدد معاً.

قلت للعمير إن أمامه صفقة استثمارية ضخمة قد تضيف بضع مئات الآلاف أو الملايين من الدولارات إلى رصيده العامر. قال: «أنت لا تفهم في الصفقات والبيزنس، لا أريد أن أسمع».

قلت له إن القصة وباختصار شديد أن قطعة الأرض التي تفصل بينه وبين قصر الأمير بندر معروضة للبيع، وثمنها في حدود مئة ألف دولار. وأضفت:

- «أنا لا أملك المبلغ، يمكن أن تقرضني إياه، على أن أسجل الأرض باسمي، وبعد ذلك سيأتي الخير!

- كيف؟ أفصح يا ملك البيزنس.

- بعد الشراء تذهب إلى الأمير بندر، وتسرِّب له نبأ مفاده أن عبد الباري عطوان، المكروه الأول لدى الأسرة الحاكمة السعودية سيصبح جارك، فقد اشترى قطعة الأرض، وقرر أن يقيم فيها مئذنة أو برجاً طويلاً يطل على قصرك يزوده ببعض المناظير المكبرة لمراقبة تحركاتك... فهذه أرضه وهو حرٌّ فيها... وعندما يسمع الأمير بندر بأنباء هذه الجيرة «الطيبة» سيثور غضباً ويقرر التخلص من هذا الجار المزعج بأي ثمن، لأنه سيكون أمامه خياران، إما أن يغادر المنطقة، وإما أن يغادر الجار، لا المنطقة وإنما المغرب بأسره، وقد يعرض ثمناً كبيراً جداً لشراء الأرض، وسنتقاسم الربح».

كنا نمزح، لكن الفكرة راقت لنا وتحولت إلى مسألة جدية... ما حدث أن الصديق العمير تراجع وربما خاف من تبعات الأمر، فقرر نسيان الموضوع أو

تجاهله، وكذلك فعلت أنا.

بعد سنوات أبلغني العمير بأنه التقى الأمير بندر في جلسة سمر، وأبلغه بخطتي الجهنمية بأن أصبح «جار الهنا» فضحك وقال إنه ما كان سيسمح لعبد الباري عطوان بأن يكون جاره، وكان سيشتري الأرض بأضعاف أضعاف ثمنها... والتفت إلى العمير وقال له: «أنت رجل أعمال غير متمرس وإلا لانتهزت الفرصة وحققت ربحاً كبيراً!».

لم أزر مراكش منذ ذلك التاريخ، ولكن علمت أن فيلا العمير تحولت إلى مقاطعة، فقد اشترى عدة قطع مجاورة، أما قصر الأمير بندر فقد تحول إلى مجمَّع للقصور، وأن أسعار الأراضي في المنطقة تضاعفت أكثر من عشرين ضعفاً وأصبحت نقطة جذب لكبار المشاهير من الفنانين العالميين ورجال الأعمال، خصوصاً الفرنسيين منهم.

حتى كتابة هذه السطور لا أملك أي مشروع تجاري، ولست عضواً في مجلس إدارة أي شركة، وأملك فقط مجموعة من الأسهم في الشركات البريطانية السابقة المؤمَّمة مثل بريتش تليكوم وبريتش بتروليوم وغيرها، اشتريتها عندما جرت خصخصة تلك الشركات وطُرحت أسهمها على المواطنين.

اشتريت أيضاً أسهماً في فريق كوينز بارك رينجرز لكرة القدم غرب لندن في حدود بضعة آلاف من الجنيهات الإسترلينية تشجيعاً له وعربون ولاء، ومنذ أن اشتريتها والفريق في التمادي هبوطاً إلى الدرجات السفلى، وتعرض للإفلاس أكثر من مرة وأصبحت الأسهم بلا أي قيمة مادية!

الحمد لله مستورة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رفيق الحريري

علاقتي بلبنان كانت شبه معدومة، حتى إنني عندما زرته للمرة الأولى بعد عشرين عاماً عام 1993 لحضور جلسة للمؤتمر القومي العربي، استغربت المضيفة الجميلة على ظهر طائرة الميدل إيست التي أقلتني من لندن أنني لا أعرف بيروت جيداً. قلت لها مداعباً إنني ربما أكون الفلسطيني الوحيد الذي لم يشارك في احتلال لبنان وإقامة دولة داخل الدولة فيه!

في آذار/مارس 1999 دعاني الصديق طلال سلمان ناشر ورئيس تحرير صحيفة «السفير» لحضور العيد الخامس والعشرين لصدورها. طلال سلمان من العلامات الفارقة في الصحافة العربية، فقد كان أول من أسس صحيفة قومية تناصر المقاومة الفلسطينية، واللبنانية لاحقاً، بشراسة، وتوفر منبراً لكل الكتَّاب العرب المطاردين من أنظمتهم. السفير كانت ولا تزال مدرسة، جعل منها مديرها العصامي طلال القادم من عمق البقاع اللبناني كياناً إعلامياً بارزاً. مدرسة خرَّجت العديد من نجوم الصحافة ورؤساء تحرير لأكثر من مطبوعة، مثل جوزيف سماحة وإبراهيم الأمين وبلال الحسن والقائمة تطول.

بعد انتهاء أعمال ندوات اليوم الأول ذهبت إلى «سيتي كافيه» مع مجموعة من الزملاء والزميلات، وهناك انضمت إلينا أمل مدللي، وكانت مستشارة إعلامية للرئيس رفيق الحريري. التفتت إليَّ وقالت: «ألا تريد تقديم واجب العزاء للرئيس الحريري بمناسبة وفاة والدته؟» قلت لها: «أنا لا أعرف الرجل وليس بيننا مجاملات اجتماعية، وليس من طبعي التطفل على الأغنياء أو رجال الدولة، واعذريني لهذا الأمر...». اختفت السيدة أمل لدقائق ثم عادت قائلة: « دولة الرئيس ينتظرك في السابعة مساء الغد»، فأسقط في يدي.

ذهبت إلى منزل دولة الرئيس في قريطم في الموعد المحدد، وكان حزيناً لوفاة والدته، لكن الحديث انتقل إلى السياسة وأوضاع لبنان، وكان خارجاً لتوه من رئاسة الوزارة بعد فوز العماد إميل لحود برئاسة لبنان وتكليفه الدكتور سليم الحص بتشكيلها. الشيخ رفيق قال إنهم بعد عام سيضطرون للجوء إليه لإنقاذ سفينة الحكم من الغرق، فديون لبنان كانت بحدود 24 مليار دولار، وستصل إلى 26 مليار دولار في أقل من عام ولن يجدوا - بحسب قوله - من يقرضهم أو يتساهل في أقساط الديون، وتابع:

- «فماذا سيفعل الدكتور سليم الحص؟ وهل برفضه تولي أي مصاريف مخصصة للرئيس لا تزيد عن بضعة آلاف من الدولارات سينقذ البلاد من أزمتها الاقتصادية؟ أنا كنت أقدم مخصصاتي كرئيس للوزراء للفراشين العاملين في مكتبي».

الشيخ رفيق الحريري كان دمثاً رقيق المعشر، في قمة التهذيب مع ضيوفه، تلقائياً في حديثه، عملياً جداً في نظرته إلى الأمور، يبتعد كثيراً عن المبالغات، ولكن أعترف بأنني لم أكن من الساعين للتقرب منه، بسبب علاقاته القوية مع الأسرة الحاكمة السعودية وعلاقاتي السيئة جداً معها، كان الحريري رجل المملكة في لبنان ورغم ذلك لم يكن أحد من الأمراء الكبار في استقباله في مطار الرياض عندما زارها للمرة الأولى كرئيس للوزراء، لا الأمير عبد الله بن عبد العزيز نائب رئيس الوزراء ولي العهد ولا الأمير سلطان بن عبد العزيز النائب الثاني وزير الدفاع، ولا حتى الأمير سعود الفيصل وزير الخارجية، وإنما أمير من الدرجة الثالثة ورئيس المراسم. ربما اعتبروه أحد «الخويان»، أي واحداً من الحاشية، وسيظل كذلك حتى لو أصبح رئيساً للوزراء في لبنان.

كليمنتين وردة، سكرتيرة في «القدس العربي». هي بالمناسبة آشورية عراقية غير مسيَّسة على الإطلاق، ومعرفتها بالسياسيين العرب محدودة، لكنها تحب صدام حسين، أي أن ليس لديَّ مشكلة معها مثل كثير غيرها من العراقيين، وقد بدأت معنا منذ تأسيس الصحيفة قبل 23 عاماً تقريباً. هي كل شيء في الصحيفة، عاملة البدالة، ومسؤولة العلاقات العامة، والفيلق الأمني، والطابعة، وموظفة الاستقبال، أي أنها لم تكن سكرتيرة خاصة لي كعادة رؤساء التحرير، فللفقر أحكامه. في شهر أيار/مايو 1999، قالت لي السيدة كليمنتين، التي هي قمة في الوفاء والخلق والتضحية، وكاتمة الأسرار أيضاً، إن «شخصاً لجوجاً ذا صوت جهوري... اسمه رفيق الحريري على الخط، وقد اتصل للمرة الثانية، يريد الحديث معك، هل أقول له كالعادة مع الغرباء إنك غير موجود؟!». قلت لها: «يخرب بيتك يا كليمنتين، أعطيني إياه فوراً».

ودارت بيننا المكالمة التالية:

- «أستاذ عبد ... أنا رفيق الحريري.

- أهلاً وسهلاً... سعيد بسماع صوتك.

- هل أنت موجود في لندن بعد غد؟ أنا قادم إلى المدينة وأريد أن ألتقيك على العشاء إذا كان وقتك يسمح.

- نعم... نعم... على الرحب والسعة».

انتهت المكالمة، وبدأت الأسئلة تتزاحم في رأسي. ترى ماذا يريد مني رفيق الحريري؟ لا بد أن هناك موضوعاً ما على درجة كبيرة من الأهمية.

في مساء اليوم التالي، اتصل بي مجدداً معتذراً عن عدم الحضور، وقال إنه مضطر للسفر في صباح اليوم التالي إلى الرياض لأمر مهم، وسيعود بعد

أسبوع، ويقابلني في لندن. قلت له إنني سأذهب في اليوم التالي إلى باريس لأن عندي موعداً الساعة العاشرة صباحاً وأنتهي منه في حدود الحادية عشرة والنصف، فإذا كان موجوداً يمكن أن نلتقي... قال:

- «سأؤخر سفري وأنا في انتظارك على الغداء.

- لا أريد أن أسبب لك المتاعب وأن تفوتك الطائرة. يمكن أن نلتقي بعد أسبوع».

كنت لسذاجتي أعتقد أنه يسافر مثلنا على الرحلات العادية، فقال: «سأطلب إلى الطيار تأخير موعد الرحلة... لا عليك».

أرسل لي الشيخ رفيق سيارة مرسيدس فخمة لتنقلني من فندقي إلى دارته في أفينيو فوش في الحي الأرقى في العاصمة الفرنسية. هناك كان في استقبالي ومعه السيدان نبيل خوري رئيس تحرير مجلة «المستقبل» قبل توقفها وشراء الحريري لامتيازها، ونهاد المشنوق مستشاره الصحافي والنائب الحالي عن كتلة المستقبل.

جلسنا سوياً وتحدثنا عن الأوضاع العربية ثم عن الأوضاع اللبنانية، حتماً. وكان الشيخ رفيق قد ترك الوزارة للمرة الثانية أو الثالثة لا أعرف، ويخطط لإصدار صحيفة «المستقبل»، وهي «يومية مختلفة» على حد وصفه. وقال إنه يقرأ «القدس العربي» يومياً وهو معجب بها، ويريد أن يكون هناك تعاون بين مشروعه الجديد وصحيفتنا من خلال نشر صفحة «العبريات» التي تميَّزنا بها وبشكل يومي في صحيفة «المستقبل»، وأن يُذكر أنها تُنشر بإذن من «القدس العربي» وفي الوقت نفسه.

همس المرحوم نبيل خوري في أذني بأن دولة الرئيس سيخصص مبلغاً كبيراً مقابل هذا التعاون، في حدود 100 ألف دولار شهرياً أو أقل أو أكثر في حال الموافقة على هذا التعاون.

بعد حديث استمر ساعة ونصف الساعة تقريباً، انتقلنا نحن الأربعة إلى مائدة الغداء. كانت خيبة أملي كبيرة، فقد كان عبارة عن سلطات وتبولة (من دون زيت) والكثير من الخيار والخس وبعض اللبنة. خيبة أملي لأني توقعت أن يكون طعام الملياردير الأشهر في لبنان أكثر دسامة وتنوعاً. لا أطلب الكافيار، وإنما الحد الأدنى من المشهيات كالكباب أو السمك أو حتى اللحم بعجين. التفتُّ إلى الشيخ الحريري وقلت له: «هل نحن أرانب دولة الرئيس؟».

ضحك ضحكته الجهورية وقال لي:

- «اعذرني يا عبد ... أنا عامل ريجيم هذه الأيام وأمرني الطبيب بأن أخفض وزني عشرة كِيلو على الأقل.

- وما ذنبي أنا الذي يعاني من أنيميا حادة وفقر دم مزمن ورفيع مثل الخيط؟».

اتفقنا على اللقاء بعد أسبوعين في باريس... وهكذا كان. وتملَّصت من الاتفاق لعدة أسباب: أولها أنني تيقنت أن الرجل ليس بحاجة إلى الصفحة العبرية التي تتضمن ترجمات من الصحف الإسرائيلية، فيمكنه وهو الثري أن يوظف عشرة مترجمين، كما أن هناك مكتب ترجمة في القدس المحتلة يديره شخص اسمه عطا القيمري يمكن أن يتعاون معه مباشرة.

أحسست أن الشيخ رفيق يريد أن يدعم «القدس العربي» مالياً، ويكسبها لصالحه، ربما بإيعاز من المملكة العربية السعودية، وربما لا، وهو جهد مقدَّر له، ولكن مجرد أن يشاع في لبنان أن الحريري يدعم «القدس العربي» قد يكون نهاية الصحيفة أو بداية النهاية لها، أو هكذا اعتقدتُ، والله أعلم.

الشيخ الحريري، وبعد أن أدرك بذكائه اللماح أن طرحه التعاون لم يرق لي، التفت إليَّ قائلاً بصراحته المعهودة: «عبد... أريد أن أطرح عليك سؤالاً». قلت: «تفضل دولة الرئيس». قال: «الناس يلهثون خلف الأثرياء لكي يستفيدوا مادياً منهم... ولكن عندما يجري هؤلاء الأثرياء خلف شخص ويضيع الفرصة ولا يستفيد منهم كيف يكون هذا الشخص؟». أجبت بسرعة: «يكون حمار... واسمه عبد الباري عطوان؟» وهنا انفجر الحريري بالضحك مجدداً.

لا زلت لا أعرف من يقف وراء اغتيال الشيخ رفيق الحريري، لكنني متيقن من أن المحكمة الدولية التي تحقق في كيفية اغتياله هي محكمة مسيَّسة، وإلا ما معنى إلقاء التهمة تارة على سورية وتارة أخرى على حزب الله، وتأخير صدور قرار الاتهام الأخير أكثر من ثمانية أشهر، وإلصاق التهمة بثلاثة من قادة حزب الله الميدانيين؟

لست من المؤمنين بنظرية المؤامرة، ولكن لماذا لا تكون إسرائيل أحد المتهمين؟ فعندما علمت إسرائيل أن الرئيس عرفات غاضب جداً من الرسام ناجي العلي بسبب انتقاداته اللاذعة ورسومه الكاريكاتورية الجارحة ضده شخصياً دخلت على الخط، وأرسلت عميلاً مزدوجاً لاغتيال الرسام الفلسطيني الأشهر في لندن. إسرائيل ربما تكون قد فعلت الشيء نفسه، أي أنها أدركت أن النظام السوري مستاء جداً من بروز رفيق الحريري على الساحتين العربية والدولية، ومحاولاته الهيمنة على لبنان وتهميش حلفائها، وإقامة علاقات وثيقة مع فرنسا شيراك وأميركا كلينتون وبوش، وكذلك قررت إسرائيل اغتياله وإلقاء التهمة على عاتق سورية وحليفها الأقوى في لبنان حزب الله لتجريم الطرفين ومحاصرتهما عربياً ودولياً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الحريري وحزب الله

الشيخ رفيق الحريري وفي جلسة خاصة اقتصرت علينا نحن الاثنين أبلغني بأن العدو الحقيقي للبنان هو إسرائيل، والأكثر من ذلك قال إن العدو الأشرس للمسلمين، والسنَّة بالذات، في لبنان هي المارونية السياسية. وأكد لي أن علاقته ممتازة مع السيد حسن نصر الله ويلتقيه باستمرار، ووصفه بأنه حليف قوي. وكررها أمام السيد المشنوق في آخر لقاء بيننا: «عبد... إصحى تغلط... المارونية السياسية هي أكبر أعدائنا».

عاتبت الشيخ رفيق في اللقاء نفسه على إقدام حكومته في زمن الرئيس الياس الهراوي على فرض إجراءات مشددة على حركة الفلسطينيين اللاجئين في لبنان، وسحب وثائق سفرهم، وعدم السماح بدخولهم إلا بعد الحصول على تأشيرة دخول رسمية، وكذلك وجود مئات الأسر على الحدود السورية - التركية من اللاجئين في لبنان محظور عليهم العودة بعد طردهم من ليبيا.

قال لي الشيخ رفيق إنه لم يكن صاحب هذا القرار وإنما الرئيس الهراوي، لأنه هو المسؤول عن الأمن العام الذي هو خارج صلاحيات رئيس مجلس الوزراء. ولا أعرف ما إذا كان ما قاله صحيحاً أو لا... كل ما أعرفه هو أنني عندما التقيت السيد عبد الحليم خدام قبل أربعة أشهر من انتخابات الرئاسة اللبنانية وتمنيت عليه، وهو الحامل للملف اللبناني في سورية، أن يتدخل ويضع حداً لمعاناة الفلسطينيين في لبنان، قال لي أن أصبر أربعة أشهر حيث سيأتي رئيس جديد ممتاز للبنان، ورئيس وزراء جديد أيضاً، وسيلغي جميع هذه الإجراءات الظالمة، وبالفعل انتخب العماد إميل لحود، وجاءت حكومة الحص التي كان أول قراراتها إبطال جميع الإجراءات المجحفة بحق الفلسطينيين.

السوريون (أتحدث هنا عن النظام) لم يرتاحوا مطلقا للشيخ الحريري وأخطبوطيته السياسية، وكاريزماه الشخصية، وكانوا يتحدثون همساً عن محاولاته إقامة تكتل سنِّي كبير في سورية ولبنان والأردن يكون تحت زعامته. أحد المسؤولين السوريين الكبار والذي رافقته في رحلة من لندن إلى دمشق، وكنا بالصدفة على متن الطائرة السورية، أبدى لي الكثير من الهواجس السورية تجاه الحريري، عندما سألته: «لماذا أصريتم على التمديد عامين لإميل لحود في الرئاسة طالما أنتم قادرون على الحصول على الأغلبية مثلما شاهدنا، للتصويت لصالح مرشحكم في البرلمان؟».

قال لي المسؤول، وهو شخص مقرب جداً من الرئيس بشار الأسد، إن «اللبنانيين «عكاريت» ولا يمكن الوثوق بهم. فالتمديد للرئيس في البرلمان

يتم برفع الأيدي، ولن يجرؤ إلا نفر قليل من النواب على التصويت ضد رغبتنا، لكن الاقتراع على رئيس الجمهورية يتم بالتصويت السري، وفي هذه الحالة لا نضمن أن يصوت العدد الكافي لمرشحنا فالكثير منهم يُظهر لنا الود في العلن، بينما يعمل ضدنا في السر!».

المسؤول نفسه أضاف: «رفيق الحريري كان يريد غطاس خوري رئيساً جديداً خلفاً لإميل لحود المنتهية ولايته، وهو شخص لا نثق به، ولذلك قررنا التمديد للحود عامين لنكسب بعض الوقت ونحبط مخططات الحريري...». وهكذا كان... ولكن بعدها بأشهر معدودة اغتيل الشيخ الحريري بالطريقة الدموية التي شاهدناها.

التقيت سعد الحريري مرة واحدة في هامبورغ وبعد بضعة أشهر من اغتيال والده، حيث كان كلانا مدعواً للمشاركة في ندوة نظَّمها صندوق النقد الدولي. الحريري الابن كان حديث العهد بالسياسة. كان لطيفاً ومؤدباً، وذكر لي أنه يعرفني من خلال شاشات التلفزة، وتواعدنا على اللقاء في جلسة خاصة إذ كنا ننزل في الفندق نفسه، لكن اللقاء لم يتمَّ. أنا أشفق عليه من ضباع السياسة اللبنانية ووحوشها، مثلما أخشى عليه من تحالفاته وحلفائه. السياسة اللبنانية تحتاج إلى نوعية خاصة من الرجال، يجمعون بين شراسة الأسد ومرونة الثعلب في الوقت نفسه، ولا أعتقد أن هذه المواصفات تتوفر في الشيخ سعد الحريري، وآمل أن أكون مخطئاً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

منع من الدخول!

بعد الاحتفال بالعيد الخامس والعشرين لصدور صحيفة «السفير» لم أزر لبنان، رغم دعوات عديدة تلقيتها من محطات تلفزة والجامعة الأميركية في بيروت لإلقاء محاضرات سياسية حول أوضاع المنطقة. إلا أن دعوة واحدة توقفت عندها طويلاً؛ فأثناء العدوان الإسرائيلي على لبنان في يوليو/تموز 2006 وصلتني دعوة من السيد حسن نصر الله لمقابلته في بيروت في ذروة الحرب. وقد كنت من أكثر المؤيدين شراسة لحزب الله والسيد نصر الله، حتى إنني وصفته بأنه أعظم «زعيم سنِّي» ظهر في المنطقة منذ جمال عبد الناصر، وذلك خلال أحد لقاءاتي على قناة الجزيرة.

لم ألبِّ الدعوة لأسباب أمنية، مع أن حاملها أكد لي أن الحزب سيرتب لي السفر عبر تركيا أو سورية أو قبرص رغم إغلاق مطار بيروت، فقد خشيت أن أكون متابعاً من المخابرات الغربية ويحصل مكروه للسيد نصر الله أو لي شخصياً. وقد ندمت على ذلك كثيراً لأنه يبدو أن السيد نصر الله غضب مني، فقد زرت بيروت ثلاث مرات بعدها ولمَّحت لمقربين منه رغبتي بمقابلته ولم أتلقَّ رداً بالسلب أو الإيجاب.

أغرب الدعوات وجهها لي النائب اللبناني إميل رحمة أثناء مشاركتنا سوياً في برنامج يقدمه الزميل عماد مرمل في قناة المنار مساء كل جمعة. النائب رحمة، وكان وطنياً جداً في طرحه، أُعجب بمواقفي، وقال لي إنه سيتشرف باستضافتي في ضيعته «بشرِّي» لمدة شهر أو أسبوع حتى أرتاح من ضغط الحياة في لندن، فقلت له إن هذه الدعوة مكلفة جداً له، فقال وكأنه شعر بالإهانة إنه «بخير والحمد لله» ومن أسرة ميسورة وسيؤمن لي بطاقة السفر وكل شيء، رددت عليه بأن التكلفة هنا ليست مادية، وإنما سياسية أمنية، فأنا ممنوع من دخول لبنان. استغرب الرجل هذا وقال إنه سيبحث الأمر مع الجهات العليا.

يوم الاثنين، أي بعد يومين من البرنامج، اتصل بي السيد رفيق شلالا مستشار الرئيس اللبناني ميشال سليمان وقال لي «إن الرئيس (كان قد انتُخب لتوه رئيساً للجمهورية) شاهد البرنامج واستغرب أن تكون ممنوعاً من دخول لبنان، وأصدر أوامره فوراً برفع اسمك من كل قوائم الممنوعين على المعابر الحدودية البرية والجوية، وأهلاً بك في لبنان ضيفاً عزيزاً».

عرفت بقرار المنع عندما دعاني المنتج أحمد العريان للمشاركة في ندوة سياسية تلفزيونية تسبق عرض أوبريت «الحلم العربي»، وهو أوبريت سياسي غنائي يتحدث عن جرائم إسرائيل ومجازرها ضد العرب يشارك فيه أكثر من أربعين من أشهر الفنانين العرب. فبعد تصوير المناقشة بمشاركة

بشارة مرهج وزير الداخلية اللبناني السابق، وخالد السفياني أمين عام المؤتمر القومي العربي السابق، توجهت في فجر اليوم الثاني إلى المطار لأستقل الطائرة المغادرة إلى لندن حيث كان من المقرر أن يغلق المطار في الساعة التاسعة صباحاً بأمر من حزب الله على أرضية التوتر مع جماعة 14 آذار. في المطار استغرب ضابط الجوازات كيفية دخولي إلى لبنان، وقال:

- «أنت ممنوع من الدخول، كيف دخلت؟

- دخلت من المطار، وهذا ختم الدخول.

- إن من ختم الدخول لم يطَّلع على قوائم الممنوعين من الدخول.

- الآن أنا مغادر... ومن المنطقي أن تعيدوني على الطائرة نفسها لو كنت قادماً... لكن بما أني مسافر فماذا يمكن أن تفعل بي؟».

كان الضابط مهذباً مثل كل اللبنانيين، وقال لي إن عليَّ الاتصال بالسفارة اللبنانية في لندن لرفعي من قائمة الممنوعين، أو تكليف محام للاتصال بالجهات المعنية في لبنان لاتخاذ الإجراء نفسه.

الرئيس ميشال سليمان أعفاني من كل هذه «اللبكة» مشكوراً ورفع اسمي من القائمة السوداء، وقد علمت بوسائلي الخاصة أن السلطات السورية عندما كانت الآمر الناهي في لبنان هي التي وضعت اسمي على القائمة عندما كنت أنتقد سورية بشدة وسياساتها تجاه العراق ومنظمة التحرير الفلسطينية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

9. ياسر عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية

عرفت ياسر عرفات، قائد منظمة التحرير الفلسطينية، الذي توفي يوم 11 تشرين الثاني/نوفمبر 2004، لسنين عديدة. ورغم أنني كنت أختلف معه كثيراً، فإنه يبقى شخصية مهمة بشكل فريد في حياتي وكذلك، بالطبع، في حياة كل الفلسطينيين. رغم أن سيرته السياسية كانت مفعمة بالقضايا المثيرة للجدل وأنه تلقَّى قدراً كبيراً من النقد من أصدقائه وأعدائه على السواء، فقد مات من دون أن يساوم على الوضع الفلسطيني، ومن دون أن يقوم بتنازلات، ومن دون أن يستسلم. لذلك فقد حوصر ثم، كما أعتقد، جرى تسميمه على يد الإسرائيليين، لكنه حافظ على كرامته حتى النهاية، ويتذكره شعبه الآن ويحترمه كفلسطيني عظيم حقاً.

حين كنت أؤسس «القدس العربي»، طلبت إلى عرفات نصيحة حول فن القيادة وكيفية التعاطي مع المرؤوسين، فرد علي بقول مستوحى من القرآن: «أولاً، تجنب الغضب واغفر للآخرين؛ ثانياً، لا تكن فظاً أو غليظ القلب. الفشل في تلك المبادئ، كما قال، يؤدي إلى الغدر بك وتركك».

أسس عرفات فتح في أواخر الخمسينات وكان قد أصبح شخصية أسطورية فيما كنت أتحول من صبي إلى شاب. في ظل عرفات، طورت فتح جناحاً عسكرياً، «العاصفة»، وعلى عكس سابقيه، مثل أحمد الشقيري المحامي البارع والأكثر ثقافة منه والأبلغ خطابة، وأول قائد لمنظمة التحرير، بدا عرفات شخصاً مقاتلاً بملابسه المموهة وكوفيته التي أصبحت علامته الفارقة. بالنسبة لنا، كان عرفات بطلاً ناطقاً باسمنا ومجسِّداً لأحلامنا وطموحاتنا.

أحبه الناس لأنه كان يتحدث بلغتهم، ولم يستخدم بلاغة الإيديولوجيا الماركسية، أو عقيدة القومية العربية التي كانت الأكثر رواجاً تلك الأيام بين الشباب والشيوخ معاً. كانت لديه قضية واحدة: تحرير فلسطين من الاحتلال الإسرائيلي.

شخصية عرفات البسيطة، وكوفيته، انعكستا بشكل واضح على منظمة التحرير الفلسطينية، وأصبحت حركة فتح هي الجهة المهيمنة فيها بعد اختيار عرفات رئيساً للمنظمة خلفاً للسيد يحيى حمودة الرئيس الانتقالي المؤقت، لكن الحركة استمرت محافظة على هويتها وإيديولوجيتها، إلى جانب فصائل أخرى مثل الجبهة الشعبية التي واجهت عدة انشقاقات لاحقاً. حركة فتح أسرت الشعب الفلسطيني والشباب خاصة عندما أسست إذاعات خاصة بها في القاهرة وعمان وبغداد رددت أغاني ثورية شكلت الوعي، مثل أغنية «فدائي فدائي». و«أنا ابن فتح ما هتفت لغيرها»، و«صامد أنا صامد»، وهكذا.

هذه الأناشيد والأغاني الحماسية أصبحت تتردد في الحفلات والأفراح وطوابير الصباح في المدارس.

الرجل الذي كتب العديد من هذه الأغنيات كان قريباً لي يدعى سعيد المزين، وكان سفيراً فلسطينياً سابقاً في السعودية وعضواً في المجلس الثوري للحركة ومن الرعيل المؤسس. كان امتيازه عن الآخرين كونه شارك في المعركة الأولى مع ياسر عرفات في السبعينات. كان الاثنان على خلاف إيديولوجي حول الاتجاه الذي يجب على فتح أن تتخذه.

كان سعيد المزين رجلاً محافظاً في توجهاته السياسية، وأقرب إلى حركة الإخوان المسلمين، ولذلك كان في حال من الصدام الدائم مع ياسر عرفات الذي أرسله بسبب ميوله السياسية الإسلامية إلى الرياض مندوباً لحركة فتح، فقد كانت السعودية ترفض الاعتراف بمنظمة التحرير. السعوديون دعموا المزين وقرَّبوه منهم كثيراً، واعتقد مخطئاً أنهم يمكن أن يختاروه بديلاً لعرفات. وأثناء زيارة عرفات للرياض في إحدى المرات تطور الجدل بينهما إلى شجار، حاول السيد المزين العراك مع رئيسه وربما صفعه، وهنا تدخل الحرس وأوسعوا المزين ضرباً. وقرر الأخير الانشقاق عن الحركة لكن محاولاته لشقِّ آخرين معه باءت بالفشل لأنه لم يلقَ أي تأييد لحركته (1977) وبقي في الرياض حتى توفَّاه الله.

لم أكن أتخيل، خلال مراهقتي في معسكرات اللاجئين، أنني يمكن أن ألتقي كثيراً بذلك النجم اللامع بين الفلسطينيين الذي اسمه ياسر عرفات، ناهيك أن يكون ذلك الشخص المحبوب ليس فقط عرضة للخطأ، بل على خطأ كامل. ولد محمد عبد الرؤوف عرفات القدوة الحسيني في 4 آب/أغسطس 1929. كان دائماً معروفا ضمن عائلته باسم ياسر، لكونه، كما يقال، كان يشبه ياسر البيرة، وهو مقاتل فلسطيني خلال الانتفاضة العربية ضد البريطانيين في الثلاثينات. كان عرفات حذراً في ما يتعلق بمكان ولادته لكن هناك إجماع في الآراء أنه ولد في القاهرة بمصر، وليس في القدس كما كان يحب أن يعتقد. والده كان رجل أعمال من مدينة خان يونس في وسط قطاع غزة، انتقل إلى القاهرة وأقام في حي السكاكيني المتواضع. لم يذكر عرفات والده كثيراً، بل كان حريصاً على الانتماء لأسرة أمه زهوة التي تنتمي إلى عائلة الحسيني العريقة في القدس، فقد كان الحاج أمين الحسيني الذي عينه البريطانيون مفتياً على الشرق، لا على فلسطين وحدها، عام 1921، أحد أعمامها، وقاد الجهاد الفلسطيني ضد الاحتلال البريطاني ثم بعد ذلك ضد الهجرة اليهودية إلى فلسطين. والد عرفات عبد الرؤوف القدوة كان يتنقل بين القاهرة وفلسطين إلى أن توفي عام 1952 ومن المؤكد أن عرفات لم يحضر جنازته.

توفيت زهوة حين كان عرفات في الخامسة من عمره، وأرسله والده إلى القدس لكي يعيش مع خاله هناك، وقد أثَّر هذا الانتقال كثيراً في شخصيته وأصبح أكثر التصاقاً بوالدته وأسرتها. درس عرفات الهندسة المدنية في جامعة القاهرة، وكان نشطاً في صفوف اتحاد الطلاب الذي ترأسه طوال سنوات دراسته الجامعية. وانتقل إلى الكويت حيث أسس مع مجموعة من المدرسين والموظفين الكبار بينهم خالد الحسن وفاروق القدومي وصلاح خلف (أبو أياد) وخليل الوزير (أبو جهاد) ومحمود عباس (أبو مازن) حركة فتح عام 1965، وعام 1969 أصبح رئيساً لمنظمة التحرير الفلسطينية بعد أن ذاع صيته، خصوصاً بعد معركة الكرامة عام 1968.

عرفتُ الرئيس عرفات لأكثر من 25 عاماً، وازدادت علاقتنا توطداً خصوصاً بعد وفاة خليل الوزير (أبو جهاد) الرجل العسكري الأول في حركة فتح الذي اغتالته إسرائيل في تونس. كنت أميل أكثر إلى شخصية أبو جهاد، الرجل المقاتل الذي يقود الكفاح المسلح ضد الإسرائيليين، ويقف خلف معظم العمليات الفدائية الجريئة مثل الهجوم على مفاعل ديمونا والعملية التي قادتها الشهيدة دلال المغربي وأدت إلى مقتل وإصابة عشرات الإسرائيليين عندما هبطت المجموعة على شاطئ تل أبيب.

خليل الوزير (أبو جهاد) كان شخصية متواضعة جداً، يلبس ملابس عسكرية خضراء دائماً، قليل الكلام كثير الأفعال، زاهداً في الزعامة. أذكر أنه في أحد الأيام اتصل بي، وطلب لقائي، وكنت في ذلك الوقت مديراً لتحرير مجلة «المجلة»، وكان سكرتير تحريرها الصديق الزميل أديب أبو علوان. وكان أديب مقرباً من أبو جهاد، واتفقنا على اللقاء في بوخارست عاصمة رومانيا التي كان أبو جهاد بصدد زيارتها، وذهبت إلى هناك مع أديب الذي كان بمثابة ضابط الاتصال الذي أشرف على ترتيب كل أمور السفر. فوجئت بأبو جهاد يعرض عليَّ مشروع تأسيس جريدة يومية تنافس صحيفة «الشرق الأوسط»، وقال إنه مستعد لتمويلها. قلت له إن إعلام منظمة التحرير فاشل لانعدام مهنيته وكثرة التدخلات في شؤونه، واختيار أناس غير أكفاء له، وأيدني أديب أبو علوان في ذلك. قال أبو جهاد إن الصحيفة الجديدة ستكون تحت مسؤوليته ولن يسمح لأحد بأن يتدخل فيها وسيترك لي كل أمورها التحريرية واختيار الطاقم، ولن يفرض عليَّ أي أحد، وطلب إليَّ أن أُعد له دراسة وأن أعرضها عليه في غضون شهر. بعد عشرين يوماً تقريباً من اللقاء اغتيل أبو جهاد. كان ذلك عام 1978 على ما أذكر، لأفاجأ بعد ذلك بعام بتبنِّي الرئيس عرفات للمشروع، وأبلغني بأنه كان على اطلاع بلقائي مع أبو جهاد وأنه قرر الإشراف عليه بنفسه، وكلف أسرة أبو الزلف به.

كان الرئيس عرفات يولي اهتماماً خاصاً للإعلام والإعلاميين، لا الفلسطينيون منهم فحسب، بل من مختلف الجنسيات العربية، بل والعالمية، وأنا أعرف شخصياً أنه كان يقدم مساعدات للكثير منهم من دون أن يعلن عن ذلك، كما تولى تسديد نفقات العديد منهم في مستشفيات أوروبية، ومن هؤلاء لطفي الخولي الكاتب المصري الماركسي المعروف.

كنت قومياً إسلامياً في نظرتي لقضية فلسطين، وأرى أن العمقَين العربي والإسلامي ضروريين بل أساسيين لتحرير فلسطين، وكان هذا مصدر خلاف بيني وبين عرفات الذي يؤمن بأن تحرير فلسطين قضية وطنية تخص الفلسطينيين بالدرجة الأولى، لكنه بدا أكثر ميلاً للأفكار القومية والإسلامية لاحقاً، الأمر الذي جعل خلافنا يتقزَّم ويتلاشى، خصوصاً بعد أن اتخذ موقفاً معارضاً بشدة للتدخل العسكري الأميركي لتحرير الكويت، ما أدى إلى إفلاسه وإفلاس المنظمة، ولم يندم على ذلك قط، فقد كان يؤكد لي أنه قام بالخيار الأصح لأنه لو وقف مع أميركا ودول الخليج أثناء حرب الكويت لخسر الشعب الفلسطيني والعربي أيضاً. كان يقول لي: «أنا عيني على الشارع الفلسطيني يا عبد الباري وبوصلة الشعب هي الأدق». وكان الشارع الفلسطيني في غالبيته الساحقة يؤيد العراق بل وصدام حسين شخصياً، الذي كان يقدم الدعم السخي للانتفاضة ويقدم 20 ألف دولار لأسرة كل شهيد فلسطيني يسقط برصاص الإسرائيليين، وهو موقف لم يتخذه أي زعيم عربي آخر. وفوق ذلك، كان الوحيد في ذلك الحين الذي أطلق 39 صاروخاً لدكِّ تل أبيب عام 1991 رداً على العدوان الأميركي على بلاده.

كان عرفات مخلصاً لأصدقائه وكنت حذراً كفاية كي لا أحرق جسوري معه. هذا يقتضي بعض الجهد حيث إنه كان غالباً ما يحتدُّ من النقد الشرس الموجه إليه في الصحيفة وخلال نقاشاتنا. معظم اختلافاتي مع قيادة منظمة التحرير الفلسطينية كانت تتعلق بمفاوضات السلام التي يجرونها مع إسرائيل، والتي ترعاها الولايات المتحدة، والتي نتجت منها اتفاقات أوسلو عام 1993. كنت ضد هذا وضد كل جولة سابقة في المفاوضات لأنها لم تقم بحل القضايا التي تهم الشعب الفلسطيني بطريقة مرضية: السيادة على القدس، وحق العودة، وتعويض ما يقارب ستة ملايين لاجئ فلسطيني، وتفكيك المستوطنات الإسرائيلية غير الشرعية، والسيطرة على الأمن، وتأسيس حدود نهائية للدولة.

محمود عباس (أبو مازن)، الرئيس الفلسطيني حالياً، لم يكنَّ لي أي نوع من الودِّ على الإطلاق بسبب ما يعتبره رفضي للحلول الوسط. وقد اعتبر أنني أخرِّب بمواقفي السياسية «المتصلبة» جهوده الداعمة للحلول السلمية، وقد وصلت كراهيته لي درجة مناصبتي العداء. وزادت هذه الكراهية بسبب

انتقادي المتواصل لدول الخليج، والمملكة العربية السعودية بالذات التي كان يريد التصالح معها، على أمل عودة أموالها مجدداً إلى شرايين المنظمة المتيبسة. وقد حاول أن يتقرب من دول الخليج ولكن جهوده باءت بالفشل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اتخذ عرفات سبيلاً مختلفاً، وغالباً ما حاول أن يجاملني ليكسبني لطرفه من خلال دمجي بالآلية السياسية لمنظمة التحرير. في عام 1989، على سبيل المثال، تلقيت مرة اتصالاً هاتفياً غريباً من مراسلنا في عمَّان الزميل باسم سكجها وهو كاتب مبدع وصحافي قدير. قال:

- «مبروك عبد الباري.

- لماذا؟ سألت مستغرباً.

- تمَّ انتخابك لعضوية المجلس الوطني الفلسطيني.

- تم انتخابي أنا؟ ذهلت لهذا الخبر إذ لم أكن أعلم أنني مرشح أصلاً. إلى أي حزب أنتمي؟ قلت مازحاً.

- أنت مستقل، وجرى انتخابك على قائمة المستقلين وقد قرأت اسمك في الصحف الأردنية ضمن الأعضاء الجدد.

- شكراً لله، قلت ضاحكاً».

عرفتُ أن لعرفات دوراً في هذا، وحين فكرت في الموضوع اعتبرته تشريفاً لي. كعضو مستقل يمكنني أن أجلس قرب فلسطينيين كبار الشأن مثل محمود درويش وإدوارد سعيد اللذين تمتعت برفقتهما كثيراً، وشخصيات اقتصادية من الوزن الثقيل مثل حسيب صباغ، ومنيب المصري، وسعيد خوري، وباسل عقل، وجويد الغصين، وعبد المحسن قطان (استقال احتجاجاً على موقف المنظمة من غزو العراق للكويت). ومن العدل أن أقول إن هذا كان أكثر مظاهر هذا الوقت الذي قضيته في المجلس الوطني الفلسطيني إثارة ومتعة. حضرت تقريباً كل اجتماع سنوي إلى أن توقف عن الانعقاد عام 1996. كانت تلك فرصة جيدة لأعبر عن نفسي وأن يسمعني أكثر الأشخاص تأثيراً في شعبي إضافة للاستماع إلى وجهات نظر أخرى. عام 1993 دعاني عرفات لمرافقته إلى واشنطن لحضور التوقيع «التاريخي» لاتفاقيات أوسلو. لم أجد صعوبة في رفض هذا العرض. حاول عرفات مجدداً، عام 1994، لأن يكسبني بعرض للانضمام لحكومته في السلطة الفلسطينية كوزير للثقافة والإعلام لكن لم تكن لدي رغبة في أن أصير سياسياً. بعد سنتين، أرسل لي مبعوثاً، هو جبريل الرجوب (مستشاره الأمني في الضفة الغربية)، للقائي في لندن، مقترحاً أن انتقل إلى غزة للعمل وكيلاً للوزارة لمدة ستة أشهر، أصبح

بعدها وزيراً للإعلام. بعرضه منصباً أقل أهمية، ظنَّ عرفات أنه سيعطيني فرصة لمعرفة كيف تجري الأمور، وأن التقي بالأشخاص المناسبين وأرى إن أعجبني ذلك قبل أن أقبل منصباً وزارياً. رغم أن هذا العرض كان أكثر واقعية بقليل ومصمَّم بطريقة أفضل ليناسب طبيعتي (كان عرفات حاد البصيرة) فإنني لم أتردد وجددت رفضي. حين زار لندن بعد عدة أشهر، قام مرة أخرى بعرض منصب وزاري؛ وعدته أن أفكر بالأمر جدياً لأنني لم أرد أن أغضبه، ولا أزال أفكر في العرض حتى الآن!

العديد منا كان معارضاً لاتفاقيات أوسلو لكن حتى المراقبين الدقيقين ذهلوا حين كشف عرفات في البداية أنه أجرى مباحثات سرية مع رئيس الوزراء الإسرائيلي يتسحاق رابين. الذي لا يعلمه الكثيرون أن مياه المفاوضات المباشرة بين إسرائيل ومنظمة التحرير كان قد تم جسُّها منذ أكثر من عقد من خلال عصام سرطاوي، وهو شخصية معتدلة من قادة الصف الثاني في منظمة التحرير. التقيت به في لندن عام 1983 وصُدمت حين أخبرني أنه أجرى محادثات وجهاً لوجه مع سياسي إسرائيلي رفيع المقام. قال زاعماً: «القرار اتخذه عرفات وفتح، لكنهم يُبعدون أنفسهم عنها لأنها مخاطرة ضخمة. ولا مانع لدي أن أقوم بالأعمال القذرة إذا كانت تحقق مصالح شعبي وطموحاته». لم أقتنع بكلام سرطاوي، لكنني أشفقت عليه، ولم أفاجأ عندما اغتالته مجموعة تابعة لأبو نضال في البرتغال بعد شهرين من ذلك اللقاء حيث كان يشارك في مؤتمر بحضور شمعون بيريس.

أحسست أن «براغماتية عرفات السياسية» كشفت أجندة متمركزة حول الذات بشكل متزايد. كان من المعروف تماماً أن الولايات المتحدة كانت تفتش عن بديل له كممثل عن الشعب الفلسطيني خلال عملية السلام نتيجة دعمه لغزو صدام حسين للكويت عام 1991. كانوا قد لاقوا نجاحاً مع شخصيات فلسطينية كبيرة أخرى ظهرت خلال الانتفاضة بمن فيهم فيصل الحسيني وحنان عشراوي، التي تقود حالياً حزب «الطريق الثالث» المستقل. ربما لأنه أحس بخطر فقدان منصبه وافق عرفات على المحادثات السرية التي بدأها أحمد قريع (أبو العلاء) بإشراف مباشر من محمود عباس (أبو مازن) عام 1993 مع مسؤولين إسرائيليين بتكليف من اسحق رابين في أوسلو. استفاد عرفات من اتفاقيات أوسلو في الاعتراف الذي حصلت عليه منظمة التحرير باعتبارها الممثل الشرعي للشعب الفلسطيني وبتأسيس السلطة الفلسطينية، التي قام برئاستها، وبسيطرتها الإدارية على غزة وأريحا.

باتفاقيات أوسلو، اعترف عرفات بحق دولة إسرائيل بالوجود وأدان كل أشكال الإرهاب إضافة إلى مساهمته في إنهاء الانتفاضة الأولى، وهي تنازلات

ضخمة، حصل على شيء قليل جداً مقابلها. برأيي أن عرفات باع ست سنوات من التضحيات الفلسطينية (الانتفاضة) بثمن رخيص وكشف كل أوراقه مع بداية اللعبة. يمكنني أن أرى أن عرفات قام بخطأ في التعامل مع القادة الغربيين بالعقلية العربية التي تفترض أنك لو عبَّرت عن حسن النية فإن الطرف الآخر سيرد بالطريقة نفسها. هذه العقلية لا تعمل مع الولايات المتحدة والأوروبيين الذين يتوقعون أن تكون الدبلوماسية نوعاً من المقايضة. كان إدوارد سعيد يردد دائماً أن أكبر نواقص ياسر عرفات كقائد أنه لم يفهم الغرب، وأميركا على وجه الخصوص، بشكل جيد، واعتمد دائماً أساليب الفهلوة مع غرب مادي براغماتي بخيل جداً في عطائه، ولا يقدم شيئاً بلا مقابل. عام 1972، خلال الحرب الباردة، قرر الرئيس المصري أنور السادات أن وضعه سيكون أفضل إذا دعمته الولايات المتحدة، وكان يناقش إمكانية طرد المستشارين العسكريين السوفيات في بلاده مع الملك السعودي فيصل. فهم فيصل العقلية الغربية بشكل جيد ونصحه أن يتفاوض مع الولايات المتحدة على استعادة سيناء (من الإسرائيليين) مقابل قراره. لا ضرورة للقول أن السادات لم يلتزم بهذه النصيحة ولم يحصل على شيء مقابل تبديل ولائه.

أتذكر ذهابي لزيارة عرفات في مكتبه بتونس أواخر حزيران/يونيو 1994. كان ذلك قبل أيام قليلة من عودته التاريخية لغزة. كان وحيداً وحزيناً. بعض من بطانته هجروه لأسباب إيديولوجية، رافضين الالتزام باتفاقيات أوسلو؛ آخرون، وكانوا ربما الغالبية، تركوه لأسباب مالية. الدعم المالي من الكويت والسعودية توقف نتيجة دعم منظمة التحرير للعراق في حرب الخليج الأولى وخزائن المنظمة كانت فارغة في تلك الفترة. تحدثنا لعدة ساعات وفي الساعة الثالثة صباحاً، فيما كنت أغادره، قال لي: «اسمع يا عبد الباري، أنا أعلم أنك ضد اتفاقات أوسلو لكن لا تنسَ أبداً ما سأقوله لك: يوماً ما الإسرائيليون سيهربون من فلسطين بالآلاف. لن أرى هذا خلال حياتي لكنك بالتأكيد سترى ذلك، واتفاقات أوسلو ستكون سبباً مساهماً في ذلك».

عرفات الذي يؤمن بسياسة المراحل، ويملك موهبة غير عادية في فنِّ البقاء، اعتقد أنه يمكن أن يستخدم اتفاقات أوسلو كطوق نجاة، لنفسه ولقيادته وللمنظمة، ووسيلة لكسر الحصار الدبلوماسي العربي والعالمي الخانق المفروض عليه، والمالي منه بشكل خاص. لقد أهانه حكام الخليج، وفشلت كل مساعيه للمصالحة معهم. فقد كان البعض منهم حقوداً. السيدة علياء الصلح التي كانت تربطها علاقات جيدة جداً مع الأمير سلطان بن عبد العزيز وزير الدفاع السعودي كانت خلف ترتيب أول زيارة له للرياض بعد أزمة حرب الخليج، وشعر بالإهانة عندما طلب إليه السفير السعودي في تونس في عام

1992 تعبئة طلبٍ تأشيرة دخول مثل المواطنين العاديين. الحظر السعودي لم يُرفع عنه مطلقاً، وإن رُفع فبصورة شكلية.

لم يغادر الإسرائيليون فلسطين بعد بالآلاف كما توقع عرفات، لكنهم انسحبوا من غزة لأنهم لم يستطيعوا تحمل خسائرهم البشرية الضخمة بسبب عمليات حركة «حماس» البطولية، حيث كثفت الحركة عملياتها الجهادية بشكل مثير للإعجاب. هناك دليل على وجود هجرة معاكسة، من إسرائيل إلى أوروبا والولايات المتحدة وكندا. أنا أؤمن بأن الإسرائيليين يشعرون باطّراد بتراجع أوضاعهم الأمنية، وزيادة التهديدات ضدهم إلى جانب إحساس عام بالإرهاق بسبب النزاع المحلي والعالمي، وبسبب ما هو الأقرب إلى الذاكرة، حرب 2006 في لبنان. الحرب مع حزب الله التي استمرت أربعة وثلاثين يوماً، كانت الأولى التي يفشل فيها الإسرائيليون بإنجاز نصر حاسم، ويتعرضون فيها لأول مرة لهطول الصواريخ في مدنهم (4 آلاف صاروخ) أدت إلى هروب مليون منهم إلى الجنوب للنجاة بأرواحهم.

مع عام 1995 كان معظم الفلسطينيين قد فقدوا إيمانهم باتفاقات أوسلو، لكن منظمة التحرير كانت قد ألزمت نفسها «بمفاوضات الوضع النهائي» التي عُقدت في كامب ديفيد في تموز/يوليو 2000. خلال هذا الوقت لم أعد أرى عرفات كثيراً ولم أعرف أفكاره قبل أو خلال المحادثات. إضافة لذلك، ما كان مسموحاً للمشاركين في المفاوضات بالتخاطب عبر هاتف جوال أو ثابت، لضمان أن لا يعرف العالم الخارجي أي شيء مما يحدث. على أي حال، فقد قام محمود عباس بطلبٍ مغادرة مقر المفاوضات إلى رام الله لحضور حفل زفاف ابنه ياسر، مستغلاً فترة توقفها لمشاركة الرئيس بيل كلينتون في قمة الدول الصناعية الثمانية المنعقدة عند ذلك في طوكيو. توقف أبو مازن في لندن، وأرسل إليَّ الصديق أحمد الخالدي، وكان مقرباً جداً منه، وشارك في وفد المفاوضات لاحقاً، ليبلغني رسالة مفادها أن محمد دحلان، وحسن عصفور، ومحمد رشيد، كانوا موافقين على القبول بالمسوَّدة الرئيسية النهائية التي قدَّمها الرئيس كلينتون إلى الوفد الفلسطيني كمشروع اتفاق حل نهائي، تضمَّنت إعطاء سيادة جزئية للإسرائيليين على القدس المحتلة، أي أن تكون لهم السيادة على ما تحت الأرض، وتقليص حق العودة لبضعة آلاف، والاحتفاظ بمستوطنات القدس. وقال إن هذا المثلث ضغط على عرفات للقبول بصيغة الاتفاق هذه وكان الهدف من التسريب إفشال المفاوضات.

عباس وعرفات، مع ذلك، ما كانا ليقبلا بهذه النقاط. لا أدري إن كانت هذه التسريبات بمبادرة من عباس أو أنه دُفع لذلك من قبل الرئيس عرفات، لكن نشرنا هذه المعلومات أدى إلى لغط وهياج بين الفلسطينيين وخلاف دولي.

البعض يعتقد أن هذا التدخل من قبل عباس لعب دوراً مهماً في تخفيف الضغط على عرفات وإلى اقتراب مفاوضات كامب ديفيد من الفشل.

مستفيداً من امتيازي بأحاديث خاصة مع عرفات، كنت غالباً ما أعلم أجندته الخفية ومكائده الاستراتيجية. بعد كامب ديفيد، أخبرني بأنه وقَّع اتفاقيات أوسلو كمناورة لكسب الوقت وكسر العزلة التي فُرضت على منظمة التحرير بعد حرب الخليج الأولى. قال لي إنه لم يكن يرغب أبداً أن يساوم على حق اللاجئين بالعودة وإنه قاوم ضغطاً هائلاً للتنازل لإسرائيل عن السيادة على القدس خلال مفاوضات كامب ديفيد. كان منزعجاً بشكل خاص من أن هذا الضغط لم يكن فقط من الولايات المتحدة بل أيضاً من قادة آخرين عرب؛ رغم منع الاتصالات الهاتفية، فقد سُمح له بتلقِّي اتصال هاتفي من الأمير عبد الله بن عبد العزيز السعودي الذي حثَّه على أن يكون «مرناً» حول قضية القدس.

بالنسبة لفشل محادثات كامب ديفيد، هناك حاشية للموضوع. أحد مساعدي عرفات أخبرني لاحقاً أن قائد منظمة التحرير اتصل بكلينتون قبل ثلاثة أيام من مغادرته لمنصبه في كانون الثاني/يناير 2001. «أنت رجل عظيم»، قال له عرفات. «بحق الجحيم أنا كذلك The hell I am» هذا ما قيل إن كلينتون رد به. «أنا فاشل هائل لكنك جعلت مني عظيماً».

عملياً، أخرجت الولايات المتحدة الأميركية عرفات من الخدمة بعد محادثات كامب ديفيد، وقد أخبرني قائد فتح أنه، كردٍّ مباشر على ذلك، أشرف شخصياً على تشكيل جناح فتح للعمليات الاستشهادية، كتائب شهداء الأقصى، التي قامت بأولى هجماتها يوم 29 تشرين الثاني/نوفمبر 2001 وكانت ناشطة جداً خلال 2002. كان عرفات قد أدان قبل ذلك استخدام «القنابل البشرية» التي استخدمتها حماس منذ 1994، لكنه بعد ذلك فقد أي أمل بتسوية من خلال المفاوضات. كما قال خصمه السياسي جورج حبش مرة: «طبيعة النضال تحددها طبيعة العدو». كما أن عرفات لم يرغب بأن تخطف حماس راية النضال المسلح بعملياتها الاستشهادية. كان عرفات راغباً بالمنافسة.

لقد نجحتُ في وضع نفسي في الجانب المواجه لعرفات مبكراً في حياتي، وهو أمر كان يمكن أن يكون كارثياً بالنسبة لي. لم يكن هذا لخلاف سياسي ولكن لسخريتي من أمر يتعلق به. يعود ذلك لعام 1984، حين كنت أغطي جلسات المجلس الوطني الفلسطيني في عمان لصحيفة «الشرق الأوسط». لم أستطع تجاهل سيدتين عجوزين بدينتين تلبسان الثوب الفلسطيني الكامل جالستين في مقاعد الشرفة. ما إن دخل عرفات القاعة حتى بدأتا بالزغردة؛ حين كان يفتح فمه ليتكلم كانتا تزغردان؛ وحين قام عرفات ليغادر، حصل الشيء نفسه: «لولولولولولوليش»، مثل كورس، كما لو كانتا في حفل

موسيقي. بدا الأمر كما لو أن عرفات أحضرهما إلى هناك كجزء من الحاشية، وقد اعتبرتُ ذلك أمراً رخيصاً ومسيئاً وغير مقبول ولا يليق بزعامة شعب مقاتل.

عند عودتي إلى لندن، كتبت مقالة عن السيدتين في الشرق الأوسط تحت عنوان «مؤذِّنات أبو عمار». كانت قطعة ساخرة لكن عرفات لم يكن مسروراً. اتصل بالصحيفة وطلب الحديث إلى رئيس التحرير، محتجاً على المقالة وزاعماً أنني قمت بإهانته شخصياً. أخبرني محرر الصحيفة أن عرفات كان يصيح وأنه هدد بعدم السماح لي بمقابلته مرة أخرى؛ أعترف أنني شعرت بالقلق لأنني تجاوزت بعض الحدود المتعارف عليها، لكنه كان حكيماً ومتسامحاً، وهذا سر زعامته وشعبيته.

في عام 1988 أحسست بالحاجة لجس الأمور مع عرفات مجدداً. في تموز/يوليو من ذلك العام، أعلن الملك حسين تخلي الأردن عن السيادة على الضفة الغربية، تحت عنوان ما سمي في حينه بفك الارتباط بين الضفتين، وكانت هذه خطوة كبيرة ذات أهمية بالغة للفلسطينيين، حيث إنها كانت تعني، عملياً، أن الضفة الغربية صارت تابعة لهم.

اتصلت بعرفات متردداً. كان في بغداد في ذلك الوقت لدعم موقف بغداد التي كانت في حرب آنذاك مع إيران. اختلفتُ مع ذلك الموقف لكنني تجنبت الموضوع في محادثتنا القصيرة. أعطى حذري ثماره وتبادل المشاعر القلبية أدى إلى دعوتي لمقابلة قائد منظمة التحرير في بلغاريا بعد أيام من الاتصال.

كنت في سيارة أجرة متوجهاً إلى المطار حين سمعت صوت انفجار ضخم. آخر ما أتذكره كان استيقاظي في المشفى متألماً. حين لمست رأسي، عادت يدي مغطاة بالدم؛ نظرت إلى الأسفل ورأيت قميصي الأبيض مضرَّجاً بالدم أيضاً. كانت ممرضة تقوم بتنظيفي وسألتها عما حصل. قالت:

- «كنتَ مكوَّماً على الطريق السريع إم 4.

- ما حجم الأذى الذي تعرضتُ له؟ هل كان مفروضاً أن أكون في العالم الآخر؟

- لديك الكثير من الجروح، ورضٌّ في منطقة الرقبة، وأنف مكسور، وجرح في الرأس، قالت كالمبتهجة».

اتضح أنني قُذفت من المقعد الخلفي عبر زجاج السيارة الأمامي لشدة الصدمة لأنني لم أكن أضع حزام الأمان. كانت معجزة أنني لم أتعرض لإصابة أكبر وكان واضحاً أن عدداً من الناس قد قُتلوا في الحادث، لذلك أحسست أن العناية الإلهية حرستني أكثر من كوني محظوظاً. من الواضح أن الله أراد لي

أن أجري المقابلة مع عرفات. أخبرت الممرضة المذهولة أنني سأخرج من المشفى حالاً. لحسن الحظ أن حقائبي جاءت معي في سيارة الإسعاف فتمكنت من تبديل ثيابي المبقعة بالدم قبل أن أقفز في سيارة أجرة وأتجه إلى المطار مجدداً، حيث، لحسن الحظ مجدداً، كانت رحلتي قد تأخرت وتمكنتُ من السفر.

نظرت مضيفة «بريتش إيرويز» نحوي بارتياب: «هل أنت متأكد من أنك قادر على السفر؟» هززت رأسي. استدعت المشرف عليها وسمعتُ شذرات من محادثتهما الهامسة، فيما كان المدير يتمتم: «ربما علينا أن نتصل بالشرطة». بدا عليهما القلق وانتبهت إلى أن شكلي، بوجهي المتورم وأنفي المكسور، بدا كما لو كنت هارباً من شيء. شرحت لهما قدر ما استطعت، مصمماً على الذهاب إلى صوفيا وإجراء المقابلة؛ لم أرغب في أن أفقد مصداقيتي مع عرفات وعلمت أن المقابلة ستكون تاريخية ومهمة. في النهاية أعطياني بطاقة الصعود للطائرة وكان لدي بعض الوقت الكافي لشراء صحيفة قبل أن أتوجه للطائرة. في محل بيع الصحف، تعجبت من رؤية نسخة من مجلة «بلاي بوي» وعلى صدر غلافها مقابلة مع عرفات. كان هناك صورة صغيرة له في زاوية القسم الأعلى من الغلاف وثماني صفحات عنه في الداخل. اشتريت نسخة ووضعتها في حقيبتي.

استُقبلت بارتياب مشابه في صوفيا، وعند مغادرتي المطار تبعتني الشرطة السرية. وجدت فندقاً لكنني لم أستطع النوم لأن الألم كان فظيعاً. في الصباح الباكر، سمعت نقرة على بابي فقمت متعثراً، بعينين مشوشتين، لأفتح الباب. وجدت موظفاً من الفندق متجهماً وواقفاً عند الباب. قال لي:

- «عليك أن تغادر الغرفة الآن.

- أغادر الغرفة؟ لكنها الساعة السابعة فحسب. لا أعرف أي فندق عليك أن تغادر فيه قبل منتصف النهار، قلت وأنا غير مصدق.

- هذه بلغاريا، قالها مصرَّاً».

كنت مجهداً ومحتاجاً لمزيد من النوم لأخرج من صدمة الحادث وأكون جاهزاً لمقابلة عرفات.

أخرجت محفظتي من جيب معطفي وقلت له:

- «أوكي، انظر! سأدفع أجرة ليلة ثانية، كم هو المبلغ؟

- يجب أن تغادر الآن، ثم تعود عند منتصف النهار. موظف الاستقبال يأتي في ذلك الوقت».

كنت مذهولاً وغاضباً. كنت مغطى بالضمادات واللواصق، وكان واضحاً أنني أتألم كثيراً وأحتاج للراحة.

- «ماذا عليَّ أن أفعل الآن؟ أبقى في الشارع؟

- إذا أردت أن تفعل ذلك فهذه مشكلتك، قال مضطهدي.

- حسنا، لن أغادر. يمكنك أن تفعل ما تشاء. أنا انتظر أشخاصاً وهم آتون عند العاشرة».

أغلقت الباب وزحفت عائداً إلى السرير. كنت قد جنحت للنوم حين سمعت ضرباً عنيفاً على الباب. هذه المرة وجدت رجلين شرِّيرَي الخلقة بلباس الشرطة الرسمي، أبلغاني، بأيد متصالبة، بأنني إذا لم ألتزم بـ«التعليمات» سأعتقل. كنت لا أزال أتجادل معهما حين وصل رجلان فلسطينيان. كان ذلك أمراً غير مألوف - فلسطيني يأتي إلى الموعد مبكراً، ناهيك عن اثنين لا واحد فحسب - لكن في وسط المشهد السوريالي ذاك، كان كل شيء ممكناً. استطاعا أن يهدِّئا رجلَي الشرطة وحلَّ المشكلة، وبعد عشر دقائق كنت جالساً بينهما في المقعد الخلفي لسيارة أجرة، لركوب طائرة إلى فيرنا، على البحر الأسود، حيث كان عرفات ينتظر.

رحَّب بي أبو عمار بحرارة. منظري وأنا متورم ومدمًّى أثار إعجابه. أمسك بخدِّي وأدار رأسي من جهة لأخرى، متفحصاً الجروح والرضوض، قال: «عبد الباري، أنت فدائي حقيقي الآن!».

فيما جلسنا لنتحادث انضم إلينا واحد من مساعديه الأساسيين، جمال الصوراني (أبو عمر)، الذي كان رجلاً فكهاً ويستمتع بالنكتة الجميلة.

«بالمناسبة، أبو عمار، قلت له وأنا أفتح حقيبتي وأكشِّر باتجاه الصوراني، لم أكن أعلم أنك معجب بمجلة بلاي بوي». رفع عرفات حاجبيه ونظر نحوي بقلق: «ما الذي تتحدث عنه؟» قال وهو ينظر إلى الصوراني مطمئناً إياه ومحملقاً بي: «بالطبع لست معجباً بها».

أخرجت نسخة المجلة التي اشتريتها في المطار، وأنا أحدِّق في الغلاف، ممسكاً به بشكل لا يستطيع فيه أن يراه. «آه أبو عمار، أنت عارضة الغلاف. تبدو بمنتهى الجمال. لم أكن أعلم أن لديك هذه الإمكانات!».

أخذ الصوراني المجلة وانضم إليَّ ممازحاً وقال مقهقهاً: «يا لطيف، عرفات! لديك جسم شاب بالعشرين!».

نهض عرفات وخطف المجلة منا. حدَّق في الغلاف حيث كانت صورته الصغيرة بكوفيته الشهيرة فوق صورة فتاة شقراء في تنورة قصيرة وعارية

الصدر. قال محشرجاَ: «ابن الحرام الأميركي ذاك! لم أكن أعلم أن المقابلة ستُنشر في بلاي بوي! كان هذا صحافياً أميركياً يعمل بالقطعة وقد جاء لمقابلتي. قال لي إنه يُجري الحوار لصالح جريدة محترمة!».

كانت تلك نقطة انعطاف في علاقتي مع عرفات. لقد تأثر بكوني سافرت كل تلك المسافة إلى فيرنا لمقابلته رغم جروحي. فتح صدره لي وأعطاني مقابلة، عندما أفكر فيها بطريقة ارتجاعية، أرى أنها أفضل مقابلة أجريتها معه.

رغم أنه لم يكن «بلاي بوي»، إلا أن عرفات كان يحب النساء. بدأ ذلك صغيراً؛ أخبرني شقيقه د. فتحي عرفات أنهما عندما كانا يشبَّان سوية في منطقة السكاكيني الفقيرة في القاهرة، كان أخوه واقعاً في الحب بعمر خمسة عشر عاماً وكان معتاداً على مقابلة فتاة بتكتم كما كان يرسل إليها رسائل عاطفية. بقي عرفات حذراً في ما يتعلق بسمعته لكنه كان يحب الرفقة المتكتمة لأنثى في أغلب الأحيان. واحد من حاشيته أخبرني أنه تزوج سراً عدة مرات زواجاً عرفياً، حيث يتم العقد بحضور شاهدين ومن دون حاجة للإعلان عنه. رشيدة مهران كانت إحدى زوجاته والتقيت بها عدة مرات. كانت أرملة مقاتل فلسطيني، وفي البداية كنت أستلطف وجودها. أخبرتها مرة حكاية من حياتي، وكانت قد نُشرت كجزء من قصة قصيرة كتبتها لصحيفة سعودية أشرت إليها في هذا الكتاب، عن أنني كنت الشخص الوحيد الذي لم يكن قادراً على إعطاء أصدقائه عنواناً حين غادرت الجامعة لأن اللاجئ الفلسطيني لا يعلم أين سيفضي به الطريق. كتبت رشيدة لاحقاً رواية قامت على حكاية مشابهة. هل الأمر مصادفة أو لا؟ لا أستطيع إلا أن أتساءل.

كانت رشيدة متكتمة في موضوع علاقتها بعرفات، لكن كانت لديها طرقها الناعمة للحصول على الاعتراف بها. أذكر مشاهدتها في اجتماع للمجلس الوطني الفلسطيني عام 1987، وهي تنظر إليه بحنان وتناوله المناديل الورقية ليمسح رأسه وهو يخطب. لم أكن وحيداً في ملاحظتي هذا الأمر، وأكثر رسَّامي الكاريكاتير شهرة في العالم العربي، الفلسطيني ناجي العلي، أغضب عرفات بتصويره الكاريكاتوري لتأثير رشيدة في عرفات. بعد فترة قصيرة من ذلك، أخبر العلي مجلة «إندكس أون سنسرشيب» أن حياته بخطر، وقد اغتيل بعد أسبوعين من ذلك، في 22 تموز/يوليو. زميل له في الصحيفة التي كان يعمل بها، «القبس» اليومية الكويتية، أخبر قناة بي بي سي أنه تلقى مكالمة هاتفية من عضو رفيع المستوى في منظمة التحرير منذراً إياه كي يقوم «بتصحيح موقفه»، غير أن العلي تجاهل الإنذار ونشر رسماً كاريكاتورياً آخر مسيئاً لعرفات. يجب أن أوضح مع ذلك أن قاتل العلي

بقي مجهولاً وبعض تخمينات الصحافة العربية أشارت إلى دور للإسرائيليين في اغتياله.

كتبت رشيدة سيرة عن عرفات سمَّتها الرقم الصعب. سارعتُ إلى قراءة الكتاب، معتقداً أنه سيكون مليئاً بأشياء أخبرها بها خلال أوقاتهما الحميمة؛ أملت أن تكشف أسرار مكان ولادته والسنين الخمس الأولى من حياته والتي كانت دائماً مغلفة بالسرية. لكن الكتاب، رغم أنه كان مكتوباً بشكل جيد، كان عملياً أشبه بسير الأولياء والقديسين منه بسيرة حياة.

قام عرفات في النهاية بإعلان زواجه من سهى، التي هي أرملته الآن، والتي سأشير إليها لاحقاً. في وقت من الأوقات، ذهبت إلى تونس للقائه ووجدت كل الفنادق محجوزة. قام رجاله بوضعي في فيلا صغيرة، وحين جال بي المرافق في المكان فتح باب غرفة متواضعة وقال: «يمكنك أن تبقى هنا - هذا السرير الذي اعتاد عرفات أن ينام عليه سراً مع سهى قبل أن يعلنا زواجهما رسمياً. لم أمانع في ذلك أبداً وكنت مسروراً أن أنام في سرير تاريخي كهذا.

ထ ထ ထ ထ ထ

فريق متميزون
E-BOOK

حرب الخليج

بنهاية كانون الأول/ديسمبر 1990، سافرت إلى تونس لزيارة عرفات. كان جالساً وراء مكتبه يوقِّع أوراقاً ويعطي الأوامر؛ كان عرفات بيروقراطياً ولديه مفهوم مركزي عن السلطة. كان يدقق في كل إيصال قبل أن يدفع النفقات. جلست معه فيما كان ينهي جبل الأوراق وتحدثنا عن الغزو العراقي للكويت في 2 آب/أغسطس 1990. وضع قلمه وأخذ يصف بحماسة مفاوضات اللحظة الأخيرة مع كل من صدام حسين والكويتيين. كان يريد أن يؤمِّن حلاً عربياً للأزمة لمنع المواجهة الواسعة النطاق بين العراق والولايات المتحدة، والتي اعتبر أنها كانت حتمية في ذلك الحين. لم تعجبه فكرة وجود 500 ألف جندي أميركي متجمعين في الجزيرة العربية وقال: «حين ينتهي النزاع لن يحزم هؤلاء حقائبهم ويعودوا إلى بيوتهم». السبب المباشر لغضب بغداد وتهديداتها اللاحقة ضد الكويت كان النفط. خلال لقاء لوزراء النفط العرب في السعودية حصل يوم 10 تموز/يوليو 1990 بناء على إصرار عراقي، طالب صدام حسين بسقف لإنتاج أوبيك النفطي. كانت الأسعار تهوي بسبب الإفراط في الإنتاج من بعض الدول وكان هذا يزيد حجم الضرر بالعراق المحاصر اقتصادياً. كانت الكويت واحدة من أهم الجناة كما أنها كانت متهمة بالحفر المائل من الجانب العراقي من المنطقة المتنازع عليها في حقول الرميلة النفطية. زعم صدام أن الكويتيين كانوا يسحبون 300 ألف برميل من النفط العراقي في اليوم بهذه الطريقة، ووصف موقفهم العام بأنه «حرب اقتصادية». خلال ذلك كانت الولايات المتحدة قد بدأت حشدها العسكري في السعودية.

أخبرني عرفات أنه ذهب إلى بغداد يوم 29 تموز/يوليو 1990، قبل أربعة أيام فحسب من غزو صدام للكويت. تدخَّل عرفات إيجابياً من قبل بين قادة عرب كانوا متجهين للنزاع وأمل أن ينجح في تحقيق اتفاق سلمي.

هذه المرة، كان عرفات برفقة جمال الصوراني (أبو عمر) المعروف بحسِّه الساخر. وصف عرفات كيف جلس صدام بشكل متغطرس ومتكبِّر على مكتبه المرتب بأناقة فيما جلس أعضاء وفد منظمة التحرير الفلسطينية متزاحمين حول طاولة صغيرة. جرى اللقاء بهذه الطريقة، كما روى عرفات:

- «سيادة الرئيس، هل يمكن أن أطرح عليك سؤالاً؟ بدأ الصوراني حديثه.

- يمكنك أن تسأل.

- هل تلاحظ أن الأميركيين قد حشدوا نصف مليون جندي على حدودهم فيما نحن نتحدث؟

- بالطبع.

- الأميركيون هم القوة العظمى في العالم. هل قمت بحساباتك بشكل دقيق؟» تابع الصوراني.

لاحظ عرفات ظهور تقطيب قاسٍ على وجه القائد العراقي وعيناه يكاد يخرج منهما الدخان. الجميع، بمن فيهم قائد منظمة التحرير الفلسطينية، الذي ضغط على قدم الصوراني من تحت الطاولة، يخافون مزاج صدام العصبي (لأسباب مفهومة).

أوضح صدام بهدوء مكبوت: «ليس هناك شك في ذلك، العراق سيربح الحرب».

رغم تدخلات عرفات غير الشفوية، استمر الصوراني يتحدث بالاتجاه نفسه: «لكنك بالتأكيد يجب أن تفكر بالهزيمة، بحيث تأخذ بعين الاعتبار كل خياراتك. تصوَّر، ولو أن واحداً بالمئة من خطتك فشل...». هنا ضرب عرفات زميله من تحت الطاولة فيما هو يبتسم بوجه صدام ويقول، مطمْئناً: «آه بس العراق قوي، قوي جدا». لكن الصوراني كان لا يزال يتابع: «هل لديك سلاح سري، سيادة الرئيس؟ شيء ليس لدى أحد آخر مثله؟ بما في ذلك القوة العظمى أميركا؟ إن كان لديك هذا، فأخبرنا عن ذلك رجاءً». عند هذه النقطة، اتجه صدام نحو جهازٍ هاتف من الأجهزة الكثيرة الموجودة على مكتبه، فيما عيناه «تقدحان شرراً»، كما وصف عرفات الأمر لي. في النهاية بعد أن نجح في إسكات الصوراني بركلة قوية، انتصب عرفات واقفاً ومصافحاً صدام، ومنهياً المقابلة بسرعة.

بعد فشله في تحقيق أي نجاح مع صدام، طار عرفات إلى الكويت، حيث ذهب مباشرة لرؤية الأمير، الشيخ جابر الأحمد الصباح. كان لدى عرفات حقد شخصي على الأمير خلال ذلك الوقت: كان العمال الفلسطينيون في بعض البلدان العربية يدفعون دعماً لمنظمة التحرير الفلسطينية على شكل حسم من مرتباتهم التي يتلقونها من أصحاب الأعمال (يتراوح بين خمسة إلى عشرة في المئة) وكان هذا يدار على يد الحكومات. في قمة بغداد في أيار/ مايو 1990 زعم عرفات أن الكويت قد جمَّدت هذا الدعم وأنها بدأت بدفع جزء منه إلى حماس. رغم ذلك، بدا أن عرفات كان جاهزاً لوضع هذا الأمر خلفه في سبيل تحقيق وساطته السلمية في تلك اللحظة الحاسمة.

كان عرفات يُستقبل دائماً بحفاوة من قبل الأمير في الماضي، وقد توقع أن يستمع له حين أكد على خطورة الوضع الكويتي وقال له إنه شاهد من شباك طائرته الدبابات العراقية وهي تتجه إلى حدود الكويت. غير أن الأمير، بحسب ما ذكر عرفات، لم يستمع إلى كلمة واحدة، وقام بمقاطعته باستمرار وحاول تغيير الموضوع بسؤاله عن الانتفاضة و«أبطال الحجارة». استمر اللقاء 12

دقيقة فحسب، وهو أقصر لقاء بين عرفات ومسؤول عربي بحسب ما أكد لي.

قام عرفات بعد ذلك بزيارة الشيخ سعد العبد الله، ولي العهد الكويتي. كان الرجلان صديقين لزمن طويل وكان سعد العبد الله جزءاً من وفد الجامعة العربية الذي أنقذ عرفات خلال حرب أيلول الأسود التي قامت بها قوات الأمن الأردنية في بداية السبعينات. «شيخ، كم يوماً ستصمد قواتكم إذا قام العراقيون بغزوكم؟» سأله عرفات. رد الشيخ سعد العبد الله أن رئيس الأركان الكويتي أخبره أن قواته يمكن أن تصمد ستة أيام لكن نائبه قال إنها ستصمد ست ساعات فقط. كان واضحاً أن الكويتيين ما كانوا يتوقعون أن يصمدوا وحدهم لفترة طويلة. قال عرفات: «لو كنت مكانك لطردت رئيس هيئة الأركان وعينت نائبه مكانه لأن تقديراته أكثر دقة!».

كنت لا أزال مندهشاً من رفض صدام الواثق للانسحاب من الكويت. العالم كله كان قادراً على رؤية أن أميركا كانت متجهة للهجوم على العراق. كان ذلك رأي عرفات، الذي لم يكن وحده، فقد ذهب أيضاً معه نائب الرئيس اليمني سالم البيض والملك الأردني حسين لزيارة صدام في الأيام القليلة السابقة على الحرب في وفد مشترك لإقناعه بالانسحاب من الكويت. رفض صدام أخذ الانسحاب بعين الاعتبار، كما أخبرني عرفات، وقد قال صدام إن «قوة عالمية عظمى» أكدت له أنه إذا بقي في الكويت فلن تحدث حرب. سألت ياسر عرفات عمَّن تكون هذه الدولة لكنه رفض أن يجيب.

في 14 كانون الأول/يناير 1991، وقبل ثلاثة أيام من إطلاق أميركا هجماتها على بغداد، اغتيل الشخص الثاني في فتح بعد عرفات، صلاح خلف (أبو أياد) - الذي كان صريحاً في معارضته لغزو العراق للكويت. نُفِّذت عملية الاغتيال في تونس على يد عضو في منظمة أبو نضال، وهي مجموعة فلسطينية تعارض منظمة التحرير ووثيقة الصلة بصدام. كان عرفات في بغداد خلال ذلك الوقت واتصل بي هاتفياً يوم 16 كانون الأول/يناير، ودُهشت حين أكد لي أنه اقتنع بفكرة صدام، قال:

- «أميركا لن تتدخل، لن يكون هناك حرب، لا تقلق.

- من المؤكد أن الحرب حاصلة، قلت مجادلاً، متسائلاً إن كان قائد منظمة التحرير قد فقد عقله. ستبدأ في أي لحظة.

- لديَّ تأكيدات من أعلى المراجع، قال مصرَّاً. أنا ذاهب الآن إلى تونس لحضور جنازة أبو أياد وآمل أن أراك هناك».

في اليوم التالي بدأت «عملية عاصفة الصحراء» وباشرت طائرات الولايات المتحدة بقصف بغداد. ما زلت لا أعرف لماذا كان عرفات وصدام مقتنعَين بأنه لن يكون هناك حرب وأن صدام سيربح لعبة سياسة حافة الهاوية التي كان يلعبها مع الولايات المتحدة. حدسي يقول إنها كانت مؤامرة: كانت الولايات المتحدة تريد الحرب لتوسيع أجندتها في المنطقة ولو أن صدام انسحب من الكويت فقد كانوا سيخسرون الذريعة للهجوم عليه. كان لدى الولايات المتحدة عملاء مزدوجون في مناصب عليا أقنعوا القائدَين العربيين أن الأميركيين كانوا يخادعون فحسب.

استغرق الأمر حتى عام 1996 ليخرج جواب ممكن لذلك اللغز، وقد طفا على السطح حين نشرت صحيفة إسرائيلية مقابلة مطولة مع يتسحاق شامير الذي كان قد حلَّ محلَّه بنيامين نتنياهو على رأس الحكومة الليكودية، وأصبح قادراً على فضح بعض الأسرار. شرح شامير كيف قام بعدد من المحادثات مع الملك حسين حول مستقبل المنطقة خلال عام 1988، في أعقاب انتهاء الحرب العراقية - الإيرانية. وقد تحدث عن لقاء معين، يوم 2 آب/أغسطس 1990، اليوم الذي غزا فيه صدام الكويت.

بحسب شامير، فقد سافر إلى قصر الملك في العقبة لمناقشة الأزمة. أخبره الملك أنه مجبر على الاصطفاف مع صدام حسين وأوجز له أسبابه: 95 بالمئة من السكان في الأردن يدعمون صدام؛ إذا عارض الملك الأردني صدام فإنه، في أغلب الاحتمالات، سيغزو الأردن بسرعة؛ الشعب الأردني، الداعم لصدام، سيتخلص من العائلة الهاشمية الحاكمة، وستصبح القوات العراقية على الحدود الإسرائيلية خلال ساعات. بحسب منطق الملك حسين هذا، فإن دعم صدام كان بالكامل لصالح الدولة الإسرائيلية.

أنا والعديد من المعلقين فوجئنا بدعم الملك حسين الكامل لصدام حسين حين غزا الكويت، لأنه عادة ما يتخذ موقعاً يناسب الأجندة الأميركية، أو على الأقل، يبقى محايداً. كما أن الملك بيَّن موقفه من خلال التقاط الصور له مع عرفات، وأعطى كل إشارة ممكنة إلى أنه ضد الأميركيين في تلك المناسبة، وأطلق لحيته، وبالغ في دعمه للرئيس العراقي، وأوعز للصحف الأردنية بطريقة غير مباشرة بتبني موقفه هذا.

رغم أن هذا التحليل يقدم شرحاً لمسألة دعم الملك لصدام، فقد اعتقدتُ دائماً أن شامير بالغ في هذه القصة إلى أن التقيت لاحقاً بعدنان أبو عودة الذي كان مستشار الملك حسين السياسي خلال تلك الفترة. جلست إلى جانبه في عشاء فاخر أقامه طاهر المصري، وهو رئيس وزراء أردني سابق. كان أبو عودة ممثل الأردن في الأمم المتحدة منذ 1992، لكنه «تقاعد» في بداية 1995، ليقضي سنتَيه اللاحقتين بالتدريس في جامعات أميركية، وهو ما

يُعتبر نوعاً من تخفيض الرتبة. كان لدي إحساس بأن هناك عداء بينه وبين الملك حسين واعتقدت أن الوقت كان مناسباً لسؤاله عن الماضي، وذكرت مزاعم شامير.

«كنت موجوداً في لقاء العقبة، أسرَّ لي، كل ما قاله شامير صحيح تماماً». طلب إليَّ أن لا أنشر هذه المعلومات لأنه كان يكتب كتاباً، وسيكون هذا الأمر أحد الأسرار التي سيكشفها. خلال ذلك خلف الملك عبد الله والده في العرش الهاشمي عام 1999، وعُيِّن أبو عودة مستشاراً سياسياً للملك الجديد. حين نُشر كتاب أبو عودة الأردنيون، الفلسطينيون والمملكة الهاشمية في مفاوضات سلام الشرق الأوسط لم يذكر لقاء الملك حسين بشامير. هاتفته وسألته لماذا امتنع عن ذكر ما أعتبره أنا واجبه نحو التاريخ. رد عليَّ بجواب موارب فهمت منه أنه تلقى طلباً بعدم الحديث عن هذا الأمر، صدر من أعلى سلطة في الحكومة الأردنية، وأنه اضطر لحذف ما ذكره حول هذه المسألة من الكتاب قبل نشره.

إضافة لذلك، كان الملك حسين قد دُعي لمقابلة الرئيس جورج بوش الأب في بداية حرب الخليج، واستمرت المساعدة المالية الأميركية للأردن بلا انقطاع. من غير الممكن أن يعامَل قائد اصطف مع أعداء أميركا بهذه الطريقة، ما يَفترض أن الولايات المتحدة كانت عارفة تماماً بمناورة الملك حسين الدبلوماسية المعقدة. من سوء الحظ أن حكومات السعودية والخليج، إضافة إلى الرئيس المصري حسني مبارك، كانوا مقتنعين تماماً بأن الملك حسين ساند صدام لأسباب سياسية وعسكرية ووقف ضدهم عن قناعة، ما أدى لتداعيات اقتصادية مؤثرة. أخبرني الزميل عثمان العمير، وكان رئيساً لتحرير صحيفة «الشرق الأوسط» آنذاك، أن الملك كان متلهفاً للمصالحة مع العاهل السعودي الملك فهد بن عبد العزيز ولم يترك باباً إلا وطرقه من أجل هذا الهدف، إلى درجة أنه طلب من العمير التوسط له مع الملك فهد (والذي كان العمير على صلات وثيقة معه) لكن بلا جدوى، فقد كان الملك فهد غاضباً جداً، وكذلك الرئيس المصري، وفشلت كل محاولات العاهل الأردني في إصلاح ذات البين مع هؤلاء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أصدقاؤه بين القادة

غالباً ما تحدث عرفات معي بأحاديث ليست للنشر وصارحني بأنه من بين القادة المسلمين، كان الرئيسان، اليمني صالح، والتونسي بن علي الزعيمان الأقرب إلى قلبه، إضافة إلى ذلك، لم تكن لديه مودة نحو رئيس سورية السابق حافظ الأسد. كلما تناقشنا حول الرئيس المصري مبارك، كان عرفات يتذكر السادات بنوع من النوستالجيا، حيث كان الأفضل بين خيارين سيئين، وكان يردد أمام مسامعي «ما أحلى السادات بالمقارنة مع مبارك».

أتذكر مرة ذهبت فيها لمقابلة عرفات، عام 1989، في برلين الشرقية، حيث كان مدعواً من قبل مستشارها هونيكر للمشاركة في الذكرى السنوية الأربعين لتأسيس الجمهورية. حين عاد عرفات من الاحتفالات كان شاحب اللون: توجه مباشرة إلى الجناح الرسمي المخصص له وأقفل الباب على نفسه. بعد ساعة طلب إليَّ القدوم إليه ووجدته مقطباً ومحبطاً. كان يحدق في شاشة التلفزيون الألماني بعينين جاحظتين. بعد بعض الوقت سألته: «هل أنت ضليع باللغة الألمانية؟» أجابني باقتضاب «لا» ثم سيطر الصمت مجدداً لدقائق طويلة أخرى فيما كان يراقب شاشة التلفاز. بعد ذلك ارتاح وجهه وعادت له ابتسامته. «تعال انظر!» قال لي، مشيراً إلى الشاشة: «هذا أنا، مصافحاً الزعيم السوفياتي الجديد ميخائيل غورباتشيف. أريد أن تكون شاهدا». طلب مراسل الوكالة الفلسطينية للأنباء، وفا، وأملى عليه تصريحاً مضمونه أن عرفات التقى نظيره السوفياتي ميخائيل غورباتشيف برفقة الرئيس هونيكر، وأنهم عقدوا مباحثات مطولة حول الوضع في الشرق الأوسط والعالم. أضاف إلى ذلك أن الرئيسين، الفلسطيني والسوفياتي، اتفقا على مواصلة المحادثات في موسكو وأن الرئيس السوفياتي قدَّم دعوة رسمية لعرفات لزيارة العاصمة الروسية لهذا الهدف. أشرت إلى الرئيس عرفات أن المصافحة استمرت لثوان قليلة. «نعم»، قال موافقاً. «لكنني لا أريد للناس في سورية أن يقولوا إن غورباتشيف تجاهل عرفات. لديَّ الآن الدليل على أن عرفات كان القائد العربي الأول الذي يقابل الرئيس الجديد للاتحاد السوفياتي، وأنني تصافحت معه وتحدثت إليه».

أحد أسباب الخلافات المستمرة بين عرفات والرئيس حافظ الأسد لسنوات عديدة كان طرد الأخير لقائد منظمة التحرير الفلسطينية من سورية بطريقة مهينة. أخبرني عرفات أنهم لم يرسلوا له مذكرة بضرورة مغادرته دمشق وأن الرئيس الأسد أرسل ضابط مخابرات من رتبة صغيرة لمرافقته من محل إقامته إلى المطار من دون إعطائه وقتاً كافياً لجمع أشيائه الشخصية حتى. وقال لي إنه أحس بالغضب من جراء الإهانة التي لحقت به لدرجة أنه كاد يسحب مسدسه ويطلق النار على الضابط، لكنه غيَّر رأيه لأنه فهم أن

الضابط كان مجرَّد منفذ للأوامر. أعتقد أن عرفات نسي العديد من الإهانات، لكنه أخذ هذه معه إلى القبر.

كان الأسد كذلك وراء إخراج منظمة التحرير الفلسطينية من جنوب لبنان حيث كانت المنظمة قد أقامت ما يشبه دولة داخل الدولة. على الرغم من هذا التاريخ الحافل بالعداء بينهما، فإن عرفات لم يفوِّت أي فرصة للسفر إلى سورية على أمل تأسيس علاقات أفضل. في الثقافة العربية، حين يتوفَّى شخص ما، ليس هناك حاجة لانتظار دعوة للحضور إلى منزل العائلة لتقديم العزاء؛ وهكذا، فحين توفيت والدة الأسد عام 1992، انطلق عرفات إلى القرداحة (بلدة عائلة الأسد) وذهب مجدداً بكل نية مخلصة حين توفِّي ابن الأسد، باسل، في حادث سيارة عام 1994. أخبرني كم خيَّبت أمله الطريقة الباردة التي استُقبل بها في المناسبتين. رغم حقيقة أنه لم تكن هناك محبة سابقة أصلاً بينهما، فإن عرفات احترم الأسد وتحدث عنه عموماً بشكل جيد، معلقاً على كره الأسد للمظاهر المادية. أخبرني أن «الكنبة في بيت أهله كانت نفسها الموجودة قبل عشرين عاماً، كما أنهم لم يغيِّروا أي قطعة من الأثاث في قصر الشعب في دمشق أيضاً».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

بين الناس

هناك قصص لا تُحصى عن اهتمام عرفات بشعبه، وهناك قصة أذكرها بشكل خاص. دُعيت مرة لتناول العشاء في مكتبه في تونس. كان هناك القليل من الحضور على المائدة، جزئياً بفعل أن الضيوف كانوا قليلين، وكذلك لأن نوعية الطعام المتوافرة في ذلك الوقت كانت سيئة. بكل الأحوال، وجبات عرفات كانت عديمة النكهة وبسيطة جداً، مثل طعام المشافي. الفكرة هي أنه طلب إلى مساعديه الذهاب ودعوة كل الناس الذين كانوا في الخارج بانتظار مقابلته، ليأتوا ويشاركوه الطعام. واحد من الذين تمَّت دعوتهم كان معلماً فقدَ عمله في الجزائر. سأل الرجل عرفات إن كان يمكن أن يعيِّنه موظفاً في سفارة فلسطين في الجزائر. أخذ عرفات طلباً مكتوباً من الرجل ووقَّع على تعيينه سكرتيراً ثالثاً في السفارة. ثم قال للرجل أن يذهب إلى الدائرة المالية لتصديق طلبه وتنفيذه. كنت أعرف أن عرفات كان مفلساً في ذلك الوقت، وبعد العشاء، حين ذهبنا إلى مكتبه الخاص، انتقدته على تصرفه قائلاً: «أبو عمار، أنت خربت بيت هذا الرجل! لقد أعطيته وظيفة لكنه لن يقبض فلساً واحداً لأنك لا تملك المال».

كنت أعلم ذلك لأن أحد زملائي في «القدس العربي»، عدلي صادق، كان يعمل أيضاً في السفارة الفلسطينية في الجزائر. لم يقبض أجره منذ ستة أشهر وكان في منصب السفير!

حدّق عرفات بي بطريقة سمَّرتني وقال: «نعم، أعرف ذلك. لكن هذا المسكين لديه عائلة لإطعامها، ولديه أطفال. لقد جاء إلى رئيس فلسطين بآمال كبيرة لحلِّ مشكلته ومن المستحيل أن أرسله إلى هناك خالي الوفاض. إذا فتحها الله بوجهنا واستطعنا تجاوز مشاكلنا المالية سنكون قادرين على الدفع له؛ إذا بقيت الحالة كما هي عليه، فإن وضعه لن يكون أسوأ من وضع زملائه في السفارة... لقد وصل إلى رئيس فلسطين ورئيس فلسطين عليه إلا يعيده خائباً».

كان عرفات يحب أن يفطر أول أيام رمضان في منزل خاص ابتناه في تونس لأبناء الشهداء. عام 1993، طلب إليَّ أن أرافقه وذهبت مع ضيفين آخرين - المغني المعروف وليد توفيق، وجورجينا رزق ملكة جمال الكون السابقة. حين وصلنا إلى المنزل، تجمهر الأطفال حول المغني - الفتيات المراهقات خصوصاً - راغبين في مصافحته والحصول على توقيعه. شعر عرفات بالحرج قليلاً لهذا الوضع. كانت كاميرات التلفزيون والصحافة هناك، جاهزة لتصوير قدوم الرئيس الفلسطيني، لكن وليد توفيق سرق منه الأضواء. بعد لحظات

من التفكير، استدار عرفات نحوي وقال: «أستطيع أن أفهم كيف يحس هؤلاء المراهقون. إنه شخص مثير للإعجاب».

ذهب وليد توفيق إلى تونس قبل ذلك بشهر، وحاول مقابلة عرفات، الأمر الذي فاجأ الكثيرين في أوساط مكتبه، نتيجة إصراره على رؤيته، وقد ماطلوا في تلبية طلبه بلقاء الرئيس، الأمر الذي اضطر المغني للانتظار مدة أسبوع كامل. أخبر توفيق مساعدي عرفات أنه يريد مناقشة «مشروع فني حول القضية الفلسطينية»، ومن الواضح أن ذلك لم يكن يُعتبر من الأولويات. اكتشفنا لاحقاً أن ما أراده حقاً كان طلب يد جورجينا رزق. جورجينا كانت قد اشترطت أنها لن تقبل بطلب توفيق لزواجها ما لم يحصل على مباركة عرفات للزواج، وكان لها ما أرادت. كانت امرأة ساحرة فعلاً، وفوجئتُ بجمالها ورقّتها. وكانت قد تزوجت من أبو علي سلامة قائد حرس عرفات، وأنجبت منه طفلاً، لكن الإسرائيليين نجحوا في اغتياله عبر سيارة مفخخة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عرفات وأسامة بن لادن

رغم أن الشخصين يملكان وضعية رمزية كبيرة في العالم العربي، فإنهما يكرهان بعضهما البعض بشكل هائل، وكانا مختلفين على المستوى الشخصي، فعرفات نرجسي جداً بينما يميل بن لادن للتواضع. أعتقد أن كلاً منهما تعرض لمنافسة الآخر له، كما أنهما كانا سريعَين في توجيه النقد الواحد للآخر. تاريخياً، التزم كلاهما بخطّين متعارضين في الحرب الأفغانية التي استمرت من 1979 حتى 1989، وقد اتهم عرفات بن لادن بكونه صنيعة الأميركيين. كان عرفات قريباً من القيادة السوفياتية، وقد ساندت منظمة التحرير الفلسطينية الاتحاد السوفياتي، بينما كان أسامة بن لادن، بالطبع، مع المجاهدين. أسامة بن لادن، في ذلك الحين، اتهم عرفات بخيانة الفلسطينيين والأمة العربية جمعاء حين قام بالتوقيع على اتفاقيات أوسلو عام 1993.

حين حصلت الهجمات على مركز التجارة العالمي والبنتاغون في 11 أيلول/ سبتمبر 2001، شعر عرفات بالإحباط. لقد اعتبر ذلك كارثة للشعب الفلسطيني لأنه سيثير حالة إسلاموفوبيا واسعة ورد فعل نفسي عنيف ضد أي منظمة تصنفها الولايات المتحدة باعتبارها «إرهابية»، لذلك أدان عرفات أسامة بن لادن والقاعدة من دون تحفظ.

كما استاء عرفات من دعم السعودية ودول الخليج للجهاد الأفغاني، وكان يردد دائماً أن هذه الدول، والسعودية بالذات، رصدت مبلغ 21 مليار دولار لحرب أفغانستان، بينما لم يزد مجموع ما قدمته للمنظمة عن مليار دولار، وقال إنه سيطلق على القدس اسم «قدستان» لعلَّ عرب الخليج يتذكرونها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سها عرفات

المرة الأولى التي لاحظت فيها أن شيئاً ما يحصل بين عرفات وسها - التي كانت واحدة من السكرتيرات العاملات لديه آنذاك - كانت في نيسان/أبريل 1990. كان عرفات في زيارة رسمية إلى الهند وسافرتُ إلى نيودلهي للقائه هناك. كان برفقة جويد الغصين، الذي كان يومها رئيس الصندوق القومي الفلسطيني، تيسير قبعة عضو اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير، وخالد سلام، مستشاره الاقتصادي. كانت سها هناك أيضاً، وكان إحساس الثقة بالنفس الواضح عليها يوحي بأنها يمكن أن تكون أكثر من موظفة لدى رئيس منظمة التحرير الفلسطينية.

ظهرت الأمور إلى السطح حين طالبت حاشية عرفات السفير الفلسطيني في الهند بإضافة اسم سها إلى قائمة المبعوثين الرسميين، ما يسمح لها بحضور كل اللقاءات. كان رئيس الوزراء الهندي يقيم مأدبة رسمية للرئيس عرفات حين طلب مساعدوه أن تجلس سها إلى الطاولة الأساسية. رفض السفير الفكرة على أساس أن رتبة سها الدبلوماسية لم تكن كافية لشرف هذه المعاملة. حاول مساعدو عرفات ألف طريقة لجعله يغيِّر رأيه لكنه لم يتراجع. لم يحاول عرفات التدخل في تلك الأزمة، لكن السفير المسكين لم يلاحظ أن الإنسانة التي قام بإبعادها والتقليل من أهميتها، ومطالبتها بأن تجلس مع السكرتيرات، ليست سكرتيرة فحسب بل كانت في الواقع قد أصبحت زوجة الرئيس. لكن كيف كان له أن يعلم؟ أخبار الزواج لم تكن قد أعلنت. تابعتُ لاحقاً أخبار السفير باهتمام ولاحظت أنه لم يحصل على أي ترقية بعد ذلك.

في طريق العودة من الهند عبر أبو ظبي، سافرتُ على الطائرة نفسها مع عرفات. جلس بمواجهة سها مُظهراً حباً واضحاً، وبدا من عينيه أن الرومانسية كانت في ذروتها. نظر بعضنا إلى بعض بتفاجؤ. اتجهتُ إلى جويد الغصين وسألته إن كنت أتخيل الأشياء، فأكد لي أنه لاحظ ذلك أيضاً.

بعد فترة قصيرة أعلن عرفات بطريقة غير مباشرة أن الزواج دائم ورسمي، وهو أمر وجدناه جميعاً مفاجئاً، حيث كان دائماً يقول إنه لن يتزوج. «أنا متزوج من القضية»، كان يردد غالباً. حين اندلعت الانتفاضة الثانية عام 2000، غادرت سها غزة - حيث كانت تشارك زوجها منزلاً متواضعاً - وانتقلت إلى باريس مع ابنتها ذات الخمسة أعوام، زهوة، (على اسم والدة عرفات). طريقة حياتها الفارهة بعد وفاة زوجها كانت مبعثاً للمرارة والنقد لدى الشعب الفلسطيني. أخبرني عرفات كم أسف لغياب ابنته بعد مغادرتها؛ ولم يستطع أن يراها إلا قبل يومين من وفاته حين زارته في مستشفاه بباريس قبل أن يدخل في

غيبوبة، لكنه لم يشعر مطلقاً بفقدان زوجته، وأعتقد أن الشعور كان متبادلاً، فهو لم يرَ زوجته لعدة سنوات. كانت سها تريد الانخراط في أعمال البيزنس، لكنه كان يمنعها من ذلك حرصاً على سمعته، الأمر الذي دفعها إلى الحرد والانتقال إلى باريس. ولم تنخرط في أعمال البيزنس إلا بعد وفاته، إذ تشاركت مع الحسن الطرابلسي شقيق زوجة الرئيس التونسي السابق زين العابدين بن علي في تأسيس مدرسة خاصة. وحصلت على الجنسية التونسية، لكن هذه الشراكة لم تدم طويلاً، إذ اختلفت مع الحسن الطرابلسي ومع شقيقته ما أدى إلى طردها من تونس وتجريدها من الجنسية، وهي تعيش الآن في مالطا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بغل هرم

كان عرفات معتاداً على ممازحتي بالقول إنه ليس هناك مكافأة على عدد الرحلات الجوية (Air miles) بالطائرات الخاصة لأنه كان الشخص الأكثر سفراً في العالم، حيث كان يقضي معظم وقته في طائرته أكثر مما يقضيه على الأرض. سافرت معه بطائرته كثيراً ولم أكن متفاجئاً حين وقعت في الصحراء الليبية خلال عاصفة رملية عام 1992 لأنها كانت قديمة جداً، بحيث كانت، بتثاقلها، ومشيتها المتعثرة، أشبه ببغل قديم يمشي على قدميه الخلفيتين. كانت تقعقع وتهتز وتئنُّ طول الطريق، سواء كانت هناك مطبات هوائية أو لا. كان السفر فيها ورطة حقيقية، لكن عرفات كان غافلاً عن رعب رفاقه المسافرين واعتبر طائرته الأفضل، بل أحسن من طائرة الملك فهد الجمبو جت الذهبية.

خطر السفر بطائرته لم يكن فقط بسبب عمرها وحاجتها المستمرة إلى التصليح، ولكن أيضاً بسبب الطريقة التي كانت تُستخدم بها. كانت طائرة صغيرة، تستطيع حمل عشرة ركاب، لكن عرفات اعتاد على تحويلها إلى طائرة شحن. كان يملأها بالهدايا الثقيلة التي يحملها معه حيثما حلَّ. لم تكن هداياه من المجوهرات أو الخناجر المزخرفة، بل كانت نسخاً ضخمة لقبة الصخرة، مصنوعة من الصدف والجص. ثم كانت هناك الحقائب والضيوف الزائدون الذين كان يدعوهم معه. في واحدة من رحلاتي تلك، احتجت لاستخدام المرحاض، الذي كان موجوداً في مؤخرة الطائرة. اكتشفتُ أن المقاعد في الخلف لم تكن وحدها حوِّلت إلى أسرة لينام مرافقوه عليها، ولكن أيضاً الممر. بطريقة ما، نجحتُ بالمرور فوق أجسام النائمين، متعثراً بالبنادق والمسدسات تحت قدميَّ، ووصلت إلى المرحاض. فتحت الباب وأنا أتنهَّد راحةً، لأجد أن ذلك الحيز المكعب الصغير أيضاً قد جرى الاستيلاء عليه ليكون سريراً مؤقتاً لأحد الحراس الذي كان مستمتعاً بالنوم ويشخر بصوت مرتفع. ولما لم تُنجز المهمة، عدت على أعقابي إلى مقعدي.

حالما كان عرفات يصل إلى ملجأه الآمن في الطائرة، كان ينزع ثيابه المموهة أمام الجميع، كاشفاً عن سرواله الداخلي الشرعي، نازعاً كوفيته، ثم يرتدي بدلة رياضية زرقاء مريحة يقضي فيها فترة وجوده في الطائرة. وأعتقد أن الفترة الوحيدة التي كان يشعر فيها بالراحة والتقاط الأنفاس هي تلك التي كان يقضيها على ظهر هذا البغل المتهالك الذي يسمَّى مجازاً بالطائرة، فلا هواتف ولا مراجعين، بل ساعات من الهدوء والسكينة فحسب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

حياة عصرية

قيل الكثير عن نشاطاته المالية الشخصية غير النظامية، لكن أحداً لم يستطع أن يقدم دليلاً على ذلك. سعيد أبو الريش، الذي أعرفه جيداً، أخبرني أنه أمضى سنتين كاملتين يبحث في مزاعم الفساد ليضمنها في كتابه عرفات: من مدافع إلى دكتاتور، لكنه لم يجد شيئاً يثبت أن عرفات استفاد مالياً من إساءة استخدام الأموال العامة. غير أن هذا لا يعني أن عرفات ما كان يستخدم المال للتأثير على الآخرين، والقول إنه فتح أرصدة بأسماء أشخاص آخرين صحيح، لكن هدفه كان إخفاء نشاطات منظمة التحرير الفلسطينية المالية، لا إخفاء نشاطاته هو. استشهد عرفات من دون أن يترك ثروة أو بيتاً خاصاً. معاش شهري لزوجته وابنته في حدود 25 ألف دولار جرى تخفيضها من قبل الرئيس عباس الذي لم يكنَّ وداً لزوجته سها، إلى النصف.

تجربتي الخاصة مع هذا الرجل تفيد بأن اهتمامه بالمال كان ضئيلاً باستثناء ما يتعلق بتمويل النضال. أخبرني عن المرة الأولى التي استلم فيها مالاً من الملك فيصل خلال زيارة إلى الرياض عام 1968. أرسل الملك إليه مبعوثاً مع صك مالي بقيمة 5 ملايين دولار وقال: «هذه لمصاريفك الشخصية». أخذ عرفات الصك ووضعه في صندوق فتح المالي، وكتب إلى الملك شاكراً إياه، شارحاً ما فعله بالمال. قال عرفات إنه منذ أن بدأ الحرب الفدائية، لم يفتح رصيداً مصرفياً باسمه. لم يكن يحمل مالاً معه. مات عرفات وهو لا يملك شيئاً، عقارات كانت أو أراضي. المنزل الذي كان يستأجره في تونس كان بناء من طابقين بثلاث غرف نوم، حوّل أحدهما إلى مكتب، ورغم أنه كانت لديه سيارة مرسيدس بنز مدرعة، فقد كانت للحماية وليست للتباهي.

في الحقيقة، إن الترفيه الوحيد الذي سمح به لنفسه كان الحلويات، وكانت الحلوى المفضلة لديه هي الحلاوة التي تصنع من طحين بذور السمسم والعسل (حلاوة طحينية). كان معتاداً على أخذ قطعة ووضعها في فمه؛ أنا لا أحب أي نوع من أنواع الحلوى منذ أيام طلبات توصيل راحة الحلقوم في الأردن، لكنني كنت أبتلع القطعة الكبيرة الدبقة كي لا أزعجه. كان أيضاً مشغوفاً بشوكولاتة الكاراميل، وكان غالباً ما يحتفظ ببعضها في جيوبه ليضعها في فمه حين يكون الجمع غافلاً عنه. كنا مرة حاضرين في مؤتمر وقدَّم لي بعض الحلويات، التي عادة ما تكون جيدة. سألته ما تكون. قال كما لو كان مندهشاً كم جهلي: «ألا تعلم؟ يسمُّونها مارون غلاسيه». سألت: «وما هو مارون غلاسيه؟». نظر إليَّ وهزَّ كتفه: «لا أعلم. لكنها لذيذة الطعم».

سألتُ واكتشفتُ أنها حلوى فرنسية. في اليوم التالي، داعبت عرفات بهذا الموضوع، وأنا متأكد من أنه تعرَّف إلى هذه الأشياء من خلال عائلة سها -

أغنياء فلسطينيون من الضفة الغربية ويقضون أوقاتاً طويلة في باريس. قلت متظاهراً بتأنيبه: «هذا المارون غلاسيه هو شيء للطبقات العليا، أبو عمار، لقد أفسدوك بانغماسك في كل هذه الرفاهية». أجاب: «ششششش!»، وهو يتطلع حوله مثل طفل ضُبط في حالة تلبُّس بسلوك سيئ. مدَّ يده نحو العلبة التي باتت شبه فارغة، قال: «اسكت وخذ واحدة ثانية».

كان عرفات مسلماً ملتزماً. لم يكن يفوِّت أي صلاة، كما لم يكن يشرب الكحول أو يدخن، ومع ذلك لم يكن يطلق الأحكام على سلوك الآخرين وطريقتهم في العيش، كما كان الكثير من العلمانيين حوله يفعلون. رافقته في رحلة بطائرة صغيرة أرسلها الرئيس الروماني تشاوشيسكو؛ كان أفراد من حاشيته يطلبون مشروب الـ«جن» مع تونيك لكن عرفات تغاضى عن ذلك. ما يهمه كان ولاؤهم له وثقته بهم؛ خلال الرحلة نفسها مال نحوي وقال مازحاً: «أكاد أموت لحاجتي لمرحاض لكنني لا أجرؤ لأن هؤلاء سيطعنونني في الظهر لو أنني فعلت». وأشار إلى رفاق الرحلة، وكانوا محمود درويش وجويد الغصين وعبد الرحيم أحمد، وجميعهم الآن بين يدي الخالق عز وجل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

واقعة دبلن

إحدى أغرب التجارب الشخصية التي خضتها مع عرفات حصلت في دبلن، عاصمة جمهورية أيرلندا، حيث كان في زيارة رسمية عام 1996. التقيته هناك في آخر الليل حين أنهى محادثاته التمهيدية ثم اتفقنا على اللقاء مجدداً عند السابعة صباحاً من صباح اليوم التالي على الفطور.

وصلت في الوقت المحدد إلى جناحه في الفندق ووجدت مرافقيه في حالة هياج. طلبوا إليَّ أن أوقظ الرئيس بنفسي، مشددين على أنه لم يعد لديه وقت كثير قبل اجتماعه بنظيرته الأيرلندية، ماري روبنسون. لم أفهم لماذا لم يقم أحد منهم بإيقاظه. لكنهم أصروا على أن تلك كانت مهمتي، قائلين إن لي مكاناً مميزاً في قلب عرفات. لم أقتنع، لكن فضولي دفعني لأتجه إلى غرفة نومه، وقرعت الباب بعصبية. فتح عرفات الباب وهو يرتدي بذة رياضية، وعيناه تقدحان غضباً. تراجع بعد أن لاحظ أنني أنا من أقوم بإيقاظه، لكنه فهم الأمر بسرعة: «هل تعلم لماذا طلبوا إليك أن تقوم بمهمتهم؟» سألني. «لا، كيف لي أن أعلم؟» أخبرني كيف استيقظ في منتصف الليل ليجد الحارس الذي يفترض به أن يحرسه نائماً. «لقد قمت حتى بأخذ سلاحه من يديه ولم يتحرك.» بدأ بالصراخ: «هؤلاء الناس بلهاء، لا يفهمون ما هي واجباتهم. منتصف الليل وحارس عرفات الشخصي يريِّل ويشخر!».

كان لدى عرفات خوف من الاغتيال وحصلت محاولات عديدة لقتله. يمكنني أن أكشف سرَّاً الآن؛ السبب وراء امتناعه عن الذهاب إلى غزة وتأجيله المستمر لعودته بعد توقيع اتفاقيات أوسلو كان بسبب معلومات استخبارية أن منظمة أبو نضال هرَّبت خمس قاذفات صواريخ إلى غزة وكانت تخطط لضرب سيارته المدرعة وقتله. وحيث إنهم كانوا قد اغتالوا عدداً كبيراً من ممثلي ومسؤولي منظمة التحرير الفلسطينية، فالكل كان يعلم أن هذا لم يكن تهديداً فارغاً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الهند

لفترة طويلة من الزمن كانت لعرفات صلات وثيقة مع سلالة غاندي، وقد اصطحبني لزيارة راجيف غاندي وزوجته سونيا، اللذين سيقودان لاحقاً حزب الكونغرس. فوجئت بمدى تواضع منزل راجيف، وكان عبارة عن بيت من طابقين، وغرفة استقبال عادية جداً ومن الحجم المتوسط. وقارنت بين بيته وهو ابن الأكرمين والعديد من قصور القادة والسياسيين العرب، فكانت النتيجة أن بيته قد يكون مثل بيوت خدم هؤلاء إن لم يكن أكثر تواضعاً. عاملَ راجيف غاندي عرفات كما لو أنه فرد من عائلته وأراد أن يستفيد من دعمه خلال حملته الرئاسية. اقترح على قائد منظمة التحرير مهمة غير عادية. بين المعلمين الروحيين (غورو) الكثر في الهند كان هناك واحد، يقدسه اتباعه بشدة، وكان من أصول فلسطينية. أراد راجيف من عرفات أن يزوره وقال مبرراً: «أنت قائد الفلسطينيين، لذلك سيتقبل محاولتك إقناعه. أنا متأكد أن بإمكانك إقناعه أن يدفع كل مريديه للتصويت لي». تقبَّل عرفات الأمر وانطلق إلى أشرام حيث يقيم الغورو. كان الغورو متواضعاً ورحَّب بعرفات بالعربية. اقترب عرفات بسرعة من هدف زيارته وقال بطريقة غير دبلوماسية:

- «اسمع، أنا أطلب منك بصفتي رئيساً للفلسطينيين أن تدعم راجيف غاندي.

- اعذرني، قال الغورو، كم عدد سكان فلسطين؟

- خمسة ملايين، ستة ملايين...

- حسناً، عدد أتباعي أربعون مليوناً، لذلك لا أعتقد أنك في وضع يسمح لك بإعطائي الأوامر!».

يتذكر عرفات دائماً هذه المقابلة ويمزح في الموضوع كثيراً. لم يكن الأمر مسلياً بالقدر نفسه لراجيف غاندي، فقد خسر الانتخابات.

في اليوم التالي طلب إليَّ عرفات أن أرافقه إلى كالكوتا. سألته: «ماذا ستفعله هناك؟». قال: «سألقي خطاباً أمام جمهور كبير في استاد نيتاجي».

طبعاً خطب عرفات في الاستاد الذي كان ممتلئاً بعشرات الآلاف من البشر، لكن هذا لم يكن السبب الحقيقي لزيارته. بعد ظهر ذلك اليوم، اتجهت بنا السيارة إلى قلب أكواخ الصفيح في كالكوتا حيث كان عرفات سيقابل الأم تيريزا.

كان عرفات معلِّماً كبيراً في العلاقات العامة. كان يعرف كيف يجذب العناوين الأولى، لكن لقاءه بهذه المرأة كانت خبطة عبقرية في العلاقات، حتى

بمقاييسه. قامت الفائزة بجائزة نوبل للسلام بالترحيب بقائد حرب العصابات الذي قبَّل يديها. كان الاثنان يرتديان لباس رأس مميز - الأم تيريزا بقبعة الراهبات البيضاء مع حواف زرقاء، وعرفات بكوفيته - جلسا على المقعد المغبر، مندمجَين في حديث عميق حول أزمة الشعب الفلسطيني. تحدثت الأم تيريزا بإحساس وتعاطف وجُنَّ جنون الصحافة العالمية! الأضواء التي انهمرت عليهما لم تكن أنواراً إلهية بل أضواء منبعثة من مئات «فلاشات» آلات التصوير. بُثَّت الصور حول الكرة الأرضية وظهرت في كل الصحف في اليوم التالي. بعد أربع سنوات على ذلك، عام 1994، حصل عرفات نفسه على جائزة نوبل للسلام.

كان عرفات يعرف مكانة الأم تيريزا في العالم الغربي مثلما يعرف مكانتها في الهند نفسها، ولذلك أراد أن يوظف هذه المكانة في خدمة قضية بلاده. قليلون عرفوا بمقصده من زيارتها في ديرها المتواضع حيث كانت تهتم بالفقراء، وقدَّروا أهمية هذه الخطوة، لكن عرفات كان «كبيرهم الذي علمهم السحر».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نهاية اللعبة

آخر مرة التقيت فيها عرفات وجها لوجه كانت في نهاية عام 2000. في الفترة الفاصلة بين ذلك اللقاء ووفاته تحادثت معه هاتفياً عدة مرات. كان يتصل بي من حين لآخر للحديث عن آخر الأوضاع أو لكونه غاضباً من افتتاحية ناقدة كتبتها عن السلطة الفلسطينية. احتجَّ على الطريقة التي كانت الولايات المتحدة تقوم بتهميشه فيها لتلميع محمود عباس، الذي اعتبروه أكثر مرونة. كان يعتقد أن الولايات المتحدة تريد منه أن يوقِّع على اتفاقية السلام الأخيرة، والتي يتمُّ فيها التنازل عن القدس وحق العودة، وبعد ذلك يتقاعد. قال متعجِّباً: «يريدون أن أكون مثل ذكر النحل، أنكح الملكة لمرة واحدة ثم أموت».

عدو عرفات، أرييل شارون، انتُخب رئيساً للوزراء عام 2001 وبدأ عملية اضطهاد للقائد الفلسطيني. لم يكن هناك إنكار أن الأمر شخصي. في كانون الأول/يناير 2002، حاصرت الدبابات والجنود ما بقي من البناء المقصوف (المقاطعة) الذي يقيم فيه عرفات ووُضِع في الاعتقال المنزلي. صرح شارون ساخراً بأن عرفات يمكن أن يغادر في أي وقت يريد، بشرط أن لا يعود إلى فلسطين. تحدثت مع عرفات خلال فترة حصاره وأخبرني أن شارون سيقوم باغتياله؛ وأن الطريقة الأكثر احتمالاً برأيه هي التسميم. وضع قفلاً برقم سري على براده وكان يأكل أطعمة معلبة فقط.

الجدير بالذكر هنا أن الاغتيال بطريقة التسميم ليس أمراً غريباً على القوات الإسرائيلية. يوم 25 أيلول/سبتمبر 1997 في عمان، قام عميل للموساد بحقن خالد مشعل قائد حماس في أذنه بحقنة تحتوي سماً. أصرَّ الملك حسين على أن يقوم الإسرائيليون بإحضار مضاد للسم وهدد بإلغاء معاهدة وادي عربة للسلام بين البلدين إذا لم يتجاوب بنيامين نتنياهو رئيس الوزراء في ذلك الوقت، واضطر نتنياهو للرضوخ والإذعان.

حصلت هدنة قصيرة في أيار/مايو 2002 ظهر خلالها عرفات في مظاهرات عامة هائجة كما سمحت له بالتحرك بحرية نسبية في غزة وفي الضفة الغربية؛ لكن حين ظهرت «خريطة الطريق» للسلام التي ترعاها الولايات المتحدة عام 2003، أراد شارون طرد عرفات إلى المنفى. في نيسان/أبريل 2004، أصبح شارون أكثر جرأة في نيته سحق عرفات، وصرَّح أن اغتيال القائد العجوز «هدف شرعي». قبل أسبوعين على ذلك، أطلقت طائرات الهليكوبتر الإسرائيلية صواريخها على الشيخ المقعد أحمد ياسين الذي كان عائداً من المسجد المجاور لبيته بعد أدائه صلاة الفجر، ما أدى لاستشهاده فوراً وهو على كرسيه المتحرك. كان عرفات معزولاً، محاصراً مجددا في

مقره ومنبوذاً من نظرائه العرب. قبل شهرين من وفاته، طلب من أحد مساعديه الموثوقين الاتصال بي ليخبرني قصة: مدير المخابرات المصرية، عمر سليمان، الذي قام بزيارته بتكليف من الرئيس حسني مبارك وكشف أوراقه على الطاولة. قال سليمان إن الأجندة الإسرائيلية تقضي بقتله، فيما تفضل الولايات المتحدة المنفى الدائم. قدَّم سليمان خياراً ثالثاً، إذ عرض الحماية على عرفات إذا قبل التنازل عن الحكم وسلَّم مقاليد السلطة لرئيس وزرائه محمود عباس. بحسب الخطة المصرية، يظل عرفات رئيساً لكن من دون سلطة فعلية. أعطى سليمان عرفات ستة أسابيع لتطبيق ما عرضه عليه، لكن شيئاً من ذلك لم يحدث.

بعد وقت قصير، اتصل بي عرفات شخصياً. كان صوته ضعيفاً ومحبطاً. قال: «لقد ابتعدوا عني كلهم. ولا واحد من هؤلاء القادة العرب اتصل بي ليقول مرحباً حتى». وقال إن أيامه صارت معدودة لكنه لا يزال قادراً على التحدي. « عبد الباري، أنا شخص مؤمن. لن أتنازل عن قضيتي الفلسطينية. أريد أن أموت شهيداً». كان يعتبر شارون خصمه المميت: «يريدني أن أموت قبله، وأعتقد أنه سينجح بذلك. لذلك لن أصافح يده أبداً». قضى عرفات أيامه الأخيرة متوقعاً اغتياله. إضافة إلى تخوفه من السم، كان يخشى من إقدام الإسرائيليين على خطفه وتخديره، لذلك نُصبت أعمدة حديدية فوق سقف مقره لمنع طائرات الهليكوبتر الإسرائيلية من الهبوط عليه، كما كان ينام وقناع للوقاية من الغاز بجواره.

في 25 تشرين الأول/أكتوبر 2004، أحس عرفات بآلام مبرحة في بطنه، وتقيأ خلال أحد الاجتماعات. لم يستطع أطباؤه أن يجدوا أي شيء يمكن أن يشير إلى «فيروس». ثم في 29 تشرين الأول/أكتوبر، وقع القائد الفلسطيني مغشيَّاً عليه لربع ساعة، لكن مساعديه استطاعوا ردَّه للوعي. أطباء من مصر والأردن كانوا محتارين مثل أطباء عرفات الشخصيين، فلم يتمكنوا من تحديد طبيعة مرضه واقترحوا نقله إلى باريس. وفيما كان يُنقل من مقره إلى الطائرة باتجاه فرنسا، همس لمساعديه قائلاً: «لقد أوقعوا بي هذه المرة». حين توقف عرفات مؤقتاً في عمَّان، لم يحاول الملك عبد الله أن يزوره ولو من قبيل المجاملة في المطار. وكان هذا الغياب ملحوظاً ولم يصدر أي تفسير رسمي له.

شخَّص الأطباء الفرنسيون عدم وجود أي نوع من المرض المميت، ومع ذلك فقد غرق عرفات يوم 3 تشرين الثاني/نوفمبر في غيبوبة لن يستيقظ منها أبداً. توفي عرفات يوم 11 تشرين الثاني/نوفمبر 2004. الشيخ تيسير التميمي، الذي كان قرب سرير عرفات حين توفِّي، تحدث عن رشح للدماء من المسام غطى كل وجهه لحظة وفاته. طبيبه الخاص، أشرف الكردي،

شخَّص الحالة باعتبارها أعراضاً جلية للتسمم. هذا الرأي شاركه فيه أيضاً شقيق عرفات، محسن، الذي هو طبيب، ويعمل في أبو ظبي؛ فهو على قناعة بأن عرفات اغتيل على يد شخص من بطانته. قال لي إنه يمكن أن يكون قد سُمِّم عن طريق مصافحة باليد، أو من خلال حزمة إشعاعات سامة وجِّهت إليه عن بعد.

توفي عرفات قبل شارون، هذا صحيح، لكن الأخير لم يحصل على وقت كاف للابتهاج بانتصاره، لأنه بعد شهرين من ذلك تعرض لنوبة قلبية كبيرة ولا يزال في حالة غيبوبة كاملة منذ ذلك الحين.

أراد عرفات أن يُدفن في القدس، قرب المسجد الأقصى، لكن الإسرائيليين رفضوا السماح بذلك. بدلاً من ذلك، دُفن في ساحة مقره العام المهدَّم في المقاطعة برام الله، حيث جرى نصب ضريح تذكاري كبير له لا زال يُلهم الفلسطينيين حتى يومنا هذا، ويزوره العشرات يومياً.

لم أكن قادراً على حضور جنازته لأنها جرت في القاهرة وأنا ممنوع من زيارة مصر. كما لم أستطع التعبير عن احترامي للرجل في فلسطين، فهناك حكم غيابي إسرائيلي صادر بحقي ويخوِّل سلطات الأمن اعتقالي فور وصولي. لكنني وأنا أراقب مراسم الدفن في المقاطعة على شاشة التلفاز، تذكرت المرة الأولى التي زرته فيها في مقره الساحلي بغزة بعد تطبيق إجراءات الاتفاق المؤقت (أوسلو). كان هادئاً على غير طبيعته.

كان الوقت ليلاً، وبعد سكوت قصير، قال، «اسمع منيح». لكنه لم يتكلم. سألته: «أسمع ماذا، أبو عمار؟». قال: «اسمع صوت البحر، هل تستطيع أن تسمعه؟» كان بإمكاني أن أشمَّ رائحة الملح وأستمع إلى أصوات الأمواج وهي تتلاطم أو تتكسر على الشاطئ الرملي الذهبي. هنا باغتني عرفات بالقول: «لولا اتفاقيات أوسلو التي تعارضها بقوة لكنت لا أزال في المنفى. حلمي أن أدفن تحت تراب فلسطيني، ولأنني الآن في وطني فإن هذا قد يتحقق».

رغم أنني لا أزال غير متفق مع الرجل سياسياً، ففي هذه النقطة كان على حق. أتمنى أن تكون روحه قد ارتاحت الآن. لقد تحققت أمنيته التي رددها دائماً، فقد دُفن تحت ثرى فلسطين التي أحبها واستشهد من أجلها، وآمل أن يتحقق الشق الآخر منها، ويعاد دفنه في ثرى القدس المحتلة حيث سترتاح روحه إلى الأبد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

10. حقُّ العودة

بحلول سنة 1995، كان قد مرَّ أكثر من عام على قيام السلطة الفلسطينية في قطاع غزة بمقتضى اتفاقات أوسلو، وقررتُ اصطحاب عائلتي في زيارة إلى أرض الوطن. لم أكن قد عدت إلى هناك منذ أن غادرت عام 1967، باستثناء إقامة قصيرة عام 1973 حين رافقت زوجة أخي، كاملة، إلى الأردن. غادرت زوجتي باسمة فلسطين وهي في السابعة من عمرها، غائبة عنها سبعاً وعشرين سنة. فكرة الذهاب إلى «الوطن» ملأتها بمشاعر جياشة وذكَّرتها بأسماء كل أصدقائها في المدرسة الابتدائية وبالأماكن التي كانوا يذهبون للعب فيها في مخيم النصيرات. أخبرتني ونحن نخطط للرحلة: «هذه الذكريات دائماً معي حيثما رحلت، أذكر تلك الأيام أكثر مما أذكر كل ما جرى في حياتي».

معظم أفراد عائلتي لا يزالون في الوطن: كانت أمي لا تزال تعيش في البيت الصغير نفسه في مخيم رفح، لكنها كانت تشترك فيه مع أخي جلال وزوجته وأطفاله الستة. أختي الكبرى سعاد كانت لا تزال في غزة، في مخيم خان يونس للاجئين، وأختي الأصغر آمال انتقلت إلى مخيم غزة الساحلي للاجئين حيث تزوجت من قريب لنا يدعى سهيل، وأنجبا العديد من الأطفال، وأعتقد أن عددهم عشرة حتى كتابة هذا الكتاب. كلما شعرت بالإحباط كنت أتصل بآمال، وهي خفيفة دم ومتحدثة لبقة ذات حس ساخر حاد وترفض أن يؤثر عليها أي شيء سلباً، وهو أمر مستمد ربما من اسمها. أذكر إحدى المكالمات التي أجريتها معها عام 1989 خلال فترة الذروة في الانتفاضة الأولى بعد أن كانت الخطوط الهاتفية قد انقطعت لشهور عديدة:

- «إذاً، هل تلدين أو أنك تتوقَّعين ولادة؟» سألتها. أو الاثنين معاً؟ (فهي دائماً في حال من الاثنين، حمْل أو ولادة!).

- لقد رُزقت بطفل قبل ثلاثة أشهر.

- حزرت، قلت ضاحكاً، ولد أو بنت؟

- ولد، لكنه مات».

صدمتُ بالخبر. تغيَّر صوتي وسألتها عمَّا حصل.

- «لقد كان ولداً سميناً وجميلاً بعينين خضراوين»، قالت آمال (وكانت عيناها خضراوان أيضاً)، وتابعت: «سمَّيناه عبد الله وكان سعيداً وبصحة جيدة. وضعته في السرير عصر أحد الأيام وذهبت للجلوس في الخارج. فجأة جاء بعض

الأولاد باتجاهي مسرعين يطاردهم خمسة جنود إسرائيليين. ذهب الأولاد خلف منزلنا وبدأوا برمي الحجارة على الجنود الذين راحوا يطلقون الرصاص والقنابل المسيلة للدموع. دخلت إلى البيت للهروب من الغاز واتجهت مباشرة إلى طفلي. كان يختنق. دخلت القنبلة من شباك الغرفة المفتوح حيث كان نائماً. أسرعتُ به إلى الطبيب لكن الأوان كان قد فات».

منزعجاً بشدة، تمتمتُ بتعزيتي، متذكِّراً كم أن مشاكلي صغيرة مقارنة بحياة عائلتي التي تعاني في غزة. بكت آمال قليلاً لكنها عادت للحديث مجدداً: «لكن ولا يهمك، أخوي، أنا حامل مجدداً وراح يتعوَّض».

كان كلامها صحيحاً، فبعد شهور أنجبت ولدَين توأمين.

شغلت أنا وباسمة شبكة الخطوط الهاتفية في مخيم رفح للاجئين بأخبار زيارتنا المقررة ذلك الصيف وانشغلت أمي أيضاً بحماسة ملحوظ للإعداد لاستقبال هذا الابن المشاغب، ومعها كل العائلة، بمن في ذلك أشقائي المقيمون في السعودية والذين قرروا زيارة الوطن أيضاً. والتقينا جميعاً هناك في كنف الوالدة. اجتماع عائلي كبير لم يحدث منذ ثلاثين عاماً، وزاده لهيب شهر آب/أغسطس حرارة ودفئاً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بلاد جميلة

طرنا على متن الخطوط الجوية البريطانية وكان لدي جواز سفر بريطاني لكنني توقعت بعض المشاكل في مطار تل أبيب حيث أن اسمي وشكلي يوحيان بوضوح بأنني فلسطيني. طلبت من عائلتي الانتظار إلى أن ينتهي طابور مراقبة الجوازات لأنني لم أرد أن أؤخر غيري من المسافرين بينما يتمُّ استجوابنا. ولدهشتي، نظرت إلينا المرأة الجالسة على الطاولة بسرعة ووضعت بطاقات حمراء في جوازات سفرنا وأشارت لنا بالدخول. كنا في قمة التوتر والقلق منذ أن بدأت الطائرة في الهبوط التدريجي في مطار اللد.

«الإجراءات كانت معقولة»، قالت باسمة التي بان عليها الارتياح، وتحركنا فيما كانت تقوم بتجميع الأولاد والأغراض، ونحن نتحدث عمَّا سنفعل ومن سنشاهد. اقتربت منا امرأة شابة، ترتدي الثياب المدنية، ولكن تبدو عليها صفة الرسمية. لم يبدُ لي أن عمرها أكثر من اثنين وعشرين عاماً. قالت: «عذراً، هل يمكن أن تلحقوا بي لدقيقة؟».

في غرفة المقابلة قامت بالبحث على شاشة حاسوبها. بادرت بالسؤال:

- «كم صار لك مقيماً في الخارج، سيد عطوان؟

- سبعة وعشرون عاماً، باستثناء رحلة قصيرة عام 1973.

- ولماذا كل هذه الفترة؟

- أنا متأكد من أنك تعرفين السبب، قلت وأنا أحاول ضبط أعصابي.

- أخبرني، قالت وهي تنظر بعيداً عن شاشتها وتدقِّق في وجهي.

- لأن بلادي تحت الاحتلال...

- لديك إخوة، قاطعتني الصبية، أين هم الآن؟

- واحد في مخيم للاجئين، الآخرون في الخارج.

- لماذا؟».

لم أكن أدري إن كانت تحاول استثارتي أو كانت جاهلة بالفعل، لكنني قررت بيني وبين نفسي أن أظل هادئاً وحذراً في الوقت نفسه. «ليس لدينا دولة، أجبت بهدوء، لأنكم أنتم الإسرائيليون أخذتم بلادنا!». في تلك اللحظة بدا أن حاسوبها أعطاها معلومة أنني عضو في المجلس الوطني الفلسطيني وسألتني قليلاً عن ذلك، وكم مرة حضرت اجتماعات البرلمان في المنفى قبل أن تتمنى لنا عطلة جيدة. «عطلة جيدة؟ في مخيم للاجئين؟»، سألتها.

قالت وهي تبتسم: «بلادنا جميلة». تمتمت قائلاً: «إنها ليست بلادكم. إنها بلادي وهي جميلة حقاً، والأجمل أن تكون من دون احتلالكم».

ركبنا سيارة أجرة من تل أبيب إلى غزة، معانقين ساحل المتوسط فيما نحن متجهين جنوباً، عابرين أراضي مزروعة وكروم عنب. كانت سماء آب باللون الأزرق الغامق وعطر الأرض الساخنة الهش يتخلل الهواء. كان الأطفال مستثارين، متمتعين بضوء الشمس ولمحات الشاطئ، متخيلين دون شك أن الرحلة ستنتهي بهم في فندق خمس نجوم بخيارات متعددة من برك السباحة، الأمر الذي اعتادوا عليه في رحلاتنا السابقة لقضاء الإجازة السنوية في ربوع البحر المتوسط في تونس أو تركيا أو المغرب. فيما كنا داخلين إلى مدينة واسعة، انتبهت إلى أن الإشارة كانت بالعبرية. كان سائقنا إسرائيلياً من أصل مغربي ويتحدث العربية بطلاقة وسألته أين كنا.

أجاب: «أشدود، الميناء الأكبر في إسرائيل». أخذ قلبي يقرع في صدري. لم أستطع الكلام للحظات، محدقاً من الشباك ومحاولاً التعبير عن مشاعري. «من هنا جاء والد باسمة وأبواي»، أخبرت أولادي. «أسدود. كانت مجرَّد قرية في تلك الأيام، قبل النكبة».

كنت قد قرأت عن الهجرة الجماعية لليهود السوفيات إلى هذه المنطقة بعد 1991، رافعين عدد السكان إلى أكثر من 200 ألف نسمة، لكنني كنت لا أزال تحت طغيان المشاعر نتيجة هذا التحول. سألت السائق:

- «هل بقي شيء من القرية الأصلية؟

- «ماذا تعني؟ لم يكن هناك شيء قبل. تأسست أشدود عام 1960 على يد الإسرائيليين».

أراد مسح التاريخ هذا السائق الملعون، تاريخ يمتد لآلاف السنوات، تاريخنا طبعاً.

فيما كنا نعبر الشارع الرئيسي المغبَّر داخل أسدود، شاهدت بناء مهدماً إلى يساري بمواجهة كرم عنب. كانت هناك كتابات عربية مطبوعة بالأبيض على الحيطان الحمراء المهدمة. طلبت إلى السائق التوقف وخرجت. كانت الكتابة تقول، «هنا كان مقهى غابين». لم أستطع أن أصدِّق عينيَّ. مقهى غابين: كم مرة سمعت أبي يتحدث عن هذا المكان. كان المركز الأساسي لحياة القرية الاجتماعية، والمقهى الوحيد حيث كان يستطيع الشبان أن يلتقوا، المكان الذي يجتمع فيه الرجال بعد نهار عمل للعب الطاولة والورق وشرب الشاي الثقيل. توقفت عند الحائط الخرب ودخلت إلى أطلال المكان؛ كان مليئاً بالأعشاب والزجاجات المكسَّرة وكان بعض العابرين قد استخدموه مرحاضاً.

مع ذلك كان بإمكاني أن أرى بقايا بلاط الموزاييك حيث كانت منضدة الدكان. أعاد المقهى تجميع نفسه في مخيلتي؛ كانت أصوات الرجال لا تزال ترنُّ بين الجدران، ثرثرات تتبعها ضحكات وصوت يرتفع منزعجاً أو محتجاً، فيما تقرقع فناجين القهوة، ويتصاعد عطر الأراكيل.

هذه المشاعر الغريبة التي تملكتني من الماضي ما لبث أن كسرها الصوت الحقيقي للمشاة في الحاضر. استدرت لأرى مستوطناً إسرائيلياً واقفاً على الجانب الآخر المهدم من الحائط وهو يحملق بي. كان يحمل رشاش عوزي وخاطبني بالعبرية في البداية، فلم أفهم كلمة مما يقول. سألني مرة أخرى بلغة عربية مكسرة:

«ما الذي تفعله هنا؟

- هذا مقهى غابين.

- إنها خربة، من الأفضل أن تخرج، من أجل سلامتك الشخصية.

- إخوتي ولدوا في أسدود، قرية فلسطينية، هذه قريتنا وآثار أبي وأعمامي أراها هنا.

- هذا كان في الماضي. بدت عليه العصبية، وحتى الإحراج.

- لا، إنه المستقبل أيضاً».

اتجهت إلى الحائط واعتليته، مشيراً إلى سيارة الأجرة حيث بدا وجها خالد وندى الصغيران يحدقان فينا. قلت له:

- «مستقبلي ومستقبل أطفالي. قطعاً سنعود إلى هذا المكان لنبني بيتنا مجدداً. إنها مدينتي، وهذه الأرض أرضي... سنعود حتماً، إن لم يكن في زماني ففي زمن أطفالي. لن نفرِّط مطلقاً بحق العودة. لن نقبل بكل كنوز الأرض وأموال أميركا مقابل التنازل عن هذا الحق المقدس».

أدار المستوطن ظهره ومشى، ووجدت نفسي أتحدث مع نفسي.

العودة للوطن المؤقت

ركبنا سيارة الأجرة لنصل إلى نقطة مراقبة إيريتز في طرف قطاع غزة الشمالي. كان إخوتي ينتظروننا هناك حيث إنهم كانوا ممنوعين من القيادة خارج المناطق المحتلة. يوم 17 تموز/يوليو 1994 - سنة واحدة فقط قبل هذا - كان معبر إيريتز موقعاً لمجزرة بشعة، إذ فتحت القوات الإسرائيلية النار على العمال الفلسطينيين يوم الأحد 17 تموز/يوليو. بدأت بعدها معركة لست

ساعات، انضم خلالها مستوطنون إسرائيليون من قطاع غزة إلى قوات الجيش الإسرائيلي، إضافة إلى أربع دبابات إسرائيلية وطائرة هليكوبتر؛ مع نهاية المعركة، كان أحد عشر فلسطينياً قد استشهدوا وحوالي 200 سقطوا جرحى. كان ذلك في بالي ونحن نحمل حقائبنا من سيارة الأجرة ونقطع الشارع المغبر باتجاه المعبر. راقب عدد من الحراس الإسرائيليين اقترابنا وأصابعهم على زناد رشاشاتهم. أمسكتْ باسمة يدَ ندى بقوة فتذمَّرت هذه الأخيرة من الألم؛ لاحظتُ أن باسمة كانت تصارع رِهاباً كان قد تطور معها خلال طفولتها بحيث كانت تختفي خلف تنورة أمها كل مرة كانت ترى فيها جندياً إسرائيلياً. قلت محاولاً أن أشتت انتباهها: «انظري! هؤلاء إخوتي!». أشرت إلى أربعة رجال كانوا ينتظروننا مع سيارة أجرة عتيقة في الجهة الأخرى من المعبر، مسبِّلي الأيدي.

سألني خالد، ملتصقاً بذراعي وقافزاً إلى أعلى وأسفل بحماسة:

- «لماذا لا يلوِّحون؟

- لأن الجنود يمكن أن يعتقدوا أنهم يرسلون إشارات. (لم تكن لديه فكرة عمَّا أعني). لا تهتم، سنكون هناك قريباً».

ألقى الجنود نظرة على جوازات سفرنا وسمحوا لنا بالمرور. قلت لخالد: «هل رأيت؟ كل شيء على ما يرام».

كان لقاء حاراً قرب سيارة جلال المرسيدس الكبيرة التي يتعيَّش منها كسائق أجرة. لم يرَ الأولاد من قبل سيارة بهذا القدم، فقد كانت قديمة متهالكة تصلح لأن توضع في متحف، فليس لها من اسمها أي نصيب، ولابد أن شركة مرسيدس ستفخر بكونها لا تزال على قيد الحياة، فكل مليمتر فيها لا يمتُّ للسيارة الأصلية بأية صلة رغم أن ذلك كان أمراً معتاداً للغزاويين.

قلت لجلال: «عليك أن ترسل سيارتك لشركة مرسيدس بنز لتضعها في المتحف. إنها دليل حي على أنهم قادرون على صناعة سيارة لا يمكن تدميرها».

ردَّ جلال موجِّها كلامه لطفليَّ: «الميكانيكيون الفلسطينيون قاموا عملياً بتغيير كل قطعة فيها على مدى السنوات بقطع غيار من كافة أنواع السيارات. القطعة الوحيدة التي لا تزال من المرسيدس الأصلية هي الشارة الرقمية». وضحكنا جميعاً.

انهالت أسئلة ومداعبات ومزحات أعمام خالد وندى خلال السير، لكن حالما دخلنا المخيم، تلاشت ابتساماتهم وضحكاتهم وحلَّت محلها تعابير عن القلق وعدم الفهم. رفح هي موطن لأكثر من 95 ألف لاجئ وهي من أكثر المناطق

من حيث الكثافة السكانية في العالم. كان هناك أناس في كل مكان، وكانت السيارة تتحرك ببطء عبر الجموع، وصوت بوق السيارة يعلو فيما الوجوه الفضولية تلتصق بشبابيكها لرؤية من هم هؤلاء الغرباء.

مع وصولنا إلى أمام منزل أمي، كان علينا أن نخطو فوق قنوات مجارير مفتوحة للوصول إلى الباب الأمامي. كان خالد وندى مذعورَين، فهذين الطفلين تربَّيا في لندن ولم يريا أي شيء باستثناء المراحيض والحمامات الحديثة، ناهيك عن «جداول» المجاري!

آخر مرة شاهدت أمي فيها كانت قبل ثمانية أعوام في بيت كمال في السعودية. عند ظهورها لتحيتنا، ترنح قلبي مع رؤيتها تعرج، محركة وركيها بارتباك. بدت أكبر سنّاً لكن ابتسامتها كانت متوهجة في تلك المناسبة التاريخية لاجتماع عائلتنا على التراب الفلسطيني. شاهدت أمي خالد عندما كان بعمر سنتين لكنها لم تلتقِ ندى أبداً؛ رغم أن حولها أربعين حفيداً، فقد تشوَّقت كثيرا لرؤية ولديَّ، وكل منهما كان عزيزاً عليها، وانهمرت دموع البهجة من عينيها وهي تعانقهما وتقبلهما. لكن بالنسبة إليهما، كانت شخصاً غريباً وقد تقبَّلا احتضانها لهما بارتباك، وهما الطفلان البريطانيان، أكثر مما هما عربيان، في تلك اللحظة.

مع دخولنا البيت الصغير انفجر المكان بالأطفال. اكتشف خالد وندى فجأة أن لديهما عشرات من أولاد العمومة وكان هؤلاء موجودين جميعاً لتحيتهما. كان الأمر كما لو أن مدرسة ابتدائية كاملة من القنافذ الخشنة الملمس تتحدث إليهما بلغة بالكاد يفهمانها، لامسين إياهما، متعجِّبين من حسن سلوكهما وترتيبهما. البعض منهم كانوا مصدومين من شدة إعجابهم بولدَي عمهما «الغربيَّين»، والبعض تعامل معهما كما لو كانا لعبتين أو حيوانين أليفين، فيما وجد البعض أنهما «مفسودان» وناعمان أكثر من اللازم. كانت الآراء منقسمة ومعبَّراً عنها مباشرة. لمَّا كان المنزل مؤلفاً من ثلاث غرف بحجم 9 أمتار مربعة ومن باحة داخلية، لم يكن لدى خالد أو ندى مكان للاختباء أو إمكانية للذهاب بعيداً من أجل بعض «الهدوء»، فقد كانت هذه وضعية غير معتادَين عليها أبداً. كانت «مظاهرة» تحيط بهما بكل ما تعنيه هذه الكلمة!

كان لسان حال أمي انتقادياً لأن طفليَّ لم يتحدثا العربية بطلاقة، وقد وافقتها على ذلك، مشيراً إلى أن ذلك كان غلطتي أنا لا غلطتهما. مع ذلك، مع مرور الوقت، التقطا اللغة وبلهجة غزاوية أيضاً. لم يكن عجز طفليَّ عن الحديث بالعربية الشيء الوحيد الذي ستحتجُّ عليه أمي. كانت مسرورة بكنَّتها باسمة إلا أنها بدأت حملة منذ اليوم الأول لتحريضها كي تنجب أطفالاً أكثر. «ما هي القضية؟ هل هناك مشاكل؟ لا. إذاً لماذا ليس عندكما غير ولدين؟ هل تقومان بتحديد نسلكما؟ تخلَّصا منه! هذا ضد إرادة الله...». أو في بعض الأحيان، كان

الأمر يجري بهذه الطريقة: «انظر إلى كمال، لديه ثمانية أطفال، وزياد عنده ستة، بشير صار لديه ثلاثة حتى الآن وهو متزوج لتوِّه. وأنا نفسي، شكراً لله، أنجبت عشرة».

مسكينة باسمة! تعاملت مع كل هذا الهجوم بكرامة ولباقة لكنها داخلياً كانت تشعر بالإهانة. خلفية باسمة العائلية كانت برجوازية مدنية، فأمها من مدينة يافا ولم تكن معتادة على صرامة الفلاحين، ومع ذلك أنجبت أمها ثمانية أطفال.

كان خالد وندى يكبتان مشاعر الانزعاج في داخلهما أيضاً. كان صعباً عليهما التصديق حين أُحضر العشاء على طبقين ضخمين وُضعا على الأرض فوق مجموعة من صفحات الجرائد القديمة. حين جلس الجميع على الأرض وغمسوا أصابعهم في الطبقين، قطَّب الولدان غير مصدقَين. محتويات الوجبة كانت أكثر إثارة للخيبة بالنسبة لهما، وكانت مؤلفة من الرز والحمّص وبعض الدجاج. طار الدجاج في لحظات. لم يتعوَّدا على الأكل وسط هذا الحشد الضخم.

موعد النوم عرَّض الطفلين لصدمة ثقافية أخرى حين بدأ جرُّ الفرشة تلو الفرشة ووضعها على الأرض. باعتبارهما ضيفا شرف، كانت لهما رفاهية الاشتراك مع أمي وباسمة، ما يعني أنهما كانا أربعة فقط في الغرفة. في الغرفتين الأخريَين، كان هناك على الأقل عشرة أشخاص ممددين مثل السردين، وسلسلة الفرشات المتلاصقة تصل إلى الجدران. نمت أنا في باحة الدار مع معظم الرجال، في الهواء الطلق... ما أجمل تلك النومة... حيث السماء المزدحمة بالنجوم المتلألئة!

عند موعد الغداء في اليوم التالي كان طفلاي جائعَين ويتوسلان كي أجد لهما شيئاً يأكلانه. سألتهما أمي عن أي نوع من الأكل يحبان فقالت ندى وهي تنتحب: «برغرز»، فقالت أمي: «ما هو البرغرز؟».

حاولت قدر استطاعتي أن أشرح: «إنها مثل الكفتة، أو الكباب».

اتسعت عينا آمي: «كباب! أنا نفسي تناولت الكباب مرة واحدة فقط، حين زرتك في الأردن!». حاولت بعدها أن أشرح لطفليَّ أن اللحم سلعة نادرة في مخيمات اللاجئين وأن معظم الناس هناك هم آكلو خضار، مجبرين لا مخيَّرين. دماغ أمي، خلال ذلك، كان يشتغل بسرعة.

قالت متأملة: « ربما يمكنني أن أحصل على رأس خروف، هل هذا يمكن أن يسعدهم؟».

كانت الأعين موجهة الآن إلى طفليَّ، وترجمت لهما هذا العرض من بين قائمة الاحتمالات الممكنة. صرخت ندى، وسط صيحات المرح بين الأقارب.

اقترح جلال: «ما رأيكم بالدجاج؟»، وهزَّ خالد رأسه بحماسة. كانت أمي تحتفظ بدجاجات للحصول على بيضها، وكانت نادراً ما تذبحها. بعد نصف ساعة، دخل جلال بدجاجتين حيَّتين في يده، وهو يؤرجحهما من سيقانهما. كشَّر نحو خالد وندى: «العشاء»، مشيراً إلى الطيرَين المقأقئين. وضع واحدة منهما على الأرض فركضت عبر الغرفة؛ سحب سكينة مطبخ ضخمة وقطع حنجرة الثانية في تلك اللحظة وذلك المكان. فغر خالد فمه برعب، وكذلك ندى. لا أعتقد أنهما كانا قد فكرا أن اللحم يجيء من حيوانات أو طيور حية قبل تلك اللحظة. أكلا الدجاج لكنهما لم يستطيعا النوم طيلة الليل، وقد تلبَّسهما المشهد الدموي وحلما بكوابيس لشهور بعد ذلك. كان صعبا عليَّ مشاهدة طفليَّ يعانيان من بؤس مخيمات اللجوء، لكن، كما ذكَّرتهما، كان هذا واقع الحياة اليومية لأولاد وبنات عمومتهما، وعندما عادا إلى رفاهية منزلهما في لندن، كانا غالباً ما يتحدثان عن ذلك الوضع بحزن. عانى الولدان من أوجاع المعدة طوال فترة الرحلة وتعرضا للسع كل أنواع الحشرات التي يمكن تخيلها؛ لكن مع القدرة الرائعة على التكيُّف التي تميِّز الصغار، فقد اعتادا على ما يحيط بهما بما في ذلك رؤية الجرذان والصراصير والنمل تتمشى كلها في أنحاء البيت. ما كان أحد ليهتم بقتل هذه المخلوقات بل كانوا يعاملونها كأصدقاء للعائلة.

بسبب عدم اعتيادهما على أن يكونا محاطَين بعشرات الأطفال الآخرين، وجد خالد وندى أن الحل الوحيد للحصول على بعض الخصوصية احتلال إحدى الغرف الصغيرة في البيت والتمترس بالباب. كان لديهما سبب جيد للحنين إلى العزلة: «نيوتيلا». اشتريا علبة من خلاصة الشوكولا مع البندق من إنجلترا لتقديمها هدية لكنهما الآن أرادا أن يحتفظا بها لنفسيهما وكانت هذه الحلوى المفضلة لديهما بعد وضعها على رغيف خبز عربي. لسوء الحظ، بعد عدة أيام اكتشف أحد أولاد عمومتهما مخبأهما للترف الغربي ولم يُضع وقتاً في تنبيه الأطفال الآخرين. حين عاد خالد وندى إلى المرطبان وجداه في مكانه لكن فارغاً؛ كانت العلبة قد فُرِّغت حتى آخر نقطة منها، وكان المرطبان الزجاجي نظيفاً من شدة اللعق، وأكمل جيش من النمل المهمة!

أمضيت الكثير من الوقت مع ولديَّ؛ أخبرتهما عن طفولتي في هذا المخيم وفي دير البلح. وقبل ذهابنا لغزة ذكرت الشاطئ الذي قضيت فيه معظم صباي ألعب وهذا ما جعلهما يتوقعان نوعاً من منتجع العطلات الفاخر، فقاما بتجهيز ثيابهما للسباحة وأنابيب الغوص. باتا متحمِّسين لرحلة إلى البحر وقد جهزا جيشاً صغيراً من أقاربهما لمرافقتهما.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

يوم على الشاطئ

هناك فرق شاسع بين شواطئ غزة وكوستا ديل سول في إسبانيا حيث ذهبنا أكثر من مرة. آخر مرة كان شاطئ غزة في الأخبار حين قامت سفينة حربية إسرائيلية بفتح نيرانها يوم 9 حزيران/يونيو 2006 على بيت لاهيا، شمال قطاع غزة، فقتلت سبعة أفراد من عائلة واحدة وصديق لهم فيما كانوا يتناولون وجبة خفيفة على الرمل. كان الشاطئ القريب من رفح تحت المراقبة العسكرية الإسرائيلية بدءاً من تل الكليفة حتى الحدود (منطقة يسمِّيها الإسرائيليون «ممر فيلاديلفيا» لكن يعرفها الفلسطينيون باسم ممر صلاح الدين).

أصرَّت باسمة على أن نغطي أنفسنا بكريم الوقاية من الشمس، فصرنا موضوعاً للتعجب والتسلية من قبل أقاربنا. فمنذ أن سوَّدتهم شمس غزة القاسية لم يسمعوا بشيء من هذا القبيل. كان الولدان مغطيَين بشكل كامل بكريم «فاكتور 50 سن بلوك»، بحيث إنهما عادا إلى البيت أكثر بياضاً مما كانا عليه قبل ذهابهما للشاطئ. كنا مرهقين بالحقائب المليئة بالطعام والماء، وحصائر للجلوس عليها، وسطول ورفوش، فترنحنا على الرمال، محاطين بجمع شديد الحماسة من أولادنا. الشاطئ الذي قضيت سنين طويلة فيه وأنا ولد بدا مختلفا الآن. بات مسيَّجاً بالأسلاك الشائكة، والدخول إليه عبر مراكز مراقبة إسرائيلية مشددة، فكان علينا أن نُظهر جوازات سفرنا للجنود الإسرائيليين على حاجز الطريق المؤدي إلى البحر. لم أتخيل يوماً أنني سأحتاج إلى جواز سفر للوصول إلى بحري وشاطئي. إنها إهانة. كان سبب هذا التشديد الأمني قربنا من المستوطنين الإسرائيليين غير الشرعيين: كان جنود الجيش الإسرائيلي يجولون الشاطئ مترجلين أو في سيارات الجيب فيما عائلات قليلة تحاول التمتع بفترة راحة وتحرر من شروط حياتها المغلقة. كان الطقس قاسياً بحرارته المرتفعة ورياح عالية وبحر متلاطم وعنيف. أقمنا معسكرنا واسترخينا على الرمال الساخنة. اندفع الأطفال نحو الأمواج، قافزين بينها ثم عائدين مع انحسار مدها إلى الشاطئ. تحدثنا وغفونا، مسترجعين الماضي بحيث يملأ كل واحد منا التفاصيل الغائبة عن الآخر من حياتنا الحاضرة.

فجأة بدأ الأطفال بالصياح والصراخ. قفزنا أنا وجلال واتجهنا نحو البحر. اثنان من الأولاد كانا يواجهان صعوبات مع الموج وكانا يصارعان للخروج، مختفين لفترات طويلة خلف الأمواج. تسابقنا في البحر، ولأنني لم أعد سباحاً قوياً، فالله وحده يعلم كيف تمكنت من إنقاذهما من الموت المحقق غرقاً. بحر غزة خشن جداً، مليء بالدوامات، أمواجه عنيفة، والأطفال لا يجيدون السباحة... كانت تجربة قاسية أفسدت علينا متعة الرحلة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

مستوطنون

بعد فترة من عودتنا إلى لندن، استلمت تقارير تقول إن أكثر من 45 كيلومتراً من شاطئ غزة تمَّ الاستيلاء عليها وتحويلها إلى مستوطنات، ونصفه صار ممنوعاً على العرب بعد هجوم فدائي على المستوطنين الإسرائيليين غير الشرعيين الذين استمروا بالانتشار كالفطر قرب أحسن الشواطئ وعلى امتداد أحسن مناطق الساحل الزراعية الخضراء حيث مخزون المياه الجوفية، وهي المناطق التي يُفترض أنها تابعة «للسلطة الفلسطينية». بدأت المستوطنات مبكراً منذ 1970، وأكبرها، نيفي ديكاليم، كان فيها 2671 مستوطناً في فترة ذروتها. عام 2005، حين أُجبر المستوطنون على الانسحاب، كان هناك 26 من هذه الجيوب داخل غزة، 27 منها كانت على الشاطئ أو قريبة منه، بالإضافة إلى ما يُسمى الطرق الجانبية والتي كان الفلسطينيون ممنوعين من استخدامها. بالنتيجة النهائية، تقوم هذه المستوطنات باستهلاك 40 بالمئة من الـ 365 كيلومتراً القاحلة التي هي مجموع مساحة قطاع غزة، و9000 مستوطن إسرائيلي فقط يتمتعون بأفضل ما في غزة، بينما يزدحم مليون ونصف المليون فلسطيني في الباقي مع القليل من المصادر أو فرص العمل.

عادة ما تُبنى المستوطنات على قمة تلٍّ لأسباب أمنية. كانت هذه المستوطنات تشكل أيضاً مخاطر صحية للمدن والقرى العربية المفرِّخة في أسفل الوادي؛ ليس لدى المستوطنين الإسرائيليين مراكز لمعالجة المجاري، وبدلاً من ذلك تُقذف نحو الأسفل، إلى جيرانهم الذين تأثرت أوضاعهم الصحية وزراعاتهم كثيراً.

حركة المستوطنات واستيلاؤها غير القانوني على الأراضي شجَّعتها الحكومة الإسرائيلية وموَّلتها بحدود 300 مليون دولار سنوياً، رغم أنها تخرق البند الرابع من اتفاقية جنيف لحقوق الإنسان، وكانت هيئة الأمم المتحدة من قبل تدينها بانتظام. اتفاقيات أوسلو لم تقدم نصاً حول إزالة المستوطنات اللاشرعية الإسرائيلية، وعام 2005، تضاعف عدد المستوطنين في غزة والضفة الغربية من 115 ألفاً إلى 242 ألفاً وخمسمئة. هدف المستوطنات كان سياسياً، وهو ما يشرحه هذا المقطع من المكتبة الافتراضية اليهودية بوضوح: «أكبر مجموعة من المستوطنات... وسَّعت الوجود الإسرائيلي من مدينة عسقلان (داخل إسرائيل) إلى أطراف مدينة غزة... والتي تتموضع استراتيجياً في قلب قطاع غزة (على امتداد المحور الشمالي الجنوبي)، (إنها) تخلق جهازاً للسيطرة الإسرائيلية على المنطقة وطريق مواصلاتها الأساسي، ويسهِّل قابلية إسرائيل على تقسيم قطاع غزة إلى مناطق منفصلة لعزل كل سكان منطقة عن الأخرى. إضافة إلى ذلك، تسيطر المستوطنات على أفضل

الأراضي الزراعية، وبعض المياه الجوفية الأساسية للمنطقة، وتقريبا ثلث الخط الإجمالي لساحل غزة».

في تموز/يوليو، أصدرت الحكومة الإسرائيلية تعليمات للمستوطنين بترك غزة، خوفاً على أرواحهم من جيرانهم الذين تزايدت راديكاليتهم وأعمال مقاومتهم. حين أعلن أرييل شارون الخطة، كان منفتحاً على حقيقة أن النقلة هي لصالح الإسرائيليين، لا العرب. دُفع لكل عائلة مستوطنة 250 ألف دولار كتعويض لمغادرتها غزة، وأُعيد إسكانها في مستوطنة جديدة قيد الإعمار قرب الخليل داخل الضفة الغربية حيث يقيم 235 ألف مستوطن غير شرعي وحيث استمر التوسع الاستيطاني بلا انقطاع. الانسحاب من غزة أمَّن غطاء دخان لمستوطني الضفة الغربية أولئك ولاستمرار انتهاك الأرض الفلسطينية وزادت هذه الانتهاكات ببناء السور العنصري الذي قسم الضفة الغربية، والذي جرى شجبه عالمياً، باعتباره جدار التمييز العنصري.

في مقابلة مع الصحيفة اليومية الإسرائيلية «هآرتس» يوم 6 تشرين الأول/أكتوبر 2004، كشف دوف فايزغلاس، رئيس أركان شارون في ذلك الحين، دافعاً آخر لأهمية تفكيك المستوطنات في غزة: «أهمية خطة فك الارتباط هو تجميد عملية السلام... حين تقوم بتجميد العملية، فإنك تمنع تأسيس الدولة الفلسطينية وتمنع النقاش حول اللاجئين والحدود والقدس».

عند مغادرتهم غزة، قام المستوطنون وجنود الجيش الإسرائيلي بتحطيم كل شيء يمكن أن يكون ذا فائدة. مع ذلك، فاوضت السلطة الفلسطينية على شراء دفيئات المستوطنين الزراعية، بحيث تستمر زراعة الزهور في منطقة بالكاد فيها فرص عمل. بعد شهور قليلة، أغلق الإسرائيليون الحدود، مدمرين عملياً تلك الصناعة، حيث لم يعد ممكناً تصدير الزهور إلى السوق الأوروبية.

الانسحاب العسكري من شاطئ غزة أدى لبعض النتائج المأساوية؛ فحين غادر آخر مستوطن المكان مكرهاً، اندفع الفلسطينيون إلى الشواطئ بالآلاف، إذ لم يكن مسموحاً لهم بذلك لسنين. للأسف، لم يكن لدى العديد منهم فكرة عن السباحة، وفي اليوم الأول وحده غرق أربعون فلسطينياً من أعمار مختلفة، مات منهم النصف تقريباً.

لعبت المقاومة الفلسطينية الدور الأكبر في إذلال شارون ودفعه مكرهاً إلى اتخاذ قرار الانسحاب من القطاع؛ فقد تصاعدت كلفة الاحتلال مادياً وبشرياً، وتفنَّن الفلسطينيون المقاومون في الوصول إلى أهدافهم داخل المستوطنات، أبرزها بناء أنفاق تحت الأرض بحيث يخرج المقاومون فجأة لمهاجمة المستوطنين أو الجنود الذين يقومون على حراستهم.

أدرك شارون أن اسحق رابين سلفه كان على حق عندما قال يوماً إنه يتمنى أن يصحو يوماً من نومه ليجد غزة وقد غرقت في البحر، ولذلك قرر الهرب من القطاع من جانب واحد، ومن دون أي اتفاق مع السلطة، تماماً مثلما فعل رئيس الوزراء الإسرائيلي إيهود باراك عندما قرر الهروب من جنوب لبنان عام 2000 لعدم قدرته على تحمل الخسائر المتعاظمة بفعل ضربات المقاومة اللبنانية الشجاعة بقيادة حزب الله.

شعرتُ بالغيظ وأنا أشاهد الجنود والمستوطنين الإسرائيليين يحطمون كل منزل أو دفيئة ويقلعون كل شجرة في المستوطنات، ما يعكس حجم كراهيتهم وحقدهم. لقد استغلوا هذه الأرض لأكثر من ثلاثين عاماً، سرقوا المياه، سرقوا الأسماك، استغلوا التربة، جنوا الملايين من بيع منتجات المستوطنات، ومع ذلك، عندما قرروا المغادرة قرروا تحطيم كل شيء، وعدم التكفير عن جريمتهم بترك أي شيء لأصحاب الأرض التي نهبوها، هل هناك لؤم أكثر من هذا؟ والعيب ليس في الإسرائيليين فقط، وإنما أيضاً في السلطة الفلسطينية والمجتمع الدولي الذي سمح لهم بمثل هذا التصرف الذي ينطوي على الكثير من الصلف والغرور، والبخل أيضاً.

لم أتخيل مطلقاً أن يستمتع أقل من سبعة آلاف مستوطن بمعظم شاطئ غزة وخيرة أراضيها بينما الغالبية الساحقة من أبناء القطاع محرومة من رؤية البحر، ناهيك عن الوصول إليه. بل إن العديد من أبناء القطاع بلغوا سن الرشد من دون أن يستمتعوا ببحرهم الذي يبعد عنهم بضعة أمتار فقط، بسبب المستوطنات الإسرائيلية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

الشهرة أخيراً

الوقت في مخيم رفح للاجئين لا معنى له، حيث إن القليل من العمل متوافر ولا شيء آخر يقومون به غير التسكع في أزقته وشرب الشاي وممارسة هواية النميمة. ولأني معتاد على نظام وقت متطلب ومجهد في لندن، كان النوم عند التعب أو البقاء مستيقظاً كما أحب بدعة عظيمة. وإن كوني قادماً من الخارج، ولشهرتي النسبية في العالم العربي، أصبحت بشكل متسارع حدث المخيم المسلّي. النصف الأول من فترة إقامتنا كان لاستقبال سيل لا ينقطع من الزوار القادمين للترحيب بي وللتحدث لساعات، والنصف الآخر كان لعودة هؤلاء ليودعوني ويتمنوا لي رحلة طيبة؛ فمن الأمور العادية أن يأتي المهنئون بسلامة العودة إلى أرض الوطن في الساعة السادسة أو السابعة صباحاً، وعليك أن تكون جاهزاً لاستقبالهم وإلا لا تكون أهلاً للثقة، فالنوم غير محبذ بل هو عنوان للكسل والخمول. كما عليك أن تظل متيقظاً طوال الليل حتى ينصرف الضيوف، المهنئون منهم أو المدعوون.

لم تكن أمي معجبة بحالة «الشهرة». في الواقع، بدا أنها ظنت أن هناك خطأ ما - إلى أن دخل الدكتور زيدان على الخط. كان د. زيدان الطبيب الخاص الوحيد في المخيم، يقدم الاستشارة الطبية والعلاج مقابل أي شيء يمكن للاجئين أن يقدموه، وحتى مجاناً إذا لم يكن لديهم ما يدفعونه. في حالة أمي، كان فحص التهاب رئوي وعلبة مضادات حيوية يكلفها دجاجة أو بطة. كانت تعتقد أنه أكثر الناس ثقافة في العالم، كامل العبقرية، وكانت تؤمن بكل كلمة يقولها. بالنسبة لي، لم تصدق أبداً أنني كنت أنجز شيئاً مهماً في حياتي المهنية حتى عندما كنت أتكلم، أو يتحدث إخوتي، عن ذلك. كان رأيها لا يزال أنني أضعت مستقبلي لأنني لم أصبح مهندساً، أو طبيباً مثل بطلها ذاك. في أحد الأيام جاءت إلى البيت مسرعة في حالة من الاستثارة ووجدتني أشرب القهوة مع أخي جلال. صرخت:

- «جلال، أخوك سعيد شخص شهير!».

لم تكن هذه مفاجأة له ونظر إليها وهو لا يفهم قصدها. تابعت:

- «لقد قام بأشياء مهمة في الجريدة.

- نعم، يمَّه، نعرف ذلك، قال جلال متعجباً، لماذا اكتشفت هذا الأمر الآن مع أننا كنا نخبرك عن ذلك منذ سنين؟!

- صحيح، لكن الآن عرفت أن ذلك حقيقة لأن الدكتور زيدان قال لي. التقيت به في الشارع وقال إن سعيد صحافي مشهور وإنه سمعه يتحدث على خدمة بي بي سي العالمية. هذا ما قاله!

- هل أخبرك بذلك الآن؟».

قطَّبت حاجبيها.

- «نعم، قال إن سعيد يتحدث «بعاطفة وظرف». تصور! (ثم قبَّلتني على جبيني). كم أنا فخورة بك يمَّه!».

من الطبيعي أن أكون ممتناً للدكتور زيدان لرفع قيمتي في بيت عطوان. عام 2004، تلقَّيت مكالمة من ابنه الذي حصل على زمالة طبية في لندن، وحزنت عندما أخبرني بوفاة والده. أتساءل من الذي سيعتني بلاجئي غزة المعدمين عندما يمرضون الآن.

كان الدكتور زيدان من العلامات الفارقة في مخيم «الشابورة» في مدينة رفح. كان سميناً يتحرك على دراجة نارية صغيرة «فيسبا»، ويعتبر الطب جهاداً في خدمة أمته وقضيته. سخَّر حياته في خدمة أهل المخيم. لم يهتم مطلقاً بالثراء وجمع الأموال. كان أسلوب حياته متواضعاً وبسيطاً. كان حكيم المخيم أيضاً، يستمع الجميع إلى آرائه ويعتبرونها منزهة عن أي خطأ.

كان معظم أطباء القطاع في ذلك الوقت مثل الدكتور زيدان، ولا يفوتني أن أشير إلى الدكتور حيدر عبد الشافي أحد أهم أطباء قطاع غزة وأبرز شخصياته على الإطلاق. كان الدكتور حيدر يفتح عيادته لأكثر من خمس عشرة ساعة يومياً، ولا يرفض زيارة أي مريض، ولم يحدد مطلقاً أي أجر للاستشارة الطبية. كان يعالج الجميع بالقدر نفسه، فقراء كانوا أو أغنياء، ويترك لهم أمر تحديد الأتعاب، وغالباً ما كان يعالج الفقراء مجاناً، ولهذا استحق احترام الجميع وتقديرهم. وانتقلت نزاهته الطبية إلى السياسة، فكان صلباً في معارضته لاتفاقات أوسلو ووجد الإسرائيليون صعوبة في التعاطي معه عندما ترأس الوفد الفلسطيني المفاوض في مؤتمر مدريد للسلام عام 1992 بسبب صلابته في التمسك بالثوابت الفلسطينية.

كان الدكتور زيدان مثل الكثيرين من أبناء القطاع من المدمنين على إذاعة بي بي سي العربية، وكنت أشارك في برامجها بكثرة بعد احتلال القوات العراقية للكويت صيف عام 1990، فلم تكن محطة الجزيرة موجودة في ذلك الوقت، ويبدو أنه أعجب بمداخلاتي القوية في ذلك الوقت ضد التدخل الأميركي والحصار المفروض على العراق، فعبَّر عن هذا الإعجاب لوالدتي، مريضته المزمنة، وكانت شهادته حاسمة في تحسين حظوظي لديها، فهي لم تؤمن قط أن الصحافة مهنة محترمة مثل غيرها، وكانت تعتقد أنني صعلوك أضعت حاضري ومستقبلي بالانخراط فيها، ولذلك سأظل مديناً للدكتور زيدان بفتواه التي غيَّرت قناعاتها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

التأقلم

مع تحقيق خالد وندى نجاحات بشق طريقهما إلى عالم أقرانهما الفلسطينيين، تحسنت لغتهما العربية إلى حد لا يصدق، خارجة من اللاوعي حيث زرعتها دروس أيام السبت، أو بسماعها في البيت أو نتيجة ميل جينيٍّ إلى اللغة. انضمت ندى إلى الفتيات لتلعب معهن الحجلة، إضافة للدمى: بتنويعة اللعب المصنوعة منزلياً - أجزاء من الخرق مربوطة بعصي إضافة لقش مكان الشعر - أو الدمى البلاستيكية المستعملة التي وجدت طريقها إلى رفح عبر المنظمات الخيرية في الغرب. خالد من جهته، لعب مع أبناء عمومته الذكور، مستمتعاً بنشاطات مشابهة لتلك التي امتلأت بها طفولتي، غالباً بتسلق الأشجار وكرة القدم، وذهبت النعومة والملابس النظيفة إلى غير رجعة، وبات «مشحبراً» وآثار خدوش عديدة على ساقيه أو قدميه.

انتبه خالد وندى، كلاهما، إلى ملصقات «الشهداء» - شباب صغار فقدوا أرواحهم خلال القتال مع الإسرائيليين - المعلقة على جدران أولاد أعمامهم. أصبح الأولاد مسيَّسين في سن مبكرة في ظروف قاسية وكانوا يجلُّون هؤلاء الشهداء بالطريقة نفسها التي يقدِّس نظراؤهم الغربيون نجوم السينما أو مغنِّي موسيقى البوب. في إحدى الليالي كنا جالسين في باحة المنزل وسمعت خالد وأولاد عمه، الموجودين على سطح المنزل، يتحدثون عن الانتفاضة الأولى والتي انتهت قبل سنتين فحسب. كنت أتحدث مع خالد أحياناً عن الوضعية السياسية في فلسطين رغم أن كلامي كان يدخل من أذن ويخرج من الأخرى، لكن الآن صار الأمر حقيقياً بالنسبة له فيما كان يستمع إلى أقرانه.

قال أحد الأولاد:

- «جاء الجنود الإسرائيليون برشاشاتهم ودخلوا إلى المخيم، بعض الأولاد الكبار كانوا يحاولون إيقاف تقدمهم.

- صحيح، لأنهم كانوا يجيئون ليقتلوا الناس، شرح طفل آخر.

- لذلك بدأوا يقذفونهم بالأحجار، استمر الولد الأول بالحديث. انضممنا إليهم و...

- ثم بدأوا بإطلاق النار علينا».

انتبهت إلى صوت ابن أخي محمد، ابن جلال. سيشارك لاحقاً في الانتفاضة الثانية مع توقُّع جلال التام له أن يقتل، لكنه لاحقاً قرر الانضمام إلى قوات الأمن الفلسطينية. تابع محمد:

- «كنا بعمر التاسعة تقريباً. كانوا يركضون باتجاهنا - بووومم بووومم، (قام بتقليد صوت إطلاق النار). شاهدت صديقي عصام يقع على الأرض. ركضت إليه وخبأته بجانب البيت. كنت لا أزال أستطيع رؤية عصام ممدداً على الأرض، لا يتحرك. هرب الجنود فيما مجموعة من الرجال والأولاد لحقوا بهم وأمطروهم بالحجارة. كانوا يتلقون الضربات من الخلف ومن الأمام. تصوَّر، حجارة ضد الرشاشات!

- ودبابات! تدخل آخر معلقا. وهليكوبترات!

- ماذا حصل لعصام؟ (تبيّنت صوت خالد). هل كان بخير؟

- أخذوه إلى مشفى في إسرائيل، قال أحد الأولاد، لقد قاموا ببتر قدمه وركّبوا له قدماً اصطناعية. أولاً يطلقون الرصاص عليه، ثم يعطونه قدماً صناعية.

- ويتوقعون أن يكون أهله ممتنين لهم! أضاف ولد آخر فضحكوا كلهم.

- يا الهي! قال خالد متعجباً، أريد أن أحارب أنا أيضاً. فلنذهب لنلقي الحجارة على الجنود.

- هناك اتفاقيات أوسلو الآن، قال أحد الأولاد الذي أحسست من صوته أنه ما بلغ العاشرة بعد. هذا يعني سلام. لكن لو جاءوا مجدداً مع دباباتهم وبنادقهم فسوف نحاربهم.

- وعندها يمكنك أن تأتي معنا، قال محمد. يمكن أن تسافر إلى هنا من إنجلترا وستصبح أخاً لنا.

- نعم، سنكون إخوة، قال خالد بحماس».

هنا سمعت صوت ارتطام كفوف الأولاد كفاً بكف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

مخيم دير البلح للاجئين

قررت أن أزور دير البلح، المخيم الذي ولدت فيه، مع اثنين من إخوتي، كمال وجلال. كان هناك مراكز تفتيش على كل طريق يمر قرب مستوطنة إسرائيلية، وكان يتمُّ إيقافنا وتفتيشنا باستمرار. أكثر من أي وقت مضى، كانت غزة تشبه سجناً بعرض خمسة كيلومترات.

الشيء الأول الذي صدمني ونحن ندخل المخيم هو أن كل شيء بدا صغيراً مقارنة بما أتذكره. كانت الطرق أضيق وأصغر والأشجار التي كانت تشكل غابة طفولتي تحولت إلى ما يشبه النباتات الضارة. ذهبنا إلى المدرسة التي تعلمت فيها ونظرنا حولها: لقد تحولت إلى ما يشبه الخربة، ورغم ذلك، كان هذا المكان الآيل للسقوط المصدر الوحيد للأمل لآلاف الأطفال الفلسطينيين الذين يمكن أن يغيِّروا مصائرهم من خلال التعليم. بحثنا عن بيتنا لكننا لم نستطع أن نجده؛ لقد توسع المخيم إلى خارجه ليتحول إلى مجموعة من المساكن المرتجلة والملاجئ التي تمنع الهواء، وتمددت المساكن إلى خارجه غابات إسمنتية عشوائية من دون أي تنظيم، وبئر مدهونة من الخارج. ذهبنا إلى الشاطئ الذي قضيت فيه الكثير من ساعات الطفولة السعيدة ووجدته بدائياً كما كان من قبل؛ كان الصيادون لا يزالوا مشغولين بالمكافحة لاستخراج رزقهم لكنهم صاروا يلبسون ثياباً تتلاءم مع الموجة الصاعدة للأصولية الإسلامية في غزة، بينما كنا كلنا من قبل عراة تحت أشعة الشمس.

سألت عن أصدقائي من أيام المدرسة وابتهجت حين أخبرتني مجموعة من الشباب أنهم يعرفون صديقي علي، الذي كان آخر ما سمعت عنه أنه أصبح مهندساً متمرناً. برفقة الجمع من حولي، أخذوني إلى مسكن عشوائي ظهر منه شخص أكثر بدانة وصلعاً، ولكنني استطعت تمييز علي القديم. تعانقنا، وكلانا مذهول لهذا اللقاء العفوي. وفيما جلسنا خارج بيته لشرب القهوة، أخبرني أخباراً مفاجئة: «عبد الباري، هل تتذكر حمزة؟». أشرت برأسي إيجاباً. «حمزة الحالم الذي كان يعيش فقط ليعبر البحر؟». أشرت برأسي مجددا وأخبرت علي أنني قابلته بنفسي، بالصدفة، قبل سنوات في منطقة شيبردس بوش اللندنية.

«حسناً، لقد عاد! أعلن علي. هل تتخيل؟ لقد استطاع الخروج من هنا لكنه اختار أن يعود إلى مخيم اللجوء!».

اتضح أن حمزة ترك زوجته المالطية واشترى بيتاً على طرف المخيم في مدينة دير البلح نفسها. إنه سعيد الآن، بحسب ما قال علي، وابنه، يوسف، يحضر لزيارته من حين لآخر.

وقف علي وقال: «تعال عبد الباري، أريد أن أريك شيئاَ».

تبعته عبر الشارع إلى كاراجه حيث شرح لي أنه يدير الآن محله الخاص كميكانيكي وبائع سيارات مستعملة. فتح قفل الأبواب الحديدية المتداعية ليريني سيارة جيب SUV أميركية جديدة. انفجرت ضاحكاً وسألته:

- «من أين جئت بهذه السيارة؟

- هذه مساهمتي للمقاومة الفلسطينية المجيدة، قال شارحاً، وهو يضرب جوانب السيارة السوداء الصقيلة والكروم اللماع. إنها مسروقة بالطبع. لصوص السيارات الإسرائيليون يحضرون غلَّتهم لي. يقولون لحراس الحدود إنهم يزورون المستوطنات لكنهم يتركون السيارات هنا وأعطيهم ثمنها. هذا المثال الأفضل لشرح التعاون الفلسطيني - الإسرائيلي كما أعرفه! نقوم بتفكيك السيارات القديمة ونستخدمها كقطع غيار وهناك سوق سوداء مزدهرة للسيارات الفاخرة منذ أن عاد رجال منظمة التحرير الفلسطينية إلى البلد».

بحسب ما رأيت، فلا شيء في غزة تغيَّر بعد سبع وعشرين سنة، باستثناء أنها صارت أكثر قدماً وخراباً. البيوت لا تزال آيلة للسقوط، وليس هناك نظام للمجاري، لا مياه جارية ولا خدمات داخل المخيم. كان هناك مولِّد كهرباء كبير يزوِّد نصف السكان هناك بخدمة متقطعة - وحتى هذا دُمِّر بالقصف الإسرائيلي في حزيران/يونيو 2006، كنوع من «الرد الانتقامي» على اختطاف جندي إسرائيلي.

رغم الظروف البائسة التي يجبَر الناس على تحملها، فقد كان هناك مزاج من التفاؤل العظيم، وحتى نوع من النشوة، ولَّدتها اتفاقيات أوسلو التي وقِّعت يوم 13 أيلول/سبتمبر 1993، والتي لحقت بها اتفاقيات أوسلو الثانية يوم 28 أيلول/سبتمبر 1994. وجدت نفسي على خلاف مع عائلتي حول هذه المسألة بسبب معارضتي لهذه الاتفاقية. «أنت لا تفهم ماذا يعني هذا لنا، هنا، في فلسطين، شرحت لي أمي. لقد كنت غائباً لفترة طويلة جداً. لقد اكتفينا من الموت والمعاناة. نريد أن نعيش. تعبنا من الحرب والقتل».

«أمك على حق، قال كمال موافقاً. أنت متطرف جداً. عرفات فعل الشيء الصحيح. الآن لدينا إدارة فلسطينية وشرطة فلسطينية ونشيد وطني. قريباً سوف نرى نهاية الاحتلال الإسرائيلي وغزة ستصبح مكاناً غنياً وسيصبح هناك عمل ووظائف للجميع».

«عرفات لديه مكتب جديد جميل، أضافت أمي. ذهبت لأراه. إنه مثل قصر رئاسي والعلم الفلسطيني يرفرف فوقه».

«قد يكون مثل قصر رئاسي، يمَّه، قلت معارضاً، ولكن ما هي القوة الحقيقية التي تمتلكها السلطة الفلسطينية؟ الأعلام والألقاب والمباني لا تعني شيئاً، كل ذلك للاستعراض - الإسرائيليون يمكن أن يدمروا كل هذا بعدة قذائف غداً لو أحبوا. نريد أكثر من علامات رمزية».

استمرت مناقشتنا طويلاً حتى الليل. لكوني خارج البلد، فقد كان لدي رؤية أكثر موضوعية من أقربائي الذين طلبت إليهم عدم توقع الكثير.

«كل ما أريده هو سقف فوق رأسي، وأولادي حولي وأكل على الطاولة، قالت أمي، أنا لا أكره اليهود، الإسرائيليون هم من سببوا لنا هذا العذاب الكبير. أوسلو سيساعدنا لنعيش جنباً إلى جنب مع اليهود كما كنا نعيش قبل زمن طويل».

لاحظت كيف أن طرق التفكير والأهداف السياسية المختلفة بين الذين يعيشون في الخارج وأولئك الذين بقوا في فلسطين يمكن أن تكون مؤثرة بشكل كبير على الطريق للوصول إلى تسوية؛ هذا جانب في العملية السلمية شديد الخطورة لا يمكن أن نتجاهله. وربما لهذا السبب فوجئ أناس مثل محمود درويش ومثلي بترحيب أهل الداخل باتفاقات أوسلو ومساندتها، فهم كانوا أكثر معاناة من الاحتلال ويريدون حلاً لوضع حد لمعاناتهم، ونجح عرفات في تحسس هذه الحقيقة في تسويق اتفاقات أوسلو الرديئة.

تفاؤل عائلتي أثر بي وقررت أخذ إخوتي لمقابلة عرفات في مقره الجديد في غزة؛ كان مبنى مترامي الأطراف مقابل البحر وفيه مهبط للطائرات لهبوط طائرتي الهليكوبتر الخاصتين به، وإحداهما كان قد تمَّ الحصول عليها حديثاً.

اعتقد إخوتي حقاً أن هذا المبنى ووجود عرفات في فلسطين يشكل خطوة في الاتجاه الصحيح، وكانوا متحمسين للحديث مع الرجل الذي هندس أحلامهم هذه. أنا أيضاً كنت مسروراً برؤية صديقي القديم حين جاء إلى الغرفة للترحيب بنا، وعانقته بحرارة. اعتزاز عرفات بمبنى قيادته هذا كان مبرراً؛ قام بالترحيب بحرارة بنا واستمتعت بمنظر ضوء القمر على خط الساحل فيما كان يتحدث مع إخوتي عن مستقبل فلسطين. لسوء الحظ، إن مبنى عرفات الجميل والمهبط وطائرتَي الهليكوبتر دُمِّرت كلها في قصف إسرائيلي بعد ست سنوات فحسب.

الرحلة الأولى إلى غزة انتهت بعد عشرة أيام واتجهنا عائدين إلى مطار تل أبيب. لا بد أننا قمنا بشيء نبَّه السلطات لوجودنا، فقد أوقفتنا الشرطة والموساد وجرى التحقيق معنا. قاموا بتوجيه أسئلة لنا كلنا، بمن فينا ابنة الثمانية أعوام، ندى، كما قاموا بتفتيش كل غرض في حقائبنا. عندما اقترب موعد رحلتنا، بدأتُ أقلق من أن نخفق في الوصول بالوقت المناسب. «بمن

التقيتم في غزة؟»، سأل أحد الضباط وهو يمسك حقيبة صغيرة تضم أدوات الحلاقة والعطر ويفتش محتوياتها باسترخاء.

قلت:

- «عائلتي وأهلي.

- هل قابلت أحداً آخر؟ قال مصرَّاً.

- عرفات».

قلت ذلك، متسائلاً عن التأثير الذي سيؤدي إليه ذلك. بدت الصدمة على وجه الضابط، ثم الحيرة، فالقلق. لم يكن الإسرائيليون على يقين مما يريدون أن يفعلوا بعرفات في ذلك الحين. هل كان إرهابياً أو سياسياً؛ هل هو حليف الآن أو هو خصمهم اللدود؟ أعاد الضابط الحقيبة إلى مكانها وربَّت عليها قبل أن يقفل حقيبة الملابس.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في رحاب الأقصى

عدت إلى غزة مع عائلتي في صيف 1997. هذه المرة، عند مغادرتي مطار تل أبيب، طلبت إلى السائق اصطحابي إلى القدس. أردت لطفليَّ اللذين صارا في الثانية عشرة والعاشرة من العمر، أن يريا الحرم الشريف في شرق القدس، وهو مؤلف من 35 فداناً من الأرض تضم المسجد الأقصى إضافة إلى المبنى الإسلامي الأقدم في العالم، قبة الصخرة. كان يوماً مجيداً وكنا متأثرين جميعاً بحرمة المكان وقدسيته وبالمباني الرائعة، بمناراتها وقببها، إضافة إلى الحدائق الجميلة والنوافير. شرحت لطفليَّ أن القدس هي العاصمة التاريخية لفلسطين وأنها موقع إسلامي مقدس على مدى أربعة عشر قرناً، وأنها أحد محاور الصراع الرئيسية مع الإسرائيليين، إن لم تكن أهمها.

انتبه خالد وندى بسرعة إلى وجود الجنود الإسرائيليين على المدخل إلى المسجد الأقصى، يفتشون الناس الذين يدخلون.

- «ماذا يفعلون؟ همست ندى.

- الإسرائيليون احتلوا القدس بعد حرب 1967، أجبت. لكننا نريد أن تكون عاصمتنا مجدداً؛ هناك الكثير من الجدل حول هذه المدينة.

- هل سيحاول الإسرائيليون منع المسلمين من الذهاب إلى الجامع؟ سأل خالد، وهو ثائر للفكرة.

- لقد قاموا بذلك في الماضي، قلت، كانت هناك محاولات لإحراقه أو أخذه. هناك مجموعة من المتطرفين الصهاينة تدعى «المخلصون لجبل الهيكل» يريدون بناء هيكل يهودي بدلاً من المسجد. وكانت هناك مجزرة عام 1990. فتح الجنود الإسرائيليون النار على الناس فيما كانوا يصلون؛ ثمانية عشر منهم استشهدوا وكثيرون جُرحوا».

نظرت إليَّ باسمة كأنها تريد القول: لا تقل الكثير، إنهما مجرد طفلين. لكنني كنت أدرك أن هذه الفرصة لن تسنح لنا مجدداً: الوقوف في هذا المكان المقدس لإسراء الرسول، والقبلة الأولى للمسلمين.

قلت لهم: «إنها مقدسة لدينا كمسلمين، وكذلك لليهود، والمسيحيين»، وأنا أعتقد أنها يجب أن تكون مفتوحة لكل الأديان. هكذا كانت دائماً من قبل... ولكن تحت السيادة العربية الإسلامية ولا تنازل عن ذلك مطلقاً».

استُقبلنا بالدموع والعناق كما حصل في غزة من قبل. لم يتغير الكثير فيما يتعلق بالبنية التحتية والفقر الطاحن للحياة اليومية للمخيمات، لكن ما لفت نظري كان تزايد عدد الملتحين والنساء المحجبات. في ذلك الوقت، كان تأثير

حركة حماس في المخيمات ملحوظاَ؛ بدأ الناس بفقدان الثقة بعملية أوسلو السلمية وبالذين وقَّعوا عليها. كانوا يبحثون عن شيء جديد، ووسائل أكثر جذرية لتحقيق العدالة، وجهاز عمل يشدد على الإسلام والهوية الوطنية الفلسطينية. وقد ركبت حماس على هذا القالب ووجدت في فشل عرفات في إقامة دولة مثلما وعد فرصة لتعزيز شعبيتها ونشر إيديولوجيا المقاومة التي تطرحها وتمارسها كبديل.

لا يعني هذا أن الجميع كانوا يبتعدون عن عرفات وتنظيمه الحاكم، فتح. الكثيرون ظلوا متفائلين بالمستقبل تحت حكم السلطة الفلسطينية، كما قام الإسرائيليون ببعض الانسحابات الرمزية من المدن، لكن قلقاً عاماً كان موجوداً نتيجة التباهي بالثروة لدى قادة فتح الذين بنوا فيلات كبيرة على البحر وأصبحوا يتجولون بسيارات جديدة، وغرق معظمهم في الفساد ورغد العيش، بل تباهى بعضهم بعلاقاته مع الإسرائيليين وباتوا يتصرفون معهم كأنهم أصدقاء لا أعداء.

كل هذا ظهر في تباين تام مع فقر الناس الواسع الانتشار، والذي عبَّر عنه أخي جلال الذي قام بوصف هؤلاء القادة باعتبارهم «طفيليات تقتات على بؤسنا». بالنسبة لأمي، أكثر الأشياء صدماً لها كانت الثياب التي ترتديها بنات قادة السلطة الفلسطينية. «لا أعرف أي نوع من التأثير سيتركه أمثال هؤلاء على الشباب، قالت بتعجب. يسمحون لبناتهم بالتجوُّل بهذه البناطيل الضيقة».

على عكس حماس التي انبثقت كحركة شعبية إسلامية في بداية الانتفاضة الأولى، فإن قادة فتح وعائلاتهم كان يُنظر إليهم الآن باعتبارهم غرباء علمانيين هاربين من مشاق العيش التي يعانيها باقي شعبهم. كانوا غرباء أكثر مما هم عائدون، وهي فوارق تبدو طفيفة، لكن هذا التباين هو الذي دفع بالفلسطينيين في أوقات لاحقة إلى حافة الهلاك، على حد تعبيرهم.

كانت الإشاعات قوية عن فساد واسع في معسكر عرفات. أسوأ الفضائح في ذلك الوقت حصلت عام 2004 حين قدَّمت مصر للسلطة الفلسطينية كميات ضخمة من الإسمنت بثمن متدنٍّ للاستخدام في إعادة إعمار المناطق الفلسطينية التي دُمرت نتيجة سنوات من الحرب مع إسرائيل. باع وسطاء السلطة الفلسطينية الإسمنت إلى المقاولين الإسرائيليين، بربح 50 بالمئة، وهذا الإسمنت الذي كان يُفترض أن يُستخدم لإعمار منازل الفلسطينيين تحوَّل إلى كيلومترات من جدار الفصل العنصري واستُخدم بعضه في بناء المستوطنات. «شكراً لله أن لدينا حماس»، قال ابن عمي محمود، وهو رأي سيغدو اتجاهاً منتشراً بحيث نَقَل السلطة لحماس في انتخابات كانون الأول/ يناير 2006 التي فازت فيها بأغلبية مقاعد المجلس التشريعي.

عام 1997، كانت شهرتي قد اتسعت أكثر مما كنت عليه في زيارتي الأولى بدرجة عظيمة بسبب مقابلتي الشهيرة مع أسامة بن لادن في العام السابق، والتي بُثت في كل أنحاء العالم وأدت إلى ظهوري في ما لا يُحصى من المقابلات التلفزيونية. خبر وصولي إلى غزة انتشر مثل النار في الهشيم وحضرت وفود وشخصيات كبيرة من كل التنظيمات والأحزاب على اختلافها، بما فيها حماس وفتح، وكل واحد من هذه التنظيمات يأمل في أن أقوم بمباركة سياساته. تحدثت مع الجميع واستمعت بانتباه لما أرادوا قوله لكنني كنت أشدد على استقلالي في نهاية كل لقاء. كنت أقول لهم: «أنا صحافي فحسب، لا أستطيع أن أكون مع طرف ضد طرف آخر».

غير أن شهرتي الجديدة أثبتت فائدتها للأصدقاء والأقارب. كان واضحاً أن الطريقة الوحيدة لحصول أي شخص على أي من الوظائف النادرة في غزة في ظل السلطة الوطنية كان عبر الوساطة والعلاقات. كان الناس يجيئون إليَّ، ليس فقط من مخيم رفح للاجئين ولكن أيضاً من كل أنحاء غزة، لطلب وساطتي ومساعدتي للحصول على وظيفة. كانوا يقولون: «أنت جئت من الخارج، الجميع يسمع منك». وبعدها كانوا يعطونني السيَر الذاتية لأولادهم. نجحت في مساعدة عدد قليل من الناس بهذه الطريقة لكن هذا أدى إلى فيضان من طلاب الوساطة، وبعد أسبوع تحوَّل بيت أمي إلى ما يشبه مركز طلبات التوظيف أكثر منه منزلاً، وهو أمر أصابني بالاكتئاب، خصوصاً أن معظم الباحثين عن عمل أو علاج يستحقونه فعلاً، لكن قدراتي كانت محدودة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نجاة بصعوبة

مع نهاية الرحلة، صارت لدينا معرفة شخصية بالطرق العنيفة التي طوَّرتها حركة المستوطنين الإسرائيليين منذ المهمة القتالية لأريل شارون بصفته وزيراً للإسكان في الثمانينات. كنا في سيارة أجرة غزاوية في طريقنا إلى مطار اللد عبر القدس. وفيما كان طريقنا يلتف حول طريق الجبل العالي بعد رام الله، ظهرت سيارة قادمة بالاتجاه المعاكس. كانت تحمل لوحة أرقام صفراء ما يعني أنها سيارة إسرائيلية (لوحات غزة خضراء) وكانت مسرعة بطريقة مستهترة، متجهة نحونا. لم يكن هناك حيِّز للوقوف حتى تمر وكانت هناك حافة مميتة تحتنا. رأت باسمة والأطفال أن السيارة الإسرائيلية متجهة نحونا باندفاع مقصود وبدأوا بالصراخ فيما كنت مجمَّداً من الرعب. لحسن الحظ، كان سائقنا بارد الأعصاب وحافظ على وضعه بدلاً من أن تنهار أعصابه ويتحرك بأي اتجاه، الأمر الذي كان سيودي بنا إلى موت محتم بوقوعنا في هاوية تمتد مئات الأمتار. ابتعد سائق السيارة الثانية في اللحظة الأخيرة وسمح لنا بالمرور، بدلاً من أن يقتل نفسه بحادث اصطدام وجها لوجه. علمت بعد ذلك أن المستوطنين كانوا يستخدمون هذه الطريقة مع ركاب السيارات العربية لدفعهم إلى الارتباك والسقوط في قعر الوديان.

وجد سائقنا مكاناً للوقوف وخرجنا من السيارة لنستعيد أنفاسنا من المحنة التي تعرضنا لها ولتهدئة الأطفال. «كان هذا مستوطناً»، شرح السائق، وهو يسحب سيجارة يدخنها. «إنهم يحاولون إرهاب الفلسطينيين ومنعهم من الذهاب إلى أي مكان. هذا أسلوب آخر للتطهير العرقي».

«هل يحدث هذا كثيراً؟» سألتْ باسمة، مشككة في الأمر.

«كل الوقت»، قال السائق، بلامبالاة. «لقد قتلوا عشرات الفلسطينيين بهذه الطريقة. لقد اعتدنا على ذلك».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

غزة، 1999

قبل فترة قصيرة من زيارتي الثالثة والأخيرة لقطاع غزة، توقف عرفات في مطار هيثرو وطلب أن ألتقيه، كان في طريقه إلى الولايات المتحدة. اتجهت إلى صالة كبار الزوار حيث كان ينتظرني. كالعادة تعانقنا بحرارة لكن هذه المرة أحسست بتغيُّر عند الرجل. لم يعد يتحدث عن حل عملي ولم يذكر اتفاقات أوسلو؛ كانت أجوبته مقتضبة وموجزة، وقد بدا مهتاجاً ومحبطاً. فجأة التقت عيناه بعينيَّ وسحب قلمه. مزَّق قصاصة من دفتر ملاحظاتي الموجود على الطاولة بيننا وبدأ يكتب شيئاً عليها. لاحظت أنه كان خائفاً أن الغرفة، أو هو نفسه، مزروعة بأجهزة تنصُّت. انتهى من الكتابة ووضع قصاصة الورق أمامي. كان قد كتب: «ليس هناك خيار إلا الانتفاضة». حين تأكد أنني قرأتها، أخذ الورقة، وشطب كل كلمة فيها، ثم وضعها في جيب معطفه.

كان عرفات محقاً، وبعد عام من ذلك، في تموز/يوليو 2000، أخفقت المحادثات في كامب ديفيد رغم التنازلات الفلسطينية غير المسبوقة بالموافقة على أن تذهب 78 بالمئة من الأرض لإسرائيل. حين أحجم المفاوضون الفلسطينيون عن قبول الشروط الإسرائيلية أن تقسم الـ 22 المتبقية إلى أربعة كانتونات منفصلة، وأن لا تمتلك السلطة الفلسطينية المستقلة سيطرة على حدودها، فضائها الجوي ومياهها، لم يعد هناك شيء يمكن فعله. إرادة الشعب الفلسطيني بالتعايش، ودافعه نحو السلام، فشلا في إرضاء الإسرائيليين الذين قاموا بإساءة استغلال اتفاقيات أوسلو لتشديد قبضتهم على الضفة الغربية وغزة، إذ تزايدت بشدة عمليات ضم الأراضي وتوسيع المستوطنات. اندلعت انتفاضة الأقصى في أيلول/سبتمبر 2000؛ التغيُّر في المزاج كان واضحاً خلال الرحلة الأخيرة إلى غزة عام 1999.

كل التفاؤل قد اختفى، متأثراً بظروف الحياة المتزايدة سوءاً والفساد في السلطة الوطنية. صارت فلسطين المستقلة والتعايش السلمي حلماً بعيداً كما كانا دائماً، ووصلت المفاوضات إلى حائط مسدود.

إن ملاحظة أن اتفاقات أوسلو أدت إلى خداع الفلسطينيين وغشِّهم غيَّرت المزاج العام سلباً وقادت إلى قرارات جديدة وإلى تصلُّب المشاعر. والآن، يستمر صعود حماس بلا هوادة، خصوصاً بعد اغتيال الإسرائيليين ليحيى عياش، العقل المدبر للعمليات الاستشهادية في حماس، أو «القنابل البشرية» كما يسمَّى منفِّذوها في الإعلام الغربي، والتي تحولت بسرعة إلى أمر اعتيادي. كانت زيارة لا متعة فيها وكانت آخر رحلاتنا. أنا الآن مجدداً ممنوع من الدخول إلى وطني؛ السلطة الوطنية لا تثق بي بسبب انتقاداتي لها والإسرائيليون يرفضون دخول معظم حاملي جوازات السفر البريطانية ما

لم يكونوا أصدقاء معروفين لإسرائيل، كما أن حكماً غيابياً صدر بحقي من قبل محكمة إسرائيلية بتهمة التشهير.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

لا فرصة لتقول وداعاً

في آب/أغسطس 2003، كنت في عطلة مع عائلتي في البرتغال. مديرة التحرير، سناء العالول، كانت المسؤولة في مكاتب «القدس العربي» في فترة غيابي وتلقَّيت اتصالاً من إخوتي الذين كانوا يحاولون التواصل معي لنقل بعض الأخبار السيئة. توفيت والدتي بمرض السرطان. كانت في السادسة والسبعين من عمرها وعاشت بعد وفاة أبي ثمانية وثلاثين سنة. سناء وإخوتي توصلوا إلى استنتاج أنه لن يُسمح لي بالسفر إلى غزة حتى في ظرف كهذا وقرروا عدم إخباري حتى أعود من عطلتي بعد ثلاثة أيام.

عندما سمعت بوفاتها، كانت قد دُفنت. كانت تلك صدمة مزدوجة، فأنا، إضافة إلى أنني فقدت والدتي التي ضحت كثيراً من أجلنا وعاشت حياة صعبة، لم أستطع أن أحضر جنازتها وأبكي فقدانها على أرضنا. وصلتني رسالة عزاء مؤثرة من ياسر عرفات الذي قرأ الخبر في صحيفة فلسطينية محلية، لكن قليلين آخرين عرفوا بالأمر. تعاطيت مع حزني بخصوصية، وعززت هذه الوفاة شعورنا بالعزلة في المنفى. تحدثت معها قبل وفاتها بأيام عبر الهاتف. حاولتْ أن تتظاهر بالقوة والصلابة، وأخفت عني حالتها الصحية المتدهورة، لكنها أعربت عن أمنيتها بمشاهدة طفلي الأصغر كريم قبل أن تموت. قلت لها ممازحاً إن لديها أكثر من خمسين حفيداً لا تعرف أسماءهم، فلماذا تريد مشاهدة هذا الطفل بالذات؟ قالت إنه مختلف. لعلها الغربة، لعله كان يشبهها بعينيه الزرقاوين وطلعته الجميلة، لعلها تعتزُّ بأن إلحاحها لإنجابه قد أعطى ثماره في نهاية المطاف. ماتت الحاجة ظريفة من دون أن تتحقق أمنيتها ومن دون أن أودِّعها الوداع الأخير. رحمها الله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

محاصَر

استمرَّ الوضع في غزة بالتدهور؛ قام الإسرائيليون بحصار المنطقة وفرضوا عقوبات مدمرة عليها بعد أن فازت حماس بالانتخابات في كانون الأول/يناير 2006، بحيث صارت تشبه معسكر اعتقال، والعديد من المعلقين العالميين الآن يتهمون الإسرائيليين بالإبادة المنظمة في القطاع. أثناء ذلك استمر الإسرائيليون في بناء جدار الفصل العنصري في الضفة الغربية، والذي يبلغ ضعف ارتفاع جدار برلين وأربعة أضعاف طوله. أعمال البناء، التي زحفت نحو أراضي الفلسطينيين، تحت مراقبة الجنود، غالباً ما تتم بعد الإجلاء الإجباري للعرب من بيوتهم وبساتينهم التي يتم جرفها وقلعها من جذورها. محلات، معامل، أراض خضراء، مدارس، عيادات طبية، وقعت كلها ضمن «الجانب الخطأ» من الجدار ولا يعود الوصول إليها ممكناً من قبل الفلسطينيين الذين تقوم بخدمتهم. أكثر من 7 بالمئة من الأراضي الفلسطينية داخل الضفة الغربية ستتم خسارتها بسبب الجدار الذي سيكلف بناء كل كيلومتر منه مليون دولار.

الجدار، ظاهرياً، هو لحماية الإسرائيليين من الانتحاريين، لكن هناك العديد من الأهداف الأخرى: أولاً، هو طريقة للاستيلاء على الأراضي؛ ثانياً، هو يرسخ المستوطنات الإسرائيلية غير القانونية في الضفة الغربية ويغيِّر الوضع الديموغرافي للمناطق المحتلة؛ وأخيراً، هو يقوم بإرهاب السكان الفلسطينيين واحتوائهم ضمن سجن آخر أيضاً. من الناحية النفسية، يقدم الجدار مفارقاته الخاصة: الإسرائيليون أيضاً مسجونون به، جسدياً وأخلاقياً؛ طموحاته للفصل العنصري تقدم فصلاً إضافياً لهم عن باقي العالم. تتحول إسرائيل بسرعة إلى الكيان المنبوذ للسياسة الدولية الحديثة. جنوب أفريقيا الجديدة، التي هي عبء وإحراج لمن يساندونها. إضافة إلى كل ذلك، فإن المظالم المستمرة في فلسطين وقود لنمو شعبية التنظيمات الإسلامية الجذرية، وليس فقط تنظيم القاعدة الذي ينتشر عالمياً.

الاضطهاد الإسرائيلي للفلسطينيين هو اقتراب مزعج من تعامل هتلر مع الشعب اليهودي. لقد مضى وقت طويل على استخدام الهولوكوست للسماح بأعمال إسرائيل الوحشية، غير أن تأثير جيل أكثر شباباً ينبثق الآن، جيل يرى أحداثاً تاريخية أكثر معاصرة، ومظالم مرئية أكثر. المعلق اليهودي نورمان فينكلشتاين، وهو ابن لناجين من المحرقة، أشار في مقالته التي نشرها في نيسان/أبريل 2002، «أولاً الجزرة ثم العصا»، والتي نُشرت في الأصل في كاونتربنش: «إذا أراد الإسرائيليون أن يتوقف اتهامهم بأنهم نازيون فعليهم أن يتوقفوا عن التصرف مثل نازيين».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

11. خاتمة الرحلة

انتهى هذا الكتاب، لكن الرحلة لم تنتهِ، ويعلم الله وحده أين تكون محطتها الأخيرة وكيف. كل ما أعرفه أنني أعتز بكل محطة فيها وأفتخر، صغيرة كانت أو كبيرة، مدة التوقف فيها قصيرة كانت أو طويلة. فهذا أنا، وهذا قدري، وهذه أخطائي، وهذه اجتهاداتي، ولا أندم على أي منها ولن أندم، فكل قرار اتخذته اعتقدت في حينه أنه القرار الصائب الذي أملَته ظروفه.

حجارة كثيرة، بل صخور كثيرة أُلقيت عليَّ، بعضها من قبيل الغيرة، وبعضها الآخر من كيد أنظمة انحرفت عما اعتقدتُ أنه طريق الصواب، وتحالفت مع الأعداء للنيل من هذه الأمة وقضاياها المصيرية، ومن الطبيعي أن يكون لها بعض التأثير السلبي، بل وأن تُحدث بعض الندوب الصغيرة، فأنا في نهاية الأمر مجرد بشر، إنسان مثل الآخرين، أفرح وأتألم، أسعد وأشقى، لكنني كنت دائماً أنظر إلى الأمام، فهمِّي كبير، جانبه الأكبر وطني، والشخصي فيه محدود للغاية.

تصديت دائماً لمنظومة كبرى من الظلم والتسلط والاستكبار، عربية في بعضها، دولية في معظمها، فمَن هو هذا المجنون الذي يقف، وفي ذروة حرب الكويت، في خندق العراق، ويعارض بشراسة «دول الضد» العربية المكونة من دول الخليج بزعامة المملكة العربية السعودية حيث المستودع الأضخم للثروة، ومعها كل من سورية حافظ الأسد المخزون القومي الأبرز في ذلك الحين، ومصر حسني مبارك المستودع البشري الأكبر في المنطقة. هؤلاء جميعاً ثلاثون دولة، على رأسها الولايات المتحدة الأميركية، الدولة الأعظم في تاريخ البشرية.

لم أقف مطلقاً مع الرئيس الراحل صدام حسين، فأنا أعرف مظالمه، وأعرف ديكتاتوريته، ولكنني وقفت مع العراق العظيم، لإيماني الراسخ بأن هذه الأمة، مثل القدر، تقف على ثلاثة أحجار رئيسية هي مصر والعراق وسورية، ولا تستقيم لها حال دونها مجتمعة أو متفرقة. وهذه المرتكزات الثلاثة كانت مستهدفة بمؤامرات أميركية إسرائيلية لأن نهوضها هو نهوض للأمة والعقيدة، وهناك قرار غربي متخذ منذ الحرب العالمية الأولى، وربما قبل ذلك بعقود، بأنه ممنوع عليها أن تنهض، وأن تظل ذليلة تابعة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما ستفتح الخزائن، وتظهر الوثائق ومعها الحقائق، سنكتشف أن حرب الكويت كانت مصيدة أعدت بطريقة محكمة لاصطياد العراق، والإيقاع بقيادته، لتجريده، والأمة بأسرها، من طموحات امتلاك أسباب القوة والرفعة،

وبالتحديد أسلحة الدمار الشامل التي كان يمكن أن تُنهي التفوُّق العسكري الإسرائيلي، وتعيد للعرب ما افتقدوه من كرامة وعزة نفس. كانت الكويت في اعتقادي «الطُّعم» الذي استُخدم، بحسنِ نية أو سوئها، للإيقاع بالعراق في هذه المصيدة، والتاريخ وحده سيكون الحكَم والفصل في هذا الإطار.

أذكر العراق لأن سهاماً كثيرة مسمومة أصابتني بسبب موقفي إلى جانبه، وإدانتي النزقة لكل محاولات تدميره ومن قبلها حصاره، بهدف تركيعه وكسر إرادة شعبه وقيادته، وأعترف هنا، وللتاريخ، بأنني لم أقابل الرئيس صدام حسين في حياتي، بل لم أسعَ إلى مقابلته، وتجنبت تلبية دعوات عديدة منه، حتى يظل موقفي من العراق بعيداً عن أي شبهات، وحتى لا أعطي للمتصيِّدين الحاقدين أو المأجورين أي فرصة لتشويهه.

وقفت مع فلسطين دائماً، لأنها محور التحدي وميدانه الأساسي، لهذه الأمة، ولهذه العقيدة، وليس لأنها بلدي ومسقط رأس أهلي وآبائي. فلسطين كانت وستظل الاختبار والبوصلة الحقيقية، لهذه الأمة، ومقياس كرامتها الوطنية والدينية، ولهذا ظللت مستهدفاً بالكثير من التهديدات والمضايقات الإسرائيلية المتواصلة التي بلغت ذروتها عند كتابة هذه الكلمات. هددوني في حياتي... هددوني في حياة أطفالي وأفراد أسرتي... حاولوا منعي من الكلام... من إيصال صوتي الغاضب إلى أوسع نطاق بشري ممكن... بجميع الطرق والوسائل، لأنهم يعتبرون هذا الصوت خطراً في زمن استسلم فيه الكثيرون... في بعض الأحيان فشلوا في مهمتهم، وفي أحيان كثيرة نجحوا، خصوصاً في الغرب، ملعبهم الرئيسي الذي كنت أزاحمهم فيه بقوة وصلابة وعناد.

آمنت دائماً بعظمة الإسلام وسأظل، ومن هذه العقيدة السمحاء استمديت الكثير من القوة والعزم، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم وسيرته وتراث أصحابه، الهدي والنبراس، لكنني لم أكن متطرفاً في إيماني، وإن كنت أفهم وأتفهم تطرف بعض الإسلاميين المسيَّسين في الذود عن العقيدة، والوقوف في خندقها في مواجهة الهجمة الظالمة التي تستهدفها، خصوصاً في الغرب، تحت مسمى «الإسلاموفوبيا».

من الصعب عليَّ أن أحدد أين سيتوقف القطار، وأين ستكون محطته النهائية، ولكن ما أستطيع أن أقوله هو أنني أتمنى أن تكون هذه المحطة مدينة «أسدود» حيث أرض والدي وأجدادي، وهي مدينة ساحلية تطل على البحر المتوسط، وتحمل عبق التاريخ العسقلاني، موطن الأسطورة التاريخية حول شمشون ودليلة، والميناء الأقدم في التاريخ حسب بعض الروايات.

وإذا تعذر تحقيق هذه الأمنية في حياتي، فإنني آمل أن أقضي ما تبقى منها في كوخ صغير في قطاع غزة، بجوار البحر. كوخ بحديقة متواضعة أزرع فيها بعضاً من أشجار التين والعنب، فاكهتَي المفضلتين، مع بعض الخيار والطماطم والفلفل والقرع، وأمضي بعضاً من نهاري مع صنارتي اصطاد بعض السمك، وأتأمل البحر وأمواجه، وأسمع هديره الصاخب الغاضب، فما أجمل غضبه، وما أمتع صخبه. واقضي البعض الآخر في الاعتناء بأشجاري، وشتلات خضاري، وربما بعض الريحان والحبق، ولا مانع من وجود شجرتَي برتقال إذا كان هناك متسع لهما.

في إحدى محاضراتي العامة التي ألقيتها في جامعة أوروبية (ترينيتي في دبلن الأيرلندية) سألتني نائبة برلمانية كانت بين الحضور عما إذا كنت أتوقع حلاً للقضية الفلسطينية في حياتي، أجبتها عند ذلك، وأنا أقترب من الستين من عمري، بـ«نعم» كبيرة. ليس من قبيل المكابرة، وإنما من منطلق الثقة، لكنني لم أخض في تفاصيل هذا الحل، لأن الوقت لم يسمح بذلك حينذاك.

مصدر تفاؤلي هذا يعود إلى أمرين أساسيين، الأول ينبع من إيماني الراسخ بأن سنوات الشعب الفلسطيني العجاف التي بدأت بتوقيع اتفاقات أوسلو الكارثية قد أوشكت على نهايتها، إن لم تكن قد انتهت فعلاً، وأن السنوات السمان للشعب الفلسطيني آتية فعلاً. فهذا الشعب لا يمكن أن يظل نائماً أو مخدراً في بحر من الظلام أغرقه فيه سياسيون فاشلون محبطون يائسون هرمون مفلسون. ولا بد أنه سينتفض ويقلب الطاولة على رؤوس الجميع، وسيجد من الشعوب العربية والإسلامية الحية والوطنية الدعم والمساندة.

الأمر الثاني إيماني الراسخ بأن الفقاعة الإسرائيلية أوشكت على الانفجار، لأن أسباب قيام إسرائيل كدولة عنصرية توسعية عدوانية تتلاشى الواحد بعد الآخر، فالغرب الاستعماري الذي زرع هذه الدولة يسير بسرعة على درب الانحدار، فبعد أن استنزف كل قواه في تحطيم إمبراطورية الشر الاشتراكية على حد وصف منظِّريه، جاء الدور عليه وعلى رأسماليته، وما الأزمات الاقتصادية المتلاحقة إلا المؤشر الأكبر في هذا الصدد. كان الاقتصاد العنصر الحاسم في إسقاط الإمبراطورية السوفياتية، والاقتصاد نفسه هو الذي سيُسقط إمبراطورية الشر الأميركية، إذ تتفاقم أزمة ديونها وتنهار مؤسساتها المالية.

قوى جديدة عظمى بدأت تظهر بقوة بالتزامن مع أفول القوة الأميركية، مثل الصين والهند والبرازيل وروسيا وتركيا وربما إيران أيضاً، ومن المؤسف أن لا دولة عربية بينها، رغم الثروات النفطية وعوائدها الهائلة. هذه القوى منفردة أو مجتمعة ستعيد التوازن مجدداً إلى العلاقات الدولية، وستنهي التفرد الأميركي بالقرار الحاسم في منطقتنا والعالم.

الهزائم الأميركية المؤكدة في العالمين العرب والإسلامي هي أحد عوامل استنزاف منابع القوتين الأميركية والغربية عموماً. فمن كان يتصور أن حركة طالبان المتخلفة في نظر الكثيرين من علمانيينا ستهزم أميركا وتكبدها خسائر مالية تصل إلى أكثر من مئتي مليار دولار؟ ومن كان يحلم بأن هذا العراق العظيم، ومن خلال مجاهديه، سيُفشل مشروع الهيمنة الأميركي ويكبِّد دافع الضرائب الأميركي خسائر أخرى في حدود تريليون دولار على الأقل، علاوة على أربعة آلاف قتيل؟

هذه الحروب التي خاضتها أميركا من أجل إسرائيل أولاً والنفط ثانياً أنهكت أميركا واقتصادها، مثلما كسرت شوكتها، وشوَّهت صورتها، واستنزفت قدراتها العسكرية، ولن يكون بمقدورها، في المستقبل القريب على الأقل، خوض حروب جديدة ضد العرب والمسلمين، وأتوقع قريباً، وفي غضون عقد من الزمان، نهاية أسطورة إسرائيل النووية وانتهاء تفردها بهذا السلاح الخطير في المنطقة.

تسألني كيف سيكون حل القضية الفلسطينية الذي أتوقعه، أجيب بأنني لا أملك بلورة سحرية، ولا أضرب في الرمل أو أقرأ الطالع، لكني اجتهد وأقول إن حل الدولتين بدأ يلفظ أنفاسه الأخيرة بعد موجات الاستيطان الإسرائيلية المكثفة. القيادات الإسرائيلية المتعاقبة استخدمت هذه الاستيطان من أجل فرض وقائع على الأرض تحول دون قيام الدولة الفلسطينية المستقلة على خُمس أراضي فلسطين التاريخية. لكن هذا السلاح بدأ يرتد عليها، وانقلب السحر على الساحر، لأنه سحر أسود على أي حال.

إن فرض الاستيطان لتغيير هوية الأرض العربية ومعالمها بدأ يعطي نتائج عكسية تماماً، من حيث تآكل حل الدولتين، وتعزيز حل الدولة الواحدة ثنائية القومية. وكل محاولات إسرائيل المدعومة أميركياً لوقف الاندفاع المتزايد في هذا الاتجاه من خلال محاولة فرض الاعتراف بيهودية إسرائيل محكوم عليه بالفشل، ليس لأنه جاء متأخراً فقط، وإنما أيضاً لأنه غير مقبول.

عارضتُ اتفاقات أوسلو بشراسة منذ اليوم الأول لتوقيعها، وكان هذا التوقيع نقطة الفراق بيني وبين الرئيس الشهير ياسر عرفات. فقد كانت هذه الاتفاقات، وكل ما تفرَّع عنها، من أكبر الكوارث الاستراتيجية التي حلت بالشعب الفلسطيني، لأنها أعطت إسرائيل المزيد من أسباب الحياة، وكسرت عزلتها، وفتحت الباب أمام الأنظمة العربية للتطبيع والتملص من واجباتها الأخلاقية والدينية تجاه القضية الفلسطينية.

اتفاقات أوسلو، التي قدمت حلولاً لقيادة منظمة التحرير على حساب الشعب الفلسطيني وثوابته الوطنية، جمَّدت حركة الفعل الفلسطيني لحوالي عشرين

عاماً، وحسَّنت صورة إسرائيل المشوهة عالمياً، وسهلت لها جميع حروبها اللاحقة في لبنان وقطاع غزة. فبينما هزمت المقاومة اللبنانية إسرائيل في جنوب لبنان وأجبرتها على الانسحاب ذليلة ومن طرف واحد عام 2000، قدمت قيادة منظمة التحرير لإسرائيل، ومن خلال اتفاقات أوسلو، صك غفران، والمزيد من القيود لتكبيل الشعب الفلسطيني وترويضه، ولو مؤقتاً.

السلطة الفلسطينية، التي أضاف إليها الرئيس عرفات كلمة «الوطنية» لإنقاذ ماء الوجه، كانت ولا تزال أكبر خدعة في تاريخ الشعب الفلسطيني، وقع في مصيدتها الكثير من الفلسطينيين، فقد أضعفت العلاقة بين فلسطينيي الداخل والخارج، وعملت على حصر القضية الفلسطينية في أقل من ثلث الفلسطينيين، أي سكان الضفة وغزة الخاضعين لها قبل الانفصال بين المنطقتين إثر نجاح حركة «حماس» في إنهاء وجود السلطة وأجهزتها الفاسدة بعد انقلابها الأمني الشهير.

توني بلير، رئيس وزراء بريطانيا السابق وبطل حربَي العراق وأفغانستان اللتين كلفتا العرب والمسلمين أكثر من مليون شهيد في العراق، وعشر هذا الرقم في أفغانستان، لعب دوراً كبيراً وبمساعدة السلطة وحكومتها في تحويل الشعب الفلسطيني إلى شعب من المتسولين، وعبر رواتب هزيلة تدفعها الدول المانحة لأكثر من 150 ألف موظف شهرياً، إذ أراد تطبيق الخدمة نفسها التي طبَّقها في أيرلندا تحت عنوان اتفاقية «الجمعة الحزينة»، من دون أي التفات للفارق الكبير بين فلسطين وأيرلندا الشمالية سياسياً واجتماعياً ودينياً وتاريخياً وديموغرافياً.

السلطة الفلسطينية جعلت من الاحتلال الإسرائيلي الاحتلال الأقل كلفة تاريخياً، عندما حولت أعباءه من كاهلها إلى الدول المانحة من خلال وجودها الشكلي المضلل؛ إنها أكذوبة كبرى صدقتها جماعة من المستفيدين منها والملتفين حول قيادتها، وسوقوها للشعب الفلسطيني، أو قطاعات عريضة منه. ولذلك فإن حلَّ هذه السلطة، بسبب إفلاسها، واختصارها الشعب الفلسطيني في قيادة من أربعة أشخاص يقررون مستقبله، ويتفاوضون باسمه من دون أي تفويض أو مرجعية وطنية تراقب أو تحاسب، هو عمل وطني من وجهة نظري.

المصالحة الفلسطينية ضرورية شريطة أن تتم على أرضية وطنية، ومن الصعب أن تنجح في ظل استمرار رهان السلطة على عملية تفاوضية مخادعة. وحتى تنجح، لا بد من تحقق أحد شرطين: الأول أن تتخلى «حماس» عن المقاومة وتنخرط في العملية التفاوضية، أي أن تذهب إلى أرضية السلطة، والثاني أن تؤمن السلطة، وحركة «فتح» عمودها الفقري، بفشل الخيار التفاوضي، والعودة إلى المقاومة بأشكالها كافة. الخيارِ الأول، أي

انجرار حماس إلى مائدة المفاوضات ضعيف إن لم يكن معدوماً لأنه يعني عملياً اضمحلالها، تماماً مثلما حدث للفصائل الفلسطينية الأخرى. أما الخيار الثاني فإنه الأكثر واقعية والأكثر قابلية للتحقيق، بعد فشل المفاوضات والرهان على اتفاق أوسلو في الوصول إلى حل الدولتين.

أي حل فلسطيني يُسقط حق العودة للاجئين الفلسطينيين أو عودة القدس كاملة للسيادة الفلسطينية يُعتبر في رأيي تفريطاً بالثوابت الفلسطينية يجب أن يحاسَب عليه كل من يسعى إليه أو يقبله من قبل الشعب الفلسطيني، أمام محاكم شرعية إسلامية، بحيث ينال العقاب الذي يستحق. فهذا تجاوز لكل الخطوط الحمر لا يجب التهاون بشأنه.

لا خيار أمام الشعب الفلسطيني غير المقاومة بأشكالها كافة، حتى لا يتمتع الإسرائيليون بالأمن والاستقرار، ويدركوا أن احتلالهم للأرض الفلسطينية مُكلف ولا يمكن تحمله، تماماً مثلما حصل في قطاع غزة، ما أجبرهم على الانسحاب، وترك جميع المستوطنات، تقليصاً للخسائر، واعترافاً بمدى فاعلية سلاح المقاومة.

خيار الدولة الواحدة، حيث يتساوى الجميع ويتعايش، في إطار ديموقراطي من دون أي تمييز غلى أساس العرق أو الدين هو الخيار الأكثر واقعية، في الظرف الآني على الأقل، تماماً مثلما حدث في جنوب أفريقيا، ويحدث في دول العالم الجديد مثل أميركا وكندا وأستراليا ونيوزيلندا. وليس أمام الإسرائيليين غير التسليم بهذا الخيار إذا أرادوا الاستمرار في العيش في المنطقة كجزء منها في أمن وسلام.

أنظمة الطغيان العربية بدأت تتساقط الواحدة تلو الأخرى، والتغيير الذي وقع في مصر هو القاطرة الرئيسية التي قد تقود المنطقة للخروج من عصر الظلمات التي تعيش في ظله، نحو مستقبل أكثر إشراقاً. فالمثلث المصري السعودي السوري الذي حكم المنطقة لأكثر من أربعين عاماً وسخَّرها في خدمة مشاريع الهيمنة الأميركية تفككت أضلاعه، والأهم من ذلك، خرجت مصر منه، وهذه بداية عملية التغيير التي نتطلع إليها ونحلم بها.

كنت متشائماً لأكثر من خمسين عاماً من عمري بسبب حال الإحباط التي أصابت هذه الأمة بفعل أنظمتها الدكتاتورية القمعية، ولم يبدأ هذا التشاؤم في التآكل إلا بعد اندلاع الثورات في المنطقة، وفي مصر خصوصاً، وتحقيق بعضها النجاح المأمول.

كتبت كثيراً مبشِّراً بهذه الثورات، وسخر مني الكثيرون، واعتبروني مجنوناً أو «غير واقعي» في أفضل الأحوال، عندما تصدَّيت لنظام مبارك الفاسد، وبدأت أقول إن الفيل المصري بدأ يتململ، ثم بدأ يتحرك، وأؤكد أن هذا الفيل بطيء

الحركة فعلاً، لكنه عندما يبدأ بالتحرك ستتسارع حركته ولن يتوقف قبل أن يحطم كل شيء أمامه، وهذا ما حدث ولله الحمد. وستتبع فيلة أخرى حتماً.

ختاماً، أتقدم بالشكر لكل من تحمَّلني وواصل معي هذه الرحلة حتى فصلها الأخير، وأستسمحكم عذراً إذا كنت قد أطلت، أو أغرقتكم بالتفاصيل، وسأتقبَّل حكمكم في نهاية المطاف، سلبياً كان أو إيجابياً، مع وعد بكتابة ما سيستجد من فصولها، إذا أطال الله عمرنا وبقيت هناك فصول تستحق أن تُروى، مع رواية ما تعذَّرت روايته في فصول سابقة من هذا الكتاب، لأسباب عديدة لا تخفى عليكم... أقول وداعاً، وإلى لقاء قريب ربما.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ملحق

في 29 تشرين الأول/أكتوبر 1956، اليوم الذي أطلقت فيه إسرائيل هجومها على مصر، بدأت وحدات من حرس الحدود الإسرائيلي في الساعة الرابعة مساء ما سمُّوه رحلة قرى المثلث. أخبروا مخاتير القرى وبلدياتها أن حظر التجول في تلك القرى سيطبَّق ابتداءً من ذلك اليوم ولاحقاً من الساعة الخامسة مساء وحتى السادسة صباحاً كما كان الأمر من قبل، وأن على السكان بالتالي البقاء في بيوتهم من تلك اللحظة.

من القرى التي مرَّ عبرها حرس الحدود، كانت كفر قاسم، وهي قرية عربية صغيرة تقع قرب مستوطنة بيتاح تيكفا الإسرائيلية. استلم القرويون هناك التنبيه في الساعة 4.45 مساءً، قبل 15 دقيقة من بدء تطبيق الحظر. مختار كفر قاسم أخبر ضابط الوحدة بسرعة أن عدداً كبيراً من أهل القرية، الذين يعملون خارجها، لا يعرفون شيئاً عن حظر التجول هذا. ردَّ الضابط المسؤول أن جنوده سيهتمون بالأمر. القرويون الذين كانوا في بيوتهم التزموا الحظر الجديد المفروض وظلوا داخل منازلهم. في تلك الأثناء، أخذ حراس الحدود المسلحون مواقعهم على مداخل القرية. بعد وقت قصير، ظهرت الدفعة الأولى من القرويين. أول دفعة منهم كانت جماعة من أربعة عمال، عائدين على دراجات هوائية. هذا ما ذكره واحد من هؤلاء العمال، عبد الله سمير بدير، عن الحادث:

وصلنا إلى مدخل القرية بحدود الساعة 4.55 مساء حيث واجهتنا فجأة وحدة من حرس الحدود تضم اثني عشر جندياً وضابطاً، كلهم موجودون في شاحنة عسكرية. قمنا بتحية الضابط بالعبرية قائلين «شالوم، كاستين»، أي «السلام عليك أيها الضابط»، فلم يردَّ علينا. ثم سألَنا بالعربية: «هل انتم مسرورون؟»، قلنا «نعم». وبدأ الجنود بعدها بالنزول من الشاحنة وأمرنا الضابط بأن نقف بطابور. ثم صرخ على جنوده بهذا الأمر: «لاكتاسور أوتيم»، ما معناه «احصدوهم»، فأطلق الجنود النار، لكنني حين ذاك رميت بنفسي على الأرض، وبدأت بالتدحرج، وأنا أصيح. ثم تظاهرت بأنني متٌّ. خلال ذلك، كان الجنود قد مزقوا رفاقي الثلاثة بالطلقات لدرجة أن الضابط المسؤول أمرهم أن يوقفوا إطلاق النار، مضيفاً أنهم يقومون بهدر الطلقات. عبَّر عن ذلك بالقول إننا أخذنا أكثر من الجرعة الضرورية من الطلقات المميتة.

«كل هذا حصل وأنا مستلقٍ، متظاهراً بالموت. بعد ذلك رأيت ثلاثة عمال يقتربون على عربة صغيرة يجرها حصان. أوقف الجنود العربة وقتلوا ركابها الثلاثة. بعد ذلك بوقت قصير، تحرك الجنود عدة أمتار نحو الطريق لأخذ

وضعية تسمح لهم على ما يبدو بإيقاف شاحنة مليئة بالقرويين العائدين، إضافة إلى مجموعة من العمال العائدين لبيوتهم على الدراجات. انتهزتُ الفرصة وتحركتُ بأسرع ما يمكنني إلى أقرب منزل. رآني الجنود وأطلقوا النار عليَّ. كنت قد وصلت إلى المنزل حين أوقفوا مجدداً شاحنة تحمل ثلاثة عشر من قاطفي الزيتون، كلهم من النساء والبنات، وعاملَين من الذكور وسائق. هجمت عليهم الوحدة نفسها وقتلتهم جميعاً باستثناء واحدة منهم».

وهذا ما ذكرته حنان سليمان عامر، ابنة السادسة عشرة، والناجية الوحيدة، عن هذا الحادث:

«أوقف الجنود عربتنا على مدخل القرية وأمروا العاملين والسائق بالنزول. ثم أخبروهم أنهم سيُقتلون. عند سماع ذلك، بدأت النسوة بالبكاء والصراخ متوسلات الجنود الإبقاء على حياة العمال. لكن الجنود صرخوا على النساء، قائلين إن دورهن قادم، وإنهنَّ أيضاً سيُقتلنَ.

نظر الجنود عدة دقائق إلى النساء، كما لو كانوا ينتظرون أمر الضابط. ثم سمعتُ الضابط يتحدث باللاسلكي، ليسأل، على ما يظهر، قيادته عن تعليمات تتعلق بتلك النساء. في اللحظة التي انتهى فيها الاتصال، وجَّه الجنود بنادقهم إلى النساء والبنات، اللواتي كن ثلاث عشرة، وكان بينهن حوامل (فاطمة داود صرصور كانت في شهرها الثامن) إضافة إلى نساء في الستين من العمر وفتاتَين في الثالثة عشرة من عمرهما (لطيفة عيسى ورشيقة بدير)».

ثلاث سيارات أوقفها حرس الحدود الإسرائيلي؛ والناس الذين كانوا على متن هذه السيارات أُمروا بالخروج منها وأُطلق عليهم رصاص الرشاشات، بحيث قتلوا مباشرة.

مع انتهاء المجزرة عملياً، تنقَّل الجنود للقضاء على من بدت عليه أي إشارات حياة. بعد ذلك، عند فحص أجساد القتلى، تبيَّن أن الجنود قاموا بالتمثيل بها، بكسر الرؤوس وفتح بطون بعض النساء الجريحات لإنهاء حياتهن. الناجيان الوحيدان كانا من الذين دفنوا تحت جثث رفاقهم حيث غطَّتهم دماء الضحايا، بحيث بدوَا، هما أيضاً، ميتَين. هذان كانا الوحيدان اللذان نجيا ليتحدثا عن أهوال مجزرة كفر قاسم.

استمرت المجزرة لساعة ونصف الساعة، وقام الجنود بنهب ما استطاعوا أن يجدوه، على ما يبدو، خلال جولاتهم على الأجساد للتأكد من أن أحداً لم يعد حياً. ثلاثة عشر من هؤلاء الناس البؤساء أغمي عليهم فقط حين أُطلق الرصاص عليهم، وقد أُخذوا إلى مشفى بيلينسون إضافة إلى مشافٍ أخرى. واحد من هؤلاء الجرحى كان عثمان سليم، الذي كان موجوداً على إحدى الشاحنات. لقد شهد المجزرة، ونجا منها بالتظاهر بالموت بين كتلة من

الجثث. أسعد سليم، الذي كان يركب دراجة، أصيب بجروح بليغة، وكذلك الأمر بالنسبة إلى رحمن يعقوب صرصور، وكان صبياً في السادسة عشرة من عمره، وهو أصم وأبكم. الوحيد الذي نجا من الموت ووصل إلى كروم الزيتون كان إسماعيل عقاب بديرة، وكان في الثامنة عشرة من عمره، والذي اعتنى بجراحه حتى وصل إلى هناك، ثم تسلق شجرة زيتون رغم آلامه. بقي هناك ليومين إلى أن مرَّ به راعٍ وأخذه معه إلى المشفى حيث بُترت إحدى ساقيه بسبب الغنغرينا.

حمام الدم لم يكن مقصوراً على مدخل القرية أو أطرافها، بل انتقل إلى داخل القرية نفسها. طلال شاكر عيسى، الذي كان في الثامنة من عمره، ترك بيته لإحضار قطيع من الغنم. بالكاد خطا خارج المنزل حتى قتله أحد الجنود بطلق ناري. حين خرج والده للتحرِّي عما حصل، قُتل بدوره. الأم التي حاولت أن تُدخل جثته إلى المنزل قُتلت هي الأخرى. نوال، الطفل الثاني، تتبعت صوت الصرخات التي أطلقها أهلها قتلت كذلك مباشرة بسيل من الطلقات. الناجي الوحيد في العائلة، وهو جد ضعيف عجوز، حين سمع صرخات الرعب والموت، أصيب بنوبة قلبية وتوفي على الفور.

المصدر: كول هآم، 19 كانون الأول/ديسمبر 1956، «كيف تمَّ ذبح 49 من سكان كفر قاسم»، والذي غالباً ما يُستشهد به على الإنترنت، على سبيل المثال:

/http://www.ntcsites.com/palestine/statistics

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تم الكتاب بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

نبذة عن المؤلف

عبد الباري عطوان كاتب ورئيس تحرير جريدة القدس العربي في لندن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

المحتويات..

عن الكتاب..

قيل في الكتاب

الإهداء

مقدمة الطبعة العربية

1. مشينا على الأشواك

الاحتلال
الطرد
الولادة... على الطريقة الفلسطينية
القرار 194
مدرسة المشاغبين
تهديد
سلطة الكتابة
البقاء على قيد الحياة
ترفيه من نوع مختلف
أكبر من الحياة
والدي
مخيم رفح للاجئين
مذبحة

2. النوم على السطوح

قرار الخروج
عمَّان
علاقة مضطربة
عمل شاق
أفق للتحسن
قوة دافعة

3. تعليم قاهري

الإسكندرية
وفاة جمال عبد الناصر
القاهرة
جامعة المعارضة

حب أخوي
خارج البيت
معجب مخلص
خبرة عملية
يوم بعيد
لا مكان للذهاب إليه
4. تنقلات مهنية
وظيفة خطرة
عبر الصحراء
هدية من القذافي
السعودية
صحيفة «الشرق الأوسط»
مسيرة من أجل فلسطين، 1979
صوت أميرة
5. تجربة صحافية مريرة
مشاكل في التوزيع
ثورة الإعلام العربي
مشاكل مع الراقصات
رئيس في حقل ألغام
القذافي وخيمته
لقاء مع ملك الأردن
صدام حسين وأنا
قيادة السفينة الغارقة!
هجمات 11 أيلول/سبتمبر 2001
تحت الضغط
حزب العمال والبي بي سي
المقارنة الأكثر وضوحاً تاريخياً هي مع جنوب أفريقيا العنصرية.
لوبي يهودي ماكر
قناة الجزيرة
وجه معروف
6. صدمة ثقافية
لا جنس رجاء، نحن بريطانيون
عنصرية بريطانية
معركة في الصالون

معارف
ردم الفجوة
أنا وإدوارد سعيد
محمود درويش
قضايا مالية
اليسار المعتوه
أكاديميا
عطوان، الرجل المتزوج
تغيير
7. بيروت على التيمس
مركز عبد الباري لاستشارات المواطنين
المطرب الإسلامي المعتزل
الجهاد يصل إلى نيسدين
طواويس
8. أسامة بن لادن
عش النسر
نتائج
اغتيال غامض
سفراء وصحافيون وأمراء
تكريم مفقود
عطوان والبزنس
رفيق الحريري
الحريري وحزب الله
منع من الدخول!
9. ياسر عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية
حرب الخليج
أصدقاؤه بين القادة
بين الناس
عرفات وأسامة ين لادن
سها عرفات
بغل هرم
حياة عصرية
واقعة دبلن
الهند

نهاية اللعبة
10. حقُّ العودة
بلاد جميلة
يوم على الشاطئ
مستوطنون
الشهرة أخيراً
التأقلم
مخيم دير البلح للاجئين
في رحاب الأقصى
نجاة بصعوبة
غزة، 1999
لا فرصة لتقول وداعاً
محاصَر
11. خاتمة الرحلة
ملحق
نبذة عن المؤلف